

عصر
الدول والإمارات
لبيبا- تونس- صقلية

تاريخ
الأدب العربي

٩

عصر
الدول والإمارات
ليبيّا-تونس-صقلية

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دارالمعارف

بطاقة فهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

- ضيف، احمد شوقي عبد السلام؛ ١٩١٠ - ٢٠٠٥ .
عصر الدول والإمارات : ليبيا - تونس - صقلية .
تأليف : شوقي ضيف .
ط ٢ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٩ .
٤٤٨ ص : ٢٧ سم - (تاريخ الأئمة العربى ؛ ٩) .
تعداد : ٢ - ٧٣٠٤ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨ .
١ - تونس - تاريخ قديم .
٣ - ليبيا القديمة - تاريخ .
٢ - العلم القديم - تاريخ .
١) العنوان .
٢) السلسلة .

ديوى ٩٣٩

١/٢٠٠٩/٦

رقم الإيداع ٤٩٣٦ / ٢٠٠٩

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع .

هاتف: ٢٥٧٧٧.٧٧ - فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي قبل العصر الحديث خاص بليبيا وتونس وصقلية، وقد بدأته بليبيا، فتحدثت عن جغرافيتها ومناطقها: طرابلس وقرّان وبرقة، وعن زروعها وصناعاتها وتجارتها وموانئها، كما تحدثت عن تاريخها القديم وفتح العرب لها، وسطوع شمس الإسلام بديارها، وعن ولايتها أيام الأمويين والعباسيين وتبعية ولاية طرابلس وقسمها الغربي للدولة الأغلبية، وتبعية برقة وقسمها الشرقي لوالى مصر، وتبعتها معاً للدولة العبيدية الفاطمية في المهديّة والقاهرة، وتسترجع الدولة الصنهاجية في القيروان طرابلس، ويؤسس بها لنحو نصف قرن بنو خزرون إمارة لهم، وتكنسح ليبيا الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجرى، وتتبع برقة مصر في أيام الأيوبيين والمماليك، بينما تتبع طرابلس الدولة الحفصية في تونس، وتتأسس بها دولة بنى عمار في القرن الثامن الهجرى (٧٢٤ - ٨٠٣هـ) وتسترجعها الدولة الحفصية، ويستولى عليها فرديناند ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م ويُسلمها بعده شارل الخامس إلى فرسان مالطة سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م ويطردهم منها الأسطول العثماني سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م، وتصبح ولاية عثمانية ويتولاها دايات مختلفون حتى إذا وليها أحمد القرمانلى سنة ١١٢٣هـ/١٧٩٥م جعلها وراثية في أبنائه. وفي سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م استردتها الدولة العثمانية من الأسرة وحوّلتها من إيالة إلى ولاية، وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وقد سكن ليبيا - من قديم - سلالات من البربر، ويقسمها النسابون إلى برانس، وهم الحضر أهل المدن، وبتروهم الرّحل أهل الهضاب والصحارى، ونزلها قديماً الفينيقيون والإغريق والرومان وبعض اليهود والزنج، ثم نزلها العرب ومن تألفت منهم جيوشهم من أهل إيران والعراق والشام ومصر، وهاجر إليها أندلسيون كثيرون بين القرنين السابع والحادى عشر للهجرة. ونزلتها حاميات تركية في العهد العثماني، وألقى إليها القراصنة ببعض أسراهم المسيحيين، وأسلم منهم كثيرون. وكل هذه العناصر انصهرت في البوتقة الليبية وظل العنصر

الليبي البربري - مع ما حدث له من بعض التطور - هو العنصر الغالب على كل العناصر الوافدة على دياره. ومن قديم كانت التجارة رائجة رواجاً كبيراً في برقة وطرابلس، مما جعل الإغريق يحتلون الأولى ويؤسسون بها مدناً تجارية متعددة، كما جعل الفينيقيين والرومان يحتلون - بدورهم - طرابلس. وكان الساحل الشمالي يموج بمصايد الأسماك فيه، وكان ما وراءه من المدن والسهول والوديان يحتفظ بأشجار الزيتون والنخيل والفواكه والزروع والحبوب، واكتظت الواحات بالنخيل وأنواع التمور والفواكه، وامتألت الهضاب والصحارى بمراعى الأغنام والأنعام. وتلتقى بصناعات يدوية كثيرة وخاصة صناعة النسيج والزجاج وعصر الزيت ودبغ الجلود وقطع الرخام: طبيبات كثيرة من الرزق. وكان البربر وثنيين ونزل بديارهم اليهود وكانت لهم بطرابلس حارة خاصة بهم، واستجاب بعض أهل المدن في عهد الرومان وبيزنطة للمسيحية. وكان بينهم أرثوذكس يتبعون كنيسة القبط في الإسكندرية وكاثوليك يتبعون كنيسة روما البابوية. وما إن نزل الإسلام ليبياً حتى أسرع جماهيرها إلى اعتناقه، وآثرت دائماً مذهب مالك السنن واعتنق المذهب الإباضي جبل نفوسة وبعض أهل طرابلس. ومعروف أن الدولة العثمانية كانت تعمل على إشاعة مذهب الإمام أبي حنيفة في الولايات التابعة لها، غير أن مذهب مالك ظل في ليبيا - مثل جميع بلاد المغرب - هو المذهب العام للجماهير الليبية. وقد نزع كثير من أهل ليبيا إلى الزهد، وشاعت بينهم في الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

وأخذت الحركة العلمية تنشط في ليبيا منذ الفتح، إذ لم يكن الفاتحون غزاة يبتغون المغانم، إنما كانوا مجاهدين في سبيل الله يبتغون نشر دينه في أرجاء الأرض، ولذلك كانوا بمجرد الفراغ من الفتح يتحولون معلمين يهدون أهل الشعوب المفتوحة للإسلام وتعاليمه مع تحفيظهم لبعض آياتٍ وسورٍ من الذكر الحكيم، وسرعان ما كانوا ينشئون لهم المكتاتيب - كما حدث في طرابلس - يعلمونهم فيها مبادئ القراءة والكتابة ويحفظونهم القرآن ويرشدونهم إلى تعاليم الإسلام. وأخذت حلقات العلماء تكثر في المساجد بالمدن والقرى، وبالتدريج أخذوا يعنون بتفقيه الناس في الدين وتعريفهم بالعربية وقواعدها السديدة في النطق والتعير. ولم يلبث أن رحل إلى المشرق بعض الليبيين في طلب العلم. واشتهر في كل مدينة ليبية بعض العلماء، وظهر في كل علم أئمة كبار، ونمت العلوم اللغوية والإسلامية. ودار الزمن دورات، وازدهرت تلك العلوم في عهد الدولة الحفصية وساعد على ازدهارها نشوء المدارس والزوايا، وخدمت الحركة العلمية في العهد العثماني، أو بعبارة أدق أصابها شيء من الركود.

وإذا أخذنا نراجع العلوم والعلماء على مر الزمن لاحظنا أن ليبيا لم تعرف بنشاط في علوم الأوائل ولكنها عرفت ذلك في العلوم اللغوية والدينية، إذ لمع فيها - طوال القرون الإسلامية - علماء مختلفون مثل الأجدابي اللغوي في القرن الخامس الهجري ومومن بن فرج

المقرئ في نفس القرن الخامس والمقرئ على بن عبد الحميد العوسجي في القرن العاشر وفي التفسير الخروبي في نفس القرن العاشر. ونبغ في الحفاظ المحدثين أسرة أحمد بن صالح العجلي في القرن الثالث وابن زكرون وأحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع وابن عبيد في القرن السابع، ولمع في الفقه السني موسى بن عبد الرحمن القطان في القرن الثالث وابن المنمر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع والزليطني في القرن التاسع، ومن نبغ في الفقه الإباضي عمرو بن النفوسى في القرن الثالث، وأحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة في القرن الخامس وعلى بن يخلف التيمجاري في القرن السادس والجيطالي والشماسي في القرن الثامن. وظهر بليبيا بعض المؤرخين.

وقد تعرّبت ليبيا سريعا لكثرة من نزل بها من القبائل العربية ومن الجند الناشرين للإسلام، وأكملت تعريبها هجرة الأعراب الكبرى من بني سُلَيْم وبني هلال في منتصف القرن الخامس الهجري، إذ امتزجت عشائر القبيلتين أو بعبارة أدق من استقرّ منها في ليبيا بأهلها من البربر، وأصبحوا شعبا عربيا كبيرا في تقاليد وعاتاته وملابسه ومطامعه وأفراحه وأحزانه وأخلاقه وشيمه وفروسيته ومروءته ونجدته، وكان طبيعيا أن تنتصر العربية لغة الدين والثقافة أثناء ذلك على اللغة البربرية انتصارا حاسما، ويشهد الرحالة الكبير العبدري لأهل برقة بالفصاحة، ويؤكد أنهم كانوا - حتى زمنه - في آخر القرن السابع الهجري - لا يزالون يتكلمون بالفصحى بأنصع وأدق مما ينطق بها ويتكلمها أهل الحجاز، ولا تزال لغة برقة - إلى اليوم بشهادة بعض المعاصرين - قريبة قريبا شديداً من أمّها الفصحى. ولم تحدث في ليبيا نهضة أدبية واسعة قبل عصرها الحديث، ومرجع ذلك - في رأينا - إلى أنه لم ينشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء، ولا نشأ بها ديوان إنشاء يحدث فيها حركة نثرية أدبية، ولا كان فيها رعاة للشعر يجزلون العطاء للشعراء. ويلمع فيها بأخرة من القرن الثالث الهجري شاعر طرابلسي يسمى خليل بن إسحق وبلتحق بحاشية العبيديين في عاصمتهم مدينة المهديّة، ويلمع بها في القرن السابع الهجري فتح بن نوح الإباضي وابن أبي الدنيا وابن معمر، كما يلمع في العهد العثماني البهلول الطرابلسي، وله ديوان في المديح النبوي، وألمع شاعر بعده أحمد بن عبد الدائم. وتذكر كتب التراجم - من حين إلى آخر - لبعض الكتاب الليبيين رسالة أو مقامة مكتفية بمثل هذه الإشارة دون أن تعرضها على القارئ، وكان فتح بن نوح الإباضي نائراً مجيداً، كما كان شاعراً مجيداً.

٢

وتركّت ليبيا إلى القطر التونسي قلب إفريقية النابض، فتحدثت عن جغرافيته وتاريخه المفرق في القدم وفتح العرب له واعتناق أهله الدين الحنيف وعن ولاته الأولين وفي مقدمتهم عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس. ومن أهم ولاتها في القرن الثاني. عبدالرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع المستولى على جزيرة قوصرة في البحر المتوسط. ومن ولاتها بعده يزيد بن حاتم المهلبى وقد أحدث بها حركة أدبية نشيطة. ولم يلبث أن تولاه إبراهيم بن الأغلب وجعلها الخليفة هرون الرشيد وراثية في أبنائه، وافتتحت تلك الدولة صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونشرت بها أضواء الإسلام والعروبة كما نشرتها في مالطة بعد فتحها سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م. وتخلّفها الدولة العبيدية سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م إلى أن انتقل المعز العبيدى الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وخلفه في الإقليم التونسي الدولة الصنهاجية وظلت تستشعر ولاءها للدولة الفاطمية في القاهرة إلى أن أعلن حاكمها الصنهاجى المعز بن باديس استقلاله عن مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م وقيل بل في سنة ٣٩ أو أربعين، مما جعل الخليفة الفاطمى المستنصر يسلط عليه أعراب بنى هلال وسليم، وكانوا قد نزلوا شرقى الصعيد وعاثوا فيه فساداً فنزحوا إلى ليبيا وإفريقية التونسية كجراد منتشر، ونازلوا المعز واضطروه إلى الانحياز إلى مدينة المهديّة، واستقل بعض الولاة بمدنهم وأقاليمهم. وبذلك شاع في إفريقية التونسية نظام أمراء الطوائف مثل بنى جامع الهلاليين في قابس وبنى خراسان في تونس. وفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م نزل الساحل التونسي ومدينة المهديّة روجار الثانى النورمانى وطرده عبد المؤمن الموحدى بعد اثنتى عشرة سنة، وعاث في أرجائها قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وأنقذ البلاد منهم الموحدون والدولة الحفصية، وعاشت لعهد الحفصيين في رخاء وأمن، وحاصر تونس لويس التاسع وقبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد نهضة علمية وأدبية طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٥م وخلّصها منه بعد نحو أربعين عاما الأسطول العثمانى سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م وتبعت الدولة العثمانية، وتوالى عليها البايات، ومن خيرهم مراد باى وأسرته، والباى حسين بن على وأسرته.

ويزخر المجتمع التونسى - بجانب سلالات البربر - بعناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجية وزنجية ويهودية ورومانية وألمانية من الوندال وبيزنطية وعربية وممن امتزج بهم العرب من إيران والشام ومصر وأيضاً عناصر أندلسية وتركية ومسيحية ممن جلبهم القراصنة، وامتزجت هذه العناصر وكونت الشعب التونسى وظل للعنصر البربرى فيه الغلبة مع ما حدث

له من صور تطور مختلفة إذ ظل يفرض هويته وشخصيته على كل ما وفد عليه من عناصر. وهياً الإقليم التونسي دائماً لسكانه رخاء واسعا قديماً وحديثاً من الزروع وأشجار الزيتون والنخيل من الفواكه والصناعات مثل صناعة الزجاج والبلور والخزف وعصر الزيت والمنسوجات والسجاجيد والوراقة وكل ما يلزم المنشآت العمرانية من فسيفساء وتفنن في الزخرفة وضروب التجارات من منتوجاتها ومنتوجات ما يرد عليها من إفريقيا السوداء ومن أوروبا إذ كانت سوقا عالميا ضخماً. وأهلها ذلك لرفه واسع في الحياة وفي المطعم والملبس واحتفالات عظيمة بالأعياد ولاهتمام بالموسيقى والعزف على آلات الطرب والغناء في الحضر وعند أهل الوبور. وحظيت المرأة في المجتمع التونسي بمكانة كريمة جعلتها تستشعر كرامتها وشخصيتها إلى أقصى حد، كما جعلتها تستشعر حمايتها لوطنها حين تدلهم به الخطوب، مع برهنتها على حصافتها وكياستها السياسية. وكان البربر - قديماً - وثنيين ونزل بينهم يهود في القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعده، وحاولوا نشر ديانتهم فيهم ولم يتبعهم إلا القليل. واستولى على ديارهم الرومان وحاولوا - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر المسيحية بينهم، وبُنيت بعض كنائس وأسقفيات، واعتنقها بعض البربر في المدن الشمالية، وظلت عناصر مسيحية - فيما بعد - تنزل البلاد وخاصة من الصقالبة ومن كان يجلبهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين الوحيد الذي عم إفريقيا التونسية بعد الفتح العربي بحيث أصبح دين الأمة التونسية - بل الأمة البربرية جميعاً - لبساطته وتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ومحوه الفوارق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الشعوب. وكانت إفريقيا التونسية دائماً سنية، واختارت مذهب مالك الفقهى وعاش بجانبه المذهب الحنفي حتى نهاية القرن الثالث، وعم مذهب مالك بعد ذلك حتى إذا كان العهد العثماني عاد المذهب الحنفي معه إلى الظهور، ولم تنجح في إفريقيا التونسية دعوة الإباضية ولا دعوة العبيدين الشيعية، وكثر فيها الزهد والزهاد، كما كثرت الرباطات لحراسة البلاد على السواحل وظل النساء لا يبرحوها، وكثرت بأخرة الطرق الصوفية.

ومنذ القرن الأول الهجري ينشر الفاتحون في القطر التونسي تعاليم الإسلام وشريعته السمحة في معاملة الأمم المفتوحة، بحيث يصبح من أسلم منهم على قدم المساواة مع العربي الفاتح، ويقبل البربر على اعتناق الإسلام، وينشأ جيل من مواليد إفريقيا التونسية من البربر والعرب ينقض انقضاضاً على حلقات العلماء في المساجد ويأخذ كل ما لديهم، ويطلب نفرته المزيد، فيرحل إلى المشرق للقاء الإمامين الكبيرين أبي حنيفة ومالك، ويحمل مذهبيهما إلى العاصمة: القيروان وإلى تونس. وتنمو في القيروان حركة أدبية ولغوية. وساعد في ازدهار الحركة العلمية بإفريقيا التونسية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبية في القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشئ - أيام الحفصيين - من مدارس ومكتبات. ولم يبق علم

إلا عنيت به إفريقية التونسية، ونبدأ بعلوم الأوائل فقد أسس لها إبراهيم بن أحمد الأغلبى في عاصمته رقادة بجوار القيروان مدرسة كبرى باسم بيت الحكمة نبغ فيها أطباء عظام كان لهم ولتلاميذهم تأثير عظيم في الغرب، وينبغ في العهد الصنهاجى فلكى كبير كان له أثره في علم الفلك الغربى، وتؤسس تلك الدولة مدرسة في الكيمياء، وتلتقى في عهد الدولة الحفصية بكيميائى كبير هو التيفاشى كما نلتقى بأطباء ورياضيين مختلفين وأيضاً ببعض الجغرافيين، ويتكاثر اللغويون والنحويون في العهد الصنهاجى ويلمع من بينهم عالمان لغويان كبيران هما القزازوله معجم ومؤلفات لغوية كثيرة وعبد الدائم بن مرزوق حامل شعر أبى العلاء المعرى إلى القيروان والأندلس كما يلمع الحصرى بمختراته الشعرية والنثرية في كتابه زهر الآداب، ويضع ابن عصفور في العهد الحفصى أسساً قوية لمدرسة نحوية تونسية ويقود ابن رشيق بكتابه: «العمدة في صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية وبلاغية واسعة لافى إفريقيا التونسية وحدها بل في جميع المغرب. وكان علم القراءة للذكر الحكيم نشيطاً إلى أقصى حد، ونقل ابن خيرون قراءة ورش المصرى عن نافع قارئ المدينة، وهى القراءة المنتشرة في جميع بلدان المغرب إلى اليوم، ولم يلبث أن ظهر في القراءات إمام كبير هو مكى بن أبى طالب، ومن أعلام القراء في العهد الحفصى الليبى وابن بدال وفى العهد العثمانى باطاق. ومن أوائل المفسرين للذكر الحكيم عكرمة مولى ابن عباس ويحيى بن سلام، ومن كبار المفسرين في العهد الصنهاجى على بن فضال وفى العهد الحفصى ابن بزيزة وفى العهد العثمانى محمد زيتونة. ويتكاثر المحدثون منذ القرن الثانى الهجرى، ومن أهمهم البهلولى بن راشد، ومن كبار المحدثين القابسى في القرن الرابع والمازرى في القرن السادس ومحمد بن عمر الأبيّ في القرن التاسع ومحمد بن برناز في العهد العثمانى. ويتعايش في الفقه المذهب الحنفى والمالكى في القرنين الثانى والثالث، ومن فقهاء المذهب الحنفى عبد الله بن فروخ ومن فقهاء المذهب المالكى على بن زياد حامل كتاب الموطأ عن مالك وسحنون المشهور صاحب المدونة التى حملها عن عبد الرحمن بن القاسم في الفسطاط تلميذ مالك. ومن حملة المذهب الكبار في القرن الرابع ابن أبى زيد. وكُتب له أن يسود ويعم جميع بلدان المغرب منذ حمل المعز بن باديس الصنهاجى الفقهاء والناس عليه. ومن أهم فقهاء المازرى المذكور بين المحدثين وابن بزيزة المذكور بين المفسرين وتلميذه محمد بن عبد السلام أستاذ ابن خلدون وابن عرفة. ويجعل العثمانيون الفتوى بيد الفقهاء الأحناف ولهم الكلمة العليا في القضاء واشتهر بينهم غير فقيه كما اشتهر غير قليل من فقهاء المالكية مثل محمد الحجيج وله حاشيتان على مختصر خليل في الفقه المالكى.

وكل ما كان يدور في المشرق من جدل في المذاهب الكلامية كان يدور مثله في القيروان، وقد تجادلوا طويلاً في مذاهب الخوارج ومبادئ الإرجاء وما تجادل فيه المعتزلة مع غيرهم في مسائل

القدر وهل القرآن قديم أو حادث مخلوق، والتشبيه على الذات العلية. واشتد الجدل بين الفرق في جامع عقبة واشتدت ضوضاؤهم مما اضطر سحنون حين ولي القضاء إلى تفريق حلقاتهم فيه وإبطالها، ومن كبار المتكلمين سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد وله منازلات ضارية مع دعاة العبيديين الشيعة ودائماً هو الغالب المنتصر. وشاع من قديم المذهب الكلامي الأشعري، وكانت له الغلبة في العصور التالية.

وازدهرت الكتابات التاريخية مبكرة في القيروان عن مغازي إفريقية وأخبارها وحروبها وعن الدولة الأغلبية، وعنى بعض المؤرخين بتاريخ الدولة العبيدية وسيرة مؤسسها عبيد الله المهدي، وتكاثرت الكتابة عن علماء إفريقية التونسية كما يلقانا عند أبي العرب والحشني، وللرقيق القيرواني كتاب في تاريخ إفريقية والمغرب، ولابن رشيقي كتاب نفيس في تراجم الشعراء باسم أنموذج الزمان، وللمالكي رياض النفوس في علماء إفريقية وزهادها، وللديباغ كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان وعليه تعليقات لابن ناجي، وللتجاني رحلة مشهورة تكتظ بالعلماء والأدباء في البلاد التونسية، وليحيى بن خلدون كتاب في تاريخ بني عبد الواد بتلمسان، وتتوَّج الكتابات التاريخية بتاريخ ابن خلدون ومقدمته النفيسة وما فيه من أخبار البربر. ويكتب ابن الهنتاتي عن تاريخ الدولة الحفصية وابن أبي دينار عن تاريخ إفريقية وتونس في كتابه المؤنس ومحمد السراج عن الأخبار التونسية في كتابه الحلل التونسية، وترجم حسين خوجة - في كتابه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان - لفقهاء البلدان الكبيرة في حقبة من حقبة العهد العثماني.

وقد عايشت اللغة البربرية لغتين متحضرتين: الفينيقية واللاتينية قرونا طويلة ولم تتحول إلى لغة متحضرة لها أبجديتها الخاصة وكتبها التاريخية، وظل من يتحضر منهم أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل في أيام الرومان. وكان كثيرون من البربر قبل الفتح العربي يحسن اللاتينية نطقاً وكتابة، وظلت بعد الفتح بقايا من ذلك. ولكن سرعان ما أخذت البربرية لغة الشعب بعد الفتح واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل فيها محلها العربية، وتظل البربرية حيّة في جزيرة جربة وفي البوادي والجبال، حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجري امتزج البربر والأعراب وكوّنوا شعباً عربياً مكتمل العروبة في اللغة والدين والملبس والمطعم والأخلاق والعادات والأحزان والأفراح، وكان هؤلاء الأعراب من بني هلال وسليم ينطقون عربية فصيحة، وظلوا ينطقون بها حتى القرن السابع الهجري، وكانت تشيع بجانبها عامية في ألسنة أهل المدن، وأخذ لسان هؤلاء الأعراب يتأثر بها مع طول السنين، ويقول ابن خلدون إنهم هجروا الإعراب لعصره في القرن الثامن الهجري ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلوم ولغة الأدب الرفيعة، وبث فيها المهاجرون الأندلسيون في القرنين السابع والحادي عشر روحاً وانتعاشاً.

ويكثر الشعراء في القطر التونسي منذ منتصف القرن الثاني الهجري بفضل ما أحدثته فيها واليها يزيد بن حاتم المهلبى من حركة أدبية واسعة بما صحبه إليها - ووفد عليه - من الشعراء، وكان إبراهيم بن الأغلب شاعرا، وبالمثل كثير من أهل بيته، فراج في القيروان سوق الشعر وازداد رواجه في عهد الخلفاء العبيديين وكانوا جميعا شعراء وأجزلوا لمادحيهم في العطاء، وينهض الشعر نهضة عظيمة في عهد المعز بن باديس الصنهاجى، وكان ينثر العطايا على مادحيه نثرا ويقال إنهم بلغوا مائة عداً، وألف ابن رشيق كتابه أنموذج الزمان لعهدده وترجم فيه لمائة من أفذاذ الشعراء وناميهم وجميعهم من معاصريه. وكان ابنه تميم جواداً ممدحاً وكان شاعراً وقصده الشعراء من جميع الآفاق: كما قصدوا ابنه يحيى وحفيده علياً وابنه الحسن، ولابن حمديس الصقلى وأمىة بن أبى الصلت الأندلسى في الثلاثة مدائح طنانة سوى من كان يحف بهم من شعراء القيروان. ويتنافس حكام المدن بعهد أمراء الطوائف في جمع الشعراء حولهم على نحو ما يصور ذلك العماد الأصبهاني في كتابه الخريدة، ومن ذكرهم من شعراء أبى الحملات مدافع أمير مدينة قابس سلام بن فرحان القابسى وهو من الشعراء المجيدين وذكر من شعراء جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة التراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، ومن الشعراء الأفذاذ لهذا العهد على المصرى المهاجر إلى الأندلس وأبو الفضل بن النحوى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر في العهد الحفصى. ويفد على مدينة تونس كثير من شعراء الأندلس ويستقرون فيها ويعشون فيها حركة شعرية خصبة مثل ابن الأبار وابن عميرة وحازم القرطاجنى وابن القصير. وأخذ الشعراء يتكاثرون في تونس مثل عنان بن جابر وابن عُرَيْبَة ومحمد بن أبى الحسين وابن الشباط وابن السَّماط وابن حُسَيْنَة والشهاب بن الخلوف. ويزاحم منذ القرن الثامن الشعر الشعبى الشعر الفصيح. ويضعف الشعر في أواخر العهد الحفصى وأوائل العهد العثمانى، وتبعث فيه هجرة الأندلسيين إلى الإقليم التونسى في القرن الحادى عشر الهجرى غير قليل من النشاط ويسترد حيويته ونضرتة في عهد الأسرة الحسينية على لسان أمثال على الغراب ومحمد الورغى ومحمد ماضور وتكثر فيه المعارضات الشعرية. ويتكاثر أعلام الشعراء في جميع أغراض الشعر وفنونه منذ الحقب التاريخية الأولى. ومن أعلام المديح على بن محمد الإيادى والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسى وابن عُرَيْبَة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى، ومن أعلام الفخر والهجاء تميم بن المعز الصنهاجى ومحمد الرشيد الحسينى، ويتكاثر شعراء الغزل من أمثال على المصرى وأحمد اللبباني ومحمد ماضور ومن شعراء الغربة والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبى الحسين، ويكثر شعراء الطبيعة من مثل عبدالواحد بن فتوح وابن أبى حديدة وأبى على بن إبراهيم، وبالمثل شعراء الرثاء للأفراد والمدن والدول مثل ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبدالسلام، ومن شعراء الوعظ أحمد الصواف وشعراء التصوف محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى ومن شعراء المديح النبوى

الشُّقْرَاطِسي وابن السماط المهدي. ومع كل غرض من هذه الأغراض ما يوضح نشاط الشعراء فيه من الترجمة لناهبيهم وعرض روائع أشعارهم.

ونهض النثر مبكراً في القيروان وتونس على لسان الولاة والقواد وتأسست الدواوين منذ القرن الأول الهجري، وانهض أبو اليسر الشيباني بالكتابة الديوانية لعهد الأغالبة نهضة عظيمة وكون فيها مدرسة، وأصبح لها فيها تقاليد متبعة، صورها الفلقشندي في صبح الأعشى، واحتفظ برسالة ديوانية في العهد الحفصي بليغة بلاغة رائعة. وكثرت الرسائل الشخصية منذ القرن الثالث الهجري بين استعطف وعتاب ومديح وهجاء واستمناح وعزاء، وهي مسجوعة، ودخلها في الحقب المتأخرة غير قليل من التكلف. وتلتقى ببعض مقامات، وهي لا تقوم على أديب متسول وحيله الكثيرة في جذب السامعين وإثارة عطفهم، وإنما تقوم على موضوعات أدبية يراد بها إظهار التفنن في الكتابة الأدبية. وترجمت لثلاثة من أهم الكتاب، هم أبو اليسر الشيباني رئيس ديوان الإنشاء في عهد الأغالبة، وإبراهيم الحصري صاحب زهر الآداب، وابن خلدون درة تونس الفريدة

٣

وانتقلت إلى جزيرة صقلية، فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح إفريقية التونسية لها في عهد زيادة الله الأغلب سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ونشر الدين الحنيف فيها ولغتها العربية وغزو الدولة الأغلبية فيها قلوورية جنوبي إيطاليا واستمرار استيلائها عليها إلى نهاية أيام الدولة الأغلبية وفتحها لجزيرة مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م ونشرها للدين الحنيف فيها واللغة العربية، ولا تزال إلى اليوم تتكلم لكنة عربية تونسية ودخلت عليها تحريفات كثيرة بحكم طول الزمن وما وقع على لغة مالطة من تأثيرات. وولى للدولة العبيدية على صقلية ولاة حكموها حكماً جائراً، إلى أن وليها الحسن بن أبي الحسين الكلبي سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م وظلت وراثية في أبنائه، وحكموها في القرن الرابع حكماً سليماً، واضطرب حكمهم، وساء سوءاً سيديداً في القرن الخامس، فثارت صقلية عليهم، واستحالت إلى أمراء طوائف وبلدان، وتجارب ابن الثمنة أمير بلرم مع أمير قصرية، وهزم فاستغاث بالنورمان حكام قلوورية، فأغاثه ملكهم روجار الأول، وسرعان ما تحولت الاستعانة به إلى الاستيلاء على مدينة بلرم سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧٢ م وما توافي سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ م حتى يكون قد استولى على جميع مدن صقلية. ويدور العام فيستولى على جزيرة مالطة سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م. ورأى روجار أن سعب صقلية العربي أكثر حضارة ومدنية من شعبه مع تفوقه عليه في شئون الزراعة والصناعة اليدوية، فأخذ يصانعه للإفادة منه وأخذ ما عنده مع التنكيل الغاشم به، وخفف ابنه روجار الثاني وحفيده غليوم الأول

من هذا التنكيل البشع، غير أنه من الخطأ ما يقال من أنها عاملا المسلمين في صقلية معاملة عادلة سمحة فإن ذلك إن صدق على تعاملها مع حاشيتها المسلمة في بلرم فإنه لا يصدق على معاملتها العامة للمسلمين في البلدان الأخرى على نحو ما يصور ذلك ابن جبير في رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول. واستحالت المعاملة السيئة إلى عسف لا يطاق حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصي، فاتفق سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م مع فردريك الثاني على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، فجلوا عنها جميعا، وأجلى فردريك من كان بمالطة من المسلمين أو بعبارة أدق أجبرهم على الجلاء عنها إلى مدينة أمالفي (Amalfi) جنوبي إيطاليا.

وقد عامل المسلمون - طوال حكمهم لصقلية - أهلها المسيحيين معاملة سمحة كريمة أقصى ما تكون السماحة والكرم، فحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية. وكان بصقلية ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية مساعدون للوالى يسمون قوادا، كما كان لها قضاة عدول ومجموعة من الدواوين، من أهمها ديوان المحاسبة، وكانت صقلية تزخر بطبيبات كثيرة من الرزق، فكان أهلها يعيشون في رخاء واسع بفضل زروعها وصناعاتها الكثيرة، وانتقلت إليها صناعة الورق من القيروان ونقلتها عنها أوربا، مما أتاح لغوتنبرج اختراع الطباعة. وولتقى في صقلية بنفر من الزهاد أمثال القاضي ميمون وابن أبي محرز وبيعض من لهم ميول صوفية مثل أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد البكري.

وقد فتح النورمان صقلية العربية الإسلامية حريبا وفتحتهم حضاريا، إذ رأوا -هم وملوكهم- سمو العرب المسلمين الحضارى، فحاولوا - بكل ما وسعهم - الإفادة من حضارتهم، ونكّل روجار الأول بالمسلمين تنكيلا شديدا، واضطرت هذه الحضارة أن يدفع ابنه روجار الثاني إلى تعلم العربية والإكباب على ثقافتها وعلومها، وأخذ الرومان يفيدون من نظم المسلمين وترتيبهم الإدارية في الجزيرة، واتخذوا لأنفسهم دواوين على شاكلة الدواوين العربية، واندفع غليوم الأول مثل أبيه إلى إتقان العربية ومعرفة علومها ودفع النورمان معه إلى اقتباس العلوم والفنون وعناصر الحضارة الإسلامية فتحضروا بعد أن كانوا متبدين، وانغمسوا في تلك الحضارة، ومع ذلك ظلوا يقسون على المسلمين ويحاولون بكل ما استطاعوا فنتتهم في دينهم الحنيف وازداد الظلم والعسف في عهد أباطرة الألمان، مما اضطر من بقى بصقلية من المسلمين إلى الجلاء عنها نهائيا.

ونقل العرب إلى صقلية الإسلامية ما كان بالقيروان من حركة علمية، فإذا الشباب فيها يكبُّ على ما لدى علمائها من علوم دينية ولغوية، ويرحل منهم نفر إلى القيروان والمشرق للتزود من علمائها، ويرحل إليهم كثير من علماء القيروان لتزويدهم بالعلوم والآداب ونشر

خاصة إلى رحلة ابن رشيق القيرواني بكتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده إلى صقلية، مما كان له أثر بعيد في نهضةها الأدبية لعهد الكليبيين وبعدهم، وهاجر إليها كثير من شباب الأندلس وعلماؤه للتعليم والتعليم، وبالمثل من علماء المشرق وأدبائه وكتب المشرق ودواوينه. ويقول ابن حوقل إنه كان في مدينة بلرم وحدها أكثر من مائتي مسجد وثلاثمائة معلم، مما يدل على أنه كان بها نشاط علمي واسع، ومثلها بقية المدن . وكان نحو نصف سكانها المسيحيين ففتين: فئة تتكلم الإغريقية، وفئة تتكلم اللاتينية، وربما كان في الفنتين من يتقن اللغتين جميعا، وكان فيها من يتقن العربية، كما كان بين العرب من يتقن اللاتينية أو الإغريقية، وأهل ذلك للاشتغال بترجمة بعض علوم الأوائل، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - أن الأمير إبراهيم الأغلبى مؤسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة بجوار القيروان طلب إلى بعض الرهبان الصقليين المتكلمين بالعربية ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية، كما يدل عليه طبيب صقلى يسمى أبا عبدالله كان يتقن الإغريقية ومعرفة أساء العقاقير والأدوية رحل إلى الأندلس في زمن عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) فضمه إلى من يشتغلون بالترجمة عن الإغريقية إلى العربية كتاب ديوسقوريدس في الأدوية أو الصيدلة والنباتات، ومما يدل على شهرة صقلية حينئذ بالفلسفة وعلوم الأوائل أن نجد بعض متفلسفة الأندلس يهاجرون إليها. وكان بها علماء رياضيون متعددون ومهندسون كبار بشهادة عماراتها السامقة ومن تتردد أسماؤهم منهم في الكتب. ورحل إليها غير لغوى من الأندلس ومن أشهر أبنائها ابن البرّ وقد أسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكى صاحب كتاب تثقيف اللسان في أغلاط العلماء وغيرهم، وهاجرت إلى صقلية دواوين كثيرة على يده ويد غيره كما هاجرت إليها كتب لغوية وبلاغية ونقدية كثيرة. وثلثى غير مقرأ للذكر الحكيم مثل محمد بن خراسان الصقلى وغير مفسر مثل ابن ظفر وغير حافظ محدث مثل عتيق السمنطارى. ويتكاثر بها الفقهاء من قضاة وغير قضاة، ومن أهم فقهاؤها البراذعى ومحمد بن يونس التميمي وعبدالحق بن محمد القرشى.

وإذا تحولنا مع الثقافة إلى العهد النورمانى وجدنا علوم الأوائل تظل ناشطة في صقلية ويعنى روجار الأول بترجمة الثقافة العربية ويتكفل بترجمة عيونها إلى اللاتينية القيروانية في الطب والفلك وغيرها قسطنطين الإفريقى، واشتهرت صقلية في هذا العهد بفلكيين ورياضيين ومهندسين كبار من تلامذة الأساتذة في العهد الإسلامى، وألف الإدريسى الجغرافى المغربى لروجار الثانى كتابين جغرافيين للعالم كبير وصغير وبها خرائط جغرافية مهمة، ووضع له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان حريبا بالإدريسى أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية الباهرة إلى حاكم عربى لا إلى حاكم نورمانى. وتظل العلوم اللغوية ناشطة في العهد النورمانى وتسجل كتب التراجم أسماء غير عالم منهم سوى من بارحوا صقلية فرارا من الظلم

النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى وعثمان بن على الصقلى نزىلى مصر وقد رحبت هى وأدباؤها وعلمائها بهم أيا ترحيب. وهاجر منها فى العهد النورمانى إمام كبير من أئمة القراءات هو ابن الفحام إلى الإسكندرية ومفسر صقلى مهم هو ابن ظفر وفقه كبير بل إمام من أئمة الفقهاء والحفاظ هو المازرى.

ويزدهر الشعر بصقلية منذ عهد الأسرة الكلبية فى القرن الرابع الهجرى، ولو أن كتاب الدرّة الخطيرة لابن القطاع الذى ترجم فيه لائة وسبعين شاعرا فى عهد الكلبين وصلنا لرأينا بوضوح مدى ازدهار الشعر فى أيامهم، وكأنه كان ينافس بهم شعراء الأنموذج لابن رشيق الذى ترجم فيه لائة شاعر. وقد وصلتنا منه اختيارات مبتورة لأبى إسحق بن أغلب تشمل على ثلاثة وأربعين شاعرا واختيارات أخرى لابن منجب الصيرى المصرى تشمل على تسعة عشر شاعرا وهى منشورة، وأهم من هاتين المجموعتين ما ضمنه العماد الأصبهانى فى كتابه الخريدة من اختيارات له من الدرّة بلغت سبعة وأربعين شاعرا، وأضاف إلى مجموعته شاعرا من كتاب أمية ابن أبى الصلت من شعراء العهد الكلبى ثم ضم إليها اثنى عشر شاعرا فى العهد النورمانى اختارهم من كتاب لابن بشرون المهودى يسمى المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر، وعرضت فى إجمال نشاط الشعراء فى عهد الأسرة الكلبية وأهم أمرائهم الذين التف حولهم شعراء صقلية والقيروان والجزائر. تم تحدثت عن موضوعات الشعر الصقلى بادنا بالمديح وما نثره شعراء صقلية على الأمراء الكلبين وعلى المعز بن باديس أمير القيروان وأمراء الطوائف من مدائح بديعة وما كان من تمجيد خلفاء هؤلاء الشعراء لملوك النورمان مكرهين إذ كانوا أسرى فى أيديهم فأشادوا بقصور روجار الثانى: القبة والمنصورية والفؤارة، وكل ذلك - فى رأى - على أمل أن يفكوا عنهم أغلال الأسر وقبوده، وترجمت لشاعر مهم من شعراء المديح فى عهد الكلبين هو ابن الخياط. وعرضت طائفة من غزليات بديعة لشعراء صقلية فى عهد الكلبين والعهد النورمانى، وترجمت لشاعر بارع فى نظم الغزل هو أبو الحسن البلىونى. وتحدثت عن شعر الفخر فى عهد الكلبين مع الترجمة لأبى الحسن الطوبى، وألمت بشعر الوصف وتصوير الشعراء الصقليين للطبيعة الفاتنة وللمغنين والراقصين وترجمت لأبى عبدالله بن الطوبى مع عرض تصاويره البديعة، وعرضت روائع الشعراء فى الرثاء مع الترجمة لمحمد بن عيسى ومراثيه وما أودع فيها من لظى نار متقدة، وألمت بما لشعراء صقلية من زهد فى متاع الحياة ومناجاة لربهم مع الأمل فى عفو ومغفرته، يوم يؤخذ العاصون بالنواصى ويسأل كل شخص عما قدمته يده، مع الترجمة لابن مكى ودعوته إلى العمل الصالح قبل الموت والعزلة عن الناس، بل حتى عن الزواج وتكوين الأسرة وما يصاحبه من عواصف. وآخر الموضوعات التى عرضتها التفجع والحنين واللوعة التى لا تنطفئ جذوتها أبدا فى نفوس المهاجرين من صقلية الذين لم يهاجروا منها طوعا، وإنما هاجروا قسرا وفرارا من جحيم ظلم

لا يطاق. وقد ترجمت لابن حمديس الذي عاش مغترباً عن وطنه، يتفجع عليه ويتوجع له ويئن ويحنُّ حينئذٍ ظامئاً دائماً إلى رؤية عشه وسكنه وكل يوم يأتيه ما يزيده بأساً من لقائه وحرماناً من رؤيته، وحاولت أن أرسوم حياته منذ خرج من فردوسه في الرابعة والعشرين من عمره سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى نهاية حياته غريباً في بجاية، وهو في أثناء ذلك يحاول أن يرسل إلى قومه في صقلية شعلاً من شعره تحمّسهم وتدفعهم دفعا إلى جهاد العدو الباغي. وتسقط في أيدي النورمان سرقوسة مسقط رأسه وقصريانة بعد نضال مستميت امتد سنوات، ويودعهما بقصيد جنائزية تسيل حزناً وألماً ويأساً مريراً، وظل يبكي صقلية طويلاً ويبكى معها راعيه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية حين نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات في مراکش، وتعاوده مراراً ذكرياته في صقلية وينرف الدمع عليها حاراً، ويلمع له شيء من الأمل حين ينتصر الحسن بن علي بن تميم أمير المهديّة على النورمان سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فيصوب إليهم قذيفة ملتهبة من مدحة له. وديوانه ضخّم وليس فيه هجاء فقد كان أكرم على نفسه من أن يؤذّي أحداً إلى وفاته سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ويكتظّ الديوان بكثير من المعاني والأخيلة المبتكرة. وهو يعد في الذروة الرفيعة من شعراء العرب قاطبة.

وتحدثت عن النثر في صقلية وكتابها البارعين، واحتفظ ابن بشرّون المهديّ فيما عقد من ترجمات لبعض شعراء صقلية برسائل لهم بديعة، وترجم ابن بسام في الذخيرة لكاتب بارع من كتابها قبل العصر النورماني، هو ابن الصباغ، وأفردت له ترجمة، وبالمثل لابن ظفر وعرضت له كتابين بارعين هما: أبناء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع. وألحقت بالحديث عن صقلية كلمة عن رحلة ابن قلاّس الإسكندري إليها وأشعاره فيها ومدائح لأعيانها ولغليوم الثاني وبعض قواده من النورمان، وربما اضطر إلى ذلك اضطراراً، وله في راعيه هناك أبي القاسم بن الحجر كتاب سماه: «الزهر الباسم» ضمنه مدائح فيه. والله أسأل أن يلهمني السداد والإخلاص في القول والفكر والعمل وهو حسبي ونعم الوكيل.

شوقي ضيف

القاهرة في ١٥ من أبريل سنة ١٩٩٢م

القسم الأول

ليديا



الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

ليبيا أول أقاليم المغرب الممتد على البحر المتوسط غرباً من مصر إلى المحيط الأطلسي، وتنقسم من قديم إلى ثلاث مناطق: منطقة مجاورة لمصر هي برقة، ومنطقة مجاورة لتونس هي طرابلس، ومنطقة جنوبي طرابلس وصحرائها المتسعة خلف جبالها هي فزان أو منخفض فزان. وعلى طول البحر المتوسط سهل ساحلي يتراوح بين نحو ميل وعشرة أميال أو يزيد قليلاً. ووراء طرابلس سلسلة جبال تسمى نفوسة غرباً ويفرن في الوسط وغريان شرقاً إلى أن تنقطع عند ترهونة في أواسط منطقة طرابلس. وتعود الجبال إلى الظهور في ساحل برقة من قرب بنغازي إلى درنة شرقاً وتسمى الجبل الأخضر. وتترامي وراء جبال طرابلس هضبة صحراوية متسعة بها جبال السوداء، ومنذ واحة غدامس في الغرب تصبح منطقتها ملاصقة للجزائر حتى أقصى الجنوب، وملتقى عنده بجمهورية النيجر. والهضبة تمتد إلى ما وراء الساحل والجبال في برقة وهي هناك رملية وترتكز على قواعد صخرية، وفي كثير من جهاتها تصبح أمواجاً متلاطمة من الرمال، وتمتد إلى شرقي مصر، وتترامي جنوباً حتى تتصل بالسودان في الجنوب الشرقي، وتلاصق تشاد في أقصى الجنوب. ومنطقة فزان في أقصى الجنوب إلى الغرب منخفض شديد الاتساع، وأعدّه ذلك من قديم لتكثر فيه الواحات والوديان. وتتميز ليبيا بكثرة الواحات، وتلقانا بكثرة في ساحل طرابلس من زاوية في الغرب إلى مصراته في الشرق، وملتقى بها في

أحمد زرقانه (نشر معهد الدراسات العالية بجامعة الدول العربية) وأطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس (نشر الزهراء للإعلام العربي - القاهرة).

(١) انظر في جغرافية ليبيا ومدنها كتاب المغرب في بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيدالكري، ومعجم البلدان لياقوت وكتاب وصف أفريقيا للحسن الوزان وكتاب المغرب الكبير لمحمد علي دبور وكتاب محاضرات في جغرافية ليبيا للدكتور إبراهيم

ساحل برقة عند بنغازى ودرنة، وتكثر في الداخل، وتلقانا على حدود مصر واحة جغبوب وغربها واحة أوجلة واحة جالو وإلى الجنوب واحة كفرة. والواحات كثيرة أيضا في الصحراء المترامية بمنطقة طرابلس مثل واحة غدامس غربا وبونجيم شرقاً ومزدة إلى الشمال وغات في أقصى الجنوب، وشمالها شرقى فزان واحة القطرون.

وإذا جاوزنا ساحل ليبيا والجبال وراه وجدنا المادة الغذائية للأشجار والنباتات قليلة فيما عدا الواحات التي تخلع فيها الصحارى الليبية ثيابها الرملية الصفراء وترتدى حلالا خضراء من حين إلى حين. ومن المؤكد أن في الشمال وفي مناطق قريبة منه مساحات كثيرة قابلة للزراعة. غير أن المياه بصفة عامة قليلة، مما يسبب قلة الزروع، وأكثر جهات ليبيا أمطارا ساحل منطقة طرابلس والجبال وراهها وساحل برقة من بنغازى إلى درنة وماوراءهما من الجبل الأخضر. وتقل الأمطار في خليج سرت وفي المناطق الصحراوية. ويمكن تلافى قلة الزراعة في ليبيا بتوفير مياه كثيرة لها عن طريق ثلاث وسائل: أولاها حفر آبار ارتوازية، ومعروف أنه يمكن أن تتعمق في الأرض إلى أكثر من مائة متر بينما الآبار العادية قلما تتعمق إلى أكثر من ثلاثة أمتار أو أربعة، وثانيها تركيب مراوح هوائية على الآبار تديرها الرياح السريعة التي تهبّ هناك، وثالثة تلك الوسائل إصلاح السدود والصحاريج والقنوات المطمورة التي كانت مبنية زمن الرومان أو محفورة للحفاظ على السيول المنحدرة من الجبال وعلى أمطار الشتاء المنهمرة حول المدن في الشمال وفي الداخل. ومن المؤكد أن الزراعة كانت مزدهرة بليبيا أيام الرومان، إذ كانوا يعدونها مخزناً لغلاتهم وحاجتهم من زيت الزيتون. ومن أهم أشجارها - بجانب أشجار الزيتون - أشجار النخيل، وخاصة في الواحات ويقال إن في واحة غات خمسين نوعاً من البلح الليبي، ومن أشجارها اللوز، وتكثر في الشمال كل أنواع الخضروات والفواكه والكروم، وتكثر في طرابلس الثمار الحمضية مثل البرتقال والليمون واليوسفى. وعلى الجبال والهضاب والأجزاء الصحراوية مراعى متسعة ترعى بها الإبل والبقر وقطعان الأغنام والحراف. والمعادن بليبيا كثيرة، فبجانب البترول المكتشف حديثا الكبريت ويشغل مساحة واسعة في خليج سرت، ولذلك يسمّى خليج الكبريت. ويوجد المرمر في غربى طرابلس وبنغازى ويوجد في الأخيرة الشب والفوسفات، وتشتهر فزان بالنظرون. والمظنون أن بليبيا معادن كثيرة مثل القصدير والرصاص والزنك والحديد. والمناخ في ساحل ليبيا مناخ البحر المتوسط المعتدل فيما عدا خليج سرت، فمناخه وخيم. وأكثر اعتدالا وأقل حرارة في الصيف مناخ الجبال وراه طرابلس وبرقة لارتفاع سفوحها ومصاطبها المختلفة، أما ما وراء الجبال من الهضاب والصحارى الداخلية فتشتد فيه الحرارة كلما توغّلنا جنوباً حتى لتصبح بعض الأنحاء في الصيف أشبه بحمامات عالية الحرارة، فضلا عما يهبّ فيها من هبّ متقدّ محمّل بغلالات ساخنة من التراب والرمل اللافح.

التاريخ القديم^(١)

تاريخ ليبيا المغرب في القدم يختلف باختلاف منطقتيها الغربية والشرقية: منطقة طرابلس ومنطقة برقة، ومعروف أن الفينيقيين ارتادوا ساحل طرابلس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بقصد التبادل التجاري مع أهلها الليبيين، وكانوا شعباً ملاحياً عريقاً يحترف التجارة، مما جعلهم يجوبون سواحل إفريقيا الشمالية وإسبانيا في القرن المذكور وبعده، وفي أول الأمر كانوا يقنعون بإقامات مؤقتة في أثناء تبادل العروض (السُّلع) التجارية مع شعوب الأقاليم والمناطق التي نزلوا فيها، ومع الزمن آثروا أن يقيموا لهم مدناً - أشبه بمستعمرات - ليتخذوها مراكز ثابتة لما يحملون وينقلون من عروض تجارية. وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أقاموا على ساحل طرابلس ثلاث مدن متقاربة، هي طرابلس، وكانوا يسمونها إيات Vaia وحرّفها الرومان فسمّوها أويا Oea وأقاموا غربها مدينة صبراته Sabrata في موضع العجيلات الحالية وسمّاها العرب صبرة ومعناها بالفينيقية سوق القمح، وهو اسم يرمز إلى ما استئول إليه المنطقة في عهد الرومان إذ سبّعونها مخزن قمح لهم. وأقام الفينيقيون شرقى أويا أو طرابلس مدينة لبتة Leptis في موضع مدينة الخمس الحالية.

وهذه المدن الثلاث سماها اليونان Tripolis أى المدن الثلاث وأطلق العرب هذا الاسم على أويا Oea فأصبح اسمها طرابلس، وسمّيت بها المنطقة جميعها فيما يقابل برقة في المنطقة الشرقية من ليبيا.

وإقامة الفينيقيين لهذه المدن الثلاث الكبيرة تشير بوضوح إلى نقلهم الليبيين نقلة كبرى من

للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ الفتح العربى للطاهر الزاوى وأعلام البيان له، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لأحمد النساتب الأنصارى وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجى وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس وتاريخ المغرب الكبير لمحمد على ديبوز وتاريخ ليبيا للدكتور إحسان عباس وليبيا بين الماضى والحاضر للدكتور حسن محمود.

(١) انظر في تاريخ ليبيا عامة فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ إفريقيا والمغرب للرفيق القيروانى (قطعة منه - طبع تونس) وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس لابن أبى دینار ورحلة التجانى والأزهار الرياضية فى أنمة وملوك الإياضية لسليمان البارونى وكتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية

حياة التجوال والرعى إلى حياة الاستقرار والزراعة، ويُظنّ أنهم أدخلوا إلى منطقة طرابلس زراعة الفواكه مثل الخوخ والتين والبرقوق والكروم، والنباتات التي تنتج الحنّاء والزعفران والشيح، وبعض الأشجار مثل أشجار اللوز وربما أشجار الزيتون أيضاً. وبذلك بثوا في مدن طرابلس نشاطاً زراعياً بجانب نشاطهم التجاري. وخلفهم في المنطقة بالقرن الخامس قبل الميلاد أبناء عمومتهم القرطاجيون، واتسعوا بالضربين من النشاط التجاري والزراعي في طرابلس. وفي عهدهم أخذت تنظّم الصلة بين مدن الساحل الطرابلسي الثلاث وبين الواحات الداخلية وغدامس وغات وفزان، بل أخذت القوافل التجارية تتغلغل في قلب إفريقيا وتنقل من تلك الأنحاء الرقيق والعاج وريش النعام، ويظنّ أن الواحات المذكورة أنفاً كانت تستشعر الولاء للقرطاجيين.

وتوالى الحقب حتى إذا اصطدم القرطاجيون بالرومان وقت الغلبة للأخيرين استولوا على طرابلس ومدنها من أيدي القرطاجيين سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وفي عهدهم ازداد ازدهار المدن الطرابلسية الثلاث ووجهوا حملة إلى غدامس وفزان استولت عليها، واتسعوا بالنشاط التجاري إلى قلب إفريقيا، وأرسلوا لذلك ثلاث حملات استكشافية، أولها لكشف مناطق طرابلس الجنوبية، والثانية لكشف أو اكتشاف السودان والثالثة لاكتشاف السودان الغربي. ويبدو أن أسراً رومانية كثيرة استوطنت منطقة طرابلس يدل على ذلك ما لا يزال إلى اليوم من كثرة الأطلال لمعابد وحصون وأبراج ومقابر وقنايل ونُصب عليها كتابات لاتينية متأكلة، ولا نلتقى بها في المدن الكبرى الثلاث: أويا وصيراته ولبدة فحسب. بل نجدها أيضاً في أماكن مختلفة على الساحل مثل ترهونة وفي مواضع مختلفة منها إلى طرابلس وأيضاً في الداخل مثل يفرن في المنطقة الجبلية الوسطى إذ على برج بها كتابات لاتينية، ومثل بونجيم إذ في الشمال مَبْنَى روماني كبير به كتابة لاتينية نقشت عليه سنة ٢٠١ للميلاد باسم الإمبراطور الروماني سبتيْموس سيفيروس Septimus Severus وكان قد ولد ونشأ في مدينة لبدة إحدى المدن الطرابلسية الثلاث المذكورة آنفاً، ثم رحل إلى روما ليكمل تعلمه وتطورت به الظروف إلى أن أصبح إمبراطوراً للدولة الرومانية، وقد أعفى أهل بلده الطرابلسية: لبدة من الضرائب الحكومية، وتقديراً منهم لصنيعه كانوا يهدون روما سنوياً كمية وافرة من الزيت، ويقال إنها حين ورّعت على سكان روما بعد وفاته سنة ٢١١ للميلاد كفتهم خمس سنوات. وحين اعتنقت روما المسيحية وعملت على نشرها في الولايات التابعة لها نشرتها أو حاولت نشرها في طرابلس لما كان بها من جالية رومانية كبيرة، وتدل على ذلك بعض الكنائس المطمورة في الأماكن الأثرية الرومانية. وعُتبت روما عناية واسعة بازدهار الزراعة في طرابلس إذ كانت تعدها - كما أشرنا - مخزنها الضخم للغلال ولزيت الزيتون وغير ذلك من الطيبات، وهو ما جعلها تكثر فيها

من القنوات لحمل مياه الأمطار من الجبال كما تكثُر من الخزانات والصحاريح والسدود على الوديان لحزن مياه الأمطار وتوزيعها على الزروع. وازدهار الزراعة - حينئذ - جعل القرى والبلدان تكثُر في الأنحاء الشمالية من منطقة طرابلس، كما جعل السكان يزدادون بها زيادة كبيرة.

وإذا كان الفينيقيون والقرطاجيون نزلوا طرابلس قديماً قروناً متعاقبة فإن اليونان هم الذين نزلوا برقة قديماً على نحو ما يحدثنا هيرودوت في تاريخه، إذ يذكر أن السكان اليونان ازدادوا زيادة كبيرة في إحدى جزر بحر إيجه، فأرسلوا في سنة ٦٥٠ قبل الميلاد بعثة منهم إلى الشاطئ الإفريقي في اتجاه برقة لعلها تجد لهم أراضى صالحة للزروع إليها، ونزلت البعثة في جزيرة بلاتيا بخليج بمه شرقى درنة، وبعد سنوات قليلة نزحوا منها إلى الشاطئ الإفريقي، وأسسوا به مدينة سيرين Cyrene (شحات الحالية) غربى درنة، ثم أسسوا أربع مدن أخرى غربيتها، هى على الترتيب Appollonise (سوسة الحالية) و Barca (سميت منذ القرن السادس الهجرى المرج مع أن المنطقة مسماة باسمها: برقة) و Arsimoenoe (طوكره الحالية) و Berenice (بنغازى الحالية) وأطلق اليونان على هذه المدن اسم بنطابلس Pentapolis أى المدن الخمس. وغلب على المنطقة جميعها اسم برقة كما ذكرنا وبالمثل غلب على منطقة ليبيا الغربية اسم طرابلس.

وظلت سيرين تعد مدينة برقة الأولى في عهد اليونان، ولذلك سموا أراضى الساحل حتى بنغازى باسم سيريناىكا. وعلى نحو عناية الفينيقيين والقرطاجيين والرومان بالتجارة في طرابلس عُنى بها اليونان في سيريناىكا أو برقة مما جعلها تنشط في عهدهم بين مدنها الخمس وبين الواحات الداخلية من جهة، وبينها وبين السودان من جهة ثانية، فكانت القوافل التجارية تسير منحدره وصاعدة بين بنغازى وسيرين في أقصى الشمال وواحات كفرة وأوجلة وفزان، ويتغلغل بعضها إلى السودان وخاصة إلى دارفور ووادى حاملة من هناك الرقيق وسنّ الفيل وريش النعام والكرم. وكانت برقة على علاقة حسنة مع مصر، وتوطدت هذه العلاقة بعد موت الإسكندر المقدونى وقيام دولة البطالسة بمصر إذ أصبحت جزءاً من دولتهم مما نشط تجارتها مع مصر إما عن طريق شاطئ البحر المتوسط والإسكندرية، وإما عن طريق الصحراء وواحة سيوة. وتدخل برقة في حوزة الرومان سنة ٩٦ قبل الميلاد، وبذلك تصبح ليبيا جميعها شرقاً وغرباً في نطاق دولتهم الرومانية، ولذلك تلتقى فيها الآثار اليونانية بالآثار الرومانية، وتكثُر الأولى في سيرين (شحات الحالية) حيث تُرى بها أطلال لآلهة اليونان ومقابرهم وبلد درجات مسارحهم، وتلك المدرجات سمة دائمة لليونان في كل بلد أقاموا به، وحكاكم في ذلك الرومان. وقد ذكر بنتاءور الشاعر اليونانى في القصيدة التاسعة من قصائده مدينة سيرين. وأخذت

مكانتها تهبط منذ قضي الإمبراطور الروماني تراجان على ثورة اليهود بها، وما تصل إلى القرن الثالث الميلادي حتى تصبح أنقاضاً وأثراً بعد عين. وتابعت روما في برقة صنيعها في طرابلس من حيث العناية بالزراعة إذ كانت تعدُّها جميعاً مخزنين لما يلزمها من الغلال، فحفرت لذلك كثرة من القنوات تُرى - إلى اليوم - وراء ساحل برقة وقد طمرتها الرمال، كما تُرى هناك آثار السدود والخزانات والصحاري التي أقامها الرومان واليونان بطالسة وغير بطالسة في كل مكان شمالاً، وتحجب كثرتها عن البصر اليوم الأتربة والرمل التي انهالت عليها عبر القرون.

وهذا النشاط الزراعي وما اتصل به من النشاط التجاري أهل برقة قديماً لرخاء جعل المدن - بجانب مدنها الخمس المارة - تكثر فيها مثل درنة وطبرق، واشتهرت الأخيرة بأن جيزيلاً أحد ملوك إسبرطة المشهورين كان يتخذها دار إقامة له.

وما يوافق العقد الرابع من القرن الخامس الميلادي حتى تغزو جموع الوندال الجرمانية الشمال الإفريقي وتسقط على ليبيا - كأمواج من جراد - تعيموتفسد في البلاد لنحو مائة عام، بل تدمر وتُحطم كل ما شاده الفينيقيون والقرطاجيون والرومان في طرابلس وكل ما شاده اليونان والرومان في برقة إلى أن تجرد لهم القائد البيزنطي بليزير Bélisaire وكشف غمّتهم عن صدر ليبيا سنة ٥٣٤ للميلاد وأصبحت - من حينئذ - تابعة لبيزنطة. ولا نصل إلى أواخر القرن السادس الميلادي وأوائل السابع حتى نجد إمبراطور بيزنطة يُتبع ليبيا لحاكم الإسكندرية، إذ تذكر المصادر العربية أنه حين فتح عمرو بن العاص ليبيا كانت برقة تتبع هذا الحاكم، بينما كانت طرابلس تتبع حاكم قرطاجة بإفريقية التونسية المعروف عند العرب باسم جرجير تحريفاً لاسمه الحقيقي جريجوريوس، ويبدو أنه حين رأى عمرو بن العاص يستولى على مصر سارع بالاستيلاء على طرابلس ليحوز لنفسه شيئاً من الغنيمة، إذ رأى الدولة البيزنطية توشك على الانهيار.

٣

من الفتح العربي إلى منتصف القرن الخامس الهجري

لما أتم عمرو بن العاص السياسي البصير فتح مصر واستقامت له رأى أن يؤمن حدودها الغربية ضد الدولة البيزنطية حاکمة الشمال الإفريقي حينذاك، فأعد جيشاً في أواخر سنة ٢١ للهجرة فتح به برقة، إذ استجاب له سريعاً، وأرسل ابن خالته عقبة بن نافع إلى الداخل،

ففتح الديار في الصحراء حتى وصل إلى زويلة حاضرة فزان، واستسلمت سنة ٢٢ للهجرة. وبعد أن رتب عمرو بن العاص شئون الحكم في برقة اتجه إلى طرابلس ففتحها سنة ٢٣ للهجرة، واستعان ببعض قواده في فتح ما بقى من بلداتها وبلدان برقة. وتمّ ذلك كله في عهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب واستتم عمرو بن العاص في سنة ٢٣ فتح نفوسة وبذلك عمت ديار ليبيا جميعاً أضواء الإسلام. وظل عمرو طوال هذه السنة والسنة التالية أو أكثرها ينظّم شئونها، وترك لأهلها أن يجمعوا بأنفسهم الجزية والضرائب المفروضة ويؤدّوها في الموعد المضروب. وكانت هذه سياسة رشيدة، ولم تفرض ضرائب فادحة كما كان الشأن أيام الدولة البيزنطية، وأحسّ البربر في ليبيا بتعاليم الإسلام في العدل والمساواة المثلى بين من يسلمون منهم وبين العرب، فأقبلوا على الدين الخفيف وأخذ يعتنقه كثيرون منهم. ويعود عمرو إلى مصر مخلصاً وراءه ابن خالته عقبة بن نافع. ويتولى الخلافة بعد عمر عثمان بن عفان، فيولى على مصر عبد الله بن أبي سرح سنة ٢٥ للهجرة وتظل ليبيا لأيامه هادئة حتى فتنة عثمان سنة ٢٥ للهجرة، فضطرب الأمور فيها وفيها وراءها من إفريقية التونسية، ويتولى عمرو بن العاص مصر ثانية لعهد معاوية. ويعنى معاوية ببرقة وطرابلس وإفريقية ويجعلها ولاية مستقلة ويولى عليها معاوية بن حُديج السُّكُونِي سنة ٤٥ للهجرة، ويولى بدوره رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري على طرابلس، ويترك معه كتيبة، ويدور عام وقيل بل عامان ويفتح رُوَيْفِع جزيرة جربة شرقي مدينة قابس. حتى إذا كانت سنة ٥٠ للهجرة ولي معاوية على المغرب جميعه عقبة بن نافع، فرأى بثاقب بصيرته أن يتخذ للجيش العربي قاعدة تكون معسكراً له، فيها ينزل الجيش ويسكنها ويخرج منها للمتابعة الفتوح في المغرب، واختار موقعا في داخل إفريقية التونسية غربي ميناء سوسة على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وشيد فيه مدينته وسماها القَيْرَوَان أَى المعسكر، وجعل حولها سورا من القرميد، وشيد فيها جامعاً كبيراً، وسرعان ما استحالت القيروان مدينة ضخمة واستحال جامعها جامعة كبرى، ويعيد عقبة إلى إفريقية الهدوء والاستقرار ويقضى على الحكم البيزنطى في الشمال الإفريقي جميعه. ويمجد إقامه لمدينته سنة ٥٥ للهجرة عُزْل، وتولى المغرب أبو المهاجر، وقد نازل قبيلة أوربة من البرانس وزعيمها كُسيْلَة في تلمسان ودارت عليها الدوائر، وأسر كسيْلَة ودخل في الإسلام. وتولى الخلافة يزيد بعد أبيه معاوية، فأعاد إلى المغرب عقبة بن نافع سنة ٦٢ للهجرة، فسار بجيش ضخم اخترق به الجزائر والمغرب الأقصى حتى بلغ المحيط الأطلسى، وكان قد وُيِّح كُسيْلَة زعيم أوربة لما كان من حربه للمسلمين فأسرّها في نفسه، وصمم على الانتقام، وفي عودة عقبة بالجيش تأخر عنه في كتيبة صغيرة بجبال الأوراس جنوبي مدينة بَسْكَرَة في الجزائر وكان كسيْلَة قد جمع من أنصاره جمعاً كبيراً، فانتهاز الفرصة وهجم على عقبة وصحبه واستشهد البطل العظيم، وأقيم له مسجد ضمّ رفاتة، وسميت المنطقة باسمه: سيدي عقبة.

ويتولى المغرب حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) فيشبت الدين الحنيف هناك ويدخل فيه البربر أفواجا، إذ سوى - حسب تعاليم الإسلام - بين البربر والعرب في كل شيء: في الأعطيات وفي الخراج وفي الجيش فلا فرق بين جند عربي وجند بربري لا في المعاملة ولا في القىء وغنائم الفتوح، ولو أن الولاة في القرن الثاني اتبعوا هذه السياسة مع البربر ما انتفضوا عليهم ولاشهروا السلاح ضدهم كما سئرى عما قليل. وأسس حسان مدينة تونس وبنى بها دار صناعة متخذاً منها نواة لإنشاء أسطول مغربي عربي لحماية السواحل المغربية من القراصنة والمغامرين الأوربيين، واستقدم من مصر ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشائه. ونظم إدارة الحكم والدواوين تنظيمًا دقيقًا. وأتم هذا التنظيم بعده موسى بن نصير وإلى المغرب الجديد (٨٥ - ٩٦ هـ) إذ جعل المغرب خمس ولايات: ولاية برقة، وولاية إفريقية التونسية ومعها طرابلس، وولاية المغرب الأوسط، وولاية المغرب الأقصى، وولاية السوس أو سجلماسة. وكان يرسل لبرقة وطرابلس عمالاً أو ولاة كانوا يُعدون مستقلين في الشؤون الداخلية للمنطقتين، مع إرسالهم نصيباً من الضرائب وبعض الجنود إلى القيروان. وعمل موسى - بكل ما في وسعه - على نشر الدين الحنيف بين البربر بإنشائه في أنحاء المغرب لكتاتيب كثيرة تحفظ فيها الناشئة القرآن الكريم مع إحسانها لتلاوته ومع تعليمها بعض مبادئ الدين الحنيف. وتم هذا الرسوخ للإسلام في المغرب وأرجاء ليبيا لعهد عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) الخليفة التقي إذ أرسل إلى المغرب عشرة من كبار الفقهاء للعمل على نشر الدين الحنيف هناك، واختار أحدهم والياً على المغرب جميعه هو إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي واستجاب إليهم آلاف من البربر حتى ليتمكن القول بأننا لا نصل إلى مطلع القرن الثاني الهجري حتى يصبح المغرب جميعه داراً إسلامية يؤدى فيها الجمهور الأكبر فروض الدين الحنيف.

ولا تعود ليبيا وما وراءها من المغرب تحظى بوال من أمثال ابن أبي المهاجر وموسى بن نصير وحسان بن النعمان وعقبة بن نافع منذ وفاة عمر بن عبد العزيز، فقد أخذ يتولى المغرب ولاة ساموا البربر كثيراً من العسف والظلم، حتى إذا تولى عبيدالله بن الحبّاب المغرب زاد الظلم بلة، بتشدده في جباية الأموال من البربر ورفضه رفضاً باتاً التسوية بينهم وبين العرب. وانتهاز الفرصة دعاة الخوارج من صفرية وإباضية ودعوا بقوة إلى مبادئهم في التسوية المطلقة بين العرب والموالي من بربر وغير بربر في جميع الحقوق والشؤون المالية، وحتى في الخلافة نفسها فلا تقتصر على قريش وأبنائها بل يتولاها أكفأ المسلمين ولو كان عبداً حبشياً. واستجاب المغرب الأقصى سريعاً لمبادئ الصفرية ونشبت فيه ثورة سنة ١٢٢ للهجرة، وتهزم جيوش الدولة جيشاً من وراء جيش إلى أن يكتب لها النصر بعد سنوات. أما مذهب الإباضية فقد انتشر انتشاراً واسعاً في طرابلس وجبل نفوسة وغربي ليبيا، وكان قد أصبح زمام الحكم في

المغرب بيد عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع منذ سنة ١٢٦ للهجرة، فأخذ يرقبهم ويكثر من العيون عليهم، وعرف أن رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التيجيبي، فأرسل إليه أخاه إلياس في قوة عسكرية كبيرة فقتله. ولم تنته بذلك الحركة الإباضية في طرابلس فقد بايع الإباضيون في طرابلس بعده بالإمامة الحارث بن تليد الحضرمي سنة ١٣٠ للهجرة واتخذ وزيراً له عبد الجبار بن قيس المرادي، والمظنون أنها كانا من جيش أبي حمزة الخارجي الذي أرسله الإمام طالب الحق اليمني لفتح الحجاز ومدينتيه المقدستين، ولم يكتب له النصر أخيراً على الجيش الأموي، وتسلسل من جيشه الحارث وعبد الجبار إلى طرابلس، وأخذوا يدعون للمذهب بها، ونجحت دعوتها وبويع الحارث إماماً، وأرسل إليه عبد الرحمن بن حبيب جيشاً، ويقال بل ذهب إليه بنفسه على رأس جيش، غير أن جيشه هزم شر هزيمة، وأصبح إقليم طرابلس من سرت في ليبيا إلى قابس في إفريقية التونسية يعترف بإمامته معتقاً للمذهب الإباضية. وفي سنة ١٣٢ للهجرة يفتال الحارث بن تليد ووزيره عبد الجبار في ظروف غامضة، ويدخل عبد الرحمن بن حبيب طرابلس ويفتك بكثيرين من زعماء الإباضية.

وتعيش طرابلس وإقليمها نحو ثمانى سنوات في هدوء، حتى إذا كانت سنة ١٤٠ للهجرة ثار الإباضية بقيادة إمامهم أبي الخطاب عبد الأعلى المعافى واستولى على طرابلس وأعلن بها إمامته، وكان حازماً مقداماً جسوراً غيوراً على الدين، وكانت قبيلة ورفجومة الصفرية استولت على القيروان منذ سنة ١٣٨ للهجرة واستباحتها واستحلت المحارم وارتكبت كثيراً من المآثم والفظائع بها وجروحها تنزف بالدماء وأهلها يكثر من العويل ولاغيث، وعلم أبو الخطاب بعيث ورفجومة واستحالة أبنائها في القيروان إلى ذئاب هائجة مسعورة، فنارت ثائرتة واتقدت حميته لأهلها وأعد في سنة ١٤١ للهجرة جيشاً ضخماً نازل به ورفجومة النفرزاوية في معركة طاحنة قتل فيها قائدها عبد الملك بن أبي الجعد وهزمت هزيمة ساحقة، ودخل أبو الخطاب القيروان وطهرها من رجس هذه القبيلة الباغية، وأقام عليها عبد الرحمن بن رستم والياً عليها من قبله، وعاد إلى طرابلس عاصمته. وكل ذلك علم به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، فاختر أحد قواده العظام محمد بن الأشعث وولاه على المغرب، وأرسل معه جيشاً بالغ الضخامة في نحو سبعين ألف مقاتل يقودهم صفوة كبيرة من القواد، ونشبت بينه وبين أبي الخطاب معركة حامية الوطيس سنة ١٤٤ للهجرة قتل فيها أبو الخطاب وأكثر أنصاره بحيث لم تقم للإباضية في طرابلس وجبل نفوسة بعدها قائمة. وفر عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تيهرت في المغرب الأوسط، وبها أقام للإباضية دولة ظلت نحو قرن ونصف. ويتولى المغرب يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٣ للهجرة ويعود النظام والاستقرار والهدوء إلى طرابلس حتى نهاية ولايته سنة ١٧٠ وقد ضم برقة إلى مصر. وتولى المغرب بعد يزيد أخوه روح بن حاتم

ثم هرثمة بن أعين حتى سنة ١٨١ وكان عهدهما عهد أمن وطمأنينة في طرابلس. وكان الخليفة العباسي هرون الرشيد سئم من كثرة الاضطرابات والثورات في البلاد المغربية، فسأل عن مقdam جرى سيوس يستطيع ضبطها ضبطاً محكماً فأشار عليه قائده هرثمة بن أعين بإبراهيم بن الأغلب التميمي لما يعرف من كياسته ورجاحة عقله، فمنحه حكمها هو وأولاده وأحفاده طوال إقرارهم النظام فيها والأمن، وبذلك تأسست في إفريقية التونسية دولة الأغالبة منذ سنة ١٨٤ للهجرة حتى سنة ٢٩٦ وتبعتهم طرابلس وظلوا يرسلون إليها عمالا وظلت ثوراتها لا تهدأ بسبب من كان فيها وفي جبل نفوسة من الإباضية، وكان إباضية تيهرت لا يزالون يدون إلى إباضيتها عوناً مستمراً. ولعل ما كان يوليها الأغالبة من الأهمية هو الذي جعلهم دائماً يولونها ولاية بارزين من الأسرة، وكثيراً ما كانت تنتفض عليهم، على نحو ما حدث سنة ١٩٦ في عهد واليها عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب، واستطاع القضاء على الثورة، ومن أهم ولاتها من أبناء الأسرة أبو العباس عبد الله بن محمد الأغلب، ونقله الأمير أبو الغرائيق، ثم أعاده إلى طرابلس، ومنهم أحمد بن سواده الأغلب وكان شاعراً بارعاً ومحمد بن زيادة الله الثاني وكان أديباً وشاعراً وخطيباً ومؤلفاً بارعاً، ونفس عليه ذلك ابن عمه إبراهيم بن أحمد الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) وغار من سمعته الطيبة عند خليفة بغداد الرشيد فتسلل إليه خفية في طرابلس وقضى عليه. وفي عهد هذا الأمير الأغلب شهدته برقة سنة ٢٦٥ ثورة عباس ابن والي مصر أحمد بن طولون على أبيه، واتخذها قاعدة له وجهاز منها حملة كبيرة زحف بها على طرابلس، غير أن جيش عاملها الأغلب محمد بن قزح هزمه وردّه على أعقابيه. ولم يلبث أبوه أن قضى على ثورته سنة ٢٦٨ وولى على برقة عاملاً يصلح فيها ما أفسده ابنه. وثار جبل نفوسة في سنة ٢٨٣ ثورة عنيفة قضى عليها إبراهيم بن أحمد الأغلب قضاء مبرماً.

وحين قضت الدولة العبيدية الفاطمية على دولة الأغالبة سنة ٢٩٦ حاولت أن تبسط سيادتها على طرابلس وتم لها ذلك، وأرسل مؤسسها عبيدالله المهدي جيشاً إلى برقة، فاستولى عليها من يد واليها العباسي، وكانت برقة سنية وطرابلس إباضية، وكانتنا ترفضان العقيدة العبيدية الإسماعيلية، ولم تلبث طرابلس في سنتي ٢٩٩-٣٠٠ للهجرة أن حملت لواء الثورة في وجه ماقتون واليها من قبل عبيدالله المهدي وفتكوا برجاله من قبيلة كتامة التي كانت تؤيد الدعوة الفاطمية وأتاحت للمهدي استيلاءه على صولجان الحكم من أيدي الأغالبة. وصمم المهدي على الانتقام من طرابلس وأهلها، فجرد لها حملة كبيرة بحرية وبرية ولم يلبث أسطوله أن قضى على الأسطول الطرابلسي، وضرب الحصار برّاً حول طرابلس حتى ساءت أحوال أهلها سوءاً شديداً، فطلبوا الأمان، فأمنهم القائد أبو القاسم بن المهدي، وكان في الجيش معه أحد أبناء طرابلس ممن كانوا قد سارعوا بالالتفاف حول المهدي، وكان ابناً عاقاً فعذب أهل بلده ونكل

بهم وأغرهم ثلاثمائة ألف دينار، واستكانت طرابلس. وفي سنة ٣٠٤ ثارت برقة فنكل بها العبيدون تنكيلا شديداً. وفي سنة ٣١٠ ثار الإباضيون في جبل نفوسة ثورة عنيفة، وقضت عليها جيوش العبيدين. وتظل ليبيا غربا وشرقا خاضعة لهم إلا ثورات صغرى كثورة أبي حاتم وثورة أبي يحيى الإباضيين وقضى على الثورتين يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤-١٧٠ هـ). وحرى بنا أن نذكر أن من أهم قضاتهم الذين كانوا يرسلون بهم إلى طرابلس لنشر دعوتهم القاضى النعمان صاحب المؤلفات المشهورة في الدعوة إلى العقيدة الإسماعيلية الفاطمية، وتبع العز الفاطمى في ارتحاله إلى عاصمته الجديدة: القاهرة سنة ٣٦١ للهجرة. وكان المعز قد ترك على بلاد إفريقية التونسية والمغربين الأوسط والأقصى بلكين بن زبرى زعيم قبيلة صنهاجة، وجعل جبل نفوسة تابعا له، وفصل عن ولايته طرابلس وبرقة ملحقا لها بمركز الخلافة في القاهرة، وجعل لكل منها واليا تابعا له، ولم يدم ذلك لطرابلس طويلا، فإن بلكين ألح على الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) أن يلحقها بولايته هي ومنطقتها، وأجابه إلى أمينته سنة ٣٦٧ وولى عليها بلكين حتى سنة ٣٧٣ هـ ولاة من قبله، وخلفه ابنه المنصور ثم حفيده باديس سنة ٣٨٦ للهجرة وأخذ يرسل إليها بدوره ولاة مختلفين، كان آخرهم عسيلة بن بكار سنة ٣٩٠ فخانه بتسليمها إلى يانس الصقلى حاكم برقة، وأرسل إليه باديس أحد قواده على رأس جيش حاصر طرابلس. وفي هذه الأثناء تسلل إلى طرابلس مغامر من قبيلة زناتة يسمى فلفل بن سعيد واستولى عليها وأسس بها دولة بنى خزررون، وأخذت تكثر بها الاضطرابات والمنازعات بين أفراد الأسرة ومن الطريف أنه تأسس في طرابلس حينئذ مجلس شورى يساعد الحاكم الخزررونى في تصريف الأمور، وأول من رأسه على بن محمد بن المنمر، وقد قضى هذا المجلس على آثار المذهب الشيعى في طرابلس وثبت المذهب المالكى السنى بها، وظلت أسرة بنى خزررون تحكم طرابلس حتى منتصف القرن الخامس الهجرى. وإذا ولينا وجوهنا نحو برقة في تلك الفترة وجدنا أمويا أندلسيا يسمى أباركوة يدعو لنفسه فيها بالخلافة، ويتبعه بنو قررة البرقيون أصحاب الجبل الأخضر، ويحاربون معه الفاطميين ثم يتخلون عنه ويقتل. وتظل الزعامة في برقة لبنى قررة طوال النصف الأول من القرن الخامس الهجرى.

من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجري

هاجرت إلى ليبيا وإفريقية التونسية والمغرب الأوسط جموع أعرابية كبيرة من قبائل بني سليم وبني هلال كان القرامطة في البحرين قد ضموا من نجد إلى جيش ضخم نازلوا به الفاطميين في الشام ومصر، وما كادت تدخل في الديار المصرية حتى انضمت إلى الجيش الفاطمي، مما كان سببا في اندحار الجيش القرمطي وارتداده إلى البحرين، وقد نقلها العزيز بالله الفاطمي إلى الضفة الشرقية على النيل بالصعيد الأعلى، وظلت هناك مصدر قلق واضطرابات لأهل الريف الصعيدى، مما جعلها تتحول إلى مشكلة كبرى للحكم الفاطمي بمصر. ودار الزمن دورات وإذا الحاكم الصنهاجى الرابع المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٤ هـ) في إفريقية التونسية والمغرب الأوسط يؤثر المذهب السنى مشايعة لشعبه المغربى ويقطع الدعوة الفاطمية الإسماعيلية منضويا تحت لواء الخليفة العباسى سنة ٤٣٨ للهجرة، وامتلاً الخليفة الفاطمى المستنصر سخطا وموجدة عليه، ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك من الجند والجيوش ما يستطيع به القضاء على المعز بن باديس، وانتهاز الفرصة وزيره الحسن بن على اليازورى، فأشار عليه بإقطاع مشايخ بني سليم وبني هلال أعمال المعز بن باديس في المغربين الأدنى والأوسط وهجرتهم إليهما مع قبيلتيهما، وقال له إنهم إن ظفروا بالمعز وقبيلته: صنهاجة تحققت أمنيته وصاروا أولياء للدولة وعمالا لها في تلك الأنحاء القاصية مع زوال عيشتهم وفسادهم عن أهل الصعيد بمصر، وإن هم لم يظفروا بالمعز نكن قد تخلصنا منهم، ودبرنا له ما يقضى عليه. ووقعت المشورة من نفس المستنصر موقعا حسنا، واستدعى مشايخ القبيلتين وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجى العبد الأبق فلا تفتقرون» وأغرَى الشيخ بجوائز كبيرة، وأمر لكل بدوى من القبيلتين ببيعير ودينار. وانطلقت جموع بني سليم وبني هلال بفروعها (الأنيج وزغبة ورياح وجشم وعدى وربيعة والزواودة) سنة ٤٤٣ للهجرة إلى برقة وانشابوا فيها بخيلهم ورجلهم ينهون ويسلبون واستقرت فيها مجاميع من بني سليم، وتقدمت بقية هذه القبيلة مع بني هلال بفروعها إلى طرابلس وإفريقية التونسية، وكان يتولى قيادتها جميعا يحيى الرياحى شيخ بني رياح الهلاليين، ولما استقرت جموع القبيلتين في طرابلس انعقدت له الرياسة فيها وفي انتقلهم إلى إفريقية التونسية، ولا يعرف عدد من دخل المغرب من القبيلتين، ويرى بعض المؤرخين أنهم لم يكونوا يقلون عن خمسمائة ألف ويقول ابن خلدون إنهم كانوا يسرون في جموعهم كجراد منتشر لا يرون على شيء إلا أتوا عليه، فهم يطلقون

قطعانهم من الإبل والغنم على الزروع وهم يخربون المنشآت والقصور ويقتلعون الأبواب ويقدمونها وقوداً للنار. وحقا قد يكون ابن خلدون مسرفاً فيما وصف به القبيلتين المذكورتين من النهب والسلب وتخريب العمران ولكن من الحق أيضاً أن أعراب هاتين القبيلتين لم يكونوا مثل عرب الأجيال العربية الأولى الذين فتحوا بلدان الدولتين الساسانية والبيزنطية وأقاموا دولة الإسلام الكبرى المجيدة، إذ لم يكونوا جيوشاً نظامية، وكانوا بدوا لا صلة لهم بالحضارة، ولم يكن لهم في هجرتهم إلى المغرب لا هدف ديني ولا هدف قومي، كما كان الشأن في فتوح العرب الإسلامية الكبرى وقد نازلهم المعز بن باديس في مكان يسمى حيدران بالقرب من قابس ودارت عليه الدوائر ودخلوا القيروان سنة ٤٤٦ ونهبوها وخرّبوها، واضطر أن ينسحب منها إلى المهديّة عاصمة الفاطميين بالقرب منها وبها توفي سنة ٤٥٤ للهجرة. وظل هؤلاء الأعراب سادة القسم الأكبر من إفريقية التونسية وسادة طرابلس إلى عهد الموحدين في القرن السادس الهجري.

وقد تحولت برقة منذ هجرة بني سليم إليها في أواسط القرن الخامس الهجري من حياتها المستقرة في المدن الشمالية والواحات الداخلية إلى مشيخات بدوية لبني سليم واستحالت في جميع أجزائها إلى مراعى واسعة، وظل ذلك فترة طويلة نحو مائة عام، بل تزيد وكانت في أثناء ذلك تدين بالولاء لمصر، وانشغل حكامها عنها بالحروب الصليبية وتزعزع هذا الولاء في أواخر زمن الدولة الفاطمية لهذا السبب. ونرى صلاح الدين الأيوبي حين قضى على تلك الدولة يفكر في برقة وفرض ولاء مصر عليها وعلى إفريقية التونسية، ويكلف بهذه المهمة ابن أخيه المظفر تقي الدين، فتستولى فرق أو كتائب من جيشه على أجزاء من برقة ويعهد إلى اثنين من قواده - ربما بمشورة صلاح الدين - بإتمام هذه المهمة، هما إبراهيم بن قراتكين وقراقوش، أما ابن قراتكين فتوغل في أوائل العقد الثامن من القرن السادس في ليبيا، ومضى حتى بلغ قفصة في إفريقية التونسية، واتخذها مقراً له، واستقر بها إلى أن فتكت به دولة الموحدين المغربية سنة ٥٨٣ ودخلت قفصة في حوزتهم. وأما قراقوش فقد مضى إلى أوجلة فافتتحها، وتقدم إلى فزان فاستولى على عاصمتها زويلة من بني الخطاب واتجه إلى الشمال واستولى على طرابلس سنة ٥٧٩ فترة وتقدم فاستولى على قابس، ومنه استردها الموحدون بعد استردادهم لقفصة من ابن قراتكين سنة ٥٨٣ مما اضطره إلى إعلان طاعته لهم، غير أنه عاد إلى العيث والإفساد واضعاً يده في يدي ابني غانية على ويحيى حين عاتا في إفريقية التونسية ضد الموحدين، وبعد مغامرات شتى مع من انضم إليه من بني سليم قتل سنة ٦٠٩ للهجرة، وظلت برقة بعده موالية لمصر طوال العصر الأيوبي، واطرد ولاؤها في زمن المماليك، ونرى الظاهر بيبرس سلطانهم (٦٥٨-٦٧٦ هـ) بطل موقعة عين جالوت ضد التتار الذي دفع سيولهم عن الشام إلى غير

رجعة يولي برقة اهتمامه منذ سنة ٦٦٢ للهجرة ويولّى عليها شيخا حصيفا من بني سليم هو عطاء الله بن عزاز، ويكل إليه جباية الزكاة من الإبل والأغنام وعُشّر الزروع والثمار. وحين غزا لويس التاسع تونس سنة ٦٦٨ بعد إخفاقه المشهور في غزو مصر وأسره في دار ابن لقمان بالمنصورة أمر ببيرس ابن عزاز بإرسال نجدة سريعة إلى تلك المدينة، وأخفقت غزوة لويس التاسع لها، ومات مقهورا تحت أسوارها. وكانت بعض البلدان في برقة تنور أحيانا على ابن عزاز، فكانت مصر تسارع إلى تأييده على نحو ما حدث في طلمیثة شمالي بنغازي وعودتها سريعا إلى الطاعة. وظل بنو عزاز يتولون برقة ويصرّفون شئونها ويشرفون على قبائلها إن لم يكن فيها جميعا ففي أكثر بلدانها وبواديها. وفي النصف الأول من القرن التاسع الهجري نازعهم فيها عريّف بن عمر وابنه. وتظل برقة موالية لمصر إلى أن استولى العثمانيون على القطر المصري من أيدي المماليك سنة ٩٢٣ للهجرة، وطبيعي أن يمدوا سلطانهم إلى برقة التي ظلّت تدين بالولاء طويلا لمصر، وظلت تستشعر هذا الولاء إلى أن ضمّها والي طرابلس العثماني محمد الساقلي (١٠٤٣ - ١٠٥٩ هـ). إلى ولايته.

وتاريخ طرابلس يتفصل عن تاريخ برقة منذ انضمامها إلى إفريقية التونسية سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م في عهد حكامها من بني زيري الصنهاجيين، وقد استقل بها بنو خزرون منذ أواخر القرن الرابع الهجري إلى نحو سبعين عاما، وتكتسحها الهجرة الأعرابية الكبيرة لبني هلال وبقايا بني سليم، وتعاني من ذلك طويلا، وفي هذه الأثناء زالت السيادة العربية عن صقلية وسقطت في حجر النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م نهائيا، وحينئذ أخذت تتراءى في الأفق نذر خطر جسيم على الساحل الإفريقي، فقد استولى النورمان على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م وأعلن روجار الثاني ملك صقلية الحرب الصليبية على الساحل الإفريقي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وجّه أسطولا بحاصر طرابلس وينقب سورها، غير أن أهلها ومن وراءهم من الأعراب ردوا الأسطول على أعقابه وغنموا أسلحته، ولم يلبث شيخ من شيوخ العرب هو أبو يحيى بن مطروح التميمي أن استخلص طرابلس لنفسه، ونازعه في سيادتها وسلطانها بعض أهلها، ونشبت بينها الحرب، وكان النورمان يعلمون ما صار إليه الشمال الإفريقي من ضعف الدولة الزيرية الصنهاجية وانزواء تميم بن المعز وأبنائه في المهديّة وأنحائها وما تبعهم من شريط ساحلي ضيق، به جزيرة جربة وصفاقس وقابس، ولم يلبث الأسطول النورماني أن استولى على المهديّة وجزيرة جربة وصفاقس سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وعاد إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها، وبدلا من أن تعتمد الفتان المتنازعتان في طرابلس أسلحتها ويوجهها إلى صدور أعدائها الصليبيين ظلا يتحاربان ويقتتلان، وبذلك هيا الفرصة لأعدائهما النورمان، فتسلقوا الأسوار، ودخلوا طرابلس وأمعنوا في النهب والسلب والقتل وفرضوا على أهلها جزية يؤدونها لملك صقلية، وتركوا

حكمتها في يد أبي يحيى بن مطروح، فحكمتها حكما شوريا، إذ أُلِّف لها مجلسا مكونا من عشرة شيوخ كانوا يعقدون اجتماعاتهم في مسجد خارج المدينة للتشاور والتداول في تدبير أمورها. وظل النورمان الصقليون يحكمون طرابلس أكثر من عشر سنوات، ولاح لابن مطروح وأهلها نور قوة كاسحة في المغرب الأقصى، هو نور دولة الموحدين التي أخذت تستولى على بلدان المغرب، فعظم الأمل في نفوس الطرابلسيين أن تمد إليهم يد العون في التخلص من حملة الصليب، وما توافى سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م حتى يشتد بهم الغضب لأدائهم جزية لنصارى صقلية، وفي إحدى الليالي يهجمون على الحامية الصقلية، فيحرقون بيوتها بالنار حرقا، ويدبحونها عن آخرها ذبحا، حتى لا يفكر النورمان في النزول بطرابلس ثانية. وينزل خليفة الموحدين عبدالمؤمن بن علي المهدي سنة ٥٥٥ بعد طرد النورمان من ساحل إفريقية التونسية نهائيا، ويفد عليه ابن مطروح على رأس وفد من رجالات طرابلس، ويحتفى بهم، ويولى ابن مطروح حاكما على طرابلس من قبله، وما زال يتولاها حتى أدركته الشيخوخة، فرأى في سنة ٥٨٦ للهجرة أن يؤدي فريضة الحج فاستأذن أبا زيد بن أبي حفص والى تونس للموحدين، وأذن له واستقل سفيينة، واضطرت في طريقها إلى الإسكندرية أن تتوقف قبل الوصول إليها ورسد في موضع لا يزال ينسبه المصريون إليه هو: «مرسى مطروح» المدينة المعروفة الآن على الشاطئ المصري. وتنبه عبد المؤمن خليفة الموحدين للانتفاع بأعراب بنى سليم وبنى هلال في جهاده لأعداء الدين الحنيف في الأندلس، فكلف القاضي ابن عمران بنظم قصيدة يستحث فيها بنى سليم للجهاد في نصرته الإسلام كما نصره آباؤهم قديما، وصنع صنيعه ابنه يوسف حين اعترزم غزو نصارى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م إذ طلب إلى صديقه ابن طفيل الفيلسوف الأندلسي المشهور أن يستنفر الأعراب بقصيدة حماسية، فنظم قصيدة تتأجج حماسة ملتبهة استهلها بقوله:

أقيموا صدور الخيل نحو المغرب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب

وتأخر وفودهم على يوسف خليفة الموحدين، فأرسل إليهم ابن طفيل قصيدة ثانية، فلبى يوسف كثيرون منهم انتظموا في جيشه المتجه لغزو النصارى في الأندلس، وأكبر الظن أن ابنه يعقوب خليفة الموحدين بعده جند منهم كثيرين في جيشه المظفر الذي جاز به إلى الأندلس، وأوقع بالقشتاليين ومن كانوا معهم من نصارى الشمال وقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ التي مرق فيها أعداء الدين الحنيف كل مرق.

ومر في حديثنا عن برقة أن المظفر تقي الدين ابن أخى صلاح الدين الأيوبي كان قد أرسل إلى ليبيا وإفريقية التونسية قائدين من قواده للاستيلاء عليها، هما إبراهيم بن قرانكين وقراقوش وأن الأول استطاع الاستيلاء على قفصة بإفريقية التونسية إلى أن استولت عليها

دولة الموحدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأن الثاني استطاع الاستيلاء على أوجلة وفزان، كما استولى على طرابلس فترة محدودة سنة ٥٧٩ بعون بنى رياح وبنى دياب الهلاليين، واتجه غربا واستقر في قابس بإفريقية التونسية، واستولى عليها منه الموحدون سنة ٥٨٣ وفي هذه الأثناء كان على بن غانية صاحب ميورفة حفيد يوسف بن تاشفين يضطغن على دولة الموحدين إزالة ملك أسرة ابن تاشفين أصحاب دولة المرابطين من المغرب والأندلس، فرأى أن يقدم على أعراب طرابلس ويكوّن منهم جيشا لحرب الموحدين واسترداد ملك المرابطين، ووجد قراقوش يحاول دفع هؤلاء الأعراب للانتفاض على الموحدين، فوضع يده في يد قراقوش مددا متطاولة مشيرين للقلاقل والاضطرابات في المنطقة، وحين استولى الموحدون من قراقوش على قابس أعلن طاعته لهم مداراة ومكرا، ودار العام ففتك الموحدون بعلى بن غانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وكان يرافقه أخوه يحيى، فخلقه في الشعب على الموحدين، واشتبك مع جنودهم في معارك مختلفة، واشترك مع قراقوش في الاستيلاء على طرابلس سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م واختار يحيى بن غانية واليا عليها تاشفين بن غازى، ووالته قابس وصفاقس، وفسد ما بينه وبين قراقوش، فحاصره في ودان جنوبى مدينة سرت حتى نفذ زاده واضطر إلى الاستسلام وقتله وصلبه سنة ٦٠٩ واسترد الموحدون طرابلس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وأداروا مع يحيى بن غانية بالقرب من تونس سنة ٦٢١ معركة حامية الوطيس هزم فيها هزيمة ساحقة، وفر إلى الجنوب هاربا، وظل يتنقل بين الأعراب إلى أن توفى سنة ٦٣١ للهجرة. وظلت طرابلس - منذ استولى عليها الموحدون - تتبع حاكم تونس - وتطورت الظروف سريعا وأسس بتونس أبو زكريا الحفصى الدولة الحفصية سنة ٦٢٥، وأخذ في العمل على تأسيسها وعاشت قرونا متوالية حتى القرن العاشر الهجرى. وعاشت طرابلس في إطار سيادتها وأخذت تسترد نشاطها الزراعى والتجارى، واشتهر من قضائها الطرابلسيين في أوائل هذا العصر أبو موسى عمران بن معمر الهوارى، وظل يقوم على القضاء العادل البصير بها حتى سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وطارت شهرة أحكامه وفتاويه إلى تونس وسلطانها المستنصر الحفصى فاستدعاه وأسند إليه القضاء في عاصمته: تونس. وولى إفريقية التونسية بعد المستنصر ابنه الواثق يحيى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وخلع سنة ٦٧٨ للهجرة وتولاها عمه إبراهيم. وظهر - حينئذ - دعوى من بجاية يسمى ابن أبى عمارة أحمد بن مرزوق طمح إلى الملك فترك مهنة الحياكة التى كان يمتنها في بلدته، ونزح إلى سجلماسة، وأدعى في الأعراب هناك أنه المهدي المنتظر، وبايعه بعضهم، غير أنه شعر أن دعوته لن تنجح هناك، فتركهم، ونزل بين أعراب طرابلس، وأدعى أنه ابن الخليفة الواثق المخلوع وأن اسمه الفضل وبايعه كثيرون من بنى سليم على نصرته، ودانت له طرابلس وبعض البلدان في غربى ليبيا وشرقى تونس وتقدم فاستولى على تونس سنة ٦٨١ وولى على طرابلس مرغم بن صابر من بنى سليم، وأسره الصقليون في بعض غاراتهم سنة ٦٨٢ للهجرة، وبايعوه لملك أراجون البرشلونى.

ولم يلبث الخليفة الحفصي عمر بن أبي زكريا أن استرد ملك آبائه الحفصيين سنة ٦٨٣ وأرسل إليه وإلى طرابلس محمد بن عيسى اهتتاني رسالة مدعنا فيها لطاعته. وفي سنة ٦٨٨ أرسل ملك أراجون سنة ٦٨٨ مع أسيره مرغم بن صابر حملة إلى طرابلس يريد الاستيلاء عليها وباءت بالفشل الذريع. ونزل بطرابلس سنة ٧٠٨ أمير حفصي في أثناء توجهه إلى أداء فريضة الحج هو أبو يحيى زكريا بن محمد اللحياني وفي عودته سنة ٧٠٩ أقام بها فترة جعلت أهلها يجلبونه ويقدرونه. وكان الحكم في إفريقية التونسية قد ساء سوءاً شديداً، إذ تولاه خليفتان اختلفت الدولة في عهدهما اختلالاً سيئاً. فتحدث كثيرون من أهل طرابلس إلى الأمير المذكور محرّضين له على تولي مقاليد الخلافة بتونس حتى يصلح شئون الحكم بها وتعهدوا له بتأييده ونصرته، ونجحت الخطة، واحتل اللحياني تونس سنة ٧١١هـ/١٣١١م وأخذت له فيها البيعة، وظل يلى شئونها ويصرف أمورها تصريفاً حسناً لمدة ست سنوات، ونهض في آخرها لمقاومته أمير قسنطينة بالجزائر وكانما داخله اليأس من الانتصار عليه، فلجأ إلى طرابلس آملاً أن يعود منها بجموع تنصره، وترك الحكم في تونس لابنه محمد الملقب بأبي ضربة، وأخذ يكوّن في طرابلس جيشاً فتح به كثيراً من البلدان الليبية، غير أن أمير قسنطينة قلب على ابنه أبي ضربة، وشعر أن وضعه في طرابلس لم يعد آمناً، فرحل من طرابلس بحرا إلى الإسكندرية وحل بها ضيفا على السلطان قلاوون إلى أن توفى، أما طرابلس فقد ترك الحكم فيها إلى صهره محمد بن عمران، وظل يلى شئونها إلى أن ثار عليه أهلها سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م واختاروا بعده لحكمهم شخصا من أسرة طرابلسية نابهة هو ثابت بن محمد بن ثابت بن عمار، وبه تأسست دولة بني عمار في طرابلس من سنة ٧٢٤ للهجرة إلى سنة ٨٠٣ وظل الأميران الأولان من هذه الأسرة يسوسان طرابلس وإقليمها سياسة حسنة، ويقول ابن خلدون إن تجارا من جنوة كانوا يترددون على طرابلس ولاحظوا ضعف تحصيناتها لعهد أميرها الثالث من بني عمار ثابت بن محمد بن ثابت وأغراهم ذلك بمهاجرتها، وتجمع أسطوهم في مينائها، وانتشروا في أسواقها يتظاهرون بأن غرضهم التجارة ومبادلة السلع وفي الليل أو في إحدى الليالي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م تسلقوا أسوار طرابلس واستولوا عليها في غفلة من أهلها، وفرّ ثابت أو حاول الفرار في أثناء حصارهم لقصره بها، ورآه بعض الأعراب بمن يعادى قبيلته فقتله. وظل الجنويون بطرابلس نحو عام، ودفعت الحمية لأهلها وللدين الحنيف أبا العباس أحمد بن مكى حاكم قابس في إفريقية التونسية إلى أن يفاض قائد البحرية الجنوبية لإخلائها والنزوح عنها فطلب لقاء ذلك خمسين ألف دينار ذهباً، فجمع ما عنده وأكمل ما بقي من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد، دفعوها له متحمسين، وأداها ابن مكى، وبارح الجنويون طرابلس بعد أن تركوا لهم فيها قنصلية ومستودعاً لبيع سلعهم. وتولى شئونها ابن مكى حتى وفاته سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م وخلفه عليها ابنه عبدالرحمن. وكان أحد أبناء أسرة بني عمار: أبو بكر بن محمد بن ثابت فرّ عنها - حين نزلها الجنويون -

إلى الإسكندرية، فعاد إليها سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م في أسطول، فحاصرها، وأعانته أهلها في استيلائه عليها، حتى يتخلصوا من عبد الرحمن لسوء سيرته. ولما استولى عليها أبو بكر استسلم له عبد الرحمن، فأرسله مكرماً إلى بلدة قومه قايس، وظل أبو بكر يدبّر شئون طرابلس عشرين سنة. وخلفه عليها أخوه عمران حتى سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م وأخذ أبناء الأسرة يحملون السلاح بعضهم ضد بعض، وحاول أحدهم وهو علي بن عمار الاستعانة بملك صقلية المسيحي مما جعل السلطان الحفصي أبا فارس عبدالعزيز يذهب إلى طرابلس بنفسه سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ويعزل عنها آخر ولاتها من بني عمار: يحيى بن أبي بكر ويعيدها إلى حظيرة الدولة الحفصية ويولى عليها أحد قواده، وبذلك انتهت دولة بني عمار في طرابلس. وظل الولاة الحفصيون يولون شئونها في القرن التاسع الهجري، وكانوا يوجهون إليها أحياناً بعض حملات، وآخرها حملة أبي عمرو عثمان الحفصي سنة ٨٦٣ وبلغ فيها تاجوراء شرقى طرابلس. وحين أخذت الدولة الحفصية في الضعف أخذت طرابلس تحكم حكماً ذاتياً بمجلس شورى يرأسه أحد الشيوخ الناهيين، وكان آخرهم الشيخ عبد الله الذي رأس مجلسها وحكمها منذ سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢م إلى أن هاجمها الأسطول الإسباني سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م.

وكان يتولى إسبانيا فرديناند الكاثوليكي الذي استولى على غرناطة من يد أبي عبدالله الصغير وأخرج العرب من الأندلس وقد سؤل له شيطانه أن يستأنف الحرب الصليبية بتعقبهم في الساحل الإفريقي الذي نزلوا فيه، ولم يكن للدولة الزيانية في الجزائر ولا للدولة الحفصية في تونس وطرابلس أسطول يحمي الساحل الإفريقي، واستطاع أسطول فرديناند الاستيلاء على المرسى الكبير في الجزائر سنة ٩١٠هـ/١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م. وفي سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م هاجم الأسطول الإسباني طرابلس، واحتلها بعد مقاومة عنيفة من أبنائها استشهد فيها منهم كثيرون، وخرج منها أكثر سكانها إلى تاجوراء واتخذوها مركزاً للمقاومة العدو الصليبي، وبذلك توقف كل ما كان بطرابلس من نشاط وتعطلت حركتها التجارية بينها وبين الإسكندرية والشرق وأيضاً بينها وبين صقلية والبندقية وجنوة في الغرب وساءت أحوال أهلها الاقتصادية، وفي سنة ٩٣٦هـ/١٥٣٠م سلم المدينة شارل الخامس ملك إسبانيا إلى فرسان مالطة المعروفين باسم القديس يوحنا، وظلت الأحوال في طرابلس تزداد سوءاً على سوء، وظل كثير من سكانها يغادرونها إلى مدينة تاجوراء مركز المقاومة.

في العهد العثماني

كانت الدولة العثمانية بالقرن العاشر الهجري في أوج قوتها، فانتخب أهل تاجوراء وفدًا ذهب إلى إستانبول مستغيثًا بتلك الدولة طالبًا منها حمايتها لطرابلس وإقليمها وطرد فرسان مالطة من ديارها، ولقيهم السلطان العثماني: سليمان لقاء كريمًا، وأمر فورًا الأغا مرادا بمرافقتهم للتعرف على أحوال المنطقة ونزل تاجوراء سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م وأنشأ بها جامعًا ومدرسة، وأرسل إلى السلطان بالأحوال في المنطقة، فأمر سنان باشا قائد الأسطول العثماني أن ينسق كافة العمليات الحربية مع مراد أغا لإخراج فرسان مالطة من طرابلس، فأمر سنان باشا درغوت الذي كان مرابطًا - حينئذ - ببعض قطع من الأسطول أمام الجزائر بمهاجمته لأولئك الفرسان بطرابلس وطردهم منها، وصدع تولا أمره وهاجم طرابلس، واستسلم له فرسان مالطة سريعًا سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م. وأصبحت طرابلس ومنطقتها تابعة للدولة العثمانية، وكان مراد أغا أول من شغل منصب الوالي التركي بها، فعمل تولا على ترميم القلعة وتعمير المدينة، وحول الكنيسة التي بناها فرسان مالطة بالقلعة إلى مسجد، وأخذت الحياة العامة في طرابلس تنشط ونشطت معها التجارة، وسرعان ما أصبحت طرابلس قاعدة مهمة من قواعد البحرية العثمانية في البحر المتوسط. وأدركته الشيخوخة سريعًا، فرأى ترك طرابلس سنة ٩٦٤هـ/١٥٥٦م إلى تاجوراء، لتمضية بقية حياته، وخلفه على البلاد من قبل الدولة العثمانية درغوت، وكان قائدًا بحريًا عظيمًا، فاتخذ طرابلس قاعدة كبرى لعملياته البحرية الحربية ضد قراصنة وأساطيل الأوربيين من إسبان وغير إسبان، وكثرت بها الغنائم والأسرى الأوربيين، وبذلك أعاد إلى الأذهان سيرة خير الدين (بربروس) في الساحل الجزائري واتخاذ الجزائر وغيرها من مدن هذا الساحل قاعدة لأعماله البحرية العظيمة التي ظلت ترتعد لها فرائص الأوربيين، وبالمثل أنزل بهم الفزع والرعب درغوت بسفنه البحرية وجنوده من الترك والطرابلسيين المغاوير. وعُنى عناية واسعة بتحسين المدينة فأنشأ بها أبراجًا مختلفة وقصرًا له ودارًا للبارود وأذن للأسرى المسيحيين بإنشاء مقبرة خاصة بهم مما يدل على كثرتهم في أيامه بسبب حملات أسطوله البحرية وجهاد جنوده البحري في سبيل الإسلام وحماية ديار أبنائه المغاربة. وأنشأ بطرابلس جامعًا عظيمًا ضم رفاتة حين توفي سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م ووليها بعده علع على ساعده الأيمن في القيادة البحرية لفترة محدودة، وخلفه عليها جعفر باشا وولاه آخرون منهم مصطفى باشا وفي عهده استولى ثائر من أهل البلاد هو يحيى الجبالي سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م على كل ما سوى

طرابلس من المدن والأوطان وجبى خراجها، وزحف إلى المدينة وحاصرها، واستدعت الدولة العثمانية الوالى سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م لتهدئة الثائرين، وأرسلت أسطولا لفك الحصار عن طرابلس وتعقب الثائر، وسرعان ما فُكَّ الحصار وهُزم بجيى الجبالى وتوغَّل في الصحراء مع الأعراب، وقُتل، وانتهت ثورته.

وكانت الدولة العثمانية ترسل مع ولايتها في الولايات المختلفة التابعة لها حاميات عسكرية من جنودها الإنكشارية، وكثرتهم كانت من أطفال البلاد الأوربية النصرانية التي كانت تحاربا أو الولايات التي كانت تدين لها بالولاء، أو من أبناء الشعب الذين رغبوا في الانضمام إلى هؤلاء الجنود، وكانت تربيتهم تربية عسكرية إسلامية، وتولف منهم عدداً ضخماً في جيوشها وترسل منهم مع ولايتها حرساً أو حامية كبيرة، وكانت الحامية تنقسم إلى فرق، ولكل فرقة رئيس منها يلقب بالداى بمعنى ملازم. وما نصل إلى القرن الحادى عشر الهجرى حتى تبرز نزعة قوية في صفوف حاميات الإنكشارية بالولايات العثمانية المختلفة للاستقلال بها وأن يتولاها داياتهم، وفي سنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م نلتقى بصفر أول داى يحكم طرابلس ويدبر شئونها، وعُني بالحرب البحرية أو الجهاد البحرى الطرابلسى مما جعل الأسرى المسيحيين يكثرون بطرابلس في أيامه. وحكم طرابلس بعده الداى مصطفى الشريف سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وفي عهده نشطت البحرية، وعنى بتحسين بعض الحصون، وتولى طرابلس بعده الداى رمضان، وكان ضعيف الشخصية، وتخلَّى عن الحكم سريعاً إلى صهره محمد الساقزلى (١٠٤٣-١٠٥٩هـ/١٦٣٣-١٦٤٩م) وهو ثالث ولاية طرابلس العثمانيين العظام بعد مراد أغا ودرغوت، وكانت له مثل درغوت شهرة بين أبطال البحر العثمانية، وكان الأسطول الطرابلسى في عهده يتكوّن من ٢٤ قطعة، وكانت برقة قد دخلت في طاعة العثمانيين منذ استيلائهم على مصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م وضمَّها محمد الساقزلى إلى ولايته في طرابلس ونشطت التجارة وحركة العمران في عهده نشاطاً عظيماً. وتوفى سنة ١٠٥٩ للهجرة وخلفه عثمان الساقزلى وهو مثل محمد الساقزلى من أهم ولاية ليبيا، وقد طال حكمه لها إلى نحو ثلاث وعشرين سنة، وازدهرت التجارة في عهده ازدهاراً عظيماً، كما ازدهر النشاط البحرى، وزار طرابلس لأول عهده العياشى في رحلته المشهورة إلى الحج، وفيها يشيد بطرابلس ومبانيها وأهلها وكرمهم الفياض وواليتها عثمان الساقزلى ويقول إن له نكاية في العدو، وله مراكب قلَّ نظيرها معدة للجهاد، ويذكر أنه رأى ستة من هذه المراكب أو السفن وهى تخرج للجهاد أعداء الدين، وكانت تحمل نحو ألفى مقاتل خرجت - كما يقول - مجتمعة إرهاباً للعدو حين يراها. وكانت تجلب كثيراً من الغنائم والأسرى مما جعل عثمان الساقزلى يبنى لهم سجناً كبيراً كان به نحو تسعين غرفة أو زنزانه بجانب سجنى الداى صفر ومحمد الساقزلى، وجعل بعض القاعات في قصر درغوت

مستشفى خاصا بالأسرى، وخصّص لرعايتهم طائفة من الأطباء، وألحق بالمستشفى صيدلية لتحضير ما يلزمهم من الأدوية. وأنشأ لنفسه قصرًا بديعًا، كما أنشأ مدرسة قرب باب البحر لا تزال قائمة إلى اليوم، وبنى في سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م فندقًا كبيرًا كان به مائة غرفة كما كان به بئر في ساحته، وعُنى بأسواق البلدة، وكان عهده عهد أمن واستقرار وعمران مزدهر إلى أن توفي سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧١م. وتعاقب دايات بعده ضعاف الشخصية على حكم ليبيا وكثرت تهديدات الأساطيل الأوربية إنجليزية وفرنسية، وكانوا يشفعون التهديد بقصف طرابلس حتى تضطر إلى مفاوضتهم وإرجاع أسراهم إليهم، وكانت طرابلس تردهم إليهم طلبا من داياتها للمهادنة ورغبة في السلام. ومن خير ولايتها في أوائل القرن الثاني عشر الهجرى محمد الإمام الذى أقام علاقات حسنة مع بعض الدول الأوربية وخاصة فرنسا، وبنى له مسجدًا بسوق الترك وجدّد بناء هذا السوق وسوق الحرير. وسمح الوالى بعده خليل الأرناءوطى (١٠٩٠-١٠٩٦هـ) لإسبانيا بإقامة قنصلية لها في طرابلس، وكان ظلوما غشوما واتخذ بطانة له من النصارى ضعف دين وسوء سياسة.

وتتردّى طرابلس وليبيا في هاوية من الصراعات والانقسامات، وينقدهما منها إجماع رأى الإنكشارية على تولى أحمد القرمانلى طرابلس وليبيا سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م وكان شخصية قوية، فأخذ يعمل على استقلاله بليبيا وطرابلس وجعلها وراثية في أبنائه، وتلقب بأمر المؤمنين، وأخذ يعنى بشئون الدفاع عن طرابلس وتجديد أسوارها وأبراجها وتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة، وبنى مسجدًا كبيرًا وألحق به مدرسة، كما بنى بعض قصور له، منها قصر للأزيتوبيا الذى نفذ فيه مذبحته للإنكشارية، إذ دعاهم إليه، وقد أكرم لهم في سقوفه ودهاليزه من اغتالوهم حتى يستطيع أن يحكم البلاد حكما نظيفا من شعبهم، وكأنما حاكاه محمد على - فيما بعد - حين اغتال المماليك بالقلعة. وكان حكمه حكما عادلا رشيدا، وامتد إلى نحو خمسة وثلاثين عاما، مما أعطاه الفرصة لينهض بأعمال كثيرة، من ذلك إجراؤه الماء لطرابلس على حنايا ليسقى به أهلها ويتنفعوا به، ومنها بناء سوق فسيح الفناء وبناء بيوت ومقاصير أنيقة في القلعة، ومنها بناء فسقية بقرب البحر لينهل منها أهل السفن من أسطوله وغيرهم، وفى سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م اندفع إلى طرابلس أسطول فرنسى في مظاهرة بحرية ليرغم القرمانلى على رد بعض غنائم لأسطوله ورد الحرية إلى الأسرى الفرنسيين ودفع بعض التعويضات، فرفض مطالبه بعنف، وأخذ الأسطول الفرنسى يقذف طرابلس بالقتال قذفا شديدا لمدة ثلاثة أيام والقرمانلى مصر على موقفه ونفذت ذخائر الأسطول الفرنسى فانسحب إلى البحر ولم يعد ثانية إلى المياه الطرابلسية. وحمد له الطرابلسيون هذا الموقف الشجاع. وانتعشت الحركة التجارية لعهد انتعاشا كبيرا إلى أن توفي سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م وخلفه ابنه محمد حتى سنة

١١٦٧هـ/١٧٥٣م وكان عهده عهد أمن ورخاء واستقرار كعهد أبيه وخلفه ابنه على الذى ظل بيده صولجان الحكم فى طرابلس وليبيا لنحو أربعين عاما إذ توفى سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م وتميزت الفترة الأولى من عهده بالأمن والرخاء ونشاط الزراعة والتجارة، حتى إذا كانت سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حدثت كارثة خطيرة عصفت بطرابلس وإقليمها: كارثة مجاعة كبرى ظلت عامين وانتشر معها وباء الطاعون، وانهار لذلك اقتصاد طرابلس فى العهد الأخير لعلى القرمانيلى، وظلت لهذا الانهيار بعده آثار غير قليلة، وفى عهده أقامت دول البحر المتوسط الأوربية قنصليات لها فى طرابلس مع مصادفته على ما مُنحته من امتيازات أجنبية، مما يدل على حمقه وهوجه وقصر نظره. وبعد وفاته حدثت انقسامات بين أبنائه على الحكم، وقتل ابنه يوسف أخاه الحسن، وشق عصا الطاعة عليه أخوه أحمد، وانتهز الفرصة مغامر عثمانى هو على برغل كان يقود بعض سفن صغيرة مسلحة فى البحر المتوسط، فنزل طرابلس واستولى عليها سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م دون مقاومة تذكر، وغضب لذلك باى تونس، إذ استغانت به الأسرة القرمانيلى، وردت إليها سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م وتولّى مقاليد الحكم بطرابلس وليبيا يوسف القرمانيلى، ومهما كانت الطرق التى سلكها مع إخوته للاستيلاء على الحكم فإنه كان حاكماً ممتازاً، ونعمت البلاد فى عهده بالأمن والرخاء والانتعاش التجارى ونشاط العلاقات بين طرابلس ومدن الشواطئ والانفتاح على الغرب والتعرف على مدنيته، مما أعدها لاستقبال العصر الحديث.

وكانت الأقطار العربية قد أخذت تستعد - منذ فاتحة القرن التاسع عشر الميلادى - لاستقبال هذا العصر عقب نزول الحملة الفرنسية مصر واندحارها بفضل مقاومة الشعب المصرى. وقد أيقظ هذا الحدث الخطير البلاد العربية جميعاً من سبات عميق كان قد استغرقها منذ احتلال العثمانيين لأراضيها فى القرن العاشر الهجرى/السادس عشر الميلادى، وأخذت كل منها تستشعر شخصيتها وتحاول انبعائها انبعائاً جديداً بصور تختلف سرعتها باختلاف ظروفها الخاصة، وكانت مصر أسرعها إلى هذا الانبعاث، وهو انبعاث كان يقوم فيها - وفى جميع الأقطار العربية - على ركنين: ركن التمسك بالتراث الإسلامى العربى على نحو ما يمثله الأزهر. وتمخض هذا التمسك فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عن ظهور الشيخ محمد عبده ودعوته الإصلاحية الدينية الكبيرة، والركن الثانى ركن التعرف على ما سبقت إليه أوروبا فى ميادين العلم والأدب والحضارة، مما جعل مصر تسبق شقيقاتها العربيات فى إرسال البعث إلى الغرب وإنشاء المدارس العلمية المختلفة فى الطب وغير الطب لعهد محمد على.

وفى رأينا أن فجر العصر الحديث بليبيا أخذ ينشر أضواءه بطرابلس فيها لعهد يوسف القرمانيلى وإن لم تكن أضواء مكتسحة، ولكنها أضواء على كل حال، إذ أخذ يوسف يحاول

افتتاح طرابلس على الغرب، عن طريق عنايته بأسطوله وما كان يجني منه من اتفاقيات الحماية الكثيرة لسفن الدول الأوربية في البحر المتوسط. وكانت الدولة تأخذ من ذلك إتاوات واسعة تفرضها على تلك الدول، وكان من بينها السويد، فطالبها يوسف بمائة ألف فرنك هدية وبدفع إتاوة سنوية قدرها ثمانية آلاف فرنك. وامتنع قنصلها في طرابلس من أداء ما طلبه يوسف، فأمر بإغلاق قنصليته، واستولى أسطوله على بعض السفن السويدية في البحر المتوسط، ووسّطت السويد نابليون عند يوسف، فوافق على أن تخفّض الهدية إلى ثمانين ألف فرنك، وتظل الإتاوة البحرية السنوية كما هي: ثمانية آلاف فرنك، وأعاد يوسف إلى السويد سفنها الأسيرة، ورأى في سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م أن يفرض على السفن الأمريكية التي تمخر عباب البحر المتوسط إتاوة سنوية على شاكلة ما يفرض على السفن الأوربية، وأبت تلك السفن أن تدفع شيئاً، فصادرها، وحاصر الأسطول الأمريكي طرابلس عشرين يوماً، وهزمه الأسطول الطرابلسي، فانسحب إلى مالطة - ووسّط الأمريكيون القنصل الإنجليزي ووالى الجزائر العثماني، وقبّل يوسف وساطتها، وردّ إلى الأمريكيين سفنهم.

وواضح أن طرابلس احتلت لعهد يوسف القرمانلى مكانة كبيرة في العلاقات الدولية لم تحظ بها في أى عهد سابق، لا بما كانت تفرضه من إتاوات سنوية على سفن الدول الأوربية فحسب، بل أيضا بكثره الوفود الأوربية التي كانت تقدم على طرابلس للتفاوض والتصالح أو للتهديد والوعيد أو لدفع الإتاوات المفروضة. وكل ذلك كان بشارة العصر الحديث في ليبيا واستشعار طرابلس لشخصيتها العربية بقوة، غير أن المسيحيين الأوربيين كانوا لهذه النهضة بالمرصاد، فتجمعوا في مؤتمر إكس لاشايل سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م وقرروا تفويض الدول الأوربية منع الإتاوات البحرية لمدن الشمال الإفريقي: طرابلس وغيرها وما يتصل بتلك الإتاوات من جهاد رجال البحرية الإفريقية في البحر المتوسط، وسموه قرصنة. وأخذت طرابلس تشهد مظاهرات واستعراضات لأساطيل إنجلترا ودول البحر المتوسط، وأخذت تلك الأساطيل ترغم يوسف القرمانلى على تحرير الأسرى المسيحيين والكف عن الغارات البحرية، ففقدت طرابلس مورداً كبيراً من المال كانت تعتمد عليه في إدارة البلاد ونهضتها، وأخذ يوسف القرمانلى يشعر بالضيق، ويزداد ضيقه سنة بعد أخرى لتراكم الديون على الدولة، مما دفعه في النهاية إلى أن يتنازل لابنه على القرمانلى عن الحكم سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م. ولم تكد تستدير ثلاثة أعوام حتى استردت الدولة العثمانية طرابلس وليبيا، إذ أرسلت إليها حاكماً جديداً استسلم له على القرمانلى، وبذلك انتهى عهد الأسرة القرمانلية في طرابلس وليبيا، وتعاقب عليها ولاية عثمانيون طوال القرن التاسع عشر، وأخذ كثيرون منهم يستجيبون لمقتضيات العصر الحديث من التطور بطرابلس وليبيا وبأسلوب الحكم.

وظلت صور التعليم القديم في الكتاتيب والزوايا وحلقات المساجد قائمة، وعُنى العثمانيون بإنشاء مدارس تركية في مدن طرابلس والخمس وبنغازى ودرنة، وكان يراد بها إلى تخرّيج موظفي الدولة، وألم الطلاب فيها ببعض العلوم العصرية مما يصلهم بالحياة العصرية بعض الاتصال، وأخذت إيطاليا تنسّي مدارس لها في طرابلس والخمس تصل من يتعلمون بها باللغة والثقافة الإيطاليتين إعداداً خبيثاً لما كانت تنتويه من احتلال ليبيا. وكان القرن التاسع عشر في ليبيا يحمل كل ذلك وأهم منه الزوايا السنوسية التي بدأ إنشاءها محمد بن علي السنوسي الجزائري الأصل والمولد والأسرة وكان قد طوف بالبلاد المغربية وتغلغل في الصحراء الجنوبية لتلك البلاد حتى السودان، وشاهد زوايا المتصوفة المنبئة في تلك الأنحاء، وأدى فريضة الحج سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٥م وظل بمكة خمسة عشر عاما عرف في أثنائها الدعوة الوهابية وما تدعو إليه من الرجوع إلى مصادر الإسلام الأولى من القرآن الكريم والحديث النبوي، فرأى أن يدعو نفس الدعوة، وأن يتخذ لدعوته نظام الزوايا المعروف في البلاد المغربية، ولكن أي بلاد المغرب يختاره لزواياه. إن الطريقة الشاذلية تعم المغرب الأقصى وتونس وتعم الجزائر طريقة أبي مدين، وتزاحم الطريقتين في تلك البلدان طرق أخرى بينها ليبيا - وخاصة برقة فيها - لاتشيع بها طريقة صوفية معينة، وكان قد زار أنحاءها البدوية ورأى أهلها غارقين في دياجير الجهالة عبادي الإسلام وتعاليمه وهم لذلك في حاجة إلى داع ودعوة تهديهم إلى سبيل الرشاد. ونزل برقة، وأقام لنفسه الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر بها، ورأى الناس يستجيبون لدعوته، فعاد إلى مكة وكان قد ترك بها أهله، ثم رجع إلى برقة ونقل مركز دعوته من الزاوية البيضاء إلى واحة جغبوب، وأخذت الدعوة السنوسية تنتشر في عهده وعهد ابنه محمد المهدي، حتى أصبح لها نحو مائة زاوية في بوادي برقة وحضرها في بنغازى ودرنة. وبذلك عمت اليقظة الإسلامية العربية التي كانت أضواؤها أخذت تتفلت إلى طرابلس وإقليمها في عهد يوسف القرماني إذ أشاعتها الدعوة السنوسية في بوادي برقة وحضرها. ولعل في ذلك كله ما يوضح كيف كان القرن التاسع عشر مبدأ تاريخ ليبيا الحديث وكل ما يتصل به من أدب وغير أدب.

الفصل الثاني

المجتمع الليبي^(١)

١

عناصر السكان

سكان ليبيا - منذ الأزمان السحيقة - سلالات عريقة من البربر الذين استوطنوا قديماً الشمال الإفريقي من مصر إلى المحيط الأطلسي، واختلف المؤرخون في بيان أصل منشئهم، فمن قائل إن جدودهم هاجروا إلى بلاد المغرب من فلسطين، ومن قائل إنهم عرب هاجروا من جنوب الجزيرة: من حمير، ويقال بل إن أصلهم من عرب الشمال، ويقول الطبري إنهم أخلاط من كنعان والعماليق وغيرهم، ويقول ابن خلدون إنهم من ولد كنعان بن حام. وعلى هذا النحو يضطرب المؤرخون في أصلهم وهل هم من العرب الساميين أو هم حاميون أو هم من الفلسطينيين الذين أخرجوا قديماً من ديارهم. ومعروف أن قبائل منهم حين اعتنقت الدين الحنيف وتعرّبت انتسبت إلى حمير أو إلى بعض القبائل العدنانية، وهو إحساس عميق بأنهم يرجعون إلى أصول عربية.

وليس هؤلاء السكان للشمال الإفريقي هم الذين سموا أنفسهم بربراً، إنما سماهم بذلك الرومان أخذاً من الكلمة الإغريقية: «بربروس» ومعناها: الأجنبي الذي يتكلم لغة غير

وكتاب السير للشماخي وليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجي (طبع بيروت) وتاريخ ليبيا لإحسان عباس والإباضية في موكب التاريخ لمعمر ونفحات التسرين والمنهل العذب لأحمد النائب الأنصاري وأعلام ليبيا للزواوي والنشاط الثقافي لأحمد مختار عمر وليبيا في كتب التاريخ والسير لإحسان عباس ومحمد يوسف نجم.

(١) انظر في المجتمع الليبي وسكانه ومعيشته كتب التاريخ قديماً وحديثاً وخاصة تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان (طبع جامعة محمد ابن سعود) وتاريخ المغرب الكبير لديبوز، وراجع كتب الرحلات مثل رحلة التجاني (طبع تونس) ورحلة العبدري (طبع الرباط) وصورة الأرض لابن حوقل والمسالك والممالك للبكري وتراجم المالكي في رياض النفوس ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي والبيان المغرب لابن عذارى

مفهومة، إذ كان لسان المغاربة بالقياس إلى الرومان أصواتا مبهمه لا يفهمونها. وحين فتح العرب البلاد المغربية وجدوا هذا الاسم «البربر» يطلق على سكانها، فاستخدموه، ومن الغريب أن فعل بربر في العربية بمعنى قريب من المعنى الإغريقي، إذ يراد به التمتمة في الكلام بحيث لا يفهم.

ويقسّم النسابون هذه الأمة الضخمة من حيث أسلوب الحياة إلى حَضْر وبدو رحّل، ويسمون الأولين البرانس وهم سكان المدن الشمالية مثل هواره ونفزاوة في ليبيا وتونس وكتامة وصنهاجة في الجزائر ومصمودة في المغرب الأقصى. ويسمون الثانين الرحّل باسم البُرّ وهم سكان الهضاب والصحارى مثل لواته في برقة ونفوسة في طرابلس. والمظنون أن أهل ليبيا كانوا يعيشون أولاً على الترحال وراء المراعى، حتى قدم عليهم الفينيقيون في طرابلس واليونان في برقة، فأنشأوا المدن وأخذ الليبيون يستقرون فيها وفيما وراءها من السهول والوديان. ونزل القرطاجيون مع الفينيقيين في طرابلس، واكتسح الرومان طرابلس وبرقة جميعاً. وبذلك تكاثرت العناصر التي نزلت ليبيا قديماً من الفينيقيين والقرطاجيين واليونان والرومان ونزلتها - وظلت تنزلها - سلالات من الزنوج منذ زمن الفينيقيين بعامل الاتجار في الرقيق ومن أجل الانتفاع بهم في المزارع والمراعى، وكانوا يكترون في قرّان. ونزلت ليبيا في زمن القرطاجيين - منذ القرن الثالث قبل الميلاد - جماعات من اليهود، وبالمثل بعد تخريب تيموس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد. ونزلتها في القرن الخامس الميلادي جماعات من الواندال الألمان. ونزلها لخدمة الكنائس المسيحية بها بعض رهبان القبط المصريين. ومعنى ذلك أن سلالات ليبيا الأصلية من البربر وفدت عليها عناصر جنسية أجنبية كثيرة من قارات العالم الثلاث القديمة: من آسيا ممثلة في الفينيقيين والقرطاجيين واليهود، ومن أوروبا ممثلة في الإغريق والرومان والواندال، ومن إفريقيا ممثلة في الزنوج والقبط المصريين. وهذا كله قبل الفتح العربي، وأخذ ينزلها معه وبعده مزيد من الأجناس الوافدة وخاصة من العرب وجيوشهم الباسلة ومن كان بها من القرس والعراق والشام ومصر. ولا ننسى هجرة العرب الكبرى إلى ليبيا وإفريقيا في القرن الخامس الهجري وقد استوطن بنو سليم برقة. ومنذ القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أخذ ينزلها أندلسيون كثيرون في أثناء سقوط مدنها في حجر الإسبان، وتكاثر نزولهم في أوائل القرن السابع عشر الميلادي حين أخرج الإسبان من بقى بديارهم من المسلمين. ونزلت طرابلس بعض أسر إسبانية حين احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م وبالمثل نزلتها أسر مالطية كثيرة حين احتلها بعدهم فرسان مالطة. وفي العهد العثماني الذي ظل حقبةً متطاولة نزل طرابلس وليبيا كثير من الترك والأسر التركية بجانب من نزلوها من الإنكشارية وجنود الترك سوى عناصر الأكراد والشركس.

وقد اندمج كثير من هذه العناصر قديماً في البربر وحديثاً أو بعد الفتح العربي فيهم وفي العرب فقد ظلوا دائماً العناصر الأساسية في ليبيا وأكثرها نبلاً واحتراماً وشعوراً بالشخصية، حتى لنستطيع أن نقول بصفة عامة، رغم كل العناصر التي نزلت لليبيا، إنها تكون وحدة كبيرة من عرب وبربر، بل لقد اندمج بعضهم في بعض بحيث لا تستطيع أن تميز الوجه العربي من الوجه البربري، بل لقد أصبحت الوجوه جميعاً ليبية لا فرق بين بربري وغير بربري.

٢

المعيشة

مرّ بنا أن الفينيقيين أقاموا في طرابلس لتكون مركزاً لتجارتهم وأقاموا معها صبراتة غربيها وليدة شرقيها، وبالمثل أقام الإغريق في شرقي ليبيا سيرين، وأضافوا إليها أربعة مدن: مدينة مكان سوسة الحالية، وبرقة، ومدينة مكان طوكره الحالية، وبنغازي. وكل هذه المدن حول طرابلس وفي شرقي البلاد كانت مراكز تجارية في العصور السحيقة، وظلت التجارة النشاط الأساسي لأهلها، يتخذونها معاشاً لهم طوال العصور الماضية، وأخذت تقام معها على الساحل الليبي مدن أخرى مثل زاوية غربي طرابلس وإلى شرقيها لبد وزيطن ومصراته وسرت، ومثل أجدابية وطمثية ودرنة وطبرق في إقليم برقة. وسكان كل هذه المدن كانوا يعنون بالتجارة وما تحمل إليهم القوافل من السودان والجنوب وما تحمل إليهم السفن من عروض البحر المتوسط شرقاً وشمالاً. وكانوا يعتنون - إلى جانب ذلك ببعض الصناعات اليدوية وصيد البحر، ويصف ابن حوقل - في القرن الرابع الهجري - طرابلس قائلاً: «بها من الفواكه الطيبة اللذيذة كالخوخ والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان، وبها الجهاز الكثير من الصوف والأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية السود والبيض الثمينة» ولا يلبث أن يذكر النشاط التجاري بها قائلاً: «إلى مراكب ترسو ليلاً ونهاراً وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساءً، من بلد الروم وأرض المغرب، بضروب الأمتعة والمطاعم» ويقول البكري: «لطرابلس أسواق حافلة جامعة». ويضعف نشاط طرابلس التجاري حين اكتسحتها موجات الهجرة الأعرابية في منتصف القرن الخامس الهجري، ويعود إليها نشاطها في التجارة مع استيلاء دولة الموحيدين إليها وعودة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، وظلت إلى اليوم أهم مدينة تجارية في ليبيا.

وكانت برقة منذ نزلها اليونان وأسسوا بها المدن الخمس المذكورة آنفاً تلعب دوراً كبيراً في التجارة بليبيا، وحين نزلها ابن حوقل كانت لاتزال مدينة برقة (المرج منذ أواسط القرن السابع

الهجرى) قائمة وتحدث عن نشاطها التجارى قائلا: «وجوه أموالها حجة، وبها من التجار وكثرة الغبراء في كل وقت مالا ينقطع، طُلاباً لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغربين ومشرقين» وقال إنها تنفرد بالتجارة في القُطران والجلود المجلوبة للدباغة بمصر والتمور الواصلة إليها من واحة أوجله (والواحات الأخرى) ولها أسواق عدة لبيع الصوف والفلقل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وذكر ابن حوقل للفلقل يجعلنا نذكر كيف أن ميناءى برقة وطرابلس كانا من قديم - كما مر بنا - مصباً للقوافل المصعدة من السودان وأواسط إفريقيا إليها والمنحدرة منها إلى تلك الأنحاء. وكانت تلك القوافل تأتي محملة بسلع الرقيق وريش النعام والعاج أو سن القيل والجلود، وتعود محملة بسلع ليبيا والبحر المتوسط، بحيث ظلت ليبيا قروناً متطاولة الباب أو المنفذ الكبير بين البحر المتوسط وبلداته الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية، وكان ذلك عاملاً قويا في ازدهار التجارة بطرابلس وبرقة والموانئ الساحلية بالإضافة إلى ما كان بليبيا من سلع كثيرة من مثل القمح والشعير والزيت والملح والجلود والتمور والعسل والبسط والسجاجيد والأكلمة.

وهذا النشاط التجارى لسكان ليبيا كان يرافقه نشاط زراعى حول المدن الساحلية حيث تكثر الأمطار ومن ورائها في السهول وفي وديان الجبال وفي المنطقة شبه الصحراوية والواحات من مثل واحة فزان. وتكثر زراعة الحضر والكروم والفواكه من كل صنف، وينمو الزيتون بكثرة في جبال طرابلس والجبل الأخضر ببرقة، وكانت روما قديماً تعتمد في الزيت على ما تستورده من معاصر طرابلس. وتنمو بليبيا أشجار الحناء والجدارى التى تستخدم جذورها في الصبغة، كما تنمو في المنطقة شبه الصحراوية الحلفاء البرية ذات الأوراق الخيطية الشكل، وكانوا يستخدمونها في صنع القفاف والجبال، وهى صالحة كل الصلاحية لصنع الورق. ويبدر الفلاحون الحَبَّ ويجنون القمح والشعير. وكانت روما تعتمد قديماً على ما يأتيها من حبوب طرابلس، وبالمثل الإغريق بالقياس إلى ما يأتيهم من برقة، ومما يدل - بوضوح - على أنه كان بليبيا قديماً نشاط زراعى واسع ما لا يزال ماثلاً في كثير من أنحاءها من مجارى المياه وقنواتها وسدودها وخزاناتها التى أنشأها الرومان والإغريق، وتحجب عنا كثرته الآن الرمال بغطائها الثقيل التى ظلت تنسجه طوال القرون الماضية، وإن ليبيا لحرية أن يعود لها هذا المجد الزراعى العريق. ولم أذكر أهم شجر يتراءى بقامته الهيفاء في كل مكان بأجزاء ليبيا في السهل الشمالى وفي المنطقة شبه الصحراوية وفي جميع الواحات، وأقصد النخيل وثماره من البلح، ويقال إن بطرابلس من أنواعه مايزيد عن ثلاثين نوعاً وأن في واحة غات وواحات فزان ما يبلغ خمسين نوعاً.

والزراعة لا تحتل في ليبيا إلا الشطر الأقل في الساحل والسهل الريفى وسفوح الجبال وبعض الوديان في المنطقة شبه الصحراوية والواحات. والشطور الأخرى الكبيرة من ليبيا

يحتلها من قديم بدو رُحَّل يعيشون على رعى الأنعام والأغنام، وهم يربونها للحومها وألبانها وجلودها وأوبارها وشعرها وصوفها. وبنوُّ البكري الأندلسي المتوفى سنة ٤٨٧ بكثرة السائمة في ليبيا ونحوها الواسع في مراعيها، ويقول إن كثرة ذبائح أهل مصر من ليبيا. وكان رعاتها من قبائل البدو الليبية يقتسمون مناطق الرعى بحيث لا يحق لقبيلة أن ترعى ماشيتها في منطقة قبيلة أخرى دون استئذانها، وإلا شهرت عليها الحرب، بالضبط كما كان يحدث بين القبائل في نجد بالجزيرة العربية. وكان الجفاف يصيب أحيانا ليبيا، فلا تنزل بها الأمطار التي تعودتها، فيعاني أهلها مجاعة شديدة، وربما كان ذلك هو سبب إيقاعهم - أحيانا - بحجاج المغرب والأندلس، بالضبط كما كان يصنع أهل نجد - بسبب ما يعانون من فقر وضنك - بحجاج العراق والشام ومصر، على أنه كان من شيوخ الليبيين في قفار طرابلس وبرقة من يحمون الحجاج، مما جعل العبدري يشهد لهم في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٩ للهجرة بأنهم لا يتعرَّضون للحجاج بأذى إلا في الندرة.

وبجانب هذا النشاط الرعوى والزراعى والتجارى الذى كان مصدر معيشة أهل ليبيا طوال الحقب والقرون الماضية كانوا ينشطون من قديم فى الصناعات اليدوية من مثل صناعة الزجاج وأنيته التى مهر فيها الفينيقيون، وصناعة عصر الزيت من الزيتون، وكانت صناعة رائجة فى عصر الرومان، إذ كانوا يعتمدون - إلى حد كبير - على ما يستوردونه منه من طرابلس، وهيات الملاحات الكبيرة غربى طرابلس وفى بنغازى لقيام صناعة دبغ الجلود، كما هيات لطحن الملح وتصديره، واشتهر بأنه لا يحتوى من سلفات الكلسيوم إلا على نسبة واحد فى المائة مما يجعله نوعاً جيداً من الملح إلى أقصى غايات الجودة. ويشتهر الجبل الأخضر فى برقة بما ينتج من عسل النحل وشمعه، ويوجد المرمر فى بعض جهات طرابلس وبنغازى وخاصة فى غات، ومنه نوع وردى اللون وآخر ناصع البياض، وقد قامت حول اقتطاعه فى عهد الإغريق والرومان صناعة نشيطة، وبدون ريب أتاحت لها كثرة هذا المرمر نحت ما شاءوا من التماثيل والمعابد والصهاريج، ولا يزال أطلال كثير منها قائما بليبيا إلى اليوم. وهيات المراعى الكثيرة فى إقليمى طرابلس وبرقة وما وراءها من الصحارى لكثرة الأصواف والأوبار المجزوزة من الأغنام والماعز والإبل، مما أتاح لقيام صناعات واسعة من النسيج: نسيج الملابس الرجالية والنسائية والسجاجيد والبسط التى يلائمها أشد الملاءمة الصوف الليبى لخشونته الطبيعية، بينما تلائم أوبار الإبل أقمشة الخيام. ولا ننسى ماكان يتعيش عليه بعض أهل ليبيا على امتداد الساحل الشمالى من صيد الحيتان والأسماك، وعُنت جماعة فى طرابلس وأخرى فى بنغازى بجلب الإسفنج الكثير فى مياهها. وفى كل ذلك ما يوضح كيف أن ليبيا كانت - حتى العصر الحديث - كثيرة الخيرات والطيبات من الرزق.

الدين

كان شأن أهل ليبيا في العصور السحيقة شأن كل الأقاليم المغربية وثنين يعبدون الكواكب والنجوم من مثل الشمس والقمر والكواكب السيارة جميعا ويقدمون لها القرابين ويقومون لها المعابد. ويبدو أن اليهود لما نزلوا بديارهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد أخذوا يحاولون نشر دينهم بين المغاربة، ويظن أن بعض جماعات منهم تهودت قديما وظلت جماعات منهم تعيش في المدن المغربية، وجاءهم مدد جديد حين قوّض الإمبراطور تيتوس معبدهم في بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد، وولقاهم بعد إسلام أهل المغرب - بفضّل تسامح الإسلام العظيم - منتشرين في إقليم طرابلس: في طرابلس نفسها وفي مصراته وسيرين، ويذكر المؤرخون والرحالة حارة لهم بطرابلس، ويقال إنها كانت شديدة القذارة كما يذكرون أنه كان لهم معبد خاص.

وكانت المسيحية منتشرة - قبل الفتح العربي - بالمدن الساحلية في ليبيا وغيرها من البلدان المغربية، وكانت شائعة فيها بين سلالات الفينيقيين والإغريق والرومان، بينما ظل جمهور البربر وثنيا. وربما اعتنق المسيحية بعض جماعات منهم في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى العدل والمساواة، ولكن لاشك أن هؤلاء كانوا أقلية، إذ كان الشعب البربري يعدها دين حكامه الرومان المستبدين الطاغين، وهو ما جعلهم ينفرون منها نفورا شديدا وخاصة في الهضاب والصحارى والجبال، ومع ذلك فقد سقط إلى هذه الأنحاء بعض القسس حينما اشتد أوار الخلافات الدينية واضطر بعض القساوسة إلى الفرار نحو الجبال أو نحو الجنوب، وأكبر الظن أنهم حاولوا الدعوة هناك إلى المسيحية، غير أنها لم تجد بين البربر هناك أذانا صاغية. وبدون ريب كانت المسيحية منتشرة - كما ذكرنا - بين المدن الساحلية، وربما عملت روما على نشرها منذ أعلن الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٢ للميلاد أنها دين الدولة الرسمي، وأخذت تعمل على نشرها في البلاد التابعة لها. ويبدو أن القبط المصريين كانوا أسبق من هذه الحركة الرومانية في نشر المسيحية بليبيا إذ تتحدث المصادر العربية عن مناطق بليبيا كان أهلها أقباطا، ولا بد أن عملوا على نشر عقيدتهم الأرثوذكسية المسيحية فيها، وبذلك عرفت ليبيا - قبل الفتح العربي - الكنيسة الأرثوذكسية المصرية كما عرفت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق روما وتشبيدها لها في طرابلس وغيرها.

وقد أخذ أبناء الكنيستين يتعايشون مع العرب في العصور الإسلامية بالرغم من أن المسيحية

تراجعت في ليبيا وكاد يَقضى عليها الدين الحنيف، إذ نجد أبا عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ للهجرة يذكر أنه شاهد القبط في طرابلس وبرقة لا يزالون يحتفظون بالقبطية في زمنه ويتحدثون بها في لغتهم اليومية مع أنها كانت قد اختفت في ألسنة القبط بمصر وحلت محلها العربية إلا ما كان في بعض الأديرة المتعمقة في الصحراء الغربية، وكان مما عمل على استمرار الكنيسة الأرثوذكسية وبقائها وجود أسر وسلالات من اليونان في ليبيا، ومعروف أن كنيستهم مثل كنيسة القبط المصريين أرثوذكسية. ويدل على ذلك من بعض الوجوه أن نجد الوالدين العثمانيين. محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى يرخصان لليونانيين في زمنها بإنشاء كنيسة أرثوذكسية قرب باب البحر وجعلها تابعة لباترك الإسكندرية. وظلت الكنيسة الكاثوليكية - منذ أنشأها الرومان - حية في طرابلس، وكانت تتبعها الجالية الرومانية القديمة، وظل يدها من تأسرها سفن طرابلس الحربية في البحر المتوسط من أوروبا الشمالية والغربية وخاصة من إيطاليا وإسبانيا، وكانوا يعتقدون العقيدة الكاثوليكية المسيحية، ولا بد أن عُنِيَ الإسبان حين احتلوا طرابلس سنة ٩١٦هـ/١٥١٠ وظلوا بها عشرين عاما بهذه الكنيسة، وبالمثل عُنِيَ بها فرسان مالطة حين تبعوا الإسبان في احتلالها لنحو عشرين عاما أخرى، وقد كثر في عهدهم نزول المالمطين بطرابلس، واستقرت بها من حينئذ بعثة الإرسالية الفرنسيسكانية للعناية بأمر المسيحيين وخاصة من كثر أسرهم في البحر المتوسط من مسيحيي الغرب لعهد العثمانيين.

ويفتح عمرو بن العاص برقة سنة ٢١هـ/٦٤١م ويدور العام وتفتح طرابلس، ولم يكن العرب المسلمون غزاة فاتحين يهبون البلاد التي يفتحونها ويسوسون أهلها بالفهر والبطش كما كان الرومان والواندال يصنعون، بل كانوا - قبل كل شيء - ناسرين للإسلام وتعاليمه السمحة، دون محاولة لإكراه المغاربة عليه، ودون أى محاولة لإساءة معاملتهم. ومع إنقاذهم مما كان يفرضه عليهم البيزنطيون والرومان من الظلم والاستعباد، ومع ما يدعو إليه الدين الحنيف من عبادة إله واحد رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو دين الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، ليس فيه شيء من تجسيد اليهودية ولا من تثليث المسيحية التي يعجز المغربي عن فهمها وتصورها. والمسلمون جميعا عرب ومغاربة سواسية في الحقوق والواجبات ولا سيد ولا مسود. وأخذ الحكام: عقبة بن نافع ومن جاءوا ورائه يصدرون عن هذه السياسة، وخاصة حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) الذي سَوَّى بين العرب والبربر في القُبَيْء والحراج وعدَّ أرضهم مفتوحة صلحا لا قهرا فلم يسلبها منهم. وشعورا منهم بهذه المساواة الكاملة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق انتظمت كتبية منهم في جيشه تبلغ اثني عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تجاهد في سبيل الله نصره لدينه. ويتسع انتشار الإسلام في عهد الوالى بعده موسى بن نصير (٨٥-٩٧هـ) من برقة إلى المحيط الأطلسي، إذ عمل - بكل جهده - على أن يعلم العرب البربر القرآن

وتعاليم الإسلام، ولم يكتف بانتظام جماعات من البربر في جيشه، فقد رأى إشراكهم في الحكم، وولى منهم طارق بن زياد على طنجة وإقليمها، وعهد إليه بقيادة جيش لفتح إيبيريا، وكان جيشه مؤلفا من سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر، كما يقول ابن عذارى - ويرسل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة بعثة مكونة من عشرة فقهاء على رأسها إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر للدعوة للإسلام ونشره بين البربر.

ومنذ هذا التاريخ أصبح الإسلام دين البربر في كل مكان: في الحواضر والبادى وسفوح الجبال والهضاب والصحارى، ونعمت به ليبيا وغير ليبيا من بلاد المغرب، وقوض الديانتين اليهودية والمسيحية، إذ انتشر بسرعة عجيبة لا في المناطق الشمالية المحدودة التي كانا يوجدان فيها فحسب، بل أيضا بين سكان الصحارى والجبال، بحيث انضوى المغرب وجميع أرجائه تحت لوائه، وهو ما لم تستطع المسيحية أن تحققه في عهد الرومان والبيزنطيين، بل إن من تبعها من البربر كانوا فئة أو فئات قليلة، وكأنا كان في الإسلام سحر جذبهم إليه، وليس السحر إلا ما قدمناه من ملاءمة عقيدته للفترة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، وأيضا لأنه يسوى بين رعاياه القدماء من العرب والجدد من البربر ويرفعهم إلى أعلى المناصب.

غير أنه بمجرد أن توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز وتولى بعده يزيد بن عبد الملك ثم أخوه هشام، إذا هما يوليان على البربر ولاية باغين طاغين ظلموهم ظلما شديدا، كما أسلفنا في غير هذا الموضوع، وكان أشدهم بغيا وطفيانا عبيد الله بن الحبحاب هو وولائه، وبلغ من سوء سياسته أن أخذ يفرق بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج، فعم الاستياء في كل مكان من سياسته، وأدهى من ذلك أن واليه على طنجة لم يكتف بالعدوان على البربر في الخراج، فقد أعلن أنه يريد تخميس أراضيهم متناسيا أو متعاميا عما أعلنه حسان بن النعمان في ولايته من أن أرض البلاد المغربية فتحت صلحا لا قهرا، فهي ملك لأهلها منهم ولا يصح العدوان عليها بحال من الأحوال.

٤

الإباضية والشيعة

كان طبيعيا- كما ذكرنا- أن تتور البلاد المغربية وأذكى ثوراتها وأمدّها بوقود جزل دعاة لمذهيين من مذاهب الخوارج هما مذهب الإباضية ومذهب الصفرية، عرفوهم بها وبدعوة الخوارج عامة التي تدعو إلى الأخذ بنظرية الإسلام في المساواة المطلقة في الحكم وغير الحكم بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب، فليس في الإسلام أشراف هم العرب ومشروفون هم غير العرب،

والخلافة لا تُقصرُ على قبيلة قريش وحدها، بل هي حق للمسلمين جميعا، يتولاها أكفؤهم سواء أكان عربيا أم غير عربي، وسواء أكان قرشيا أم بربريا أم عبداً حبشيا.

(١) الإباضية

اعتنق عقيدة الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة كثيرون، ومرّ بنا إشعالهم لثورات في طرابلس منذ سنة ١٢٦ للهجرة إلى أن أخذتها سنة ١٤٤ الجيوش العباسية نهائيا إلا ما كان من حركات صغرى في طرابلس وجبل نفوسة قضى عليها يزيد بن حاتم المهلبى حين ولاه المنصور سنة ١٥٤ للهجرة كثورة أبى حاتم الإباضى وثورة أبى يحيى الهوارى، وكان الحكام - وخاصة حكام الأغالبة - يستطيعون دائما قمعها، ولكن دون أن يستطيعوا القضاء على الدعوة قضاء مبرما، فقد ظلت حية هناك حياة مستمرة إلى اليوم.

وكان ينبغي أن يشيد الباحثون الغربيون بالإسلام وأنه استطاع في نحو ثمانين عاما أن ينتشر في ديار المغرب: في مدنه وجباله وصحاريه وبواديه وأن يمتلك من المغاربة أو قل من البربر قلوبهم وأفئدتهم بحيث أصبحوا يخلصون له ويحملون السلاح مع أهله للدفاع عنه ونشره في أقاصى بلادهم المغربية وفي الأندلس، كما مر بنا، واتخذوا لغته لغة قومية لهم ورسخت - أو أخذت ترسخ - بينهم في الجبال القاصية، بينما ظل الرومان قرونا متعاقبة يحكمون بلاد المغرب ويحاولون - بكل ما وسعهم - نشر لغتهم اللاتينية فيه ونشر عقيدتهم المسيحية، وخاصة منذ عهد قسطنطين وإعلانه أنها دين الدولة الرسمى، وظل البابا وقسسه ورهبانه يجاهدون في نشرها بين البربر دون جدوى إلا ما كان من نفر ضئيل في المدن الساحلية الشمالية، وبدلا من أن يسجلوا ذلك ويعترفوا للإسلام بمبادئه الروحية البسيطة التي لقيت استجابة لا تماثلها استجابة لا في البقاع المغربية وحدها بل في كل البقاع التي فتحها العرب الأولون: بقاع العراق وإيران والشام ومصر، إذ سرعان ما دخل أهلها جميعا في الدين الخفيف بمجرد أن وقفوا على مبادئه وتعاليمه الدينية الروحية، أقول بدلا من أن يسجل الباحثون الغربيون هذه الظاهرة الكبرى للإسلام بالقياس إلى المسيحية وما تحمل من عقيدة التثليث المعقدة ترى نفرا منهم يطيب لهم أن يزعموا زعما باطلا أن حركات الإباضية بليبيا في القرن الثاني الهجرى وبالمثل حركات الصفرية في المغرب الأقصى والأوسط كانت حركات استقلالية قومية^(١)، وهو زعم مخطئ أشد الخطأ، إذ لم يحاول أحد من البربر في تلك الحركات الردة - أو الدعوة إلى المسيحية، كما لم يحاول أحد الردة، أو الدعوة إلى العودة إلى اللاتينية التي كانت منتشرة في المدن الساحلية

(١) انظر: E. F. Gautier, Le Passé de l'Afrique

du Nord, PP 160 Sq.

الشمالية وأخذت تنسحب أمام العربية دون عودة. ومن أكبر الأدلة على أن الدين الحنيف ولغته احتلاً قلوب المغاربة وتغلغلا إلى السويداء منها أن نجد قبائل بربرية كثيرة تصطنع لها أنسابا تصلها بالعرب الجنوبيين في اليمن أو بالعرب الشماليين سكان نجد، ومن يرجع إلى قواد ثورات الإباضية في طرابلس ونفوسة الذين ذكرناهم في غير هذا الموضع يرى أنهم كانوا عربا، ولم يكونوا من البربر، إذ كانوا فعلا بين تجيبي وحضرمي ومرادي ومعافري، وجميعهم من العرب، مما يدل دلالة قاطعة على أن ثورات الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة - وبالمثل ثورات الصفرية في المغرب الأقصى والأوسط - لم تكن ثورات بربرية قومية، وإنما كانت ثورات إسلامية ضد الحكام الغاشمين الذين انحرفوا عن مبادئ الإسلام في سياسة البربر وحكمهم، فأهدروا حقوقهم وفرّقوا بينهم وبين العرب في الشئون المالية وغيرها. هي إذن ثورات كانت تستمد من روح الإسلام ومقاصده وتعاليمه في نشر العدل والمساواة بين شعوبه عربا وغير عرب، وأيضا فإن هذه الثورات لم تقم على مبادئ بربرية إقليمية أو قومية، إنما قامت على مبادئ فرقتين من فرق الخوارج في عُمان والعراق، وقد تغيّتا فيها سواء الإباضية أو الصفرية أغراضا وأهدافا إسلامية في الحكم وتطبيقه وما ينبغى فيه من المساواة والعدالة المطلقة بين المسلمين جميعا عربا وغير عرب.

وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنعرف مبادئ الإباضية التي شاعت في طرابلس وجبل نفوسة، وأول مبدأ لهم أن الخلافة - أو كما يسمونها الإمامة - ليست حقا لقريش ولا ميراثا لأسرة قرشية، بل هي حق لله وللمسلمين جميعا، وينبغى أن يتولّاها خير المسلمين تقوى وزهدا وورعا وتطبيقا لتعاليم الإسلام في الحكم القائمة على العدالة والمساواة، وهم يفترون عن عامة الخوارج في أنهم لا يعدون مرتكب الكبيرة كافرا، بل يعدونه مسلما عاصيا ولا يعدون دار المسلمين سواهم دار حرب وينبغى أن يحملوا السلاح دائما ضدهم، وأيضا فإنهم يتوارثون معهم ويحلّون الزواج منهم، وهم بذلك أكثر مذاهب الخوارج قربا إلى الجماعة الإسلامية، حتى يمكن أن يُفصلوا عن الخوارج ويُلحقوا بتلك الجماعة. ومعروف أن مؤسس العقيدة الإباضية هو عبد الله بن إباض التميمي، وعنه حملها جابر بن زيد الأزدي العماني، وعن جابر حمل لواءها أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ولاء البصري موطنا، وقد أرسل سلمة بن سعد أحد تلاميذه إلى جبل نفوسة ليدعو الناس للدخول في عقيدتهم الإباضية، واستجاب له كثيرون فاختر منهم خمسة للقاء ابن أبي كريمة بالبصرة، وعادوا مملوئين حماسة للعقيدة أو الدعوة، وأخذوا ينشرونها في جبل نفوسة وطرابلس وإقليمها، حتى إذا كثرت أتباع الدعوة أخذوا يثورون على الدولة الأموية ثم على الدولة العباسية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع.

(ب) الشيعة: الدعوة العبيدية

إذا كان الإباضية نجحوا في أن يظل جبل نفوسة موطناً لهم إلى اليوم وبعض أنحاء من طرابلس وإقليمها فإن الدعوة العبيدية الإسماعيلية، على الرغم من أنها أسست لها دولة في إفريقية التونسية وانضوى تحت لوائها المغرب جميعه من برقة إلى المحيط الأطلسي فترة غير قليلة في القرن الرابع الهجري، لم تستطع أن تبقى في طرابلس وإفريقية التونسية إلى ما بعد القرن الرابع. ومعروف أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت منذ أواسط القرن الثاني الهجري إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة الفاطميين إلى ابنه موسى الكاظم، ويدين بذلك الآن شيعة العراق وإيران، وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته، لأن الإمامة تنتقل في عقيدتهم إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه، ونظّم هذه الدعوة عبد الله بن ميمون القدّاح واتخذ مركزاً لها قرية سلمية بقرب اللادقية، وأخذت تنتقل الإمامة في تلك الدعوة سرا من أب لابن، حتى إذا كنا في آخر القرن الثالث الهجري كان الإمام عبيد الله المهدي، وتسلل أحد دعائه الدهاء أبو عبد الله الصنعاني إلى الجزائر، واستطاع أن يقنع بتلك الدعوة الشيعة قبيلة كُتامة، ولم يلبث أن قضى بها على الدولة التي كوَّنتها الإباضية في تيهرت بالجزائر، والأخرى التي كوَّنتها الصفرية في سجلماسة جنوبي المغرب الأقصى، وقاد من كُتامة حملة قضى بها على دولة الأغالبة في إفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وكان قد ظل يدعو للرضا من آل البيت، حتى إذا قضى على الأغالبة كشف القناع عن وجهه، فأعلن قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية، واستدعى من سلمية الإمام المستر بها أو المختفى عبيد الله. ووصل القيروان سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بيعة عامة، ويسمى مؤرخو إفريقية التونسية الدولة باسم الدولة العبيدية نسبة إليه، وخاصة أن بعض المؤرخين تشكك في نسب هذه الدولة إلى السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، غير أن ابن خلدون أكد صحة نسبتها إليها وأنها فاطمية حقاً. وكان طبيعياً أن يحاول عبيد الله - حين بويع له بالخلافة - الاستيلاء على ليبيا ونشر الدعوة الإسماعيلية بها، لما فيها من طيبات الرزق، ولأنها طريقه إلى مصر المأمولة. وبمجرد استيلائه على القيروان تبعته طرابلس إذ كانت تتبعها في أيام الأغالبة، وولى عليها كُتامياً سنة ٢٩٨ فسَلط جنده الكُتامي على أهلها من قبيلة هواره، فغضبوا غضباً شديداً وفتكوا بجنده، ولم يلبث جيش كُتامي أن حاصرها، ولم يفك حصاره لها إلا بعد أن أغرم أهلها غرامة ضخمة: ثلاثمائة ألف دينار. وحاول عبيد الله المهدي ضمّ برقة إلى دولته واستعصت عليه، فأرسل إليها جيشاً كُتامياً على رأسه قائد يسمى حباسة الكُتامي، ففتك بكثيرين من أهلها واستصفي أموالهم، وغرّم أهلها مائة ألف دينار. وعادت برقة سريعاً إلى الثورة سنة ٣٠٤ للهجرة، وردّها أحد قادة عبيد الله إلى الطاعة. وثار الإباضية في جبل

نفوسة سنة ٣١٠ هـ وهزموا جيشين لعبيد الله، وأخيراً انتصر جيش له على إباضية نفوسة، واستكانت ليبيا - منذ هذا التاريخ - لحكم الفاطميين طوال بقائهم في إفريقية التونسية وفترة بعد مغادرة المعز العبيدي لها إلى القاهرة ولكنها كانت استكانة على مضض غير قليل، فقد ظل من بها من الإباضية في جبل نفوسة وأتحاء طرابلس يعادون الدعوة العبيدية - أو الفاطمية - الإسماعيلية، كما ظل أهل السنة الذين تتألف منهم جماهير غفيرة في طرابلس وبرقة يستنكرون الدعوة الإسماعيلية الشيعية ويرفضونها رفضاً باتاً. وبمجرد أن انسحب حكمهم من إفريقية التونسية في عهد المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤ هـ). انسحبت معه عقيدتهم الإسماعيلية لا في إفريقية التونسية وحدها بل أيضاً في طرابلس وإقليمها وجبل نفوسة، وبقيت لتلك العقيدة ظلال باهتة في برقة لأنها كانت تتبع الدولة الفاطمية في القاهرة، أما في طرابلس وإفريقية التونسية وما وراءها من البلاد المغربية فإنه لم يبق لها أى ظلال لا باهتة ولا غير باهتة، ويرجع ذلك في رأينا إلى التطرف الشديد في انحراف مبادئها عن الدين الحنيف وتعاليمه، حتى لتتسلخ جملة عنه، إذ تحيط أئمتها بهالة من التقديس لا يقرها الإسلام حتى لتزعم عصمتهم رافعة لهم فوق المستوى الإنساني، بل إنها لتزعم أن الإمام العبيدي الإسماعيلي هو التجسد الرباني للذات العلية على الأرض، وهو لذلك المشرع وصاحب الأمر العالم بالغيب وما سُجِّل في ألواح، وكل صفات الله - جلَّ جلاله - إنما هي صفاته، إلى غير ذلك من مبالغات بل من ترهات، سوَّلت لبعض دعاة الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله أن يدعو إلى عبادته، وقد عرضت ميادى هذه الدعوة الضالة بالتفصيل في الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة الخاصة بتاريخ الأدب العربي، موضحاً كيف أن مصر انصرفت عنها، بل رفضتها رفضاً، وهو ما حدث في طرابلس والبلاد المغربية. وكأنما دخلتها جميعاً - حين كانوا يحكمونها - من باب شديد الضيق، ثم خرجت بعدهم - حين رحلوا عنها - من باب آخر ولم تترك وراءها أثراً. وعينا حاول أبو عبد الله الصنعاني أن يقنع بها فقهاء القيروان وردوا عليه ردوداً مفحمة، وأحسَّ عبيد الله المهدي - بوضوح - نفور الناس من عقيدتهم الإسماعيلية نفوراً شديداً، فطلب إلى دعاةها أن يخففوا من النشاط للدعوة لها، وبنى «المهدية» على رأس بارز في الساحل على البحر المتوسط شرقي سوسة، وأحاطها بأسوار عالية قوية مع أبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد - كما يقول الحسن الوزان في وصف إفريقيا - سنة ٣٠٥ هـ ونقل إليها أسرته وأمواله وجنده حتى يأمن على نفسه. وظلت طرابلس وإقليمها بل أيضاً برقة وإقليمها كما ظلت إفريقية التونسية مزورَّتين عن الدعوة الشيعية، وظلت الجماهير فيها جميعاً مرتبطة بمذاهب أهل السنة إلى أن خرجت طرابلس وإقليمها كما خرجت إفريقية التونسية من الدعوة السيدية الإسماعيلية في عهد المعز بن باديس على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

الزهد والتصوف

ازدهر الدين الحنيف في جميع أنحاء ليبيا منذ القرن الأول الهجري، وأخذت مساجده تُبنى في كل مكان: في الحضرة والبدو، ويرمز إلى ذلك المسجد الجامع الذي بناه فاتح ليبيا العظيم عمرو بن العاص في طرابلس أمام باب قبيلة هوارة، وتنافس ولاية طرابلس وليبيا بعده في بناء المساجد وخاصة ولاية الدولة الأغلبية، وخلفتها الدولة العبيدية، فعنى المهدي ببناء جامعها المتسع الأعظم، وبني ابنه القائم جامعاً حسن البناء في مدينة أجدابية. وكان الشعب يشارك في بناء الجوامع والمساجد فاكتظت بها ليبيا، وكانت جميعاً بيوتاً كبرى للعبادة والنسك، وكانت حلقات الفقهاء والعلماء فيها أشبه بمدارس للتعليم والدراسة، واشتهر كثيرون في جميع أنحاء ليبيا بأنهم كانوا زهاداً في المتاع الدنيوي وأنهم كانوا عبداً نساكاً ينتظرون ما عند الله من ثواب الآخرة، ويسوق المالكى في رياض النفوس وابن الدباغ في معالم الإيمان والتجاني في رحلته المشهورة وأحمد النائب في نفحات النسرين والمنهل العذب والظاهر الزاوى في أعلام ليبيا أسماء عشرات من زهاد ليبيا ونساكها على مر القرون.

ومن نذكره من زهاد ليبيا ونساكها عبد الله الشعاب المتوفى بعهد الأغالية سنة ٢٤٣ للهجرة ولد بطرابلس ونشأ بها، وكان نجاراً لا يأكل إلا من كسب يده، وتمم بناء مسجد كان البناء فيه توقف، وسكنه وعاش يتعبداً لربه فيه، ونسب إليه إذ سمي بمسجد الشعاب ويقول مترجموه إنه كان من كبار الصوفية والنسك الورعين، ومن هؤلاء النساك عبد الجبار السُّرُقى المتوفى سنة ٢٨١ كان يختم القرآن مرة كل ليلة وختمه في مسجده أكثر من ألف ختمة، ومنهم عبد الله بن إسماعيل البرقى المتوفى سنة ٣١٧ وكان يختم القرآن يومياً، ومنهم سعيد بن خلفون المتوفى سنة ٣٦٢ وكان من أكابر الصوفية واقفاً على المعارف اللدنية والقدسية وكان يسكن بمسجد منسوب إليه في طرابلس، وكان للناس اعتقاد فيه حتى لقبوه بلقب المستجاب وأكثروا من الحديث عن كراماته، وكان يعاصره بطرابلس ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا ابن الخطيب المتوفى سنة ٣٧٠ وكان يتخذ مسجد المجاز في بلدته مسكناً ومأوى له، وكان عابداً ناسكاً ورعاً، وكان يعاصرها أبو نزار خطاب البرقى المتوفى سنة ٣٧٣ وكان يعاشر الصوفية وينزع منزعهم، وكان مثل صاحبيه يسكن جامعاً إلى الشرق خارج المدينة. ومن كبار الزهاد بطرابلس في القرن الخامس الهجري أبو الحسن السيقاطى المتوفى سنة ٤٢٠ للهجرة وكان يتعبد لربه بمسجد سيقاطة على ساحل طرابلس. وأبو مسلم مؤمن بن فراج الهوارى المتوفى

سنة ٤٤٢ للهجرة وله مسجد كان يتعبد فيه ويدرس لطلابه منسوب إليه.

ويتكاثر زهاد ليبيا ونُساكها ومتصوفتها في القرون التالية، وهم أكثر من أن نحصيهم ونعدّهم عدًّا، وقد أخذ نفر منهم - منذ القرن السابع - ينتمى إلى الطرق الصوفية السنية، وطبيعي أن لا ينتسبوا إلى الطرق الصوفية الفلسفية عند أبي مدين وابن عربي وابن سبعين وأضرابهم إذ لم يكن أهل ليبيا يأخذون أنفسهم بشيء من الفلسفة أو التفلسف يفسح لهذه الطرق بينهم، ونظن ظنًّا أن بعض زهادها ونُساكها تبع الطريقة الشاذلية الصوفية^(١) السنية التي أخذت تشيع في تونس ومصر منذ أواسط القرن السابع الهجرى حين أسسها بتونس أبو الحسن الشاذلي، ثم غادرها إلى القاهرة، وكان من أهم أتباعه فيها ابن عطاء الله السكندري الذي اشتهر بحكم له بديعة. ويلقانا من كبار أتباع الطريقة الشاذلية في القرن التاسع الشيخ زروق المولود بمدينة مصراته شرقي طرابلس سنة ٨٤٦ للهجرة، وقد رحل إلى القاهرة ودرس بالأزهر وأخذ عن علمائه، ويبدو أنه اعتنق الطريقة الشاذلية حينذاك، وكان فقيها مالكيًا ضليعًا وله مؤلفات مهمة في الفقه المالكي، وأكثر مؤلفاته في التصوف وبخاصة في الطريقة الشاذلية وله فيها مخطوطة بدار الكتب المصرية بعنوان أصول الطريقة الشاذلية، ومخطوطة ثانية شرح فيها حزب الشاذلي المسمى بحزب البحر، ويقال إن له ستة عشر شرحًا لحكم ابن عطاء الله السكندري، وطبع أحد هذه الشروح بالقاهرة مرارًا، وطبع له في القاهرة كتاب بعنوان قواعد التصوف. وتوفي زروق بمصراته مسقط رأسه سنة ٨٩٩ للهجرة.

ويلقانا بعده من أتباع الطريقة الشاذلية الحروي محمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٣، وكان أبوه من تلامذة الشيخ زروق، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية، وتوفي فرعته أمه وكانت سيدة سالحة، فلقتته كثيرًا من المذاهب النبوية والتراتيل الدينية، وكان لها ابن عمه شاذليًا، فدرس عليه الحروي مسالك الطريقة الشاذلية وحكم ابن عطاء الله السكندري، واندمج روحياً في تلك الطريقة طوال حياته، وله شرح لحكم ابن عطاء الله، وفي دار الكتب المصرية له تفسير مخطوط كبير. ومن أكبر أتباع الطريقة الشاذلية في القرن العاشر الهجرى عبد السلام الأسمر المولود بمدينة زليطن شرقي طرابلس ولادة سنة ٨٨٠ للهجرة، وكان صوفياً مجذوباً في حب ربه، وكانت تعتره حالات وجد وهيام شديدة واستخدم في حلقاته ومجالسه الدف والبندير والغناء والرقص، مما جعل كثيرين من معاصريه النساك ينتقدونه نقدًا شديدًا، واضطره ذلك إلى الخروج عن بلده مرارًا إلى جهات مختلفة في ليبيا وفي إفريقية التونسية، واستقر أخيراً في زاويته بمسقط رأسه زليطن إلى أن توفي سنة ٩٨١ للهجرة، وكان يقرأ لأتباعه في الزاوية كتباً مختلفة في التوحيد

(١) انظر في هذه الطريقة ومؤسسها أبي الحسن

الشاذلي وتابعه ابن عطاء الله السكندري كتابنا في

هذه السلسلة عن مصر.

والفقه المالكي، كما كان يقرأ لهم حكم ابن عطاء الله السكندري، وله مؤلفات مختلفة في التصوف، وكان له مریدون كثيرون لزموه في حياته من بيته مثل ابنه عمران ومن غير بيته مثل إبراهيم بن علي العوسجي المتوفى سنة ٩٩٨ ومثل كريم الدين البرموني المصراقي المتوفى بأخرة من القرن العاشر الهجري وله كتاب في أستاذه. وتتكاثر الزهاد والصوفية في ليبيا طوال العصر العثماني، وتتكاثر زواياهم وتعم في البلاد الطريقة الشاذلية، وتزاحمها بعض الطرق الصوفية السنية، ولكن تظل لها الغلبة.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة^(١) العلمية

(أ) فاتحون وناشرون للإسلام

منذ فتح عمرو بن العاص لليبيا وولاتها يُعنون بنشر الدين الحنيف وتعاليمه وثقافته فيها، فقد كان ذلك الغاية المثلى والمقصد الأسمى من الفتوح الإسلامية لا في ليبيا وحدها، بل أيضا في كل ما فتحه المسلمون في عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولذلك نرى ولاة المغرب في ليبيا وغير ليبيا يحنون كثيرين من جنودهم - وخاصة من أقاموا واستوطنوا هناك - إلى تحفيظ البربر القرآن الكريم وتعليمهم مبادئ العربية كي يستطيعوا تلاوته تلاوة سليمة، وحثهم على ذلك - بقوة - عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان في أواسط القرن الأول الهجري، وبالمثل مؤسس مدينة تونس: حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ) واتسع خلفه: موسى بن نصير - في هذه الغاية من تعليم البربر القرآن وتعاليم الإسلام، ويقال إنه كلّف بذلك سبعين رجلا من جنوده بثمهم في قبائل البربر، ويقال: بل إنه جعل ذلك فريضة على جميع جنود العرب الفاتحين.

والتذكار لابن غلبون وحكاية مدينة لخليفة محمد التليسي وتاريخ المغرب الكبير لدبوز ونفحات النسرين والمهمل العذب لأحمد النائب وكتابي أعلام ليبيا ومعجم البلدان للزاوي وأعلام من طرابلس للمصراق والإباضية في موكب التاريخ لمعمر وكتاب النشاط الثقافي في ليبيا لأحمد مختار عمر وتاريخ ليبيا لإحسان عباس وتاريخ طرابلس الغرب لمحمود ناجي.

(١) راجع في ثقافة ليبيا رياض النفوس للمالكي والبيان المغرب لابن عذارى وتراجم معالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي والسير للشماخي وطبقات التحويين واللغويين للزبيدي وإنباه الرواة لللفظي والديباج المذهب لابن فرحون وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وتاريخ ابن خلدون والأنساب للسمعاني وكتابي الأزمنة والأنواء وكفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابي ورحلة التجاني ورحلة العياشي والرحلة المغربية للعبدي

ولا بد من ملاحظة أن البربر الذين اعتنقوا الدين الحنيف أخذوا يشتركون مع الجيوش العربية في الفتوح وحرب الكفار، وكان زملاؤهم من العرب في حمل السلاح يلقنونهم آى الذكر الحكيم ومبادئ الإسلام وتعاليمه، ويذكر المالكي في كتابه «رياض النفوس» أن جيش زهير بن قيس والى المغرب بعد عقبه بن نافع كان مكوّنًا - في بعض حربه لكسيلة النائر المغربي - من ألفين من البربر وأربعة آلاف من العرب، كما يذكر ابن عذارى في كتابه «البيان المغرب» أنه كان في جيش حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥هـ) اثنا عشر ألفا من البربر، ويذكر أيضا أن جيش طارق بن زياد البربرى والى طنجة لموسى بن نصير كان مكوّنًا - في فتحه لإيبيريا - من سبعة عشر ألفا من العرب واثني عشر ألفا من البربر، ويعقب ابن عذارى على ذلك بأن موسى بن نصير «أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين». ومعنى ذلك أن الجند العربى الذى كان يعايش الجند البربرى في حرب الكفار ونشر الإسلام كان يعلمه القرآن وتعاليم الإسلام الدينية. ويصوّر ذلك من بعض الوجوه ما رواه الشماخى في كتابه السير عن عمر بن يمكتن أول معلم من البربر للقرآن الكريم في جبل نفوسة بطرابلس قبيل اشتراكه في ثورة أبى الخطاب المعافرى سنة ١٤٠ للهجرة وتوليته له على مدينة سرت، فقد روى عنه أنه تعلم القرآن بطريق (مقمّداس) كان يتلقّى فيها السأيلة والمارة من المشرق (يريد الجند العربى الداخل إلى إفريقية التونسية) فيكتب عنهم لؤحا من القرآن وينصرف إلى منزله، فإذا حفظ ما فيه رجع إلى المحجة (الطريق) فيكتب من المارة والرّفاق كذلك حتى حفظ القرآن وتعلّم العلم». ويقول الشماخى إنه «كان يصنع ذلك لحرصه على طلب العلم والقرآن في أول الإسلام وقلة المعلمين في البلدان». ونظن أنه إنما كان يصنع هذا الصنيع حتى يتلقن بدقة أداء ألفاظ الذكر الحكيم على وجوهها الصحيحة، لأن أداءها لا يكفى فيه ما كتب في مصاحفه أو في الصحف، بل لا بد في القرآن الكريم من أخذه شفاها، حتى يحكم الشخص تلاوة آياته بنطقها وأدائها الدقيق، وهو ما دفع ابن يمكتن إلى أخذه شفاها من أفواه السأيلة والمارة من الجند العربى الداخل إلى إفريقية التونسية والبلاد العربية. وفي هذا الخبر ما يوضح مدى ما أسداه الجند العربى الفاتح للمغرب - حتى المارة منهم بالطرق - في تحفيظ القرآن وحسن أدائه للمغاربة شبابا وغير شباب، ويقول ابن يمكتن إنه تعلم - من مارة الجند أيضا - العلم يريد تعاليم الإسلام والفقّه بالدين الحنيف. فأينما كان الجند العربى مجاهدا في سبيل الله مع البربر ومقبيا بين ظهرانيمهم ومارا بطرقاتهم كان يعنى بشدّ أزرهم في حفظ القرآن الكريم والمعرفة الدقيقة بمبادئه والتفقّه البصير بتعاليمه.

(ب) الكتابيب

إيماننا من الولاية في ليبيا وغير ليبيا من أن الدين الإسلامي العظيم جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم حتى يعلم بدقة فروض دينه وتعاليمه أخذوا يعنون ببناء كتابيب لتحفظ فيها ناشئة البربر القرآن وتعرف مبادئ الشريعة الإسلامية، وكان المعلمون فيها يبدون بتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ العربية، لإحكام النطق السديد بألفاظ الذكر الحكيم. وكانت تلك الكتابيب تلحق بالمساجد أو تخصّص لها غرفة بداخلها ثم أخذت تشيع في الحارات والدروب بالمدن وفي الواحات والأحياء بالوديان، وظلت تحلّ في ليبيا وغير ليبيا محل التعليم الابتدائي في عصرنا، وكانت الناشئة تزوّد فيها ببعض الأحاديث النبوية وبعض سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكانت تزوّد فيها بمبادئ الحساب، وأهم من ذلك تعلم فروض الإسلام وخاصة الصلاة وكيفية أدائها وما ينبغي لها من الوضوء والطهارة كما تتعلم بعض إرشادات تهدي إلى الخلق المستقيم والسلوك القويم.

(ج) المساجد

وهذا التعلّم المبكر للقرآن وتعاليم الإسلام الذي أنشئت من أجله الكتابيب في كل أنحاء ليبيا كانت الناشئة تنتقل منه إلى حلقات العلماء الذين كانوا يرابطون في المساجد ملقنين على طلابهم مختلف الدروس والمحاضرات في فنون العلوم المختلفة من لغوية ودينية. وكانت ليبيا تكتظ بهذه المساجد في مدنها وقرائها وواحاتها، ولم يكن يخلو مسجد من عالم كبير يحاضر الطلاب أو يعظ الناس، ومرّ بنا في حديثنا عن الزهد والتصوف ذكر بعض مساجد اشتهرت في طرابلس وساحلها، ويذكر التجاني في رحلته أن بخارجها مساجد كثيرة، أما مساجدها في أحيائها المختلفة ودروبها فلا تحصى كثرة، ويقول إن بساحلها مساجد كثيرة. ولا نلتقى بالمساجد في ليبيا بالمدن فحسب، بل نلتقى بها أيضا في القرى على شاكلة مسجد علي بن عبد الحميد العوسجي المقرئ الذي بناه في قريته «الحرشا» من قرى مدينة الزاوية، وكانت مدن جبل نفوسة وقراه تكتظ أيضا بالمساجد. وكان العلماء ينتصبون في تلك المساجد لإلقاء دروسهم في قراءات القرآن الكريم وفي تفسيره وفي الحديث النبوي وفي الفقه والشريعة وفي العربية وقواعدها السديدة، وقد أصبحت طرابلس وبرقة منذ عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ - ١٧٠ هـ) مركزين من مراكز العلم، وبعث فيها الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ) حركة علمية خصبة، إذ عنوا بعلمائها وأسبقوا عليهم من الرواتب ما يسد حاجتهم، وكان المجتمع الليبي يجتمع طوائفه يجلّ هؤلاء العلماء ويعرف لهم قدرهم وأنهم منارة الدين وحملة أضوائه.

(د) الرحلة في طلب العلم والوافدون

على نحو ما كان الشباب المغربي في إفريقية التونسية يرحل إلى مصر والشام والحجاز والعراق للتزود من العلوم الإسلامية واللغوية كذلك كان الشباب الليبي يرحل في طلب العلم وأخذه عن أعلامه، وسنذكر - عما قريب - بعض من حملوا عن الإمام مالك كتابه الموطأ وأذاعوه في وطنهم. ولا بد أن بعض المعلمين للعربية في ليبيا مدَّ رحلته في المشرق إلى العراق للاختلاف إلى علماء العربية بها وحمل كتبهم إلى البلدان الليبية.

وكان موقع ليبيا في طريق الأندلسيين والمغاربة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة ذهاباً وإياباً يتيح لبلداتها مثل طرابلس وبرقة أن ينزلها بعض العلماء ويطيّب له الإقامة فيها شهراً أو أشهراً، ويلتف به طلابها يحاولون أن يأخذوا عنه ما عنده من العلم أو ما اشتهر به، على شاكلة محمد بن عيسى البياني الذي مر بطرابلس وبرقة في عامي ٣٣٢ و ٣٣٨ فالتف به طلابها يكتبون عنه، ومثل الفقيه أبي الحسين محمد بن إبراهيم الأندلسي الذي نزل طرابلس في عودته من أداء فريضة الحج، فقرأ عليه طلبتها بعض مؤلفاته. وكثر نزول مثل هذين العالمين بها في عهد الدولة الحفصية، ويقال إن ابن منظور العالم اللغوي المشهور المتوفى سنة ٧١١ بمصر تولى القضاء بها. ويروى عن بعض هؤلاء العلماء الوافدين - وخاصة على طرابلس - أنهم توفقوا بها للأخذ عن علمائها ونسمع بذلك منذ القرن الثالث الهجري، مما يدل بوضوح على ازدهار الحركة العلمية بطرابلس وأن أسماء بعض علمائها أخذ في الذبوع مما جعل بعض العلماء الوافدين يشغف ببقائه والأخذ عنه، على نحو ما نجد عند ابن الفرضي في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» إذ ذكر نقرأ نزلوا بطرابلس في رحلاتهم إلى المشرق للتزود من علمائها وحمل ما عندهم من العلم، ومن ذكرهم محمد بن قاسم بن سيار المحدث الأندلسي المشهور، إذ قال عنه إنه سمع بطرابلس عن علمائها في رحلته سنة ٢٩٤ للهجرة ومن ذكرهم أيضاً محمد بن عبد الملك بن ضيفون قاتلاً عنه: إنه سمع بطرابلس في رحلته سنة ٣٣٨ من يحيى بن دحمان، كما سمع منه مواطنه هاشم بن يحيى بن حجاج البطلبوسى في رحلته إلى المشرق، وسنذكر - فيما بعد - أن التجاني صاحب الرحلة المشهورة التي نرجع إليها حين زار طرابلس واستمع إلى محدث فيها هو ابن عبيد انبهر انبهاراً شديداً والتمس منه أن يقرأ عليه صحيحى مسلم والبخارى.

(هـ) المدارس

عرف العالم الإسلامي فكرة المدارس منذ أواخر القرن الرابع الهجري وتوسع فيها نظام

الملك وزير ألب أرسلان في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إذ بنى طائفة من المدارس في العراق وإيران سُميت كل منها باسم المدرسة النظامية، وكانت أشبه بجامعة يحاضر بها الأساتذة في فروع العلوم المختلفة، ولهم فيها مساكن ورواتب معلومة وللطلاب نفقات تكفيهم، ولكل مدرسة مكتبة نفيسة. وأخذت تتكاثر المدارس في البلدان العربية منذ القرن السادس الهجري، ويشيد التجاني وغيره من الرحالة الذين زاروا طرابلس بمدرسة بديعة قام على بنائها بين سنتي ٥٥٥ و ٥٥٨ الفقيه الطرابلسي عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا. ونمضى إلى القرن السابع وكانت طرابلس تتبع الدولة الحفصية التي عنيت ببناء المدارس في تونس وأرجاء دولتها، ويبدو أنه بنيت في عهدها بطرابلس مدارس متعددة بشهادة التجاني في رحلته إذ يذكر أن بطرابلس مدارس متعددة أو كما يقول مدارس كثيرة. ويذكر الشماخي في كتابه السير وعلى يحيى معمر في كتابه الإباضية في موكب التاريخ مدارس متعددة للإباضية بنوها في جبل نفوسة. ومع أن العثمانيين في زمن حكمهم لطرابلس وليبيا لم يكونوا يولون الحركة العلمية العناية الواجبة نجد بعض ولائهم يعنون ببناء بعض المدارس، يتقدمهم في ذلك مراد أغا إذ بنى مدرسة بمدينة تاجوراء، ولا بد أن هؤلاء الولاة بنوا مدارس متعددة في البلاد، ويُذكر أن عثمان الساقزي بنى مدرسة بطرابلس قرب باب البحر، كما يذكر أن أحمد القرماني بنى مسجداً كبيراً وألحق به مدرسة. ولا بد أن مدارس تركية متعددة أنشئت في بلدان طرابلس وأيضاً في بلدان برقة حين انفكت عن تبعيتها للقاهرة، وكانت تتبعها منذ العصر الفاطمي إلى أن ضمها إلى ولاية طرابلس محمد الساقزي. وبدون ريب ساعدت المدارس في النشاط العلمي بتلك الديار، ولو أنه كان في العصر العثماني نشاطاً محدوداً.

(و) الزوايا

عرفت المغرب الزوايا وأخذت تستكثر منها منذ القرن السابع الهجري، وكانت الزاوية تتكون من قاعة ومحراب للصلاة وغرفة لتحفيظ القرآن أو تلاوته وبعض غرف للضيوف والطلبة وبعض الزوار ممن ينزلون بها مع ما تحتاج إليه من المرافق. وكان بعضها يتسع في مبانيه، حتى تصبح الزاوية كأنها مسجد يمج بطلابه وزواره، وكان يكثر أن يكون لشيخها ضريح يدفن فيه، ومن فوقه قبة كبيرة. وتحوّل كثير من الزوايا إلى ما يشبه دور علم مع ما تتيحه من العبادة والنسك، ويتحدث التجاني الذي نزل بطرابلس في أوائل القرن الثامن الهجري عن زاوية أولاد سهيل وعنايتها بتحفيظ القرآن وما بها من كتب كانت موقوفة على الطلاب وما كان لهم بها من غرف للسكنى. ومن أشهر زوايا ليبيا زاوية عبد السلام الأسمر بمدينة زليطن، وكانت تعنى - مع تحفيظ القرآن الكريم - بالعلوم الدينية، وكان بها حجر كثيرة لسكنى الشيوخ والطلاب، وقد أسسها صاحبها سنة ٩٠٠هـ وظل الطلاب يؤمونها بعده من أنحاء ليبيا وغيرها، وكانت

مكتبتها تشتمل على خمسمائة مجلد من الكتب النفيسة. ولم تكد تخلو بلدة في ليبيا من زاوية تعنى بالعبادة وبث العلم والمعرفة.

(ز) خمود في الحركة العلمية

أصاب الحركة العلمية بليبيا غير قليل من الخمود في فترتين أما أولاهما فحين هاجر إلى ليبيا والمغرب أعراب بنى سليم وبنى هلال منذ سنة ٤٤٣ وكانوا بدوا جفاة، فأنزلوا بليبيا دماراً كثيراً، وخاصة في حضرها ومدنها، شل العمران فيها والحياة العلمية إلى نحو قرن من الزمان، ولم تلبث طرابلس أن مُحِيت باحتلال نورمان صقلية لها ثلاث عشرة سنة طوالاً، وثار أهلها عليهم ومزقوهم ذات ليلة شرُّمُزَّق، ودانوا لدولة الموحدين المغربية، ولم يكد يمضى نحو ربع قرن حتى أصبحت ليبيا في طرابلس وبرقة مسرحاً لأطماع قراقوش وابنى غانية على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع، وظلوا يعيثون في ليبيا فساداً عشرات السنين. وكل ذلك أثر في الحركة العلمية بليبيا واعتراها كثير من الخمود، غير أنه خلال كل هذا الرماد الثقيل الذى انهال عليها لنحو قرن ونصف من الزمان ظل بها وميض جمر علمى يلمع من حين إلى حين، مما هيا لاستمرار الحركة العلمية ببلداتها وظهور نفر من العلماء بها حملوا مصابيح العلوم المختلفة شرعية ولغوية - وتصيح برقة - أو تظل - موالية لمصر في عهد الأيوبيين والمماليك وتصيح طرابلس موالية للدولة الحفصية، وترعى حركتها العلمية بما أنشأت فيها من مدارس وتعيد لها غير قليل من ازدهارها القديم.

وتعود الحركة العلمية إلى الخمود بطرابلس حين ظلت نحو أربعين عاماً فريسة للإسبان ثم لفرسان مالطة في القرن العاشر الهجرى، وتخلّفها الدولة العثمانية، ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا أصحاب علم وثقافة، ولذلك انتكست البلاد الإسلامية جميعها التى ضمها إلى دولتهم سواء في المشرق مثل العراق والشام ومصر أو في المغرب مثل ليبيا وتونس والجزائر وتراجعت فيها الحركة العلمية وأصحابها غير قليل من العطل والخمود، إذ لم يكن الولاية العثمانيون يشجعون العلماء في طرابلس - وبالمثل في برقة حين دانت لهم - تشجيعاً مادياً يفرض رواتب لهم ثابتة بحيث تحدث بينهم غير قليل من التنافس والنشاط العلمى الخصب، كما تحدث في مجالسهم غير قليل من الجدل في العلوم ومسائلها الشرعية واللغوية، ويلاحظ ذلك الرحالة المغاربة في رحلاتهم إلى الحج ومرورهم بطرابلس على نحو ما ذكّر عند ابن عبد السلام الناصرى في رحلته الحجازية الكبرى حين مر بطرابلس سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م إذ يقول: «إن أئمة طرابلس مع لطافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدريس، غافلين عن المنافسة في هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعذّرت أو عادة عندهم قد

تقررت، سوى فرد من الناس، بدا في جُنْح ليلها كالنبراس». وعالم طرابلسى واحد فقط هو الذى لفت الناصرى، والبلد لم تكن قفرا من العلماء، ولكنها كانت قفرا ممن يشجعونهم ويشيرون فيهم الرغبة فى المنافسة العلمية، وبالتالي فى البحث والجدل والمناظرة.

٢

علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض

(أ) علوم الأوائل

لم يكن لليبيا نشاط واضح فى علوم الأوائل قبل العصر الحديث، إنما يذكر عرضاً أن هذا العالم اللغوى أو الفقيه المالكى بجانب علمه الواسع بمادته كان عالماً بالحساب والهندسة والكيمياء مثل عبد الله بن عبد الله البرقى الراحل إلى الأندلس زمن الخليفة المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ). ويقال إنه كان عالماً باللغة والنحو وإماماً فيها وعالماً بالحساب والهندسة، ويقال عن الجلامى الفقيه الإباضى فى القرن الرابع إنه كان مع براعته فى علمى الأصول والمنطق كان بارعاً فى الحساب، ومثله معاصره ابن المنمر الفقيه المالكى، وكان عبدالرحمن بن محمد التاجورى الطرابلسى الفقيه المالكى فى القرن العاشر الهجرى علامة زمانه فى علم الميقات. وهى إشارات متباعدة زمنياً ولا تحمل لليبيا نشاطاً بيّناً فى علوم الأوائل.

(ب) علوم اللغة والنحو والعروض

طبيعى أن تعنى ليبيا وبلدانها بالعربية، وكان الليبيون على مثال عمر بن يَمَكَنَن فى تلقفه للقرآن الكريم وآياته من أفواه الجند العربى يتلقفون كلهم العربية منهم وما يجرى على ألسنتهم من بعض الأشعار. ونشأت الكتابيب، وأخذوا يتلقفون مع آيات الذكر الحكيم بعض الأمثال العربية وبعض الأحاديث النبوية، وربما ألم لهم الشيخ بشيء من خطب الرسول والخلفاء الراشدين، حتى إذا كان القرن الثانى أخذت ناشئة من العلماء من أهل ليبيا تحسن قراءة الذكر الحكيم وتروى بعض الأحاديث وتنشد بعض الأشعار، ورحل عدد منهم غير قليل لأداء فريضة الحج ولقاء العلماء فى مصر والحجاز والعراق، وسمع بعضهم بوضع علماء البصرة لقواعد العربية، فرحلوا إليهم وتعلموا عليهم، وعادوا إلى الكتابيب فى ليبيا يعلمون الناشئة ما سمعوه من تلك القواعد، وعلموها أيضاً للشباب فى المساجد وأخذ يشاركونهم فى هذا التعليم وافدون من المشرق: من البصرة أحياناً ومن الكوفة أحياناً أخرى، وما تلبث ليبيا أن يصبح لها لغويون ونحاة من أهلها، يتقدمهم أربعة عاشوا فى عصر الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦ هـ)

ترجم لهم جميعا الزبيدي في طبقاته، وأولهم محمد بن صدقة المرادى الطرابلسي، وغلب عليه التعرّف في اللغة، إذ كان لا يكتفى بالمألوف من اللغة في محاضراته وإملاءاته، بل يطلب دائما الشواذ والنوادر والغرائب اللغوية حتى يبهر تلاميذه وسامعيه. والثاني خلف بن مختار الطرابلسي المتوفى سنة ٢٩٠ وكان صاحب نحو ولغة ويقرض الشعر ويحيد المعاني، والثالث محمد بن سالم الطرابلسي المعروف بالعقّوق وكان صاحب نحو ولغة مثل سالفه مع علم بالجدل وإيمان بالاعتزال ومبادئه، والرابع عبد الله بن محمود من أهل سرت، نشأ فيها وأخذ عن علمائها، ورحل إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها وبها دوت شهرته في اللغة والغريب وشرّح الدواوين الشعرية وأيام العرب، وله كتب أملاها في اللغة والعربية والغريب والعروض، يقول الزبيدي: «وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية التونسية والمغرب، وعليه قرأ الناس المشروحات توفى سنة ٣٠٨ للهجرة». وتلتقى عند القفطى في إنباه الرواة بأبي بكر محمد بن مؤمن الكندي البرقي، وقد على مصر وتوفى فيها سنة ٣٥١ وقد قارب الثمانين وكان نحوياً كبيراً، كما نلتقى بعلي بن مضر البرنيقي أو البنغازي نزيل مصر، كان نحوياً لغوياً كبيراً وكتب بخطه كثيراً من الكتب اللغوية وكان الناس يتنافسون في تحصيل ما يكتبه، ويقول القفطى إنه رأى نسخة بخطه من معجم الجهمرة لابن دريد، وقد بيعت بأربعة وعشرين ديناراً مصرية، وإذا كان قد حمل إلى القاهرة نسخة من الجهمرة بخطه، فإننا سنرى ابن القطاع بعده بأكثر من قرن يحمل إلى القاهرة من صقلية نسخة من صحاح الجوهري، وكان عليها اعتماد المصريين في رواية معجم الجوهري، كما كان اعتمادهم على نسخة معجم الجهمرة بخط علي بن مضر البنغازي، ولعل في حمله لها إلى القاهرة ما يدل على ما بلغه أهل ليبيا من العلم باللغة ومعاجمها الكبيرة في القرن الرابع الهجري، إذ توفى سنة ٣٨٤ للهجرة.

وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري التقينا في طرابلس بعالم فذ من علماء اللغة العربية يحق لطرابلس - بل لليبيا عامة - أن تفاخر به، ويحسن أن نتوقف عنده قليلاً لنتخذ منه رمزاً قوياً على مدى ما حذقته ليبيا وطرابلس حتى زمنه من علوم العربية والتعمق فيها، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي الطرابلسي اللواتي، فهو لبيبي من قبيلة لواتة البربرية التي سكنت الساحل الليبي منذ العصور السحيقة، وأصل أسرته من أجدابية في إقليم برقة، ولذلك نسب إليها، وقد ولد ونشأ وأمضى حياته في طرابلس إلى أن توفى بها، ولذلك عُرف بالطرابلسي. واختلف من ترجوا له أو ذكروه في القرن الذي عاش فيه، فقيل عاش في القرن السابع الهجري، وقيل: بل في القرن السادس، وقال التجاني في رحلته إنه عاش في القرن الخامس الهجري، ويؤيده - بل يقطع به - خبر له مع قاضي بلدته ابن هانش الذي ولى قضاءها بين سنتي ٤٤٤ و٤٧٧ فقد ذكر الرواة أنه حضر مجلس قضاة، فرآه يحكم بحكم مخطئ

فرده، فقال له ابن هانئ: «اسكت يا أحوّل فما استدعيت، ولا استفتيت» وانصرف من مجلسه غاضبا، فألف رسالة في الحوّل تدل على سعة علمه، وهي سعة شهد له بها كثيرون مثل الففطى في ترجمته له بإنباه الرواة، إذ يقول عنه: «من أهل اللغة، ومن تصدّر في بلده واشتهر بالعلم.. وكانت له يد جيدة في اللغة وتحقيقها وإفادتها». ويقال إنه سئل من أين لك كل هذا العلم ولم ترحل؟ فأجاب: اكتسبته من بابي هواره وزناته في بلدتي، يريد من العلماء الذين كانوا يفدون على طرابلس من الشرق والغرب، مما يدل على الأثر الواسع للوافدين على طرابلس في ثقافة شبابها ومعارفهم العلمية على نحو ما أشرنا إلى ذلك فيما أسلفنا من حديث. ويقول التجاني فيه برحلته: «كان الفقيه أبو إسحق هذا من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوا ولغة وعروضا ونظما ونثرا». وبنوه بمؤلفاته، ويذكر منها كتابه في العروض، ويقول: «ناهيك به حسنا وترتيا وتهذبا، وهو نسختان: كبرى وصغرى» كما يذكر له كتابا مختصرا في علم الأنساب، اختصر فيه أنساب قريش للزبير بن بكار، ويقول: «قد رأيت أبا إسحق قد أدخل من حفظه في هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبت عليها». ومن مؤلفاته الطريفة كتاب في الرد على ابن مكي في كتابه: «تثقيف اللسان» وما جمعه فيه من الأخطاء اللغوية التي تدور في أفواه الناس والعلماء، وقد راجعه في كثير من هذه الأخطاء محاولا تصحيح بعض ما ظنه خطأ وتسويغه. وبنوه التجاني بكتاب له في شرح ما آخره بآء مشددة من الأسماء وبيان اعتلالها، ويقول التجاني: «استوفى فيه جميع أحكام هذه الباء على اختلاف أحوالها.. ولما استوفى ذلك استيفاء جميلا تعرّض لشرح المقاطع (الفواصل البيانية) الواقعة في سورة مريم لاشتمالها على كثير من تلك الأحكام، فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة». ويبدو أنه كان فقيها كبيرا، وتشهد له بذلك مراجعته لابن هانئ السالفة في حكم قضائي له، ويقول التجاني: له تأليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه، ولكن لاشك في أن نشاطه اللغوي كان أكبر وأخصب من نشاطه الفقهي. وقد نُشر من مؤلفاته كتابان لغويان نفيسان هما: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ، والأزمنة والأنواء.

أما كتاب كفاية المتحفظ فهو على مثال كتاب فقه اللغة للثعالبي، ويتوزع مثله إلى عدة أبواب، فباب في صفات الرجال المحمودة ويتلوه بصفات الرجال المذمومة، وباب في صفات النساء المحمودة، ويتلوه بالمذموم من صفاتهن، وباب في خلق الإنسان، وباب في الخيل، وباب في السلاح، وباب في السباع والوحش، وباب في الطير، وباب في النبات إلى غير ذلك من أبواب كثيرة، ويقول في مقدمته: «هذا كتاب مختصر في اللغة وما يحتاج إليه من غريب الكلام، وأودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنبناه حوشى الألفاظ واللغات، وأعربناه من الشواهد، ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنيا لمن اقتصد في هذا الفن، ومعينا لمن أراد الاتساع فيه». وقد

نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم العربي من قديم شرقاً وغرباً وعكف عليه غير عالم يشرحه أو ينظمه شعراً ليسهل على الطلاب حفظ ما فيه، وعدّد بروكلمان في ترجمته مخطوطاته ومخطوطات شروحه ونظمه، وطُبع الكتاب في عصرنا بالقاهرة وبيروت وحلب، ونسوق مثالا من صفحاته الأولى يوضح مدى أهميته والفائدة - أو الفوائد - اللغوية منه، يقول في باب الصفات المحمودّة في الرّجال:

«الجواد: الرجل السخيّ، والخِرْق: الكريم، والخِصَم: الكثير العطية، والخِضرم: الكثير الإنفاق، والأُرَيْحَى: الذي يرتاح للطاء، والحسيب: الكريم الآباء، والماجد: الشريف، والصنديد: الرئيس العظيم وكذلك الهمام، والسמידع: السيد وكذلك الجَحْجَاح والأريب: العاقل، والحلال: الوقور، والمنجذ الذي قد جرّب الأمور، والمِدْرَه: الذي يكون رأس القوم ولسانهم، واللّوْدَعَى: الذكيّ القلب، والمصقع: البليغ اللسان، والسريّ: المرتفع القدر وجمعه سَراة يفتح السين».

وتشهد هذه الألفاظ بأنه كان صاحب حسّ أدبي وذوق مرهف وذاكرة لاقطة، مما جعله يعرف كيف يختار في كل باب من أبواب الكتاب من معاجم اللغة وما حفظه من الشعر والنثر ألفاظا مصفاة نقية من شوائب الغرابة والإغراب كما قال في مقدمة الكتاب ومع تفسيرها بحيث تكون معانيها واضحة تمام الوضوح للشباب والأدباء حين يستخدمونها ويتلفظون بها، وهو ما دفع الناس - كما يقول الفقطنى - في مصر والمغرب إلى الاشتغال بالكتاب والعناية بحفظ ما فيه من الكلم المتخير المستعذب.

وأما كتاب الأزمنة والأنواء فقد حققه ونشره الدكتور عزة حسن بدمشق سنة ١٩٦٤ للميلاد، ويقول ابن الأجدابي الطرابلسي في مقدمته: «هذا كتاب مختصر أودعناه أبوابا حسنة في علم الأزمنة وأساساتها، والفصول وأوقاتها، ومناظر النجوم وهياتها، بأوضح ما أمكننا من التبيين، وبأسهل ما حضرنا من التقريب». والكتاب - كما يدل عنوانه - في علم الفلك وما يتصل به من الكواكب وأوضاع الشمس والقمر على مدار العام والأمطار والرياح وتغير الفصول. والعرب منذ الجاهلية يعنون بهذا العلم لشدة حاجتهم لمعرفة مواقع النجوم في ظلمات لياليهم الصحراوية الطويلة، حتى لكأنها المصابيح التي تهديهم في سراهم ليلا فلا يضلون السبل، وقد أكثروا من التأليف في هذا العلم منذ القرن الثاني الهجري، ونقلوا عن الأمم القديمة: اليونانية والفارسية والهندية ما كتبوه فيه ومزجوه بمعارف العرب في صور مختلفة. وكتاب ابن الأجدابي يكتظ بمعلومات طريفة، وقد استهله بحساب الأزمنة والسنين والشهور الشمسية عند الروم وغيرهم والقمرية عند العرب ثم يذكر الكواكب المشهورة ومواقعها في القبة الزرقاء والكواكب السائرة في السماء، ويتحدث عن بيان أزمنة السنة وبروج الشمس ومنازلها والرياح

وأسمائها، ويختتم الكتاب بتفصيل الحديث في الشهور الشمسية وأسمائها عند الأعاجم. ويذكر مع كل موضوع الأشعار والأمثال المسجوعة المرتبطة به، مع ما يعم في الكتاب من جمال الصياغة وحسن العبارة، وبذلك استحال علم الفلك عند ابن الأجدابى الطرابلسى إلى علم أدبى، مما يدل بوضوح على قدرته وبراعته الأدبية.

وفى كتب الطبقات بعد ابن الأجدابى الطرابلسى أسماء لبعض اللغويين والنحاة الليبيين على مدار الحقب إلى العصر الحديث، غير أن أحداً من الليبيين لم يبلغ مبلغه في التعمق اللغوى مع حسن العرض وجمال البيان، ومن تذكره كتب التراجم بعده معاصره خلوف بن عبد الله البرقى النحوى نزيل صقلية وأبو الحسن على البرقى المتوفى سنة ٥٢٢ للهجرة، وكان نحويًا كما كان شاعرا. وتمر قرون ولا يلمع في ليبيا اسم لغوى أو نحوى، ويلقانا في القرن التاسع يوسف بن على الجعرانى في القصبات عاصمة مسلاتة سنة ٨٢٠ وله شرح على متن الأجرومية، وبني له زاوية ببلدته كان يتعبد فيها لربه ويدرس النحو وغيره لطلابه، ومن نلقاهم في القرن العاشر الهجرى محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخطاب الطرابلسى المتوفى سنة ٩٥٤ للهجرة، وله حاشية على كتاب قطر الندى لابن هشام وأخرى على كتابه التوضيح أو أوضح المسالك، وله كتاب لغوى في المواضع التى غلط فيها الجوهري صاحب معجم الصحاح والفيروزابادى صاحب القاموس المحيط.

٣

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

تمثّل قرأء ليبيا للذكر الحكيم - مثل بقية قرأء المغرب - قراءة وَرَش المصرى التى تلقّتها عن نافع مقرئ المدينة المشهور وأحد القرأء السبعة، ولا يزال القرأء - إلى اليوم - يدوون بها في ليبيا والبلاد المغربية دوىّ النحل، ومن القرأء المبكرين بليبيا في جبل نفوسة عمر بن يَمَكْتَن الذى مر بنا ذكره في الحركة العلمية، ومن كبار القرأء في القرون التالية بعده مؤمن بن فرج الهوارى الطرابلسى المتوفى سنة ٤٤٢ للهجرة، وكان يقرئ القرآن في مسجد عُرف باسمه بعده كما يقول التجانى في رحلته، واشتهر عبد السلام بن عبد الغالب المسراقى المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة بأنه كان يعنى بالقراءات السبع جميعا، ومثله على بن عبد الحميد العوسجى المتوفى سنة ٩٢٥ وكان يحفظ الذكر الحكيم بالقراءات السبع، وكان يحفظه للغلمان في مسجد بناه في حياته واشتهر بأنه مؤدب الصبيان. وكانت المساجد والزوايا والكتاتيب جميعا توج بقرأة القرآن الكريم على مر الحقب.

وعلى نحو ما كانت ليبيا تعنى بقراءات الذكر الحكيم كانت تعنى بتفسيره، وكان علماؤها يتلقون ما كتبه الطبرى وغيره من علماء المشرق ويعرضونه على الطلاب والناس، ومن كبار مفسريه بطرابلس مؤمن بن فرج الهوارى المذكور آنفا بين القراء، ومنهم أيضا محمد بن محمد الخطاب المتوفى سنة ٩٥٤ وله فى التفسير حاشية على تفسير البيضاوى، ويقال إنه حاول أن يكتب تفسيراً للقرآن وأنه مضى فيه حتى سورة الأعراف، ولم يكتب له أن يتمه، ومن مؤلفاته القرآنية كتاب فى تجويد القراءات أو فى علم تجويده. وكان يعاصره مفسر طرابلسى هو محمد بن على الخروبى المتوفى سنة ٩٦٣ وله تفسير تحتفظ به رفوف دار الكتب المصرية فى ثمانى مجلدات، سماه: «رياض الأزهار وكنز الأسرار» وكان صوفيا كبيرا وربما نزع فيه منزع المتصوفة فى تفسير الذكر الحكيم.

ولم تكن تقل عناية ليبيا بالحديث النبوى عن عنايتها بالتفسير للقرآن الكريم وقراءاته، ومن محدثيها سعيد بن عباس من أهل مدينة سرت، توفى سنة ٢٠٠ للهجرة، وتشتهر بروايته وتدرسه بعض البيوت أو الأسر مثل أسرة أحمد بن عبد الله بن صالح بن مسلم العجلى فى طرابلس المتوفى سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يشبه بأحمد بن حنبل فى كثرة ما يروى من الأحاديث، وكان ابناه عبد الله وصالح محدثين، وظلت أسرته فى طرابلس تشتهر بروايتها للحديث النبوى وتدرسه للطلاب. وكان يعاصره فى برقة محدثان جليلان هما إبراهيم البرقى وعبد الكريم البرقى. وتلتقى فى القرن الرابع الهجرى ببيحى بن دحمان، وكان محدثا كبيرا، تسمع به أهل الحديث النبوى فى البلاد المغربية والأندلسية، ومرّ بنا أن أندلسيين محدثين سمعا منه الحديث. ومن ناهى المحدثين فى هذا القرن ابن زكرون على بن أحمد بن زكريا المار ذكره فى الفصل الماضى بين الزهاد، وهو تلميذ صالح بن أحمد العجلى، وكان يلقى دروسه فى الحديث النبوى بمسجد المجاز فى طرابلس، وإليه كانت الرحلة من بلدان إفريقية التونسية والبلدان المغربية، ومن رحل إليه للسمع عنه أبو الحسن القابسى محدث تونس المشهور، وله فى الحديث والفقه والرقائق الوعظية تأليف كثيرة. ومن كبار المحدثين بعده أحمد بن نصر الداودى المتوفى سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م كان من أئمة المالكية، أنجبه طرابلس، وألف فيها كتابه: «النامى» فى شرح الموطأ لمالك، وانتقل منها إلى تلمسان، وفيها ألف كتباً متعددة، منها: «النصيحة فى شرح كتاب البخارى» ويقال إنه أول من شرّحه فى العالم الإسلامى، وألف كتاب الواعى فى الفقه وكتاب الأموال وهو فتاوى وأحكام فى غنائم وأراضى البلدان المفتوحة. ومن أهم المحدثين بعده إبراهيم بن عبد السلام المسراقى المتوفى سنة ٧٠٤ اشتهر بعنايته البالغة بغريب الحديث، وأهم منه معاصره الإمام الحافظ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم المشهور باسم ابن عبيد المولود بطرابلس سنة ٦٣٩ وبنوه به وبعلمه التجانى فى رحلته التى تحدث فيها عن زيارته

لطرابلس سنة ٧٠٧ للهجرة بصحة الأمير الحفصي زكريا بن اللحاني، وفيه يقول: «القائم برسم العلم في هذه البلدة (طرابلس) في وقتنا هذا شيخنا الإمام الحافظ أبووفارس عبدالعزيز بن عبدالعظيم حضرت درسه بمسجد مجاور لداره، فرأيت رجلا متضلعا من العلم، ذكرا بالمذهب (المالكي) ذكرا لا يجاريه فيه أحد، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه، حسن العبارة، مشاركا في علوم حجة وله اعتناء بحفظ كلام (الأئمة) القرويين (بالمغرب الأقصى) في المذهب (المالكي) من تعليل أو تفسير أو توجيه أو تخريج، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام أبي المعالي (الجويني) إمام الحرمين) وكلام الشيخ أبي حامد الغزالي.. ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكيته في العلم أحببت القراءة عليه مدة إقامتنا هنالك (بطرابلس) وطلب مخدمونا (الأمير أبي زكريا اللحاني) أن يكون ذلك بمحضر منه، فلم يكن بد من استدعاء الشيخ لموضع سكنانا، فعدنا مجلسه لذلك بالقصبة (قصر البلدة) وفي مجلس الأمير منها، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد، فأذن لهم، ورأينا أن يكون المقروء حديث خير الأنام». ويذكر التجاني أن ابتداء هذه المجالس كان في شهر شعبان من سنة ٧٠٧ وأنه بدأ بقراءة صحيح مسلم، والشيخ يعلق ويفسر ويحجب على الأسئلة، حتى إذا أتمَّ التجاني قراءة صحيح مسلم على الشيخ أخذ يقرأ عليه صحيح البخاري، والشيخ يفسر ويعلق تعليقات علمية ويرد على الأسئلة ردوداً دقيقة غاية الدقة، وأجاز ابن عبيد التجاني بما رواه عن شيوخه من هذين الصحيحين في صفر سنة ٧٠٨ للهجرة.

ويدون ريب يمثل ابن عبيد الذروة التي انتهى إليها علماء الحديث وحفاظه في طرابلس وأنهم لم يكونوا يقلون علما وحفظا ودراية للحديث النبوي وتعمقا في دراسته عن أندادهم في البلدان العربية: في تونس وغير تونس بل إن هذا أحد الأفضاذا المتأدين بتونس يقطع مع أميره رحلتها ويظلان بطرابلس أشهراً ليحظيا بأخذ صحيحى مسلم والبخارى عن هذا الحافظ الكبير الثبت الحججة، وقد سأله التجاني عن شيوخه فأعطاه ثبنا بأههم، ونفر منهم كانوا طرابلسيين ونفر آخر كانوا من الوافدين على طرابلس إما لتولى منصب القضاء وإما مارين بها في الطريق لأداء فريضة الحج أو عائدين إلى ديارهم المغربية، ويذكر له الكتب التي أخذها عنهم، وفي مقدمتها كتاب الإرشاد لأبي المعالي إمام الحرمين الجويني وكتاب البرهان له أيضا وكتاب المستصفي للغزالي. وفي ذلك ما يؤكد ما قلناه في غير هذا الموضوع من أن الوافدين على طرابلس والمجتازين بها كان لهم تأثير واسع في حركتها العلمية. وتظل رواية الحديث النبوي ودراسته متصلتين في طرابلس وكل أنحاء ليبيا طوال القرون التالية.

ويُعدّ الفقه أهم علم إسلامي استوعب نشاط العلماء الليبيين، وطبيعي أن لا ينشأ في ليبيا فقهاء يحسنون العلم بالمذاهب الفقهية المشهورة: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب

الشافعي ومذهب ابن حنبل إلا بعد نشوء هذه المذاهب، وقد نشأت الثلاثة الأولى في القرن الثاني الهجري، ونشأ الرابع في القرن الثالث الهجري على نحو ما هو معروف، وظل بعيداً عن أهل ليبيا لا يعرفه - ولا يعتقه - أحد منهم، وكان مذهب أبي حنيفة في العراق بعيداً عنهم، غير أن إمامه لعهد الرشيد: أبا يوسف حملة على أن يخص القضاء في الدولة الإسلامية جميعها بأهله، فكان يشترط في القاضي بأى بلد إسلامي أن يكون فقيهاً حنفيًا، وكان إبراهيم بن الأغلب والى الرشيد ومؤسس الدولة الأغلبية في إفريقية التونسية وطرابلس يصدع هو والحكام من أسرته لمشيتة الرشيد وأبي يوسف في أن يكون القضاء بدولتهم أحنافاً ما أمكن ذلك، مما يجعلنا نظن أنه تولى القضاء في زمنهم بطرابلس بعض القضاة الأحناف، مما جعل المذهب الحنفي يعرف فيها بعض المعرفة، وبانتهاء زمن الدولة الأغلبية تنتهي صلة طرابلس بالمذهب، حتى إذا والت ليبيا الدولة العثمانية عادت هذه الصلة. إذ كان العثمانيون يفرضون على البلدان الموالية لهم أن يكون قضاة أحنافاً. وكان المذهب الشافعي قد انتشر بمصر وكثير فقهاؤه، ولا نسمع أن ليبيا اعتنقه، إذ كان قد جذبهم إليه مذهب مالك أستاذ الشافعي وإمام المدينة والحجاز. ولم يكذبى في علماء ليبيا بقية لمذهب سواء، وخاصة أن نفراً منهم كانوا قد حضروا دروس مالك وحلوا عنه كتاب مذهبه: الموطأ وأخذوا يشيعون المذهب في ليبيا على نحو ما نعرف عن معاوية بن محمد الحضرمي الطرابلسي تلميذ مالك، وكان قد حمل المذهب عنه جلة من الفقهاء المصريين، فكان الليبيون يأخذون عنهم مثل إبراهيم بن أبي القياض فقيه برقة المتوفى سنة ٢٤٥ تلميذ عبد الله بن وهب بالفسطاط حامل مذهب مالك عنه إلى مصر، أو بعبارة أدق أحد حملته عنه المصريين المهمين، وكان سحنون إمام المذهب في المغرب وحامله عن عبد الرحمن بن القاسم في مصر قد نزل قبل قدومه إلى القيروان في أجدابية بليبيا سنة ١٩١ وأذاعه فيها وانتقل إلى طرابلس وظل بها ثلاث سنوات يدرس لأهلها المذهب وشيعه، ويلقانا فقهاء ومالكية كثيرون في بلدان ليبيا المختلفة مثل ابن أبي زرعة البرقي المتوفى سنة ٢٤٩ وله مؤلفات مختلفة في المذهب ورجال الموطأ وزيادات على مختصر الفقيه المالكي المصري ابن عبد الحكم ذكر فيها اختلافات فقهاء الأمصار، وولتقى في مدينة سرت بعبد الجبار بن خالد السرقى المتوفى سنة ٢٨١ للهجرة، وهو من تلامذة سحنون، ومن ولتقى به في طرابلس موسى بن عبد الرحمن بن حبيب القطان المتوفى سنة ٣٠٦ وهو تلميذ محمد بن سحنون خليفة أبيه في حلقة بالقيروان، وتولى القضاء ببلدته فترة، ويقول ابن فرحون في الديباج إنه كان يحسن الكلام في الفقه على مذهب الإمام مالك، ويذكر له كتاباً ضخماً في أحكام القرآن في اثني عشر جزءاً، ولتلقى في برقة بالفقيه المالكي عبد الله بن إسماعيل البرقي المتوفى سنة ٣١٧ ومرّ بنا ذكره مع عبد الجبار البرقي بين الزهاد، ويلقانا في سرت الفقيه المالكي محمد بن حسن الزويلي السرقى المتوفى سنة ٣٨٣. ولتلقى بإمام كبير من أئمة الفقه المالكي بطرابلس، هو علي بن محمد بن المنصر المتوفى سنة

٤٣٢، وهو أول من انتصر لمذهب أهل السنة في بلده ضد المذهب الفاطمي الشيعي، وأمر بمنع شارتهم في الأذان: «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» ودعا الناس إلى صلاة الضحى جهاراً ولم يكونوا يصلونها في زمن الفاطميين إلا مستخفين، وأعاد صلاة القيام في رمضان وكان الفاطميون قد محوا رسمها محوًّا تامًّا في أيامهم، وعنى في كتاباته ومحاضراته بمناصرة أهل السنة، ومن مؤلفاته التي عُنِيَ بها الطرابلسيون طويلاً كتابه: «الكافي في الفرائض». ومن أئمة الفقه المالكي بطرابلس عمران بن موسى بن معمر المتوفى سنة ٦٦٠ وهو أستاذ ابن عبيد الحافظ الكبير الذي نوه به التجاني طويلاً كما مرَّ بنا، وكان يدرس لطلابه من أمهات المذهب المالكي كتاب التفرغ لابن الجلاب وتهذيب المدونة للبرادعي. كما كان يدرس لهم كتاب المستصفي للغزالي والمحصل لابن العربي الأندلسي، وظل قاضيًّا على طرابلس أكثر من ثلاثين عاماً واشتهر بدقته في أحكامه وأقضيته، فاستدعاه المستنصر الحفصي لتولى القضاء في تونس سنة ٦٥٨ للهجرة، وتولاه لمدة عامين بها حتى توفي. وعرف شيوخ طرابلس حينئذ نظام المعيدين المعروف بمصر وغيرها في زمانهم، وكان المعيد عنده عبد الوهاب بن محمد الهنزولي، وخلفه في حلقة ودروسه حين بارح طرابلس إلى تونس بدعوة المستنصر الحفصي، ومن نابهي فقهاء المالكية عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا المتوفى سنة ٦٨٤ وهو مثل ابن معمر من أساتذة الحافظ المحدث ابن عبيد، وكان يدرس لطلابه بطرابلس كتابي الإرشاد والبرهان لأبي المعالي الجويني وكتاب المستصفي للغزالي، وسأعود للترجمة له بين الشعراء، إذ كان شاعراً كبيراً. ومن فقهاء المالكية الناهيين أحمد بن عبد الرحمن الزليطني الفقيه الأصولي المتوفى بأخرة من القرن التاسع، وهو أستاذ زروق أو بعبارة أدق أحد أساتذته، وله مؤلفات كثيرة، منها شرحان على مختصر خليل في الفقه المالكي أحدهما ضخم في ستة مجلدات، ومنها شرحان على أصول السبكي، ومنها شرح مختصر فتاوى البرزالي، وتولى القضاء بطرابلس فترة ثم أسندت إليه بتونس مشيخة المدارس. ومرَّ بنا زروق في حديثنا عن الصوفية، وكان فقيهاً مالكيًا كبيراً، ومن كتبه الفقهية شرحان لرسالة ابن أبي زيد في الفقه، وشرح مواضع من مختصر خليل، وشرح الإرشاد في الفقه. ويظل الفقه المالكي مزدهراً في طرابلس - مثلها في ذلك مثل بقية البلاد المغربية، ومن فقهاء الناهيين في العصر العثماني محمد بن شعبان الطرابلسي المتوفى سنة ١٠٢٠ وقد أسند إليه القضاء في طرابلس والفتوى والتدريس، واشتهر بمنابرتة لعلماء إستانبول. ومر العياشي بطرابلس سنة ١٠٥٩هـ/١٦٥٠م وذكر من فقهاءها في رحلته أثناء وصفه للمدينة محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعي ومحمد بن مساهل مفتيها وقد ظلت ولايته للفتوى بها نحو أربعين سنة سُمدت فيها سيرته، ونوه بالفقيه محمد المكي وقال إن بيته بيت علم وذكر له خزانة كتب ليس لأحد من أهل بلدته خزانة تماثلها، وذكر من مؤلفاته: «شكر المنة في نصر السنة» وهو في الرد على عقيدة الإباضية.

والحق أن فقهاء المذهب المالكي في ليبيا يفوتون الحصر، مثلها في ذلك مثل الأقاليم المغربية المختلفة، وكانت الجماهير فيها جميعا تعتنق مذاهب أهل السنة وخاصة مذهب مالك فهو المذهب الذى ذاع وشاع في جميع البقاع المغربية، إلا ما كان من جبل نفوسة في ليبيا وجزيرة جربة في تونس وبلاد ميزاب في جنوبي الجزائر، فإنها جميعا اعتنقت العقيدة الإباضية إلى اليوم، وولتقى بفقهاء لها عديدين في جبل نفوسة، ومن أوائلهم إسماعيل بن ضرار الغدامسى أحد الذين رحلوا إلى البصرة للتلذذة على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة داعية العقيدة الإباضية وظل ملازما له خمس سنوات وعاد إلى موطنه فولاه أبو الخطاب عبد الأعلى المعافى في ثورته بجبل نفوسة وطرابلس سنة ١٤٠ القضاة في دولته ووكل إليه بجانبه شئون التعليم، وأخذ الفقهاء الإباضيون بعده يتكاثرون في جبل نفوسة ومن أهمهم في القرن الثالث الهجرى عمرو بن فتح النفوسى المتوفى سنة ٢٨٣ للهجرة وله كتب في العقيدة الإباضية: في الأصول والفروع، من أهمها كتاب منسوب إليه يسمى «العروسى» ولما نزل داعية الإباضية بشر بن غانم الخراسانى جبل نفوسة استودعه مدونة في الفقه الإباضى رواها عن تلامذة داعية الإباضية الكبير بالبصرة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، فتنفّخ هو وأخت له ليل نهار لنسخها، وكانت تقع في اثني عشر جزءا، حتى أتى نسخها، وتصادف أن الأيام حفظتها بينما احترقت النسخة الأصلية. وعليها اعتماد الإباضية في الفقه، وهى تقوم عندهم مقام مدونة سحنون في مذهب الإمام مالك. ومن فقهاء الإباضية في القرن الرابع الهجرى سليمان بن ماطوس الشروسى، وتعد فتاويه مرجعا مهما عند الإباضية، وموسى بن يونس الجلامى، وقد برع في الأصول والمنطق والرياضيات وأسس مدرسة كبيرة كان بها أقسام داخلية للطلاب والغرباء، وولتقى في القرن الخامس بالفقيه أحمد بن بكر النفوسى مؤسس جماعة العزابة، وكانت لها هيئة عليا وفروع في كل بلد وقرية تضم خير أهلها علما وصلاحا، ومهمتها خدمة المصلحة العامة، ولهذا الفقيه الإباضى مؤلفات كثيرة، منها أصول الأرضين في ستة أجزاء والجامع في الفروع في جزءين والقسمة وتبيين أفعال العباد في ثلاثة أجزاء، وولتقى في القرن السادس بيوسف بن إبراهيم السدراقى المتوفى سنة ٥٧٠ وله كتاب العدل في أصول الفقه وكتاب الترتيب في علم الحديث، ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن على بن يخلف التميمجارى النفوسى، ناشر الإسلام في مملكة مالى فقد رحل إليها سنة ٥٧٥ وأقنع ملكها ووزراءه وأهلها بالدين الحنيف فاعتنقوه، وظل في ديارهم يعلمهم فرائض الإسلام ويحفظهم القرآن الكريم ويفقههم في الدين، وهى يد عظيمة لإباضية نفوسة بجانب الأيدى الأخرى العظيمة لصوفية المغرب ودراوشها في نشر الإسلام بإفريقية السوداء غربا ووسطا وشرقا. ومن كبار فقهاء الإباضية في القرن الثامن الهجرى أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالى نسبة إلى جيطال مدينة كبيرة في جبل نفوسة، توفى سنة ٧٥٠ للهجرة، وهو كثير التأليف، له كتاب في الفرائض وكتاب في الحج والمناسك

وكتاب قواعد الإسلام وكتاب قناطر الخيرات في ثلاثة أجزاء. وتلتقى بأبي ساكن عامر الشماخي المتوفى سنة ٧٩٢ عَزَمَ على أن يؤلف مدونة كبرى في الفقه وأخرج منها أربعة أجزاء أولها في الصلاة، والثاني في الزكاة والصوم والحج والذوق والأيمان والحقوق، والثالث في البيوع والقسمة والرهن، والرابع في الوصايا والهبات. وتلتقى في القرن العاشر بيد الدين أحمد الشماخي المتوفى سنة ٩٢٨ ومن أهم كتبه مقدمة في أصول الفقه. وللإباضية مجموعتان فقيهتان: مجموعة تسمى الديوان ألفها سبعة من فقهاءهم في نفوسة، ومجموعة ثانية تسمى ديوان العزابة ألفها عشرة من فقهاء نفوسة الكبار.

وقد مر المذهب الفقهي الإسماعيلي الفاطمي على ليبيا مرورا سريعاً فقد كان الناس منصرفين عنه إلا نفرا قليلا بل أقل من القليل رأوا التعلق بدنيا الفاطميين، وربما ألجأهم إلى ذلك الضرورة، ولا نسمع في طرابلس عن فقيه إسماعيلي إلا مايروي عن خليل بن إسحق ولم يكن فقيها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولا كانت له مؤلفات فقهية، إنما حضر حلقات بعض الفقهاء حتى إذا دَوَّى طبل المهدي وابنه القائم أسرع في الانضواء تحت لوائها، ومثله محمد بن سيار الفقيه البرقي المتوفى سنة ٣١٠ ومثلها محمد بن الحسن الطرابلسي الذي استدعاه يعقوب بن كلس وزير المعز الفاطمي إلى القاهرة وفوض إليه قضاء دمياط وبلبيس والفرما، وعلى شاكلتهم أبو جعفر أحمد بن خالد البرقي المتوفى سنة ٣٧٦ ومالك بن سعيد القرافي ولي القضاء بمصر في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وأمر بضرب عنقه سنة ٤٠٥ للهجرة.

وإذا كانت ليبيا نشطت في علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات فإن نساطها كان محدودا في علم الكلام، إذ لا يعدو ما يقال عن اشتغالهم به وأن يذكر أن شخصا كان نحويا أو لغويا أو فقيها كبيرا كان يعتنق الاعتزال مثل محمد بن سالم الطرابلسي، ولانعرف إلى أي حد كان يتمثل مبادئه، ويذكر أن معاصره أبا خزر النفوسى الإباضى ناظر أحد المعتزلة في القرن الرابع وانتصر عليه، ويقال إن الفقيه المالكي الكبير أحمد بن نصر الداودي ألف رسالة في الرد على القدريّة (المعتزلة) بعنوان الإيضاح ولو أنها وصلتنا لاستطعنا أن نأخذ صورة عن مباحث علم الكلام في ليبيا وبالأخص في طرابلس بلدته. ويقال إن الفقيه المالكي الكبير الدوكالي كان يدرس لطلابه من أمثال عبد السلام الأسمر في القرن العاشر الهجري مقدمة الأشعري في التوحيد، ويبدو أن ليبيا أصبح مثلها مثل البلاد المشرقية والمغربية منذ القرن الخامس الهجري وما بعده تؤثر المذهب الأشعري الكلامي على الاعتزال وغيره من المذاهب الكلامية.

التاريخ

طبيعي أن يشغف بعض العلماء في ليبيا بالكتابة في التاريخ الإسلامي، كما شغف به كثيرون في البلدان العربية، ومن أوائل مؤرخيهم عبد الرحيم بن عبد الله بن أبي زُرعة البرقي المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة روى السيرة النبوية ومغازيها عن ابن هشام مؤرخها بالفسطاط، ويبدو أن أخاه أحمد رواها معه عن ابن هشام، ويقال إن لأحمد كتابا في التاريخ دون إشارة إلى موضوعه، ويذكر ابن ناجي في معالم الإيمان مؤرخين في أجدابية، هما أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٢٨٤ وأبو عبد الله الحسين بن عبد الرحمن الأجدابي المتوفى سنة ٤٣٢ وولتقى في طرابلس بمؤرخين لها، هما الحسن بن فراج المتوفى سنة ٥٢١ وعلى بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي المتوفى سنة ٥٣٣. ومن المؤرخين المهمين في القرن العاشر الهجري كريم الدين البرموني المصراقي المتوفى سنة ٩٩٩ للهجرة، وأبوه مصري نزل مصراته مع الشيخ زروق في عودته من مصر، وقد بدأ كريم الدين تعلمه في زاوية الشيخ زروق ثم تركها إلى زاوية الشيخ المحجوب، وشغف بالتاريخ وله فيه كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار، وفيه عرف بطائفة كبيرة من الأتقياء الصالحين وبأنساب الأشراف في طرابلس وأنساب بعض القبائل العربية وله بجانب هذا الكتاب كتاب عن عبد السلام الأسمر الصوفي معاصره المار ذكره بين المتصوفة.

ويشتهر بين علماء نفوسة الإباضيين مؤرخان، أولهما أحمد بن سعيد الدرجيني الفقيه الإباضي في القرن السابع وله كتاب طبقات المشايخ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، وفيه عرض تراجم مفصلة لأئمة المذهب الإباضي رتبها في طبقات كل طبقة تضم خمسين عاما حتى نهاية القرن السادس الهجري، والثاني أبو العباس بدر الدين أحمد بن عثمان بن عامر الشماخي المذكور بين الفقهاء الإباضيين وله في تاريخ الأئمة الإباضية كتاب «السير»، وفيه يعرف بالمذهب الإباضي منذ نشأته ويترجم لرجالته حتى أوائل القرن العاشر الهجري.

الفصل الرابع

الشعر والنثر

١

تعرب^(١) ليبيا

أخذت ليبيا والبلدان المغربية تدخل في الإسلام منذ فتحها العرب، ومنذ اعتنقته ليبيا لم تقم فيها أى حركة ثورية ضد العرب، كما حدث أيام كسيلة والكاهنة في إفريقية التونسية والجزائر، وحتى هما لم يعودا إلى شق عصا الطاعة منذ عهد حسان بن النعمان (٧١ - ٨٥ هـ). ومع ذلك فإن الإسلام عمهما بحيث لا نصل إلى أواخر القرن الأول الهجرى حتى يكون قد تغلغل إلى جميع البقاع في المغرب، بين الحضر شمالا والبدو جنوبا وفي السهول وعلى سفوح الجبال وفي الهضاب وفي الصحارى، وهو ما ملأ نفوس المؤرخين الغربيين حيرة، فإن الفينيقيين أقاموا بين البربر قرونا، ولم يستطيعوا نشر دينهم ولغتهم فيهم بهذه الصورة الجماعية، وبالمثل الرومان، وظلت المسيحية التي حاولوا نشرها بين البربر غريبة ولا تُعرف إلا في بعض البلدان الشمالية وبتأثير جاليات رومانية فيها. وأخذت تنسحب وتتقوض أمام المد الإسلامى منذ القرن الأول الهجرى. ولا ريب في أن مرجع ذلك إلى أن دين الإسلام دين الفطرة الإنسانية، ويخلو من نظرية التثليث المعقدة عند المسيحيين، وأيضا فإنه يحجر البربر وغيرهم من فكرة الاستعباد للرومان وغير الرومان ممن يستولون على الديار ويتملكون كل ما فيها من الخيرات وطيبات الرزق، ثم هو لا يظلم أهل البلاد المفتوحة أى ظلم مالى أو غير مالى، وهو يسوى بين أتباعه من العرب وبين مسلمى البلدان المفتوحة في جميع الحقوق: في الغنائم وفي الضرائب وفي مختلف الشؤون.

ظلت ليبيا طوال القرن الأول الهجرى مركزا مهما للجيش العربى، وكان كل جندى فيها

للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وتاريخ ليبيا
للدكتور إحسان عباس وكتاب النشاط الثقافى فى
ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر.

(١) انظر فى تعرب ليبيا الجزء السادس من تاريخ
ابن خلدون وكتاب وصف إفريقيا للوزان ورحلة
العبدى وكتاب ورفقات عن الحضارة العربية

يحاول تحفيظ بعض البربر الليبيين القرآن وتعليمهم مبادئ الدين الحنيف والعربية، والفرائض المكتوبة عليهم وينبغي أن يؤديها على خير وجه، ولم تلبث الكتائب أن أسست في المدن وغير المدن، مما أسرع بأهل ليبيا إلى دخول الدين الحنيف أفواجاً بعد أفواج، وبما أسرع بهم إلى التعرب الاختلاط بالعرب والمصاهرة بينهم وبين أسرهم. وأيضاً مما أسرع بهم إلى التعرب هجرات مبكرة للقبائل والعشائر العربية نزلت ديارهم، إذ يذكر اليعقوبي المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري أنه سكن جبل برقة الشرقي عشائر يمنية من الأزد ولحم وجدام والصدف وغيرهم وسكن جبل برقة الغربي عشائر من غسان والأزد وتُجيب، ونزلت الرمادة عشائر من بني مدلج وبلي وجهينة، ونزلت ودان في الهضبة جنوبي طرابلس عشائر سهمية وحضرية، وكل ذلك عمل على المزج بين العرب والليبيين، ولا نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس الهجري حتى يحدث طوفان الهجرة الأعرابية الكبرى لبني سليم وبني هلال من صعيد مصر إلى ليبيا والديار المغربية على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع، ونزلت أمواج بني سليم - وخاصة بني قرة منهم - في برقة، وتغلغلت أسراب منها في ليبيا إلى إقليم طرابلس في الغرب، ومعها عشائر من بني هلال. وأعد هذا الطوفان الأعرابي الكبير ليبيا ليتكامل تعربها، إذ انصهر البربر بها في الأعراب، وأصبحوا معاً شعباً عربياً كبيراً في تقاليد وعاداته وتناول حياته اليومية وفي أزيائه وملابسه وطعامه وفي أحزانه وأتراحه وفي أفراحه وأعراسه، وتعربوا أيضاً في الأخلاق والشيم الكريمة من المروءة والنجدة والفروسية، ولم تتعرب برقة وحدها هذا التعرب الواسع في جميع مناحي الحياة، بل تعربت أيضاً طرابلس وسكان إقليمها من أفراد قبيلة هواة البربرية، ويشهد بذلك ابن خلدون قائلاً عنهم في الجزء السادس من تاريخه: «إنهم صاروا في عداد الناجعة من عرب بني سليم في اللغة والزّيّ وسكّني الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم، قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم» ويشهد ابن خلدون نفس الشهادة لبني يفرن في جبل نفوسة قائلاً: «إنهم تبدوا مع بني سليم، ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم». واتسع هذا الشعور بالعروبة بين البربر، فإذا هم ينسبون أنفسهم إلى القبائل العربية شمالاً وجنوباً، وكانت هواة تنسب نفسها إلى اليمن كما يقول اليعقوبي. وبذلك لا نبالغ إذا قلنا إن بربر ليبيا تحولوا شعباً عربياً تماماً منذ نزل بديارهم بنو سليم وبعض عشائر من بني هلال، فقد أصبحوا عرباً ديناً إذ اعتنقوا الدين الحنيف، وعرباً أسلوب حياة وعادات وتقاليد، وعرباً زياً وملبساً ومطعماً، وعرباً لغة، كما لاحظ ابن خلدون.

ويبدو أن انتصار العربية على اللغة الوطنية المغربية في ليبيا وغيرها من بلدان المغرب كان حاسماً منذ اعتناق البربر للدين الحنيف، وكانوا يسمون لغتهم - كما يقول الحسن الوزان - أوّال أمازيغ أي اللغة النبيلة، وسماها العرب اللغة البربرية، وكانت لهجات شتى. وفي العصر

الحديث اكتشفت نقوش في إقليمى تونس والجزائر وفي الصحراء الكبرى تدل على أن البربر عرفوا الكتابة، غير أنه لم يؤثر عنهم أى كتاب دينى ولا أدبى ولا عملى زراعى مثلا، ومعنى ذلك أن البربرية لم يكن لها تراث تستطيع أن تلقى به العربية، بحيث يمكن أن يحدث صراع بينها وبين العربية، ومن أجل ذلك لم تقاوم العربية أى مقاومة، بل سرعان ما قهرتها واحتلت ألسنة أهلها وأصبحت لغة الحياة فى ليبيا وغيرها من البلدان المغربية. ولكن هل حدث فيها ما حدث مثلا فى مصر من حدوث تحريفات فى الكلم العربية أهل لظهور اللغات العامية. وكلام ابن خلدون عن هواره سكان إقليم طرابلس وبنى يفرن سكان جبل نفوسة يدل على أنه لم تشع فى ألسنتهم عامية مستحدثة، إذ قال إنهم استبدلوا من رطانة البربر فصاحة العرب، مما يؤكد أن الفصحى شاعت فى ليبيا وظلت فى السنة أهلها طويلا.

وإذا كان ابن خلدون شهد لأهل طرابلس من هواره وبنى يفرن فى نفوسة بأنهم لم يكونوا يقولون فصاحة عن بنى سليم فإن العبدري الرحالة المغربى يشهد لبرقة - حين مر بأحيائها فى رحلته سنة ٦٨٨ - بفصاحة أهلها فصاحة تامة، إذ يقول:

«كلام عرب برقة من أفصح كلام عربى سمعناه، وعرب الحجاز أيضا فصحاء، ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم الآن على عربيتهم، لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون. وقد سألت بدويا لقيته يسقى إبله فى «الخصوى» على ماء يقال له أبو شمال: هل نورد على أبو شمال، وذكرته بالواو فى موضع الحذف على عادة أهل المغرب، فقال لى: نعم تطنون أبا شمال، وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول. وليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك. ومررنا بأطفال منهم يلعبون، فقال لنا واحد منهم: يا حجاج معكم شىء تبيعونه، وأثبت النون وسكن الهاء للوقف. ورأيت أعرابيا منهم قد ألحّت عليه امرأة تسأله (شيئا) من طعام يأكله. فقال لها: والله ما تذوقينه، فأتى بضمير المخاطبة على وجهه، وأثبت النون وسكن الهاء. وسمعت شخصا ينشد فى الركب مكترى راحلة، ويقول: مَنْ يُكرى زاملة، فسمعه بدوى، فقال له: أعندك الزاملة؟ فقال: نعم: فلا تقل من يكرى وقل: مَنْ يستكرى. وذكر لى بعض أصحابنا ممن حجّ معنا أن شخصا شرب من بئر، فقال: فى هذا الماء رائحة الحبل، وحرك الباء بالفتح على لغة أهل المغرب يعنى الرشاء المستسقى به، فسمعه أعرابى، فقال له: ومن أين جاءت رائحة الحبل إلى الماء، فأشار المغربى إلى الرشاء، فقال له الأعرابى، قل الحبل ولا تقل الحبل. وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل المغرب بتفسيره فهم - حتى الآن - يتحاورون به على سجيّتهم، فمن ذلك أن شخصا منهم وقف على بموضع نزولى من محلة الركب، وكانت الترعة (قناة الماء) منه بعيدة، فقال لى: يا سيدى تدعى أظهر يعنى أخرج، وسألت

سخّصاً منهم عن الطريق، فقال لى: إذا ظهرتم من الغابة فخذوا صَوْبَ (ناحية) كذا وكذا يعنى إذا خرجتم منها، وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب في تفسير قول عروة بن الزبير رضى الله عنه: لقد حدثنى عائشة - رضى الله عنها - زوج النبى ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يصلى العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر.. وأتوا عليه بشواهد وأمثال. وسمعتُ صبياً منهم ينادى فى الركب: يا حجاجُ مَنْ يَشْتَرى الصَّيْفَ؟ فلم يفهم عنه أكثر الناس، فقلت له: اللحم معك، فقال: نعم وأبرز لحم ظبى مقدّد (محفّف) وهذا اللفظ (أى الصَّيْف) ذكره الإمام مالك فى الموطأ وقال بإثر الحديث: الصَّيْفُ القديد. وسألتُ شخصاً عن ماء هل هو مَعِين (سائل) فقال لى: هو ماءٌ عِدُّ (جار) وهذا اللفظ فسَّره أبو عبيد فى غريبه، وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى».

وإنما نقلت هذا النص بطوله من رحلة العبدى - مقارنة بصورته فى كتاب ورقات للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - لأهميته، ولأنه يثبت أن أهل برقة كانوا لا يزالون يتكلمون بالفصحى حتى أواخر القرن السابع وكانت فصاحتهم تتفوق على فصحتهم أهل الحجاز، معللاً العبدى ذلك بأنهم لا يختلطون بغيرهم اختلاط أهل الحجاز بالحجاج من كل فجٍّ وطريق، ويقول إنهم لا يزالون يتمسكون بالإعراب مع سقوطه حينئذ من الألسنة فى بلدان العالم الإسلامى فى المغرب - كما يقول العبدى - وفى غير المغرب إلا فى زيبد باليمن كما أوضحنا ذلك فى حديثنا بالجزء الخامس من هذه السلسلة. ويضرب مثالا لبدوى أثبت فيه نون الرفع فى المضارع ونصب المفعول وهو «أبا» فى قوله للعبدى: «تظنون أبا الشمال» ويعلق العبدى على ذلك قائلاً: «ليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك» ومثل المغرب مصر فى لغتها العامية. وذكر مثلاً ثانياً أثبت الأعرابى فيه ياء المخاطبة مع نون الرفع فى قوله «تدوقينه» والاثنتان يحدان فى العامية المصرية والمغربية ويورد مثلاً على دقة الحس اللغوى وأن بدوى سمع شخصاً يقول من يُكرى زاملة أى بغيراً راحلاً، ويُكرى معناها يؤجر، فسمعه بدوى، فقال له أعندك الزاملة؟ فقال له نعم، فنبهه إلى أنه يستخدم فعل يكرى وهو يريد يستأجر، فقال له لا تقل: من يكرى وقل من يستكرى أى يستأجر. وذكر العبدى أنه سمع بدوى يقول أظهر بمعنى أخرج، ويعلق على ذلك بأن لفظه ظهر بهذا المعنى ورد فى حديث نبوى وعدَّ غريباً، ولذلك أكثر أصحاب الغريب فى الحديث النبوى من الإتيان له بالشواهد والأمثال، ثم يذكر أن صبياً نادى فى الركب من يشتري الصَّيْفَ؟ ولم يفهم من معه معنى الصَّيْف وهو اللحم المقدد، وفهمه هو لأنه قرأه فى كتاب الموطأ للإمام مالك وتفسيره له بأنه القديد، ومن ذلك أنه يسأل شخصاً عن ماء هل هو مَعِين أى سائل فقال له عِدُّ أى جار، وقد عرف معناها لأنه قرأها عند أبي عبيد القاسم بن سلام فى كتابه «غريب الحديث». ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الأول من كتابه الورقات بعد أن نقل هذا الفصل الطريف من رحلة العبدى: «إن

بما نقلناه من رحلة العبدري وما سنذكر من أقوال أهل برقة فيما بعد يتضح لك أن لهجة هؤلاء الأعراب لم تتغير وأنها إلى الآن قريبة جداً من أمها الفصحى» - ويستدل على ذلك ببعض الأشعار الشعبية لأهل برقة بعد الاحتلال الإيطالي لوطنهم، ملاحظاً أن اللهجة الليبية الحديثة عربية خالصة وإن اعترها ما اعترى سائر اللهجات العربية من إهمال الإعراب. وأضاف الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إلى هذه الملاحظات في الجزء الأول من كتابه الورقات ملاحظة مهمة في الجزء الثالث منه، إذ قال إن استخدام نون النسوة مع الأفعال في مثل: «يأكلن - يشربن - يغزلن» منتشر في كلام الأعراب بنواحي طرابلس وبرقة، وهى ماثلة في أقوالهم الشعرية. ويبدو أن أهل ليبيا ظلوا يحافظون بقوة على الفصحى - بعد الهجرة الأعرابية إلى ديارهم - قروناً متطاولة ربما امتدت حقبا بعد شهادة العبدري في أواخر القرن السابع الهجرى.

٢

نشاط^(١) الشعراء والشعراء

لعل أول ما أنشد من الشعر في ليبيا كان على لسان الشعراء الوافدين عليها مع الجند الفاتح لها وللبلاد المغربية، ونرمز لهم بالشاعر الهذلى المشهور أبى ذؤيب، فقد خرج مع عبدالله بن الزبير في جند عبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى فتح إفريقية سنة ست وعشرين وأعجب بشجاعة ابن الزبير حين فتك في موقعة ضارية بوالى البيزنطيين: جريجوريوس وتسميه العرب جرجير، ومن قوله في الإشادة ببطولته:

وصاحب صدقٍ كسيد الضرا ء ينهض في الغزو نهضاً نجيحاً

والسُّيد: الذئب، والضراء: شجر يتوارى فيه وهو أفتك الذئاب في الجزيرة العربية. وكثير من أمثال أبى ذؤيب الشاعر النابه استقروا في برقة وطرابلس ينشدون أشعارهم وينشرون الإسلام ويأخذ البربر عنهم القرآن الكريم والعربية. غير أنه لم يكن يهتمهم - فيما يبدو - أن تُحمل عنهم أشعارهم أو أن تذكر أخبارهم، فهم من عامة العرب المسلمين، وهم آخر من يفكر في هذا الشرف. ومن نزل ليبيا من الشعراء النابهين دُعبل الشاعر العباسى، نزلها في العقد الثالث

(١) وخلف والودانى والحريدة (قسم شعراء مصر) فى
ابن البرقى.

(١) انظر الأغاني فى أبى ذؤيب ودعبل والحلة
السيرة فى عبد الله بن محمد الأعلبى وابن سواده
وخليل بن إسحق وإنباه الرواة فى المكفوف

من القرن الثالث، نزلها على إثر خلاف بينه وبين والى مصر، وكان قد ولاه أسوان فتركها واتجه إلى ليبيا والبلاد المغربية، ويبدو أنه حاول الرحلة عن طريق واحة سيوه، واتجه منها إلى واحات ليبيا، وربما كان يقصد القيروان لمدح أمراء الأغالبة، غير أن الموت أدركه في زويلة عاصمة قرآن، فلم تحظ به ليبيا ولا حظى به الأغالبة.

وكانت طرابلس قد أصبحت تابعة للأغالبة في إفريقية التونسية، بينما تبعت برقة مصر، ويتولى طرابلس بعض شعراء الأغالبة مثل عبد الله بن محمد الأغلبى واليهاب لابن عمه أبى الغرائق سنة ٢٥٩ وكان - مع اهتمامه بالشعر - يعنى بالفقه والحديث النبوى، وعزله عنها أبو الغرائق وولاه صقلية ثم أعاده إليها، ولم يلبث أن ولاه القيروان، ولم يذكر مترجموه له سوى قطعة أرسل بها إلى صديقه موسى بن مرزوق لما بلغه نبأ عزله عن طرابلس وله يقول:

قد أتى في الكتاب ما قد علمنا من تناءٍ ورحلةٍ وفراقٍ
فعليك السلام إن فراقى قد دنا والفراق مرُّ المذاقِ

وكان على شاكلته في نظم الشعر ابن عمِّ له هو محمد بن زيادة الله والى طرابلس لإبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦٢ - ٢٨٩ هـ) وكان عالماً وشاعراً خطيباً، وله كتاب راحة القلب والزهر. وأشعر منه ومن سالفه أحمد بن سفيان بن سواده الأغلبى الذى ولى طرابلس وأعمالها سنوات كثيرة. وأنشد له ابن الأبار قصيدتين حماسيتين يقول في إحداها:

قَرَّبُوا الأَبْلَقَ إنِّى أَعْرِفُ الخَيْلَ العِتَاقَا
وعليها أصرع الأبَّ طَال طَعْنًا واعتناقَا
وأرؤى من نجيع الـ هَامَ أسِيفَا رِقَاقَا

وليس بين أيدينا ما يؤكد أن هؤلاء الولاة الأغلبيين الشعراء أحدثوا في طرابلس حركة أدبية أغدقوا فيها الأموال على الشعراء كما كان يصنع قبلهم يزيد بن حاتم المهلبى حين ولى القيروان سنة ١٥٤ فإنه أحدث فيها حركة أدبية واسعة نثر فيها على الأدباء أموالاً طائلة، ومع ذلك نظن ظناً أن تولى هؤلاء الولاة الأغالبة الشعراء لطرابلس كان له بها أثر غير قليل، إذ نجد الشعر يسيل على ألسنة بعض الليبيين من اللغويين والفقهاء وغيرهم، من ذلك أن إسحق بن خنيس هجا العالم اللغوى عبد الله بن محمود المكفوف بقصيدة طويلة قال فيها:

أَلَا لُعِنَتْ سِرْتٌ وما جاء من سِرْتٍ فقد حلَّ من أكتافها جبلُ المَقْتِ

فقال فيه المكفوف:

إنَّ الخُنَيْسَىَّ يهجونى لأرفعهُ إخسأُ خُنَيْسُ فإبى غيرُ هاجيكَا

لم تبقَ مَثَلَبَةٌ تُحصى إذا جُمعتُ من المثالب إلا كُلُّها فيكما

ويقول مترجمو المكفوف السَّرَّقِي إن له أشعاراً فصيحة وأراجيز غريبة، وقد سقطت جميعاً من يد الزمن ولم يصلنا منها شيء. وكان يعاصره خليل بن إسحق شاعر المهدي الفاطمي وابنه القائم وسنفرد له ترجمة عما قليل. وولتقى بخلوف بن عبد الله البرقي النحوي المقرئ نزيل صقلية، وكان يعيش في أواسط المائة الخامسة وله ترجمة في إنباه الرواة للقفطي، ومن قوله:

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مُشْتاقاً كَثِيرَ الْوَجْدِ تَوَاقِياً
سُئِلَ دَاعِيَا لَدَى هِـ أَصَالاً وَإِشْرَاقِياً
بأن تبقى على الأيِّام م للاقتران سباقاً

والقطعة رقيقة وهي تدل على حس دقيق وذوق مرهف وقدرة على صياغة الكلام صياغة رشيقة، وله:

يا أيها المغرور دَهْرٌ كَم تَقِيمُ عَلَى الْغَرَارَةِ
إِذْ جَمَعُ شَمْلِكَ لِلشُّتَا تِ وَرِيحُ مَالِكٍ لِلخُسَارَةِ

والبيتان في الدعوة للزهد والانصراف عن حطام الدنيا والاعتزاز بما في يده منها، فليس في شمله إلا الشتات والفرق وليس في يده إلا الضياع والخسارة. وكان يعاصره أبو الحسن علي بن أبي إسحق الوداني صديق ابن رشيق وصاحب الديوان بصقلية ومن شعره:

مَنْ يَشْتَرِي مَنَى النَّهَارِ بِلَيْلَةٍ لَا فَرْقَ بَيْنَ نَجْمِهَا وَصِحَابِي
دَارَتْ عَلَى فَلَكَ الزَّمَانُ وَنَحْنُ قَدْ دُرْنَا عَلَى فَلَكَ مِنَ الْآدَابِ
وَدَنَا الصَّبَاحُ - وَلَا أُنَى - وَكَأَنَّهُ شَيْبُ أَطَّلَ عَلَى سَوَادِ شَبَابِ

والألفاظ منتقاة والصور بديعة فلا فرق بين النجوم المتألقة ووجوه صحابه المشرقة وقد دارت الليلة على فلك الزمان ودار مع صحابه على فلك الآداب، وهي مشاكلة بديعة. وقرب الصباح ويقول: لا أتى في خفة وعذوبة، ويتصوره بأضوائه التي تنفّلت في آخر تلك الليلة كأنه شَيْبُ مشتعل يطل على سواد شباب. وولتقى بشاعر برقي أقام بالقاهرة طويلاً مما جعل العماد يترجم له بين شعراء مصر في الخريدة هو أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن البرقي المتوفى سنة ٥٢٢ ومن شعره الطريف الذي أنسده العماد:

رَمَانِي الدَّهْرُ مِنْهُ بِكُلِّ سَهْمٍ وَفَرَّقَ بَيْنَ أَحِبَابِي وَبَيْنِي
فَفِي قَلْبِي حَرَارَةٌ كُلُّ قَلْبٍ وَفِي عَيْنِي مَدَامِعُ كُلِّ عَيْنِ

والبيتان في غاية الرقة مما يدل على شاعرية خصبة مرهفة، وهي شاعرية أتاحت له أصدقاء مصريين تبادلوا معه مثل هذين البيتين الرقيقين. وكان يعاصره شاعر نفوسى إباضى هو أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، وله مرثية بديعة يرثى بها شيخه أبا سليمان أيوب بن إسماعيل، وفيها يتحدث عن تقواه وبره وذكائه:

مَنْ للصلاة بجوف ليلٍ مظلمٍ والليل أسود حالك غريبٌ
أو للصيام إذا تطاول يومه وامتدَّ طرفاهُ وهاج لهيبُ
أو لليتامى والأرامل بعده وتواترتُ في العالمين حروبُ
أو للأمور إذا تفاقم حولها أهل النهى والرأى - بعد - غريبُ

وكأنما يفتقد بموت شيخه من يصلى آناء الليالى المظلمة الحالكة ومن يصوم في الأيام الطويلة الملتهية أو من يأخذ بيد اليتامى والأرامل في الحروب الضارية ومن يحل الأمور المشككة حين يعزُّ الرأى الصائب المحكم. وحرى أن نتوقف قليلا لترجم لشاعر أنجبته طرابلس في حقها الأولى.

خليل بن إسحق

هو أبو العباس خليل بن إسحق بن وَرْد، ترجم له ابن الأبار في كتابه الحلة السَّراء ترجمة ضافية افتتحها بقوله: «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها (أيام الأغالبة) وكان في أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت في المساجد» وما إن انتهى حكم الدولة الأغلبية سنة ٢٩٧ وتحوَّلت مقاليد الحكم إلى عبيد الله المهدي الفاطمى، حتى رحل إليه وانضوى تحت لوائه، وانتقض أهل بلدته: طرابلس سنة ٢٩٩ على واليهم الفاطمى فأرسل إليهم المهدي ابنه أبا القاسم لمحاربتهم وردَّهم إلى الطاعة، وفي ركابه خليل، فحاصره أبو القاسم حتى اضطروا إلى الاستسلام، وكشَّر لهم خليل عن أنيابه الغليظة التي كان يخفيها، وتولى تعذيبهم، لاتأخذه فيهم - وهم أهلُه - شفقة ولا رحمة، وأغرمهم ثلاثمائة ألف دينار. وما توافى سنة ٣٠٢ حتى يرسل المهدي ابنه أبا القاسم الملقب بالقائم في جيش لمحاربة أهل مصر، فلحق به خليل بن إسحق في الإسكندرية فولاه القيام على أموال الجيش، وعاد القائم بجيشه، وعاد معه خليل، فقدم على خيل إفريقية، وجعل أمر جندها إليه مع النظر في البحر وشئون الأسطول الفاطمى. وفي سنة ٣٢٥ ولَّاه القائم الفاطمى صقلية، فاستحال حاكمها باغيا طاغيا أشد ما يكون البغى والطغيان، وأهلك أهلها جوعًا وقتلا وجار فيها أشد ما يكون الجور والظلم، مما جعل كثيرين من أهلها يفرّون إلى بلاد الروم. وعزله الخليفة القائم عنها، وكان يقول بعد وصوله إلى إفريقية

مفتخرًا: «المكثر يقول إني قتلت من أهل صقلية وأهلك ألف ألف، والمقل يقول ستمائة ألف». وكان حريا بالقائم أن ينزل به عقابًا صارما، ولكن بدلا من ذلك أخرجته إلى مدينة القيروان سنة ٣٣٣ في ألف فارس لقتال أبي يزيد الصُفري في القيروان، فحاصره أبو يزيد فيها واعتقله وسفك دمه وصلبه. وأنشد له ابن الأبار قصيدة ومقطوعتين في مديح المهدي الفاطمي وابنه القائم، وكأنما كان يقف شعره على مديحها زلفى وتقرباً إليهما، والقصيدة في مديح عبيدالله المهدي نظمها على شاكلة قصيدة مشهورة لمروان ابن أبي حفصة صاغها في مديح المهدي الخليفة العباسي، بدأها مثله بالتشبيب وبكاء الأطلال والديار قائلا:

قَفَ بِالْمَنَازِلِ وَأَسْأَلُنْ أَطْلَالَهَا	ماذا يضيرك إن أردت سؤالها
هَلْ أَنْتِ أَوْلُ مِنْ بَكِي فِي دِمْنَةٍ	دَرَسَتْ وَغَيَّرْتَ الْحَوَادِثُ حَالَهَا ^(١)
يَا دَارَ زَيْنَبَ هَلْ تَرَدِّينَ الْبُكَاءَ	عَنْ مُقَلَّةٍ سَفَحَتْ عَلَيْكَ سِجَالَهَا ^(٢)
بَدَلْتِ بِالْإِنْسِ الْخَرَائِدِ كَالْدَمَى	وَحَشَى الْفَلَاةِ ظِبَاءَهَا وَرِثَالَهَا ^(٣)
وَلَقَدْ عَهَدْتُ لآلِ زَيْنَبَ حَبْرَةً	فِيهَا وَدُنْيَا أَقْبَلْتُ إِقْبَالَهَا ^(٤)
بِيضَاءَ نَاعِمَةٍ يَجُولُ وَشَاحُهَا	وَتَهَزُّ دِقَّةً خَصَرَهَا أَكْفَالَهَا ^(٥)
وَلَهَا قَوَامٌ كَالْقَضِيبِ وَفَوْقَهُ	جَعْدٌ تَصَافِحُ كَفَّهُ خَلْخَالَهَا ^(٦)
وَكَأَنَّ فِيهَا بُعِيدَ رُقَادِهَا	عَسَلًا أَصَابَ مِنَ السَّمَاءِ زُلَالَهَا ^(٧)
وَلَقَدْ عَصِيْتُ عَوَازِلِي فِي حُبِّهَا	وَالنَّفْسُ تَعَصِي فِي الْهَوَى عُدَّالَهَا

والأبيات تسيل عذوبة، إذ عرف خليل بن إسحق كيف يصطفى لها الألفاظ وكيف يلانم بين جرسها، مع خلوة الصوت، ومع تشابك الكلمات في كل بيت، وكأن كل كلمة لبّت قرينتها، واستجابت لصاحبها وجارتها، وحقا الصور في الأبيات أمّ بها الشعراء أو طالما أمّ بها الشعراء قبله، غير أنه أعاد عرضها عرضا يستهويك بصياغته وما يبت فيه من الجناسات والطباقات. ويخرج إلى المديح منشداً:

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَعَلَى الْإِمَامِ وَزَادَهُ أَمْثَالَهَا

- | | |
|--|----------------------------------|
| (١) الدمنة: آثار بالدار. | (٤) حبرة: مسرة. |
| (٢) السجال جمع سجل: الدلو المملوءة. | (٥) أكفاله جمع كفل: عجز الإنسان. |
| (٣) الخرائد جمع خريدة: اللؤلؤة والمرأة الجميلة. الدمى: جمع دمية: التمثال الجميل. | (٦) جعد يريد الشعر وضمائره. |
| الرنال جمع رأل: فرخ النعام. | (٧) الزلال: الماء العذب الصافي. |

إن الإمام أقام سنة جدّه
أحيا شرائعها وقوم كتبها
وهدى به الله البرية بعدما
إن الخلافة يابن بنت محمد
للمسلمين كما حذوت نعالها
وفروضها وحرامها وحلالها
طلب الفؤاة الظالمون ضلالها
حطت إليك - عن النبي - رحالها

وهو يزعم أن الله - جلّ جلاله - صلى على إمامه كما صلى على نبيه، بل يزعم أنه يزيد صلاة إلى صلاة، ويقول إنه أقام سنة جدّه حذوك النعل بالنعل أو كما نقول مطابقا لها أشد المطابقة، ويزعم له أنه أحيا الشريعة وقوم كتبها وأزال عنها عوجها وانحرافها، كما قوم فروضها وحلالها وحرامها، وكل تلك مبالغات شائنة، وكأنه يدبر الدين الخفيف ويصرّفه، وقد هدى الله به الناس كما هداهم برسوله. ولم يسق ابن الأبار مديح القصيدة تأمّا، ولعله صنع ذلك لما في بقية القصيدة من مبالغات شديدة الإفراط في تصوير قدسية المهدي، وحسنا صنع. وله في القائم وقد فصدّه الطيب أو بعبارة أخرى أخرج مقدارا من دم وريده للعلاج:

قل للطيب الذي أوصى ليفصده
كيف استطعت ترى بالله طلعه
أم كيف تخرج من كفّ تقبلها
إني لأعجب من كفّ مسست بها
رققا ولا زلت بالإسعاد ترتق
ومن سنا نوره ما يشرق الأفق
دما ومنها بحار الجود تندفق
خير الورى كيف لم ينبت بها الورق^(١)

وهو يدعو في البيت الأول للطيب متلظفا أن يظل الإسعاد يرافقه ويجانس بين أول الشرط الثاني ونهايته جناسا سائغا، وما يلبث في البيت الثاني أن يبالغ في مديح القائم مبالغة مفرطة، إذ يجعل ضوء الثور في وجهه نور الأنوار الذي يعم الآفاق، وكان نور وجهه من نور الله ومشكاته في الكون. وحين أمر القائم أن يخرج في ألف فارس ليحارب أبا يزيد محمد بن كيداد الصفرى كتب إليه مودعا:

وما ودعت خير الناس طرا
وكيف تطيب نفسي عن حياتي
ولكني طلبت رضاه جهدي
فعاش مملكا ما لاح شمس
ولا فارقته عن طيب نفس
أفارقها وعن قمرى وشمسى
وعفو الله يوم حلول رمسى^(٢)
على الثقلين من جن وإنس

وهو يجعله في أول الأبيات خير الناس طرا، وكان قد جعله خير الورى في آخر الأبيات

السالفة، وهما صفتان للرسول ﷺ يتغنى بهما الشعراء في مديحه، ويتصوره حياته، وكأنه هو الذى يدبرها، إنه نور حياته، ويقول إنه يطلب رضاه على نحو ما يطلب المسلمون رضا ربهم. وكأنى به يظن أنه هو الذى سيمنحه عفو الله يوم حلوله فى قبره. وهى مبالغات ستتضخم فيما بعد عند ابن هانئ الشاعر الأندلسى فى مديحه للمعز الفاطمى وترهاته ومبالغاته الملحده فيه.

٣

الشعراء فى عصر^(١) الدولة الحفصية

عُتبت هذه الدولة بالحركة الأدبية، وحظيت - لعهدها - بغير قليل من النشاط والانتعاش، وكان للشعر والشعراء من ذلك نصيب موفور، إذ فتحت الدولة الحفصية الأبواب للشعراء فى إفريقية التونسية وطرابلس كى يقدوا عليها مادحين، وينالوا جوائزها السنية، وكان مؤسسها أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد شاعراً فسنَّ للحكام الحفصيين من بعده نثر الجوائز والعطايا على الشعراء، مما جعلهم يتكاثرون. وستترجم لثلاثة منهم: إياضى وطرابلسيين. وقد تار عليه نائر طرابلسى هو يعقوب بن أبى يعقوب سنة ٦٣٩ وقتل هو وأتباعه، وُصِّلت جثثهم بباب هُوارة، ونصبت رءوسهم فى تونس، فهناً أبأ زكريا الحفصى بالقضاء على تلك الثورة شاعر طرابلسى يسمى أبأ زيد عبد الرحمن بن محمد الأصولى بقصيدة طويلة صَوَّر فيها المصير المشنوم لهذا النائر وصلبه: ملقبا له بالفاطمى:

لقد عَجَلتَ للفاطمى فطامه	وما سوَّغته درها البيض والسمر
رجا رفعةً فاعتاض فيها بمنصبٍ	نماه به للجذع منصّبك الحر
يرى شرفات السور قد قمن حوله	يصحن لأمرٍ منه أكذبه الأمر
ضحى فليحرّ الشمس لَعج إهابه	وللريح لا للروح فى جسمه كَر ^(٢)
وكم رام تشييد القصور فحلها	وأعظم ما يرجوه - لو أسعف - القبر
فدونك يا يعقوب عُقبى منافقٍ	إلى النار عُقباها، إذا ضمك الحشر

الملحق بكتاب الدعائم، والنشاط الثقافى فى

ليبيا.

(٢) لعج إهابه: حرق جلده.

(١) انظر فى الشعراء التالين رحلة الجانى،

ما عدا فتح بن نوح، وانظر فيه الجزء الثالث من

كتاب الإياضية فى موكب التاريخ لمعمر، وديوانه

والأبيات تحمل شماتة مرة بهذا الناثر، فقد عَجَّل أبو زكريا بفظامه، فلم يطب له شيء من أمنيته، إذ سرعان ما قضت عليه وعلى أتباعه الرماح والسيوف، وكأنما أراد رفعة فناها ولكن على جذع نخلة، ولكأنما الشرفات من حوله تصيح به: ياهول ما حاولت، وتلك جنته مصلوبة وحرَّ الشمس يحرق إهابه وجلده، والريح أو الرياح تَسْفِي عليه من كل جانب، وكم أُمِّل أن تنجح ثورته ويسكن القصور المشيدة، وما هو أعظم ما يرجوه قبر يضم جسده وأشلاءه وتلك عاقبة ثورته في دنياه أما في أخراه فعاقبتها نار حامية. وتوقف قليلا لترجم للشعراء الثلاثة الذين أشرنا إليهم آنفا، وهم فتح بن نوح وابن أبي الدنيا وابن معمر.

(أ) فتح بن نوح الإباضي

هو أبو نصر فتح بن نوح النفوسى، من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجرى ولد ونشأ بجبل نفوسة، ورعاه خير رعاية علمية وأدبية خاله أبو يحيى زكريا بن إبراهيم البارونى، وكان مع شعره وأدبه عالما بالمذهب الإباضى متعمقا فيه، وكان يدرس للشباب صباحا، وفى المساء بعد صلاة العشاء يلتقى فى الناس بالمسجد فى نفوسة دروسا عامة، وأكثر أشعاره فى الموعدة بحكم أنه كان واعظا حقيقيا، إذ كان ما يزال يعظ الناس كل مساء، ومن قصيدة يصور فيها نفسه:

أنا المتيم لا باليوسفيات	ما نَهَنَهْتَنِي إِلَيْهَا قَطْ هِمَّاتِي ^(١)
بل تيممتى فنون العلم أطلبها	ما النفسُ باقيةٌ فى هيكَلِ الذاتِ
لستُ الغداةُ بصبٍ خاضعٍ طمعا	فى وصلِ غانيةٍ أرجو موداتِ
بل فى منادمةِ الأخيارِ راغبةٌ	نفسى إلى أجلٍ يفضى بموتاتِ

فهو لا يشغل بحب يوسفيات فانتات، ولم يحدث أن هماته وطموحاته كَفَّتْهُ أو زجرته عنها، لأنه لا يفكر فيها أى تفكير إذ شغله عنها العلم ومعرفته أن كل ما عليها فان وأنه لا يبقى للإنسان إلا عمله، وإنه لذلك لا يهوى غانية ولا يتذلل لها راجيا منها المودة والعطف، فلذته فى دنياه إنما منادمة التقاة الأخيار، حتى يوافيه أجله. وتكثر فى مواعظه المخمسات على نحو ما تكثر عند الأندلسيين، وله مخمس أدواره موزعة على جميع حروف الهجاء، وفى أول كل دور حرف القافية على هذا النمط:

حاءٌ حذارٍ - واسمَعْنُ يا صاحِر - من سِحْرِ نَغْرِ الأبرقِ الوضاحِ^(٢)

(١) الجميل البسام.

(١) اليوسفيات: صواحب يوسف الفانتات.

(٢) الأبرق هنا: النغر. الوضاح: صفة للنغر أى

يُلهيك تَخْلَابَا عَنِ الْأَرْبَاحِ عَمَّا قَلِيلٍ أُضْتِ صِفْرَ الرَّاحِ^(١)
 مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ جَمَّ الْحَابِ^(٢)
 خَاءُ حَيْتَ نَارٍ أَمْرِي سَمَّاحٍ يَفْخَرُ بِالْأَنْجَارِ وَالْأَسْنَاخِ^(٣)
 مَا الْفَخْرُ إِلَّا لِلْفَتَى النَّوَّاحِ حَيْثُ التَّقَى مَخِيْمٌ الْأَشْيَاخِ^(٤)
 أَوْلَى النَّهْيِ وَالْعَزْمِ وَالْأَلْبَابِ

وهو يحذر صاحبه من سحر نثر المرأة الجميلة، إذ يجلب لبه ويلهبه عن أرباح الأعمال الصالحة، فيعود صفر الكف من الصالحات مملوءة بالآثام والذنوب، ويقول: خمدت نار شخص شامخ بأنفه كبيراً واستعلاء، يفخر بالأصول والأنساب، وليس ذلك بفخر، إنما الفخر للفتى المقيم حيث منزل الأشياخ من التقى والصلاح أولى العزم والعقول الراجحة. وفي مَحْمَسٍ ثانٍ له ينشد:

وأول ما أوصى به في مَحْمَسِي لباس سراييلِ التَّقَى خَيْرِ مَلْبَسِ
 به ساد أقوامٌ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وليسوا ذوى مالٍ ولا بدوى فُلْسِ
 ولا نيل ما نالوا ببيضٍ ولا سُمْرٍ
 بذلك أوصى الله من كان واعياً من أهل القرون السالفة الخواليا
 ونادى به أهل العصور البواقيا وقال: اتَّقُونِ الْيَوْمَ حَقَّ تَقَاتِيَا
 يُطَاعُ فَلَا يُعْصَى وَشُكْرٌ بِلَا كُفْرٍ

وهو يقول: أول ما يوصى به في محمسه أن يلبس الإنسان سراييل التقوى ولا يجعلها عن جسده ونفسه أبداً فهي خير ملبس، وطالما ساد بها أقوام من الجن والإنس وأصبحوا من أكبر الأثرياء وليسوا بأصحاب أموال كثيرة ولا قليلة، ولا نالوا ما نالوا من غنائم حرب بالرماح والسيوف، ومع ذلك هم أغنى الأغنياء. ويقول إن تلك وصية الله أوصى بها ذوى الألباب من أهل القرون السالفة، وبالمثل من أهل العصور الباقية، إذ قال - عز من قائل - اتَّقُونِ الْيَوْمَ حَقَّ تَقَاتِيَا، وطاعته واجبة وشكره فرض بلا كفر. وقرأ محمسته مؤسس الدولة الحفصية أبو يحيى زكريا، فعمرها بخمس ثمان. وله مرتبة بديعة في خاله مربيّه وراعيه أبي يحيى زكريا بن إبراهيم، وفيها يقول:

أَحْرَى وَأَجْدَرُ لِلْأَجْفَانِ وَالْمَقَلِ تَقْتَى بَكَاءَ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمْ تَبَلِ^(٥)

(١) أضت: صرت.

(٢) الحاب يريد الآثام، جمع حوبة (أى إثم).

(٣) الأنجار والأسناخ: الأصول والأعراق.

(٤) النواخ: المقيم.

(٥) تقى: تحمر - تبل: نذرف الدمع مدراراً.

دَعَهَا تَسِيلُ أَسَالُ اللَّهِ مَقْلَةً مَنْ
 أَبْعَدُ مَاغَابَ بَدْرُ الدِّينِ فِي جَدَّتِ
 كَيْفَ الْبِقَاءِ لَطْرُفٍ زَالَ نَاطِرُهُ
 زُرُّ سَاحَةِ السَّفْحِ وَأَسْفَحَ عِنْدَهَا حَزْنًا
 أَعْنَى الْوَلِيِّ أَبَا يَحْيَى الَّذِي حَيَّيْتُ
 يَسْطُو عَلَيْهَا بِسَطْوِ الْعَتَبِ وَالْعَدَلِ^(١)
 يَهْنَأُ الْحَيَاةَ بَنُو الْآدَابِ بِالْأَمَلِ^(٢)
 حِينَ اعْتَرَتْهُ بِنَاتُ الدَّهْرِ بِالسَّمَلِ^(٣)
 دَمْعًا يَزِيدُ عَلَى التَّسْكَابِ وَالْهَظْلِ
 صُورَى الْعُلُومِ بِمَحْيَاهُ وَلَمْ يَتَوَلَّ^(٤)

وهو يبكى خاله، ويقول إنه أحرى وأجدر للأجفان والمقل أن تبكى دما على الإسلام وفتقده، ويعجب أن لاتذرف الدمع مدرارا، ويدعو على من يعاتب الناس على بكائهم عليه ويعذلهم لانها، حتى ليتمنى لهم حزنا موجعا كحزنه، ويقول إن بنى الآداب بعد أن غيب عنهم لن يهنتوا بأمل ولا بأمنية، وإنه لم يعد يرى من حوله، إذ أصابته بنات الدهر ونكباته في ناظره وكأنما فقت عينه بحديدة محماة. ويطلب إلى رفاقه أن يزوروا معه القبر ويسكبوا دموعهم هناك، فقد توفي أبو يحيى زكريا الذى طالما أتقدت منارات العلوم وصواها في حياته، وقد مات ولم يعد. ويمضى الشاعر في مرثية خاله منشدا:

يَا غُرْبَةَ الدِّينِ بَعْدَ الشَّيْخِ مَفْتَقِدَا
 لَا عَن تَرَاضٍ جَرَى حَكْمُ الْمُنُونِ بِهِ
 قَسْرًا عَلَى الْأَسَدِ فِي الْأَغْيَالِ وَاغْلَةً
 كَمَثَلِهِ فَلْتَلِدُ أَنْثَى مَفَاخِرَةً
 يَأْيَاهَا الشَّامْتُ الْمَبْدَى شِمَاتِهِ
 يَا وَحْشَةَ السَّيْرِ الْغَرًّا عَنِ الْأَوَّلِ
 قَدِمًا جَرَى فِي نَبِيِّ اللَّهِ وَالرُّسُلِ
 وَفِي الذُّرَى لَوْعُولٍ صَعْبَةِ السُّبُلِ^(٥)
 أَوْ لَا فَلَآ وَلَدْتُ عَن آخِرِ الطُّوْلِ^(٦)
 مَهْلًا بِفِيكَ تَرَابُ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وهو يببالغ إذ يجعل الدين بعد وفاة خاله يعود غريباً، ويبدو من الشطر الثانى أن خاله كان يعنى بالسير التاريخية، ويعود إلى المبالغة فى البيت إذ يقرن وفاة خاله بوفاة الرسول ﷺ ووفاة الأنبياء! ويقول إن حياً لا يستعصى على الموت، لا الأسد فى أغياها ولا الوعول فى ذرى الجبال وقممها العالية، وبنوه به ويقاخر، إذ يقول مثله فلتلد الأمهات وإلا فلا تلد إلى آخر الدهر، ويدعو على الشامتين بموته. ولعل فيما أنشدناه من شعر فتح بن نوح ما يصور ملكته الشعرية الحنصبة.

(٤) صوى: أعلام ومنارات. يؤل: يرجع
 (٥) أغيال جمع غيل: بيت الأسد. الوعول جمع
 وعل: تيس الجبل
 (٦) عن آخر الطول: يريد إلى آخر الدهر

(١) يسطو: يبطش ويقهر. العذل: اللوم
 (٢) جدت: قبر
 (٣) بنات الدهر: نكباته. سمل العين: فقؤها
 بسمار محمى.

(ب) ابن أبي الدنيا

هو أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصديقي الطرابلسي المولود بطرابلس سنة ٦٠٦ وفيها نشأ ونهل من حلقات علمائها وأدبائها، وارتحل إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمع إلى كثير من العلماء، وعاد إلى تونس في عهد مؤسس الدولة الحفصية أبي زكريا (٦٢٥ - ٦٤٧ هـ). ونال حظوة عنده، ورجع إلى بلده: طرابلس فترة، واستدعى إلى تونس، فولى بها الخطط الرفيعة إذ ولى قضاء الجماعة، كما ولى الخطابة بالجامع الأعظم وغير ذلك من المناصب حتى وفاته سنة ٦٨٤ للهجرة. وله تصانيف ومؤلفات قيمة، منها: العقيدة الدينية وشرحها وجملة الالتياس في الرد على نفاة القياس وكتاب مذكر الفؤاد في الحض على الجهاد. ومراً في حديثنا عنه بين الفقهاء أنه كان يدرس لطلابه في بعض دروسه بطرابلس كتاب الإرشاد والبرهان للجويني إمام الحرمين وكتاب المستصفي للغزالي. وبجانب هذه الثقافة الدينية المتميقة كان شاعراً، وفيه يقول التجاني في رحلته: «من فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة في الأدب». وقد أنشد له بعض أشعاره، وذكر أن له قصيدة طويلة افتتحها بقوله:

بحمد الله نبتديُّ الأمورا ونختم آخرا فيه الجُبورا

ولم يذكر التجاني سوى المطلع، ويبدو أنها كانت موعظة طويلة، وقد سقطت من يد الزمن وربما سقطت له معها أشعار أخرى له في المواعظ والدعوة إلى الزهد، وما أنشده له التجاني قوله:

طرقُ السلامة والفلاح قناعةٌ	ولزومُ بيتِ بالتوحُّشِ مؤنِسِ
يكفيه أنسا أن يكون أنيسه	أيُّ القرآن ونوره في الحِنْدَسِ ^(١)
وإذا رأت عيناه إنساناً أتى	فَلْيَنْفِرَنَّ نفورَ ظبيِّ المَكْنَسِ ^(٢)
ولقلماً ينفكُّ صاحبٌ مقولٍ	من زَلَّةٍ أو عَثْرَةٍ في المجلسِ

ويبدو أن الأبيات مقتطعة من قصيدة طويلة في النصيح بالفقاعة فهي الطريق الذي لا يخطئ إلى السلامة والفلاح، والعاقل من اعتزل الناس ولزم بيته منقطعاً إلى الالتياس بمجالس الذكر الحكيم ومناراته الساطعة في الليالي الشديدة الظلام. ويدعو إلى النفور من الاجتماع بأي إنسان

الشجر.

(١) الحندس: الليل الشديد الظلام.

(٢) المكنس: الكناس وهو مأوى الظبي في

خشيةً لدغاته التي يصيب بها مَنْ حوله، وكأنما يرتسم في مخيلته قول القائل:
 عَوَى الذَّبُّ فاستأنستُ بالذَّبِّ إذ عَوَى وصَوَّتْ إنسانٌ فكادتُ أطيْرُ
 ويقول أخيراً منفراً من مجالسة الناس إن الجلوس إليهم قد يؤدى إلى عثرات اللسان وزلاته
 منك أو منهم. فأولى لك أن تبتعد عنهم وعن مجالسهم، وأن تعزلهم معصمابيتك حتى لا تغلط
 وحتى لا تسمع غلطا من إنسان. وولى المستنصر الحكم بعد أبيه أبو زكريا، وأحس ابن أبي
 الدنيا بجفوة منه، وأنه ربما أُسِرَ في نفسه شيئا منه، فكتب إليه يستعطفه:

أمولاي ما زلتُم تنيلون عبيدكم ضروباً من النعماء جَلَّتْ عن المئلِ
 ولم يبق إلا العفوُ وهو أجلُّ ما يُنال فأكملُ لى به مِنحةَ الفضلِ
 فما العيشُ فى الدنيا بغير رضاكمُ بصافٍ ولا طعمُ الحياة بِمُحلولى
 وقد كدَّرَ الإعراضُ صَفْوَ معيشتى فأنكرتُ أحوالى وأنكرنى أهلى

وابن أبي الدنيا يعترف للمستنصر الحفصى بأنه ما يزال يغمره بنعم لامتيل لها ولاقرين،
 ويتوسل إليه أن يَنِّ عليه بنعمة كبرى، هى نعمة العفو، حتى يكمل بها ما يمنحه من أفضالٍ
 كثيرة، ويقول له إن الحياة بدون رضاكم تكدَّرت مياهما، ولم يعد فى طعمها شىء من الحلاوة،
 ولقد بدَّلَ إعراضكم عنى معيشتى، حتى أصبحت أنكر أحوالى، بل إن أهلى أنكرونى لما يعترينى
 من قلقٍ وضيقٍ لم يألفوه منى. ويستمر فى استعطافه منشداً.

ولى أملٌ يقضى بغفران زَلَّتْى وبالغفو عن جُرْمى وبالصَّفْحِ عن فعلى
 بقيتَ تزيِدُ الملكَ عِزًّا وبهجةً وتَحْمِي رسومَ الفضلِ والدينِ والعدلِ
 ولا يُخْطِنُنِي منك عفوٌ ورحمةٌ فإنهما ما أخطأ أحدا قَبْلِي
 وصلَّى إلهُ العَرَسِ بدءاً وعودةً على المصطفى من خلقه خاتم الرُّسلِ

وهو يسأل المستنصر ضارعا أن يغفر له زلته ويعفو عن جرمه ويصفح عن فعله الذى
 اقترفه، ويأخذ فى الدعاء له أن يظل يزيد الملك عزا وأبهة وبهجة ومسرة ويحمى رسوم الفضل
 والإحسان والدين الخفيف والعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه، وهو بهذا الدعاء
 وما يسوق فيه من صفاته فى رأيه يحاول أن يستدر عطفه ويسأله العفو، بل يسأله الرحمة وأن
 يرق له قلبه، ويقول له إنك دائما تسبغها على الناس، فلا تحرمنى منها، ويختم دعاءه بالصلاة
 على الرسول ﷺ، وكأنما يذكره ليكون شقيقاً عنده. وأسدل عليه المستنصر عفو، وعاد إليه
 رضاه. ولعل فيما أنشدت له من أشعار ما يصور شاعرية غزيرة خصبة، وأنه كان يعرف كيف
 يصطفى ألفاظه ومعانيه فى لغة شعرية مصفاة، وبدون ريب كان معروفاً بقدرته فى حوكِ الكلام،

مما أتاح له أن يشغل منصب الخطابة في الجامع الأعظم، كما أتاح له هذه الأبنية الشعرية المحكمة فكرا وصياغة.

(ج) ابن معمر

هو أبو علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي، كان فقيها ممتازا وشاعرا نابها مثل ابن أبي الدنيا معاصره، وفيه يقول التجاني في رحلته: «أحد أرباب الرتب الجامعين بين رياسة الفقه ورياسة الأدب. ولد بطرابلس سنة ٦٠٩ وقرأ بها سيرا، ثم توجه إلى (مدينة) المهديّة (بتونس) للقراءة بها على الفقيه أبي زكريا البرقي» ويقول أيضا: «كان فقيها مفوها خطيبا لسنا» وطمحت نفسه للنزول بتونس عاصمة الدولة الحفصية لعله يأخذ مكانه بها بين فقهاؤها وأبائها ونزلها. ولفت إليه الأنظار بتعمقه في المذهب المالكي، مما أتاح له أن يتولى مناصب متعددة في دولة الخليفة المستنصر الحفصي (٦٤٧-٦٧٥هـ) إذ أسند إليه منصب القضاء في كثير من بلاده في إفريقية التونسية وفي الجزائر مثل باجة التونسية وبجاية الجزائرية. وولى خطة أو منصب العلامة الكبرى في ديوان الإنشاء، كما ولى النظر في خزانة الكتب، ويقول التجاني: «كان في لسانه فضول كثر امتحانه به والتعرض له بسببه» وفعلا نُقل إلى المستنصر عنه ما جعله يسخط عليه وينفيه إلى مدينة المهديّة سنة ٦٦٧ ويعفو عنه، ولكن بعد عام كامل. وتوفى المستنصر وخلفه ابنه الواثق (٦٧٥ - ٦٧٨هـ) فأُسند إليه النظر في خزانة الكتب بتونس، ويبدو أن فضول لسانه عاد إليه فغضب عليه رئيس الدولة ابن أبي مروان، فأدخله السجن تاديبا، ثم رُدّت إليه حريته إلى أن فارق دنياه سنة ٦٨٣ للهجرة. وأُشدد له التجاني بعض أشعاره، من ذلك قوله متغزلا:

لولا احورارُ جفونٍ أودعتُ سَقما	ما أمطرتُ سُحْبُ أجفاني الدموعَ دَمًا
ولا وقفتُ أصيلاًنا برَبِّعكم	ولا سقيتُ رُباه من دمي دِيَمًا ^(١)
ولا نثرتُ عقيقَ الدمعِ في طَلَلٍ	منه أذيعُ الذی قد كان مُكْتَمًا
شَمَلُ السلوِّ شتيتُ بعد بُعدكم	وطالما كان قبل اليوم مُلتَمًا
اليِّنُ يقطعُ منه كلُّ مُتَّصلٍ	والشوقُ يَنثُرُ منه كلُّ ما انتظما
والوَجْدُ شادَ بجسمي ما يهدِّمه	أو على ما بنى فيه وماهدما

وهو يقول لولا جمال الحور وما أودع العيون مما يشبه السقم ما هطلت سحب أجفاني بدم الدموع القاني ولا وقفت في الأصيل بربعكم ودياركم أسقي رباه أمطارا من دمي، ولا نثرت

(١) أصيلا: دينا. مطر غزير.

مُحَمَّرٌ الدَّمْعُ فِي طَلَلِ ذَاغٍ مَنِي فِيهِ مَا كُنْتُ أَكْتُمُهُ وَأُدَارِيهِ، وَقَدْ فَارَقَنِي السُّلُو وَكَانَ لَا يَبَارِحُنِي وَقَطَعَ
الْبَيْنَ وَالْفِرَاقَ مِنْهُ كُلِّ مَا كَانَ مُتَصِلًا وَنَثَرَ مِنْهُ كُلِّ مَا كَانَ مُنْتَظِمًا وَالْوَجْدَ آخِذًا بِجَسْمِي بَيْنِي
وَيُهْدِمُ مَسْبِيحًا لِي التِّيَاعَا شَدِيدًا لَا أَكَادُ أَطِيقُهُ، وَيَسْتَمِرُّ ابْنُ مَعْمَرٍ فِي غَزَلِهِ:

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَيَّ مَا جَلَّ مِنْ أَسْفَى	هَذَا الْبَسِيرُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كُتِمَا
مَا خَطَطَ النَّوْمُ فِي جَفَنِي رَسْمَ كَرَى	إِلَّا مَحَا السُّهْدُ مَا قَدْ خُطَّ أَوْرِسَمَا
أُنْبِيكُمُ أَنَّنِي مِنْ يَوْمِ بَيِّنِكُمْ	مَا زِلْتُ لِلسُّهْدِ وَالتَّذْكَارِ مُلْتَزِمَا
أَرْتَاحُ إِنْ هَبَّ رِيحٌ مِنْ جَنَابِكُمْ	أَوْلَاحُ بَرَقَ بِذَاكَ الْأَفْقِ وَابْتَسَمَا
أَمَا وَمَنْ قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ مُقْتَدِرًا	وَحُبُّكُمْ وَكُفْيَ بِالْحَبِّ لِي قَسَمَا
مَا رَامَ قَلْبِي اصْطِبَارًا بَعْدَ بَعْدِكُمْ	وَمَا تَأَخَّرَ بِي مِنْ وَجْدِهِ قَدَمَا

وهو يقول لمن يلومه على ما يُظهر من عظيم الوجد واللوعة إن ذلك بعض ما أكنمه من
حُرقة الحب، ويشكو من السُّهْدِ مفكراً فيمن يحبه حتى يقول إن ما قد يخطئه النوم في جفني
من أثر للنعاس يحو السُّهْدَ خطوطه ورسومه محوًا، فسُهدته وتذكاره لمن يحبه يلازمه وإنه
ليشعر براحة ما مثلها راحة حين تهب ريح من جهتهن أو يلوح برق من أفقهن مبتسما وكأنما
يحمل أثرا من ابتسامهن، ويقسم بربه المقتدر وبجبه أن قلبه لم يحاول صبرا على فراقهن
وبعدهن، ولا يزال يلتاع وجدا وهياما. والأبيات تسيل عذوبة مع ما تشفع به من التصاوير،
كما يدل على قدرة ملكته الشعرية وأنها تواتيه بما يريد من الأخيلة ومن الألفاظ السهلة التي
تبدو لسهولة وقربها من اللغة المألوفة كأنها طوع اليد، وهي لا تطاوع إلا الشاعر الأصيل
الذي يعرف كيف يؤثر فيك بتصاويره وبلغته السلسة، ومن رقيق غزلياته قوله:

أَهَا نَزِدُّ لَوْ تَشْفَى لَنَا كُرْبَا	وَبِالتَّعَلَّاتِ نَحْيَا لَوْ قَضَتْ أَرْبَا ^(١)
وَبِالْأَمَانِي يَنَالُ الْقَلْبُ بُغْيَةَ	وَقَدْ تَحَقَّقَ مِنْ مَعْتَادِهَا كَذْبَا
يَرْتَاعُ إِنْ لَاحَ بَرَقٌ مِنْ جَهَامَتِهَا	وَمَا تَرَأَى لَهُ إِلَّا وَقْدَ ذَهَبَا ^(٢)
يُسْرُ إِنْ مَدَّ يَوْمًا حَبْلُ مُنْيَتِهِ	وَمَا تَطَاوَلُ إِلَّا جُدُّ وَانْقَضَا ^(٣)
إِنْ عَزَّ مَا يَبْتَغِيهِ فَهَوَ فِي هَرَجٍ	وَيَخْتَشَى الْفَقْدَ إِنْ مَا يَبْتَغِي قُرْبَا ^(٤)

(١) التعلات: ما يتعلل به الشخص ويتلهى. أربا: (٣) جُدُّ وانقضب: انقطع.

(٤) هرج: اختلاط.

حاجة.

(٢) الجهامة: العبوس.

وهو يقول إنه لا يزال يرَدُّ لفظه آه تعبيراً عن وجده المتاع غير أنها لا تشفيه من كرب الوجد ولوعاته، ولا يزال يعَلِّل نفسه ويمينها باللقاء، غير أن التعلات لا تقضى مأرباً ولا حاجة وإن القلب لا يزال ظامئاً مثلها إذ لا يسعفه إلا سراب الأمانى الكاذب الخادع، وقد يلوح له أمل، وسرعان ما يتواري كالبرق يخفى بمجرد ظهوره ولمعانه - إنه يعيش بالأمانى فى اللقاء، فهى حسبه، على أن حبَّلهما لا يمدُّ ولا يطول إلا جُدَّ وانقطع، ولا يزال عقله فى اختلاط، كلما شعر أن أمنيته لن تتحقق، وحتى إن ظن أنها اقتربت لا يزال فى خوف من ابتعادها بل من فقدتها فقدماً لا أوبة معه. ويستمر ابن معمر فى غزله منشداً:

وَأَرْحَمَتَاهُ لِقَلْبِي كَمْ أَجَسَّمُهُ	أمرأ يذيبُ من الأَصْلَادِ مَا صَلْبَا
وَكَمْ يُعَانِي مَلَمَاتٍ بِأَيْسَرِهَا	يَهْوُنُ الأَمْرَ من دِنْيَاهِ مَا صَعْبَا
وَكَمْ يُلْجِجُ فى أَفْكَارِهِ لُجْجَا	سُودًا تُوَجِّجُ فى أَحْشَائِهِ لَهْبَا
وَكَمْ تَهَبُّ سَمُومًا من تَنْفُسِهِ	لو استمرَّتْ لِمَاهَبَّتْ نَسِيمُ صَبَا
أَسْتَغْفِرُ اللهَ لا أشكو الزمانَ ولا	أُبْدِي - إذا طرقتْ أَحْدَانُهُ - رَهْبَا
ولا أَيْتُنْ لحظًّا منه أَعْوَزْنِي	ولا أَسْرُ إذا مَاءُ المني انسكبَا
أنى يُسَرُّ لبيبٌ أن رأى حُلْمًا	وكيف يطرب مَنْ خَمَرَ الفَنَا شَرِبَا

وهو يأسى لقلبه وما يجسِّمه من متاعب حبِّ تذيب الصخر الصلد الصلب وما يحمله من مللمات يعانى منها أشد العناء، وإن أيسرها ليهوّن أى أمر صعب من دنياه ما ظلت صعوبته راسخة جائمة فيه، فما بالناس بأثقال تلك المللمات وما تحمل من صعوبات لا تطاق، وما أسقى قلبه بها جميعاً وما أعظم عناؤه، وكفى يخوض هذا القلب من أفكاره لججا شديدة السواد توجج نيران وجدى فى أحشائه ماتى تلتهب التهايباً، وإنها لتقذف بسموم من تنفسه لو استمرت - كما يزعم - لمنعت نسيم الصبا اللبّن من الهبوب. ويعود ابن معمر إلى نفسه، ويستشعر قوة عاتية، ويستغفر الله فإنه لا يشكو الزمان ولا يصيبه جزع من أحداثه، ولا يئن لحظ فاته منه، ولا يحزن لخطوب طرقتة ولا يفرح لأمانى طوّفته، ويقول كيف يسر لبيب عاقل رأى حُلْمًا تراءى له وكيف يطرب لمسة من مسرات الدنيا من شرب من كأس الفناء وأسكره. وله وقد أبل الخليفة الحفصى - ولعله المستنصر - من مرضه.

اللهُ أنعم بعد اليأس بالفرجِ يا أزمّة الدَّهْرِ عند الشَّدَةِ انْفِرْجِي
شكرُ الخلائق لا يكفى لأيسر ما كفى وسكن من هَرَجٍ ومن رَهَجٍ^(١)

(١) هرج ورهج: شغب واختلاط.

أَبْقَى الْأَنْامَ بِإِيقَاءِ الْإِمَامِ فِكْمَ بَصُونِهِ صَانَ مِنْ مَالٍ وَمِنْ مُهَجٍ
إِذَا رَعَى اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ رَاعِيَهُ لَمْ نَأْسَ مِنْ فَقْدِ ذِي قَدْرٍ وَلَا هَمَجٍ

وهو يقول إن الله أنعم على الرعية بعد بأسها بنعمة الفرج وكشف الغم الذي اعترها
بمرض الخليفة، ويتجه إلى أزمت الدهر يسألها أن تنفرج وتنكشف وتنحسر عند الشدة أو
الشدائد إلى غير رجعة، ويقول إن شكر الرعية لا يفي بهذه النعمة الكبرى نعمة شفاء الخليفة
من مرضه وتهدئة ما كان قد حدث فيها من اختلاط واضطراب بسببه. ويفزع ابن معمر إلى
المبالغة أو قل يتماذى فيها، إذ جعل بقاءه بقاء للرعية وصوناً لأموالها ونفوسها، ويجعله راعياً
للإسلام ويرفعه فوق أفراد الرعية درجات. ولعل فيها أسلفت من أشعار ما يصور شاعرية ابن
معمر وأنه يعد بحق أشعر شعراء ليبيا حتى عصره لحسن صياغته وروعة تصاويره ودقة أفكاره.

٤

الشعراء في العهد العثماني

مرَّ بنا أن العثمانيين استولوا على طرابلس في أواسط القرن العاشر الهجري، وقد ضمَّ محمد
الساقزلي والي طرابلس برقة إلى ولايته بعد نحو قرن، وبذلك أصبح لليبيا حاكم عثمانى واحد
يتخذ طرابلس عاصمة له، وكان حكامها يتخذون التركية لغة رسمية لدواوينهم، وأخذوا مع
الزمن يقيمون مدارس في ليبيا ولكنها كانت تصب عنايتها على تعليم التركية لتخريج موظفين
للدواوين يساعدون في تصريف شئون الولاية. غير أن الثقافة الإسلامية العربية ظلت ترعاها
المساجد والزوايا. وكانت ليبيا قد أخذت تشغل منذ القرن الثامن الهجري بالتصوف وزواياه
وشيوخه، واتسع انشغالها بذلك منذ حكمها العثمانيون في أواسط القرن العاشر الهجري أو
بعبارة أدق منذ حكموا طرابلس، إذ كثر الشعر حينئذ على لسان الصوفية، غير أن الكثرة
الغامرة منه عامية، وما ليس عامياً يكثر فيه اللحن، ومن يضاف إليه أشعار كثيرة من
دراويشهم عبد السلام الأسمر المتوفى سنة ٩٨١ وكانت له زاوية بمدينة زليطن على نحو
ما ذكرنا في حديثنا عن الزهد والتصوف، وتكثر العامية الليبية في أشعاره ويكثر فيها الخروج
على العروض، وربما لم يكن هو نفسه السبب في ذلك، فقد تحول كثير منها شعراً شعيباً، وربما
عبث به الرواة والمنشدون من العوام، ومن أهم أشعاره قصيدة نظمها في التسعين من عمره،
ونقتطف منها بعض أبيات تستقيم فصاحة وعروضا^(١):

(١) انظر القصيدة في كتاب الشيخ سيدي

عبد السلام الأسمر لإسحق المليجي ص ٣٠٤.

شربتُ شرابَ العزِّ من خَمْرَةِ الصُّبا سقانيه محبوبى بسرَّ العِنايةِ
وبانتُ لى الأنوارِ وانكشفَ الغطا وألهمتُ أسراراً بسرَّ الجلالَةِ
ونمَّقتُ منشوراً إلى كلِّ عاشقٍ بأنهمُ حزبي وأهلُ إرادتى

وكان الشطر الأول في هذه الأبيات مضطرباً وأصلحته ليستقيم الوزن. وكان للشيخ أتباع كثيرون جاءوه من كل فج في ليبيا وتونس والبلاد المغربية، وأقاموا له - حين توفى - مأتماً كبيراً أنشد فيه بعض مرثيته مرثى مضطربة الوزن والصياغة، وإنما ذكرت بعض أشعاره لأدب على تدهور التصوف لغةً ووجداءً ملتاغاً، فالأبيات لا تحمل أى وجد، إنما هو ظاهر مما كان يردده الصوفية قديماً من كلمات الشراب والخمرة وانكشاف الغطاء والعشق وما إلى ذلك. وقد أحالوا الزوايا في ليبيا وبلاد المغرب من دور عبادة ونسك وتجمع فيها لجهاد أعداء الله أو قل أحالوا كثيراً منها إلى دور شعوذة واعتقاد في شيوخها بأنهم أولياء الله يطلعون على الغيب وتجري على أيديهم أعظم الخوارق، واستخدموا فيها حلقات الذكر مع التثني والنشوة بالاستماع إلى أناشيد صوفية ممسوخة ومع استخدام الدفوف والبنادر ونفس زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزيلطن استحالت إلى هذه الصورة، فقد كان يستخدم في زاويته الدف والبندير والأناشيد والتثني في الذكر، مما أثار عليه حملات شعواء من فقهاء عصره، وهو لا يبالي، بل يوهم أتباعه أنه ناظر وجادل نفراً منهم وتبعوه، يقول في نفس القصيدة:

وكم من فقيه كان ينكر حالنا فصار بفضل الله من أهل حَضرتى
فأعطى له التصريفُ حياً وميتاً وصرتُ إمامَ الوقتِ شيخَ الطريقةِ

وهو يزعم - زعماً باطلاً - أن من تبعه من الفقهاء أصبحوا من الأولياء، وأصبح لهم التصرف في القضاء أحياء وأمواتاً مثله، وهى شعوذة ملأ بها أمثاله نفوس العامة في ليبيا والعالم العربى: أن زيارة قبور الأولياء والمتصوفة تنفعهم وينبغى أن يقدموا لها النذور، وهى لا تنفع ولاشفع، إنما ينفع الإنسان - ويشفع له - عمله. ولكن إذا كان التصوف ساء سلوكاً في العصر العثماني بليبيا وهبط شعراً فإن المديح النبوي ظل له غير قليل من الرونق عند شاعر ليبي لُقّب بالبُهلول، وهو - لغةً - الجامع لخصال الخير وستترجم له، وتبعه بترجمة أحمد بن عبدالدائم.

(أ) البهلول^(١) الطرابلسي

هو أحمد بن الحسين الملقب بالبهلول، وُلد بطرابلس حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١١٣هـ/١٧٠٢م ولما نهل من حلقات الشيوخ فى مسقط رأسه، وعبَّ منها ما شاء، رأى أن يرحل إلى القاهرة للترؤد من أعلام الأزهر الشريف وظل فترة به ملازما حلقتى إمامى المالكية فيه: الشيخ محمد الخرشى والشيخ عبدالباقى الزرقانى، ولكل منها شرح على مختصر الشيخ خليل بن إسحق فى الفقه، والشيخ خليل - بدوره - فقيه مالكى مصرى، وقد طارت شهرة مختصره فى البلاد المغربية إلى اليوم، وتفتحت موهبة البهلول - حينئذ - فأنشأ قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه طرابلس، وفيها يقول:

طرابلس الغراء تُرى لى عوذةٌ إليك وهل يدنو الذى كان قد ذهبَ
سقى الجانب الشرقى منك سحابةٌ ولازال فيك من رباح الصبا مهبٌ
بديعةٌ حُسن زادها الله بهجةٌ وآمن أهلها من الخوف والشغبُ
وكيف بدارٍ قد حوت كل رُقعةٍ بقومٍ لهم فى العلم باعٌ وفى الأدبُ

ورجع إلى طرابلس بعلم غزير وأدب وفير وملكة شعرية خصبة، ولم يسخرها فى مديح حكام بلده، وإنما سخرها فى مديح صفوة الخلق سيد ولد آدم محمد ﷺ، ونظم فى ذلك ديوانا، قصائده مخمسات موزعة على الحروف الهجائية، وأضاف إلى تلك الحروف الثمانية والعشرين: «لا» فأصبحت تسعة وعشرين حرفا، ولكل حرف قصيدته وهو قافيتها وكل قصيدة تتألف من عشرين دورا، أو قل كل مخمس، وقد عُرف شعراء المغرب والأندلس بهذه المخمسات العشرينية، وعلى شاكلتهم ألف البهلول أو نظم هذا الديوان، ويقال إنه نظم مخمساته على أساس قصيدة عياضية، وهى لا توجد بين قصائد القاضى عياض إمام مدينة سبتة المشهور وربما كانت لعياض آخر، إذ يتسمى باسمه كثيرون بين مغاربة وأندلسيين، وأول دور فى المخمس الأول يجرى على هذا النمط:

أذوبُ اشتياقا والفؤاد بحسرةٍ وفى طى أحشائى توقد جمره
متى ترجع الأحياب من طول سفرهٍ أحبةً قلبى عللوني بنظرةٍ
فدائى جفاكم والوصول دوائى

(١) انظر فى البهلول ديوانه ومقدمته لمحققه:

الظاهر الزاوى وكتابه أعلام ليبيا، والمنهل العذب

لأحمد النائب الأنصارى.

وقافية الشطر الخامس همزية ومثلها جميع الشطور الخامسة في أدوار الخمس، وإلى قافية هذا الشطر يُنسَبُ الخمسُ جميعه. والأدوار العشرة الأولى في كل خمس تتخذ الغزل موضوعا لها بينما الأدوار العشرة الثانية في مديح المصطفى ﷺ كما يقول محقق الديوان الأستاذ الطاهر الزاوي. ونظن ظنا أن وراء الظاهر في العشرة الأولى نفحات من الغزل الصوفي الحسي الذي نقرؤه في ديوان ترجان الأشواق لابن عربي إذ يتشابه معه في أنه يجمع في غزله ما يختلج في قلوب المحبين العذريين إزاء محبوباتهم من لواعج الحب والافتتان بجمالهن وسحر عيونهن وورد خدودهن، ودائما محبوباتهم في ارتجال وفراق وبين، وهم مسهّدون بيبكون بدموع غزار، ولا يبلغ الحب مراده من الوصال، وهو - لذلك موجع الفؤاد، إذ لاشفاء له بلقاء أو ما يشبه اللقاء، بل قطعة متصلة، والحب - بل العذاب - يتجدد ألوانا. وجميع العشرينيات عند البهلول تبتدىء بهذا الغزل الملتاع، وما يؤكد تأثيره في غزله بالغزل الصوفي ذكره في مخمسه الخائي معروفا الكرخي الصوفي وتلميذه السري السقطي والجنيد تلميذ السري، والثلاثة من صوفية القرن الثالث الهجري المشهورين، وهو ما يجعلنا نزع أن شعاعات من الغزل الصوفي الحسي سقطت في الأدوار العشرة الأولى بمخمساته من مثل قوله في مخمسه السيني:

نفوسٌ عزيزاتٌ تُرى مَنْ أذلّها وسَفْكُ دِماها في الهوى مَنْ أحلّها
وبى غادةٌ كالشمس تمنع وصلّها سمحت بنفسى في هواها لعلّها

تدوم على حفظ المودة والأنس

تحمّل قلبي في هواها تحيةً ولم ترعَ بالتفريق وداً وضحبةً
أنادي عساها أن تفرّج كربةً سقتني كنوساً بالمحبة صرفة
ثملتُ بها سُكراً وغبتُ على حسي

وظاهر الدور الأول كأنه غزل طبيعي لمحَبِّ يتدَلَّلُ لمن تدلّه في حباها وأصابته بسهامها حتى كأنما سفكت دمه غير مبالية بحبه، وتمتع وصالها، وتمتع في هجرانها، وهو لا يزال يأمل أن تراجع نفسها وتذكر له أيام المودة والأنس، وهي معان يقولها الغزلون العذريون ولكن تأمل في الدور الثاني وماذكر فيه من كنوس المحبة وارتوائه منها صرقة صافية وكأنما ارتوى من كنوس المحبة الربانية التي طالما ردها الصوفية، ويقول إن نشوة السكر غلبت عليه حتى غاب عن حسّه، وكأنه يعنى فكرة الفناء الصوفية في الذات العلية إذ يبلغ الصوفي من محبته لربه غيابه عن حسّه، فقد أصبح روحا فانية في ربه لا يشعر بشيء في الوجود سواء وسوى محبته التي استغرقت حواسه حتى كأنما أصبح في غيبوبة مطلقة. وحقا لا يعن البهلول في غزله الحسي الذي يقدم به المديح النبوي كل هذا الإمعان الصوفي، ولذلك نقول إن في غزله بعض شعاعات من المحبة الصوفية.

والأدوار العشرة الثانية في مخمسات البهلول خصَّها بمديح الرسول ﷺ، ويفيض في ذكر معجزاته التي تتحدث عنها السيرة النبوية مثل انصداح إيوان كسرى وانطفاء نار فارس عند مولده ومثل شقَّ جبريل ل صدره ووضعه النور الربَّاني فيه بمنازل مرضعته حليلة السعدية، وشكوى الصحابة إليه من قلة الماء في بئر صغيرة كان يتوضأ منها، ففار الماء وتكاثر ببركته وما قيل من أن الغزالة كلمته وكذلك الذئب والضب، ومعروف أن معجزة الرسول الكبرى إنما هي القرآن الكريم ورسائله العظيمة التي وضعت أسسا قوية لهداية البشرية . ويذكر البهلول مرارا وتكرارا إسراء الرسول على البراق إلى بيت المقدس وصلاته فيه إماماً للرسول، ومعراجة إلى السموات السبع وما غشيه من الأنوار القدسية عند سِدْرَةِ المنتهى وما يني يتحدث عن محبته للرسول مصورا فضائله وشمائله المثالية السامية، ضارعا إليه دائما أن يكون شفيعه يوم المحشر، وتترامى في جوانب من مديحه النبوى شعاعات من فكرة الحقيقة المحمدية التي تغنى بها الحلاج والبوصيري لما جاء في الأثر من قول الرسول ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقته أقدم من حقيقة آدم وخلقه، وكأنه المبدأ لكل النبوات والرسالات، وفي ذلك يقول البهلول في مخمسة الخائى:

سما مَجْدُهُ بين الأنام وفخرُهُ وقد جَلَّ من بين البرية قَدْرُهُ
له المنصبُ الأعلى لقد تمَّ نصرُهُ ختامُ وإن كان المقدمُ ذكره
أخيرُ وإن كان المبدأ فى النَّسخ

فالرسول ﷺ - مع تأخره في الرسالة- متقدم في الرتبة على جميع الرسل والأنبياء، بل إنه المبدأ لهم جميعا، فمن رسالته استمدت جميع الرسالات، وكأنما نسختها منذ الأزل، بل إن الوجود جميعه ليستمد منه، إذ هو نور الله، وكل نور في الوجود يستمد من نوره، يقول:

نبيُّ تسامى فى الأنام بمجده لقد ضاءت الآفاقُ من نورِ سَعْدِهِ
وما ذكاءُ أو الشمسُ فى أضوائها الزاهية إلا فيض من نورِ وجهه وطلعته السنية، يقول:

له الشرفُ العالى بفخرٍ وسُؤدِدٍ ذكاءُ بدتْ من نورِ وَجْهٍ محمِديِّ

فالرسول ﷺ منشأ النور في الوجود وإن نور وجهه ليشاهد في كل نور: في الشمس وغير الشمس، إذ هو الحقيقة الأزلية أو النور الأزلى الذى يضيء الكون والآفاق منذ الأزل أضواء نيرة غامرة.

وأدوار المخمسات في ديوان البهلول تفيض بالسلاسة والعدوبة دون أى غرابة في كلمة أو صيغة، مما جعل أهل ليبيا - فضلا عن أهل طرابلس - يشغفون بالديوان ومخمساته لما يشيع فيه من السهولة والوضوح والصفاء الموسيقى، واعتادوا أن يقيموا لإنشاده حفلات تبدأ من

غرة شهر ربيع الأول كل عام حتى اليوم الثاني عشر يوم مولد المصطفى ﷺ، وربما صحبت الإنشاد ألحان بعض الآلات الموسيقية. وكانت للبهلول - بجانب هذا الديوان النبوي - أشعار تعليمية في فقه مذهب مالك وفي العقائد ولم تصلنا، وكانت له مقامات على نغمة مقامات الحريري سقطت - بدورها - من يد الزمن ويكفيه فخرا ومجدا هذا الديوان النبوي الذي صُوِّر فيه مشاعره الصوفية ومحبته المتقدة بين جوانحه لصاحب الرسالة المحمدية.

(ب) أحمد^(١) بن عبد الدائم

هو أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، ولد بطرابلس ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات علمائها، وتفتحت موهبته الشعرية، وكان فقيها ومؤرخا غير أن الشعر هو الذي جذبه، وكان معاصرا لأحمد القرماني وإلى طرابلس (١١٢٣ - ١١٥٨ هـ) فأخذ يدبج فيه بعض المديح وحدث في أثناء ولايته سنة ١١٤١ هـ/١٧٢٨ م أن قام أسطول فرنسي بمظاهرة أمام طرابلس وأرسل قبطانه إلى القرماني بشروط ينبغي أن يرضخ لها وإلا ضرب المدينة بقذائفه، ولم يرضخ القرماني ولا قبل الشروط، رافضا تهديد القبطان ووعيده، وضرب الأسطول طرابلس بقذائفه أربعة أيام طوالا، وأرسل القبطان أو قائد الاسطول الفرنسي بعدها خطابا يحث فيه القرماني على الصلح غير أنه صمم أن لا يستسلم، وكان الاسطول قد دمر أكثر من ثلث المدينة إذ ألقى عليها نحو ألفي قنبلة، واستنفذ مالديه من القذائف، فلم يجد قائده بدا من فك الحصار عن طرابلس وعودته إلى بلاده. كل ذلك حدث والخليفة العثماني لا يحرك ساكنا ولا يحاول الثأر لطرابلس من الفرنسيين. فنظم ابن عبد الدائم قصيدة يستثيره فيها ضدهم محاولا أن يملأه حمية وحماسة بمثل قوله فيها:

يا واحدا ما في البسيطة مثله ملك الملوك يتاجه المتكلم
أو ما يغيظك حال قلعتك التي فازت بفتحك في الزمان الأول
إننا لنرجو منك أخذ الثأر من شعب الفرنسيس اللثيم الأردل

وكان العبدري المغربي قد نزل طرابلس في رحلته إلى الحج سنة ٦٨٨ ويبدو أنه أصابه حيف من بعض أهلها. فعمَّ المدينة وأهلها جميعا بدم شديد ضمنه رحلته المغربية، ذمَّ المغيظ المحنق، ولا نعرف الأسباب الحقيقية لهذا الدم، وردَّ عليه رحالة مغربي مواطن له زارها بعده، هو ابن عبد السلام الناصري، إذ دافع عنها دفاعا حاراً في رحلته الحجازية الكبرى، واستشهد على

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم كتاب التذكار
فيمن ملك طرابلس من الأخيار لابن غلبون
وأعلام ليبيا للظاهر الزاوي والمنهل العذب لأحمد
النائب الأنصاري.

مدحها بأشعار لمغاربة في تقرّيظها وتقرّيظ أهلها، ومن قوله: «وحسن أخلاق أهلها وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها امتلاً به الخافقان، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح، وما زالت الأشراف تُهَجِّي وتمدح». وابن عبد الدائم أحد من امتعضوا امتعاضاً شديداً من ذم العبدري لها ولأهلها، مما جعله ينظم قصيدة في الرد عليه، كان لها دوى غير قليل، وفيها يقول:

طرابلسٌ لا تقبل الذمَّ إنها لها حسناتٌ جاوزتُ سيئاتها
إذا أمَّها من قد نأته بلادُهُ وأوحشه ذو أمرها من مُجاتها
تظامن عن نفسٍ ومالٍ وعشرةٍ ويُضجى بعزٍّ مائوى بجهاتها
ها همّةٌ تعلو لتأييدِ سُنَّةٍ بحفظ مبانيتها وجمع رواتها

وهو يقول إن طرابلس لا تُذم ولا تُهَجِّي، فحسنتها أكثر من سيئاتها ومحامدها أكثر من أن تحصى، ويذكر أن الغريب الطريد من بلاده وحكامها الجائرين إذا نزلها أمن على نفسه وماله وأهله، ويشعر بعز ما بعده عز طوال إقامته، وينوه بهمتها في العلوم وخاصة في تأييد السنة بحفظ نصوصها وأسانيد رواتها. والقصيدة في تسعة وعشرين بيتاً وقد شرحها مواطنه ابن غلبون المتوفى سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٤ م في كتاب سماه: «التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار». وشعر القصيدة وأختها السابقة متوسط، وكان طرابلس وليبيا جميعاً استبقنا نهضتها في الشعر إلى عصرها الحديث عند رفيق المهدي ونظرائه.

٥

النثر

من المؤكد أن ليبيا أنتجت نثراً كما أنتجت شعراً غير أن نثرها لم تحتفظ به الكتب إلا قليلاً جداً إذ كثيراً ما نقرأ في كتب التراجم لهذا الطرابلسي أو لهذا البرقي رسالة أو مقامة، ويكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر المقامة ولا تذكر الرسالة، وبالمثل نسمع عن هذا الفقيه الكبير أو ذاك أنه تولى قضاء طرابلس والخطابة أو تولى الخطابة بالجامع الأعظم في تونس ولا تذكر لهذا ولا لذلك خطبة. وقد يكون من أسباب عدم الاهتمام بتسجيل فنون النثر في طرابلس وبرقة وغيرها من مدن ليبيا أنه لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب وتحميه وتحث بتشجيعها له وحاجتها إليه نهضة أدبية واسعة كما حدث في تونس وغير تونس من البلدان العربية، ولو أنه نشأت في

طرابلس أو برقة دولة وأنشأت لها ديوان إنشاء لتألق لها كتاب ناهيون يديجون رسائل سياسية بديدة تلفت معاصريهم وتجعلهم يسجلونها لهم ولبت ذلك فيها نشاطا أدبيا جما في النثر لا في فن الرسائل وحده بل أيضا في مختلف الفنون النثرية. ومع ذلك فقد بقيت من النثر اللبى قطع صغيرة وشظايا متفرقة من وصايا الفقهاء والزهاد ونصائحهم من مثل قول عبد الجبار السرقى المذكور بين الفقهاء الزهاد والمتوفى سنة ٢٨١. «مَنْ قَلَّ كَلَامُهُ قَلَّتْ آثَامُهُ - الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام - من زَمَّ (صان) لسانه كَثُرَ في الدنيا والآخرة أمانه». - وسئل الزاهد عبد الله بن إسماعيل البرقى المار ذكره والمتوفى سنة ٣١٧ عن كثرة بكائه خشية وتقوى، فقال: «إِنَّمَا جُعِلَتْ عَيْنَايَ لِلْبُكَاءِ، وَلِسَانِي لِتَعْظِيمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَحْمِيدِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ، وَبَدَنِي لِلتَّرَابِ وَالْبَلْبَلِ، وَقَلْبِي لِلخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، لَمْ أَحْلُقْ لِلعِبِّ وَلَا لِلهُوِّ، وَإِنَّمَا خَلِقْتُ لِلعَمَلِ الصَّالِحِ».

وكان الإباضية أكثر احتفاظاً بأقوال أئمتهم، ونجد في كتاب السير للشماخي خطبة لأبي الخطاب المعافى النائر بطرابلس سنة ١٤٠ وهى فصيحة، غير أنها شديدة البساطة ولا تعنى بجمال الصباغة، إذ ارتجلها في مخاطبة الجيش الذى وجهه لإخراج الصفرية من القيروان. ويذكر الشماخي نصاً من أقصر الرسائل المتبادلة بين متوعد لأهل نفوسة ومجيب له، إذ كتب الأول مهددا ومنذرا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهما عبارتان قرآنيتان، فأجابه محمد بن جنون الشروسى النفوسى من القرآن أيضا: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ كَذَلِكَ نَعْمَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾. ونرى الشاعر فتح بن نوح الإباضى الذى ترجمنا له بين شعراء الدولة الحفصية يعارض أبا العلاء المعرى في كتابه الوعظى: «ملقى السبيل» الذى جعله على الحروف الأبجدية، وفيه يذكر سجعات نثرية قليلة ويتبعها بيتين بنفس معناهما، وهو ماتقيد به فتح بن نوح في معارضته إلى نهاية الحروف الهجائية بادئا بيتين بقافية همزة، ودائما يذكر البيتين أولا ويتلوها بالسجعات الوعظية، ومن سجعاته قوله:

«كُلُّ مَنْ غَدَا عَلَى ظَهْرِهَا^(١) وَرَاحَ، مَشْغُولُ الْبَالِ مَا اسْتَرَاحَ، حَتَّى الْأَجْنَةُ فِي الْأَرْحَامِ، مِنْ بَنِي سَامٍ وَيَافِئِ وَحَامٍ، كُلُّ أَهْدَافِ السَّهَامِ، أَرُونِي خَلْقًا خَلَوْا، وَسَلِيمِ الْخَاطِرِ سُفْلًا وَعُلُوًّا، وَهِيَهَاتَ لَنْ تَرَى إِلَّا نَضْوَا^(٢)، فَإِنَّا لِلَّهِ.. لَمْ نَرِ إِلَّا عَبْدَ آمَالٍ، وَعَابِدَ مَالٍ، وَفَاسِدَ أَعْمَالٍ، وَمَتَصْنَعَا بِأَسْمَالِ^(٣)، فَسَدَ الْعِمْرَانَ وَالْبَيْدَ، وَأَشْرَفْنَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ لِبَيْدٍ» والسجعات تطير عن القم بخفة لعدوبتها، وهو يعرف كيف يصطفى ألفاظه ومعانيه بحيث تلذ السامع وتمتع عقله، مضيئا إليها

(١) ظهرها: يريد ظهر الدنيا وسطحها الذى
(٢) نضوا: مجهدا مهزولا.
(٣) أسمال جمع سمل: نوب خلق بال.
نعيش عليه.

بعض محسنات البديع وطبائقاته من مثل: «غدا - راح. وسُقلاً - عُلوًا» وجناساته من مثل: «عبد آمال - عابد مال. والبيد - لبيد) وتساويره من مثل: «أهداف السهام - نضوا» ولا نشعر في شيء منها جميعا بتكلف أو تصنع فما تميز به من حسن البيان، ويشير إلى بيت لبيد العامري المشهور:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرِب

ومن طريف سجعاته قوله في بعض هذا الوعظ:

«صين الدين والعرض، ومؤدى الواجب والفرض، ومطيع ديان السماء والأرض، وحوشى من اللوم من ليس على الدنيا بهجوم، ولا للورى بظلوم». وقوله:

«لو علم الغابر، مصرع العابر، وفهم مضمون المقابر، ما أغضى جفنا على سنة (نعاس)، ولا أدخر شهرا لسنة. حينذا من اعتنى بذا، وهجر الحنا والبذا (البذاء) وأغضى على القذى، وآمن الناس من الأذى».

والسجعات في غاية السلاسة والرشاقة وحسن النسق في الجرس، بحيث تستهويك وتخلب لبك، وهى ملحقة بالديوان، وإنها لحرية بأن تحقق مع مايسبقها من أشعار وعظية وتنشر نشرة مستقلة.



القسم الثاني

تونس

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

جلب هذا القطر قديما بحسن موقعه على البحر المتوسط وكثرة خيراته الفينيقيين ومن بعدهم الرومان فالواندال فالروم البيزنطيين، وهو يقع في المنطقة الوسطى من الشمال الإفريقي بين البحر المتوسط في الشمال والشرق وليبيا في الجنوب الشرقي والصحراء في الجنوب الغربي والجزائر في الغرب. وتبلغ مساحته نحو مائة وخمسة وعشرين ألف كيلومتر مربع. وتدخل إليه جبال أطلس من الجزائر قرب مدينة تَبَسَّة في الجنوب الغربي، وتصعد بعض فروعها إلى الشمال الشرقي مارةً بجبل زغوان شمالي القيروان وتنعطف منها مرتفعات - في شكل تلال - إلى بنزرت. وتمتد سهول تحت أقدام جبال أطلس وخاصة في الشمال. وليس في الاقليم التونسي نهر كبير سوى نهر مجرّدة المنحدر من الغرب إلى الشمال الشرقي في اتجاه تونس، وسهوله من أخصب السهول، وتنتج مقادير ضخمة من الحبوب سوى ما ينمو فيها من الزروع والفروس. وتمتد في الساحل على طول البحر المتوسط أراض خصبة وافرة السكان والعمران. ووراء قابس في الساحل الشرقي إلى شط الجريد وواحاته تترامى في الجنوب أراض منبسطة واسعة في وسطها مراع كثيرة وبعض المزارع، وغربيها بقاع شاسعة من الحلفاء وتوجد بعض السبخات، وشرقيها منطقة نفزاوة. ومدينة توزر هي قاعدة منطقة أو شط الجريد الذي تلتف به غابة واسعة من النخيل، ومياهها تنبع من الرمل وتتجمع خارجها، وتتشعب في جداول عليها أرحاء صنعها ابن الشباط المهندس في القرن السابع الهجري، وتوزر من قديم تُعدّ من أهم البلاد التونسية لإنتاجها الوافر من البلح والتمور فضلا عما بها من البساتين والفواكه المتنوعة وفي الشمال الشرقي من توزر مدينة قفصة، ويقول جغرافيو العرب إنها من أكثر بلاد الله فُسْتَقًا، وكان

ترجمة الدكتور حمادى الساحل (نشر دار الغرب الإسلامي) ٣١٣/١ ومابعدها ومادة تونس في دائرة المعارف الإسلامية، وما بها من مراجع.

(١) انظر في جغرافية تونس أو الاقليم التونسي كتابات ابن رسته وابن حوقل وأبي عبيدالبكري والشريف الإدريسي، وهذه تونس للدكتور الحبيب نامر. وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي ليرنسيك

يُحمل منها إلى سجلماسة في المغرب الأقصى ومدن الأندلس. وكانت تمدّ القيروان بأصناف التمور والفواكه. ومدن نهر بجرّدة هي مدن الحبوب ومن أهمها مدن الكاف وسليانة وتبرسّق وباجة غربى تونس وبينهما نحو مائة كيلو متر، ويقول البكرى إنها كثيرة الأنهار (لعله يريد جداول المياه) وهى على جبل في هيئة الطيلسان، واشتهرت قديما بإنتاج الحبوب، وخاصة القمح، ولذلك سموها قديما باجة القمح. وغرّ بالساحل من الغرب ابتداء من مدينة بنزرت، وهى ثغر في أقصى الغرب التونسي على البحر المتوسط في موقع ممتاز، تحف بها مزارع مثمرة وغابات كثيفة. وتشتهر بإنتاجها من الحبوب والبقول والزيتون، فضلا عن أنها ميناء تجارى مهم، وفى شريقها بحيرة ويقول عنها الإدريسي: فيها متصل بالبحر المتوسط وكلما دخلت في البر اتسعت وكلما قربت من البحر ضاقت، ويصاد بها أنواع كثيرة من الأسماك. وكان بجانبها محارس أو رباطات ينزلها النساك المجاهدون في سبيل الله لحماية تونس من القراصنة والغزاة. ونمضى شرقا على الساحل في الشمال، فتلقنا تونس على خليجها، وقد بناها حسان بن النعمان والى إفريقية (٧٦ - ٨٥هـ) بالقرب من قرطاجة الفينيقية، متخذا منها دار صناعة كبيرة لبناء أسطولها. واتخذها عاصمة، غير أن الولاة والحكام بعده تركوها إلى القيروان التى كان قد بناها عقبه بن نافع بين سنتي ٥٠ و ٥٥ للهجرة واتخذها هو ومن بعده عاصمة لإفريقية، حتى إذا استولت الدولة الحفصية على صولجان الحكم في الاقليم اتخذت تونس عاصمة للبلاد، وماتزال هى العاصمة إلى اليوم. وإلى الشرق من خليج تونس خليج الحمامات وبينها شبه جزيرة من أخصب الأراضى التونسية، وتكتظ بغابات الزيتون وبساتين الفواكه وخاصة البرتقال.

وتلقنا بعد خليج الحمامات في الشرق مدينة سوسة، وقد اتخذتها الدولة الأغلبية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى دار صناعة لسفن أسطولها الحربى، وبواسطة هذا الأسطول استطاعت تلك الدولة الاستيلاء على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وعلى مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ويقول ابن رسته في كتابه: «الأعلاق النفيسة»: إن ساحل سوسة كثير السواد من الزيتون والكروم والأشجار، وبه قرى كثيرة يتصل بعضها ببعض، وهى - مثل بنزرت - يصاد بها أنواع مختلفة من الأسماك، وخاصة من الحيتان. وجنوبى سوسة مدينة المنستير وكانت في الأصل محرسا كبيرا أوروباطا بناه هرثمة بن أعين والى الرشيد لحماية الساحل وحراسته وظلت تتسع مع الزمن إلى أن أصبحت مدينة كبيرة. وإلى الجنوب منها مدينة المهديّة التى بناها المهدي مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية بتونس، بناها على نتوء صخرى بالساحل لتكون حاضرة له ودار صناعة لأسطوله، ويقول البكرى إنها من أعاجيب الدنيا. وإلى الجنوب منها صفاقس وهى مدينة تجارية مهمة، وتحيط بها أشجار الزيتون والفواكه، وفي كتاب الحلال السندسية أنه يصاد بها أنواع من السمك تفوق الحصر، وبيحرها صوف تصنع منه ثياب رفيعة، وقد يوجد في بحرها صدف يشتمل

على لؤلؤ صغير الحب، وأمامها جزر قرقنة ويشتهر سكانها بصيد الإسفنج. وإذا سرنا نحو الجنوب لقيتنا مدينة قابس متوسطة خليجها ويصاد فيه الإسفنج أيضا بكثرة، ويكثر بها النخيل والعيون الجارية، ويقول البكري إن اللوز كثير بها وبالمثل جميع الثمار، ويكثر بها التوت، وحريرها أطيب الحرير وأرقه. وإلى الجنوب الشرقي من خليجها جزيرة جربة الكبيرة الخصبة. وإلى الجنوب منها منطقة نفزاوة المشهورة بواحاتها وتشتهر ناحية طرة فيها بصنع الزجاج من قديم لوجود الكارتز هناك بكثرة. والأشجار والزروع تحيط بالأقليم التونسي على امتداد سواحلها شمالا وشرقا وفي حوض نهر مجردة غربا وفي واحات نفزاوة وشط الجريد. والمنطقة الوسطى وحدها منطقة المراعي وفيها تنتقل القبائل الرحّل.

ومناخ القطر التونسي - في جملته - مناخ البحر المتوسط دافئ معتدل، ونزول الأمطار بها يختلف كثرة وقلّة حسب أنحائها، وهي تكثر في الشمال شتاء، وتقل قلّة شديدة في الجنوب، وتختلف درجة الحرارة فيها باختلاف البقاع ووقوعها على الجبال وسفوحها وفي السهول الزراعية وبقرب البحر أو في داخل الصحراء.

٢

التاريخ^(١) القديم

كانت تعيش في القطر التونسي وغيره من أقاليم المغرب - في العصور السحيقة - قبائل لا حضارة لها سماها الرومان باسم البربر، وحوالي القرن العاشر قبل الميلاد ارتاد سواحل إفريقيا الفينيقيون بحثا عن مواقع غنية بالخيرات يُرسون بها سفنهم للتبادل التجاري، وكانوا شعبا ملاحيا احترف التجارة، وأعجبهم ساحل الإقليم التونسي، فاتخذوا فيه مواقع لإقامات مؤقتة يتبادلون فيها السلع التجارية مع أهله وسكانه. ومع الزمن ومرور دوراته المتعاقبة رأوا أن يقيموا لهم في ذلك الإقليم مدينة تكون لبعض أسرهم مستقرا كما تكون مركزا ثابتا لتاجرهم. وفي تاريخ غير معروف بالضبط هل هو القرن الثامن قبل الميلاد أو قبله أو بعده أسسوا لهم مدينة غربي مدينة تونس الحالية سموها قرطاجنة، وأخذت تزداد قوة، وأخذ بحارتها وتجارها ينشئون لهم مراكز تجارية جديدة في الساحل الإفريقي مثل بجاية وشرشال في الجزائر وطنجة في

المغرب الكبير للأستاذ محمد علي دبور (طبع مطبعة
الجلبي في القاهرة)

(١) انظر في تاريخ الإقليم التونسي القديم
خلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني
عبد الوهاب (طبع تونس) والجزء الأول من تاريخ

المغرب الأقصى ونزلوا ساحل إسبانيا في الجنوب الشرقي والغربي وأسسوا لها مدينتين: قرطاجنة على البحر المتوسط وقادس على المحيط الأطلسي.

وكان الفينيقيون أصحاب حضارة، ومعروف أنهم اشتقوا لهم من حروف الهيروغليفية المصرية أبجديتهم التي نشرها في البلاد التي نزلوها قديما كما نشرها في العالم القديم. وقد نزل قرطاجنة التونسية كثير من أسرهم، وخالطوا السكان الإفريقيين، وامتزجوا بهم مصاهرة وغير مصاهرة، بحيث أصبحت لهم في قرطاجنة دولة كبيرة، كما أصبح لهم شعب ضخم يتألف منهم ومن البربر، واتسعا في تجارتهم مع المراكز التجارية التي أنشئوها في المواقع المذكورة آنفا وفي فرنسا وصقلية، وجابت قوافلهم الصحراء في الجنوب وحملت من السودان الرقيق والعاج والتبر. ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد، حتى نجد روما تحاول أن تتخذ من شوكة نفوذهم في البحر المتوسط، وسرعان ما نشبت الحروب بين الطرفين وظلت أكثر من مائة عام ابتداء من سنة ٢٦٤ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وكان ميدانها لنحو عشرين عاما جزيرة صقلية موضع النزاع بين القوتين الكبيرتين، وأذعنت قرطاجنة في نهايتها للصلح، وعادت الحرب بينهما للنشوب سنة ٢١٨ قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٢٠٢ إذ بدأت حملة هانيبال الكبرى بالإخفاق، وكان قد كَوَّن جيشا ضخما اقتحم به جبال البرانس وجنوبي فرنسا وشمالى إيطاليا محاولا أن يفتح روما، غير أن الأقدار لم تسعفه، وبعد ذلك بنحو خمسين عاما نشبت بين روما وقرطاجنة حرب ثالثة ظلت ثلاث سنوات من سنة ١٤٩ إلى سنة ١٤٦ قبل الميلاد انتهت بانتصار روما وتدميرها نهائيا لقرطاجنة الفينيقية. وكانت حضارتها قد استقرت في الشمال التونسي قرونا وأجيالا متعاقبة، وكانت حضارة متقدمة لا في شئون الملاحة والتجارة فحسب فهم أساتذتها في العالم القديم بل أيضا في صناعة السفن والمعادن والزجاج وفي زراعة الحبوب والبقول وأشجار الفاكهة وغراسة الزيتون والمظنون أنهم نقلوه - كما نقلوا كثيرا من أشجار الفاكهة - إلى إفريقية في تونس وغيرها من موطنهم الأصلي في الشام، ومن أكبر الأدلة على اهتمامهم بالشئون الزراعية في إفريقية التونسية أن نجد عالمهم الزراعى الكبير: ماجون (Magon) يؤلف أقدم كتاب عالمى في الزراعة وغراسة الأشجار وقد نقله الرومان إلى اللاتينية حينما قهروا القرطاجيين التونسيين واستولوا على البلاد منذ سنة ١٤٦ قبل الميلاد. كما استولوا على ما فيها من كنوز العلم والعرفان وكنوز الخيرات والطيبات.

ومنافسة لقرطاجنة الفينيقية وهياكلها الضخمة ومبانيها السامقة أقام الرومان لهم بجانبها قرطاجنة جديدة شادوا فيها هياكل ومعابد ومباني باسقة كما شادوا مسرحا للتمثيل وملعبا لمصارعة الحيوان وبعض الحمامات. وكانوا يحكمون قرطاجنة والقسم الشمالى من الإقليم التونسي مباشرة، وما وراءه في نفس الإقليم وفي نوميديا (القسم الشرقى من الجزائر) كان

يحكمه ولاية تابعون لهم من البربر، واشتهر من بينهم والٍ يسمى يوغرطة حارب الرومان وحاول الاستقلال ببلاده ووقع في أيدي أعدائه فسجنوه بروما إلى أن قضى نحبه سنة ١٠٦ قبل الميلاد. وأخذت البلاد تستكين لروما، وأخذ بعض البربر ينشأ بها ويتعلم فيها مثل يوبا الثاني المتوفى سنة ٢٢ للميلاد. وهو جزائري، وقبره بالقرب من شرشال، وله مؤلفات مختلفة باللاتينية في تاريخ الرومان وفي الجغرافية والموسيقى. واندماج بعض البربر في الحياة الرومانية واستطاعوا الوصول إلى أعلى الوظائف في الدولة، حتى ليصبح أحد أباطرة روما ويجلس على عرشها سنة ١٩٣ للميلاد بربرى من مواليد لمطة على الساحل الإفريقي ويقال: بل من مواليد لبدة بجوار طرابلس، وهو سبتيموس سيفيروس. وتابعت روما قرطاجة في العناية بالزراعة في إفريقية التونسية وشق القنوات بها وإقامة السدود والخزانات والصهاريج والمواجل، مما جعل الزراعة تزدهر بها في زمنهم الذي امتد نحو ستة قرون طوال. وتظل التجارة مزدهرة بها أيضا وتظل القوافل تنحدر إلى الجنوب لحمل السلع من السودان. وقد نزلتها - وعاشت فيها - أسر رومانية كثيرة. وحين اعتنقت روما المسيحية حاولت نشرها فيها، وابتنت لها بعض الكنائس، ويبدو أنها عملت على نشر لغتها اللاتينية، وقد ظلت حية في بعض الألسنة بعد الفتح الإسلامي - كما سنرى - قرونا طويلة، وسنرى بعض الأمراء الأغالبة يتعلمونها، كما تعلمها المعز لدين الله الفاطمي.

وتأخذ الأحوال في روما تسوء، حتى إذا مضينا في القرن الخامس الميلادي زادت سوءًا على سوء، مما جعل أحد ولايتها في إفريقية المسمى بونيفاس يخرج عليها ويستغيث بقبائل الواندال الجرمانية التي كانت قد استولت على إسبانيا، وتقدم تلك القبائل، وتعيث في إفريقية التونسية دمارا وفسادا لمدة مائة عام من سنة ٤٣٩ إلى سنة ٥٣٤ للميلاد، خربت فيها كل - أو أكثر - ما كانت تزدهى به البلاد من أسباب الحضارة والعمران مما أقامه بها القينيقيون والرومان إلى أن خلاصها منهم القائد البيزنطي بليزير Bélisaire سنة ٥٣٤ للميلاد، وأصبحت إفريقية التونسية - من حينئذ - تابعة لقيصر بيزنطة (القسطنطينية) ويسمى العرب سكان هذه الدولة باسم الروم. وكانت بيزنطة تولى على إفريقية حاكما عاما يلقب بالبطريق Patricius مقامه بقرطاجة، وأسندت إليه إصدار الأوامر والإشراف على الموظفين وعلى أداة الحكم والشئون المالية، وكانوا يتبعون سياسة خرقاء ظالمة في فرض الضرائب الفادحة والجبايات والإتاوات الباهظة. ولم تكن بيزنطة - وبالتالي حكامها - بنشر لغتها اليونانية في البلاد على نحو ما عنيت روما وحكامها - من قبل - بنشر اللغة اللاتينية، فلم تكن اليونانية تتجاوز ألسنة الموظفين والجنود البيزنطيين، وظلت اللاتينية هي اللغة المسيطرة في المدن الإفريقية: في قرطاجة وسوسة وغيرها بسبب ما كان فيها من جاليات رومانية كبيرة.

الفتح^(١) - بقية الولاة - الدولة الأغلبية

(١) الفتح

كان يحكم قرطاجة وإفريقية قبيل الفتح العربى بطريق بيزنطى يسمى جريجوريوس وسماه العرب جرجير، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب على أكبر دُرتين فى تاجها: الشام ومصر صمَّ على الاستقلال، فخلع طاعة بيزنطة وضرب الدنانير باسمه، وبينما هو غارق فى حلمه إذا الجيش العربى الفاتح للشام ومصر يستولى على برفة وطرابلس وتوابعها فى سنتى ٢٢-٢٣هـ/٦٤٢-٦٤٣م. ويتوفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويخلفه عثمان بن عفان فىولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ويأمره بغزو إفريقية، فيسير إليها فى عشرين ألفاً من الصحابة والتابعين يتقدمهم نفر من الصحابة أو من أبناء كبارهم، مثل ابن أبى سرح الصحابى وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن جعفر وعبدالرحمن بن أبى بكر الصديق، ولذلك سُمى الجيش جيش العبادلة، ووصلت طلائع الجيش إلى إفريقية التونسية فى سنة ٢٧هـ/٦٤٧م واستولت على قابس، وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لا يبدأن سينازلونه، فانسحب من قرطاجة إلى الداخل محتماً بحصن أنشأه البيزنطيون إلى الجنوب الغربى من القيروان يسمى سُبَيْطلة وجمع إليه جيشاً جراراً من البيزنطيين والبربر، يقال إنه كان مائة ألف، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون وقتل جريجوريوس فى المعركة، قتله عبدالله بن الزبير، وفتحت إفريقية التونسية أبواب مدنها لسرايا الجيش العربى الباسل، وأسرع البيزنطيون والبربر فى كل مكان إلى طلب الصلح، وصالحهم القائد ابن أبى سرح على مقدار من المال، وكانت الواقعة حاسمة، فلم تقم بعدها لبيزنطة قائمة، ويقال إن ابن أبى سرح ترك بعد ذلك القطر التونسى وعاد إلى مصر دون أن يولّى عليها أحداً وهو قول غير صحيح، لأنه لم يحدث أن العرب فى فتوحهم الأولى فتحوا

الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) وتاريخ ابن خلدون والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دینار والحلل السندسية فى الأخبار التونسية للوزير السراج وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب

(١) راجع فى الفتح وبقية الولاة والدولة الأغلبية كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وتاريخ الطبرى وابن الأثير وتاريخ إفريقية والمغرب للرفيق القيروانى (قطعة منه طبع تونس) ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجى ورياض النفوس للمالكى والبيان المغرب لابن عذارى والقسم

بلدا وفرضوا عليها إتاوات وضرائب وتركوها وانصرفوا، وكان فتحا لم يحدث، مما يجعلنا نرجح ما قاله بعض المؤرخين من أنه خلف عليها نافع بن عبد القيس الفهري، وكان يتخذ زويلة التي فتحها في حملة عمرو بن العاص مقرا لحكمه في طرابلس وبعد ضم إفريقية التونسية إليه. وإقامته في زويلة ظن خطأ أن ابن أبي سرح لم يترك وراءه في إفريقية التونسية عاملا، ويبدو أن الخليفة عثمان بن عفان ولي عليها بأخرة من أيامه سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حديج السكوني. وتحدث فتنة عثمان فيعود، وتضطرب الأمور في إفريقية كما اضطربت في الولايات الأخرى.

ولما استقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان أرسل إلى إفريقية جيشا عداده عشرة آلاف بقيادة معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وعلم قيصر ببيضة بهذا الجيش فأرسل إلى قرطاجة نجدة بحرية والتحم بها وبمن انضم إليها من البربر معاوية بن حديج وهزمهم هزيمة ساحقة لم يعد البيزنطيون بعدها يقدمون لعون قرطاجة، واستشهد في هذه الغزوة أبو زمعة عبيد الله البلوي الصحابي، وكلف معاوية عيد الله بن الزبير بفتح سوسة ففتحها وفتح عيد الملك بن مروان بنزرت.

وولي معاوية عقبة بن نافع الفهري على إفريقية سنة ٥٠هـ/٦٧٠م وبمجرد وصوله إليها رأى أن الحكم العربي لا يثبت فيها ولا يستقر إلا إذا أنشئت بها مدينة عربية تكون معسكرا للجيش العربي الذي تتغلغل جنوده في إفريقية بحيث تكون دارا لأسرهم وقاعدة لنشر الدين الحنيف ولغته العربية، واختار للمدينة موقعا على بعد نحو ثلاثين ميلا من البحر المتوسط، وسماها «القيروان» أي المعسكر، وبدأ فيها بإنشاء الجامع المنسوب إليه في وسطها، وبني بجواره دار الإمارة، وأحاط بها سورا، وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى وظلت أم المدن في إفريقية قرونا متطاولة في العلم والثقافة وفي التجارة، واستغرقت عمارتها منه خمس سنوات حتى سنة ٥٥هـ/٦٧٤م وأصبحت مركزا لتحركات الجيش الفاتح بعد أن كان مركز تلك التحركات برقة وزويلة. وعزله معاوية وولاهها أبا المهاجر في نفس السنة المذكورة آنفا، ومن أعماله الجليلة فتحة لجزيرة شريك وإدخاله جميع بلاد الجريد في الإسلام، وبالمثل جميع بلاد الجزائر وتغلغل فيها بجيشه إلى تلمسان حيث دارت بينه وبين قبيلة أوربة البرنسية وزعيمها كسيلة معركة انتصر فيها وأسر كسيلة فعامله معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام واعتنقته معه قبيلة أوربة. ويتوفى معاوية ويخلفه ابنه يزيد فيعيد عقبة بن نافع ثانية واليا على إفريقية سنة ٦٢هـ/٦٨١م واستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان واتجه بجيشه إلى شط الجريد وأذعن له، كما أذعن الزاب في الجزائر ومضى يجاهد في سبيل الله إلى أن وصل إلى البحر المحيط، فأدخل فيه قوائم فرسه ورفع يده إلى السماء قائلا بأعلى صوته: «اللهم إني أشهدك أني وصلت براية

الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك» وكرراً راجعاً بعد أن دُوخ القبائل المغربية ودانت له، وكان قد وُبِّخ كُسيِّلة زعيم قبيلة أوربة في أول ولايته الثانية لوقوفه قديماً ضد الإسلام، وأسرّها في نفسه هو ومن غضبوا له من البربر الذين لم ينسوا قوميتهم البربرية، وصمّم كسيِّلة على الثأر، حتى إذا تقدم عقبة جيشه بالزباب في عودته، وبقي في نفر قليل معه إذا كسيِّلة الأثيم يحاصر عقبة مع جمع من الروم ومن قومه سنة ٦٦٤هـ/٦٨٣م ويهجمون عليه وعلى من معه من أصحابه وكانوا نحو ثلاثمائة، وقاتلوهم قتال الأبطال، وتكاثروا عليهم فاستشهدوا جميعاً، ودفنوا في نفس المكان -نصر الله وجوهمهم- وأقيم على قبر عقبة مسجد يعرف باسمه، وهو من المزارات الكبرى في المغرب. واتسعت ثورة كُسيِّلة، وتبعته جموع غفيرة من البربر دخل بها القيروان، وتراجع الجيش العربي بقيادة زهير بن قيس إلى برقة انتظاراً لجيش عربي يقدم عليه للقضاء على تلك الثورة، وتصادف أن ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز كانت قد بدأت وشغل بها مروان بن الحكم حتى إذا أصبحت الخلافة خالصة لعبد الملك بن مروان وهدأت الأمور في المشرق أرسل إلى زهير سنة ٦٦٩هـ/٦٨٨م جيشاً جراراً زحف به زهير إلى كُسيِّلة وجموعه، فمزقهم شرمزق، وقُتل كسيِّلة وخلق كثير من البربر، واسترجع زهير القيروان وتعقب المنهزمين في الجزائر إلى أن أخرجهم منها، وعاد إلى العاصمة ورتب شؤونها، ورأى أن يعود بعد هذا النصر العظيم إلى المشرق، وبينما هو في نفر قليل من صحبه عند برقة إذا هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين، أسروهم على حين غفلة، فنازلهم وكتب له الشهادة عند ربه، ويقول الرقيق القيرواني عنه: «كان زهير من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين».

وولّى عبد الملك بعد زهير على إفريقية حسان بن النعمان سنة ٧١هـ/٦٩٠م وكانت لا تزال للروم جالية كبيرة في قرطاجة تتجسّس لبيزنطة وتعيث فساداً ضد العرب فحاصر البلدة وفتحها عنوة وأدعن من بها من التصارى، ولم يكذب ينصرف عنها حتى تحصنوا بها فعاد إليهم وهدم حصون قرطاجة وأسوارها حتى لا يحميهم منه شيء، وفرّ منها كثيرون إلى البحر المتوسط وما وراءه، وطهر بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم وفرض الجزية على من ظل منهم ومن البربر على دينه المسيحي، واشتعلت في أوائل عهده فتنة في قبيلة جراوة الزناتية بجبال الأوراس في الجزائر تزعمتها امرأة بربرية اسمها «دهيا» وسماها العرب الكاهنة، ونازلها حسان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م ولم يكتب للمسلمين النصر، واضطر حسان إلى التراجع حتى مدينة سرت بليبيا، وظل بها خمس سنوات منتظراً مدداً من مصر أو من دمشق، وأتاه في سنة ٨٠هـ/٦٩٩م مدد ضخم فاشتبك مع الكاهنة في معركة عنيفة قتلت فيها سنة ٨١هـ وأسلم ابنان لها فجعلها قائدين لجيش مكون من اثني عشر ألفاً من العرب والبربر، وبذلك دعم نظرية

الإسلام في المساواة التامة بين العرب والموالي المسلمين بربراً وغير بربر فلا فرق بين عربي وبربري في جميع الحقوق حتى في قيادة الجيوش. وساد الأمن والنظام المغرب جميعه. واتجه إلى عمارة البلاد فجدد بناء الجامع الأعظم بالقيروان، ورأى بثاقب بصيرته ضرورة أن يكون لإفريقية التونسية ميناء بدلاً من قرطاجة، ولم يلبث أن اختار للميناء موضعاً بجوار قرية تسمى تينس أو ترشيش، وشق إلى البحر المتوسط قناة تدخل إليها السفن وتخرج منها وألحق بالميناء دار صناعة كبرى لأنشاء أسطول ضخم يحمي شواطئ الديار الإفريقية من غارات الروم، وجلب من مصر ألف أسرة قبطية لمساعدته في إنشاء تلك الدار والأسطول، وسُمي الميناء تونس، ولم تلبث تونس أن أصبحت أما كبيرة من أمهات المدن المغربية إلى اليوم، وبني بها الجامع الكبير المسمى جامع الزيتونة لزيتونة كانت فيه. واستحدث حسان للولاية تنظيمها إدارياً ومالياً عممه في جميع البلاد المغربية، ونشر العربية في المغرب وجعلها اللغة الرسمية في جميع الدواوين، ونظم الجبايات في المدن ومع رؤساء القبائل، وقسم الأراضي التي كانت ملكاً للدولة البيزنطية بين صغار الفلاحين من البربر، مما جعلهم يدخلون في دين الله أفواجا نصرة للدين الحنيف. وبكل ما قدمت عن حسان بن النعمان تعد ولايته على إفريقية خاتمة الفتح الذي بدأه عمرو بن العاص سنة ٢٢هـ/٦٤٢م فقد استقر الدين الحنيف في جميع البلدان المغربية واعتنقه المغاربة، لما تحمل تعاليمه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عرباً وبربراً وغير بربر.

(ب) بقية الولاية

ويختلف حسان بن النعمان على المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦هـ/٧٠٥م وكان ماهراً في الإدارة وشئون الحرب وبدأ أعماله بتوجيه حملة إلى جبل زغوان - وأتبعها بحملات أخرى عادت بغنائم وافرة، ثم قام بحملته الكبرى التي اكتسحت المغرب حتى طنجة على المحيط وإقليم السوس في أقصى الجنوب. وأتم التنظيمات الإدارية لبلاد المغرب، إذ قسمه ولايات، وجعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولايته، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة، والمغرب الأوسط عاصمته تلمسان، والمغرب الأدنى عاصمته القيروان، ومدّه شرقاً حتى شمل طرابلس وغرباً حتى شمل نوميديا (قسنطينة وبجاية) وإقليم الزاب إلى نهر شلف في الجزائر، وجعل برقة ولاية قائمة بنفسها وعاصمتها برقة (المرج منذ القرن السابع الهجري) وأضاف إلى هذه الولايات ولاية جنوبي المغرب الأقصى، هي ولاية السوس الداخلة في الصحراء، وجعل عاصمتها سجلماسة، وولى عليها طارق بن زياد النفزاوي البربري، ثم نقله إلى طنجة. وفي سنة ٩١هـ/٧٠٩م عزم على غزو إيبيريا، فأرسل إليها حملة استطلاعية بقيادة طريف، وهو أيضاً بربري، فنزل بإيبيريا في موضع يقابل مدينة طنجة، سُمي جزيرة طريف لتزوله فيه، وعاد يحمل إلى موسى أبناء طيبة، فأرسل في السنة التالية طارقاً على رأس حملة كبيرة، وجاءته أبناء

فتوحاته، واستمده طارق، فذهب إليه على رأس حملة جديدة أتم بها معه فتح الأندلس. والحملتان الأوليان كانتا تتكونان من العرب والبربر، ونفس قائديهما: طارق وطريف كانا - كما أسلفنا - بربريين وبذلك خطأ بسياسة حسان خطوات، فجعل من البربر ولاية وقوادا للجيش. ومنذ عقبة بن نافع كان البربر يشتركون مع العرب في حملاتهم الحربية وجهادهم في سبيل الله، مما يدل - بوضوح - على تغلغل الإسلام في نفوسهم، حتى أصبحوا سريعا من دعائه وجماته، وكانت كثرة جند موسى بن نصير منهم سواء في فتوحه لبقية المغرب حتى ديار السوس أو في فتوحه لإيبيريا.

وعزل سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير عن إيبيريا والمغرب جميعا سنة ٧١٤هـ/٧١٤م ويصبح صولجان الخلافة بيد عمر بن عبد العزيز سنة ٧١٧هـ/٧١٧م فيدخل إصلاحا كبيرا على أداة الحكم في الدولة إذ يأمر الولاة بالتسوية المطلقة بين العرب والموالي أو الشعوب المفتوحة في الخراج وجباية الأموال أخذا بتعاليم الدين الحنيف، ويرسل إلى إفريقية عشرة من الفقهاء على رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ويقال إنه أسند إليه الولاية، وكلفهم أن يعملوا على نشر الإسلام، وأسلم على أيديهم أفواج بربرية لا تكاد تحصى فضلا عن أنهم بثوا في الشباب فكرة التفقه في الدين، مما أعد أهل إفريقية التونسية والمغرب ليشاركوا سريعا في الدراسات الدينية.

ولا نكاد نغضى في القرن الثاني الهجري حتى يتوفى الخليفة العظيم عمر بن عبد العزيز ويتولى بعده الخليفة الطائش يزيد بن عبد الملك، فيعزل ابن أبي المهاجر عن إفريقية ويولى عليها عاملا ظلوما غشوما هو يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج، فقدم إلى القيروان سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م وسرعان ما أخذ البربر بسياسة الحجاج في ظلم موالى السواد في العراق والتفريق بينهم وبين العرب في الخراج، مما يتعارض تعارضا شديدا مع تعاليم الإسلام في رفع الفروق بين المسلمين عربا وموالي، وكأنما عمى يزيد ابن أبي مسلم عن رؤية الفروق الواضحة بين الموالى الفلاحين في سواد دجلة والفرات من جهة والبربر من جهة ثانية، فإن البربر قبل ولايته كانوا قد أصبحوا مع العرب رفقاء سلاح وجهاد، وأتموا معهم فتح بقية البلاد المغربية وإيبيريا، مما جعل البربر - حين طفق الكيل - يجمعون على قتل يزيد بن أبي مسلم الباغي وقتلوه سنة ١٠٣هـ/٧٢١م وتولى بعده بشر بن صفوان الكلبي، ويُذكر له أنه غزا صقلية سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م وأصاب منها غنائم وافرة، وولى بعده هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وأساء السيرة، فعزله وولاهها سنة ١١٤هـ سفيها كبيرا هو عبيدالله بن الحبحاب، ويُذكر له أنه جدد جامع الزيتونة وعنى بدار الصناعة وغزا أسطوله صقلية، غير أنه كان باغيا طاغيا هو وعماله، فتعسفوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر، وبلغ من سفه

عامله على طنجة عمر بن عبید الله المرادی أن صرَّح بأنه يريد تخميس أراضي البربر أى أخذ مُحمَّسها للدولة زاعماً أنها قِيئٌ للعرب وغنائم حرب لهم. وكان الخوارج صفرية وإباضية قد دأبوا منذ ولاية يزيد بن أبى مسلم وما أنزل بالبربر من حيف وعسف فى شئون الخراج يدعون لعقيدتهم ومبادئها التى توجب التسوية بين العرب والموالى بربرا وغير بربر فى الشئون المالية ومناصب الدولة حتى منصب الخلافة، فهى ليست حقا لقريش وحدها دون العرب وبقية المسلمين بل هى حق لأكفأ المسلمين جميعا عربا وغير عرب حتى لو كان عبدا حبشيا، ووجد الخوارج فى بلاد المغرب تقبلا شديدا لمبادئهم بسبب سياسة ولاة بنى أمية الغاشمين فى القرن الثانى الهجرى، إذ رأى البربر - أو كثير منهم - فيها ما يخلصهم من ظلم الأمويين وعسف ولاتهم. وأخذ جبل نفوسة فى ليبيا يصغى للدعوة الإباضية، وهى دعوة معتدلة إذ تدعو لإمام يحقق العدالة والمساواة المطلقة بين المسلمين عربا وغير عرب، ولا تكفر المسلمين ولا تقاتلهم إلا إذا بادروها بالقتال، واستجاب - أو أخذ يستجيب - المغرب الأقصى للصفرية، وهى دعوة متطرفة إذ تكفر المسلمين وتعد دارهم دار حرب، وتزعم دعوتهم بالقرب من طنجة بربرى من قبيلة مضغرة البُتْرِيةَ هو ميسرة، وبايعه البربر وكوّن منهم جيشا احتل به طنجة، وفتك بعاملها العُشوم عمر بن عبیدالله المرادى، وهُزم ميسرة فى بعض الوقائع، فوالت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ ولقيه جيش لابن الحبحاب فى الجزائر على نهر شلف، وهزمه خالد فى معركة عنيفة، سميت معركة الأشراف لكثرة من قُتل بها من أشراف العرب. وعزل هشام بن عبد الملك واليه ابن الحبحاب سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وولى على إفريقية كلثوم بن عياض القشيرى يعاونه ابن أخيه بلج بن بشر، وبلتقيان بخالد بن حميد والصفرية جنوبى طنجة وهزمان ويقتل كلثوم، ويضطر بلج إلى العبور إلى الأندلس ببقية الجيش. ويولى هشام على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى، ويقدم إلى القيروان، وسرعان ما يستنفر الصُفْرِيَّةَ لحرية قائدان صفریان: عربى هو عكاشة بن محصن وبربرى هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى، وكانا قد اجتمعا فى الزاب بالجزائر، واتفقا على أن يسير عكاشة مع جيشه فى السهول شمالى جبال الأوراس ليهاجم القيروان من الجنوب ويسير عبد الواحد من ناحية قسنطينة ليهاجم القيروان من الشمال، وعرف حنظلة خطتها، فأسرع بقاء عكاشة وهزمه هزيمة ساحقة، وتقدم عبد الواحد إلى القيروان، فاستنار حنظلة فقهاها، فخرجوا مع جيشه لمنازلته، وخرج معهم نساء القيروان حاملات للسلاح مستبسلات للموت مع الجيش، فامتأل الرجال حمية ودارت الدوائر على عبد الواحد وجيشه من الصفرية، ومُجِّلَ رأسه إلى حنظلة فخرَّ لله ساجدا.

وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموى سنة ١٢٦ فطمع عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبه بن نافع فى الاستيلاء على ولاية إفريقية وأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م ففكر حنظلة

في حربه، وكان تقيا ورعا، فكره أن يتقاتل المسلمون، وترك القيروان عائدا إلى المشرق. وصارت الخلافة إلى مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م فأقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية درةً للانقسامات والفتن بها، ولأنه أعلم بشؤونها إذ هي داره ودار جده عقبة بن نافع. ولم تلبث الإباضية أن ثارت بطرابلس سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م بإمامة عبد الله بن مسعود النجيبى فأرسل إليه عبدالرحمن أخاه إلياس، ففضى على ثورته، وباع الإباضية بعده الحارث بن تليد بالإمامة، واتخذ وزيرا له عبد الجبار بن قيس المرادى، ونازلا جيوش عبد الرحمن مرارا، واعتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م وبذلك انتهت ثورتها. وفي نفس السنة قضى العباسيون على الدولة الأموية، فأقروا عبدالرحمن بن حبيب في ولايته على القيروان وإفريقية، وسمع بتجمع للصُفْرية في تلمسان سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م ففاجأهم وهزمهم. وأرسل حملةً إلى صقلية وعادت بغنائم كثيرة، ومن أهم أعماله استيلاؤه على جزيرة قَوْصَةَ التي تبعد عن تونس نحو ثلاثين ميلا، واستمرت تابعة للقيروان وإفريقية حتى تنازل عنها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية لفرديك الثاني ملك صقلية سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م. وتأمّر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث وقتلاه سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م وتولى إلياس وقتله حبيب بن عبد الرحمن، وتولى مكانه، وفي سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م ثارت عليه قبيلة ورّفجومة النفاوية الصُفْرية واستولت على القيروان منه واستباحتها، واشتبك معها حبيب سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م وقتلته، وظلت في القيروان تستحلّ المحارم وترتكب العظائم، فامتعض لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السَّمْح إمام الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة، فخلّص القيروان منهم سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضى، وأرسل المنصور العباسى محمد بن الأشعث والى مصر بجيش جرار إلى إفريقية، فنازل أبا الخطاب في معركة حامية الوطيس قتل فيها، وفرّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب في الجزائر وأسس للإباضية دولة في تيهرت استمرت حتى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م وتولى الأغلب بن سالم التميمى على إفريقية سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وقتل سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م في بعض حروبه، وخلفه عمر بن حفص المهلبى، وكان بطلا مغوارا وابتنى بالزاب مدينة طُبنة، وثار عليه إباضية طرابلس بزعامة أبي حاتم وحاصروا القيروان، وخرج إليهم وقتل سنة ١٥٤هـ/٧٧٠م.

وولى القيروان وإفريقية بعد ابن حفص المهلبى ابن عمه يزيد بن حاتم، وفيه يقول مؤرخ القيروان الرقيقى: «كان كثير السبه بجده المهلب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه، وقلم أظفار الصفرية في الزاب، وانسحبت فلوهم إلى ديار زناتة في الصحراء، كما قلم أظفار الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة وفتك بأبي حاتم الإباضى وصحبه هناك وبذلك ظلت لأهل السنة المنزلة العليا في القيروان وجميع بلاد المغرب. وقد ضبط أمور الدولة بمنتهى الحزم، ومن أعماله تجديده بناء جامع القيروان سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م وترتيبه للأسواق فيها، إذ أفرد لكل صناعة وتجارة

مكانا معيناً. وكان أديبا حفياً بالشعراء يجزل لهم العطاء، وشدوا إليه الرحال من المشرق، وبذلك أحدث في القيروان حركة أدبية، وكان يعقد لها الندوات في دار الإمارة. ومما يروى من سيرته الزكية أنه رأى يوماً ياحدى ضواحي القيروان غنبا كثيرا فسأل عن صاحبه فقبل له إنه لابنه، فطلبه وعنّفه على مزاحته الرعية في صور التكسب وأمر بذبحها وتوزيعها على الناس. وظل واليا على إفريقية سبعة عشر عاما حتى توفي سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وولى بعده أخوه روح بن حاتم سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وكان على الهمة عادلا حسن السيرة، وفي أيامه ظهرت دولة الأدارسة بالمغرب ويوبع إمامها الأول إدريس الحسنى سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م وأسسوا مدينة فاس واتخذوها عاصمة لهم، وتوفي روح سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م ودفن مع أخيه في قبر واحد. وتولاها بعده نصر بن حبيب المهلبى وكان حسن السيرة، وعزله الرشيد وولى عليها الفضل بن روح، واضطربت عليه الأمور، فولّى الرشيد عليها سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م هرثمة بن أعين وكان من كبار قواده وكان حسن السياسة والإدارة، وايتنى رباط المنستير بين سوسة والمهدية لحماية الساحل من غارات نصارى البحر المتوسط، وظلت الأبنية تتسع حوله حتى أصبح مدينة كبيرة في القرن السادس الهجرى. ولم يلبث هرثمة أن آثر العودة إلى المشرق سنة ١٨١هـ/٧٩٧م، وولى عليها الرشيد محمد بن مقاتل العككى ولم تحمد سيرته فعزله.

(ج) الدولة الأغلبية

كان إبراهيم بن الأغلب التميمى قد ولاه هرثمة على الزاب، فضبطه بحزمه، وأعجب به هرثمة لقوة شخصيته، واستشار الرشيد هرثمة في وال كفاء يوليه إفريقية، فأشار عليه بإبراهيم وامتدحه له، وكانت إفريقية تكلف الدولة العباسية نفقات باهظة بما ترسل إليها من الجيوش، وكان والى مصر يرسل إلى واليها سنويا مائة ألف دينار، وكان إبراهيم يتطلع لحكم إفريقية - مثل أبيه - وكان الرشيد يأمل في وال يريجه من نفقاتها الباهظة، ولم يجد بأسا من كثرة ثناء هرثمة على إبراهيم بن الأغلب في أن يوليه عليها وسر إبراهيم، وقال له إننى لن أحتاج إلى ما ترسله مصر لإفريقية من أموال، وأتعهد أن أرسل سنويا إلى بيت المال ببغداد أربعين ألف دينار، وكأنه وفر للدولة أو تعهد أن يوفر لها مائة وأربعين ألف دينار سنويا، سوى ما كانت تكلفها الجيوش من أموال ونفقات ضخمة. وكان قد درس في شبابه بمصر وحضر حلقات فقيها: الليث بن سعد، مما أتاح له أن يكون فقيها مثل أستاذه، وكان الليث يعجب بتلميذه، مما جعله يهبه جارية، هى جلاجل زوجة وأم ابنه زيادة الله، وكان شاعرا خطيبا. واقتنع به الرشيد فكتب له العهد بولاية إفريقية سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعلها لعقبه يتوارثونها من بعده. ومن حينئذ بدأت شخصية إفريقية - وخاصة إفريقية التونسية - في الظهور، فقد أصبحت بها دولة مستقلة وإن ظلت تدين بالولاء اسميا للعباسيين، وأخذت تعمل جاهدة على

النهوض بالبلاد نهضة حضارية قوية. وقد ساس إبراهيم إفريقية سياسة رشيدة، وصمم على أن تكون له قوة عسكرية تحميه هو وأسرته ممن كانوا لا يزالون بالقيروان من الخراسانيين وغيرهم من الجند، وكوّنّها من ثلاثة عناصر: البربر المستعربة والصقالبة الذين كان يجلبهم تجار الرقيق وزنوج السودان الذين كانت تجلبهم القوافل. وابتنى له ولأهل بيته ضاحية على بعد نحو أربعة كيلو مترات من القيروان، سماها «العباسية» ونقل إليها معسكرات جنده وخزائن السلاح والأموال كما نقل إليها حواشيه واتخذها دار إمارته. وظل يدير دفة هذه الدولة إدارة حازمة ويؤسس بنيانها الشامخ طوال اثني عشر عاما إلى أن توفي سنة ١٩٦هـ/٨١١م ويخلفه ابنه أبو العباس عبدالله، ولم يكن سيوسا ويتوفى سنة ٢٠١هـ/٨١٦م فيخلفه أخوه زيادة الله، وكان من أعلم أهل بيته فصيح اللسان بصيرا بشئون الإدارة والحكم، فثبّت سلطان أسرته، وتغلب دائماً على خصومه، وشجّع العلم والعلماء. ومرّ بنا أن ولاية إفريقية حاولوا غزوها صقلية مراراً، وكان زيادة الله عظيم الهمة، فأخذ يعدّ العدة لفتحها، بادئا ببناء سور حصين حول ثغر سوسة، وبني بجوارها رباطا لحمايتها وحماية الساحل واتخذها مرساة لأسطوله، وبني له فيها دار صناعة كبيرة، وأخذ يكثر من قطعه وسفنه، حتى أصبح أقوى أسطول حربي في البحر المتوسط، ويغزو به سردانية سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م ويعود محملاً بالغنائم. ويرسل إلى صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جيشا بقيادة الفقيه أسد بن الفرات قاضي القيروان لفتحها، ونزل الجيش بمدينة مازر، والتقى بجموع الصقليين وهزمهم، وأخذ يستولى على حصون ومدن متعددة، وفي حصار سرقوسة شرقي صقلية توفي القائد العظيم أسد بن الفرات، ومضى الجيش في فتوحه. وهو حدث من أعظم الأحداث في تاريخ الأمة العربية، ولزيادة الله وقائده ابن الفرات مجده وشرفه. ويدل أكبر الدلالة على قوة هذا الأسطول الأعلى الفاتح لصقلية أن نجد أهل مدينة نابولي في إيطاليا يستنجدون بزيادة الله ضد أعدائهم المجاورين لهم من الفرنج سنة ٢٢٢هـ/٨٣٦م وينجدهم الأسطول وتظل نابولي بأيدي جنوده وبحارته زمناً غير قليل. وجدّد زيادة الله بناء جامع عقبة في القيروان وليبى نداء ربه سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م وخلفه أخوه الأغلب، وفي عهده فتح الجيش أكثر ما بقي من صقلية سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م وتمكن الأسطول من الاستيلاء على مدينة بارى شرقي إيطاليا سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م واتخذها قاعدة حربية ومرساة لسفنه في البحر الإدرىاتي، ويتوفى سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م ويتولى مقاليد الحكم أخوه أبو العباس محمد، وفي أيامه أغارت بغتة سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م بعض سفن إيطالية على شواطئ الساحل ونهبت بعض أقوات السكان وأسرت عدداً منهم، ساقتهم إلى إيطاليا عبيداً أرقاء وباعتهم في الأسواق، وغضب الأمير الأغلب محمد حمية لمواطنيه، فأمر الأسطول بخروج قطع منه لغزو إيطاليا وأرست عند مصب نهر تيبير المنحدر من جهة روما، وانتشر جنودها في ضواحي روما واقتحموها عنوة واستولوا على بعض ما في كنيستها الكبرى من تحف، وظلوا يترددون عليها

وعلى أنحائها نحواً من شهرين، وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى، وتوفي الأمير محمد سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م ويتولى ابن أخيه أحمد وفي أيامه استولى المسلمون في صقلية على مدينة قصر يانّة المنيعه سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وأعاد بناء جامع تونس وزيّنه بقباب ونقوش وأعمدة رخام بديعة كما زين جامع عقبة في القيروان بقبة خارجة عن البهو ومحراب رخام مزودين بالنقوش، وبني الماجل (الصهريج) الكبير بالقيروان وماجل سوسة، وتوفي سنة ٢٤٩هـ/٨٦٣م وخلفه ابنه زيادة الله الثاني، ودار العام، فتوفي، وتولى بعده ابن أخيه أبو الغرائق سنة ٢٥١هـ/٨٦٥م وفي عهده فتح الأسطول سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م جزيرة مالطة وظلت تابعة للقيروان نحو قرنين ونصف حتى استولى عليها روجار الأول ملك صقلية سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ويتولى أبو الغرائق سنة ٢٦١هـ/٨٧٤م ويخلفه أخوه إبراهيم وفي أيامه فُتحت سرقوسة آخر معاقل الروم في صقلية سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م. وفي نفس السنة بنى مدينة رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبي القيروان، ونقل إليها أهل بيته ودار إمارته ورجال دولته وجنده، وبعد عهده من أزهى العهود علماً وحضارة في الدولة الأغلبية إذ بنى في عاصمته: رقادة بيت حكمة كبيت هرون الرشيد والمأمون في بغداد، وجلب إليه طائفة بارعة من العلماء أطباء ورياضيين وفلكيين وموسيقين وألحق به مكتبة ضخمة، فتح أبوابها للطلاب والقصاص. وبعث بذلك في إفريقية التونسية نهضة علمية وثقافية واسعة. وأنشأ إبراهيم محارس ورباطات كثيرة على الساحل واستحدث فيها نظام إشارات بالأضواء ترسل تَوْاً من رباط إلى رباط عند حدوث أى هجوم، بحيث إذا حدثت أى غارة بحرية للأعداء في أى بقعة على الساحل علمت بذلك في الحال جميع الرباطات والمحارس. وأصيب في أواخر ولايته بمرض السوداء، مما جعله يسفك دم كثيرين من أقاربه، وعلمت بذلك الدولة العباسية فأرسلت إليه سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م أن يعفى نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه عبد الله. وصدع لهذا الأمر، وسلم صولجان الحكم لابنه، وكأنما أراد أن يكفر عما صنع من سفك الدماء فرأى أن يمضى بقية حياته في الجهاد، وأعدّ أسطوله إعداداً كبيراً لغزو إيطاليا في نفس السنة، وعبر به مضيق مسينا قاصداً قَلْوَرِيَّةً وأرض إيطاليا الجنوبية، واستولى على عدد من الحصون الإيطالية في الجنوب غير أن الموت باغته، فعاد به الأسطول إلى بالرم في صقلية ودُفن بها، ونقل ابنه عبد الله رفاته إلى القيروان. وكان عبدالله على جانب كبير من التقوى والصلاح وكتب إلى عماله بالرفق في معاملة الرعية، وتوفي سريعاً سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م. وخلفه ابنه أبو مضر زيادة الله، وكان أبو عبد الله الصنعاني داعية عبيد الله الفاطمي قد نشر دعوته الإسماعيلية الفاطمية في كتامة بالجزائر، ودخل في دعوته كثيرون، فكُون منهم جيشاً قضى به على دولة تيهرت الإباضية، وتقدم بجموعه من الجزائر قاصداً القيروان ولقيه جيش أغلبي في قرية الأربس، فهزمه، وأحس أبو مضر زيادة الله الأغلبى أنه لن يستطيع الصمود لأبى عبد الله الصنعاني داعية الفاطميين، فخرج عن ملكه فأرأ إلى المشرق وتردّد بين مصر والشام في

انتظار نجدة من العباسيين، ووافاه الأجل بمدينة الرملة في فلسطين. وهكذا انتهت في إفريقية التونسية دولة الأغالية التي استطاعت في نحو مائة عام أن تنهض بها نهضة حضارية ثقافية كبرى، كما استطاعت أن تكون لإفريقية وللعرب أكبر أسطول في البحر المتوسط لزمانها، ومن أعمالها المجيدة فتح صقلية ومالطة وتعريبها ونشر الإسلام بها آمادا طويلة إلى أن استولى عليها النورمان.

٤

الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأعرابية

(أ) الدولة^(١) العبيدية

كان أبو عبد الله الصنعاني قد تعرف على جماعة من قبيلة كُتامة الجزائرية في الحج وقدم معهم إلى ديارهم، وكان لسنا جدلا، فأعجب من اجتماعوا حوله من هذه القبيلة، ولما اطمأن لهم أخذ يعلن بينهم أن آل البيت هم الأحق بإمامة المسلمين وخلافتهم، ودعا للرّضا المعصوم المستتر منهم صاحب الزمان، وأخذ المستجيبون له يتكاثرون ودخلت كُتامة في دعوته وطاعته فأخذ ينظمها تنظيما عسكريا، وزحف بها - كما أسلفنا - إلى إفريقية التونسية وهزم جيش الأغالية في الأربس، وتقدم إلى القيروان ودخلها بجنوده واستولى على دواوينها وخزائنها، وكان قد أرسل إلى عبيد الله المهدي إمامه يستقدمه من سلمية في سوريا مقر الدعوة الإسماعيلية. وخوفا من ولاية العباسيين اتجه به رفاقه إلى سجلماسة مركز الصفرية في المغرب الأقصى فسجنه صاحبها، وخلصه أبو عبد الله الصنعاني، وقدم به إلى القيروان سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وسلمه مقاليد الحكم. وسمى المؤرخون دولته باسم الدولة العبيدية تمييزاً لها في إفريقية من دولة أحفاده بمصر التي لقبوها باسم الدولة الفاطمية. ويأبى أهل القيروان عبيد الله وتلقب بأمر المؤمنين. ويبدو أنه أحسّ في أبي عبد الله الصنعاني ندمه على ما أولاه من الخلافة والملك فبادر إلى سفك دمه على نحو ما صنع قديما المنصور العباسي بأبي مسلم الخراساني داعيتهم، وبين المؤرخين خلاف في نسب عبيدالله المهدي إلى البيت الفاطمي وهل هو علوي حقيقة أو غير علوي، وصحح نسبه

الأبار وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار وخلاصة تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب.

(١) انظر في الدولة العبيدية بتونس البيان المغرب لابن عذارى ومعالم الإيمان للدباغ وابن ناجي والقسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب وسيرة الأستاذ جودز والحلة السراء لابن

ابن خلدون. وأخذ يصرف الأمور في الدولة، وقرب منه قبيلة صنهاجة الجزائرية وأرسل زعيمها مصالة على رأس جيش إلى المغربين الأوسط والأقصى واستطاع الاستيلاء على مدينة فاس من الأدارسة الحسينيين. وأخذ دعائه يجاولون إقناع فقهاء السنة بمبادئ الدعوة الفاطمية وعقدوا لذلك مجالس تجرّد لهم فيها كبار الفقهاء في القيروان وناظرهم مناظرات حامية مبيّنين ما في الدعوة العبيدية الإسماعيلية من مبادئ تخالف الإسلام من مثل تقديس الخليفة العبيدي وأدعاء أنه الصورة المجسّدة لله في الأرض وأنه معصوم وأنه يعلم الغيب إلى غير ذلك مما كان يزعمه دعاة عبيد الله المهدي، وشعر أن القيروان ليست - بفقهاؤها وشيوخها - دار أمن له ولأسرته، فرأى أن يختار موضعاً على الساحل لمدينة جديدة له، واختار رأساً بارزاً بين سوسة وصفاقس، وأخذ منذ سنة ٣٠٣-٣٠٤ يؤسسها، وتم له تأسيسها سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وسماها المهدي نسبة إليه ونقل إليها آلَه وجنده ودواوينه وأمواله واتخذها مقر حكمه. وكانت قد عصت عليه صقلية فردّها إلى طاعته وولّى عليها أحد عماله، كما كانت قد عصت عليه طرابلس وشبت بها ثورة إباضية، فردّها ابنه وولّى عهده القائم إلى الطاعة وأغرّمها ثلاثمائة ألف دينار، ومضى القائم في حملة إلى الإسكندرية والفيوم وعاد دون طائل، وفي سنة ٣١٥ خرج القائم إلى المغرب الأوسط وبنى مدينة المحمدية (المسيلة). وتوفي عبيد الله المهدي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م وخلفه ابنه القائم، واهتم - مثل أبيه - بالأسطول وبعث على بعض قطعه وسفنه يعقوب بن إسحق فغزا جنوة وكركسيكا وسردانية، وعاد بغنائم وافرة، وثار عليه سنة ٣٢٦هـ/٩٣٣م أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي من الصّفرية النُّكارية الذين يستحلون سفك الدماء، وتبعه خلق كثير، وفي سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م زحف إلى إفريقية التونسية، واستولى على تبسة والأربس وباجة وتونس ورفّادة بجوار القيروان وعلى القيروان نفسها وحاصر المهدي واستولى على سوسة، وتوفي القائم في أثناء ذلك سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م وخلفه ابنه المنصور واستجد بقبيلة صنهاجة، فجاءته وفكت عن المهدي الحصار، وأرسل أسطوله إلى سوسة ونصرها ضد أبي يزيد واستبيح معسكره نهباً وإحراقاً واتجه إلى القيروان فمنعه أهلها من دخولها وظل المنصور يتعقبه، وظفر به في أرض كتامة بالجزائر في أول سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م. وأنشأ المنصور - ابتهاجاً بانتصاره عليه - مدينة بالقرب من القيروان سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م سماها «المنصورية». وولّى على صقلية ابن أبي الحسين الكلبي، وظلت إمارتها لعقبة حقة طويلة. وتوفي سنة ٣٤١هـ/٩٥٢م وخلفه ابنه المعز، وفي سنتي ٣٤٧ و ٣٤٨ دوّخ قائده جوهر الصقلي البلاد المغربية إلى المحيط، ودان له المغرب الأوسط (الجزائر) والأقصى. وبلغ المعز اضطراب أحوال مصر بعد موت كافور الإخشيدي ولانشغال بغداد عنها بما كان بها من الفتن، فأرسل إليها قائده جوهر الصقلي في جيش جرار سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م فدخلها حتى الفسطاط دون مقاومة تذكر، وخطب جوهر في الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص بالفسطاط باسم المعز، وأقام بمصر الدعوة الفاطمية وأخذ في بناء

القاهرة، واستولى عسكره على الرملة وبعض بلدان الشام . وأرسل إلى المعز يحثه على القدوم إلى مصر فعزم المعز على المسير إليها، ورتب شئون الدولة في إفريقية، ورحل في موكب ضخم في شوال سنة ٣٦١هـ/٩٧١م ونزل القاهرة التي بناها له جوهر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م وظلت مقر خلافته وخلافة الفاطميين من بعده إلى نهاية دولته، وكان محظوظا إذ أظلت خلافته البلاد العربية من الشام إلى السوس الأقصى.

(ب) الدولة الصنهاجية^(١)

لما عزم المعز على الرحيل إلى مصر ونقل خلافته إليها فكر فيمن يوليه على إفريقية، وكانت قبيلة صنهاجة البربرية قد أيدت دعوتهم بزعامة شيخها زيري في حرب النائر الصُفري مخلد بن كيداد، وكان لزيري اليد الكبرى في هزيمة مخلد وإنقاذ المهدي والقيروان منه وكافأه الخليفة المنصور على ذلك بتوليته على المنطقة الغربية في الجزائر، وفيها أسس مدينة أشير ودفع ابنه بلكين إلى تأسيس ثلاث مدن: الجزائر ومليانة جنوبي شرشال والمدية إلى الجنوب منها، وكان بلكين ذا بأس وحزم وشجاعة ونجدة مع إخلاصه للعقيدة العبيدية وتفانيه في نصرتها، فرأى المعز أن يُنيبه عنه في إفريقية، وأنزله القيروان وكناه أبا الفتوح يوسف، ولم يجعل له ولاية على طرابلس وصقلية، وكان حريا أن يضيف إليه صقلية خاصة لأنها بعيدة عن مصر ولن يستطيع نجدتها سريعا لا هو ولا عقبه، وأيضا فإنها تُعدّ امتدادا لإفريقية التونسية في البحر المتوسط وهي التي فتحتها وأدخلت بها سكانها والإسلام وحضارته فكان ينبغي أن يتركها لبلكين. وكان بلكين ثاقب البصيرة، فأخذ يعمل على إقامة دولة بربرية إسلامية في الديار المغربية، وهي أول مرة في التاريخ الإسلامي يتاح لبربري من صميم أهل المغرب تأسيس دولة وواليهم بلكين، فقاد جيشا سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م لتأديب الخارجين على الدولة هناك، ودخل فاسا كما دخل أصيلا على المحيط الأطلسي. وتوفي سنة ٣٧٤هـ/٩٨٤م وخلفه في ولايته ابنه المنصور ونشبت حروب بينه وبين أعمامه، وانهمزوا ولحق بعضهم بالأندلس واتفق لهم - في عهد الطوائف - أن أسسوا لهم مملكة بغرناطة، واشتبك في حروب طويلة مع قبيلة زناتة، وأنهكته الحروب معها ومع أعمامه، فرأى أن ينسحب جنوده من المغرب الأقصى حتى يضع نهاية للحروب المستمرة مع زناتة، وقصر إمارته على إفريقية التونسية والجزء الشرقي من الجزائر حتى

(١) راجع في تاريخ الدولة الصنهاجية البيان المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومعالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدباغ وابن ناجي.

(١) راجع في تاريخ الدولة الصنهاجية البيان المغرب لابن عذارى والقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب وتاريخ ابن الأثير

الزاب ووادي نهر شلف، وكانت جاءت هدية ثمينة من الخليفة الفاطمي بها قبيلة وزرافات تبارى الشعراء القيروانيون في وصفها، وتوفي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وخلفه ابنه باديس أبو مناد، ولما جاء تقليد الخليفة الفاطمي له أمور إفريقية سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م أقام بالمهدية موكبا استعرض فيه الجنود وسفن الأسطول وقذف النفاطون بالنار، ولعبت بين يديه القبيلة والزرافات وإبل شديدة البياض. واستقرت له الأمور في إفريقية التونسية، وثار عليه قبيلة زناته في المغرب الأوسط (الجزائر) سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م فسير إليها جيشا جرارا وجعل عمه حمادا قائده. وله ملك ما يفتحه، وانتصر عليهم، وعاد إلى قسنطينة، وأسس لنفسه قلعة حصينة نُسبت إليه باسم قلعة بني حماد، وجعلها قاعدة لحكمه ومركزا لجيشه، ويبدو أن باديس ندم على ما تعهد به لعمه أن يمتلك ما يفتحه، فطلب إليه التنازل عنه، وأبى حماد، ونشبت بينها حروب كادت ترجح فيها كفة باديس، غير أن الموت عاجله - وهو يوشك على النصر - في المحمدية بالجزائر سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م.

وتولى المعز بعد أبيه باديس وكان في الثامنة من عمره فقام بشئون الدولة كبار رجالها وأعمامه ماعدا حمادا فإنه ظل مصمما على الاستقلال بقلعته عن القيروان وابن أخيه المعز، واستولى على بعض مدن في الزاب، ونازله جيش للمعز سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م وهزمه فتقدم يطلب الصلح مع المعز حقنا للدماء على أن يظل مواليا له مع تمتعه بالاستقلال في قلعته ومنطقته. وانقسمت بذلك دولة صنهاجة إلى إمارة شرقية عاصمتها القيروان وإمارة غربية عاصمتها قلعة بني حماد. وبلغ المعز سن الرشد وكان يحسن تدبير الحكم فبهِ ذكره وعلت شهرته وهادته الملوك على تنائي الديار، إذ جاءت هدية من السودان تحمل إليه عبيدا وزرافات وأسودا، وجاءته هدية من قيصر القسطنطينية، وجاءه تقليد من الخليفة الفاطمي بلقب شرف الدولة. وكان الشعب حانقا على العقيدة العبيدية لمبادئها المنحرفة عن روح الإسلام، وأخذت تنشب في القيروان ثورات على أتباع تلك العقيدة، فتابع المعز شعبه، وخلع طاعة الفاطميين في القاهرة، وحمل جميع رعيته على مذهب الإمام مالك الذي ارتضته المغرب وفقهاؤها منذ القرن الثاني الهجري، حتى إذا وافق سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٧م كشف القناع عن وجهه وأمر بقطع اسم خلفاء القاهرة الفاطميين من خطب الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسي في بغداد. وبذلك تطهر المغرب على يده من المذهب الشيعي الاسماعيلي الفاطمي. وحين جاءت هذه الأنباء الخليفة الفاطمي امتلا غيظا وموجدة، فعرض عليه أحد وزرائه المسمى باسم اليازوري أن يتخلص من جموع نجدية بدوية نزلت بشرقى النيل في الصعيد وأخذت تعيث فيه فسادا بدفعها إلى المغرب لضرب المعز بن باديس والقضاء على سلطانه ونفوذه، ولقي هذا العرض استحسانا من المستنصر، وأقبلت جموع هؤلاء الأعراب - وكانت تقدر بمئات الألوف - على ليبيا وإفريقية التونسية وواقعت المعز، وهزمته، واضطرتته إلى إخلاء القيروان والانتقال إلى المهديّة - وكان عاملها ابنه تميم - فانتقل.

بأهله وحاشيته إلى تلك المدينة، وظل بها إلى وفاته سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ودفن برباط المستير مع آبائه، وقد بلغت القيروان وإفريقية التونسية في عهده كل ما كان يأمله أهلها من تقدم في المدنية والحضارة والعلوم، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، كما ازدهرت النهضة الأدبية وتكاثر الشعراء كثرة مفرطة مما سنعرض له في غير هذا الموضوع. واستخلف على الدولة بعده ابنه تميمًا وانكشمت الدولة إذ لم يعد يتبع تميمًا منها إلا جزء من ساحل البحر المتوسط بين سوسة وقابس، وكان عالما وشاعرا ومثالا للحاكم العربي الصلب وفي عهده أغار أسطول جنوى من ثلاثمائة سفينة على المهديّة سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ولم يلبث أن انصرف لشدة مقاومته وأغارت بعده ثلاث وعشرون سفينة إيطالية فهزم بحارتها وقتل كثيرين منهم وعادوا مدحورين إلى البحر المتوسط وما وراءه. وفي أيامه استولى النورمان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م على جزيرة صقلية وفي السنة التالية على جزيرة مالطة، ولم يكن يشاغب تميمًا أساطيل الغرب وقراصته فحسب، فقد كان يشاغبه الأعراب المهاجرون إلى إفريقية التونسية، وظل صامدا على الرغم من قلة جنده وقلة موارده إلى أن توفي سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م. وخلفه ابنه يحيى، وكان محبوبا من الرعية، وأنشأ أسطولا كبيرا غزا به جنوة وسردانية وعاد بأموال وغنائم وافرة وتوفي سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م وولى بعده ابنه على وقد أنشأ في عاصمته مدرسة للكيمياء عهد بها إلى الكيميائي الأندلسي أمية بن أبي الصلت ونابزه أحمد بن خراسان أمير تونس، فأرسل إليه جيشا اضطره إلى إعلان الطاعة، وتوفي سنة ٥١٥هـ/١١٢١م وخلفه ابنه الحسن في الثانية عشرة من عمره، وفي أوائل عهده سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م هاجم أسطول نورمانى المهديّة، ولقيهم جنود الحسن وأنزلوا بهم مقتلة عظيمة، وعادوا خاسئين مدحورين. وأعد رجار الثانى أسطولا ضخما مكونا من ثلاثمائة سفينة وهجم به على المهديّة، ورأى الحسن أن لاطافة لجنده القليلين بلقائه فانسحب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م من المهديّة حقنا للدماء، واستغاث بعبد المؤمن بن على أمير دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وكان النورمان قد احتلوا المهديّة فخلصها منهم سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م وولى عليها الحسن بن على الصنهاجى وأشرك معه عاملا من الموحدين، وبذلك انتهت الدولة الصنهاجية من إفريقية التونسية بعد ما أدى حكامها الأولون والأخرون من أعمال ومآثر جليلة.

(ج) الهجرة^(١) الأعرابية

أعلن المعز بن باديس استقلاله بالقطر التونسي عن الدولة الفاطمية بمصر، وأسقط اسم الخليفة الفاطمى المستنصر من خطب الجمعة، وأمر الخطباء أن يذكروا الخليفة العباسى القائم

(١) خير مصدر فصل القول في هذه الهجرة ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه (طبعة بولاق).

بأمر الله على المناير، وجاءه منه تقليد يعترف له فيه بالاستقلال، وعلم بذلك كله المستنصر الفاطمي فاستشار وزراءه ماذا يصنع، وتقدم منه وزيره اليازوري. ذاكرا له أن خير تأديب للمعز يردعه أن نطلق عليه الأعراب البدو من قبائل سليم وهلال وزغبة ورياح الذين نزلوا في قفار الصعيد بين النيل وزروعه والبحر الأحمر، والذين يشكو الفلاحون المصريون من غاراتهم، فنكون قد تخلصنا منهم، وانتقمنا بهم من المعز وصنيعه. واستصوب المستنصر رأيه ومشورته، فاستدعى شيوخ هذه القبائل وعرض عليهم الهجرة إلى بلاد المغرب، ووعدهم أن يوليهم أعمالها، ومنح الشيوخ أعطيات كبيرة، ومنح كل أعرابي من عامتهم بعيرا ودينارا، وقال لهم المستنصر: «قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بلكين الصنهاجي» وكانوا يعدون بمئات الألوف، فانصبوا على المغرب كسيل جارف، وبدأوا بأرض برقة وطرابلس فاستولوا عليها، وتقدموا فاحتلوا مدينة قابس، وحاول المعز بن باديس إيقاف هذا الطوفان المنهمر على بلاده، فالتقى بجموعهم في موضع يسمى «حيدران» بين قابس و صفاقس ولكنه هزم وانسحب مع فلول جنده إلى القيروان. ورأى خطأ أن يستقدم بعض شيوخهم إلى القيروان ويزوجهم من كريماته، زُلفى لهم وقرى، ونصح ابنه تميم أن لا يستدعيهم، ولم يستمع لنصيحته، وجاءوه وانتهت جماعاتهم القيروان، واضطر إلى الانسحاب والالتجاء إلى المهديّة لحصانة قلاعها وأسوارها وكان قد ولى تميما عليها، فاتخذها قاعدة لما بقى من ملكة منذ سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. ولم يقض هؤلاء الأعراب المهاجرون على دولة المعز بن باديس وسلطانه فحسب، بل لقد قضا على كثير من الزروع والمنشآت وأحدثوا كثيرا من الاضطراب والفوضى، ووقفوا - إلى حين - النهضة الحضارية التي كان قد بثها الأغالبية في البلاد وتمتتها الدولة الصنهاجية، وليس ذلك أيضا فحسب، فقد تحولوا بإفريقية التونسية من نظام الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولة واحدة منظمة ترعى مصالحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، بل أصبحت دولا متفرقة أو قل وحدات صغرى من الدول، على نحو ما كان يعيش هؤلاء البدو في قبائلهم من انقسامها إلى عشائر، وكما أن لكل عشيرة شيخها وحياتها المستقلة، كذلك أصبحت إفريقية التونسية إفريقيات وتحولت مدنها إقطاعيات وإمارات لنحو مائة عام ويلاحظ ذلك ابن خلدون قائلا: «لما تغلب العرب على إفريقية وانحل نظام الدولة الصنهاجية وارتحل المعز بن باديس من القيروان إلى المهديّة انتزى الثوار في البلاد» وكوّن كل نائر في بلد دولة أو إمارة صغرى وراثية. وهكذا تأسس في البلاد - على هدى نظام العشائر المتفرقة - نظام أمراء الطوائف، ولكل أمير بلده أو إقطاعيته، وهو غالبا أمير أعرابي ورثت عنه أسرته إمارته، ونذكر من أهمهم: بنى الورد من لحم في بنزرت، وبنى جامع من بنى هلال في قابس، وبنجانهم أمراء بربريون مثل بنى الرند من مغراوة الزنانية بقفصة وبنى مليل من برغواطة بصفاقس، ومن أهم هذه الامارات الصغرى إمارة تونس وكانت لبني خراسان. وبدون ريب أضعف هذا التفتت إفريقية التونسية، مما جعل

النورمان- كما مرّ بنا آنفا- يغزون المهديّة سنة ٥١٧ ويعيدون الكرة سنة ٥٤٣ بقيادة روجار الثاني ويظنون بها نحو اثني عشر عاما ويستولون على ساحل إفريقية التونسية الشرقي ومدنه: قابس وصفاقس والمنستير وسوسة، وينزل روجار في قصور المهديّة الشاخمة، ويتخذ فيها دواوين لحكم تلك المدن وإدارتها إلى أن خلصتها دولة الموحدين سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م. وكل ما حدث من ذلك إنما كان بسبب هجرة الأعراب الكبيرة إلى إفريقية وما نشأ عنها من تفتت قواها في عهد إماراتها أو دولها الصغرى، فإذا روجار الثاني ملك صقلية يغزوها ولا يجد على أسوارها من كانوا يحمونها ويسحقون أعداءها سحقاً.

٥

دولة^(١) الموحدين - الدولة الحفصية

(أ) دولة الموحدين

أنتشأ هذه الدولة ابن تومرت المصلح الديني المغربي الذي زار المشرق وتلمذ فيه على الأشعرية وغيرهم، ورجع إلى المغرب، فنظم فيه ثورة واسعة ضد دولة المرابطين المغربية وفقهائهم المالكية، وتبعه كثيرون، وسُمّي جمهورهم باسم الموحدين، وإليهم نُسبت الدولة. وبدأ منازلة المرابطين سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م غير أنه توفي سريعا فخلفه عبد المؤمن بن علي وهو يعد المؤسس الحقيقي لتلك الدولة، وقد استطاع القضاء على دولة المرابطين وأخذ يملك الأندلس منذ سنة ٥٤٠. وذكرنا - آنفا - أن الحسن بن علي آخر أمراء الدولة الصنهاجية استنجد به حين استولى منه روجار الثاني على المهديّة وساحل إفريقية التونسية الشرقي، وما إن علم بجلية الأمر حتى امتلأ غيظا ولباه بجيش جرار سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م ومضى يفتح مدن المغرب الأوسط. الجزائر وبجاية وقسنطينة وبعض مدن إفريقية التونسية، وكان بنو خراسان يحكمون تونس ففتحها عنوة سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩ م ورافقه في هذه الرحلة أسطول كبير، وتقدم إلى المهديّة وحاصرها بجنوده برا وبأسطوله بحرا، وطال الحصار إلى ستة أشهر، واحتلها عبد المؤمن يوم عاشوراء سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وأقطعها الأمير الحسن بن علي الصنهاجي وأشرك في حكمها أحد الموحدين. ونقل عبد المؤمن عاصمة إفريقية التونسية منها إلى مدينة

الأعلام لابن الخطيب والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للناصرى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبده عتّان.

(١) انظر في دولة الموحدين البيان المغرب والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون والمن بالامامة لابن صاحب الصلاة والمعجب للمراكشي وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وأعمال

تونس، وتظل عاصمة للبلاد إلى اليوم ويقوم فيها دواوين الحكم، ويطبق فيها وفي ولايتها ما اتخذته في دولته بالمغرب من التراتيب المخزنية في تنظيم المصالح الحكومية وظلت هذه التراتيب قائمة إلى نهاية حكم الدولة الحفصية، ويتوفى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م ويخلفه ابنه يوسف وتظل إفريقية التونسية هادئة لعهدته حتى إذا كانت سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م ثار عليه بنو الرند في قفصة بشط الجريد فخرج إليهم وتغلب سريعاً عليهم، وعاد إلى عاصمته: مراكش وتوفى سنة ٥٨٠ هـ وخلفه ابنه يعقوب وكان من وزرائه الشيخ عبد الواحد جد الحفصيين، وكان تقى الدين بن أخى صلاح الدين الأيوبي فكر في الاستيلاء على ليبيا وإفريقية التونسية للاستعانة بها في حرب الصليبيين، وكلف بهذه المهمة قراقوش وابن قراتكين، واستولى الأول على مدينة قابس واستولى الثاني على مدينة قفصة، وفي هذه الأثناء فكر بنو غانية ولاة المرابطين في جزر ميورقة ومنورقة ويابسة أن يثأروا لدولتهم من الموحيدين، وتسأل منهم إلى إفريقية التونسية على وأخوه يحيى يريدان أن يقيما فيها دولة ويعدّاً جيشاً للانتفاض على الموحيدين. وعلم يعقوب بما يحدث في إفريقية التونسية فخرج إليها في جيش جرار سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م وظل طوال طريقه يبني في سائر أعماله المارستانات للمرضى والمساجد للمصلين وانتقض على قفصة وقتل ابن قراتكين كما انتقض على قابس ولم يجد بها قراقوش واستولى على أمواله وأهله مما اضطره إلى إعلان طاعته، أما ابنا غانية فحين علما بمقدم يعقوب انسحبوا إلى شط الجريد وفيه لقي على مصرعه سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م. وعاد يعقوب إلى عاصمته، وأخذ ينهمك في الإعداد لموقعة الأرك التي سحق فيها سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م ملك قشتالة ألفونس الثامن ومن تجمع له من حملة الصليب الهولنديين والإنجليز، وازداد حينئذ عيث يحيى بن غانية واستولى على شط الجريد والقبروان وطرابلس وقابس وصفاقس وتونس، وتوفى يعقوب سلطان الموحيدين سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م وتولى ابنه الناصر وظل يفكر في شأن يحيى ورأى أن يرسل حملة بحرية كبرى إلى أخيه عبد الله في جزائر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) حتى يجتث جذور جرثومة الفساد واستولى عليها أسطولها سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وصمّم بعد ذلك على قطع فروع الجرثومة في إفريقية التونسية واستنصل يحيى بن غانية، فخرج في جيش جرار ومعه وزيره أبو محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م وأوقع بيحيى هزيمة ساحقة بالقرب من مدينة قابس، واسترجع مدينة المهديّة وغيرها من المدن التونسية، وعاد إلى مراكش سنة ٦٠٣ هـ واستخلف أبا محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص على تونس (إفريقية التونسية) وطرابلس، وأخذ زمام الأمور بها يتجمع ويستقر في يده ويد أبنائه، وكأنما كان حكمه لتونس وطرابلس تمهيداً قوياً لقيام الدولة الحفصية، وقد نازل يحيى بن غانية في نواحي طرابلس وهزمه وفرّ جريحا.

(ب) الدولة^(١) الحفصية

استقام حكم عبد الواحد في تونس وطرابلس وأحبه الناس وعظّموه إلى أن توفي سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وخلفه ابنه عبدالرحمن، وعزله سريعا سلطان الموحدين وولّى أخاه عبدالله، فعهد لأخيه أبي زكريا يحيى بحكم قابس سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ولم يلبث أن غضب عليه ونهض لحربه، وخالفه بعض القواد، والتحقوا بجيش يحيى وتمت له الغلبة على أخيه، فدخل تونس سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م وبايعته بمجرد دخوله، وأخذ يعمل على الاستقلال بولايته وكان مما حفزه على ذلك أن أبناء سلطان الموحدين يعقوب العظيم صاحب موقعة الأرك وأبناء عمومتهم أخذوا يتصارعون على الملك والحكم وأخذت دولة الموحدين تضعف ضعفا شديدا وسرعان ما قطع أبوزكريا اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة وجعلها باسمه سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م وبذلك أعلن قيام دولته الحفصية واستقلاله نهائيا عن دولة الموحدين. وفي سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وقع مع فريديك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - تفاديا لغارات أسطوله على ساحل تونس - معاهدة اعترف فيها بتملك فريديك لجزيرة قوصرة (بتطالرية) بعد أن ظلت تابعة لإفريقية التونسية خمسة قرون وكان من شروط المعاهدة أن تظل الدولة الحفصية تأخذ نصف جبايتها وظل هذا الشرط ساريا طوال حياة أبي زكريا، وبمجرد وفاته انتقض هذا الشرط وأجبر المسلمون فيها وفي مالطة وصقلية على الخروج منها جميعا إلى العدو الإفريقية، ومن بقى أُجبر على اعتناق النصرانية. وظل أبو زكريا يتعقب يحيى بن غانية حتى توفي في برية تلمسان سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م. وفي سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م بايعت تونس أبا زكريا ثانية، ويقال إنه أعلن حينئذ قطع اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة أو خليفتهم وذكر اسمه فيها. وكان بدء قيام الدولة الحفصية إنما كان في سنة ٦٣٤هـ والرأى الأول أكثر سدادا.

وتعاظمت حملات نصارى الإسبان ضد عرب الأندلس وأخذت مدنهم الكبرى تسقط في

وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسني
عبد الوهاب وكتابه ورقات عن الحضارة العربية
وتاريخ إفريقية في العهد الحفصي لروبارت تشفيك
وراجع فيه خاصة علاقات حكام الدولة الحفصية مع
أمراء وحكام صقلية وموانئ إيطاليا وفرنسا
 وإسبانيا.

(١) انظر في الدولة الحفصية البيان المغرب لابن
عذارى وتاريخ ابن خلدون ومعالم الإيمان للدباغ
وابن ناجي والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن
أبي دينار ورحلة التجاني ورحلة العبدري والفارسية
في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ والحلل
السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج

حجورهم فأرسل إليه زيان بن مردنيش صاحب بلنسية سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م وفدا يستنجده لنصرته ضد أعداء الاسلام، كان فيه أبو عبد الله بن الأبار، وأنشده قصيدة فريدة منها قوله:

أدركُ بخيلك خَيْلَ اللَّهِ أندلسا إن السبيل إلى مَنْجاتها دَرَسَا

ولبَّاهم بأسطول محمّل بالأغذية والأسلحة، ووقعت في أيدي النصارى. وقد ابتنى جامع القصبية في تونس وصومعته ونقش عليها اسمه، وحين تمَّت أذن فيها بنفسه، وأنشأ في قصره داراً للكتب جمع فيها ستة وثلاثين ألف مجلد في مختلف العلوم والآداب. وكان عادلا حسن السيرة كما كان فقيها وشاعرا أديبا، وكان يأخذ نفسه بالتقشف والزهد في متاع الحياة، وجمع للدولة بعدله وسياسته الرشيدة أموالا طائلة، وأخذت تونس (إفريقية التونسية) تستعيد مجدها وشخصيتها القوية أيام الأغالية والصنهاجيين، ونفقت سوق العلم والأدب وكثر العلماء والشعراء وتوفي أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م.

وخلفه ابنه المستنصر محمد وكان أبوه عنى بتربيته فديرٌ أمور الدولة تديبرا محكما وانتعشت تونس في عهده. ولما قضى التتار في بغداد على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وأصبح المسلمون بدون خلافة وخليفة جاءته في سنة ٦٥٧هـ بيعة أمير مكة بالخلافة بإنشاء عبد الحق بن سبعين صوفي الأندلس، وكان مجاورا هناك فقرئت على الملأ واحتفل بها احتفالا عظيما، ومن حينئذ تلقب بأمر المؤمنين، وبايعه بنو مرين بفاس. وفي ذى القعدة سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م غرَّت الأمانى لويث التاسع بعد تنكيل مصر به وبحملته المشهورة، فقاد حملة كبيرة هاجم بها تونس برا وبحرا، وحاصرها ستة أشهر، ودُفِنَ تحت أسوارها، وعادت الحملة مدحورة إلى البحر المتوسط وما وراءه بعد أن أغرمها المستنصر مالا كثيرا. ومن أعماله الجليلة بناء الحنايا التي كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجة من زغوان في أيام الرومان وأصلح ما أفسده الزمن منها، ومدها في تونس إلى السقايات المختلفة: جامع الزيتونة وغيره، وازدهرت الحياة والحضارة بتونس لعهد هذا ازدهارا عظيما. وتوفي سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م وتولى بعده ابنه يحيى الواثق وكان حسن السيرة غير أن عمه أبا إسحق إبراهيم ثار عليه سنة ٦٧٨ واستولى على أزمة الحكم، وخرج عليه في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م تائر يسمى أحمد بن مرزوق المسيلي ادَّعى أنه الفضل ابن أمير المؤمنين الواثق بن المستنصر، وتمكن من الاستيلاء على تونس بمساعدة أعراب قابس الهلاليين، وبعد سنة ونصف من حكمه تصدَّى له الأمير عمر أخو الواثق وجمع له جموعا سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وقبض عليه وقتله، وتولى شئون الحكم. وسرعان ما خرج عليه بالجزائر ابن عمه يحيى بن إبراهيم واستقل ببيجاية وقسنطينة، وتوفي عممر سنة ٦٩٤هـ/١٢٠٤م وخلفه أبو عصيدة محمد بن الواثق وحاول استرجاع القسم الشرقي في الجزائر وأخفق، وتوفي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م دون عقب واضطربت

الأمر في تونس، واستطاع أبو يحيى زكريا بن اللحياني أن يستولى على زمام الأمور سنة ٧١١هـ/١٣١١م وكان شيخا كبيرا، فتخلى عن الحكم لابنه أبي ضربة، وحاربه أمير قسنطينة الحفصي أبوبكر سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وهزموه وقبض على صولجان الحكم في تونس وتلقب بالمتوكل على الله، وخرج عليه بعض الأمراء من أسرته وأمدهم بنو زيان أمراء تلمسان من بني عبد الواد، فأصهر إلى سلطان بنى مرين في المغرب الأقصى، وهاجم معه ديار هذه الإمارة أو المملكة سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م واقتسامها فيما بينها. وصفا له الجو حتى وفاته سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م وأخذ يعني بالحركتين العلمية والأدبية وازدهرت لعهد، كما عني بشئون الزراعة والصناعة والتجارة، فازدهرت جميعا، وما يدل على هذا الازدهار ما ذكره المؤرخون من أن عدد دكاكين العطارين وحدهم في أيامه بلغ في تونس سبعمائة دكان. وبويع بعده لابنه أبي حفص الثاني، وثار عليه أخوه أبو العباس. وانتهاز السلطان المريني أبو الحسن فرصة هذه الفتن فاتجه في جيش جرار إلى تونس سنة ٧٤٨م وفتك بسلطانها أبي حفص، واستقام له ملك المغرب الأوسط، والأدنى لمدة سنتين ونصف، غير أنه لم يحسن السياسة مع الأعراب كما كان يحسنها سلاطين تونس فتاروا عليه ونازلوه في تونس وهزموه، وجاء الخبر بأن ابنه أبا عنان ثار عليه في مراكش، فعاد سريعا إلى عاصمته سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م. وعادت تونس للحفصيين، وتولى زمام الخلافة والحكم الفضل بن أبي بكر الحفصي، ودبر له الحاجب القديم الشرير ابن تافراجين مؤامرة قتل فيها، وتولى أخوه أبو إسحق إبراهيم سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م واتخذ ابن تافراجين حاجباً له، واضطربت عليه الأمور إلى أن توفي ابن تافراجين سنة ٧٦٦م ولم يلبث أن توفي سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. واستولى على زمام الأمور في تونس أبو العباس أحمد الحفصي سنة ٧٧٣هـ/١٣٧٠م وهو من خيرة الحكام الحفصيين قمع الأعراب وأهل الفساد، واسترجع ما ضاع من الدولة في أثناء الفتن مثل المهديّة وسوسة وقابس وشط الجريد وجزيرة جربة، وساد الأمن والعدل فازدهرت البلاد. وفي أيامه غزا الجنويون والفرنسيون المهديّة في ثمانين قطعة، ودافعهم عنها جيشه وردهم على أعقابهم خاسرين، وتوفي سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٣م بعد ما أعاد لتونس ما كان لها من هيبة وقوة.

وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز، وفيه يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب: «هذا السلطان درة عقد الدولة الحفصية وفخر من مفاخر البلاد التونسية، سار بعدل وتدبير وسياسة، فازدهت إفريقية (التونسية) في أيامه، وبلغت شأوا بعيدا في الثروة والعمران». وقد بدأ عهده بإخضاع طرابلس وقابس وقفصة والجريد وبسكرة والصحراء، وكان ينوسلميم قد أكثروا من الثورات فقلّم أظفارهم، واستصرخوا سلطان فاس المريني بالمغرب الأقصى فأرسل لهم جنودا من عنده وانضم إليهم أمير بجاية الحفصي ابن أبي زكريا، واتجهوا بجموعهم إلى تونس سنة ٨١٢هـ/١٤٠٩م فهزمهم وقتل الثائر الحفصي، وصمم على الثأر من السلطان المريني،

فلما شارف عاصمته «فاس» أرسل إليه بالطاعة، فعفا عنه ونصحه أن يحكم بالعدل الذي لا تستقيم حياة الرعية بدونه. ورجع إلى عاصمته بعد أن دان له شمال إفريقية بالسمع والطاعة. وفي سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م احتل ملك أرجون جزيرة جربة وأنجدها ولاذ المحتلون بالفرار. وقد أنشأ طائفة من القلاع والمحارس لحماية السواحل والتغور، وبنى ماستانا للمرضى والعجزة، وأنشأ لنفسه قصرا بضاحية باردو في تونس وأحاطه بحديقة بديعة وشيد فيه خلفاؤه الحفصيون والعثمانيون قصورا وحدائق أنيقة. ومن مآثره الجليلة تشييده مكتبة لطلاب العلم في أحد أروقة جامع الزيتونة إلى الشمال وجمع لها آلاف من المجلدات وقفها عليها، وقد نحي عن كاهل الشعب كثيرا من الضرائب الفادحة وبسط العدل والأمن، وتوفي سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٤م.

وتولى بعده حفيده محمد المنتصر، وأنشأ مدرسة سميت المدرسة المنتصرية، وبنى زاوية الشيخ الصالح أحمد بن عروس وتوفي بعد عام وشهرين، وخلفه أخوه أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م وظل العدل والأمن والاستقرار الرعية طوال حكمه الذي امتد إلى نحو أربعة وخمسين عاما إذ توفي سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م وقد قمع ثورة لعمه أبي الحسن في قسنطينة وبجاية، وثار عليه تلمسان وأعادها إلى طاعته، وكان أخوه المنتصر توفي ولم يكمل مدرسته المنتصرية فأكملها، وشيد لنفسه مدرسة كبيرة جعل فيها مسجدا للصلاة وغرفا للدراسة ومساكن للطلبة وسماطا يمتد كل يوم للفقراء، ووقف عليها ما يكفيها ويكفي من بها من العلماء والطلبة، وبنى ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن، وعنى بإنشاء مكتبة عمومية في أحد أروقة جامع الزيتونة، وأتمها بعده حفيده أبو عبدالله محمد، ونُسبت إليه فسميت العبدلية. ومن حسناته كتابة مصحف بخط يده في عدة أسفار جعله بجانب نسخة البخاري التي وقفها أبوه في جامع الزيتونة. وخلفه حفيده أبو زكريا، لمدة ست سنوات، ووليها بعده أخوه أبو عبدالله محمد الذي أتم المكتبة العمومية التي ابتدأها جده كما أسلفنا.

وكانت الدولة العثمانية قد عظم شأنها وأصبح لها أسطول ضخم يتنافس الأسطول الإسباني أقوى أساطيل أوروبا حينذاك في البحر المتوسط، وكان لها أميران من أمراء البحر هما الأخوان: عروج وخير الدين ويسميه الإفرنج بربروسة، وكانا يشتغلان بالقرصنة لحساب الدولة العثمانية، وتقدما إلى الأمير أبي عبد الله محمد الحفصي المذكور أنفا طالين منه الموافقة على أن يتخذ من جزيرة جربة قاعدة لأعمالها البحرية ضد السفن الإسبانية لتخليص مدينة الجزائر من احتلال الإسبان على أن يكون له الخمس من غنائمها، وقيل منها هذا العرض، وظل ذلك مدة، وحدث أن استطاع عروج وخير الدين تخليص مدينة الجزائر فعلا من يد الإسبان واتخذها منذ سنة ٩١٦هـ/١٥١١م قاعدة لأعمالها البحرية واستغنيا عن جزيرة جربة التونسية. وكانت الدولة التونسية قد أخذت في التدهور والضعف الشديد لعهد الأمير أبي عبد الله محمد، ورأى

ذلك خير الدين رأى العين، وتوفى الأمير أبو عبد الله سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م وخلفه ابنه الحسن فرأى خير الدين أن يزحف إلى تونس من الجزائر، ويضمها إلى الدولة العثمانية كما ضم إليها الجزائر، وزحف إليها فعلا واستولى عليها سنة ٩٣٥هـ/١٥٢٩م فلجأ الأمير الحفصي الحسن إلى كارلوس الخامس ملك إسبانيا، فرأها فرصة عظيمة، وقدم معه سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٧م ودخل مع الحسن تونس عنوة، وفرَّ خير الدين بجنده إلى الجزائر وإِنَّ كارلوس لجنده بنهب تونس، فاستباحوا حماها، وأجلس الحسن على عرشها وأشرك معه في الحكم أحد قواده، وعقد معاهدة معه بمقتضاها يتنازل للإسبان عن بعض المدن التونسية سوى ما اشترطه عليه من دفع أموال باهظة سنويا، وثار على الحسن ابنه أحمد حاكم عنابة (بونة) وانضم إليه كثيرون. وبعد قتال عنيف استولوا على تونس وسملوا عيني الحسن، ففقد بصره وفر إلى القيروان وتولى ابنه أحمد مكانه، واستولى الإسبان على المهديّة والمنستير وجزيرة جربة والقيروان وكان أهل طرابلس قد استغاثوا بالدولة العثمانية فأزاحت عنهم فرسان مالطا كما ذكرنا في حديثنا عن ليبيا. سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م بفضل أسطول درغوت الذي كان مرابطا أمام الجزائر، وقد استطاع أن يفتكّ المهديّة والقيروان وجربة والمنستير من أيدي الإسبان وأقام بكل منها حامية عثمانية ونائبا، وكان خيرالدين (بر باروسة) قد حرّر الجزائر من الإسبان وأصبحت ولاية عثمانية، فأرسل الأمير أحمد الحفصي إلى واليها سنة ٩٧٧هـ/١٥٧٠م أحد وزرائه يستنجد به ضد الإسبان، فانتهاز الفرصة وقدم بجيش استولى به على تونس وأخذ البيعة فيها للسلطان العثماني، فاستنجد الأمير الحفصي أحمد بالإسبان أعدائه فأعادوا الحماية وعرف الأمير أحمد خطأه، فترك الحكم لأخيه محمد سنة ٩٨٠هـ/١٥٧٣م ورحل إلى صقلية وظل بها إلى مماته، وخضع محمد للحماية الإسبانية، وأشرك الإسبان في الحكم الكنت سِرْبَلُونِي وازدادوا عسفا وعتوا، وتكررت استغاثة التونسيين بالدولة العثمانية، فأرسلت إليهم في سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م قوة عثمانية كبيرة بقيادة الوزير سنان باشا، ففتك بالحامية الإسبانية فتكا ذريعا وطرد بقيتهم من البلاد إلى البحر المتوسط وما وراءه، وأرسل بالأمير الحفصي محمد إلى الأستانة فظل معتقلا بها إلى وفاته. وبذلك انتهت الدولة الحفصية بعد أن حكمت تونس نحو ثلاثمائة وخمسين عاما.

العهد^(١) العثماني

كانت فاتحة أعمال سنان باشا بعد تحريره القطر التونسي أن أعلن إلحاقه بالدولة العثمانية، فأصبحت إحدى ولاياتها في إفريقية الشمالية الممتدة من مصر إلى الجزائر، وأخذ يرسى النظام الذي سيقوم على أسسه الحكم في تونس، فنظم الديوان الذي تجتمع فيه الهيئة الحاكمة للنظر في شئون الجند والولاية، وقدر الرواتب، ورتب لجباية الأموال مشرفا باسم الباي، وجعل للبلاد حامية عسكرية عدادها أربعة آلاف جندي من الإنكشارية، وهم جند الدولة الذين كانت تربيتهم تربية إسلامية عسكرية، وكانت تجلبهم من الأناضول ومن سبائها في أوروبا، وجعل على كل مائة منهم أميرا يسمى «الداي» وجعل عليهم رئيسا هو الأغا، وانتخب بعض الأعيان من البلاد لمشاركة الديوان في الحكم، وضرب السكة باسمه. ولما أنهى كل هذه الترتيبات وخطب الخطباء في تونس باسم السلطان العثماني عاد إلى إستانبول دار دولته وحكومته. وعينت إستانبول لتونس واليا بلقب باشا، ولم يلبث الدايات أن شغبوا على الوالي سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م واتفق الرأي على اختيار أحدهم ليكون له الرأي النافذ في شئون الإنكشارية، وسرعان ما أخذ هؤلاء الدايات يتسلطون على الحكم في تونس ويعينون الوالي منهم وتضطر الدولة إلى قبول الواقع، وأول داي مهم منهم تولى شئون البلاد عثمان داي، وكان من خيرة الجند الذين رافقوا سنان باشا، وقد تولاهما سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م فسُنَّ قوانين وطُدَّ بها الأمن والعدل في البلاد، وأشرف على القرصنة في البحر المتوسط وعظم حظ تونس من غنائمها الوافرة، وفي أيامه سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م أخرج الإسبان من بقى بديارهم من الأندلسيين إلا من تنصر أو تظاهر بتنصره، فهاجر منهم آلاف إلى تونس، وأكرمهم عثمان داي، إذ أقطع ذوى اليسار منهم ما اختاروه من الأراضى ووزع على المحتاجين منهم الأموال والنفقات فانتشروا في أرجاء البلاد وأخذوا يؤسسون فيها المدن والقرى وينشئون المصانع والمزارع والبساتين، وبذلك أحدثوا في إقليم تونس نهضة عمرانية وصناعية وزراعية، ويقال إن

ورحلتى العياشى والناصرى ودائرة المعارف الإسلامية في مادة تونس وما بها من مراجع تاريخية عن العصر التركي وخلاصة تاريخ تونس للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

(١) انظر في العهد العثماني بتونس كتاب المؤسس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار والحلل السندسية في الأخبار التونسية للوزير السراج وذيل بشارت أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجه تحقيق الطاهر المعمورى (طبع تونس)

المهاجرين منهم في عهد عثمان داي كانوا يبلغون ثلاثين ألفا، ولم يلبث أن توفي سنة ١٠١٩هـ/١٦١١م ودفن بزواوية ابن عروس. وخلفه يوسف داي، واستمر نزول المهاجرين الأندلسيين في البلاد وأفاءوا عليها عمراناً وفيراً، وقد استرد جزيرة جربة من والي طرابلس العثماني، واتفق على تسوية الحدود بين تونس والجزائر، ومن أعماله إنشاءه جامع الكبير ومدرسة سميت المدرسة اليوسفية نسبة إليه، وتنظيمه أسواق المتاجر، ونشاط الأسطول التونسي لآيامه بقيادة قبطانه مراد، ويقال إنه غنم في إحدى غاراته البحرية تسعين سفينة.

وتوفي يوسف داي سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م وخلفه القبطان مراد رئيس البحر، وفي أيامه تمتعت تونس بحياة رغدة آمنة فأحبه الناس، وعمل على أن تظل ولاية تونس في بيته فتنازل عن الحكم لابنه حمودة، وأقرت الدولة العثمانية صتيه، وبذلك أصبح حكم تونس وراثياً في أسرته، وكان عهده وعهد ابنه حمودة عهداً هنيئاً في تونس واستطاعت كتيبة الصبائية أن تقضي على العصاة قضاء نهائياً في عهد حمودة فأمنت السبل وعاش الناس في اطمئنان سابغ أو غامر في جميع أنحاء الإقليم، ومن أعماله بناء جامع بديع بجوار زاوية أحمد بن عروس وصومعة أنيقة لجامع الزيتونة ومارستان للمرضى، وعُني بقصور المحفصين في باردو. واشتهرت زوجته عزيزة حفيدة الداي عثمان بأعمال بر كثيرة، من ذلك أنها حبست وقفا كبيرا على مارستان كان خاصاً بمرضى الأعصاب، ولذلك سمى دار الدراويش، ومن الطريف أنها خصت قسماً من الوقف بالعود والرباب والضاريين عليهما ترويحاً لأولئك المرضى، وبذلك سبقت الطب الحديث إلى تبين تأثير الموسيقى في مداواتهم وتهذئة أعصابهم. وتوفي حمودة المرادي سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م وخلفه ابنه مراد وكان حسن السيرة وقبض بقوة على زمام الأمور، وسمع بأن جنود الإنكشارية في طرابلس قتلوا الوالي فذهب إليهم ونكّل بهم، وأجلس ابناً له في عمله. وتوفي سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٦م. وولى بعده خلف سيء شاع في أيامهم البغي والظلم، وتنازعوا في الاستيلاء على الحكم واستعان بعضهم بالجزائر، ودخلت جنودها تونس غير مرة، مما جعل الداي إبراهيم الشريف يفتك بآخر أمرائهم سنة ١١١٤هـ/١٧٠٣م. وبذلك انقرضت الدولة المرادية، وعاود الجزائريون الكرة على البلاد التونسية، وهزموا إبراهيم الشريف.

وجزع أهل الحل والعقد في تونس من الشيوخ وغيرهم، واتفقت كلمتهم على إسناد الدولة للباي حسين بن علي وكان قد تقلد وظائف حربية وإدارية مختلفة للأسرة المرادية، ولم يجد بدا من النزول على رأيهم وإرادتهم. وفرح به أهل تونس وبيعوه في ربيع الأول سنة ١١١٧هـ/يوليو ١٧٠٥م. وبدأ أعماله بإصلاح سور تونس وتحصين قلاعها، ولم يلبث الجيش الجزائري أن خيم بالقرب من تونس فدارت الحرب وثبت التونسيون، وتقهقر الجزائريون إلى بلادهم. وأخذ الإقليم التونسي يعيش في أيامه حياة رغدة آمنة وانتعشت المزارع والمتاجر والمصانع، وأخذ يعنى بإنشاء المدارس، فأنشأ في تونس مدرستين كما أنشأ مدرسة في كل من

القيروان وسوسة وصفاقس ونفطة، واتخذ قصر باردو مقرا لحكومته وبنى به قصرا ومسجدا. ورضيت عنه الدولة العثمانية فجعلت ولاية تونس وراثية في أسرته، ولم يكن له ولد في أول أمره فتبنى ابن أخيه علي بن محمد، وعُني بتربيته وجعله وليا لعهدده ثم رزق بابنيه محمد وعلي، فنقل ولاية العهد منه إلى ابنه محمد الرشيد وجلب لعل ابن أخيه من الدولة العثمانية لقب الباشا، ولكن عليا ظل غاضبا، ووصل إلى الجزائر، فشجعه حاكمها العثماني على مغاضبة عمه وأمه بجيش جرار، زحف به إلى الإقليم التونسي والتقى بجيش لعمه وانتصر عليه سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٥م ودخل تونس وتقلد شعار الولاية، وأصبح تابعا لوالى الجزائر العثماني يؤدي إليه الخراج، أما عمه حسين باي فإنه نجا مع ابنه إلى القيروان وأخذ يعد جيشا للقاء ابن أخيه حتى إذا كانت سنة ١١٥٣هـ/١٧٤١م التقى الجيشان جنوبي القيروان ودارت الدوائر على جيش حسين وقتل في المعركة. وأصبح علي واليا لتونس دون منازع. وكان البحارة الجنوبيون يقيمون في مرسى طبرقة بالشمال الغربي للقطر التونسي، فبعث ابنه يونس على رأس جيش شردهم كما شرد فرنسيين في قرية بجوارهم أقاموا بها مراكز تجارية. وحدث شقاق بين الابن وأبيه، وتحاربا ودارت الدوائر على ابنه. وكان علي باشا متعمقا في الدراسات اللغوية، وله شرح كبير على كتاب التسهيل لابن مالك في النحو، وجمع في قصر باردو مكتبة نفيسة، وأنشأ أربع مدارس بعاصمته: الباشية نسبة إليه والسليمانية ومدرستي بير الحجاز، وكان راعيا للأدباء والشعراء من أمثال علي الغراب ومحمد الورغي. وكان ابنا عمه حسين قد قرأ بعد مقتل أبيهما إلى الجزائر مستنجدين بواليتها التركي، وظلا هناك ستة عشر عاما استطاعا في نهايتها أن يفتحا الوالى التركي بأن يرسل معها جيشا لنصرتها على ابن عمهما وأخذها بثأرها، وأرسل معها جيشا جرارا، حاصرا به تونس، ودافع ابن عمهما على دفاعا مستميتا سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م وخرَّ صريعا في المعركة.

وتربّع ابن عمه محمد الرشيد على كرسي تونس، وكان مولعا بالموسيقى والتلحين والضرب على مختلف الآلات، فترك تدبير شئون الدولة لأخيه علي، ولم يلبث أن توفي سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م وخلفه أخوه علي واهتم بتعزيد التجارة والزراعة والصناعة، وانتشر في القطر الأمن. وأنشأ في تونس محكمة شرعية ومدرسة لقبت بالجديدة، كما أنشأ تكية للضعاف والعجزة من الرجال والنساء، ولما تم بناؤها وأخذت تقدم الغذاء للمحتاجين قاد إليها جماعة من العمى فاقدى البصر وجلس معهم وأطعمهم بيده. وحدث في أوائل حكمه سنة ١١٨١هـ/١٧٦٨م أن ألحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بملكاتها فلم تصادق الحكومة التونسية على هذا الإلحاق ولا اعترقت بالجنسية الفرنسية لأسرى تلك الجزيرة ممن حملهم إلى تونس أمراء البحر المتوسط وقراصنتها، وأعلنت فرنسا الحرب على تونس وأطلق أسطولها قنابل على نفور المنستير وسوسة وحلق الوادى وبنزرت وبعد اتصالات أبرم الصلح بين فرنسا وتونس

بياردو سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. ولما تقدمت به السن ووهن منه الجسم أشرك ابنه حمودة معه في الحكم، وكاتب الدولة العثمانية في ذلك فوافقت، وتوفي سنة ١١٩٦هـ/١٧٨٢م. وخلفه ابنه حمودة، وكان أبوه قد عُني بتربيته وإعداده لإدارة الحكم والدولة إدارة سديدة وفي عهده استأجر بحارة تونسيون من بعض بحارة البندقية سفينة لحمل بضائعهم من الإسكندرية إلى صفاقس، وعرّج بهم البحارة على مالطة، فقبض واليها على التونسيين وزجّ بهم في السجن بحجة ظهور وباء فيهم وأمر بإحراق ما معهم من السلع. وعاد التجار التونسيون إلى العاصمة تونس، وتظلموا لحمودة، فطلب من نائب جمهورية البندقية أن تؤدي جمهوريته قيمة ما ضاع على التجار التونسيين بمقتضى القانون التجاري، وأفضى هذا النزاع إلى إعلان تونس الحرب على البندقية سنة ١٢٠٤هـ/١٧٩٠م وجهزت لذلك أسطولها، ورضيت البندقية بدفع الغرامة وانعقد الصلح بين الحكومتين. وفي سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م وقد على تونس والى طرابلس على القرماني فرارا من ثورة لعلى برغل فيها، فأحسن استقباله حموده، وكان على برغل قد استولى أيضا على جزيرة جربة التونسية، فأرسل إليها حمودة الأسطول التونسي فاستردها بمجرد ظهوره أمامها، وأرسل أحد قواده على رأس جيش مع والى طرابلس فدحر على برغل وأقرّ عليها على القرماني، وعاد الجيش ظافرا منصورا. ونشبت الحرب بينه وبين الجزائر سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٧م وكانت لهم الجولة الأولى وأعاد حمودة الكرة وانتصر جيشه انتصارا ساحقا. وكل ذلك يدل على أن تونس حظيت في عهد حمودة بمكانة دولية كبيرة.

وقد عم فيها الرخاء والأمن ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة بها نشاطا كبيرا إلى نهاية حكمه سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م وكان معاصرا لنزول الحملة الفرنسية مصر وانتصار المصريين عليها انتصارا حاسما سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م وهو انتصار هز العرب في جميع بلدانهم هزة عنيفة جعلتهم يستيقظون من سباتهم الطويل ويستشرفون عصرهم الحديث مستشعرين فيه كيانهم وهويتهم العربية الإسلامية، ونرى الباي حمودة يستشعر - بقوة - شخصية تونس ومحاول - جادا - أن يعيد إليها قواها التي طمرها العثمانيون حقا متوالية، فيأمر بتجنيد التونسيين وإشراكهم في الجيش والحكم مع الترك أو الحامية التركية، وضرب للتونسيين بنفسه مثلا وطنيا كريما في ملبسه ومطعمه، فلم يكن يلبس إلا من منسوجات تونس ولم يكن يطعم إلا من خيراتها وطيباتها متباهايا بذلك مفاخرها، وبذلك ابتدأ الداي حموده ببلده العصر الحديث في القرن التاسع عشر بدءا قويا سديدا.

الفصل الثاني المجتمع التونسي

١

عناصر^(١) السكان

البربر هم العنصر الأول الذي سكن القطر التونسي وعمر أرضه أجيالاً وقروناً قبل أن ينزله عناصر جدد، واختلف المؤرخون في أصلهم ونسبهم، فقبلهم هم إفريقيون أصلاً وموطنا وقيل بل هم آسيويون، فمن قائل إن أصلهم من اليمن، ومن قائل إن أصلهم من العماليق انتقلوا من ديار الشام إلى إفريقية، ومن قائل إنهم أخلاط من كنعان والعماليق، ومن قائل إنهم من عرب الشمال من ولد قيس بن عيلان، ومن قائل إن جدهم مازيغ كان أحاً لفلسطين وأن أبناءه بارحوا الشام واخترقوا مصر إلى إفريقية، ومازيغ كان ابن كنعان بن حام، وهم بذلك حاميون لاساميون، ويعلق ابن خلدون على هذه الآراء وما يماثلها في بيان نسب البربر بأنها «أحاديث خرافة إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتمة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض (المغربية) لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون في بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذي يجوجنا إلى التعلق بهذه الترهات في شأن أوليتهم ولا يُحتاج إلى مثله في كل جيل وأمة من العجم والعرب». ويضيف ابن خلدون إلى ذلك قوله «إن نسبة البربر يزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواتة يزعمون أنها من حمير، ومثل هواره يزعمون أنها من كندة ومثل زانة يزعمون أنها من بقايا التبايعه.. وهذه كلها مزاعم، والحق الذي شهدت به الرطانة والعجمة (في السنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب». وابن خلدون محق في وصف ذلك كله بأنه مزاعم وترهات، إذ لا حاجة للبربر بذلك كله، إذ هم شعب عريق أصيل مضاهٍ لشعوب العالم العريقة الأصلية مثل

عبدالوهاب: الجزء الثالث، المغرب الكبير لرشيد
الناضوري: الجزء الأول، كذلك تاريخ المغرب
الكبير لديوز وبرنشفيك ٢١٣/١ وما بعدها.

(١) انظر في عناصر السكان بتونس الجزء
السادس من تاريخ ابن خلدون، وكتاب ورقات عن
الحضارة بإفريقية للأستاذ حسن حسني

العرب والمصريين والفرس والروم. أما تسميتهم باسم البربر فالمظنون أن الرومان - وربما اليونان - هم الذين أطلقوه عليهم أخذًا من الكلمة الإغريقية Barbarus ومعناها الأجنبي الذي يرطن بلغة غير مفهومة، إذ كانت لغة البربر - بالنسبة للرومان واليونان - أصواتًا مبهمه، والكلمة بهذا المعنى الإغريقي تلتقى بمعنى البربرة في العربية وهو التتممة بالكلام بحيث لا يفهمه السامع.

وظل البربر لا يتصلون بالشعوب القديمة آراءً طويلة حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد أو قبله أو بعده بقليل كان فينيقيون من سكان لبنان - وكانوا شعباً ملاحياً - يجوبون الساحل الإفريقي بحثاً عن مواضع يتبادلون فيها سلعهم وعروضهم مع البربر، وأعجبتهم تونس، فنزلوا بها، ومع مرّ عشرات السنين اتخذوا لأنفسهم فيها موطناً ومركزاً لتجارتهم، إذ أسسوا فيها مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية، واستوطنها كثير من أسرهم الفينيقية، وأنشأوا بها دولة وجيشاً منهم ومن البربر، وقد امتزجوا بهم وصاهروهم وعلموهم الملاحه والتجارة وتبادل السلع وفلاحة الأرض وغرس الأشجار، ونقلت إليهم قوافلهم المتعمقة في السودان كثيراً من الزوج، فسحوا لبعض اليهود في النزول بمدينتهم. وبذلك أصبح يوجد فيها لعدهم أربعة عناصر من السكان: عنصر بربرى من سكانها الأولين وعنصر فينيقي وعنصر زنجي وعنصر يهودي، ويدور الزمن وتستولى روما على قرطاجة، وتبني من أنقاضها قرطاجة جديدة، وتستوطنها أسرٌ رومانية كثيرة، وتضيف القوافل زونجاً جديداً كثيرين إلى البلاد، ويفد عليها منذ سنة ٧٠ للميلاد بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس أسر يهودية كثيرة. ويدور الزمن دورة ثانية وتستولى جموع الرواندال على تونس سنة ٤٣٩ للميلاد، ويظلون بها حتى سنة ٥٣٤ مضيئين إلى البلاد عنصراً ألمانيا جديداً، ويخلفهم البيزنطيون حتى سنة ٦٤٧ مضيئين بدورهم العنصر البيزنطي الإغريقي.

ثم يكون الفتح العربي، وتظل تقدّم إلى القطر التونسي جيوش لإكمال الفتح أو للقضاء على بعض الثورات طوال القرن الأول الهجري، وتخذ ثورات البربر ضد الإسلام والعرب، وتشتمل في القرن الثاني ثورات الحوارج من البربر. وتظل الدولتان الأموية والعباسية ترسلان الجيوش لإخمادها، وكثير من جنود هذه الجيوش استقر في إفريقية التونسية وأصبحت مستقراً له منذ أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان في سنة ٥٠هـ/٦٧٠م فقد سكنها بعض الجنود الفاتحين وأسرههم واتخذوها موطناً لهم ومقراً. وأخذ كثير من جنود هذه الجيوش يسكن في بعض بلدان تونس عاملاً على نشر الإسلام والعربية. وكانت هذه الجيوش تضم عناصر من العرب ومن البلاد الإسلامية المفتوحة: إيران وسكان الرافدين في العراق والشام ومصر وكل هذه العناصر أخذت تمتزج بالبربر في تونس امتزاجاً سريعاً بحكم ما يجمع بينهم من الدين واللغة،

ولم تشارك مصر في هذا الامتزاج بمن كان ينتظم منها في الجيوش العربية فحسب، بل شاركت أيضا في عهد حسان بن النعمان سنة ٧٦هـ/٦٩٥م بألف أسرة قبطية طلبها للمساعدة في تأسيس دار صناعة لسفن أسطوله الذي سيحمى به سواحلها ويغزو جزر البحر المتوسط، وجاءته ووزعها بين تونس ورادس وقرطاجة، ومنذ إبراهيم الأغلب يستكثر الأغلبية في الحرس من الصقالبة، وأيضا من الزوج، وكانوا لعهد إبراهيم أكثر من خمسة آلاف، ولكثرة خيرات تونس وطبياتها وحسن معاملة الإسلام للنصارى واليهود ظل ينزلها منها كثيرون.

وفي منتصف القرن الخامس الهجرى تدخل القطر التونسى جموع الهجرة الأعرابية التي تحدثنا عنها في الفصل الماضى، والتي كانت تبلغ - فيما يقال - نحو نصف مليون، ولا بد أن جماهير كبيرة منهم ألقت عصاها بتونس وبلدانها وسهولها وزروعها حتى لقد أصبحت بلدان مختلفة على الساحل وفي الداخل بأيديهم. وحقا سببت هذه الهجرة الكبيرة غير قليل من الاضطراب في البلاد والفوضى، ولكن ربّ نعمة سببت نعمة، فإن هذه الهجرة أتمت بسرعة تعريب البربر والشمال الإفريقي المغربى جميعه، فإن من كانوا يستقرون في البلاد المغربية من الجيوش العربية الغازية في القرنين الأولين الهجريين كانوا قلة بالقياس إلى جموع البربر العديدة، ولذلك كان تعرب البربر بطيئا، حتى إذا حدثت هذه الهجرة تعرب البربر نهائيا وأصبحوا شعبا عربيا، إذ امتزجوا بالعرب معيشة ومصاهرة، حتى أصبح لا يوجد فرق بين عربى وبربرى، ويصور ذلك ابن خلدون في قبيلة هواة قائلا: إنهم صاروا في عداد الناجعة (الرعاة) بنى سليم في اللغة والزئى وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب». وهكذا الأعراب مع البربر في كل أرجاء المغرب، وفي الحق أن هذه الهجرة الأعرابية الضخمة لم تكن عنصراً جديداً أضيف إلى ما كان بتونس من عناصر، بل كانت شعبا أضيف إلى شعب واندماج فيه وأصبح الشعبان شعباً واحداً. ويستولى النورمان على صقلية سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م.

ويعود إلى تونس كثرة من أبنائها الصقليين ولا تكاد تؤسس الدولة الحفصية حتى تحدث نكية الأندلس الكبرى نكية سقوط مدنها في حجر الإسيان النصارى واحدة إثر أخرى، ويأخذ الأندلسيون في الهجرة إلى المغرب الأقصى، ويتجه كثيرون منهم إلى تونس، ويرحب بهم مؤسس الدولة أبو زكريا وابنه المستنصر، ويفسحان لعلمائهم وأدبائهم في الحركتين الأدبية والعلمية، كما يفسحان للزراع وأصحاب الصناعات منهم، وتأخذ أعدادهم في التزايد طوال القرن السابع الهجرى، وخاصة مع سقوط البلدان الأندلسية مثل إشبيلية وبلنسية، وكان كثيرون من هؤلاء الأندلسيين المهاجرين يرجعون إلى أصول عربية وبربرية، وكان بينهم من يرجعون إلى أصول

مصرية أو شامية أو إيرانية، ممن قدم آباؤهم من آسيا مع الجيوش الفاتحة للأندلس كما كان بينهم مسلمون يرجعون إلى أصول إيبيرية وقوطية وواندالية من سكان إسبانيا القدماء، وكثر نزول هؤلاء المهاجرين الأندلسيين بتونس بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويقال إنهم بلغوا حتى هذا التاريخ نحو مائة ألف أو يزيدون. وفي سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م نفى الإسبان بقية من كان بها من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بذلك، وقدم إلى تونس منهم في سنة واحدة لعهد عثمان داي نحو ثلاثين ألفاً، ورَّحَّب بهم كما مر بنا في الفصل الماضي، وهو ترحيب لا يستحق شكره من أجله وحده بل يستحقه أيضاً قبله التونسيون الذين أتاحوا لهم المعيشة الكريمة بينهم في المدن، حتى كان لميسورهم في تونس العاصمة حيان: حومة الأندلس وزقاق الأندلس، وتأسست للعمال والصنائع قرى ومراكز بالقرب من العاصمة زاولوا فيها صناعاتهم من المنسوجات الحريرية وغيرها، وأنزل القرويون منهم في مناطق خصبة غزيرة المياه شمالاً على ضفاف نهر مجردة. ومن المؤكد أن الإسبان الذين احتلوا تونس نحو أربعين عاماً (٩٤٣-٩٨١هـ) لم يخلفوا وراءهم أسراً إسبانية حين طردهم سنان باشا إلى البحر المتوسط وما وراءه.

وكان الولاية في العهد العثماني يتخذون لهم حاميات عسكرية من الإنكشارية، وكانت تضم تركيا من الأناضول وأجناساً متنوعة من مختلف أنحاء الدولة العثمانية وأسرى جيوشها من الدول الأوربية وكانت تربيتهم جميعاً تربية إسلامية عسكرية، وترسل ببضعة آلاف منهم إلى تونس وبالمثل إلى بعض البلاد العربية، وكانوا يتزوجون من تونسيات فربطتهم بتونس صلات عائلية وثيقة. واتسعت حركة القرصنة حينئذ لسبيين: حذق العثمانيين بالبحارة، وقد استطاع خير الدين (بربروسه) وعروج وأمثالها أن يجعلوا البحر المتوسط في القرن العاشر الهجري بحراً عثمانياً، والسبب الثاني غيظ الأندلسيين المهاجرين من الإسبان والأوربيين الذين كانوا يساعدونهم في الحروب، فكانوا يوغرون صدور البحارة الترك عليهم لياسروهم ويسترقوهم، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر بالآلاف أحياناً، وكان كثير من منهم: إسباناً وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ونورمانا يعتنقون الإسلام وتُرَدُّ إليهم حرياتهم ويكوّنون أسراً ويندمجون في أهل البلاد. وكانوا يتولون في تونس أحياناً مناصب عليا. وهذه العناصر الإفريقية والآسيوية والأوربية المفرطة في الكثرة، منذ أيام الفينيقيين إلى هذا العصر لها دالتان: دلالة أولى على وفرة طبيبات الرزق التي عُرفت بها تونس والتي جعلت كثيراً من الشعوب تتسابق على النزول بها وأحياناً على المكث بها حقبة أو حقبة من الزمن ودلالة ثانية هي ما حملته تلك الشعوب إلى تونس من حضارات كان لها غير قليل من التأثير في حياتها مع الاحتفاظ دائماً بما لها من ذاتية وشخصية.

المعيشة^(١)

عنى القطر التونسي - على مر الأزمنة بالزراعة، وقد أولاهما الفينيقيون والقرطاجيون اهتماماً كبيراً، إذ رأوها تنتج وفرة من حبوب وبقول متنوعة، وقد حملوا إليها من موطنهم شجرة الزيتون، وربما أيضاً الكروم والتين واللوز، ويدل - في وضوح - على اهتمامهم بالزراعة أن أقدم كتاب عالمي فيها وفي غرس الأشجار ألفه عالم قرطاجي يسمى ماجن Magon وأن الرومان نقلوا عن قرطاجة هذا الكنز الزراعي النفيس إلى لغتهم حين استولوا عليها سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وعُنوا - مثل القرطاجيين - بالزراعة وحفروا لها القنوات لجلب المياه، وأقاموا بها الصهاريج والخزانات والأحواض، مما لا تزال شواهد قائمة في إفريقية التونسية. وظل أهلها في العهود الإسلامية يعنون بالزراعة، فهي معاشهم، ومنها قوتهم وزادهم. وقد عُنِيَ بها الأغلبة عناية كبيرة، وبما يدل على ذلك أنهم كَوَّنوا لرى الأراضى وجلب المياه وتخزينها في الصهاريج وتوزيعها في السقايات إدارة كبيرة، عَيَّنوا لها مشرفاً سموه «صاحب المياه» واستغلوا في ذلك كل ما خلفه القرطاجيون والرومان والبيزنطيون في البلاد مع ما أضافوه من قنوات ودواليب وأحواض وخزانات جديدة، مما جعل البلاد التونسية تلقى في حجورهم بكل ما تستطيع من طيبات الثمار، وتزدهر فيها الزراعة وغرسة الأشجار ازدهاراً لعلها لم يبلغاه في عصر من العصور، وأخذت البلاد تعيش في بُلْهنية من العيش، وأخذ الأغلبة يجنون منها أموالاً طائلة، ساعدتهم مساعدة عظيمة في بناء أسطولهم الذي فتحوا به صقلية ومالطة، كما ساعدتهم لا في بناء قصر أو قصور فحسب، بل في بناء مدينة هي العباسية ومدينة ثانية هي رقادة التي زارها أبو عبيد البكري، فقال في كتابه المسالك: «ليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرق نسيماً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة، ويذكرون أن من دخلها لا يزال ضاحكاً مستبشراً من غير سبب»: مدينتان كبيرتان بنتها دولة الأغلبة التي أظلت البلاد التونسية قرناً من الزمان بفضل ما جنت من خيراتها. وإذا تركنا شمالي تونس إلى الداخل لقيتنا مدن في السباسب والواحات كثيراً ما نوه بها جغرافيو العرب ورحَّالتهم لما بها من البساتين المثمرة والكروم والمشمش والتين

إفريقيا وتونس لابن أبي دينار وكتاب ورفات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب.

(١) راجع في المعيشة المسالك لأبي عبيد البكري ورحلة التجاني والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان والمؤنس في أخبار

واللوز والفسق، ويقولون إن بها غدراً وأباراً كثيرة. وبعض الجهات - وخاصة في النواحي الشرقية - مغازات شاسعة تنمو فيها الأعشاب والحشائش وترعاها قطعان الغنم والأبقار والإبل والخيل.

وظلت الزراعة مزدهرة في عصر الدولة الصنهاجية حتى منتصف القرن الخامس الهجري، وأصابها غير قليل من الانتكاس مع الهجرة الأعرابية، حتى إذا كانت الدولة الحفصية وأخذ يعم الأمن والاستقرار في البلاد بعد حركات قراقوش وابني غانية عادت الزراعة في البلاد إلى الازدهار بفضل عناية مؤسس الدولة أبي زكريا بشئون الري وعناية ابنه المستنصر، ويقول ابن أبي دينار إنه أكمل بناء الحنايا والقنوات التي كان يجري عليها الماء إلى مدينة قرطاجة في الزمن الأول (لأيام القرطاجيين والرومان) وأصلح ما فسد منها، وأجرى الماء عليها من عيون جبل زغوان في الجنوب الغربي إلى تونس وجناتها وزروعها وسقاياتها وجامعها الكبير: جامع الزيتونة. وينوه الحسن الوزان بما شاهد حول تونس في القرن العاشر الهجري من زروع وبساتين قائلا: «توجد في خارج تونس مزارع غاية في الإبداع تنتج فواكه رائعة بكميات قليلة ولكنها في غاية الجودة، وهناك عدد لا يُحصى من البساتين المزروعة بالبرتقال والليمون، وبالورود وبزهور جميلة أخرى، وفي المكان الذي يدعى البارود على الخصوص توجد البساتين والقصور الفخمة». وينوه ابن أبي دينار في زمنه أوائل القرن الحادي عشر الهجري ببساتين تونس وبساتينها، ويقول إن من رأى ثمارها وفواكهها يعجزه الوصف إذ لا تدخل تحت حصر» ويقول أيضاً: «يدخل إليها في فصل الخريف أزيد من ألف حمل من العنب بخلاف ما يباع معه من تين وبطيخ وغيرهما». وبدون ريب كان للمهاجرين الأندلسيين إلى تونس فضل كبير في هذا الازدهار منذ عصر الدولة الحفصية، وازدادت الزراعة ازدهاراً حين ازداد المهاجرون منهم زيادة مفرطة في سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م وما بعدها لعهد الداى عثمان والداى يوسف كما مر بنا في الفصل الماضى، ويقال إن عددهم بلغ حينذاك أكثر من مائة ألف، وقد استقر كثيرون منهم - كما أسلفنا - في المناطق الخصبة الشمالية حول نهر مجردة، ونزل بعضهم في أماكن صعبة بسفوح الجبال، واستطاعوا - بجدهم - أن يحيلوا كل ما نزلوا فيه واستقروا به إلى جنات وزروع وقنوات وعيون. وتلقانا أشجار الزيتون والبرتقال واللوز والفسق في كل مكان كما تلقانا أشجار النخيل، وخاصة في الواحات ومنطقة شط الجريد. ويبدو أن الرومان تغلغوا مع القوافل التجارية إلى هذه المنطقة وظل كثيرون منهم فيها بعد الإسلام لا قرناً بل قرناً متطاولة، حتى لرى التجانى الذى زارها في أوائل القرن الثامن الهجرى يقول في زيارته لها التى سجلها في رحلته: «إن أهل توزر (غربي شط الجريد) وأكثر بلاد الجريد من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح الإسلامى» ويقول إن بعضهم كان لا يزال يتكلم اللاتينية.

وعرف القطر التونسي مختلف الصناعات - وخاصة اليدوية - من قديم كالتجارة والحداثة وعصر الزيتون واستخراج المعادن. وكان بها معادن كثيرة مثل الرصاص والحديد والزنك والزرنيق والفضة والذهب أتاحت للقطر موارد مالية غير قليلة، حتى لثرى الأغلبية بخصوصها بإدارة يسندونها إلى موظف سموه: «صاحب المعادن» واشتهرت «قرطاجة» في غربي القطر بما كان يستخرج فيها من معدن الحديد، مما هَيَأَ لصناعات حديدية مختلفة مثل الأقفال والمفاتيح والأبواب والنوافذ، واشتهر «طُرَّة» من إقليم نفزاوة في الجنوب الشرقي للقطر بمعدن الكارتز، وهَيَأَ بدوره لصناعات زجاجية وبلورية. ومن أهم الصناعات صناعة الخزف مطليا وغير مطلى وما يتصل بها من الآنية والأباريق والكيزان والمواعين، ويقول ابن أبي دينار في فواتح كتابه «المؤنس»: «تُصنع بتونس آنية للماء من خزف شديد البياض في نهاية الرقة والشفافية لا يُعَلَّم له نظير في سائر الأقطار». ومن الصناعات صناعة دبغ الجلود وكان ينتفع بها في صناعة السروج. ومن الصناعات عصر الزيتون في معاصر كثيرة معدة له، وتونس تشتهر بهذه الصناعة منذ عصر الرومان، وكانوا يرسلونه إلى روما في مواعين كبيرة، ويدل على كثرة معاصره في الحقب الاسلامية ما يذكره ابن أبي دينار وهو أن أبا يزيد مخلد بن كيداد - حين زحف على إفريقية التونسية في عهد الخليفة العبيدي القائم بأمر الله ودخل القيروان وتونس - نهب اثني عشر ألف جابية زيتا. ويقول الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقية الذي سَجَّل فيه زيارته لتونس: «على مسافة أربعة إلى ستة أميال حول تونس تنتشر مصانع عديدة لإنتاج الزيت لا لتعوين مدينة تونس فحسب، بل للتصدير كذلك، ويُصنع من حطب الزيتون فحم يستخدم في المدينة، ويستعمل جزء منه في التدفئة».

وكانت صناعات المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والكتانية منتشرة في تونس وغيرها من بلاد القطر التونسي، ويقول أبو عبيد البكري في كتابه المسالك عن النسيج بمدينة سوسة: «الحياكة بها كثيرة ويُغزل بها غزل تباع زنة المنقال منه بمنقالين من ذهب». وبنوّه الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري بما كان من النسيج في تونس وصناعته قائلا: «غالبية سكان تونس من الحياكة (النساجين) وتصنع فيها كمية كبيرة من الأقمشة المتقنة كل الإتقان والتي تباع في كل إفريقية، وهي مرتفعة السعر كثيرا لأنها ناعمة وممتينة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن النساء يتقن مهنة الغزل كل الإتقان» ويرجع بنا الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إلى مدينة رقادة في عهد الأغلبية قائلا: «كان بها دار الطراز وكانت مصنعا تنسج فيه الأكسية من الحرير والقطن والصوف، وكذلك العمائم والأحزمة إلى غير ذلك من الخلع التي يهبها الأمير (الأغلي) في الأعياد وعند تقليد المناصب لأعيان الأمة ورجال الدولة، وكانت تُكْتَبُ على هذه الخلع كتابات موشية يخيط الحرير والذهب، وهي تقوم مقام الأوسمة في عصرنا الحديث».

ولا بد أن الصناع كانوا يوشون ثياب النساء بهذه الخيوط وبخيوط أُخرى فضية لتكمل زينتهن بما لها من لمعان وبريق.

وكان الصانع التونسي يعنى بزركشة ماينسج من السجاجيد وخاصة للأمرء وأعيان البلاد، وكان يرسم عليها بعض الحيوانات أو بعض البلاد، ويذكر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أنه صنَّع للمعز الفاطمى قبل تحوله إلى القاهرة مقطع كبير رائع من الحرير الأزرق الملون المنسوج بالذهب وقد رُسمت فيه صورة الأرض بكل ماتشتمل عليه من الأقاليم والمدن والأنهار والجبال وصورة الحرمين الشريفين. ولعل في عرضنا لذلك كله ما يدل على الرقى الحضارى الذى نعمت به تونس قبل العصر الحديث، وكانت الأخشاب فيها وافرة مما هيا للفتنن في صناعة الأثاث، كما هيا الزجاج والحزف للفتنن في صناعة الموعين والحرير والصوف والقطن والكتان للفتنن في الرياش وكل ما يلزم القصور والمنازل من فنون الزينة والزخرف .

ومن الصناعات التى كانت مزدهرة بتونس الوراقة أو صناعة الورق والكتابة فيه، ومعروف أن بغداد لم تعرفه إلا في عصر الرشيد، وقبل ذلك كانت الكتابة في الرق أو الجلد المهيا للكتابة وكذلك في البردى الذى كانت تستخدمه مصر منذ عصور الفراعنة، وهو نبات كانت تضم أوراقه الطويلة بعضها إلى بعض بطريقة خاصة، فيصبح صالحا للكتابة فيه. وكان القطر التونسى يجلب النوعين من المشرق وكان اعتماده الغالب على الرقّ وجلب معها الأقلام والمداد. وتعرف على صنعها، حتى إذا فتحت صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٨م وكان بها بردى كثير أخذوا - كما يقول ابن حوقل - يفتلون أكثره حبلا للسنن» وأقله كان يصنع طوامير أو صحفا لدواوين الأمير الأعلى ومن تلاه من حكام القطر التونسى، وأخذ الشعب التونسى يحسن صناعة الورق من الكتان ويسمى الكاغد نفس اسمه الذى نقله العباسيون مع الورق من الصين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن صناعته انتقلت من تونس إلى صقلية وعبرت صناعته مضيق مسينا إلى سالرنو فنابولي، فألمانيا حيث استطاع جوتنبرج بعد قليل اختراع الطباعة، وبدهى أنه لولا الورق ما اخترعت المطبعة. ومن الممكن أن تكون أوروبا عرفت الورق ونقلت صناعته عن الأندلس، غير أن الأستاذ عبد الوهاب يرجح معرفتها به عن طريق تونس وصقلية.

ومنذ فتح العرب القطر التونسى تبنى فيه المنشآت العمرانية وتشاد، ولا يشاد بناء مفرد أو قصر مفرد، بل تشاد مدن، بدأ ذلك عقبه بن نافع ببناء القيروان، وبنى تونس بعده بقليل حسان ابن النعمان، وبنى الأغالية العباسية ورقادة، وأحالوا قرية سوسة على الساحل مدينة وقرى ضحبا، وبنى عبيد الله المهدي مدينة المهدي وجعلها دارا لحكمه وقرى لأسطوله، وأحال حفيده المنصور قرية صبرة بجوار القيروان إلى مدينة وسماها «المنصورية» نسبة إليه. وكانت المدينة

من تلك المدن حين بُنِيَ لا يُقَصَّر فيها على قصر للحاكم، بل كانت تبني فيها قصور ومساكن لآل بيته ولجنده وحاشيته ودواوينه، ويبني فيها جامع كبير ومخطط شارعان متعامدان يقام عليهما حوانيت للصناع والتجار ومساكنهم، فهي مدينة كاملة. وكانت هذه المنشآت - بل المدن - العمرانية تحتاج إلى مالا يكاد يحصى من العمال والصناع، إذ لا بد لها من يقطعون الأحجار ومن يقطعون الرخام وينحتونه أعمدة للقصور وكذلك للمحارس والحصون التي كانت تشاد على طول الساحل التونسي باسم رباطات.

وكان يُبنى حول كل بلدة جديدة - وقد بُنِيَ حول بعض البلدان القديمة - سور ضخم لكي يحميها من الأعداء حين يهاجمونها وتقام فيه أبواب كبيرة مصفحة بالحديد. ولم يكن العمران حينئذ مدنا ومعامل وحصونا فحسب، بل كان أيضا صهاريج وأحواضا كبرى لسقاية الزروع والمساجد والشعب. وكل ذلك استلزم صناعات كثيرة من حدادة ونجارة وغير نجارة وحدادة سوى النقاشة واستخدام الفُسْفُساء (الموزايكو) في حيطان الغرف والسقوف والأروقة المختلفة الرسوم بما يترأى فيها من الأزهار والرياحين والمناظر البديعة، وزخرفوا بالفسيفساء أحيانا صهاريج الماء وأحواضه. وكان الحكام يبنون لأنفسهم قصورا شامخة على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي من تشييد أبي فارس لقصره الضخم في إحدى ضواحي تونس المسماة باردو، وتوالت في الضاحية قصور للحكام من الحفصيين والعثمانيين كانت تبهر من يراها فضلا عن يزورها ويرى منحوتاتها ونقوشها البديعة. وحتى المنازل العادية للشعب كان أصحابها يتأنقون فيها، يقول الحسن الوزان عن منازل تونس: «لأكثر المنازل منظر بديع، وهي مبنية بحجارة مجهزة وجيدة النحت، وسقوفها مزدانة كثيرا بالفسيفساء وبالجص المجزّع، مع فن رائع، ومزوّقة باللون الأزرق وبألوان زاهية أخرى.. وتبلط الغرف بمربعات من بلاط مطليّ بلون فاتح كما يبلط الصحن أيضا ببلاط مطليّ بالدهان. وبيوتها على العموم - وحيدة الطابق - ولها مدخل بديع.. ويلجأ كل واحد إلى جعل مدخل بيته أكثر أناقة وأكثر زينة. وبجانب منازل المدينة وقصورها كانت هناك دور صناعة خاصة بالأساطيل وحاجاتها وإعدادها في تونس وسوسة والمهدية، واستلزمت كثيرا من الخشب والحديد لصنع سفن الأسطول وأيضا من الحبال ونسيج الكتان لسراعات السفن وقلاعها، وبلغت سفن الأسطول في عهد الأغالبة ثلاثمائة سفينة، سوى ما كان يحتاج إليه الأسطول من الأسلحة والعتاد الحربي من مثل السيوف والرماح والأقواس والسهام والمنجنيقات وآلات هدم الأسوار، سوى بناء الأحواض الواسعة في الثغر لخدمة السفن.

وهذا الإنتاج الصناعي الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعي الكثير هيأ تونس - منذ عصر القرطاجيين - لأن تصبح سوقا عالمية كبرى، فكانت ترسل بمنتجاتها شمالا إلى شعوب

البحر المتوسط الأوربية وشرقاً إلى مصر والشام وتركيا وغرباً إلى الجزائر ومراكش وإسبانيا وغربى أوروبا حتى إسكندناوة، ومنذ عصر القرطاجيين كانت قوافلها تتغلغل في فلولات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربي محملة بالسلع التونسية من الزيتون وزيتته والنقل ومن المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية ومن السروج واللبود وأقفال الحديد والمفاتيح والإسفينج الذى يصاد على الساحل والملح المطحون الذى يحمل من ملاحات تونس الكثيرة، وتعود محملة بالجلود وريش النعام والعاج أو ناب الفيل والتبر والرقيق الأسود الكثير. وذكرنا في الفصل الماضى أن إبراهيم بن أحمد الأغلبى استكثر من هذا الرقيق الزنجى في حرسه حتى بلغوا عشرة آلاف عدداً، ومنذ الأزمنة السحيقة كان يظل كثيرون من هذا الرقيق في القطر التونسى مما جعل لهم فيه - من قديم - بعض القرى. وطبيعى أن تنشأ في كل بلد تونسى سوق داخلية يشتري منها أهله ما يحتاجون إليه من الحبوب والشمار والخضر والصناعات المختلفة. وأول من أمر بتنظيم هذه الأسواق في القطر التونسى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤هـ) يقول أبو عبيد البكرى: «كان السَّمَاط - وهو سوق القيروان - متصلاً (أى دكاينه متلاصقة) فيه جميع المتاجر والصناعات وهو الذى أمر بترتيبه هكذا». واتبعت الأسواق في تونس وغيرها هذا النظام، حتى إذا كان عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٦ - ١٧٠هـ) رتب أسواق القيروان. عاصمته ترتيباً جديداً، وفى ذلك يقول ابن عذارى في البيان المغرب: «قد مهَّد أمور لبلاد، ورتب أسواق القيروان، وأفرد لكل صناعة مكاناً». ومعنى ذلك أنه جعل لكل صنعة مجموعة من الدكاكين خاصة بصناعتها وبيعها، ومحدثنا الحسن الوزان عن سوق تونس حين زارها، ويذكر أن أهم الأمكنة في سوق تونس مكان تجار المنسوجات، يقول: «وهناك سوق خاص في تونس يحوى عدداً كبيراً من تجار القماش، ويعد هؤلاء أكثر أهل المدينة ثراء، ويشغل تجار آخرون وصناع معهم هذا السوق كالعطارين، وباعة الأشربة والترياقات، وباعة العطور والحريير، والحياطين والسراجين (باعة السروج) والفرّائين (باعة الفراء) وباعة الفاكهة، والحلابين، وصناع الزلابية (حلواء) والقصّابين (الجزارين) الذين يذبحون في فصل الربيع والصيف من الخراف أكثر من سائر الحيوانات الأخرى، وثمّ مهنّ كثيرة أخرى تمارس في هذا السوق لا يتسع المقام لذكرها».

الرّفه - المطعم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة

(أ) الرّفه^(١) - المطعم والملبس

مما يميز القطر التونسي كثرة الأمتعة والسلع والثمار والفواكه فيه، مما أتاح له - وخاصة في مدته الشمالية حياة راقية، ويصور ابن أبي دينار ما كان فيه أهل مدينة تونس من رفاة في حياتهم بأن أغلبهم كانت لهم جنات وبساتين خارج المدينة، يقضون فيها الصيف والخريف مع أسرهم، فكانوا يكرّون في الذهاب إلى المدينة كل يوم حيث يزاولون أعمالهم ويعودون في المساء إلى بساتينهم وجناتهم ومن أجل ذلك كانت الدكاكين في أسواق تونس لا تفتح صيفا وخريفا إلا بعد طلوع الشمس.

ويقول الحسن الوزان إن الخبز ظريف جدا في تونس، وهو أبيض اللون ومخبوز بشكل حسن، ولا يُصنع من الدقيق فحسب بل يمزج معه السميد، وتبذل عناية كبيرة في إعداد عجينه إذ يضرب بمدقة شبيهة بتلك التي يضرب بها الأرز في مصر. ويذكر الحسن الوزان عقب ذلك وجبتين شعبيتين أولاهما تسمى البسيس، وهي وجبة خفيفة مؤلفة من دقيق الشعير المحلول بالماء ويوضع فيه قليل من الزيت أو شيء من عصير الليمون أو البرتقال، ومن عادة الباعة والصناع وسكان المدينة تناول هذه الوجبة في النهار، والوجبة الثانية تسمى البازين، وهي أفضل من سابقتها، وتُصنع من عجينة تُقلى في الماء، وبعد أن تنضج تُرصّ في وسط وعاء وتُسقى بالزيت أو بمرق اللحم. ويقول الحسن الوزان: هناك وجبات أخرى أكثر لذة في الطعم، ومن مطاعمهم لحم يسمى المروزية نسبة إلى مدينة إيرانية تسمى مرو الروز واللحم فيها يطبخ بأبزار تفوح، ويعدون أكلها عقب الإفطار في الصوم من التطيب. ومن طعامهم الزرير ويسمى في بعض البلدان باسم المويس وهو خليط من الأبزار والبهارات حار الطبيعة. ويصاد السمك على طول الساحل التونسي، وهو رخيص الثمن، ويصطادون منه أنواعا كثيرة منها نوع يسمى سبارس يصاد في صفاقس، وقد تكون الكثرة من سكان البلدة صيادين. ويشتهر سكان مدينة المهديّة بصيد الحوت، ولأهلها شغف بأكله وتفنن في طرق صيده. وكما تتنوع مطاعم سكان القطر

(١) الحضارة العربية بإفريقية للأستاذ حسن حسني
عبد الوهاب وبرنشفيك ٢٨٧/٢ وما بعدها.

(١) انظر في الرّفه والمطعم والملبس الحديث عن مدينة تونس في كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وراجع في صفاقس، وكذلك كتاب ورقات عن

التونسي تتنوع حلواؤهم، ومنها المقرروض ويقول برتشفيك إنه يصنع من السميد والتمر والعسل والبهارات ويقلى في الزيت وينوه به ابن أبي دينار، ويقول: هو أطيب حلوائهم وليس بعده شيء، ومنها الزلابية وهي حلواء من عجين رقيق يصب في الزيت ويقلى ثم يصب في محلول السكر، ومر بنا - منذ قليل - أنه كان بتونس سوق خاصة للزلابية.

وإذا تركنا المطعم إلى الملبس وجدنا الحسن الوزان يقول: «أهل تونس طيبون للغاية ومحبيون كثيراً، ويلبس صناعاتها وتجارها وأئمتها وجميع موظفيها هنداماً جميلاً لائقاً، ويضعون فوق رؤوسهم قلنسوة مغطاة بقماشة طويلة، كما يضع العسكريون وموظفو البلاط قلنسوة على رؤوسهم ولكن بدون قماشة. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب كانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء ويكتسبون القشايبة الصوفية. أما السيدات فيقول عنهن الحسن الوزان: إن لسيدات تونس هنداماً جيداً، وعندما يكن في الخارج يسترن وجوههن.. بوضع عصابة عريضة جداً من قماش فوق الجبين، وهناك حجاب آخر يدعى سفسارى يجعل من رؤوس النساء رؤوساً ضخمة كبيرة، ولا تعنى النساء إلا بزيتتهن وعطرهن، بدليل أن باعة العطور هم دوماً آخر من يعلق دكاكينهم» ولا بد أنهم كن يعنين بجواهرهن وكانت في تونس سوق لبيع الجواهر للنساء كى يكملن بها زينتهن. ويفصل القول فيما كان من تزيين النساء في ملابسهن لذلك العصر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب قائلاً: «أهم ما ورتت النساء عن أمهاتهن بالمهدية في ذلك العصر أنواع من الكساء والتطريز بالحرير على الثياب الداخلية مثل القمجة وغيرها، ومنها أنواع من الوشاح والحواشى الحريرية المزركشة بألوان متغايرة، ومن هذه الحواشى تحلى صدور بعض الثياب النسائية، وهي تحفة فنية». ويقول في موضع آخر عن حجاب النساء في الساحل التونسي إنهن عند خروجهن من بيوتهن يرتدين إزاراً أسود ولا يتركن ظاهراً من وجوهن إلا العيون.

(ب) الأعياد

كتب ابن أبي دينار في كتابه: «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس» فصلاً^(١) طريفاً عن الأعياد في تونس وأن أهلها كانوا يخرجون فيها للنزهة والتملى بمواطن الجمال في ضواحي تونس، ويستهلها بعيد عاشوراء في اليوم العاشر من المحرم، وفيه ينفق التونسيون أموالاً طائلة في الأطعمة والفواكه والحلواء، وعادة في اليوم التاسع السابق له يطعمون الدجاج ويتحلون بالدودة وهي مثل الكثافة عند المصريين ويعبرون عما يأكلون من ذلك بقولهم: «الفطير

(١) انظر الفصل في أواخر كتاب المؤنس في أخبار

إفريقيا وتونس لابن أبي دينار.

وما يطير» وما يطير الدجاج والفطير الدويدة. ومن رأى هذا العيد في تونس رأى العجب، فالحوانيت - وخاصة حوانيت الفواكه - تزين. وعادة يخرج الناس زكاة أموالهم في هذا اليوم، ولذلك يتكاثر فيه الإنفاق على المآكل والمشرب، وكل ينفق بقدر استطاعته ويبيع من آلات الطرب والملاهي للصبية ما يفوت الحصر.

ومن ذلك عيد المولد النبوي الشريف لسيد الكائنات ﷺ، وأول من عنى بإقامة الاحتفال به بين حكام الدولة الحفصية أبو فارس عبد العزيز في مطلع المائة التاسعة للهجرة، وأصبح ذلك تقليدًا سنويًا في ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول كل عام إذ تودق القناديل وتضاء الشموع وتزين المكاتب ويقام احتفال عظيم بدار نقيب الأشراف يحضره القراء والفقهاء والناس من أطراف البلد ويتعالى الغناء والأشعار والأناشيد بالمدائح النبوية، ويظل الاحتفال بهذا العيد في بعض زوايا تونس خمس عشرة ليلة متوالية تنشد فيها مدائح الرسول الكريم، وهُرعُ الناس للتفرج. وتُصنع في أثناء ذلك الأطعمة الفاخرة احتسابًا لوجه الله تعالى وقربى لحبيبه خير البرية.

ومن ذلك عيد الربيع أو عيد النيروز في أول مايو من كل عام، ويقول ابن أبي دينار إنهم كانوا ينفقون فيه أموالا تفوت الإحصاء ويتفخرون بصنع أطعمة باهظة التكاليف من مثل المرقاز، ويقول برتشفيك إنه نوع من التفائق، ويكثرون من شراء الفواكه والرياحين والبقول، ويقول إن ما يباع في هذا اليوم من الفواكه والخضار والرياحين يبلغ مقدار ما تشتريه تونس في عام، ويذكر أنهم يجعلون من ذلك حوانيت في منازلهم يعلقون فيها جميع البقول والرياحين، ويقول إنهم يتجاوزون ذلك إلى الغناء وآلات الطرب فيجتمعون عند مكان يسمى بالوردة، وفيه يحتشد أهل الخلاعة والمجون من مغان ومطربين ومشعوذين، ويذهب كثيرون من أهل تونس للفرجة عليهم وشراء ما يُعرض من فاكهة وحلوى.

ويذكر ابن أبي دينار أنه كانت تقام أعياد في ليلة النصف من رجب والسابع والعشرين منه وليلة النصف من شعبان والسابع والعشرين منه. وكانت ليالي شهر رمضان تُعدُّ عيدًا كبيرًا، وكانوا يحتفلون بها غاية الاحتفال ويقومون بواجب رمضان وواجب حقه أتم القيام، ويحتم الإمام القرآن العظيم في صلاة التراويح بأغلب المساجد. وكان يقام احتفال كبير حين يحتم صحيح البخاري، ويذكر ابن أبي دينار أن المنادي كان ينادي في سوق تونس بأن الحتم لصحيح البخاري غدًا صباحًا أو عشية فيتسارع النساء والصبان والخواص والعوام لذلك. وكان هذا نفسه يحدث في القاهرة حين تحتم قراءة صحيح البخاري في الليالي الأخيرة من رمضان.

(ج) الموسيقى^(١)

عقد الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى الجزء الثانى من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية» مبحثاً طويلاً راعياً عن الموسيقى وآلات الطرب فى القطر التونسى ذكر فيه أنه ليس لهذا القطر مآثور قديم ذو بال فى الموسيقى، وأنه يتصل فيها مباشرة بالعرب. وقد عرف عن الفاتحين الأولين طريقة الحداء التى اشتهر بها العرب من قديم، حتى إذا تولاه المهالبة وخاصة يزيد بن حاتم (١٥٤ - ١٧٠هـ) استحال القيروان إلى مركز نشاط أدبى بمن استقدمهم معه من الشعراء والمغنين من بغداد، فُعرفت من حينئذ بالقطر التونسى آلات الطرب مثل الطنبور والمزاهر (الدفوف) وشبّابات القصب. وازدادت فى القيروان المعرفة بالغناء وآلات الطرب حين نزل بها زرياب على زيادة الله الأعلى سنة ٢٠٥ وظل لديه أشهراً قبل رحلته المشهورة إلى قرطبة، وزيادة الله يستمع إلى ألحانه. ويُظن أنه أخذت بعض الجوارى فى القصر عنه شيئاً من تلاحينه، وما نلت أن نسمع بأن فى القيروان حياً خاصاً للملاهى والطرب، يقصده أهلها للفرجة وكان مجمعا للمغنين والضارين على الآلات الموسيقية، وكان أهل الخلاعة والمجون يختلفون إليه، ويذكرون من أساء المغنين فيه قاسماً الجوعى وأبا شرف. ونمضى إلى أيام إبراهيم بن أحمد الأعلى (٢٦١-٢٨٩هـ) فنجده يرسل سفارات متعددة إلى المشرق لتجلب إليه صفوة من العلماء والموسيقين ليحدث فى رقادة - التى شادها بجوار القيروان - نهضة علمية وموسيقية، وجلب إليه من بغداد مغن اسمه مؤنس، لئن غناه جوارى القصر فى رقادة عاصمة الأغالبة وهو يقوم فيها مقام زرياب فى قرطبة عاصمة الأمويين، وجلبت لزيادة الله الأصغر آخر الأغالبة جوارٍ يحسن الغناء من بغداد. ويتكاثر هؤلاء الجوارى المغنيات كما يتكاثر المغنون أو قل يأخذون فى التكاثر لعهد العبيدين، وتتسع الموجة فى عهد الدولة الصنهاجية وما كان فى قصورها من مجالس الأناس ويشترك فى الغناء غير تونسى يتقدمهم عبد الوهاب حاجب المنصور الأمير الصنهاجى (٣٧٤ - ٣٨٦هـ) وكان شاعراً ويتغنى فى شعره ويلحنه، ويتحدث مراراً مؤرخ القيروان إبراهيم الرقيق عن مجالس غنائه. ويفد على يحيى حفيد المعز بن باديس فى عاصمته المهديّة (٥٠١ - ٥٠٨هـ) أمية بن أبى الصلت الشاعر الأندلسى، وكان متقناً لعلم الموسيقى الأندلسية، فنقل إلى المغنين فى المهديّة ألحان المغنين فى الأندلس، ولحن لهم - على أساسها - الأغانى الإفريقية، ومن حينئذ أخذ الغناء فى إفريقية التونسية وما يصحبه من موسيقى يزدهران، وما لبثت الهجرات الأندلسية المارة بنا - فيما أسلفنا -

وما به من مراجع ويرتشفيك ٤٣٢/٢ وما بعدها
ووصف إفريقيا للحسن الوزان ص ٤٥٣-٤٥٤.

(١) انظر فى الموسيقى الجزء الثانى من كتاب
ورقات عن الحضارة العربية فى إفريقية التونسية

لعهد الدولة الحفصية أن زادت بها ازدهاراً. ومما يدل على هذا الازدهار في العهد الحفصي أنه كان للجيش فيه فرقة موسيقية تصحب أمير البلاد الحفصي في حفلاته وتنقلاته تمشي وراء الأعلام السلطانية تدق الطبول وتتفخ في البوقات، وذكر برنشفيك أن السلطان أبا فارس الحفصي (٧٩٥-٨٣٣هـ) ألغى ضريبة كانت تؤخذ من الموسيقيين والمغنيات المحترفات، وأهدى ملك نابولي آلة أورجن إلى ابن السلطان عثمان سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م ويذكر الحسن الوزان أن السلطان الحفصي أبا عبدالله بن الحسن الذي زار تونس في عهده سنة ٩٢٢ للهجرة كان يعيش بين المطربين والمطربات في قصره وبساتينه. ولا يعنى الولاة العثمانيون بالموسيقى إلى أن تولى رمضان باي (١١٠٨-١١١٠هـ) إذ كان خبيراً بأنواع الموسيقى ذات الأوتار وذات المزامير، وكان عارفاً للألحان ولوعا بالغناء، وجلب من بلاد النصارى الآلة الموسيقية المعروفة باسم الأورجن وكان مغنيه «مزهود» يطربه بتلاحينه عليه.

وتزدهر الموسيقى بتونس في العهد الحسيني العثماني منذ عهد الباي محمد الرشيد (١١٦٩ - ١١٧٢هـ) وكان يتقن النظم بالشعر العربي، كما كان يتقن الضرب على مختلف الآلات الموسيقية مثل العود والكمنجة، وجعله ولعه بالألحان والإيقاعات يؤلف بين الأغاني الأندلسية المعروفة في تونس باسم المؤلف والألحان التركية. وقد أدخل فيها من تلك الألحان البشرف وهو افتتاح اللحن واستهلالة. وكان للبايات احتفال موسيقى يقيمونه ليلة العيد في باردو، وكان أشبه بموكب موسيقى كبير، ويحضر فيه كبار الفقهاء، فإذا صُلّي المغرب مُدَّ سماط بأنواع الأطعمة وألوان الحلوى، ويجلس الباي في صدر السماط وتتوالى طبقات المدعويين، وبعد برهة يجلس الباي ببهو، ويجلس عن يمينه وشماله الفقهاء والكتّاب، ويصطف باقي الناس صفين عن اليمين وعن الشمال، وتوقد الشموع ويؤتى بالمجامر يفوح منها الطيب والمسك، ثم يدخل المغنون من الترك بآلاتهم فيغنون باللسان التركي برهة ثم يخرجون ويدخل بعدهم المطربون والمغنون بالغناء العربي. وظلت هذه المواكب تعقد في مواسم الأعياد بباردو حتى نهاية هذا العصر.

وبجانب هذه الحركة الغنائية عند سكان الحضر، وخاصة في تونس كانت هناك حركة غنائية بدوية عند أهل الوبر التونسيين حملها إليهم - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - بنو سليم وبنو هلال في هجرتهم الكبيرة، إذ ظلوا يحافظون على أغانيهم التي ورثوها عن أسلافهم في بوادي نجد والحجاز، وقد لقنوها في بوادي تونس بعض عبيدهم وأرقائهم من أصحاب الأصوات الشجيّة، لينشدوها في الأعراس مصحوبين بعازفي الشبابات وضاربي الطبول. ويقول الأستاذ عبد الوهاب إن لهم عزفاً يسمى طرُق الصيد أي صيد الأسد، يُعزف به على الشبابة البدوية، وفيه يقصون أقاصيصهم الغرامية في وصف رحلاتهم مع محباتهم.

ويتخلّلون مقاطع الأقصوصة بطرّق حوافر الخيل للأرض ونبح الكلاب ووزير الأسد، للدلالة على تطور الأحداث في القصة أو في الرحلة الغرامية فراراً من الأهلين لعدم رضا الأب عن زواج المتحايين، وكأنهم يتمثلون فيها قصص الغرام النجدية التي كان يحرمّ فيها الأب النجدى الزواج بفتاته أو ابنته على من يتغزل بها من شباب القبيلة كما هو معروف في قصة ليلى العامرية وعاشقها ابن عمها قيس المجنون بها غراما وهياما.

(د) مكانة المرأة^(١)

مرّ بنا في حديثنا عن الملبس في القطر التونسي أن النساء في تونس والمهدية كن يبالغن في العناية بزيتتهن وعطرهن وهندامهن، ولا نريد أن نعرض لذلك وما يمثله مما يتصل بمظهرهن، إنّا نريد أن نقف عند مدى إحساسهن بكرامتهن، ويصوّر ذلك بوضوح ما يروى من أخبارهن، فمن ذلك ما تذكره الروايات عن أبي جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية فإن هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) كان قد أقام عيونا على أسرة إبراهيم بن محمد حفيد عبد الله بن العباس وإخوته لما كان يبلغه من نشاطه ويعرفه فيه من الحزم وبعد النظر أو لعله كان يتوقع من أبناء الأسرة أن يفكر أحدهم في الثورة على خلافتهم الأموية، ولم يوعز إلى عيونه بتعقب إبراهيم بن محمد وحده بل أيضاً بتعقب أخويه السفاح وأبي جعفر المنصور ويبدو أن المنصور رأى أن يتعد - لفترة - عن أنظار هؤلاء العيون، واختار القبروان لنزول بعض أقربائه فيها وتصادف أن رأى في مقامه لديه فتاة تسمى «أروى» أعجب بها، فطلب يدها فاشترطت عليه أن لا يتخذ معها سرارى أو جوارى، وإن تسرّى عليها كانت عصمتها بيدها، وانفصلت عنه، كما تجرى بذلك عادة القيروانيات من قديم، وقيل أبو جعفر شرطها، وعاد بها إلى أهله. وتطورت الظروف، وأصبح خليفة، وأنجب منها المهدي الخليفة بعده وأخاه جعفرا والدة زبيدة حفيدة أروى وزوجة ابن عمها هرون الرشيد الخليفة بعد أبيه، وورثت عن جدتها حصافتها. وقد برّ المنصور بوعدة لأروى، فلم يتزوج عليها إلى أن توفيت سنة ١٤٦ للهجرة، وكان قد أقطعها ضيعة، فوقفتها - كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب - على ذريتها من الأرامل اللاتي يموت عنهن أزواجهن، وكذلك على العوانس اللاتي لم يتزوجن، حفظاً لكرامتهن وصيانة لهن، وهى مأثرة وبر رفيع بفلذات الكبد من البنات سجّلته أروى في تاريخ المرأة التونسية، كما سجلت شعورها بالكرامة في صورة نبيلة.

(١) التانى قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب للرتيق القيروانى ص ١٢٠ وما بعدها وفى الموقف الثالث ولاية خفاجة بن سفيان فى صقلية.

(١) انظر فى الموقف الأول القسم الأول من كتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وفى الموقف

وموقف كريم ثان لنساء القيروان عامة حين استنفر عبد الواحد بن يزيد الهواري وعكاشة بن محسن الصفرية في الجزائر للهجوم على القيروان، وكان الصفرية قد اشتهروا بسفك الدماء وهتك الحرم وسبيهن، وكان عبد الواحد قد اقترب من القيروان في ثلاثمائة ألف، وأخذ حنظلة بن صفوان والى القيروان يستعد للقاءه، وما إن أخذ يعدّ صفوف جيشه لهذا اللقاء حتى فوجيء بنساء القيروان جئن للتحريض على الجهاد والاشترك في الحرب، يقول الرقيق القيرواني: «خرج نساء القيروان فعقدن الألوية، وأخذن معهن السلاح، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال، وحلفن لأزواجهن: لئن انتهزم أحد منكم إلينا موتاً عن العدو لنقتلنه» وحين سمع الناس هذا الوعيد والتحريض الشديد من النساء وطنوا أنفسهم على الاستشهاد، فالموت أولى بهم من عار سبب زوجاتهم، وانتهاكهن وبيعهن في الأسواق بيع الإمام. والتحم القتال وتداعى الأقران والأبطال، وانتصر حنظلة والجيش ونساء القيروان، وقتل عبد الواحد وقتل من جموعه مائة وثمانون ألفاً، وهي مفخرة باقية للمرأة التونسية لاستشعارها - إلى أقصى حد - كرامتها وحميتها للوطن استشعاراً يسجله لها التاريخ في الأزمنة الإسلامية الماضية.

وموقف كريم ثالث للمرأة التونسية لا في القطر التونسي بل في صقلية، فإن واليها خفاجة بن سفيان كان قد شدد الحصار على أهل طرميس سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م وكانوا ينازلون جيشه نزالاً ضارياً ورأوا أن يلقوا الحرب وطلبوا من خفاجة وفدا للمفاوضة، فأرسل إليهم وفداً على رأسه زوجته لمفاوضتهم، وهي أول سيدة عربية تتولى السفارة بين قومها وأعدائهم، واستقبلوها بحفاوة، ونزلوا على إرادتها فيها وضعت لهم من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت سفارتها نجاحاً عظيماً، إذ حققت دماء المسلمين وسلمتهم مفاتيح مدينة بأكملها ودخلوها صلحاً، وابن هذه السيدة البطل محمد بن خفاجة هو فاتح مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م إذ أعد لفتحها أسطولاً قضى به على حاميتها الرومية، وظلت مالطة تابعة لصقلية إلى أن استولى عليها النورمان بعد نحو مائتين وثلاثين عاماً. ومعنى ذلك كله أن للمرأة التونسية تاريخاً مجيداً في العصور الإسلامية يصور حصافتها وكياستها وشعورها بكرامتها إلى أقصى حد.

الدين^(١)

كان بربر القطر التونسي - مثل بقية البربر في الأقطار المغربية - وثنيين يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقدمون لها القرابين، وكانوا يقصدون كثيراً من الأحجار والأشجار، وكان القرطاجيون وثنيين مثلهم، ويبدو أنهم أخذوا يفسحون لليهود في النزول بقرطاجة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يلبثوا أن عملوا على نشر اليهودية بين البربر، ولم يعتنقها إلا قليلون من البدو، وأخذ اليهود يقدون على القطر التونسي بعد تحطيم الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد حتى إذا كان الفتح العربي أخذوا يتكاثرون - مع السنين - في القيروان حتى كان لهم فيها حارة - أو كما نقول الآن حَيَّ - وكان لهم مقبرة خاصة بهم، وأيضاً كان لهم سوق يسمى سوق اليهود، وكان لهم معبد يؤدي فيه شعائرتهم الدينية، وكل ذلك بفضل الإسلام وما بثه في المسلمين من روح التسامح مع أهل الكتب السماوية، وصدوراً عن هذه الروح كان علماءنا المتعمقون في علوم الأوائل يفسحون لهم في التلمذة عليهم وفي أخذ ما عندهم من هذه العلوم وما أضافوه إليها، مما جعل نفراً منهم في القيروان يتزودون من معارف أطبائها المسلمين ما أتاح لهم أن يصبحوا من كبار الأطباء على نحو ما سنعرف في فصل الثقافة.

وكانت المسيحية قد أخذت تنتشر منذ القرن الثاني للميلاد في قرطاجة وبعض بلدان القطر التونسي عن طريق بعض القساوسة من قبض مصر الذين حاولوا الدعوة لها مبكرين، وبذلك عُرفت فيها - أو أسست - كنيسة العقيدة الأرثوذكسية المصرية. وبعد ذلك حين اعتنقت روما العقيدة المسيحية أخذت تعمل على نشرها لا في إيطاليا وحدها بل أيضاً في الولايات التابعة لها، واتسع العمل على ذلك منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه في روما على أزمة الأمور سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها في قرطاجة وإفريقيا، وبذلك أصبح للمسيحية في القطر التونسي كنيسة: الكنيسة الأرثوذكسية القبطية السابقة،

كتب التاريخ وخاصة البيان المغرب لابن عذارى
ومعالم الإيمان لابن ناجي ورياض النفوس للملكي
وتاريخ ابن خلدون وخلاصة تاريخ تونس لحسن
حسني عبد الوهاب.

(١) انظر في اليهود والنصارى كتاب ورفات
للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في مواضع
متفرقة وبرنامج ٤٢٩/١ وما بعدها وكتاب تاريخ
المغرب الكبير لدبورز وراجع في الحركة الإسلامية

وكنيسة روما الكاثوليكية. وكان في القطر التونسي - حين الفتح - مسيحيون كثيرون، إذ كانت الجاليات والحاميات الرومانية مسيحية، وكانت روما قد نشرتها قبل الفتح في بقايا السلالات القرطاجية وبين البربر، واعتنقها كثيرون من الشعب البربري في المدن لما رأوا فيها من الدعوة إلى المساواة والعدل الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونها، غير أنهم عادوا فوجدوها دين حكامهم من الرومان الذين يظلمونهم ظلماً فادحاً في الضرائب وغير الضرائب، فانصرفوا عنها إلا قليلاً منهم، ومع ذلك ظل قساوسة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يدعون لها، وتغلغلوا بدعوتهم حتى بلاد الجريد التي كانوا يسمونها قسطنطينية. وبعد الفتح العربي أخذ كثيرون من هؤلاء المسيحيين يدخلون في الدين الحنيف طواعية، وبدون أى إكراه، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية ومن كل ظلم مع محوه لجميع الحواجز الطبقيّة والاجتماعية بين أفراد الأمة، فهم جميعاً متساوون في كل الحقوق وكل الواجبات، وبذلك نفهم كيف أوشك الإسلام في القرن الأول الهجرى أن يقضى على المسيحية قضاء مبرماً في القطر التونسي مع أن العرب طوال هذا القرن وبعده رخصوا للمسيحيين التونسيين تجديد كنائسهم وتركوا لهم منتهى الحرية في إقامة طقوسهم وشعائرهم الدينية. ولولا أن عناصر مسيحية ظلت تنزل البلاد من وقت لآخر لانمحت المسيحية من القطر التونسي - أمام المد الإسلامى - محو تاماً، وأول ما كان من ذلك استقدام حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) ألف أسرة قبطية للمساعدة في إنشاء دار الصناعة بتونس، وبذلك ظلت الكنيسة الأورثوذكسية حية في القطر التونسي. ويجلب إبراهيم بن الأغلب آلافاً من الصقالبة لحرسه، وجلب حفيده إبراهيم بن أحمد رهباناً من صقلية للمساعدة في الترجمة بدار الحكمة التي أسسها، مما أتاح للكنيسة الكاثوليكية أن تظل حية هي الأخرى، ويجلب العبيديون بدورهم صقالبة وصقلين، ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن المسيحيين وفدوا بكثرة في عهد الدولة الصنهاجية، وخاصة أن أمهات بعض حكامها كن مسيحيات ويتمتعن بحريتهن الدينية. وكانت في تونس حارة خاصة بالمسيحيين ومقبرة أيضاً خاصة بهم وكنيسة يقيمون فيها شعائرهم، وأخذوا يتكاثرون حين عظم نشاط أمراء البحر العثمانيين وكانوا أسرى حقا، ولكن الدايات كانوا يساعدهم في أداء شعائرهم الدينية، ويدل على كثرتهم حينئذ ما يقال من أن مراد باى قبل أن يتولى الولاية سنة ١٠٢٢هـ/١٦١٤م حين كان أميراً للبحر جلب لتونس في إحدى المرات اثني عشر ألف أسير أوربي مسيحي.

ويأخذ البربر في اعتناق الإسلام منذ فتح عبد الله بن سعد بن أبى سرح القطر التونسي سنة ٢٧ للهجرة، واستقر العرب في بعض مدنه وأنحائه، ولم يكن العرب غزاة فاتحين فقط بل كانوا يعدون أنفسهم - قبل كل شيء - ناشرين للإسلام وهداه في أطباق الأرض، وما نصل إلى عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) حتى نجد في جيشه كتيبة بربرية كبيرة تبلغ اثني

عشر ألفا كما يقول ابن عذارى تشترك في فتوحه وجهاده في سبيل الله. وهى رمز قوى لاندماج البربر في الإسلام، فإنهم لم يسلموا فحسب بل أصبحوا من دعاة الإسلام وحماته، وقد اشتركوا بقوة في جيش طارق بن زياد الفاتح لإيبيريا، ونفس القائد: طارق كان بربريا، وولاه موسى بن نصير والى إفريقية بعد حسان على طنجة، ثم كلفه بفتح إيبيريا سنة ٩٢هـ/٧١١م وأخذت انتصاراته تتوالى، واستمد موسى بن نصير، فلحق به على رأس جيش مزيج من العرب والبربر وتم لهما اكتمال الفتح المبين.

ومعنى ذلك أننا لا نصل إلى الربع الأخير من القرن الأول الهجرى، حتى يصبح البربر لا في القطر التونسي وحده، بل في جميع بلاد المغرب شعبا إسلاميا لا يؤدى شعائر الإسلام وفروضة الدينية فقط، بل أيضا يعمل على نصره الإسلام ونشره لا في ربوع المغرب وجباله الوعرة وصحاريه المترامية فحسب، بل أيضا في إيبيريا بأوروبا، وهو ما أذهل جماعة المؤرخين والمستشرقين الغربيين، فإن الرومان ظلوا يحتلون البربر قرونا متطاولة وظلوا يحاولون نشر المسيحية في ديارهم، ولم يجدوا بينهم آذانا صاغية، وما هى إلا أن يغزوهم العرب، وإذا هم يفتحون أذرعتهم وأفئدتهم للإسلام، فيصبحون في نحو نصف قرن شعبا إسلاميا، إذ وجدوا الإسلام محررهم من الظلم والاستعباد اللذين طالما ذاقوهما في حكم البيزنطيين والرومان تحت ظل المسيحية سوى ما تحمله تعاليمه للشعوب من العدالة بين الناس والمساواة ومحو كل الفوارق الطبقية والجنسية. وانضافت إلى ذلك تطبيقات ولاية القرن الأول الهجرى عقبة بن نافع وابن أبي المهاجر وحسان بن النعمان وموسى بن نصير لتعاليم الإسلام ومبادئه في حكم البربر بحيث أصبح البربر يشعرون أنه عضو عامل - كبقية الأعضاء عربا وغير عرب - في أسرته الإسلامية الكبرى، فله ما للعرب من الحقوق، وعليه ما عليهم من الواجبات، فهو يتولى حكم هذه المدينة أو تلك، وهو يقود الجيوش الإسلامية في المغرب وخارج المغرب، لا فرق أى فرق بين بربرى وعربى.

وتوَّج عمل ولاية القرن الأول الهجرى في نشر الإسلام بين البربر بالبعثة التعليمية التى أرسلها عمر بن عبدالعزيز إلى القيروان سنة مائة للهجرة على رأسها إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، وأسند إليه ولاية المغرب وكانت البعثة مكوَّنة من عشرة من صفوة الفقهاء في الأمة أرسلهم عمر لتفقيه البربر والعمل على نشر الإسلام بينهم، وأهمهم بالإضافة إلى إسماعيل عبد الله بن يزيد المعافرى المعروف بالحلبى، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وسعد بن مسعود التجيبى، وكل منهم بنى في القيروان دارا لمسكنه ومسجدا لصلاته واجتماعه بالبربر يفقههم في الدين وكتابا لتعليم الناشئة مبادئ العربية وتحفيظها القرآن الكريم. وبذل كل منهم أقصى ما يستطيع في نشر الدين الخفيف، بتقديمهم في ذلك

إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر، وفيه يقول ابن عذارى: «ما زال إسماعيل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام، حتى أسلمت بقية بربر إفريقية على يديه في دولة عمر بن عبدالعزيز، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام».

وعلى هذا النحو أصبح البربر في نهاية القرن الأول الهجري شعبا إسلاميا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة فهو يتغلغل في ذات نفوسهم، ويتعمق قلوبهم وأفئدتهم، وخلف عمر بن عبد العزيز خلفاء أمويون ضلوا السبيل فولّوا على القيروان وإفريقية ولاة طاعين باعين أخذوا يفرّقون بين العرب والبربر في الخراج، مما جعل البربر يفكرون في مخرج من هذا الظلم الفادح، وسرعان ما أخذ الخوارج الصفرية والإباضية ينشرون مبادئ عقيدتيهما الآخذة بتعاليم الإسلام في التسوية بين العرب والبربر في الخراج وغير الخراج. ونكّب البربر بتولية عبيد الله بن الحبحاب القيروان وإفريقية، وكان هو ونوابه في إفريقية جميعها بمنتهى الحمق والسفاهة، فتبادوا في التفرقة بين البربر والعرب، وأخذت جموع كثيرة في المغربين الأقصى والأوسط تنضم تحت لواء الصفرية، وكانوا متطرفين تطرفا شديدا يستحلون من المسلمين سفك الدماء وسبي النساء واسترقاقهن، وانضمت جموع أخرى تحت لواء الإباضية في جبل نفوسة ولم يكونوا يستحلون - مثل الصفرية - سفك دماء المسلمين ولا سبي نسائهم. وثار الصفرية بالمغرب الأقصى وتقدم جيشان لهم إلى القيروان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م يريدون الاستيلاء عليها وهُزما هزيمة ساحقة. ودخلت قبيلة ورفجومة الصفرية القيروان سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وأخرجها منها أبو الخطاب الإباضي سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولّى عليها عبد الرحمن بن رستم الإباضي، وسرعان ما نازل جيش عباسي أبا الخطاب وقضى عليه، وفر عامله عبد الرحمن بن رستم إلى الجزائر وأسس في تيهرت دولة إباضية.

وكل هذه الإمامات للإباضية والصفرية بالقيروان لم تترك بها أي أثر، وكأنها كانت سحابات صيف لم تكد تلم حتى أفلعت، ولا نسمع عن أي أحد من القطر التونسي اعتنق إحدى هاتين العقيدتين. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت دارا كبرى للسنة، ولم تأبه بتعاليم الصفرية والإباضية، وقد امتشقت الحسام ونازلت الأولين منازل ضارية كما مر بنا في الفصل الماضي، بل لقد دمرت جيشين لها ومحقتها محقا ذريعا. وأخذت القيروان في أواخر القرن الثاني الهجري وطوال القرن الثالث بذهبين من مذاهب أهل السنة هما مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك، وكان للمذهب الثاني غير قليل من الغلبة لكثرة فقهاءه. وما إن تستقر الأمور في القيروان لبني عبيد الفاطميين حتى يعلنوا عقيدتهم الشيعية، وحتى يأمر عبيدالله المهدي أول خلفائهم بتعطيل تعليم الشريعة والفقهاء على مذاهب أهل السنة، ويريد مذهبي مالك وأبي حنيفة، ومنع شيوخ المذهبين من إلقاء دروسهم في جامع عقبة فكانوا يقرنون تلاميذهم إما في بيوتهم وإما في حوانيتهم، وكانوا قد اضطهدوا

محمد بن اللباد رئيس المالكية، وسجنوه، وعادوا فردوا إليه حريته وأزموه الاعتكاف في بيته، فكان تلاميذه يقصدونه خفية ويقروون عليه في بيته، وكان ربيع القطان يقرئ تلاميذه في حانوته الذي يبيع فيه القطن. وظل العبيديون يحاولون القضاء على مذهبي مالك وأبي حنيفة، وعلماء السنة يقاومونهم مقاومة حادة وينازلون دعائم منازل ضارية، وكان الفقيه سعيد بن الحداد يقود هذه المنازلات في أيام عبيدالله المهدي، وسمع به وبإسكاته الدعاة وإلزامهم الحجة، فاستدعاه - كما يقول المالكي في كتابه «رياض النفوس» - وعرض عليه الحديث النبوي: «من كنت مولاه فعلي مولاه» فقال له سعيد: هو حديث صحيح قد رواه أهل السنة، فالتفت إليه وقال له: فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ فقال له سعيد: أعز الله السيد، لم يرد (الرسول) ولاية الرق، إنما أراد ولاية الدين، فقال له عبيد الله المهدي: هل من شاهد يؤيد كلامك من كتاب الله عز وجل، فقال له: نعم، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالنَّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثم قال سعيد: فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلى لم يكن نبيا إنما كان وزير النبي ﷺ. وبذلك أفحمه، فقال له انصرف. ولم تقف المسألة في العقيدة العبيدية الفاطمية عند محاولة الخلفاء العبيديين استعباد الناس، فقد حاولوا إقناعهم بأنهم الصورة المجسدة للذات العلية تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا إلى غير ذلك من ضلالاتهم التي صورنا أطرافا منها في كتابنا - بهذه السلسلة - عن مصر. وظلت القيروان تقاطع عقيدتهم إلى أن انتقلوا إلى القاهرة وعادت لمذاهب أهل السنة نشاطاتها وخاصة مذهب مالك، ولم يلبث المعز الصنهاجي سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م أن حمل الناس والفقهاء على أتباعه، فظل هو المذهب السني الأساسي في القطر التونسي إلى اليوم، وحقا اشترك معه المذهب الحنفي أيام العثمانيين، ولكن ظل هو المذهب السني للجماهير التونسية.

٥

الزهد والتصوف^(١)

هذا القطر أو هذه الدار التونسية الكبيرة للدين الحنيف أخذت تتحول سريعا إلى دار

الفلسفي والسني ما كتبنا عنها في الجزء الخاص بمصر من هذا التاريخ للأدب العربي وكذلك انظر في هذا الجزء ترجمة أبي الحسن الشاذلي.

(١) راجع في الزهد والتصوف كتاب رياض النفوس في التراجم وكذلك طبقات علماء إفريقية لأبي العرب ومعالم الإيمان لابن ناجي، وبرنشفيك ٣٣٢/٢ وما بعدها. وانظر في المنزعين الصوفيين:

كبرى لعبادة الله الواحد الأحد، وأخذت المساجد تُبنى في كل بقعة وفي كل بلد، وكان الفاتحون يُقرئون البرير القرآن ويفقهونهم في الدين وينشرون فيهم تعاليم الإسلام وما يدعو إليه من العبادة والنسك، وقد تميز أفراد البعثة التي أرسل بها عمر بن عبدالعزيز سنة مائة للهجرة بالزهد في عرض الدنيا الزائل، وكان منهم إسماعيل بن عبيد الذي اشتهر في القيروان باسم تاجر الله، لأنه كان يتجر ويجعل ثلث كسبه لله، ينفقه في وجوه الخير، وهو يمثل شخصية زهاد الدين الحنيف الأولين. فهو يعبد الله ويفقه الناس في الدين، ويحفظ الناشئة القرآن في كتاب، وهو لا يعيش كلاً أو عبثاً على الدولة ولا عالة على الناس، بل يتجر ويكتسب من التجارة ما يقيم به أوده، ثم هو يقوم بالواجب الأكبر عليه للأمة: واجب الجهاد لأعدائها وأعداء دين الله، وبأخرة من حياته في القيروان حمل سيفه وخرج مجاهداً لإعلاء كلمة الله في صقلية وغرق في البحر المتوسط سنة ١٠٧ للهجرة. وولتقى بعده في القيروان بزهاد كثيرين تُعنى كتب الطبقات بالترجمة لهم والحديث عنهم، ومن أهمهم في أواسط القرن الثاني الهجري رباح بن يزيد اللخمي، وكان زاهداً وعباداً ناسكاً، ونوّه به طويلاً أبو العرب في الطبقات والمالكي في رياض النفوس. وبالمثل نوّها بالبُهلول بن راشد وزهده وورعه، وكان يعاصرها على بن زياد أول من أدخل كتاب الموطأ لمالك بن أنس إلى إفريقية التونسية، توفي سنة ١٨٣ للهجرة، وله كتاب في الزهد، وبالمثل لعبد الملك بن أبي كريمة مولى إسماعيل بن عبيد تاجر الله كتاب في الزهد، وكان من أهل الفضل والورع.

ومن أهم ما سجّلته كتب الطبقات لهؤلاء الزهاد الورعين أنهم كانوا دائماً يخرجون في وقت من السنة للعبادة في الرباطات والمحارس التي كانت متخذة على طول الساحل التونسي لإقامة المجاهدين المتربّصين بالقراصنة الغربيين أعداء الله حين يغيرون فجأة في موضع على الساحل التونسي الطويل. ومعروف أن زيادة الله الأول الأغلبى حين أعدّ حملته المشهورة لفتح صقلية في سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م جعل قائدها أسد بن الفرات قاضى القيروان وكبير فقهاءها في زمنه. وفي ترجمة سحنون أكبر فقهاء القيروان بعده أنه كان يرباط وقتاً في السنة بالقرب من ميناء سوسة، ومع أنه كان على شيء من الثراء كان يتخشن في ملبسه ومطعمه مع الورع الصادق والزهادة في الدنيا، وكان ابنه محمد الذي خلفه في حلقة لإقراء الطلبة يخرج وقتاً في السنة - مثل أبيه - للرباطة وحراسة المسلمين، وتروى له مَقْتلة في قرصنة الروم، فقد تصادف أن لقيهم ذات مرة وقد أشرفوا - في غيبة الرجال - على نهب بعض الأموال وسبى الحريم فتقلد سيفه وأخذ بيده رحمه وامتنطى جواداً له، ورآه بعض المرابطين فأسرعوا إليه، وكبر وكبروا معه، واشتبكوا في حرب مع القراصنة، وأجهزوا على بعضهم، ففرت بقيتهم هاربة إلى البحر المتوسط وما وراءه. وإنما نسوق ذلك لندل على أن الزهاد والنسك في الحقب الإسلامية الأولى لم يكونوا

يعيشون للزهد وعبادة ربهم فقط، بل كانوا دائماً يحملون السلاح ويتقدمون الصفوف في حرب أعداء الله والوطن، مؤمنين بأن جهاد أعداء الله لا يقل عن عبادته نسكاً وقربى إليه. ولم يكونوا يعيشون عائلة على المجتمع، بل كانوا دائماً يحترفون حرفاً تُدرّ عليهم أرزاقهم، على نحو ما مرّ بنا آنفاً عند إسماعيل بن عبيد تاجر الله.

وأخذ هؤلاء الزهاد والعباد يتكاثرون في القيروان أثناء القرن الثالث الهجرى، حتى لنراهم يتخذون مسجداً سموه مسجد السبت، كانوا يقصدونه يوم السبت للذكر والعبادة، وكانوا ينشدون فيه الأشعار بتطريب فرادى وجماعة، وكأن ذلك كان مقدمة لما سيصير إليه ذكر الله في البلدان المغربية، إذ سيصبح اجتماعات دورية للذكر في المساجد والزوايا بعد أن كان مرتبطاً بجهاد أعداء الدين والوطن ومراقبتهم على الساحل التونسى الطويل في الرباطات والمحارس الكثيرة التي كانت تُعدّ بالعشرات. وحاول - مبكراً - يحيى بن عمر الكنانى المتوفى سنة ٢٨٩ للهجرة أن يقاوم الاجتماع المار للذكر في مسجد السبت، فألف كتاباً يرددهم عن هذا الطريق الذى ابتدعوه ولم يستجيبوا إليه.

ومن يقرأ التراجم في كتاب رياض النفوس للمالكي المتوفى سنة ٤٧٢ للهجرة وكتاب معالم الإيمان للدباغ وذيله لابن ناجى المتوفى سنة ٧٣٨ يلقاه كثير من الزهاد النساك وخاصة بين الفقهاء والتقاء، وأخذ التصوف ينشط في الدولة الحفصية منذ مؤسسها أبى زكريا، وكان ورعاً تقياً، وكان كلما بنى مسجداً نهض بأول أذان فيه قُربى لربه، وبنى أمراء الدولة كثيراً من المساجد في تونس وبلداتها. وأخذ التصوف ينشط في عهد تلك الدولة، وكان بعض أئمة الأندلسيين ينزلون القطر التونسى قبل تلك الدولة في القرن السادس الهجرى، ومن نزل بها منهم أبو مدين شعيب، وهو من إشبيلية، أجاز البحر إلى المغرب، فاشتهر به خبره في التصوف والنسك، وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م وله فيها زاوية كبيرة، وله أتباع كثيرون، وكان قد نزل بتونس فترة، وتبعه في طريقته الصوفية غير تونسى، منهم أبو سعيد خلف بن يحيى التميمى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م والمدفون ببلدة جبل المنار بالقرب من قرطاجة، والبلدة مسماة باسمه وفي رأى أن أبا مدين كان ينزع في تصوفه المنزع الفلسفى، وهو المنزع الذى بدأه الحلاج والذى كان أصحابه يؤمنون بالاتحاد بين المخلوقات والمخلوق جل شأنه أو بعبارة أخرى بين الإنسان وربه، واقرن بذلك الإيمان بالفناء فى الذات العلية، والباحثون فى هذا المنزع، منهم من يقف عند الظاهر من عبارات أصحابه وأشعارهم فينسبونهم إلى القول بالاتحاد مع الذات الإلهية وأكثر من ذلك بالحلول وأن الله يحل فى الإنسان وجزئيات الطبيعة، ويؤثر عن أبى مدين أنه كان يقول: «بى قُلِّ، وعلى دُلِّ، فأنا الكلِّ» والعبارات قد تفسّر بأن أبا مدين يؤمن بالاتحاد فى الذات العلية وحلولها فيه وقد تفسّر بأنه إنما يؤمن بالفناء فى الذات الربانية. وزار تونس بعده من أصحاب

المنزِع الصوفي الفيلسُفي ابن عربي المرسى الأندلسي الناشئ بإشبيلية والمتوفى بدمشق سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وهو من أئمة هذا المنزِع، وظل في تونس فترة ألف فيها كتابه: «الدوائر الإحاطية في مضاهاة الإنسان» ونظن ظنا أنه خلف بتونس بعض مريديه المعجيين به وبمنزعه.

ومن المؤكد أن هذا المنزِع الصوفي الفيلسُفي لم يكتب له الشيوخ والانتشار في تونس، إنما الذي كُتب له ذلك المنزِع الصوفي السني الذي لا يؤمن أصحابه بحلول الذات العلية في جزئيات الكون ولا باتحادها معها أو مع الإنسان ولا بالفناء في الذات الربانية، فحسبهم محبة الله وذكره وتسبيحه، وقد قام على هذا المنزِع في القرن الخامس عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م والإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١٢م وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية السنية في الظهور أثناء القرن السادس الهجري، ومن أهمها طريقتان: القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني مولدا الحسيني نسا نزيل بغداد المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م والطريقة الأحمديّة أو الرفاعية نسبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي البغدادي المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م. ورُحبت البلاد الإسلامية بهلتيْن الطريقتين، وأخذت تضيف إليها طرقا صوفية سنية جديدة، وتجرد شيخ تونس هو الشاذلي أبو الحسن علي بن عبد الله الحسيني المنسوب إلى بلدة شاذلة بالقرب من مدينة تونس المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م لإنشاء طريقة صوفية سنية. بجانب الطرق التي عمت وشاعت في البلدان العربية، وأخذ يحاول نشرها في تونس، وتبعه مريدون كثيرون رجالا ونساء، منهم علي القرجاني وحسن السيجومي وللألسيدة عائشة المنوبية) المتوفاة سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م وهي من قرية منوبة غربي مدينة تونس ولها زاوية كبيرة، ولبعض النساء ببلدتها اعتقاد فيها، ولذلك يزرنها ويتوسلن بها لحاجاتهن: حَمَل وغيره. وفي تونس تعرّف بتلميذه أبي العباس المرسى، وصحبه مع جمع من مريديه إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وسرعان ما أصبحت طريقتُه أهم الطرق الصوفية السنية بمصر. وظلت طريقتُه حية بتونس مع طريقة القادرية السابقة لها، ومع طرق أخرى وفدت على تونس من المغربين الأوسط والأقصى مثل طريقة التجاني والطريقة العروسية للشيخ أحمد بن عروس المتوفى سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٣م وله في تونس زاوية كبيرة.

وقد تكاثرت زوايا المتصوفة في تونس والأقطار المغربية كثرة مفرطة، وتحولت في الحقب المتأخرة إلى ما يشبه تكايا ينزلها مع الدراويش الجوالين كثير من المشعوذين الدجالين، وكان منهم من يدعى لنفسه الكرامات وأنه من أولياء الله، والله براء منه لانحرافه عن جادة الدين والتصوف السني الحقيقي.

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية^(١)

(أ) فاتحون مجاهدون معلمون

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح والى مصر للخليفة عثمان في جيش للمسلمين عداده عشرون ألفا للاستيلاء على إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/٦٤٧م والتقى بجيش والى بيزنطة الثائر عليها والمستقل بالبلاد: جريجوريوس وكان في مائة ألف من الروم والبربر، ونصر الله المسلمين، وقُتل جريجوريوس في المعركة وسحق جيشه سحقاً، وأخذت مدن إفريقية التونسية تفتح أبوابها للمسلمين. وعادة يذكر المؤرخون هذا الفتح المبين ولا يتحدثون عن جنوده وأنهم كانوا جنود الدين الحنيف خرجوا وحاربوا جهادا في سبيل نشره، بقيادة ابن أبي سرح أحد كتاب الوحي ومعه في المقدمة العبادلة: عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ويقال أيضا كان معهم عبد الله بن جعفر وعبد الله بن مسعود، ولذلك سمي جيش العبادلة وكلهم من نقاة الأمة الورعين. لم يخرجوا إلى إفريقية التونسية ابتغاء دنيا، إنما خرجوا للجهاد في سبيل الله ونشر دينه الحنيف في أرجاء إفريقية، وبضربة من يد عبد الله بن الزبير قتل جريجوريوس وبضربات من أيدي زملائه العبادلة وأيدي جند الدين الحنيف المجاهدين في سبيله انهزم الجيش الضخم ومن بقى من عساكره أصابهم رعب شديد واعتصموا بالمعاقل

للسيرافي وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي وأنظر في جامع عقبة والزيتونة معالم الايمان لابن الدباغ وابن ناجي وكتاب وراقات عن الحضارة العربية في إفريقية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وأنظر المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار.

(١) انظر في الفاتحين المعلمين كتب التاريخ مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم وقطعة من تاريخ إفريقية للريق القيرواني (طبع في تونس) ومقدمات الجزء الأول من رياض النفوس وراجع في النشأة العلمية طبقات أبي العرب والبيان المغرب لابن عذارى والحلة السيرة وأخبار النحويين البصريين

والحصون، ولم يلبثوا أن جاءوا إلى ابن أبي سرح مستسلمين طالبين الصلح فصالحهم، ودانت إفريقية التونسية للدين الحنيف وجنوده.

ونجد عند الفاتحين دائما هذا الشعور بأنهم مجاهدون في سبيل الله، فابن أبي سرح قبل منزلة جريجوريوس يخطب في الجيش محرضا على الجهاد، إنه ليس فتحا ولا غزوا وإنما هو جهاد في سبيل إعلاء كلمة الدين الحنيف، ودائما نجد هذا الشعور ماثلا في أذهان الفاتحين وكان أول من تعمق في البلاد المغربية مجاهدا في سبيل الله حتى المحيط الأطلسي عقبة بن نافع، وقد أدخل فيه قوائم فرسه ورفع وجهه إلى السماء مناجيا ربه بقوله: «اللهم إني أشهدك أني وصلت براءة الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يعبد أحد سواك» فهو وجنوده لم يكونوا غزاة للمغرب الأقصى يجمعون منه الغنائم، إنما كانوا جنودا لله يريدون أن ينشروا دينه إلى أقصى الأرض المعمورة. وتوفي عقبة وثار كسيلة، ودخل بجموعه القيروان، وفنك زهير بن قيس القائد بعد عقبة به وبجيشه حتى إذا دان له المغرب أبي أن يظل حاكما له، وعاد إلى المشرق قائلا: «إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن تميل نفسي بي إلى الدنيا فأهلك». فقاد الجند الفاتحين للمغرب والجند أنفسهم لم يكونوا طلاب دنيا إنما كانوا مجاهدين يبتغون نشر الإسلام طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة، وهم لذلك لا يبالون بالموت، فقد باعوا أنفسهم لله، صفقة كللت غزواتهم في الفتوح الإسلامية بالانتصارات الحاسمة.

وتضح خلال ذلك صفة ثانية لهم هي أنهم ناشرون للإسلام، فليس همهم من فتوحهم تملك الأرض وما عليها من طيبات الرزق، إنما همهم تملك القلوب للدين الحنيف، وهم لذلك يجاولون - كل بقدر إمكانه - تعريف البربر به وبتعاليمه، وأخذ يستجيب لهم البربر، لما وجدوا في عقيدته من بساطة، إذ لا تعدو الإيمان بوحداية الله. وليس فيها فكرة التثليث المعقدة عند النصراني، والله رحيم وسعت رحمته كل شيء، وهو عالم قادر شمل علمه - وشملت قدرته - كل ما في الكون، والمسلمون عربا وبربرا سواسية في جميع الحقوق والواجبات مع العدل المطلق الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه، ومع محو جميع الفروق الطبقية والاجتماعية بين أفراد الأمة، ومع تحرير الشعوب من كل عبودية. وقد أخذ هذا الجند الفاتح للمغرب المجاهد في سبيل الله يجاول - بكل ما يستطيع - نشر هذا الدين، فهم يحفظون البربر شيئا من القرآن، وهم يقفونهم على تعاليم الإسلام وهديته، وبذلك كانوا معلمين للبربر كما كانوا مجاهدين. ونجح تعليمهم سريعا، وأخذت جماعات كثيرة من البربر تعتنق الدين الحنيف لا اعتناقا ظاهريا، بل اعتناقا يتعمق منها القلوب والأفئدة، فإذا هي تخلص له، وإذا هي تحمل السلاح لنشره وحرب أعدائه وأعداء الله، فمن ذلك ما يقال في ولاية أبي المهاجر الإفريقية (٥٥-٦١ هـ) من أن قبيلة أوربة اتحدت مع جيشه في الاستيلاء على الساحل الشمالي للجزائر. ويصبح البربر جزءا

لا يتجزأ من الجيش العربي لعهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ نراه يعين ابني الكاهنة التي قادت ثورة عنيفة ضد المسلمين قائدين في الجيش بعد إسلامهما، وأدخل فيه كتيبة من البربر عدادها اثنا عشر ألفاً، وبذلك لم يعد في الجيش أى فارق بين العرب والبربر، فهم يجندون فيه ويتولون قيادة بعض فرقه الكبيرة. ويتولى بعده موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فيتخذ من البربر ولاة وقوادا مثل طارق بن زياد فقد ولاه طنجة ثم جعله قائداً للجيش الفاتح لإيبيريا وكان جيشه مؤلفاً من سبعة عشر ألف جندي عربي واثني عشر ألف جندي بربري، وأمر موسى الجنود العرب أن يعلموا إخوانهم جنود البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين كما يقول ابن عذارى، وفي رواية أخرى: أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهؤلاء السبعون فقيها لا يعدون شيئاً بالقياس إلى ما حدث حتى تاريخ ولاية موسى بن نصير من اندماج المغرب في الأمة الإسلامية. إذ أصبح يدين بدينها القويم ويتكلم كثير من أهلها بالعربية وهو عمل ضخم لا ينهض به سبعون فقيها، إنما نهضت به الجيوش العربية الفاتحة للمغرب التي خرجت إليه للجهاد في سبيل الله، ولنشر دينه وتعاليمه، مما يجعلنا نزعم أن هؤلاء الجنود كانوا مجاهدين في نشر الدين الخفيف بالمغرب من جهة ومعلمين لأهله القرآن وتعاليم الإسلام من جهة ثانية.

(ب) النشأة العلمية

أخذ ينشأ في القيروان وتونس - منذ أواخر القرن الأول الهجري - جيل من مواليد إفريقية التونسية يكبُّ على حلقات العلماء الوافدين من المشرق ينهل منها مثل عكرمة مولى ابن عباس المفسر المشهور، ويقول المالكي في رياض النفوس إن مجلسه كان في مؤخر جامع عقبة في القيروان حيث كان يلقي دروسه على الناس في التفسير والحديث ومات سنة ١٠٥ للهجرة. وذكرنا في غير هذا الموضوع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى القيروان بعنة تعليمية مكوّنة من عشرة فقهاء اختارهم، ليفقهوا الناس في الدين وما يتصل به من تفسير للذكر الحكيم ومن شرح لبعض الأحاديث النبوية، وهم: إسماعيل بن أبي المهاجر المخزومي، وجعيل بن عمير، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري، وعبدالله بن يزيد المعافري، وسعد بن مسعود التجيبي، وعبدالرحمن بن رافع التنوخي، وحبان بن أبي جبلة القرشي، وبكر بن سودة الجذامي، وموهب بن حُبي، وطلق بن جايان الفارسي. وأسند إلى ابن أبي المهاجر الجند، - بجانب عمله الديني - ولاية إفريقية والمغرب كما أسند إلى جعيل بن عمير قضاء الجند، ويعجز أن نزلوا القيروان اتخذ كل منهم داراً لسكناه ومسجداً لصلاته وتعليم الناس أمور دينهم وسنة رسولهم. وهؤلاء المعلمون الرسميون للدولة كان يشترك معهم في تعليم الشباب علماء آخرون من أهمهم يحيى بن سعيد الأنصاري الذي أرسله عمر بن العزيز عاملاً على الصدقات،

وكان محدثنا كبيرا ومن روى عنه الحديث الأئمة أبو حنيفة ومالك والليث بن سعد فقيه مصر والأوزاعي فقيه الشام. وقد نزل مدينة تونس وأخذ عنه شبابه الحديث يتقدمهم خالد بن أبي عمران التجيبى قاضى القيروان وزميلاه عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد.

والثلاثة من تلامذة يحيى بن سعيد الأنصارى والمعلمين العشرة الذين أرسلهم إلى القيروان عمر بن عبد العزيز وقد رأوا أن لا يكتفوا بما أخذوا عنهم بل ينبغي أن يضيفوا إلى ذلك رحلة علمية إلى مصر والحجاز والعراق للأخذ عن كبار الفقهاء والمحدثين وحملة العلم في تلك الديار. ولقت خالد بن أبي عمران التجيبى أنظار الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة في مصر ومالك إمام الحجاز، ورووا عنه بعض أحاديث، وهى في موطأ مالك مأخوذة عنه بسند يحيى بن سعيد المذكور آنفا. وعبدالرحمن بن زياد تولى القضاء بالقيروان مرتين كان أبوه من جند حسان بن النعمان ولد له سنة ٧٤ للهجرة وتوفى سنة ١٦١ وحل للقاء العلماء والمحدثين في مصر والشام والعراق والحجاز وعنه روى الحديث الفقيهان المصريان ابن لهيعة وابن وهب كما رواه عنه سفيان الثورى العراقى. وعلى بن زياد التونسي معاصره رحل بدوره إلى المشرق وتلمذ في مصر لليث بن سعد وابن لهيعة وفي العراق لسفيان الثورى وحمل عنه كتابه المعروف باسم جامع سفيان وفي المدينة تلمذ لمالك، وهو أول من أدخل كتاب الموطأ في الفقه المالكي إلى المغرب، وكان يعاصره من الشباب العلمى في القيروان عبدالله بن فروخ الذى ثقف الفقه والحديث على شيوخ القيروان، ورحل إلى العراق ولزم أبا حنيفة فترة، ثم رحل إلى الحجاز ولقى مالك بن أنس وكان يكتابه، وهو أول من نشر فقهه أبي حنيفة في القيروان.

وهذه النشأة للعلوم الدينية رافقتها في إفريقية التونسية نشأة العلوم اللغوية لسبب طبيعى، وهو أن من يريد حفظ القرآن ورواية الحديث النبوى لا يمكنه أن يتقن ذلك إلا إذا وقف على سُنن العربية وكانوا يستعينون على ذلك في أول الأمر برواية الأشعار، وكانت مدينتنا البصرة والكوفة جادتين في القرن الثانى الهجرى في وضع قواعد العربية، وولى القيروان والمغرب يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) وكان بحرا فياضا وصحب معه إلى إمارته المعمر بن سنان التميمى، وكان - كما يقول ابن الأبار في ترجمته بالحلة السبراء - من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» ومن صحبه يزيد كاتم سره أبو على الحسن بن سعيد البصرى، وهو من النحاة البصريين وكتاب الدواوين. وكان يزيد غيثا مدرارا في الجود والعطاء، كما ذكرنا، فأتمه غير شاعر، كما أمه أو وفد عليه غير عالم نحوى ولغوى، ومن أمه يونس بن حبيب إمام البصرة في النحو واللغة، وتسامع به شباب القيروان فأكبوا عليه يأخذون عنه ما عنده، ووفد على يزيد من الكوفة قتيبة الجعفى وهو من نحاتها، وقد أفاد منه الشباب القيروانى وانتفعوا به، ووفد عليه

أيضا عياض بن عَوانة الكلبى النحوى الكوفى سنة ١٥٥ فرحَّب به، وخصَّه بتعليم أولاد أسرته وعنه أخذ أبناء القيروان النحو والعربية. وأخذ ينشأ فى القيروان سريعا جيل يعنى برواية الأشعار والأخبار كما يعنى باللغة والنحو على شاكلة أمان بن الصمصامة بن الطرماح الطائى الشاعر المشهور فى العصر الأموى، وكان الصمصامة هاجر إلى القيروان فى أوائل القرن الثانى، وولد له فيها أمان، وكان راوية للغة والشعر كما يقول ابن حزم، وتلمذ له كثيرون من سباب القيروان فى النحو واللغة والأدب. وما نصل إلى أواخر القرن الثانى الهجرى حتى يصبح للقيروان نحاة بالمعنى الدقيق لكلمة نحاة من مثل عبد الملك المهري تلميذ أمان وعياض بن عوانة وغيرهما من النحاة والرواة، ويتكاثر النحاة فى جيله وجيل تلاميذه.

(ج) دور العلم : الكتابيب - المساجد - جامعا عقبية والزيتونة - بيت الحكمة - الزوايا - المدارس

منذ استقر العرب فى القيروان والبلدان بإفريقية التونسية أخذت تنشأ كتابيب لتحفيظ الناشئة القرآن وتعليمهم مبادئ العربية - حتى يحسنوا أداء الآيات القرآنية - والأحاديث النبوية. ويبدو أنها أخذت تتكاثر منذ عهد حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) وكان يتعلم فيها أبناء البربر والعرب جميعا، وظلت أساس التعلم فى البلاد، مثلها فى ذلك مثل جميع البلدان العربية، وتنبه الفقيه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ للهجرة إلى أهمية التعليم فى الكتابيب وما ينبغى أن يؤخذ به فى هذا التعليم من آداب ومن صفات فى المعلمين وطرائق معاملتهم للناشئة، مما جعله يكتب فيه كتابا بعنوان «آداب المعلمين» وفيه يرسم لهم قواعد التربية للناشئة من أبناء المسلمين، وما ينبغى أن يتصفوا به فى السلوك معهم وواجبات المعلم إزاءهم وأخذه لهم بالنهج السليم، وعنى بنفس الموضوع بعده أبو الحسن القايسى المتوفى سنة ٤٠٣هـ إذ ألف فيه كتابا باسم «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» وهو أوسع من كتاب محمد بن سحنون وأكثر تفصيلا، وفيه تحدث عن آداب معلم الإناث وما يصلح أن يعلم للناشئة وما لا يصلح وسياسة المعلم فى تعليم الصبية إلى غير ذلك من موضوعات طريفة.

وكانت الدار الثانية للتعليم بعد الكتابيب المسجد، حيث كان الشيوخ يتحدثون فى التفسير والحديث النبوى والفقه واللغة العربية والناس يتحلقون حولهم كما تتحلق الناشئة والشباب للتعلم وأخذ ما لديهم من تعاليم الدين وعلوم الإسلام والعربية. وقد أخذت تبنى فى القيروان وتونس وغيرها من البلدان مساجد كثيرة، ومرَّبنا أن جميع أعضاء البيعة التى أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى القيروان لتعليم الفقه والتفسير والحديث النبوى بنى كل منهم مسجدا وألحق به كتابا. أما الكتابيب فلتحفيظ القرآن، وتنعقد الصلاة فى المسجد، ويجلس الشيخ فى جانب منه يلقي بعض دروسه الدينية.

وهناك مسجدان بل جامعان كبيران تحولتا مع السنين إلى جامعتين عظيمين، وهما جامع عقبة بن نافع في القيروان وجامع حسان بن النعمان في تونس المسمى جامع الزيتونة، والجامع الأول بناه عقبة في تأسيسه للقيروان بين سنتي ٥٠ و ٥٥ للهجرة وجدده حسان بن النعمان في ولايته (٧١-٨٦هـ) وازداد العمران في القيروان وضاق بأهلها فوسعه عبيدالله بن الحبّاب في ولايته (١١٦-١٢٢هـ). ومنذ أنشئ هذا الجامع يتخذ الشيوخ من أهل العلم لمدرسة الناس في علوم الدين وتحول سريعا مركزا للعلوم الدينية يؤم شيوخه الطلاب من كل أنحاء المغرب فضلا عن أرجاء إفريقية التونسية، ولم يتأخر ذلك إلى القرن الثاني الهجري بعد توسعة ابن الحبّاب له، كما قد يظن، إذ بدأ ذلك فيه منذ إنشائه في القرن الأول، يدل على ذلك ما ذكره أبو العرب في طبقاته، وأشرنا إليه في غير هذا الموضوع، من أن عكرمة مولى ابن عباس وتلميذه المتوفى في سنة ١٠٥ كان يجلس في مؤخره ويلقى على الناس دروسه في التفسير والحديث النبوي، ولا بد أن زخر الجامع بحلقات أخرى لشيوخ ممانين في الفقه والتشريع الإسلامي، وأيضا لشيوخ يروون الأشعار والأخبار، حتى إذا ظهرت نحل الحوارج أخذ دعايتها يدعون لها، وتكونت حلقات حول بعض هؤلاء الدعاة في جامع القيروان وخاصة حول عقيدة الإباضية. وحين ازدهرت الدعوة لمبادئ المعتزلة في القرن الثاني أخذت طريقها إلى جامع عقبة. وكان أهل السنة يضيّقون بمنظرات الدعاة لعقائد الحوارج والمعتزلة، حتى إذا ولي سحنون إمام المذهب المالكي السنّي القضاء سنة ٢٣٤ للهجرة أمر بوقف مناظراتهم وإلغاء حلقاتهم، حتى لا يفسدوا - في رأيه - الناس والشباب. وأكبر الظن أنهم عادوا إلى الجامع بعد وفاته سنة ٢٤٠ يتحلقون فيه ويتجادلون. ونمضى إلى قيام الدولة العبيدية في القيروان، فيحرم خلفاؤها تدريس الشريعة الإسلامية على مذاهب أهل السنة من مالكية وحنفية في الجامع، ويضطر الشيوخ إلى تدريسها للطلاب في بيوتهم وحوانيتهم ويظل ذلك إلى مبارحتهم إفريقية التونسية وعاصمتهم المهدية إلى القاهرة، وتعود إلى الجامع حلقات أهل السنة وخاصة المالكية وتظل له مكانته الكبيرة في الحركة العلمية بالبلاد.

وجامع الزيتونة بتونس ظل مع جامع عقبة في القيروان يقود الحركة العلمية منذ القرن الأول الهجري في إفريقية التونسية، بناه حسان بن النعمان في ولايته (٧١-٨٥هـ) وجدده عبيدالله بن الحبّاب سنة ١١٦هـ/٧٣٤م للهجرة. وأعاد تجديده وزخرفه - كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب - الأمير أحمد بن محمد الأغلبى وأتم بنيانه أخوه زيادة الله سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م. وأضاف إليه بنو خراسان في إمارتهم لتونس بعض تجديدات، منها زيادة أبوابه إلى اثني عشر بابا بعد أن كانت ستة، ودخلت عليه تجديدات أخرى في الحقب التالية. وهو مثل جامع عقبة أخذت الدروس الدينية تعقد فيه منذ تأسيسه، وأخذ شباب تونس يجتلفون إلى حلقات شيوخه، وأخذوا يتمون دروسهم فيه ويتخرجون مثل خالد بن أبي عمران التجيبى

قاضي القيروان المتوفى سنة ١٢٥هـ/٧٤٢م وهو أحد من سنوا لزملائهم في تونس والقيروان الرحلة إلى المشرق للتزود من حلقات علمائه، كما مرّ بنا في غير هذا الموضع، واقتدى به في طلب العلم بالمشرق تلميذاه عبدالرحمن بن زياد وعلى بن زياد، والثلاثة في الذروة من علماء إفريقية التونسية، وأمّ الطلاب حلقاتهم بتونس من كل فج. وتكثر أسماء فقهاء تونس ومحدثيها في القرن الثالث الهجري حتى إذا ولى الفاطميون بأخرة من هذا القرن عطلوا في جامع الزيتونة دراسات الفقه على أساس مذاهب أهل السنة، حتى إذا انحسر ظلهم عن المهديّة وغادروها إلى القاهرة عادت إلى الجامع حلقاته الدينية، وخاصة حلقات المذهب المالكي وشيوخه النابيين، وقد تهيأ له ولجامع عقبه من قديم أئمة في الفقه، وخاصة الفقه المالكي، وكذلك في الحديث لا يقلون فقها وعلماء عن نظرائهم في البلاد العربية. وقد نال جامع الزيتونة الحظ الأعظم أيام الدولة الحفصية إذ عنيت عناية كبيرة بمبانيه ومكتباته وشيوخه وطلابه.

ومن دور العلم المهمة في إفريقية التونسية وإن لم تعمر طويلا بيت الحكمة الذي أنشأه إبراهيم الثاني الأغلبى محاكاة لدار الحكمة التي أسسها ببغداد هارون الرشيد ورعاها ابنه المأمون. وكان هذا البيت خاصا بعلوم الأوائل مثل دار الحكمة البغدادية، وللأستاذ حسن حسني عبد الوهاب مبحث قيم فيه بالقسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية، وفيه تحدث عن تأسيس إبراهيم الثاني الأغلبى له، ونظامه وخزائنه وإمداده سنويا بالعلماء والمخطوطات، إذ كان يرسل سنويا سفارة إلى بغداد لجلب إخصائين في علوم الأوائل وشراء مخطوطات الكتب النفيسة في الطب والفلك والرياضة إلى غير ذلك. ويستظهر الأستاذ عبد الوهاب أن المترجمين فيه ترجموا أحيانا من اللسان اللاتيني بعض الكتب، ويقول إن هذا البيت أوجد النواة لمدرسة الطب القيروانية التي أثرت في الحركة العلمية بالمغرب، ويذكر أن قسطنطين القسيس المسيحي المولود بقرطاجة سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م والناسيء بالقيروان والمتلمذ لمشاهير أطبائها نقل كتبهم الطبية المهمة إلى اللسان اللاتيني في جامعة ساليرنو ومنها انتقلت إلى الجامعات الإيطالية وغير الإيطالية مما كان له أثره العميق في النهضة الثقافية بالبلاد الأوربية. ونمضى إلى عهد علي بن يحيى الصنهاجي أمير المهديّة (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) فنجدته ينشئ مدرسة للكيمياء زودها بما تحتاجه من آلات لتحليل المعادن وأدوات مختلفة للتقطير.

وأخذت تونس منذ القرن السابع الهجري تستكثر - مثل بقية بلدان المغرب - من زوايا المتصوفة، وتبعتها في ذلك بقية بلدان الإقليم التونسي وهي أشبه بمساجد صغرى تضم مباني للشيوخ والطلاب وتلقى فيها دروس العلوم الدينية واللغوية، مما جعلها تشارك في نشر التعليم بمستوياته المختلفة، وكان يلحق بها عادة كتاب لتحفيظ القرآن

الكريم . وفي عصر الدولة الحفصية تجددت الحركة العلمية تزدهر بفضل رعاية الدولة لها وما أنشأت من مدارس شارك فيها المهاجرون الأندلسيون إلى تونس، وأول مدرسة أسسها هذه الدولة مدرسة الشماعية أسسها أبو زكريا أول حكامها، وأسست الأميرة عطف أرملته المدرسة التوفيقية، وأسس أبو زكريا بن السلطان أبي إسحق مدرسة ثالثة هي مدرسة المعرض بسوق الكتبيين، وأسست أخت السلطان أبي بكر مدرسة رابعة، وأسس الوزير ابن تافراكين مدرسة خامسة، وأسس السلطان أبي عبد الله بن أبي فارس المدرسة المنتصرية، وتوفي قبل أن تتم فأنتم ببناءها أخوه أبو عمرو عثمان على أكمل بناء وأتقنه ووقف عليها وقفا كافيا. ونمضى إلى العهد العثماني، وظل للحركة العلمية نشاطها وخاصة حين قدم إلى تونس المهاجرون الأندلسيون سنة ١٠١٦هـ/١٦٠٩م ويؤسس مراد باي الثاني مدرسة عرفت بالمرادية في سوق القماش. وأسس الباي حسين بن علي ثلاث مدارس: الحسينية والنخلة والمدرسة الجديدة، وأسس مدارس أخرى بالقيروان وسوسة وصفاقس ونفطة، وأسس ابن أخيه علي أربع مدارس: الباشية في سوق الكتبيين والسليمانية ومدرسة بير الحجار ومدرسة حوانيت عاشور. وبلغت المدارس في تونس بأخرة من هذا العهد العثماني عشرين مدرسة.

(د) المكتبات

ومما عمل على أن تظل الحركة العلمية نشيطة في القيروان وتونس وغيرها من بلاد إفريقية التونسية على توالي الأزمنة تأسيس المكتبات العامة وفي الجوامع والمدارس والزوايا. وكانت دائما مفتوحة الأبواب للشيخ والطلاب يفيدون منها، وفي مقدمتها المكتبة العتيقة بجامع عقبة في القيروان، ولا بد أن كان الشيوخ في القرنين الثاني والثالث للهجرة يهدون إليها نسخة أو أكثر من مؤلفاتهم، واهتم الأغالبية بها ووقفوا عليها كتب كثيرة، ومنلهم الأعيان وأصحاب اليسار، ولا تزال إلى اليوم تروج بنفائس المصاحف المزخرفة وأمهات الكتب في الفقه والتفسير والحديث والقراءات واللغة والأدب. ولما أنشأ إبراهيم الأغلبى الثاني بيت الحكمة بقرادة أسس فيه مكتبة ضخمة وأخذ يجمع إليها ذخائر الكتب وروائعها في علوم الأوائل وغيرها من العلوم الدينية واللغوية، وحين بنى عبيد الله المهدي مدينة المهديّة نقل إليها كثيرا من روائع الكتب في هذه المكتبة، وأسس حفيده المنصور مكتبة في مدينة المنصورة وجلب إليها آلاف المخطوطات، ونقل المعز منها ومن مكتبة جده المهدي كثيرا مما كان بهما من المؤلفات معه إلى القاهرة غير أن بقية فيها من الكتب ظل ينتفع بها طلاب العلم والعرفان. ومن المؤكد أن سوق الوراقين الذين ينسخون الكتب كانت رائجة، ويروى عن حمدون بن مجاهد الكلبي أنه قال: «كُتبت بيدي ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب» كما يروى عن أبي العرب التميمي صاحب كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس أنه قال: «كُتبت بيدي أربعة آلاف كتاب» واشتهر كثيرون بتكوينهم لأنفسهم

مكتبات خاصة مثل أحمد بن علي بن حميد وكان أبوه من وزراء الأغالبة، وشغف بجمع الكتب، وبيعت مكتبته بعد وفاته بألف ومائتي دينار، وشغف عبد الله بن أبي هاشم التجيبى المتوفى سنة ٣٤٦ للهجرة بنسخ الكتب وجمعها، فلما توفي بلغ وزن ما عنده من الكتب سبعة قناطير جميعها بخطه ما عدا كتابين. وكثير من العلماء كانوا يحرصون على جمع الكتب وتكوين مكتبات لهم كبيرة، منهم الطبيب أحمد بن الجزار المتوفى بالقيروان سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م كانت له مكتبة ضخمة، إذ يقول ابن جلدج الأندلسي في كتابه طبقات الأطباء: إن وزن كتبه التي خلفها بلغ عشرين قنطارا. ويروي أن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٤هـ) أشفق على أبي بكر عتيق السوسى الفقيه الحافظ الورع حين علم بضيق ذات يده مما لا يمكنه من اقتناء الكتب، فأرسل إليه - كما في كتاب معالم الإيمان - مجموعة كبيرة من أمهات كتب العلوم الدينية حملها إليه عشرون حمالا، ومعها رسالة رقيقة يقول له فيها: «هذه كتب في خزائننا ضائعة. وبقاؤها عندنا مما يزيدنا ضياعا، وأنت أولى بامتلاكها للانتفاع بها» فالتمس الشيخ أن يكتب على كل جزء منها أنه موقوف على طلبة العلم، وأودعت جميعا بمكتبة جامع عقبة بالقيروان لينتفع بها الشيوخ والطلاب.

ولم تلبث سيول الأعراب الجارفة من بنى سليم وهلال أن اكتسحت القيروان بأخرة من أيام المعز بن باديس سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وتوقفت بالقيروان الحركة العلمية المزدهرة، وحاول على بن يحيى حفيد المعز الصنهاجى (٥٠٩-٥١٥هـ) أن يستردَّ المجد العلمى لإفريقية التونسية أو شيئا منه، فأنشأ بالمهدية مدرسة للكيمياء، كما مرَّ بنا، وألحق بها مكتبة، غير أنها لم تمكث سوى نحو ربع قرن. وظلت إفريقية التونسية مضطربة نحو قرن نهب فيه -أوضاع- كثير من الكتب النفيسة التي كانت مودعة في جامعى القيروان والزيتونة، حتى إذا كان عهد الدولة الحفصية وأخذ مؤسسها يستردَّ للبلاد ما كان بها من نهضة علمية أسس في القصة بعاصمة تونس مكتبة ضخمة جمع لها بقايا مكتبات الأغالبة والصنهاجيين، وأضاف إلى ذلك كثيرا من الكتب والمؤلفات ويقال إنها كانت تحتوى ستة وثلاثين ألف مجلد، وظل خلفاؤه يعنون بجمع الكتب لها، وظل الشيوخ والطلاب ينتفعون بكتبها طوال أيام الدولة الحفصية، وكان بها كتب نفيسة كثيرة، حتى لئرى ابن خلدون يذكر أنه بعد تأليفه لمقدمته بقلعة أبى سلامة في الجزائر احتاج إلى مراجعة بعض أمهات الكتب، فولى وجهه إلى تونس ليطلع على ما يريد منها في المكتبة الحفصية. واشتهر السلطان أبو فارس عبد العزيز أنه حين صار إليه صولجان الحكم سنة ٧٩٦هـ/١٣٠٤م عنى بتأسيس مكتبة تحت الصومعة بجامع الزيتونة وقف كتبها على طلبة العلم، وجعل لها وقتا محدودا للاطلاع فيها كل يوم وجعل عليها قومةً ومناولين يناولون الكتب للطلبة ويردونها إلى مكانها بعد فراغهم منها، واشترط في وقفيته أن لا يعار منها كتب في الخارج محافظة عليها وصيانة، وعنى بعده السلطان أبو عبد الله محمد بن الحسن بتأسيسه لمكتبة بنى لها مقصورة بطرف

صحن جامع الزيتونة، ونقل إليها كتب مكتبة أبي فارس وجعل لها وقتا محددًا للاطلاع وقومه ومناولين وسميت نسبة إليه باسم المكتبة العبدلية. وعبث الإسبان حين استولوا على تونس - في القرن العاشر الهجري - بهذه المكتبة وعانوا فيها فسادا، وأنقذ بعضهم منها كتبًا أرسل بها إلى مكتبة الفاتيكان بروما، ولا تزال بها إلى اليوم. ولم يكن العثمانيون أصحاب حضارة ولا ثقافة، فلم يعنوا بمكتبات تونس العناية الواجبة، حتى إذا قامت الدولة المرادية أخذ النشاط يعود إلى جامع الزيتونة ومكتبته، واطرد هذا النشاط في عهد الدولة الحسينية منذ استولى على مقاليد الحكم مؤسسها حسين بن علي إذ عين بالجامع أربعين مدرسا في مختلف العلوم الدينية واللغوية وأجرى لهم رواتب، وانتظم التعليم بالجامع منذ ذلك الحين.

٢

علوم^(١) الأوائل

لا يُذكر أحد من أصحاب علوم الأوائل قبل أيام الدولة الأغلبية إلا ما يتردد في كتب التراجم عن أشخاص يسمونهم فقهاء البدن، ولم يكونوا أطباء بالمعنى الدقيق لكلمة طب، إذ كانوا يعتمدون على بعض المعارف والخبرات البسيطة. وأول ذكر للطب بمعناه الدقيق - وبالمثل لعلوم الأوائل - نلتقى به في عهد الدولة الأغلبية حينما أنشأ إبراهيم الثاني الأغلبى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ) في عاصمته رقادة بجوار القيروان بيت الحكمة الذي أُلْمِنَا به فيما أسلفنا، إذ استقدم له من بغداد الدارسين للطب وعلوم الأوائل كى ينهضوا بالدراسة فيه، وكان ممن استجابوا له في سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧م إسحق بن عمران، وكان حاذقا بالطب وعلوم الأوائل، وفيه يقول إبراهيم الرقيق مؤرخ القيروان: «كان إسحق طبيبا حاذقا متميزا بتأليف الأدوية المركبة بصيرا بتفرقة العلل» ويقول ابن جلجل الأندلسى في كتابه طبقات الأطباء: «به ظهر الطب في المغرب وعُرفت الفلسفة» ويقول صاعد الأندلسى: «ممن اشتهر بعلم الطب وسائر العلوم المستنبطة من العلم الطبيعى إسحق بن عمران، وكان مقدما في جودة قريحته وصحة

الخامس من تاريخ الأدب العربى لبروكلمان والقسم الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية. بإفريقية التونسية والعلم عند العرب لألدومبيللى وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى.

(١) انظر في علوم الأوائل بإفريقية التونسية كتاب طبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والجزء الأول من البيان المغرب لابن عذارى وأخبار الحكماء للقفطى ومقدمة ابن خلدون، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ومعالم الإيمان لابن ناجى وبرنشفيك ٢/٣٨٧ وما بعدها. والجزء

علمه، وهو الذى ألف بين الطب والفلسفة بديار المغرب». وواضح أنهم جمعوا له بين الطب والصيدلة والفلسفة وعلوم الطبيعة، وهو - بحق - مؤسس مدرسة الطب وعلوم الأوانل بإفريقية التونسية، ومن تتلمذوا له فى الطب محمد بن الجزار وزياد بن خلفون، وفى الطب والفلسفة إسحق بن سليمان الإسرائيلى، وفى الفلسفة أبو سعيد الصيقلى، وألف مجموعة من الكتب فى الطب وغيره، لم يبق منها إلى اليوم سوى كتابه: المالىخوليا وفى مكتبة ميونخ مخطوطة منه، ويقول ابن جلجل فى هذا الكتاب: «لم يُسبق إسحق بن عمران إلى مثله، توفى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م. وكان يعاصره ويعمل معه فى بيت الحكمة فلكى من مواليد القيروان هو إسماعيل بن يوسف، رحل إلى العراق ودرس هناك علم الفلك والتنجيم، ويقول الزبىدى: «كان غاية فى علم النجامة» وحذق فى بغداد صناعة الطلاء المتصلة بتجميل وجوه النساء وأبدانها وتطريتها بصنوف من الطيب والعقاقير، وهو ما يسمى عند الغربيين باسم «الماكياج»، ولعلمه بهذا الطلاء والفلك استهر باسم الطلاء المنجم، وكان يشغل فى بيت الحكمة بالفلك والرياضيات، ولما غلب الفاطميون على القيروان غادرها إلى قرطبة. وهو دليل على أن بيت الحكمة فى رقادة كما كان يعنى بالطب كان يعنى بالرياضيات، ونفس المشرف عليه وهو أبو اليسر رئيس دواوين إبراهيم الثانى الأغلبي كان يعرف بلقب الرياضى مما يدل على علمه بالرياضيات، ولا بد أن كان البيت يعنى أيضا بالكيمياء والطبيعات وأيضاً بالفلسفة، فقد وضع إسحق بن عمران فيه أساس الدراسات فى كل ذلك.

ومن الأطباء الذين لمع اسمهم أيام إبراهيم الثانى الأغلبي زياد بن خلفون، وكان طبيباً فى دمنة (مارستان) القيروان، وكان يذهب إليها فى أيام معينة من الأسبوع لزيارة من بها من المرضى، وكان يزور أيضا دار الجذماء لرؤية المصابين والكشف عليهم وتتبع مسيرة مرضهم، توفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م. وفى سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م جلب أحد رسل زيادة الله الأصغر إليه طبيباً يهودياً ناشئاً من مصر يسمى إسحق بن سليمان الإسرائيلى، تتلمذ لإسحق بن عمران فى بيت الحكمة حتى إذا توفى خلفه فيه، وسرعان ما انتهت دولة الأغالبة فخدم العبيديين منذ خليفتهم المهدي إلى المعز، ويقول فيه ابن جلجل: «كان مشهوراً بالحدق والمعرفة، جيد التصنيف بالعربية بصيراً بالنطق يعنى بالفلسفة متصرفاً فى ضروب المعارف»، وعمر حتى بلغ المائة، وتوفى حول منتصف القرن الرابع، وأسند إليه يهود إفريقية رياستهم الدينية، وله مؤلفات فى الطب بالعربية وترجمت سريعاً إلى العبرية، ومن مؤلفاته العربية كتاب الحميات وكتاب البول وكتاب النبض وكتاب الترياق وكتاب بستان الحكمة وكتاب الأغذية والأدوية. ويشتهر فى القرن الرابع الهجرى طبيبان يهوديان من تلامذة إسحق بن سليمان الإسرائيلى هما دونش وموسى بن العزاز، ودونش من مواليد القيروان بأخرة من القرن الثالث الهجرى تخرّج على يديه إسحق بن سليمان الإسرائيلى فى الطب والنجوم والحساب والفلسفة، وكان يتقن العربية،

ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إن ابن البيطار ينقل في كتابه عن الصيدلة أو الأدوية المفردة عن كتاب له يسمى التلخيص وَصَفَه فِيهِ لِبَعْضِ النَّبَاتَاتِ، مما يدل على أنه كان كتابا في الأدوية المفردة، ويذكر الأستاذ عبد الوهاب أن له كتابا في الحساب الهندى وكتابا ثانيا في الفلك وحرارة الكواكب، وموسى بن العزاز طبيب إسرائيلى، توفى بعد سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م وقد خدم هو وأبناءؤه الدولة العبيدية وخلفاءها في المهديّة وبعد تحولهم إلى القاهرة وله كتاب باسم الأقراباذين أى الصيدلة، مما يدل على اهتمامه بتركيب الأدوية وطرق العلاج بها. ومن أطباء العبيديين الإفريقيين أعين بن أعين، وكان يجتري في القيروان طب العيون - ويسميه العرب - الكحالة، ولما انتقل المعز إلى القاهرة انتقل في جملة، وكان ماهرا في معالجة الرمد المزمن، ومن شفى على يديه شيخ المالكية ابن أبى زيد، وله كُنُاشٌ فِي الطَّبِّ وكتاب في أمراض العيون ومداواتها.

وتوارث الطب في القيروان - منذ عهد الأغالبة - أسرة بنى الجزائر، وأول من اشتهر بالطب فيها أبو بكر بن الجزائر تلميذ إسحق بن عمران طبيب بيت الحكمة كما يذكر ابن جلجل، ومثله أخوه إبراهيم وكان يُعنى بالكحالة أو طب العيون. وابنه أحمد المولود سنة ٢٨٥هـ/٨٩٨م بالقيروان أبرع أطباء الأسرة وقد توفى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م ومن طريف ما يروى عنه أنه بنى عند باب داره عيادة لاستقبال المرضى، وأفرد فيها قسما خاصا لصيدلية جعل لها فتي يسمى رشيقا، تعدُّ بين يديه جميع الأدوية من معجنات وأشربة ومراهم، وكان إذا فحص المريض ووقف على دائه وصف له في ورقة ما يناسبه من الأدوية، فيأخذها إلى رشيق ويعطيه دواءه الموصوف، بالضبط كما يحدث في عصرنا، فللأطباء عياداتهم وللأدوية صيدلياتها. وأحمد بن الجزائر يقوم في الطب بالقيروان مقام ابن سينا في إيران والزهرراوى في قرطبة. وللأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ترجمة ضافية له في القسم الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية تحدث فيها عن سيرته ومؤلفاته وفي مقدمتها كتابه: «زاد المسافر وقوت الحاضر» في علاج الأمراض مجلدان، ويقول عنه إنه «من أهم الكتب الطبية العملية التي وضعها المسلمون»، ويذكر أن قسطنطين المعروف باسم الحكيم الإفريقى عمد - حين رأس كلية ساليرنو في جنوبي إيطاليا - إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللاتينية ونسبه - كذبا وهتانا - إلى نفسه، ويلم بما كتب حول الكتاب من بحوث في العصر الحديث، ويذكر مؤلفات ابن الجزائر بأسمائها وقد بلغت سبعة وثلاثين كتابا في الطب والتاريخ والجغرافيا والأحجار الكريمة، وله بجانب كتبه الطبية الكثيرة كتابان في الصيدلة بعنوان: «البعية في الأدوية» و«الاعتماد في الأدوية المفردة».

وتظل حركة علوم الأوائل التي غرس الأغالبة جذورها نامية في أرض القيروان الطبية،

ونلتقى بأبي عبد الله محمد بن يوسف التاريخي القيرواني نزيل الأندلس المتوفى سنة ٣٦٣ في عصر المستنصر الأموي، وله كتاب عن مسالك إفريقيا وممالكها انتفع به أبو عبيد البركى في كتابه «المسالك والممالك»، ويُظن القيروان عصر الدولة الصنهاجية، وكل كتب القيروان العلمية النفيسة ترجمها القسيس قسطنطين سالف الذكر في أثناء رياسته لكلية سانيريو ولُدَيْر جبل كاسينو، ولم يكذب يترك كتابا علميا مهما لعلماء القيروان من أمثال إسحق بن عمران وابن الجزار إلا ترجمه هو ورهبان هذا الدير. وانتقلت ترجماته إلى العالم الغربي منذ القرن الحادى عشر الميلادى إذ توفى سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وكان لتلك الترجمات، كما مرَّ بنا، أثر بعيد في النهضة العلمية الأوروبية. وكان يعاصر الرياضى الفلكى الجزائرى ابن أبى الرجال رياضى قيروانى، هو عبد المنعم بن محمد الكندى القيروانى المتوفى سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م وكان إماما في الرياضيات حاذقا في فك الأشكال الهندسية لإقليدس. ومرَّ بنا - منذ قليل - أن الأمير على بن يحيى الصنهاجى (٥٠٩-٥١٥هـ) أنشأ مدرسة للكيمياء في عاصمته المهديّة، وقد أشرف عليها كيميائى أندلسى كبير، هو أمية بن أبى الصلت، ولم تدم بعد وفاته طويلا، غير أنها تدل على ما ظلّ بالمهديّة والقيروان من روح علمية حتى مطلع القرن السادس الهجرى.

ونلتقى في أوائل عهد الدولة الحفصية بعالم تونسى موسوعى كبير هو التيفاشى الكيمياءى أحمد بن يوسف المولود بقفصة التونسية سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م وقد ولاه أبوزكريا خطة القضاء ببلدة قفصة وله رحلات كبيرة إلى الشام والعراق وإيران وأبضا مصر واستقرَّ بها حتى توفى بعد سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م وكان قد تعمق كل فروع الثقافة الإسلامية كما تعمق علوم الأوائل، ورأى أن يضع للدارسين في وطنه والأوطان العربية موسوعة تضم كل العلوم والفنون والتاريخ، وجعلها في أربعين كتابا، وأفرد منها كتباً للطب والطبيعة ومظاهرها وكل ما فيها من نبات وحيوان ومعادن، وفي كل فرع من علم يذكر ما فيه لليونان والفرس وغيرها من العجم والعرب، ومن كتب هذه الموسوعة كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار وهو في علم المعادن، وقد نشر في هولانده بالقرن الماضى مع ترجمة لاتينية، وحققه في مصر الدكتور محمد يوسف حسن ونشره مع مقدمة تحليلية. وله كتاب عن الغناء والموسيقى وآلات الطرب سماه: «متعة الأسماع في علم السماع»، وفيه تحدث عن تاريخ الموسيقى عند العرب وفي إفريقية التونسية وفي الأندلس على مر العصور حتى زمنه، وهو طرفة نفيسة، ونلتقى في عهد المستنصر بطبيبه: ابن أندراس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٦م وكانت له مشاركة في الرياضيات والمعقولات، ويشتهر حينئذ آل الصقلى الزييات بالطب وابن الكماد الرياضى بوضعه الجداول الفلكية قبل سنة ٦٧٩هـ/١٢٨١م. وكان يلعب من حين إلى حين عالم بعلوم الأوائل وخاصة في مجال الطب لحاجة الناس والبيمارستانات إليه، ونضرب مثلا لهم عبدالسلام بن ابراهيم الزييات الصقلى المتوفى سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٣م وقد ألف ابنه أحمد المتوفى سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م للسلطان

الحفصى أبى فارس عبدالعزيز - كما فى الضوء اللامع للسخاوى - مختصراً فى الطب بؤبه إلى ثمانين باباً، ونضرب مثلاً ثانياً بطبيب هو عبدالرحمن بن أبى سعيد الصقلى المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ومثلاً ثالثاً هو أحمد الخميرى من أطباء تونس فى القرن العاشر الهجرى وله كتاب فى الطب والأطباء يسمى تحفة القادم.

ولم نعرض حتى الآن لعلم الجغرافية فى تونس، وتلقانا فى مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م فصول مختلفة فى حديثه عن العمران إذ يفرد فصلاً للحديث عن العمران فى الأرض وما بها من البحار والأنهار والأقاليم، وهو يعدها كرة، نصفها يابس ونصفه فقط المسكون أو المعمور، ويتحدث عن أقاليمها السبعة وانقسام كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ويقول صراحة إنه ينقل عن بطليموس الجغرافى المصرى القديم والإدريسى فى كتابه المشهور: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق الذى ألفه فى نحو منتصف القرن السادس لروجار الثانى النورمانى ملك صقلية، ويكمل حديثه الجغرافى فى ذلك عن الربع الشمالى من الأرض الأكثر عمراناً من الربع الجنوبى ويذكر مقتطفات من كتاب الإدريسى، ويضيف بعض معلومات عن جزر المحيط الأطلسى والسودان، وينقل عن ابن سعيد الجغرافى الأندلسى. وأهم من هذا الحديث الجغرافى الذى غلب عليه فيه النقل حديثه الذى يعد سابقاً فيه تأثير البيئة الجغرافية فى حياة البشر وتأثير الهواء فى ألوانهم والجوع والخصب فى أبدانهم وأخلاقهم، وبجانب هذه الجغرافيا الاجتماعية عنده جغرافيا اقتصادية يصور فيها العمران البدوى والحضرى، ونصف الحضرى والمعاش وألوانه. وهذه الوجوه من الجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية تعد الجوانب الجغرافية عنده.

ومعروف أن كثيرين من جغرافىي العرب عنوا بوضع خريطة للعالم، وكان بطليموس الجغرافى المصرى القديم قد وضع خريطة للعالم تدارسها علماء العرب فى عصر المأمون ووضعوا للعالم خريطة أكثر دقة، ومازال جغرافيو العرب يضعون خرائط على هدى خريطة المأمون حتى جاء الإدريسى المذكور آنفاً ووضع خريطته الكبيرة التى تراعى درجات الطول والعرض وقد أهداها إلى روجار الثانى الملك النورمانى. وتجد جيلين فى أسرة الشرفى بصفاقس فى الاقليم التونسى يعنيان بوضع خرائط للعالم ما بين عامى ٩٥٧هـ/١٥٥٠م و١٠٠٩هـ/١٦٠٠م تعد صوراً منقحة لخريطة الإدريسى كما يقول كراتشكوفسكى فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى العربى، وقد وضع أولهم: على بن أحمد الشرفى الصفاقسى سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م أطلساً فى ثمانى ورقات يصور بها سواحل البحر المتوسط وهى محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس. وفيها خريطة للقبلة وضحت عليها مواقع جميع البلدان بالنسبة للكعبة، ويليهما خريطة عامة للعالم ثم خرائط لسواحل إسبانيا وجزر البليار وسواحل إيطاليا ومعها جزيرتا كورسيكا وسردانيا والساحل

المقابل لإفريقيا ثم خرائط لسواحل البحر الأسود والساحل الجنوبي لآسيا الصغرى والشام ومصر وخريطة لليونان وجزر الأرخيبيل وكريت وساحل إفريقيا المقابل لها، وخريطة لبرقة وطرابلس وتونس. وفي أوكسفورد خريطة للعالم رسمها أحد أبناء الأسرة سنة ٩٧٩هـ/١٥٧١م. ويذكر كراتشكوفسكى خريطة للعالم لأحد أبناء الأسرة سنة ٩٨٦هـ/١٥٧٩م. وكان آخرهم محمد بن علي الشرفي الصفاقسي وله خريطة للعالم رسمها سنة ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م. وتدل هذه الخرائط على أن خريطة الإدريسي تحولت عند هذه الأسرة إلى أطالس وخريطة حائطية، وهو بلا ريب عمل جغرافي جليل لتونس.

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد^(١)

مرَّبنا حديث عن نشأة علوم اللغة والنحو بالقيروان وأنها اعتمدت على بعض رواة اللغة والشعر مثل أمان بن الصمصامة بن الطرماح، كما اعتمدت على بعض نحاة كوفيين وأفدين مثل قتيبة الجعفي وعياض بن عوانة، وسرعان ما ظهر جيل قيرواني خالص يعنى باللغة والشعر مثل أبي محمد عبد الله بن محمود المكفوف المتوفى سنة ٣٠٨هـ/٩٢٠م وأصله من سُرْت بليبيا، ويقول القفطي: «كان من أعلم خلق الله تعالى بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات وأيام العرب وأخبارها ووقائعها.. وله كتب كثيرة أملاها في اللغة والعربية والغريب، وله كتاب في العروض يفضله أهل العلم على سائر الكتب المؤلفة فيه لما بين فيه وقرب، وعليه قرأ الناس المشروحات، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب، وله أشعار فصيحة وأراجيز غريبة، وله كتاب في شرح صفة أبي زبيد الطائفي للأسد جود فيه وحسنه. وكان يعاصره عبد الملك بن قطن المَهْرِي القيرواني شيخ أهل اللغة والعربية وراوي القوم وعميدهم ورئيسهم كما يقول القفطي وكان من أحفظ الناس لأنساب العرب وأشعارهم ووقائعهم وأيامهم، وكانت الأشعار المشروحة تُقرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها، فلما دخلت هذه الأشعار مشروحة إلى القيروان نظر طلبة العلم من العربية فيها فلم يجدوا في شرحه خلافا لما قال أصحاب الشروح ولا وجدوا عليه في روايته وشرحه اللغوي شيئا من الخطأ، وهو

وكذلك ابن الأبار في الحلة السيرة وابن عذارى في البيان المغرب وانظر المؤلفات المذكورة للحصري وابن شرف وابن رشيق في تراجمهم وراجع كتابنا المدارس النحوية في ابن عصفور ومراجعته.

(١) راجع في تراجم هذه الموضوعات طبقات النحويين واللغويين للزبيدي وإنباه الرواة للقفطي ومعجم الأدياب لياقوت وانظر في عبدالدايم بن مرزوق بغية الملتبس للضبي والصلة لابن شكوال وراجع الأتمودج لابن رشيق في المنزه بأشعارهم منهم

تلميذ لأمان بن الصمصامة وعباض بن عوانة وقتيبة الجعفي وكثير من الأعراب مثل أبي المنيع الأعرابي وغيره، غير أنه عُمِّرَ عمراً طويلاً، إذ توفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م. ومن معاصريه أحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم أبو بكر اللؤلؤي المتوفى سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م وكان من العلماء النقاد في العربية والغريب والنحو والقيام بأكثر دواوين العرب، وهو تلميذ أبي محمد المكفوف المذكور آنفاً، وألَّفَ كتاباً في الضاد والظاء فحسَّته وبيَّنه. ولم تلبث القيروان أن أخرجت لغويًا كبيراً طار اسمه في الآفاق هو القَرَّاز محمد بن جعفر التميمي المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م درس على شيوخ القيروان، ثم رحل إلى العراق فدرس على أئمة اللغة والنحو، ونزل في القاهرة أيام العزيز نزار (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) وعُرف فضله، فبين في دواوين العزيز، وألَّفَ له - استجابة إلى طلب منه - كتاباً في الحروف التي ذكرها النحاة في قولهم: إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى على أقصد سبيل وأقرب مأخذ وأوضح طريقة، فيبين معاني الحروف مع ترتيبها على حروف المعجم، فبلغ الكتاب ألف ورقة، وقدم إلى العزيز صورةً منه فأعجبه ورضيه. وتوفى العزيز فعاد إلى القيروان وسُغف به وبمجالسه الطلاب والمتأدبون لعلمه اللغوي الغزير وحسن تذوقه للأدب، ولم يكن ذواقة للأدب والشعر فحسب، بل كان أيضاً ناقدًا بصيرًا وشاعرًا مجيدًا، وتخرج على يديه ابن شرف القيرواني الشاعر المبدع وابن رشيق الشاعر والناقد الممتع. وله في اللغة معجم سماه «جامع اللغة» وهو معجم كبير رتبته على حروف المعجم، ويقول ياقوت في معجم الأدباء عنه إنه يقارب في الحجم معجم التهذيب للأزهري، وله في الضاد والظاء وتبادلها في الكلمات مبحث كبير في ثلاثة أجزاء، وله المثلث في اللغة، وله كتاب ما أُخذ على المتنبي من اللحن والغلط، وكتاب العشرات يذكر فيه اللفظ ومعانيه المترادفة، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة، وله إعراب مقصورة ابن دريد وشرحها، وكتاب الحلى والشتيات في أوصاف الأدميين طُبِعَ في صيدا بلبنان، وله شرح رسالة البلاغة في مجلدات، ومن كتبه الطريقة ضرائر الشعر، وهو دراسة تفصيلية لما يجوز للشاعر استعماله من ضرورات الشعر، وهو مطبوع بتونس. وولتقى بتلميذه الحسن بن محمد التميمي اللغوي النسابة، وكان القزاز قد عنى به محبة له، فبلغ به نهاية الأدب وعلم الخبر والنسب، وكان شاعرًا ناهياً قوى الكلام خبيراً باللغة، وكان شديد الشغف بديوان ذي الرمة، وعنه أخذته الناس كما أخذوا دواوين الجاهلية. وكان يعاصره إسماعيل بن إبراهيم القيرواني اللغوي، تقدَّم في علم الغريب وطلبه وعلو سماعه، وكان يبحث عن الشذوذ اللغوي بحثاً شديداً، وإلى أمهات كتبه ترجع - كما يقول القفطي - جميع النسخ وبها تُقَابَلُ وعليها تُصْلَحُ، وهو من مدَّاح المعز بن باديس وفيه يقول:

بَدَّ الملوك جلالَةً ومهابَةً وعَلا على النُظراء والأشكالِ

ولتلقى بعبد الدائم بن مرزوق المتوفى سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م كما في بغية الملتبس للضبي،

درس العربية على شيوخ القيروان وارتحل إلى المشرق وتجوّل في حلقات شيوخه بالبصرة وبغداد، ودخل الشام والتقى بأبي العلاء المعري، وأخذ عنه ديوانيه: سقط الزند واللزوميات، وعاد إلى بلده، ولم تلبث هجرة الأعراب أن اكتسحت القيروان فهاجر إلى الأندلس، ونزل المرية وإشبيلية، وهناك أخذ يلقي دروسه، ويروي أشعار أبي العلاء، ومن تتلمذ عليه عالم الأندلس اللغوي ابن السيد البطليوسي بشهادة ما يرويه عنه في كتابه: «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» كما لاحظ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويقول إنه أول من أدخل شعر أبي العلاء إلى إفريقية والأندلس، وأكبر الظن أن نسخة سقط الزند التي شرحها ابن السيد وطبعت مع شروح السقط الأخرى في القاهرة مأخوذة عن نفس المخطوطة التي حملها ابن مرزوق عن أبي العلاء، وكأنه شرحه بمجرد أن سمعه من ابن مرزوق، وأظن نفس الظن إزاء شرح ابن السيد لطائفة كبيرة من شعر اللزوميات المطبوع في جزئين في القاهرة، إذ اعتمد في هذا الشرح - فيما أظن - على رواية اللزوميات التي سمعها عن ابن مرزوق، والأبيات - في رواية ابن السيد - تصحح كثيراً من أبيات اللزوميات المنشورة، ولعل محققاً تونسياً محظوظاً يجد في جامع الزيتونة أوجاع عقبة مخطوطة من اللزوميات مأخوذة - أو مروية - عن نسخة ابن مرزوق قبل مبارحته القيروان إلى الأندلس، ويمكن التأكد من ذلك يراجعها على شرح اللزوميات لابن السيد. وله معجم في اللغة وشرح على ديوان المتنبي.

ويلقانا في أوائل عهد الدولة الحفصية محمد بن أبي الحسين المتوفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م حاجب أبي زكريا مؤسس الدولة ووزير ابنه المستنصر، وهو من أسرة بني سعيد الغرناطية، وكان لغويا وشاعراً وكان ابن سيده الأندلسي قد رتب معجمه «المحكم» على أساس مخارج الحروف طبقاً لمعجم العين للمخيل بن أحمد، فقلب ترتيبه إلى ترتيب معجم الصحاح للجوهري، وسمى صنيعه «ترتيب المحكم». وكان يعاصره عالم لغوي من علماء الهجرة الأندلسية في القرن السابع الهجري هو أحمد بن يوسف اللبلي الأندلسي المتوفى بتونس سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله على كتاب الفصيح ثلث شرح سماه: «تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح» ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب إنه ينقل فيه مراراً عن معجم القزاز: «جامع اللغة» وعن كتابه: «المثلث» كما ينقل فيه أيضاً عن معجم ابن مرزوق، وكأن أعمال ابن مرزوق - وفي ظننا ما رواه من شعر أبي العلاء - كان لا يزال محفوظاً في موطنه حتى نهاية القرن السابع الهجري.

وكل من نظمناهم في سلك اللغويين - أو كثرتهم - يوصفون في كتب التراجم بأنهم كانوا نحاة كما كانوا لغويين غير أننا لاحظنا أنه غلبت عليهم مباحث اللغة، ومرّبنا في الحديث عن النشأة اللغوية أنه كان بين اللغويين نحويان كوفيان استوطنا القيروان وقد خلف بعدهما جيل

قيروانى خالص عُنى بالنحو وتعليمه، منه حمدون محمد بن إسماعيل المتوفى بعد المائتين، وفيه يقول الزبيدى: «كان مقدما في العربية والنحو وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة منه باللغة، لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه ويستظهره» ويقول القفطى له كتب في النحو وأوضاع في اللغة، وكان أحد المتشدقين في كلامه والمتقربين في خطابه. وكان يعاصره أحمد بن أبي الأسود النحوى القيروانى كان يقرب النحو واللغة بمسجد قرب داره، يقول الزبيدى عنه: «له تصانيف في النحو والغريب ومؤلفات حسان، ويقول القفطى: كان غاية في علم النحو واللغة. ومن معاصريه عبد الله بن أبي حسان اليحصبى المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٤١م رحل إلى العراق وأخذ النحو عن أعلامه في البصرة والكوفة، وعاد إلى القيروان فأفاد الطلاب بما حمل من النحو وقواعده. وينشط علماء النحو في القرنين الثالث والرابع للهجرة بالقيروان، ومنهم السبىخى أبو على النحوى الضرير المتوفى سنة ٣٤٢هـ/٩٥٣م وبنوه المالكى في كتابه: «رياض النفوس» بمعرفته الواسعة باللغة والنحو وله كتاب أقيسة الأفعال. وكان يعاصره ابن الوزان إبراهيم بن عثمان المتوفى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٧م يقول الزبيدى عنه: «إمام الناس في النحو (بالقيروان) وكبيرهم في اللغة وعظيمهم في العربية والعروض، وانتهى في اللغة العربية إلى ما لعله لم يبلغه أحد قبله، وأما في زمانه فما يشك فيه أحد، حفظ كتاب سيبويه وكتاب المصنف في غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام وإصلاح المنطق لابن السكيت ومعجم العين للخليل بن أحمد وغير ذلك من كتب اللغة ثم كتب الفراء، وكان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضل المازنى في النحو وابن السكيت في اللغة، وكان يستنبط من مسائل العربية والنحو أموراً لم يتقدمه فيها أحد. واشتهر بعده عبد العزيز بن أبي سهل النحوى القيروانى الضرير المتوفى بالقيروان سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م وكان شاعراً مطبوعاً، ويقول ابن رشيق في وصفه: «كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً مفتقراً إليه فيها بصيراً بغيرها من العلوم.. ولا غنى لأحد من الشعراء الخذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه، ولم ير ضرير أطيب منه نفساً ولا أكثر حياءً. وكان يعاصره عبد العزيز بن خلوف النحوى، نوّه ابن رشيق بشعره وقال له في سائر العلوم حظوظ وافرة، وحقوق ظاهرة، وأغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلق بها، وفيه ذكاء يخرج عن الحد المحدود. وتلقى يعلى بن فضال المتوفى ببغداد سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وهو من سلالة الفرزدق الشاعر الأموى المشهور ومن أبناء القيروان الناهيين في عصره غادرها مع الهجرة الأعرابية المشهورة إلى الشرق حتى نيسابور وغزنة، وعاد إلى بغداد، فضمه نظام الملك إلى مدرسته النظامية بها حتى وفاته، وهو مفسر كبير للذكر الحكيم، وله مصنفات مختلفة في الأدب والتاريخ، وكان إلى ذلك عالماً كبيراً في النحو واللغة، ومما صنّفه في النحو «أكسير الذهب في صناعة الأدب» في عدة مجلدات وكتاب العوامل والهوامل وكتاب الإشارة إلى تحسين العبارة وشرح عنوان الإعراب والمقدمة وشرح معاني الحروف وغير ذلك وله كتاب في العروض.

ودرس مثله في النظامية ببغداد معاصره ومواطنه عبد الله بن مسلم القيرواني النحوي أبو محمد المتوفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ويقول القفطي: كان له معرفة بالنحو واللغة. وتكاد تتوقف الحركة العلمية في الدراسات النحوية نحو قرن أو تزيد بسبب الهجرة الأعرابية وماحدث بعدها من حروب قراقوش وابن قراتكين وابن غانية: على ويحيى.

وتنهض بالبلاد الدولة الحفصية ويعود إلى الحركة العلمية نشاطها، وخاصة في مدينة تونس عاصمة تلك الدولة، ويبدأ المهاجرون من الأندلس في صدر تلك الدولة من كبار العلماء والأدباء بوقود أدبي وعلمي جزل، فتزداد اشتعالا وضياء ونورا. ومن صفوة من هاجر إليها من نحاة الأندلس إمام كبير من أئمة النحو هو ابن عصفور الإشبيلي أبو الحسن علي بن مؤمن المولود سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م والمتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م وقد رحب به مؤسس الدولة أبو زكريا واتخذ أستاذا ومعلما لابنه وولى عهده المستنصر، وأسند إليه التدريس في جامع الزيتونة وفي مدرسته الشماعية، وكان يدرس للطلاب كتاب سيبويه وكتاب الجمل للزجاجي والإيضاح لأبي علي الفارسي وله عليهما شرحان، كما كان يدرس لهم مصنفه البديعين: المقرب في الصناعة النحوية والتمتع في الصناعة الصرفية وأخذت أعماله في عصرنا موضوعات للحصول على الدرجات العلمية في الجامعات العربية لحسن عرضه لمسائل النحو وأبوابه حدودا وترتيباً وتقسيماً، وفي كتابنا المدارس النحوية ترجمة له وبيان لبعض آرائه التي انفرد بها بين النحاة، وأخذ عنه في تونس النحو تلاميذ كثيرون بحيث أصبحت له فيها مدرسة كبيرة، وتذكر أسماء نحاة في القرون التالية، ومن أهمهم في العهد العثماني محمد فتاة الفقيه في القرن الثاني عشر الهجري كان يقرئ الطلاب في جامع الزيتونة مغني ابن هشام في النحو ولعبد القادر الجبالي شرح على شواهد المغني في أربع مجلدات ولمحمد سعادة حاشية على الأشموني سماها تنوير السالك من شرح منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ولمحمد بن علي بن سعيد الحجري المتوفى سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م حاشية مطولة على شرح الأشموني لألفية ابن مالك.

ومنذ نزول العرب واستيطانهم في إفريقية التونسية كان كثيرون منهم ينشدون الأشعار العربية ويروونها للأجيال الناشئة، وما يتقدم القرن الثاني الهجري حتى تتردد في كتب التراجم أسماء رواة للشعر كان يلتف حولهم الشباب في القيروان وغير القيروان لكتابة الأستعار وتدوينها، نذكر منهم سليمان بن حميد الغافقي، وله ترجمة في كتاب الحلة السيرة لابن الأبار، وهو ممن قدموا مع الحملات التي كان يوجهها الأمويون إلى القيروان والمغرب، وله مشاركة في الأحداث التي مرت بنا أيام عبدالرحمن بن حبيب وقتل أخيه إلياس له وعاش إلى أيام يزيد ابن حاتم المهلبى (١٥٥-١٧٠هـ) ويقول ابن الأبار في التعريف به: «فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره وأحسن الناس لسانا وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها ورواية لوقائعها

وأشعارها.. حُمِلت عنه نوادر مستطرفة وحكايات مستملحة، وروى له ابن الأبار شعراً في أحد موافقه مع بعض ثوار البربر. ومن هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار في القيروان الحكم بن ثابت السعدي، دخل إفريقية - كما يقول ابن عذارى - سنة ١٤٤هـ/٧٦١م مع جيش محمد بن الأشعث للقضاء على ثورة الإباضيين في طرابلس وتونس لعهد المنصور، وكان أحد قواد الجيش وبعد القضاء على تلك الثورة سكن القيروان، حتى إذا تولى الأغلب التميمي بعد ابن الأشعث شهد معه حرب بعض الثوار من البربر سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م وهو من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي المشهور، وكان شاعراً وراويّة كبيراً للشعر، روى عنه أبناء القيروان كثيراً من أشعار الجاهليين والمخضرمين. ومن هؤلاء الرواة للأشعار الحسن بن منصور بن نافع المذحجّي، وفيه يقول ابن الأبار: «كان بصيراً باللغة نافذاً في النحو عالماً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها». وحرى أن نضيف إلى هؤلاء الرواة المبكرين للأشعار الجاهلية والإسلامية المعمر بن سنان التميمي القادم مع يزيد بن حاتم المهلبى في ولايته، وقد ذكرناه في نشأة العلوم اللغوية، وأيضاً لا بد أن نضيف كبار الشعراء الواقدين على يزيد بن حاتم لمديحه مثل ربيعة الرقّي الشاعر العباسى النابه وبالمثل من وفد عليه من اللغويين والنحاة أمثال يونس بن حبيب عالم البصرة النحوى واللغوى الكبير، فهؤلاء جميعاً شاركوا في رواية الشعر الجاهلي والإسلامي لشباب القيروان.

ومر بنا أن عبد الملك بن قطن كان يشرح أشعار الجاهليين والإسلاميين ويفسّر معانيها وأنها حين نُقلت إلى القيروان ومعها شروحها وجد طلابه أن هذه الشروح تطابق شروحه. ولم تُنقل إلى القيروان في القرن الثالث الهجرى الدواوين القديمة الجاهلية والإسلامية فقط، بل أخذت تنقل أيضاً دواوين الشعراء العباسيين ويشهد لذلك ما روى عن أبي اليسر الشيباني رئيس ديوان الإنشاء المتوفى سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م من أنه أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين (العباسيين) وأشعارهم، وهو لم يدخل دواوين أمثال بشار وأبي تمام فحسب، بل أدخل أيضاً رسائل أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون وغيرهم، ومثل ذلك أصبح منذ القرن الثالث الهجرى مدّ أيدي المتأديين في القيروان وتلقاه أبصارهم عن طريق من كانوا يرتحلون إلى المشرق-أوفدون منه-ويحملون نفائسه من الدواوين والرسائل. ومن يقرأ المنتخبات الرائعة من الشعر والنثر التي جمعها أبو إسحق إبراهيم الحصرى المتوفى سنة ٤١٢هـ/١٤٢١م باسم «زهر الآداب وثمر الألباب» و«جمع الجواهر في الملح والنوادر» يعرف أنه لم يكن في المشرق ديوان لشاعر عباسى ولا رسائل لكاتب أموى أو عباسى ولا مجموعة في الشعر أو في النثر، لم يكن شيء من ذلك كله غائباً عن القيروان وأديبها الحصرى، فقد اختار في مجموعته السالفتين أروع وأبدع ما للمحدثين العباسيين من شعر ونثر وأخبار ونوادر وملح كما يقول، حتى لنجد عنده قطعاً من نصوص أدبية مفقودة إذ نراه مثلاً يختار لسهل بن هرون قطعاً

من قصصه الطريفة التي صاغها محاكاة لقصص كليلة ودمنة، والتي لا يوجد منها الآن في المشرق شيء. وقد ولد بقرية تسمى الحضر بجوار القيروان فنسب إليها، وهو أستاذ علمين من أعلام الأدب في القيروان: ابن رشيقي وابن شرف، وكان ودوداً ومألماً لشباب القيروان ومتأديبها، فكانوا يجتمعون عنده ويأخذون عنه كما قال ابن رشيقي وقال عنه أيضاً: إنه كان شاعراً ناقدًا عالماً بتنزيل الكلام، وقد افتتح به كتابه الأتموزج في شعراء القيروان، وذكره مراراً في كتابه العمدة، واستشهد فيه ببعض أشعاره. وكان بحق - كما قال ابن رشيقي - ناقدًا ذواقاً للأدب، فجمع - وخاصة في زهر الآداب - فرائد بديعة من شعر المحدثين ونثرهم وأخبارهم، وكأنه أراد بذلك أن يكمل كتاب البيان والتبيين للجاحظ، إذ رآه يشغله بكلام الإسلاميين والجاهليين، ولا يعنى بالعباسيين العناية الكافية فرأى أن يكمل مختاراته الجاهلية والإسلامية بمختاراته الشعرية والنثرية للعباسيين، ولاحظ ذلك ابن بسام في ترجمته بالقسم الرابع من كتابه الذخيرة. فقال: «عارض الحصري أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بزهر الآداب فلعمري ما قصر عن مداه ولا قصرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه بكلام أهل العصر (يريد العباسيين) دون كلام العرب لكان كتاب الأدب، لا ينازعه ذلك إلا من ضيق عينيه الرمذ، وأعمى بصيرته الحسد». وهي شهادة قيمة بروعة الكتاب وروعة ما يحمل من النصوص العباسية شعراً ونثراً. وربما كانت أهم مجموعة أدبية بعده في القطر التونسي مجموعة الحماسة لأبي الحجاج يوسف بن محمد البياسي الأندلسي نزيل تونس المتوفى سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٦م وقد كتبها بتونس سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وقرأها الطلاب عليه، ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية. وحاول ابن شرف القيرواني الشاعر المتوفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م بالأندلس أن يكون له نصيب في عالم النقد، فكتب مبحثاً يسمى تارة أعلام الكلام، وتارة رسائل الانتقاد، وطبع بالعنوانين، تناول فيه الشعر والشعراء منذ الجاهلية إلى زمنه، وهو ملاحظات مجملية أكثر منه آراءً نقدية، أو هو انطباعات عن الشعراء في جمل مسجوعة، وكأنه يؤلف مقامة - لامبحثاً نقدياً - عن الشعراء، ومن قوله عن أبي نواس: «أول الناس في خرم القياس. وذلك أنه ترك السيرة الأولى وتنكب عن الطريقة المثلى، وجعل الجد هزلاً صادف الأفهام قد كُتت.. فتهاذى الناس شعره، وأغلوا سعره، وشُغفوا بأسخفه، وكلفوا بأضعفه» ويقول عن ابن الرومي: «شجرة الاختراع، وثمرة الابتداع، وله في الهجاء ما ليس له من الاطراء، فتح فيه أبواباً، وخلع منه أثواباً، وطوق فيه رقاباً، يطول عليها حسابها، ويمحق فيها ثوابها» وكأنه يقيس هجاءه بمقياس خلقه لا بمقياس فتي، ويقول في المتنبي: «شُغلت به الألسن، وسهّرت في أشعاره العيون الأعين، وكثر الغائص في بحره، والمفتش في قعره عن جمانه (لؤلئته) ودُرّه، وله شبيعة تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتعاون في جرحه»، وهكذا آراؤه في الشعر انطباعات لا تحمل تعليلاً ولا دليلاً.

ولم تعن القيروان بالبلاغة كما عنيت بالنقد، وأكبر نقاد القيروان وبلاغيتها المعدودين في النقاد والبلاغيين الكبار ابن رشيق المتوفى بمازr في صقلية سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م وله كتاب «قراضة الذهب في صناعة الأدب» وهو في السرقات الشعرية، وله كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده»، وهو يجمع فيه بين النقد والبلاغة، ويقول فيه الففطى: «اشتمل على مالم يشتمل عليه تصنيف من نوعه وأحسن فيه غاية الإحسان» وقال القاضى الفاضل: «هو تاج الكتب المصنفة في هذا النوع» وقال فيه ابن خلدون في مقدمته: «هو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة - يريد صناعة الشعر - وإعطائها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله». وهى شهادة قيمة. وكل من يقرأ الكتاب يعرف بوضوح أن ابن رشيق وضع بين يديه كل ما أنتج المشرق من مباحث ومؤلفات فى النقد والبلاغة من مثل البيان والتبيين للجاحظ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة والبديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة ونقد النثر لابن وهب والموازنة للأمدى والصناعتين لأبى هلال العسكرى وكتابات الحامى فى البديع والبلاغة وأضاف إلى ذلك كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلى، وسوى من ذلك كله - وربما اطلع على كتب أخرى - كتابه الذى ذاع وشاع فى العالم العربى غرباً وشرقاً منذ تأليفه إلى اليوم لدقة منهجه وحسن تبويبه وترتيبه، ولما يحمل من مواد طريفة تحيط بالشعر وصنعه ونقده وفنون بلاغته، وقد بدأه بالدفاع عن الشعر والشعراء واضعاً الشعر فى مرتبة بلاغية أعلى من مرتبة النثر، ويفرد باباً لبلاغة اللفظ والمعنى قائلاً إنها متلازمان، فاللفظ جسم وروحه المعنى، ويقول إن للشعر لغة خاصة به، ويعرض للمكترين والمقلين من الشعراء وللمطبوعين والمتكلفين ولأصحاب مدرسة البديع وللوزن والقافية وعمل الشعر وشحد القرىحة له ولافتتاح الشعراء قصائدهم بالنسيب وللمبدأ والخروج من فاتحة القصيدة إلى موضوعها وللمخترع فى الشعر والبديع، ويفصل القول فى الاستعارة والتشبيه أهم ألوان البيان ويفيض إفاضة واسعة فى ذكر ألوان البديع ومحسناته متأثراً بأبى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين والحامى فى كتابه حلية المحاضرة، وقد اعتمد على الكتاب الأخير اعتماداً واسعاً فى حديثه عن ألوان البديع وفنونه من مثل الجناس والطباق والمقابلة والتتميم والتسهيم والترصيع وصحة التقسيم إلى غير ذلك من محسنات كثيرة. وكأن القيروانيين لم يجدوا حاجة إلى التأليف فى البلاغة وفنون البديع بعده، وبالمثل فى نقد الشعر وصناعته، وقد تحدث حديثاً مستفيضاً عن موضوعات الشعر بادئاً بالنسيب ومفصلاً القول فى كل موضوع تفصيلاً دقيقاً، وتحدث عن السرقات الشعرية، واتفق مع النقاد فى أن السرقة إنما هى فى البديع المخترع الذى يختص به شاعر ويسرقه أحد الشعراء، لا فى المعانى المشتركة بين الشعراء، ويذكر ما يحتاج إليه الشاعر من المعارف والثقافة. والكتاب غنى بالأفكار والآراء النقدية، ومثله فى هذا الغنى كتابه: «أتمودج الزمان فى شعراء القيروان» وقد جمعه من بطون المخطوطات وغيرها من الكتب وحققه

تحقيقاً علمياً سديداً الأستاذان محمد العروسي المطوي وبشير البكوش وقدما له بمقدمة قيمة. وقد استطاعا بدأبهما العلمي جمعه من مخطوطات مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري والوافي بالوفيات للصفدي وغيرها من المخطوطات والمصادر، وبذلك رَدَّاه إلى الحياة بصورة إن لم تكن طبق الأصل تماماً، فهي مقارنة له أشد القرب، وفي الكتاب مائة ترجمة للشعراء من معاصريه، مما يدل على حدوث نهضة شعرية لعصره في القطر التونسي. وهو يستهل كل ترجمة لشاعر بسطور عنه وعن صفته وشعره ثم يورد ما اختاره من أشعاره مع بعض أحكام نقدية. والكتاب يُورخ بدقة للحركة الأدبية في عصر الدولة الصنهاجية، وبعبارة أدق في عصر المعز بن باديس. ولا يلقانا بعد ابن رشيقي ناقد كبير أو بلاغي كبير في القيروان أو تونس إلا ما كان من حازم القرطاجني نزيل تونس في عهد المستنصر بن أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وعاش حتى سنة ٦٨٤هـ - ١٢٨٦م وله في النقد والبلاغة كتابه المعروف: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» وهو فيه يمزج بين قواعد النقد والبلاغة عند العرب وقواعدها عند اليونان وبدون ريب أفاد منه المتأدبون بتونس، وأنه أعاد لهم درسه مراراً، وقد تحدثت عنه في الجزء الخاص من هذه السلسلة بالأندلس.

٤

علوم^(١) القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

بمجرد أن أُسِّسَت القيروان وتونس كان هناك مقرنون كثيرون يُقرنون الناشئة في الكتابيب، ودائماً أينما وُجد الفاتحون في صدر الإسلام والعصر الأموي دَوَّوا بالقرآن الكريم دَوَّى النَّحْل، وكان منهم دائماً من يتجرّدون لتحفيظه للداخلين في الإسلام وإقراءهم آياته الكريمة، ومن الصعب التعرف عليهم ومعرفة أسمائهم، فهم كالجندى المجهول، يُرى أثره ولا يُعرف اسمه، غير أن كتب التراجم أحياناً تذكر بعض الأسماء ممن حَطُّوا بإقراء القرآن في الأزمنة المبكرة،

بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان لحسين خوجة تحقيق وتقديم الأستاذ الطاهر العموري وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف وعنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم وأديب وكتاب وركات للأستاذ حسين حسني عبد الوهاب والحياة الثقافية بإفريقية صدر الدولة الحفصية (مقال في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

(١) راجع في هذه العلوم طبقات أبي العرب ورياض النفوس للملكي وطبقات القراء لابن الجزري ورحلة العبدري وطبقات المفسرين للسيوطي ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجي ومقدمة ابن خلدون في العلوم والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون والحلل السندي في الأخبار التونسية لأبي عبد الله السراج تحقيق الأستاذ محمد الحبيب الهيلة وذيل

من ذلك اسم أبي منصور مولى سعد بن أبي وقاص، وهو - كما في كتابي رياض النفوس والعالم - ممن دخل إفريقية وسكن القيروان، وكان مقرنا للقرآن ومحدثنا وفقهيا مفتيا. واجتماع الفقه ورواية الحديث النبوي مع إقراء القرآن الكريم لأبي منصور لا يستغرب، لأن التابعين من أمثاله كانوا يجمعون بين إقراء الناشئة والناس للقرآن وإسماعهم بعض الأحاديث النبوية وتفقيهم في الدين بمعرفة أحكامه وتعاليمه. وعلى هذه الشاكلة كان الفقهاء العشرة أعضاء وفد عمر بن عبد العزيز لسنة مائة للهجرة، فهم يقرئون الناس الذكر الحكيم ويروون لهم بعض الأحاديث النبوية ويعلمونهم أمور دينهم الخفيف. وعُني بعض القيروانيين بحمل قراءات القرآن عن نافع قارئ المدينة. وكان ورش المصرى قد حمل قراءته فأخذتها جماعة من القيروان عن تلاميذه المصريين. ومن أهمهم في القرن الثالث الهجرى محمد بن عمرو بن خيرون المتوفى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م. وقد حمل قراءة ورش، وقدم بها إلى القيروان كما يقول ابن الجزرى فى طبقاته، وكان الغالب على قراءة الناس فيها قراءة حمزة أحد القراء السبعة، ولم يكن يقرأ قراءة نافع إلا خواص الناس، فلما قدم ابن خيرون إلى القيروان اجتمع عليه الناس ورحل إليه القراء من آفاق المغرب، ومن مؤلفاته كتاب الابتداء والتمام وكتاب الألف واللام. وكما أخرجت القيروان إماما لغويا هو القزاز، وإماما ناقدًا بلاغيا هو ابن رشيقي، أخرجت إماما فى القراءات، هو مكى بن أبى طالب القيسى المولود بالقيروان سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م ولما استكمل القراءات بالقيروان رحل إلى مصر سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م وتلمذ فى القاهرة لشيوخ قرائها ابن غلبون، وكان يعود إلى بلده ثم يرجع إليه، حتى أخذ كل ما عنده، وهاجر إلى قرطبة سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وظل يقرئ بها الناس حتى توفى سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وله فى القراءات كتاب التبصرة فى خمسة أجزاء، وكتاب ثان فى أصول قراءة نافع، وكتاب ثالث فى المدّ لورش، وذكر له ابن خلكان عشرات من الكتب فى القراءات والتفسير والفقه والعربية. وكان يعاصره أحمد بن عمار المهدي المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله كتاب الهداية فى القراءات السبع وله عليه شرح كما يقول ابن الجزرى وله كتاب الموضح فى تعليل وجوه القراءات. وظلت قراءة الذكر الحكيم ناشطة فى القيروان على مدار السنين، واشتهرت بها أسرٌ توارثتها جيلا بعد جيل، ويصور ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره العبدري فى رحلته حين زار تونس فى سنتى ٦٨٨هـ/١٢٩٠م و٦٩١هـ/١٢٩٢م والتقى بالرحالة التونسي أبى الحسن على بن إبراهيم التجانى فى مسجد إقرائه، وما قال له: «أنا الثانى عشر مدرسا من آبائى على نسق كلهم قعدوا هنا» (أى فى هذا المسجد) للإقراء، وهذا يعنى أن بيت التجانى فى تونس توارث الإقراء للقرآن طوال اثنى عشر جيلا متعاقبين، وإذا حسبنا لكل جيل ثلاثين سنة على الأقل كان معنى ذلك أن الأسرة توارثت إقراء القرآن نحو ثلاثة قرون ونصف أى منذ منتصف القرن الرابع الهجرى. ومن كبار القراء فى العهد الحفصى أبو القاسم الليدى معاصر التجانى صاحب الرحلة، وكان الطلاب يقرءون

عليه بسجد إقرائه كتاب التيسير في القراءات السبع للداني. وأشهر القراء بعده محمد بن بدال المتوفى بمنتصف القرن الثامن الهجري وكان يدرس لطلابه قصيدة الشاطبي في القراءات: حرز الأمانى ويفسر أبياتها لهم، ولجمال ترتيله وحسن صوته كانت تُشَدُّ إليه الرحال لسماعه، وكان السامعون من حوله يُروُّن بين خاشع وباك وداع. وكان يعاصره محمد بن محمد بن حسين الأنصارى، وكان يقرئ تلاميذه بقراءة الأئمة الثمانية، ومنهم الفقيه الكبير محمد بن عرفة الورعوى الآتى ذكره بين الفقهاء والمتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري وكان مقرنا كبيرا ومجودا عظيما للقرآن الكريم. ويكثر في ترجمة العلماء أن يقال عنهم إنهم يجيدون في قراءة القرآن، ونجد في العهد العثماني وظيفة في جامع الزيتونة مخصصة لقراء القرآن العظيم على كرسى الجامع، ومن تولاها الشيخ على السويسى، وأبضا وظيفة أخرى لشيخ القراء ومن تولاها في القرن الثاني عشر الهجري مصطفى الأزميزلى، وكان يعاصر قاره باطاق وله كتاب في القراءات العشر سماه: «الجواهر النضرة والرياض العطرة في متواتر القراءات العشرة».

وطبيعى أن كانت الأجيال الأولى في القيروان وتونس التى اعتنقت الدين الحنيف وأخذت تحفظ بعض آيات القرآن تطلبت معرفة تفسير ما تحفظه، فكان المقرئون الأولون لهم يحاولون إفهامهم ما يحفظونه، وتنشأ في المشرق حركة واسعة في تفسير القرآن، ويشتهر عبد الله بن العباس الصحابى الجليل ابن عم الرسول ﷺ بإتقانه لتفسيره حتى ليصبح إماما كبيرا فيه، ويحمله عنه تلاميذ مختلفون، ويتوزعون بما حملوه في البلدان الإسلامية وتحظى القيروان بتلميذ بربرى له، هو عكرمة مولا، ويقول أبو العرب في طبقات علماء إفريقية وتونس: «كان مجلسه في مؤخر المسجد الجامع (جامع عقبة بالقيروان) في غربي المنارة بالموضع الذى يسمى بالركيبية». وما من ريب في أنه كان يلقي في مجلسه على الناس تفسير مولا ابن عباس للقرآن الكريم، وسمعه منه خلق كثير من أهل القيروان وغيرهم، وقد أدخل الطبرى تفسيره الذى حمله عن ابن عباس في تفسيره الكبير بحيث يمكن لباحث أن يستخرجه منه وينشره مستقلا، وما زال عكرمة يلقي دروسه حتى توفى سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م. ومن المفسرين للذكر الحكيم في القرن الثاني الهجري يحيى بن سلام وقد حرره بالقيروان سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وكان الطلاب يقصدونه من كل فج لسماعه منه، ويذكر أبو العرب في طبقاته أن عيسى بن مسكين سمع تفسير ابن سلام من موسى بن جرير، كما يذكر أن أسد بن الفرات قاضى القيروان وفتح صقلية المتوفى سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م كان يفسر الذكر الحكيم في بعض مجالسه أو في بعض دروسه بجامع القيروان، وللمقرئ الكبير مكى بن أبى طالب المار ذكره كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في معانى القرآن وتفسيره وأنواع علومه: سبعون جزءا، وكتاب الإيضاح في ناسخ القرآن ومنسوخة ثلاثة أجزاء. ويلقانا في القرن الخامس لعهد الدولة الصنهاجية مفسر كبير هو على بن

فضال المتوفى سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وله التفسير المسمى البرهان العميدي في عشرين مجلدا، وله تفسير ثان باسم الإكسير في علم التفسير: خمسة وثلاثون مجلدا، وله النكت في القرآن. وصنف كتابا في شرح بسم الله الرحمن الرحيم، ومرَّبنا أن نظام الملك ألحقه بمدرسته النظامية في بغداد يدرس لطلابها، وله كتب كثيرة في النحو ذكرنا بعضها في حديثنا عن النحاة في القيروان، ولعله كان يدرس في النظامية التفسير والنحو معا. ومن كبار المفسرين في أوائل عصر الدولة الحفصية عبد العزيز بن محمد القرشي المعروف بابن بزيمة المتوفى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م وهو من كبار الفقهاء الحفاظ وله تفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية الأندلسي وطريقة الزمخشري وعليه تخرجت طائفة كبيرة من طلاب تونس في العلوم الدينية. ومن كبار المفسرين في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد النور التونسي تلميذ ابن زيتون المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م وله اختصار تفسير الفخر الرازي. وولتقى في القرن التاسع الهجري بمفسر من كبار الحفاظ هو محمد بن عمر الأبي المتوفى سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م تلميذ ابن عرفة، وله تفسير كبير للقرآن الكريم كان يقع في ثمان مجلدات. ولمحمد زيتونة المتوفى بالقرن الثاني عشر الهجري في العهد العثماني حاشية على تفسير أبي السعود. وبدون ريب كان المفسرون للقرآن الكريم يعرضون على الطلاب أمهات كتب التفسير المشرقية للطبري والزمخشري والفخر الرازي وغيرهم، وظل ذلك في العهد العثماني، إذ نجد الشيخ محمد الفاسي يدرس لطلابه تفسير البيضاوي، ولا بد أن غيره من كتب التفسير المهمة كان يعرض على الطلاب.

ويتكاثر المحدثون في القيروان وتونس كثرة مفرطة، ومن قدمائهم في القيروان حنش بن عبدالله الصنعاني، دخل إفريقية غازيا مع موسى بن نصير (٨٦ - ٩٦ هـ) وسكن القيروان وحَدَّث بها، كما حَدَّث بها عكرمة مولى ابن عباس المار ذكره بين المفسرين. وولتقى ببعثة عمر بن عبدالعزيز التي كانت مؤلفة من عشرة فقهاء، وجميعهم كانوا محدِّثين وقرَّاء وفقهاء كما مرَّبنا وكان يعاصرهم عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة قاضي القيروان لعمر بن عبد العزيز ويحيى بن سعيد الذي أرسله عمر بن عبد العزيز عاملا على الصدقات، وكلاهما حُمل عنه الحديث كما حمل عن معاصرها أبي غطفان بشر الهدلي، وهو يروى عن جماعة من الصحابة وخاصة عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعليه اعتماده في الرواية. وولتقى بمحدث تونسي كبير سبقت الإشارة إليه هو عبد الرحمن بن زياد قاضي القيروان في عهد المنصور وقلنا عنه في النشأة العلمية إن ابن وهب وأبن لهبة الفقيهين المالكيين المصريين روىا الحديث عنه، وذكرنا معه هناك على بن زياد التونسي، وقلنا إنه أول من أدخل الموطأ للمالك وجامع سفيان الثوري في الحديث إلى إفريقية التونسية، وكان يعاصره المحدث عبد الرحمن بن الأشرس زميله في التلمذة على مالك. وولتقى بالبهلول بن راشد المتوفى بالقيروان سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وهو تلميذ مالك بن أنس وسفيان الثوري، وتلمذ لليث بن سعد فقيه مصر، وكان معروفا بالتقوى

والتمسك بالسنة، وتُصص عنه في ذلك حكايات كثيرة، مما جعل أبا العرب والمالكي والدباغ يطيلون في الترجمة له. ومن المحدثين بعده يزيد بن محمد الجُمحي المستشهد في فتح صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان ثقة صدوقا كثير الحديث سمع من مالك بن أنس في المدينة وغيره من كوفيين وبصريين وشاميين. وكان يعاصره موسى بن معاوية الصمادحي المتوفى سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م وأكثر مثل الجمحي من الأخذ عن مالك والكوفيين والبصريين وغيرهم، وكان يربط بالمتسير على الساحل قرب القيروان في شهر رمضان، ويقول عنه سحنون إنه كان أطول رُفقتنا صلاة، وربما أمضى بعض الليالي مصليا. ومن معاصريه عون بن يوسف الخزاعي المتوفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م وكان إذا قال في كتبه «حدثنا» فهو سماع، وإذا قال «أخبرنا» فهو إجازة. ويزدهر مذهب مالك في القيروان منذ القرن الثالث الهجري، وكان العلم المنسوب بأعين أصحابه كتابه «الموطأ» وهو كتاب فقه وحديث، مما جعل فقهاء جميعا محدثين، ولذلك من الصعب أن نفرّد المحدثين من الفقهاء منذ هذا القرن.

ونكتفي بذكر ألمع المحدثين في القرون التالية، ومن ألمعهم وأنبههم في القرن الرابع الهجري أبو الحسن القابسي على بن محمد بن خلف المار ذكره في صدر حديثنا عن دور العلم، وإليه انتهى تدريس الحديث النبوي في القيروان وكان قد رحل إلى المشرق ورجع منه بكنوز نفيسة أهمها ما حمّله إلى الطلاب والشيوخ في جامع الزيتونة من صحيح البخاري، وكان يدرسه للطلاب، وعينت به إفريقية التونسية بعده كما عينت بصحيح مسلم، وهما جميعا وكتب السنة الأربعة المشهورة: للترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه محل إجلال وتوقير في بلدان العالم الإسلامي جميعه. وللمازري محمد بن علي الصقلّي نزيل المهديّة وحامل لواء العلوم الدينية فيها وفي البلدان المغربية المدفون بالمتسير سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م شرح نفيس على صحيح مسلم سماه المعلم بفوائد مسلم، وشرحه القاضي عياض باسم إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، وللإبي التونسي المار ذكره بين المفسرين شرح على صحيح مسلم سماه: «إكمال الإكمال بفوائد مسلم» في سبع مجلدات جمع فيه بين شرح المازري، وشرح عياض، وشرح النووي. ومن كبار المحدثين في القرن الثامن شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي أشي الأصل التونسي المولد والموطن المتوفى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م. وكان يقرئ تلاميذه في جامع الزيتونة الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم. وتلقى في أوائل العهد العثماني بالشيخ إبراهيم الرياحي وكان يدرس للطلاب شرح القسطلاني على صحيح البخاري، ويذكر ابن أبي دينار في أواخر كتابه «المؤنس» طائفة من كبار المحدثين في القرن الحادي عشر الهجري بتونس، منهم أبو العباس أحمد الشريف الحنفي وأبو الحسن علي الغماد وسعيد المحجوز وأبو عبد الله محمد تاج العارفين العثماني، وممن يضاف إلى هؤلاء المحدثين من كتاب ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان محمد برناز، ومحمد قويسم، ومحمد فتاة ومحمد زيتونة.

وكان الفقهاء في أول الأمر يجمعون كما ذكرنا بين إقراء القرآن ورواية الحديث النبوي والفتوى فيما يجد من أمور الدين، ولذلك من الصعب أن نميز في القرن الأول الهجري وغير قليل من القرن الثاني بين الفقيه والمحدث والمقرئ، ونفس بعثة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة للهجرة يقال عن كل منهم في كتب التراجم إنه يجمع بين هذه الصفات الثلاث أو قل إنها تصف بذلك نفرا منهم وتترك الباقيين لأنه معروف أنهم جاءوا لتحفيظ الناس والناشئة القرآن وتفقيههم في الدين بما يلقنونهم من تعاليمه ومن أحاديث الرسول ﷺ ونقرأ عن علي بن رباح اللخمي أنه قدم إفريقيا غازيا في عهد موسى بن نصير وأنه سكن القيروان واختط بها مسجدا ومنزلا لسكناه وأن أهلها تفقهوا عليه، وهو تابعي روى عن عمرو بن العاص وأبي هريرة وأبي قتادة وغيرهم من الصحابة، وبذلك نستطيع أن نعهده أول فقيه قيرواني. وجاء بعده خالد بن أبي عمران التجيبي، قدم أبوه مع جيش حسان بن النعمان واستوطن مدينة تونس، وولد له فيها خالد وحفظه أبوه القرآن وروى عنه وعن بعض القيروانيين الحديث ورحل إلى المشرق وسمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومن عروة بن الزبير وله كتاب كبير عنهم في الحديث وروى له مالك في الموطأ بعض أحاديث نبوية سمعها - كما مر بنا - من يحيى بن سعيد في القيروان، وكان فقيها بصيرا بالفتوى وتولى قضاء تونس إلى أن توفي سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م. وولتقى بعده بأبي كريب عبد الرحمن بن كريب قاضي القيروان وفقهها المستشهد في حرب الصفرية سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م.

وأخذ كثيرون من القيروانيين يرحلون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولقاء مالك إمام دار الهجرة: المدينة، وسماع الموطأ منه، ولم يلبث نفر منهم أن تجردوا لحمل الكتاب، وسبق إلى ذلك علي بن زياد من أبناء تونس - كما مر بنا في غير هذا الموضع - فكان أول من جلبه إلى موطنه، وأخذ يدرسه في جامع الزيتونة، وحمله - أو أخذه عنه - كثيرون من تونس ومن القيروان ومن غيرهما، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب توجد قطعة من روايته للموطأ في مكتبة القيروان العتيقة، ومر بنا تعريف به في النشأة العلمية، توفي عن سن عالية سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م وذكرنا أنه كان يعاصره عبد الله بن فروخ، وكان أبوه خراسانيا قدم إلى القيروان في جيوش الأمويين وسكنها وولد له فيها عبد الله، وقد حفظ القرآن ثم تتلمذ على شيوخ بلده، حتى إذا أخذ ما عندهم اتجه إلى العراق، ونزل الكوفة وصحب الإمام أبا حنيفة مدة طويلة مكنته من أن يحمل عنه مذهبه الفقهي الحنفي، ولم يرجع إلى القيروان مباشرة بل عرّج على المدينة وسمع الإمام مالكا وهو يلقي الموطأ، ورجع إلى القيروان، وأخذ ينشر في طلابه فقه أبي حنيفة، توفي سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م. وكان من أنه الطلاب في زمنه وزمن علي بن زياد شاب تونسي هو أسد بن الفرات، كان أبوه خراسانيا، دخل تونس مع جيش ابن الأشعث

سنة ١٤٤هـ/٧٦١م واستوطن تونس، وولد له فيها أسد، وفيها نشأ وحفظ القرآن، ثم اختلف إلى علي بن زياد وابن فروخ، ورحل إلى الحجاز، فسمع من مالك الموطأ، ثم رحل إلى العراق فاستمع إلى أصحاب أبي حنيفة وخاصة أبا يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني ونزل الفسطاط ولزم دروس عبد الرحمن بن القاسم إمام المذهب المالكي بعد أستاذه مالك ودون ما سمعه عليه في مدونة له تسمى الأصدية، وأخذ أسد يدرس في القيروان مدونة عن ابن القاسم لطلابه، وتولى القضاء لزيادة الله الأغلبى، فكان تارة يأخذ في قضاؤه بمذهب مالك وتارة بمذهب أبي حنيفة حسب ما يترأى له من الوجه الصحيح في الحكم. ومعروف أنه كان القائد في فتح صقلية، واستشهد بعد فتحه لبعض بلدانها سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م.

ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الثاني الهجرى حتى يكون الطلاب في تونس والقيروان عرفوا - معرفة جيدة - مذهب مالك عن طريق علي بن زياد وأسد بن الفرات، كما عرفوا مذهب أبي حنيفة عن طريق عبد الله بن فروخ وأسد بن الفرات أيضا وإن غلب عليه مذهب مالك. ومضى المذهبان يتعايشان في القرن الثالث الهجرى. ولكل منهما فقهاؤه، وكان مما مكّن للمذهب الحنفى في القرن الثالث أن الأغلبية كانوا يختارون غالبا القاضى من الأحناف، كما كان يصنع العباسيون، وكانت كثرة الفقهاء في القيروان تؤثر مذهب مالك. ونستطيع أن نميز بين فقهاء الأحناف المهمين حينئذ معمر بن منصور رفيق أسد بن الفرات في تلمذته على عبد الله بن فروخ، ومثله سليمان بن عمران، وكان يلزم أسد بن الفرات، ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد زيادة الله الأغلبى الأول أبو محرز محمد بن عبد الله الكنانى، وكان هو وأسد بن الفرات شريكين في القضاء بالقيروان، وتناظرا أمام زيادة الله في النبذ، فكان أسد يقول بتحريمه وأبو محرز يخالفه متابعا لرأى الأحناف وهم لا يحملونه مُسْكِرًا وإنما قبل إسكاره. ومن فقهاء الأحناف أيضا لعهد الدولة الأغلبية عبد الله بن محمد بن الأشج، قال الخشنى في طبقاته: كان مذهبه مذهب الكوفيين، توفى سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م. وكان يعاصره الفقيهان الحنفيان أبو العباس بن القيار، وأبو العباس بن عبدون القاضى، ويقول الخشنى عنه: «كان حافظا لمذهب أبي حنيفة، ولاة إبراهيم بن أحمد (الأغلبى) القضاء ثم عزله» توفى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م. ومنذ استولت الدولة العبيدية على القيروان من الأغلبية أخذ المذهب الحنفى يقل فقهاؤه ولما انتهت تلك الدولة أخذ المذهب المالكي في الغلبة عليه حتى إذا كان المعز بن باديس وحمل الناس والفقهاء على مذهب مالك دون غيره من المذاهب إرضاء للجماهير في رعيته قل في القيروان وإفريقية التونسية من يعنى بالمذهب الحنفى، ونستطيع أن نذكر منهم في أوائل عهد الدولة الحفصية محمد الزناتى إذ يقول صاحب اللؤلؤ السندسية إنه كان إماما في المذهب الحنفى. ويعود المذهب الحنفى إلى ما كان له من الازدهار في زمن الأغلبية أيام الحكم العثمانى، وبعبارة أدق منذ عهد يوسف داى (١٠٠٨هـ/١٥٩٩م - ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م) إذ

أصبح قاضى القضاة أو رئيسهم حنفياً، وسُمى فيما بعد شيخ الإسلام، ولم يكن حكم للقاضى المالكى ينفذ إلا إذا وافق عليه القاضى الحنفى، وتبع ذلك أن أخذ المذهب الحنفى يدرس فى تونس بالمدرسة الشماعية وغيرها. ومن مشايخ الحنفية فى القرن الحادى عشر الهجرى بالعهد العثمانى ممن ذكروهم ابن أبى دینار فى آخر كتابه «المؤنس» محمد بن شعبان إمام جامع يوسف دای، وأبو الحسن كرابصة المدرس بالمدرسة الشماعية، ويتكاثر بتونس فقهاء الأحناف منذ هذا التاريخ، ويضيف حسين خوجة فى كتابه: بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان جعفر كرابصة. وتنقطع أخبار من ينتمون إلى مذهب الشافعى، ويُذكر عن سعيد بن الحداد الفقيه والمتكلم الكبير المارّ ذكره المتوفى فى مطلع القرن الرابع الهجرى أنه بدأ حياته مالكياً، ثم تحول إلى مذهب الشافعى ثم عاد إلى المذهب المالكى.

وكان المذهب المالكى قد أخذ فى الازدهار بالقيروان وإفريقية التونسية منذ مؤسسه أسد بن الفرات بما كان يلقي على الطلاب من مدوّنته الأسدية عن عبد الرحمن بن القاسم إمام المالكية بالفسطاط وكان يعاصره سحنون تلميذ على بن زياد، وقد أخذ عن أسد بن الفرات مدوّنته وحملها معه إلى مملّحها عليه عبد الرحمن بن القاسم، وقرأها عليه، فأصلح له جوانب فيها، وعاد بها سحنون إلى القيروان، وأخذ يلى هذه الصورة الجديدة من المدوّنة على الطلاب وجاءوه من كل فُج حتى قالوا إنه تخرج على يديه سبعمائة فقيه. ونسبت المدوّنة إليه - وكان ينبغى أن تنسب إلى عبد الرحمن بن القاسم - إذ أصبح اسمها مدوّنة سحنون، وطارت شهرتها فى بلده والبلدان المغربية جميعاً. وهو أول من أقام نظام الحسبة فى القيروان حين تولى قضاءها سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م إلى وفاته سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وخلفه فى حلقة ابنه محمد المتوفى سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م ويذكر مترجموه له تأليف مختلفة ومرّ بنا كتابه: «آداب المعلمين». وكان يعاصره محمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م وكان جيد القريحة غزير الاستنباط، وله كتاب فى شرح مسائل مدونة سحنون، ويقال إنه لما تصفّح محمد بن عبد الله بن عبد الحكم إمام المالكية فى الفسطاط بعد ابن القاسم كتابه وبعض كتب محمد بن سحنون قال فى كتاب ابن عبدوس: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه، وقال فى كتاب لابن سحنون هذا كتاب رجل سبى فى العلم سبحانه. وثلثى بعدها بيحيى بن عمر الكتانى المتوفى سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م وكان فقيهاً، وله كتاب فى الرد على الإمام الشافعى، وكتاب ثان فى الحسبة بعنوان: «أحكام السوق» وهو منشور.

وحين استولى العبيديون على القيروان اضطهدوا فقهاء المذهب المالكى إذ حاولوا نقلهم من المذهب المالكى السنى إلى مذهبهم الإسماعيلى فعارضوهم، وناظروا دعواتهم مناظرات حادة، وكان من أهم المعارضين لهم والمناظرين المجادلين لدعاتهم محمد بن اللباد رئيس المالكية وإمامهم

بالقيروان، فسجنوه فترة، ثم ردوا إليه حريته على أن يلزم بيته ولا يُلْتَقَى الطلاب في جامع عقبة، فكان يلقاهم في بيته كما مرَّ بنا إلى أن توفي سنة ٣٣٣هـ/٩٤١م وله مصنفات مختلفة منها كتاب في الطهارة وكتاب في فضائل مالك. وانحسرت غمة العبيديين عن القيروان سنة ٣٦١هـ/٩٧١م برحيل المعز العبيدي إلى مصر. ولع سريعاً تلميذ لابن اللباد، هو عبدالله بن أبي زيد المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م وإليه انتهت رئاسة المالكية بالقيروان والبلاد المغربية، وإليه رحل الطلاب من جميع آفاق المغرب، ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إنه يعد المجدد للسنة والمذهب مالك في المغرب بعد انحسار حركة التشيع، وله الرسالة الجامعة لعقيدة أهل السنة ردَّ بها على الشيعة ولها شروح كثيرة، وله كتاب النوادر والزيادات على مدونة سحنون، ويقول ابن خلدون: «جمع فيها ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال». ومن تلاميذه أبو الحسن القاسبي المار ذكره بين المحدثين. وثلثي بعده بأبي عمران الفاسي المتوفى سنة ٤٣٠م ثم بأبي إسحق إبراهيم التونسي المتوفى بمنصف القرن الخامس وله شرح على المدونة باسم التعليقة، كما نلتقى بأبي الحسن اللخمي المتوفى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وله كتاب التبصرة. ويلقانا بعده الإمام المالكي الحافظ المازري محمد بن علي الصقلي المذكور بين المحدثين، ويقول ابن فرحون عنه: إمام أهل إفريقية والمغرب، وصار الإمام لقباً له، فلا يعرف بغير الإمام المازري، درس الفقه والأصول وله فيهما كتب قيمة.

وفي أواسط القرن السادس الهجري استولى عبدالمؤمن على الاقليم التونسي ولم يحاول -فيما يبدو- نشر المذهب الظاهري مذهب دولته فيه، واكتفى بأن يذكر في خطبة الجمعة اسمه أو اسم المهدي بن تومرت زعيم دولته ولذلك ظل المذهب المالكي مسيطرًا ولا نسمع عن اتباع المذهب الظاهري في عهدهم وعهد الدولة الحفصية التي خلفتهم إلا عن بعض أفراد اعتنقوا المذهب الظاهري من حين إلى حين.

ومن كبار فقهاء المالكية في القرن السابع الهجري الحافظ الفقيه عبد العزيز القرسي المعروف بابن بزيمة المذكور بين المفسرين ومن أهم تلاميذه أبو القاسم بن أبي بكر المعروف بابن زيتون قاضي تونس في صدر الدولة الحفصية المالكي المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م وهو محرر عقد الصلح بين المستنصر والجيش الفرنسي بعد موت لويس التاسع تحت أسوار قرطاجنة سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. وفي أواخر هذا القرن السابع وصل من القاهرة كتاب مختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي وشغل بشرحه علماء البلدان المغربية. وثلثي في القرن الثامن بمحمد بن عبد السلام الهواري مجدد الحركة الفقهية كما يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وشيخ الجيل التالي المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م المتولى قضاء الجماعة، له شرح لمختصر ابن الحاجب يعد من أهم شروحه، كما يقول ابن فرحون، ومن أنبغ تلاميذه ابن خلدون المؤرخ والفقيه المالكي الكبير، وستترجم له بأخرة ن هذا الكتاب، ومن أنبغهم أيضاً محمد بن عرفة الورغمي

المتوفى سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، شيخ شيوخ عصره، كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، ويفتح ابن فرحون ترجمته بقوله: «هو الإمام العلامة المقرئ الفروعى الأصولى البيهقى المنطقى شيخ الشيوخ، وبقية أهل الرسوخ، وله تأليف منها تقييده الكبير فى المذهب المالكى فى نحو عشرة أسفار، أقبل الناس على تحصيله شرقا وغربا». ومن تلاميذه فى القرن التاسع الهجرى محمد بن عمر الأبي المذكور بين المفسرين والمحدثين.. وله فى الفقه شرح على مدونة سحنون.

طبعى أن يتراجع ازدهار دراسات الفقه المالكى فى العهد العثمانى، وخاصة منذ عد يوسف داي فى النصف الأول من القطن الحادى عشر الهجرى، إذ أصبح رئيس القضاة حنفيا، وأصبح حكم القاضى المالكى لا ينفذ إلا بعد مصاده عليه، ويذكر ابن أبى دينار فى آخر كتابه المؤنس من فقهاء المالكية بالقرن الحادى عشر محمد فتاة المدرس فى جامع الزيتونة، ومثله سعيد الشريف وعبد القادر الجبالى، وتظل دراسة الفقه المالكى ناشطة فى جامع الزيتونة إلى العصر الحديث. ويضيف حسين خوجه فى كتابه ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان: سعيد الشريف ومحمد الحجيج وله حاشيتان على مختصر خليل فى الفقه.

ومن يقرأ كتب تراجم العلماء والفقهاء - منذ القرن الثانى الهجرى يشعر كأنما كانت القيروان مرآة للمذاهب الكلامية التى نشأت فى العراق، إذ كانت مبادئها ونظرياتنا تثار فى القيروان، ويتحاور فيها ويتجادل كثيرون، ومن أوائل ما كان من ذلك الجدل فى مبادئ الخوارج، وخاصة مبادئ الإباضية والصفيرية التى اعتنقها كثيرون من أهل المغرب - منذ أوائل القرن الثانى الهجرى - وكانت قد اقترنت بها فى المشرق فكرة المسلم مرتك الكبيرة أما الصفيرية فذهبت إلى الحكم عليه بالكفر وغالت فى سفك الدماء كما مر بنا فى الفصل الماضى، وقالت الإباضية إنه كافر نعمة لا كافر ملة وحكمت عليه بأنه مسلم عاصٍ ولم تعد دار المسلمين - مثل الصفيرية - دار حرب، وذهب أهل السنة من الماكية وغيرهم إلى أنه مسلم فاسق، وذهبت المرجئة إلى إرجاء الحكم عليه لربه يوم القيامة، كما ذهبت إلى أنه يكفى فى الإيمان القول أى التلطف بالشهادتين، ولا ضرورة فيه للعمل، وهو أداء الفروض الدينية، بينما أهل السنة يرون أن الإيمان قول وعمل، فمن لم يؤدِّ الصلاة والفروض الدينية لا يعد مسلما. ويروى أبو العرب فى ترجمة يحيى بن سلام المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة والمذكور بين المفسرين أنه كانت تجرى مناقشات بمجلسه فى الإرجاء. وكان مذهب الاعتزال والمعتزلة قد ازدهر بالمشرق فى القرن الثانى الهجرى وتجادل أهل البصرة وبنجداد طويلا فى مبادئه الخمسة المشهورة وهى القول بالوحدانية وبأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالعدل على الله وأنه يعمل الأصلح لعباده، وأنه منفذ - لا بد - وعده ووعدته.

وينتقل هذا المذهب إلى القيروان ويتجادل أهل السنة مع معتنقيه، وفي خبر عند أبي العرب، أنه كان للمعتزلة بالقيروان سقيفة يجتمعون فيها، وتوقف شخص بإزائهم وهم يتجادلون يستمع إليهم.

وإذا مضينا إلى القرن الثالث وجدنا محنة خلق القرآن التي امتحن بها الفقهاء من أهل السنة في عصور المأمون والمعتصم والوائق ينتقل الجدل والحوار فيها إلى القيروان، فمنهم من يقول إن القرآن - كما قال أهل السنة - قديم، ومنهم من يقول - كما قال المعتزلة - إنه حادث مخلوق غير قديم. ويذكر أبو العرب في طبقاته مناظرة حدثت أيام زيادة الله الأغلبى (٢٠١-٢٢٣هـ) عن خلق القرآن كان الجعفرى يقول فيها إنه غير مخلوق، والعبرى يقول إنه مخلوق. وفي طبقات أبي العرب أنهم كانوا يتجادلون كثيرا في التشبيه على الذات العلية. واتسع الجدل في ذلك كله بجامع عقبة، إذ كان لكل فرقة ممن ذكرناهم حلقة يجتمعون فيها ويتجادلون جدلا كثيرا. وكان أهل السنة يضيقون بهذا الجدل وما يحدثه من جلبة وضوضاء في جامع عقبة حتى إذا تولى سحنون قضاء القيروان سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م «فرق - كما يقول مترجموه - حَلَقَات أهل البدع منهم في المسجد الجامع وشرد أهل الأهواء وكانوا فيه حَلَقًا: من الخوارج: صُفْرِيَّة وإباضية ومعهم معتزلة، يتناظرون ويظهرون زيفهم.. وأمرهم أن لا يجتمعوا فيه» وقد أتاح هذا الجدل الواسع للمعتزلة وغيرهم في القيروان حركة جدلية واسعة، حتى ليصف أبو العرب والخشنى في طبقاتها غير واحد بأنه كان من الجدلين المناظرين الذين يعرفون كيف يدفعون الخصوم بالحجج والبراهين الساطعة، ولم يصف بذلك المعتزلة أو كما يسميهم أحيانا العراقيين بل يصفان بذلك كثيرين من أهل السنة. ومن كبار متكلميهم المجادلين عن عقيدتهم المفحمين لخصومهم أبو عثمان سعيد بن محمد المشهور بابن الحداد رأس المدرسة الكلامية بالقيروان كما يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وقال الخشنى في طبقاته: غلب عليه الكلام والجدل والمناظرة.. وله مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الاسلام والذَّب عن السنة» ويصفه المالكي في رياض النفوس بأنه كبير المناضلين عن السنة وكانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يريد المعتزلة) القائلين بخلق القرآن من أهل القيروان، ويسوق الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب من هذه المجالس مجلسا تحاور فيه مع عبد الله بن الأشج في خلق القرآن وأسكته وقطعه، ولما سلط عبيد الله المهدي داعيته أبا العباس المخطوم لجدال فقهاء القيروان ومحاولته إقناعهم بمبادئ دعوتهم الإسماعيلية كان أكبر من تصدى من أهل السنة له ولغيره من دعائهم في أربعين مجلسا سجل منها الخشنى في طبقاته أربعة مجالس ونسوق مثالا من هذه المجالس، فقد سأله أبو العباس المخطوم هل يجوز تقديم المفضول (أى أبى بكر وعمر في الخلافة) على الأفضل (أى على) فأجابه بمقال من القرآن هو قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبههم إن

الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴿ يريد أنه فضله على النبي، والنبي أفضل منه، ودليل آخر ذكره من السنة وهو أن الرسول ﷺ أمر على جيش عمرو بن العاص فكان يقسم الفيء (الفنائم) ويأمر وينهى فيطاع ويصلى بهم الصلوات. وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر وهما جميعا أفضل منه. وعلى هذا النحو كان سعيد بن الحداد يجيب أبا العباس المخطوم ويحاوره حوارا مخرسا بأدلة قرآنية وأحاديث نبوية، ويضيف إلى ذلك حججا منطقية دامغة مما يجعله من كبار المتكلمين المدافعين عن عقيدة السنة لافي القيروان وحدها. بل في العالم الإسلامي جميعه. وإذا كانت القيروان عرفت المذاهب المبكرة في العراق للمعتزلة وغيرهم فإنها عرفت مذهب الأشعرى الذى أخذ في الانتشار منذ القرن الرابع الهجرى حمله إليها أبو الحسن القابسى المذكورين المحدثين، والمتوفى سنة ٤٠٣ ومعلوم أن للأشعرى نظرات دقيقة في التوسط بين القائلين بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة وبين القائلين من المعتزلة بالاختيار وحرية الإنسان في إرادته، وأيضاً بين أهل السنة من مثل ابن حنبل القائلين بأن القرآن قديم والمعتزلة القائلين بأنه محدث مخلوق وقد أوضحنا مذهبه في حديثنا عنه في كتابنا: «العصر العباسى الثانى». ومن كبار الأشعرين القيروانيين محمد بن عتيق التميمى القيروانى أخذ علم الكلام بالقيروان عن أبى عبد الله بن الحسين بن حاتم صاحب أبى بكر بن الباقلانى (الأشعرى) ورحل إلى بغداد ودرس بها علم الكلام بالمدرسة النظامية، وقال السلفى كان مشاراً إليه في علم الكلام قال لى أنا أدرس علم الكلام منذ سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة توفى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م. ولعل في كل ما قدمت ما يدل - بوضوح - على أن علماء القيروان استوعبوا جميع المذاهب الكلامية الشرقية، وعمّ المذهب الأشعرى هناك منذ القرن الخامس الهجرى.

٥

التاريخ^(١)

منذ الحقب الأولى في العهود الإسلامية يعنى أهل إفريقية التونسية بكتابة التاريخ، وأول

والمغرب (طبع تونس) ومقدمة أتمودج الزمان لابن رشيقي (طبع تونس) وابن خلدون ومعالم الإيمان لابن الدباغ وابن ناجى ورحلة التنجاني والأحاطة للسان الدين بن الخطيب في يحيى بن خلدون ومقدمة تاريخه والتعريف بابن خلدون بقلمه والأدلة البيئية التوراتية على مفاخر الدولة الحفصية =

(١) راجع في المؤرخين التاليين طبقات أبى العرب ورياض النفوس للمالكى ومجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في سيرة المهدي لجعفر الحاجب ومقدمة سيرة الاستاذ جوذر المطبوعة بالقاهرة وكذلك مقدمة افتتاح الدعوة وطبقات الحسنى وقطعة الرقيق القيروانى من كتاب تاريخ إفريقيا

مؤرخ نلتقى به عيسى بن أبي المهاجر، حفيد أبي المهاجر والى إفريقية التونسية والمغرب (٥٥ - ٦١هـ) توفى بأواخر القرن الثاني الهجري، وله كتاب مغازى إفريقية، وهو مفقود غير أن المؤرخين بعده ينقلون عنه نقولا مستفيضة على نحو ما نجد في طبقات علماء إفريقيا وتونس لأبي العرب. والمؤرخ الثاني بعده عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى سنة ٢٢٢٧هـ/٨٤١م وله كتاب في أخبار إفريقية وحرورها ولمحمد بن زيادة الله الأغلبى المتوفى سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م كتاب في دولتهم الأغلبية، ولأبي على بن الوكيل القيروانى المتوفى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م كتاب في تاريخ إفريقية. وكل هذه الكتب التاريخية مفقودة. ولجعفر بن على الحاجب كتاب في سيرة المهدي الفاطمي ومن كتب التاريخ التي يظن أنها كتبت قبل انتقال العبيديين الفاطميين إلى مصر أو بعد انتقالهم مباشرة سيرة الأستاذ جوذر وافتتاح الدعوة الفاطمية والمجالس والمسائرات للقاضي النعمان القيروانى العبيدى، ومن الكتب التاريخية العبيدية كتاب لأحمد بن الجزار الطبيب القيروانى المشهور المذكور بين الأطباء وهو كتاب باسم تاريخ الدولة يريد الدولة العبيدية. ومن الكتب المهمة كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب محمد بن تميم القيروانى المتوفى سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م وهو منشور بتونس، وملتقى بعده بكتاب طبقات علماء إفريقية لمحمد بن الحارث بن أسد الحشنى المتوفى سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وهو مكمل لسالفه ومطبوعان معا بدار الكتاب اللبنانى ببيروت، وللرقيق القيروانى صاحب ديوان الرسائل في عهد باديس الصنهاجى وابنه المعز المتوفى حول سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م كتاب مهم في تاريخ إفريقية والمغرب، وهو مفقود سوى قطعة منه نشرها د. منجى الكعبي بتونس تؤرخ لنحو قرن وربع من ولاية عقبة بن نافع إلى ولاية عبد الله الأغلبى وهو ابن إبراهيم مؤسس الدولة الأغلبية، ويلقانا بعده كتاب أتمودج الزمان في شعراء القيروانى لابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م ومر بنا حديث عنه بين النقاد، وكان يعاصره أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المغلكى المتوفى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م وله الكتاب البديع: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ويقدم في أوائله قصة الفتح العربى في إفريقية كاملة معتمدا في الأكثر من رواياته على المؤرخين القيروانيين السابقين له، وفي نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء يفرد فصلا لأهل العبادة والنسك، طبع القسم الأول منه في القاهرة وطبع القسم الثانى في تونس. ومن أهم كتب التراجم القيروانية والتونسية بعده كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لعبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بالدباغ المتوفى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وهو يعتمد

الإيمان بفتوحات آل عثمان ومقدمته وفيه ترجمة
لمحمد السراج، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف.

= لابن الشماع (طبع تونس) والمؤنس لابن أبي
دينار والحليل السندسية للسراج، وذيل بشائر أهل

على المالكي إلى حد كبير وأكمله بإضافات وتعليقات أبو الفضل بن عيسى بن ناجي التنوخي المتوفى سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٦م والكتاب وإضافات ابن ناجي مطبوعان معا. وللتجاني عبد الله بن محمد المتوفى بعد سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م رحلة مشهورة مطبوعة بتونس تجول فيها مع أبي يحيى اللحياني قبل سلطنته في البلاد التونسية حتى أقصى الجنوب وغربا حتى طرابلس وهو فيها يدون أخبار البلاد وأوصافها وعلماءها وعبادها بحيث أصبحت الرحلة تاريخاً علمياً وأديباً واجتماعياً للبلدان التونسية في مطالع القرن الثامن الهجري. ولأبي محمد عبد الله بن عبد البر التنوخي المتوفى سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م تاريخ مرتب على السنين مثل الطبري. ويحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد بتلمسان حتى زمنه. ولعبد الرحمن بن خلدون أخيه المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م تاريخه المشهور «العبر» وبه جزاء عن البربر بإفريقية التونسية والبلاد المغربية وبها معلومات تاريخية طريفة عنهم وعن شعوبهم وقبائلهم ودولهم ينفرد بها لأخذه من مصادر مغربية لم يطلع عليها سواه. ولأبي العباس أحمد بن الشماخ المعروف بابن الهنتاتي المتوفى في أواخر القرن التاسع الهجري كتاب عن الدولة الحفصية باسم الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ألفه في أواخر سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م وللزركشي كتاب تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية وينتهي به في تاريخ الدولة الحفصية إلى سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م، ولابن أبي دنا المدني كان حيا سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م كتابه النفيس: «المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، والحسين خوجه المتوفى سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ذيل بشائر أهل الايمان بفتوحات آل عثمان وهو ترجمات لعلماء البلدان الكبيرة: القيروان وصفاقس وجربة وسوسة وتوزر وباجة، وخصّ تونس بالترجمة فيها لاتين وأربعين عالما دينيا. ولمحمد بن السراج المتوفى سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م الحلل السندسية في الأخبار التونسية يعني فيه بالحديث عن المدن التونسية وعلمائها وأدبائها بادئا بمدينة سوسة.

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب القطر التونسي

كان البربر ينتشرون قديماً في جميع الأراضي الممتدة غربي مصر من واحة سيوه إلى المحيط الأطلسي، وكانوا يتكلمون لهجات بربرية شق ردها علماء الأجناس واللغات القديمة إلى أصليين: ليبي في شرقي تلك الأراضي ونوميدي في أواسطها وغربيها، وهي لهجات تتحد جنساً وتتفاوت فيما بينها بحيث يصعب التفاهم بين سكان منطقة في ليبيا كسكان جبل نفوسة وسكان منطقة في الإقليم التونسي كسكان منطقة الجريد فضلاً عن سكان المغرب الأوسط في الجزائر والمغرب الأقصى في المملكة المغربية.

ونزل الفينيقيون - كما مرّ بنا - بساحل تونس، أو بعبارة أدق أخذوا يرودونه منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وكوّنوا لهم غربي مدينة تونس الحالية مدينة قرطاجة حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ولعبت تلك المدينة في المنطقة - كما أسلفنا - دوراً حضارياً عظيماً إلى أن دحرها الرومان واستولوا عليها في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، ونشروا بالمنطقة لغتهم اللاتينية كما نشروا بها المسيحية حين اعتنقوها، وتهدّهم إمبراطوراً عظيماً هو سبتيموس سيفيروس Septimus Severus وكان بارعا هو أبولج Abulée كما تهدّهم بعض القديسين مثل تروتليان Tertulien. وتظل المنطقة تابعة لروما ستة قرون طوال، وكانت تتبعها أيضا بقية الساحل الإفريقي من برقة إلى المحيط الأطلسي، مما جعل اللاتينية تسود في كل تلك المناطق سواء في شتون الرسمية أو في شتون الدين ولذلك اضطر كثيرون من البربر في تونس وغيرها من الأقاليم المغربية أن يتعلموا اللاتينية ويتقنوها تحديداً وكتابة. وقد نزلها الواندال الجرمانيون سنة ٤٣٩ وظلوا بها مائة عام يدمرون كل ما بها من مظاهر الحضارة وال عمران إلى أن خلعتها منهم بيزنطة، وحاولت تنشر بها اليونانية غير أن اللاتينية ظلت هي اللغة المسيطرة على الألسنة وفي شتون الدين إلى أن فتحها العرب، وظلت فترة غير قليلة متداولة وخاصة في قرطاجة وما حوالها، ونراها لا تزال حية على بعض الألسنة في قفصة جنوبي الإقليم التونسي

في القرنين السادس والسابع الهجريين كما يحدثنا عن ذلك الإدريسي والتجاني في رحلته، وإن كان من المؤكد أنه أصابها حينئذ غير قليل من التحريف بسبب اختلاط المتكلمين بها بسكان تلك المنطقة البربرية ولغتها.

وعلى الرغم من القرون المتطاولة التي عاشت فيها اللغة الفينيقية المتحضرة بالإقليم التونسي والقرون الأخرى التي عاشت فيها اللاتينية المتحضرة بهذا الإقليم وأتقنها كثير من البربر تكليماً وكتابة على الرغم من ذلك لم تتحوّل اللغة البربرية - لا في تونس ولا في أي إقليم آخر - إلى لغة متحضرة أيام الفينيقيين بحيث أصبح لها حروف استحدثها البربر يكتبونها بها، ومن ثمّ لم يتركوا قبل الإسلام أي أثر كتابي بلغتهم البربرية يمكن منه التعرف الدقيق على تاريخهم القديم، وقد رجع العرب في معرفته إلى الكتب والكتابات اللاتينية، ومما يؤكد ذلك أننا نجد يامبسال ملك نوميديا البربري أيام الفينيقيين يحرر كتبه باللغة الفينيقية لغة قرطاج، كما نجد بين ملوكها أيام الرومان من يحرر كتبه باللاتينية أو الإغريقية، فلم تكن البربرية - قبل الفتح العربي الإسلامي - إذن لغة حضارية وكان كثيرون من البربر يعرفون اللاتينية كما أسلفنا وقد أخذت اللغتان تزايل ألسنة أهلها وتحل محلها العربية في تونس وغير تونس من أقاليم المغرب مع اعتناق السكان الإسلام واختلاطهم بالعرب عن طريق المصاهرة والمعايشة معهم، وخاصة في المدن التي نزلوها، إذ كان سكانها - لذلك - أسرع في التعرّب من سكان القرى الريفية والجبال والنجاد والبوادي، وكانوا يعدون في الإقليم التونسي وغيره بالآلاف، وقد بلغ عدد الجنود الفاتحين في عهد الأمويين وأوائل عهد العباسيين نحو مائة وخمسين ألفاً سوى من كان يرافقهم من النساء والأطفال، ومما يذكر - بالنسبة للجَم - للفاتحين في العهود الإسلامية الأولى أنهم لم يكونوا غزاةً يجمعون غنائم الفتوح، كما يحاول المستشرقون أن ينعتوهم، بل كانوا ناشرين للدين الحنيف، وتسلسل منهم - كثيرون من مدن الإقليم التونسي وغيره من الأقاليم المغربية - إلى القرى والجبال والبوادي يدعون إلى دين الله بحماسة وحماسة بالغة.

وقد جعلت تعاليم الدين الحنيف السامية وما يدعو من إخاء وتسامح ومعاملة حسنة شعوب البربر تقبل عليه، وخاصة بعدما رأوه يرفع عن كواهلهم ظلم الأمم السالفة التي كانت تتعصر لنفسها خيرات بلادهم وترهقهم بالضرائب الفادحة، مما دفع البربر - وخاصة في المدن - إلى الدخول في الدين الحنيف ومراً بنا أن قبيلة بربرية - هي قبيلة أوربة - اعتنقت الإسلام في عهد عقبة بن نافع حوالي سنة ٦٠ للهجرة. وكان البربر الذين أسلموا يقبلون على حفظ كثير من أيّ الذكر الحكيم واستظهار بعض الأحاديث النبوية، وكانوا يتلقّون ذلك في كتابيب أخذت تنشأ سريعاً في المدن وبعض القرى الكبيرة، كما كانوا يتلقّونونه في حلقات كثيرين ممن

كانوا يعتلون بالمساجد منصات محاولين أن يعلموا الناس بعض تفسير القرآن شارحين له بعض الأحاديث النبوية مع التعرُّض لجوانب من تعاليم الدين الحنيف، وأخذ كثيرون في البوادي وسفوح الجبال يسعون إلى حفظ الذكر الحكيم كما مرَّ بنا في الحديث عن الثقافة وشغف عمر بن يَمَكْتَنَ بحفظ القرآن ومراجعته فيه الجنود العرب المأرئين بمنطقته حتى حفظه جميعه.

ومن المؤكد أن المدن التونسية - كما أسلفنا - أخذت في التعرب سريعاً عن طريق من نزها من الجنود العرب طوال القرن الأول الهجري بعد الفتح وشرطاً من القرن الثاني، فهي لم تنتظر طويلاً حتى يتم لها التعرب. ومما لا ريب فيه أن القيروان التي أنشأها عقبة بن نافع في منتصف القرن الأول الهجري لتكون معسكراً لجيشه كانت عربية خالصة منذ إنشائها، وتبعثها في التعرب مدن تونس وسوسة وصفاقس وقابس، بحيث لا تمضي طويلاً في القرن الثاني الهجري حتى تصبح مدناً عربية خالصة، أما في الداخل والبوادي والجبال فقد ظل يغلب على الناس التخاطب بالبربرية طوال القرون الأربعة الأولى للهجرة.

وما نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس للهجرة حتى يأخذ الإقليم التونسي في إكمال تعربه، إذ اكتسحته موجات من قبائل هلال وسليم وزُغْبَة ورياح بأمر الخليفة الفاطمي المستنصر بالقااهرة - كما مر - للقضاء على دولة المعز بن باديس الصنهاجي انتقاماً منه لخلعه تبعية بلاده للدولة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية وإعلانه استقلاله وعودة الإقليم التونسي إلى مذهب أهل السنة. واستطاعت هذه الموجات البدوية الكثيفة أن تلجئه مع أسرته للمقام بمدينة المهديّة وأن تجتاح القيروان وكل الإقليم التونسي بمدنه ووديانه وجباله وبواديه، وكانوا يبلغون نحو نصف مليون نسمة وامتزجوا بالبربر وتكوّن من الشعبين شعباً عربياً تام العروبة في اللغة والدين والزى والمطعم والعادات والأخلاق والمآتم والأعراس، واجتاحوا البلاد بإبلهم وخيلهم ورُجُلهم ونهبوا خيراتها عشرات من السنين، ومع كل ذلك حملوا إلى كل أنحاء الإقليم التونسي وأطرافه النائية اللغة العربية وفرضوها على البربر فرضاً عن طريق الامتزاج بهم ومصاهرتهم، حتى ليقول ابن خلدون - كما مر بنا في الفصل الماضي - عن قبيلة هواة البربرية التونسية إنهم «صاروا في عداد الناجعة (بني هلال وسليم) في اللغة وسُكْنَى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلالهم، وقد نسوا رطانة البربر واستبدلوا بها فصاحة العرب فلا يكاد يفرّق بينهم» فهم قد أصبحوا - بفضل هذه الموجات البدوية من بني سليم وهلال وزُغْبَة - عرباً في العادات وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وما ينساق في ذلك من الملبس والمطعم والأفراح والاتراح والسلوك والأخلاق، ويقول ابن خلدون إن رطانة البربر زابت ألسنتهم وحلت مكانها الفصحى، ونراه يقول في موضع آخر عن

هوارة إنهم «تبدوا» - مع الأعراب - ونسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتخلوا بشعارهم في جميع أحوالهم».

ولم تبد هوارة التونسية أو تتعرب وحدها في الإقليم التونسي، بل تعرب الإقليم جميعه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في خلال قرن بل يزيد، إلى أن استولى على الإقليم زعيم دولة الموحدين المغربية عبد المؤمن بن علي، ولكن هل العربية التي حملتها قبائل هلال وسليم وزغبة إلى الإقليم التونسي هي الفصحى أو هي عربية دارجة عامية؟ ونرجح أنها الفصحى، ويدل على صحة رأينا أن القبائل من سليم وهلال وزغبة كانت قد انضوت تحت لواء الأعصم القرمطي حين غزا الشام ومصر سنة ٣٦٠ للهجرة ورأى الخليفة الفاطمي العزيز - حين صالحه - أن ينزلها في صعيد مصر، وحوّلهم بعده الخليفة الفاطمي المستنصر إلى تونس لضرب المعز بن باديس كما أسلفنا، وكانت الجزيرة العربية مصدرها لا يزال سكانها يحافظون على الفصحى بشهادة الجوهري في مقدمة معجمه الصحاح إذ يقول إنه أخذ اللغة عن أهلها مشافهة، وإنه طوّف في بلاد ربيعة ومصر، ونجد الباخري في كتابه دُمّة القصر المؤلف في منتصف القرن الخامس الهجري يترجم لشعراء كثيرين من قبائل نجدية شتى وينشد من أشعارهم، مما يدل على أن الفصحى كانت لا تزال حية بعد مغادرة بني سليم وهلال للجزيرة بنحو قرن، ويبدو أنها ظلت حية في الجزيرة العربية قرونا بعد ذلك، فإن عمارة اليمنى بشهد - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - بأن تهامة والبوادي وأهل الجبال في اليمن - لعصره بالقرن السادس الهجري - كانوا يتكلمون الفصحى ولا يلحنون في كلامهم. ومما لا شك فيه - إذن - أن قبائل بني سليم وهلال التي نزلت مصر وتركتها إلى ليبيا وتونس وماوراءها من بلاد المغرب لم تكن تنطق عربية مولدة أو عربية عامية، إنما كانت تنطق عربية فصيحة، ومن الخطأ أن يتشكك بعض الباحثين في صفاء عربيتهم مستدلا على رأيه بشعر القصص الهلالية المعروفة التي تحكى مغامرات أبي زيد الهلالي في شعر شعبي يختلف في صياغته - قليلا أو كثيرا - عن صياغة الشعر العربي الكامل الفصاحة فضلا عما يجرى فيه من خلل الإعراب، غير أن هذا القصص نشأ في عصور متأخرة، حين أخذت لهجات شعبية تشيع في السنة أهل تونس وغيرها، ومما يؤيد رأينا أن نجد ابن خلدون ينشد قصيدة بديعة لأحد رؤساء قبيلة عوف من بني سليم، وكانت تستولى على ما بين قابس وسوسة، وهو عنان بن جابر، وكان أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية قد أوغر الصدور بين قبيلته وقبيلة علاق، فنشبت بينها معارك ضارية، وأغضب ذلك من أبي زكريا عنان بن جابر فرحل بقبيلته إلى صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) فكتب إليه محمد بن أبي الحسين وزير أبي زكريا قصيدة يعاتبه فيها على هجرته عن وطن آبائه، ويدعوه إلى العودة إليه، ثم كتب إليه قصيدة ثانية، فرد عليه عنان محزونا لما اضطر إليه من فراق موطنه، وفيها يتحدث عن بسالة قبيلته في الحروب بمثل قوله:

وَكُنَّا إِذَا مَا الْجَيْشُ صَفَّتْ جَنُودُهُ ترانا على خَيْلٍ عِتَاقٍ ضَوَامِرِ
نخوض وَغَاها وَالقَنَا تَقَرُّعُ القَنَا بكل حُسامٍ مَشْرِفٍ وَبِاتِرِ

وَنَسَجُ القصيدة جزل متين، وهى معربة إعراباً تاماً، وترجع إلى النصف الأول من القرن السابع الهجرى بما قد يدل - من بعض الوجوه - على أن قبائل سليم - ومثلها غالباً قبائل هلال - لم تزايل ألسنتها الفصاحة ولا أصابها خلل الإعراب فى النطق حتى عصر عنان بن جابر. وقد يسند رأينا - من بعض الوجوه - ما حكاه العبدري فى رحلته عن أهل بركة الليبية من أن «كلام عرب بركة من أفصح كلام عربى سمعناه، ويقول: وعرب الحجاز أيضاً فصحاء، ولكن عرب بركة لم يكتر ورود الناس عليهم، فلم يختلط كلامهم بغيرهم، وهم الآن (فى أواخر القرن السابع الهجرى) على عربيتهم لم يفسد من كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الإعراب إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون». ويسوق العبدري أمثلة من كلامهم سمعها كما رواها وفيها يحتفظون حتى زمنه بالإعراب. ومن بقايا هذا الإعراب - فى رأى - احتفاظ قبائل المحاميد والمرازيق وأولاد يعقوب وغيرهم فى النواحي الجنوبية من الإقليم التونسى - إلى اليوم - بنون النسوة فى كلامهم، فيقولون: «النساوين يشربن ويأكلن ويغزلن» ولا تزال هذه النون تنتشر فى نواحي طرابلس وبرقة الليبيتين كما يقول الأستاذ عبد الوهاب.

وليس معنى كل ما قدمت أن العامية العربية لم تأخذ طريقها إلى ألسنة أهل المدن فى الإقليم التونسى إلا فى وقت متأخر، فالملظنون أن هذه المدن مثلها مثل الفسطاط فى مصر وغيرها من المدن العربية استخدمت مبكرة لغة عامية بها غير قليل من الألفاظ البربرية المحلية، وخالية من الإعراب، متخففة من الحركات وملتمسة التسكين لأواخر الكلمات. ويبدو أن هذه العامية القيروانية أو التونسية أخذت تشيع فى الألسنة منذ أوائل القرن الثالث الهجرى وأن فاتحى صقلية من القيروانيين والتونسيين سنة ٢١٢ للهجرة حملوها إليها، كما حملوها إلى مالطة حين فتحوها سنة ٢٥٥ للهجرة لعهد الأمير الأغلبى أبى الغرانيق، وقد ظلوا يحكمونها حتى سنة ٤٨٥ للهجرة حين انتزعها منهم روجار النورماندى صاحب صقلية، وظل المسلمون بها تحت ولاء النورماند نحو مائة وستين عاما إلى أن أجبرهم على مبارحتها فريدريك الثانى إمبراطور المانيا سنة ٦٤٧ لعهد المستنصر الحفصى كما مر بنا، ومن حينئذ أصبحت مالطة مسيحية خالصة، وقد ظلوا إلى اليوم يتداولون فى حياتهم لهجة عربية مالطية مشتقة من اللهجة العربية التى كان يستخدمها آبائهم وبحق يقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب: «إن بقاء هذه اللهجة فى مالطة لظاهرة عجيبة، بل حجة قوية ومعجزة بالغة فى حيوية اللغة العربية ورسوخها العميق فى قرارة نفوس من يتكلم بها من الأجيال. ألا ترى هذه الجزيرة المسيحية النحلة قد تعاقبت عليها - منذ ثمانية قرون - أمم ودول متعددة، آخرهم الإنجليز وودوا لو يحملون أهلها على

التخاطب بلغتهم، فلم يتهيأ لهم ذلك، وبقي المالطيون محافظين على ما عندهم من العربية خلفا عن سلف، وإن في ذلك لذكرى لأولى الألباب».

وظلت العامية شائعة على ألسنة أهل القيروان والمدن الساحلية الشمالية إلى أن خففت من حدتها في منتصف القرن الخامس الهجري الزحفة الهلالية والسليمية، وقد مضى الزاحفون يعربون المناطق البعيدة والأطراف النائية التي لم يكن لها عهد بالعربية، وكان مما عمل على نشر العربية في الإقليم التونسي بعد هذه الزحفة هجرة الأندلسيين إليه في أوائل القرن السابع الهجري إذ يقول ابن خلدون: «إن ملكة العربية صحّت في إفريقية (تونس) بجلاء أهل شرقي الأندلس إليها» ومعروف أن هذا الجلاء كان في أوائل القرن السابع. على أننا لا نصل إلى أوائل القرن الثامن الهجري حتى يحدّثنا التجاني في رحلته عن شعراء سليميين وهلاليين اشتهروا بأشعارهم الملهونة، ويسمون القوالين. وأطال ابن خلدون في أواخر هذا القرن في الحديث عن هؤلاء الأعراب القوالين في تونس والبلاد المغربية، وكأن اللحن شاع على ألسنة الأعراب جميعاً في القرن السابع الهجري، وربما سبق هذا التاريخ في بعض الأنحاء وتأخر في أنحاء أخرى مثل عرب برقة بشهادة العبدري كما مر بنا. ويقول ابن خلدون في الفصل الذي عقده لأشعار الأعراب وأهل الأمصار لعده: «إنهم يقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراب على ما كان سلفهم المستعربون يأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء» ثم يقول: «وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم، فإن غالب كلماتهم (أشعارهم) موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». وأخذت هذه العامية التونسية تتأثر بعد ابن خلدون بلغة من احتلّها من الإسبان ومن الترك على نحو ما مر بنا في حديثنا عن تاريخها، وبذلك احتوت العامية التونسية بعض رطانات في مقدمتها الرطانة البربرية التي امتزجت بها من قديم.

وإذا كان ابن خلدون لاحظ أن المهاجرين الأندلسيين القدامى في القرن السابع الهجري بثوا روحا وانتعاشا في ملكة العربية التونسية فإن ملاحظته تنصبّ - فيما بعد - على المهاجرين الأندلسيين في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، إذ بثوا نفس الروح والانتعاش، وحالوا بينها وبين الركود الأدبي الذي رافق العثمانيين في حكمهم للبلاد العربية المشرقية. ومن المؤكد أنه كانت هناك لغة عامية يتداولها الناس - كما مرّ بنا - وأخذت تشيع في البوادي والأنحاء البعيدة منذ القرن السابع الهجري، وربما قبل ذلك في بعض الجهات، غير أنه من المؤكد أنه كان للفصحى دائما السيادة عليها، لأنها لغة القرآن الكريم والدين الحنيف ولغة الثقافة والعلم بمختلف فروعها، ولغة الأدب وروائعه الشعرية والنثرية.

كثرة^(١) الشعراء

طبيعي أن يكون أول شعر ينشد في الإقليم التونسي بالقيروان وغير القيروان هو ما كان ينشده الجند الفاتحون، ومعروف أن الشعب ظل متصلا في هذا الإقليم وغيره من أقاليم المغرب، مما جعل الدولتين الأموية والعباسية ترسلان الجيوش إلى القيروان من حينٍ إلى آخر حتى منتصف القرن الثاني الهجري. وكان في هذه الجيوش غير شاعر نابه تلقن عنه الشباب الإفريقي في القيروان وغيرها الشعر إما لهم مما نظموه وإما لغيرهم مما رَوَوْه وأنشدهوه، ولم تُعَنَ كتب التراجم منهم إلا ابن اشتهر بينهم بقيادة أولوية، ومن قدماء مَنْ ترجمت لهم أبو الخطَّار الحُسام بن ضرار الكلبي، وكان شاعرا مفوَّها وفارسا ناهيا بين أقرانه في القيروان، وولاه حنظلة بن صفوان والى إفريقية لهشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١٢٥ للهجرة وعُزل عنها سنة ١٢٨ فعاد إلى القيروان وسرعان ما توفى بها، وأنشد له ابن الأبار في كتابه الحلة السَّيراء أشعارا بديعة. ومن شعراء الجند الذين قدموا في عهد بني أمية سليمان بن حُميد الغافقي وفيه يقول ابن الأبار: «فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره، وأحسن الناس وأبلغهم، إلى معرفة بأيام العرب وأخبارها، ورواية لوقائعها وأشعارها، ويقال إنه توفى سنة ١٦٠ للهجرة وهو القاتل:

وإنا إذا ما الحربُ أُسْعِرَ نارُها لَتَلْقَى المنايا دارعين وحُسْرًا

ومن شعراء الجند الذين قدموا إلى القيروان في عهد بني العباس الحكم بن ثابت السَّعدي من سلالة سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي المشهور، قدم إفريقية في جيش محمد بن الأشعث الخزاعي سنة ١٤٤ لعهد المنصور إغاثةً وعونا للأغلب التميمي والى القيروان، وأصبح من قواد جيشه، حتى إذا استشهد الأغلب سنة ١٥٠ للهجرة رثاه رثاء حارا، وكان الأغلب شاعرا، ونولى القيروان بعده عمر بن حفص المهلبى، واستشهد في بعض المعارك، فولاه أبو جعفر

(١) السنديسة للوزير السراج ووفيات الأعيان لابن خلكان في تراجم حكام الدولة الصنهاجية ومقدمة ابن خلدون وتاريخه.

(١) انظر في الشعراء التالين الحلة السَّيراء لابن الأبار وأتمودج الزمان في شعراء القيروان لابن رشيق والبيان المغرب لابن عذارى والمخريدة (فسه شعراء المغرب - للعماد الأصهباني) والحلل

المصور يزيد بن حاتم المهلبى وكان غاية في الجود ممدّحاً، وظل واليا عليها من سنة ١٥٤ إلى وفاته سنة ١٧٠ واستطاع أن يتحول بها إلى بيئة كبيرة من بيئات الشعر والأدب واللغة في زمنه، وكان شاعرا مجيدا، ومن طريف شعره قوله في وصف كرم أسرته:

ما يألف الدرهمُ المضروبُ خِرْقَتَنَا إِلَّا لَمَامًا قَلِيلًا ثُمَّ يَنْطَلِقُ^(١)

وقد جاء القيروان وفي صحبته المعمر بن سنان التيمي، من تيم الرباب، اتخذه زميلا له في طريقة ليؤنسه بطرائف الأخبار، ويقول ابن الأبار: «كان أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب» ويترجم ابن الأبار لابنه عامر، ويذكر بعض أشعاره، ويقول من أحفاده حمزة بن أحمد بن عامر وكان أدبيا ظريفا. وتسابق غير شاعر في الوفود على يزيد كما توافدوا قديما على جده المهلب في خراسان، ومنهم ربعة الرقي الشاعر العباسي المشهور، وفيه يقول:

هو البحر إن كَلَّفْتَ نَفْسَكَ خَوْضَهُ تَهَالَكْتَ فِي آدِيهِ المتلاطم

وهي قصيدة طارت شهرتها في العصر العباسي، وله فيه مدائح أخرى بديعة، ومن الشعراء الكبار الذين وفدوا عليه بالقيروان ابن المولى، وفيه يقول:

وإذا تباع كريمةٌ أو تُشْتَرَى فسواك بائعها وأنت المشتري

ويقال إنه أعطاه على هذه القصيدة الرائعة كل ما كان في بيت ماله، ولابن المولى وربعة الرقي ترجمتان مفصلتان في كتاب الأغاني، وقد أقاما عنده في القيروان طويلا والتف حولهما شبابها يروون عنها شعرها وشعر معاصريها. وذكر ابن خلكان في ترجمته بين من وفد عليه من الشعراء المشهراً التيمي وأنه أعذق عليه مالا جزيلا.

ومرّ بنا في الحديث عن اللغويين أن كرم يزيد بن حاتم لم يجلب إلى عاصمته الشعراء فقط بل جلب إليها جلة من النحاة المشهورين مثل يونس بن حبيب وقتيبة الجعفي. وكانت قد أخذت تنشأ في القيروان طائفة من المعلمين الشعراء، منهم أمان بن الصمصامة بن الطرماح ويبدو أن أباه كان قد نزل القيروان في أوائل القرن الثاني الهجري واتخذ التعليم مثل أبيه حرفة له، وفيه يقول الزبيدي: «كان شاعرا عالما باللغة». وكان يعاصره معلم، يعكف شباب القيروان على أخذ اللغة والشعر منه، كما يأخذون النحو والعربية والأدب، هو عياض بن عوانة، ويقول الزبيدي إنه كان ينظم الشعر ويجوّد فيه. ولا نكاد نخطو في النصف الثاني من القرن الثاني

(١) خرقتنا: يريد ثيابنا

الهجرى حتى نرى أعمال اللغويين المقيمين والوافدين من أمثال أمان بن الصمصامة ويونس بن حبيب والرواة من أمثال المعمر بن سنان التميمي وسليمان بن حميد الغافقي تشر ثمارا يانعة كثيرة في شباب ترسخ في نفوسهم فطرة العربية ويطلب كثيرون منهم التخصص في الفقه لاعلى أساتذته في القيروان وتونس فحسب، بل أيضا في الحجاز والعراق، من أمثال عبد الرحمن بن زياد وكان شاعرا وعلى بن زياد الذى أدخل لأول مرة كتاب الموطأ إلى المغرب، وقد توفى سنة ١٨٣ وكان يعاصره عبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم الرُعيني الفقيهان القيروانيان المشهوران.

وعلى الرغم من أن إبراهيم بن الأغلب استقل بالقيروان سنة ١٨٤ وكوّن بها دولة الأغالبة التي ظلت بها أكثر من قرن وحققت لها نهضة ثقافية كما مر بنا في الفصل الماضى، على الرغم من ذلك فإن نهضة الشعر بها لا تتراءى لنا واضحة، إذ يظل أصحاب التراجم لا يعنون غالبا طوال هذه الدولة إلا بمن سال الشعر على لسانه من حكامها أو من أفراد الأسرة ومن شاركهم في هذه المهوبة من الفقهاء واللغويين. وكان إبراهيم بن الأغلب مؤسسها شاعرا، ويسوقون له أشعارا في الفخر، وكان قد نشأ بمصر وتزوج بها، وكان قد فارق زوجته وسار وحده إلى القيروان وحنّ إليها فأنشد:

ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةً إلا وذكرُك يثني دائما عُنقى
ولا ذكرتكِ إلا بتُ مُرتقبًا أرعى النجوم كأن الموت مُعنتقى

وكان حفيده الأمير أبو العباس محمد شاعرا (٢٢٦ - ٢٤٢) وهو الذى استولى على رومة فترة من الزمان ثم اضطّر جيشه إلى الانسحاب لتكاثر من جاءها من نجدات المسيحيين، وله أشعار يفخر فيها بنسبه وأسرته، من مثل قوله:

أنا الملك الذى أسمو بنفسى فأبلغُ بالسمو بها السحابا
أُظِلُّ عشيرتى بجنّاح عِزّى وأمنحها الكرامة والشوابا

ومن أفراد الأسرة الشعراء أحمد بن سواده والى صفلية المتوفى سنة ٢٦٠ وله أشعار بديعة في الحماسة والفخر. ومن أفراد الأسرة أيضا مهريّة الأغلبية المتوفاة سنة ٢٩٥ ولها مرثية بديعة في رثاء أخ لها مات غريبا. ومن عُرف بالشعر ونظمه في عهد الأغالبة عيسى بن مسكين القاضى المتوفى سنة ٢٩٥ وشعره في التحسر على الشباب، وكان يعاصره الفقيه أحمد الصواف وشعره في الحكم والمواعظ. ومن اشتهر بالشعر من اللغويين في عهد الأغالبة الحسن بن منصور المدحجى، يقول ابن الأبار: «أقل ما تصرف فيه الشعر وكان بصيرا باللغة نافذا في النحو عالما

بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها» ومن قوله في رثاء ابن عم له:

لكأني لما تَضَمَّنَكَ اللَّحْمَ دُ مِينٌ قَدْ فَارَقَتْهَا الشَّمَالُ

وأشعر منه، بل ربما كان أشعر اللغويين عامة في القيروان حتى نهاية عهد الأغالية عبد الملك المهري أستاذ أهل اللغة والنحو والرواية في عهد الأغالية، توفي سنة ٢٥٦ للهجرة، وله مرثية بديعة لسحنون، ومن تلاميذه الشعراء حمدون الملقب بالنعجة، وفيه يقول الزبيدي - كما مرَّ بنا - شعره عليه أثر التكلف، أما في النحو والعربية والغريب فهو الغاية التي لا بعدها.

وننتقل إلى عصر الدولة العبيدية في القيروان والإقليم التونسي منذ سنة ٢٩٧ إلى سنة ٣٦١ وقد تحول به عبيد الله المهدي أول خلفائها هناك إلى عصر دعاية للمذهب الإسماعيلي الذي جاء يحمله، فكان فقهاؤه ودعاته يجادلون عنه فقهاء المذهب السني بالقيروان، وكانت القيروان سنية فكانوا يعقدون فيها المناظرات بينهم وبين أبي عثمان سعيد الحداد وغيره من فقهاء السنة القيروانيين العظام. ولأبي عثمان مع دعواتهم أربعون مجلسا حفظ لنا الحسنى في طبقات علماء إفريقية - كما مر بنا - أربعة منها علا فيها صوته وفكره على دعواتهم. وطبيعي في هذا الجو المشحون بالجدل في حقائق المذهب الإسماعيلي أن يطمح خلفاء الدولة الفاطميون التونسيون أن يكون لهم أنصار من الشعراء يعتقدون دعوتهم ويدافعون عنها، وطبيعي أن ينتروا عليهم الأموال ثراء، وكما قال بشار قديما:

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَبِرُ الْحَدَّ بٌ وَتُعْشَى مَنَازِلُ الْكِرْمَاءِ

وقد أكثر عبيد الله المهدي وخلفاؤه من نثر الحب، وتكاثرت طيور الشعراء من حولهم تلتقط هذا الحب في القيروان وفي المهديّة عاصمتهم الجديدة، وتبارى الشعراء من أمثال خليل بن إسحق الطرابلسي الذي عرضنا له في ليبيا وأمثال سعدون الورجيني القائل في مديح المهدي:

هَذَا الْإِمَامُ الْفَاطِمِيُّ وَمَنْ بِهِ أَمَنْتَ مَغَارِبُهَا مِنَ الْمَحْذُورِ

ويضئ قائلا إن مدن الشام والعراق لا بد أن تستسلم له حتى يسود فيها العدل الذي لا يستطيع الناس الحياة بدونه. وكان المهدي نفسه شاعرا، يُحَسِّنُ نَظْمَ الشَّعْرِ، وتداول الكتب قطعة طريفة تُنَسَّبُ له تارة وتارة أخرى تُنسب إلى داعيته أبي عبد الله الصنعاني، وهي تمضي على هذا النحو:

مَنْ كَانَ مَغْتَبَطًا يَلِينُ حَشِيَّةً فَحَشِيَّتِي وَأَرِيكْتِي سَرَجِي
مَنْ كَانَ يُعْجِبُهُ وَيُبْهَجُهُ نَقَرُ الدُّفُوفِ وَرَنَةُ الصَّنَجِ
فَأَنَا الَّذِي لَا شَيْءَ يُعْجِبُنِي إِلَّا اقْتِحَامِي لُجَّةَ الْوَهْجِ

فهو يعيش حاملا سيفه وممتطيا سرج حصانه مزدريا حياة الترف واللهو والاستماع إلى الغناء ونقر الدفوف ورنات الصُوج، وكل ذلك يتركه وراءه، إذ لذته جميعها في قيادة الجيوش واقتحام لمج الحرب وهيبها المستعر، وهي أخلاقية مُثلى لمؤسس دولة، وبحق أسس دولتهم العبيدية في الإقليم التونسي، وكان ابنه القائم شاعرا مثله، وله قصيدة حماسية خاطب بها العباسيين، مفتتحا لها بقوله:

ألا إن حدَّ السيف أشقى لذي الوَصْبِ وأحرى بنيل الحق يوما إذا طُلبُ

وخلفه ابنه المنصور وكان جوادا ممدحا وفارسا مقداما، وقد استطاع في أول خلافته القضاء المبرم على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد كما مرَّ بنا في القسم التاريخي، وفيه يقول شاعره أيوب بن إبراهيم:

يا بن الإمام المرتضى وابن الوصىِّ (م) المصطفى وابن النبيِّ المرسلِ
اللَّهُ أعطاك الخلافةَ واهبًا ورأكَ للإسلام أَمْنَعَ مَعْقِلِ

ولأبي القاسم الفزارى فيه قصيدة بديعة حين آمن أهل القيروان بعد ثورة مخلد بن كيداد سنعرض لها في غير هذا الموضع، ويتولى الخلافة بعده ابنه المعز، ويأتيه الشعراء من كل فجّ وفي مقدمتهم ابن هاني الأندلسي وله فيه قصائد طنانة، وقد ترجمنا له في قسم مصر، وحين فتح جوهر الصقلي مصر للمعز أنشده ابن هاني قصيدة افتتحها بقوله:

يقول بنو العباس هل فتحت مصرُ فقلُّ لبني العباس قد قُضِيَ الأَمْرُ

ومن أهم شعرائه على بن الإيادي، وسنخصه بترجمة.

وينتهي عصر الخلافة العبيدية في الإقليم التونسي سنة ٣٦١ بانتقال المعز الفاطمي إلى القاهرة واتخاذها عاصمة للملكة وملك أبنائه وأحفاده من بعده، ووقع اختياره على بلكين بن زيري الصنهاجي ليخلفه على الإقليم التونسي، فأسس بها دولة صنهاجية أتاحت للإقليم التونسي كل ما كان يحلم به من ازدهار فكري وأدبي. ومع أن المعز بن باديس غلب على أمره أمام موجات بني هلال واضطُرَّ إلى أن ينسحب إلى المهديّة سنة ٤٤٩ فإنه استطاع هو وابنه تميم ومن خلفها فيها أن يستتموا لهذا الإقليم كل ما كان ينتظره من نهضة أدبية وفكرية، وفي المعز يقول ابن خلكان: «كان محبا لأهل العلم كثير العطاء مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محط بني الآمال» ويقول في ابنه تميم: «كان محبا للعلماء، معظما لأرباب الفضائل حتى قصده الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج الصوري وأنظاره، وكان يجيز الجوائز

السنية ويعطى العطاء الجزيل» واقتدى به ابنه يحيى (٥٠١ - ٥٠٩) في سيرته، فكانت عند جماعة من الشعراء - كما يقول ابن خلكان - قصوده ومدحوه وخلدوا مديحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي، وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، وله أيضا مدائح في ولده أبي الحسن علي (٥٠٩ - ٥١٥ هـ). وفي حفيده الحسن، وكان روجار صاحب صقلية قد استولى منه على المهديّة سنة ٥٤٣ واستردها منه عبد المؤمن أمير الموحدين سنة ٥٥٥. وسار الحسن سيرة آبائه في العناية بالعلماء والشعراء.

وعصر هذه الدولة الصنهاجية يعد عصر ازدهار للإقليم التونسي ولشعرائه، إذ أصبحوا يعدون بالعشرات، حتى لنجد ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦ يؤلف فيهم كتابه: «أتمودج الزمان في شعراء القيروان» يضمه مائة ترجمة لشعراء القيروانيين في زمنه، وبينهم شاعرة مبدعة، وكان الكتاب مفقودا، واستطاع الأستاذان محمد العروسي المطوى وبشير البكوش أن يجمعا من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري وغيره من المخطوطات التي احتفظت بترجماته، وأن يعيدها كأنما تركه ابن رشيق بالأمس، وهو عمل علمي جليل فضلا عما قدما له من دراسة وما ملأ به هوامشه من تحقيقات قيمة، وبذلك وضعنا تحت يد الدارسين للنهضة الشعرية في القيروان أروع نص يمكنهم من تصوير هذه النهضة، ولم يحظ الإقليم التونسي بنص مماثل قبل ابن رشيق ولا بعده له خطورته، ويقال إنه كان له كتاب عن شعراء المهديّة سقط من يد الزمن، ولو أنه وصلنا لا تسعت تحت أعيننا صورة النهضة الشعرية في هذا الإقليم الشقيق لذلك العهد الصنهاجي، إذ الأتمودج لا يصور كل ذلك العهد، فقد كتبه ابن رشيق حوالى سنة ٤٢٥ ويغلب أن يكون كثير من المترجم لهم فيه قد عاشوا إلى منتصف القرن الخامس وأوا موجات بني سليم وهلال تأتي على القيروان وكثير من المدن، ومع ذلك فقد انسحب المعز بن باديس إلى المهديّة، وخلفه عليها سريعا ابنه تميم من سنة ٤٥٤ هـ إلى سنة ٥٠١ هـ ومرت بنا كلمة ابن خلكان عن تميم وكيف كان يُغدق الأموال على الشعراء والعلماء وكيف قصده الشعراء، من الأقاليم البعيدة فضلا عن إقليمه، ونهج نهجه ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن في نثر الأموال على الشعراء، ولا ينحسب الصقلي وأمّية بن أبي الصلت الأندلسي في الثلاثة مدائح رائعة، وبالمثل لمن كان يحف بهم من شعراء القيروان، غير أنهم جميعا لم يقبض لهم ما قبض للمعز بن باديس من عناية ابن رشيق بالترجمة لشعراء القيروان والإقليم التونسي لزمنه.

وكان الإقليم التونسي منذ زحفة بني هلال وسليم قد تحول إلى ما يشبه عصر الطوائف المعروف في اليونان، ففي المهديّة أسرة المعز بن باديس وأبنائه، وفي تونس بنو خراسان كانوا عمالا للدولة الصنهاجية واستقلوا عنها منذ سنة ٤٥٨ وفي قفصة والجريد بنو الرند، وفي سوسة الهلاليون، ويشتهر آخر أمرائهم جدار بن كامل بن سرحان البعيد الصيت بالجوهر وإغداقه

الأموال على الشعراء، ومن يده أخذها روجار الصقلي واستردها منه عبد المؤمن مع البلاد الساحلية. واستولى الملاليون أيضا على قابس، إذ ظلت لبني جامع منهم حتى سنة ٥٥٤ واشتهر من أمرائهم بأخرة من أيامهم أبو الحملات مدافع، ومنها استنزله عبد المؤمن أمير الموحدين، وكان جوادا ممدحا، والتف حوله كثير من الشعراء. ومن الغريب أن هذا العصر الذى توزع فيه الاقليم التونسي بلدانا وإمارات متعددة لم يضعف فيه الشعر بل ظل مزدهرا، وخاصة حول أمراء المهديّة وقابس وسوسة، إذ كان أمراء البلدان فيه يتنافسون في جذب الشعراء إليهم، وكلّ يحاول أن يجمع في بلده العديد منهم، ليتحدثوا عن مناقبه ومفاخره، وكانت تحف بتميم بن المعز في المهديّة كوكبة من الشعراء، منهم - كما في الخريدة - حميد بن سعيد، وكان من الشعراء المجيدين وهو الذى جمع شعر تميم، ومنهم - كما في الخلل السندسية - محمد بن حبيب القلانسي وأبو الحسن بن محمد الحداد، وتلتقى بشعراء أمير قابس أبي الحملات مدافع آخر أمراء بني هلال بها، ومنهم جعفر بن الطيب الكلبي وسلام بن فرحان القابسي وهو من الشعراء المجيدين والسكدلى القفصى ويحيى بن التيفاشي، كما تلتقى فيها بشعراء جبارة بن كامل بن سرحان أمير سوسة المارّ ذكره، ومنهم أبو ساكن عامر بن محمد بن عسكر اللاللى وأبو الحسين بن الصبان المهديوى والتراب السوسى وهو من الشعراء المبدعين، وكان وراء هؤلاء الشعراء الذين سميناهم شعراء بارعون مثل تميم بن المعز صاحب المهديّة وعلى الحصريّ المهاجر إلى الأندلس وأبي الحسن على بن محمد الخولاني المعروف بالحداد المهديوى المهاجر إلى الاسكندرية وأبي الفضل بن النحوى التوزرى وابن بشير المهديوى وعبد الله الشقراطسى ومحمد بن شرف المهاجر مع ابنه إلى الأندلس.

ويدخل الإقليم التونسي منذ منتصف القرن السادس الهجرى فى حوزة الموحدين، غير أن ابني غانية وقراقوش يحدّثان فيه شغبا - كما مرّ بنا - ظل فترة طويلة، وبعيد الأمن فيه إلى نصابه وإلى الموحدين أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، وقد اتخذها عاصمة له، وظلت عاصمة للدولة بعده حتى سنة ٩٨١ حين انتهت دولة الحفصيين، بل لقد ظلت إلى اليوم عاصمة للإقليم التونسي. وكان أبو زكريا سيوسا حليها منصفاً محسناً لتدبير دولته، وكان معدوداً فى العلماء وفى الشعراء وله شعر مدون مع إحسانه لاختيار الرجال الذين يديرون معه دفة الحكم، مما جعل أيامه خير أيام على الاقليم التونسي وأكثرها أرزاقاً وجمعت دولته طائفة من كبار العلماء ونابىي الشعراء لا من الإقليم التونسي وحده، فقد نزل بدياره كثرة غامرة من علماء الأندلس وشعرائه مثل ابن الأبار وأحمد بن عميرة وحازم القرطاجنى وتظل هذه السيول الأندلسية وافدة على تونس فى عصر ابنه المستنصر مثل ابن برطلة رئيس الوفد الذى قدم إلى تونس سنة ٦٥٧ مبايعا المستنصر خليفة وأميراً، ومثله ابن القصير شاعر المستنصر وله فيه مدائح كثيرة، وعلى شاكلتها ابن أندراس أهم أطباء المستنصر. وهذه الأسماء

الأندلسية التي ذكرناها إنما هي رموز، فقد كان علماء الأندلس وشعراؤها الذين نزلوا بتونس وماوراءها من المدن لا يُحْصَوْنَ عدًّا، وقد بعثوا فيها جميعا حركة أدبية عظيمة، اقترنت بما كان في البلاد من نشاط أدبي، فإذا هي تبدأ - منذ الأيام الأولى للدولة الحفصية - في نهضة أدبية عظيمة، فإذا التفتنا إلى شعراء تونس وجدناهم كثيرين، مثل أبي طاهر الحميري المتوفى سنة ٦٣٩ وعنان بن جابر الهلالي المتوفى سنة ٦٤٥ وأحمد اللبائي المتوفى سنة ٦٥٩ وابن عُرَيْبَةَ المتوفى مثله سنة ٦٥٩ ومحمد بن أبي الحسين وزير المستنصر المتوفى سنة ٦٧١. ووراء هؤلاء في القرن السابع الهجري غير شاعر مبدع مثل ابن الشباط التَوَزَّرِيُّ المتوفى سنة ٦٨١ وله شرح وتحميس لقصيدة الشُّقْرَاطِيِّ اللامية في المديح النبوي، وكان يعاصره ابن السَّمَّاط البكري المهدي المتوفى سنة ٦٩٠ وأشعاره جميعها مدائح نبوية رائعة. وتظل هذه النهضة الشعرية أيام الحفصيين مطردة في القرن الثامن الهجري، ويلقانا به شاعران من أسرة التجاني هما أبو الفضل وعبد الله صاحب الرحلة، وقد توفيا سنة ٧١٨ للهجرة، وملتقى بإسحاق بن حُسَيْنَةَ المتوفى سنة ٧٤٠ وبمحمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧، وما تلبث تونس أن تلتقى بدرتها اليتيمة ابن خلدون المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ وهو نائراً أكبر منه شاعراً. وقلما نلتقى بشاعرهم في الحقب المتأخرة للدولة الحفصية، باستثناء الشهاب بن الخلوف المتوفى سنة ٨٩٩ وأبي الفتح بن عبدالسلام المتوفى سنة ٩٧٥. وفي رأبي أن ضعف الشعر لعهد الدولة الحفصية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين يرجع إلى ما أخذ يسود منذ زمن ابن خلدون في الإقليم التونسي وبجاية بعامة من اللغة العامية التي لا تحتفظ بالإعراب في أواخر الكلمات، مما جعله يقول بمقدمته في الفصل الخاص بأشعار العرب وأهل الأمصار لزمه: «فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعراب على ما كان عليه سلفهم المستعربون، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون بالخروج من فن إلى فن في الكلام.. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه، ماعدا حركات الإعراب في أواخر الكلم فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر. ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب». ويبدو أن هذه العامية غير المعربة اتسع استخدامها في الإقليم التونسي، مما جعل الناطقين بالشعر الفصيح المعرب يقلون، وكان زملاؤهم من أصحاب الشعر العامي المسمون بالقوالين يظهرون في العهد الأول للدولة الحفصية على استحياء غير أنهم أخذوا يتكاثرون منذ زمن ابن خلدون والقرن التاسع الهجري.

وكانت شئون الحكم في أواخر عصر الدولة الحفصية قد ساءت سوء شديدا واستعان بعض حكامها بالإسبان ونزلوا في ديارها - كما مرَّ بنا - منذ سنة ٩٤٢ وأخذت البلاد تعاني من ظلم الإسبان وعسف الحفصيين ويستولى العثمانيون سنة ٩٨١ على الإقليم التونسي ويظل يعاني من

سوء الحكم العثماني إلى أن تتولاه الدولة الحسينية منذ سنة ١١١٧ غير أن لهذا الحكم السيء حسنة فإن الإسيان أخرجوا من ديارهم من بقى بها من المسلمين سنة ١٠١٦ فاستقبلهم الحاكم التركي للإقليم التونسي: عثمان داي استقبالا كريما، وأوسع لهم في اقتطاع الأراضي ومزاولة الصناعات، كما أوسع للشخصيات الفكرية والأدبية اللامعة أن تزاول حياتها في تونس، وبذلك أخذوا يردون لها دورها الثقافي في العصر الصنهاجي وأوائل العهد بالدولة الحفصية غير أنه لم يتح لتونس حينئذ حكام يستطيعون أن يحققوا لتونس هذا الدور، حتى تولت الأسرة الحسينية شئون الإقليم، وكان مؤسسها مثقفا مستنيرا وكان أبناؤه يحسنون العربية، بل كان ولي عهده من بعده: محمد الرشيد شاعرا وموسيقيا، وله ديوان شعر، وكما كان مولعا بالشعر كان مولعا بالغناء والموسيقى، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية. وبحق تفتتح هذه الأسرة الحسينية عصرا جديدا بتونس، ظل يواكبها إلى آخر هذا العصر وفترة في العصر الحديث، وكما أكثروا من إنشاء المدارس والاهتمام بجامعة الزيتونة وعلمائها من كل صنف أكثروا أيضا من الاهتمام بالشعراء والأدباء، وبذلك ظلت بتونس حركة أدبية ترافقها طوال عصر الدولة الحسينية، ومن نلتقى به من شعرائها في أول العهد بها ابن أبي دينار صاحب كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس وأحمد برناز ومحمد الوزير السراج صاحب الحلل السندسية ومحمد الخضراوي ومحمد سعادة وإبراهيم بن القاسم الخراط، وأعلى منهم مرتبة في الشعر على الغراب الصفاقسي وله ديوان منشور ومحمد الورغي والطوير القيرواني ومحمد الشافعي وحمودة ابن عبد العزيز والحجري، ونلتقى بأخرة من العصر بمحمد ماضور القاضي وكان ينزع في شعره نزعة صوفية كما نلتقى بمحمد الأصرم والطاهر بن عاشور، ونجد عندهم معارضات كثيرة، والظريف أنهم يعارضون بعض شعراء الأندلس في قصائدهم مثل ابن زمرك.

٣

أغراض الشعر والشعراء

أخذت الحركة الشعرية تنهض في القيروان والمهدية منذ عصر الفاطميين أو منذ أوائل القرن الرابع، واتسعت في عصر الدولة الصنهاجية اتساعا كبيرا أتاح لابن رشيق أن يؤلف فيها كتابه الأنموذج الذي ترجم فيه لمائة شاعر وشاعرة، واتسعت مع تلك الحركة حركة نقدية خصبة، فألف ابن رشيق كتابه البديع: العمدة في صناعة الشعر ونقده.

ولم تتوقف موجات الحركة الشعرية مع الزحفة الأعرابية لبني سليم وبني هلال، فقد ظلت منها - كما أسلفنا - أسراب في المهديّة وفي قابس وسوسة وعادت إلى الانتعاش مع الأزمنة الأولى للدولة الحفصية، وغذتها حينئذ هجرة الأندلسيين إلى تونس وما وراءها من البلدان،

وبالمثل غذتها هجرة ممانلة في القرن الحادى عشر الهجرى انتشلت الأدب شعراً وثرراً مما كان قد صار إليه من الضعف الشديد وغلبة العامية عليه. ولن نستطيع أن نفصل الحديث في الحركة الشعرية لاتساع جوانبها ومناحي القول فيها، بل سنعمد إلى غير قليل من الاجمال في عرض أغراض الشعر ومن جلى في كل غرض، متخذين ممن نذكرهم رموزاً لمن عاصروهم - وكذلك لمن خلفهم - من الشعراء، ونستهل ذلك بالحديث عن غرض المديح والناهين من شعرائه على مر العصور.

شعراء المديح

أخذت سوق المديح تنفق في الاقليم التونسى مع قيام الدولة العبيدية التى كان خلفاؤها يتخذون منه منشورات للدعاية لحكمهم، ومرراً بنا ذكر بعض مادحيهم، ومن أهمهم أبو القاسم الفزارى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ وله مدحة بديعة في المنصور الفاطمى حين انتصر على مخلد بن كيداد الثائر الخارجى سنة ٣٣٦ هـ وفيها يذكر من اشتهروا في الجاهلية والإسلام بالشرف والجد واللباس، ثم يأخذ في مديح المنصور وأنه لا يقل عنهم بأساً وجوداً وشرفاً بمثل قوله^(١):

كريمُ المساعى والأيدى سمّتْ به أبوةٌ صدقٍ من ذُوبةِ هاشمٍ
شريفُ الأدانى والأقاصى مهذبٌ إذا ما عددنا فضلَ أهلِ المكارمِ

وكان يعاصره على بن الإيادى، وسنخصه بكلمة. ويدور الزمن ونلتقى بحكام الدولة الصنهاجية، وكانوا بحورا فياضة، فجدبوا إليهم الشعراء من كل بلدة ومكان في الإقليم التونسى، وتجلت مواهبهم الشعرية الخفية في مدائحهم، من ذلك قول ابن سفيان في المنصور الصنهاجى المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة^(٢):

ومُعترِكُ ضاقَ الفضا في مقامه من الطَّعنِ والأرضِ العريضةِ خاتمُ
تجلّى لها المنصورُ فانجابَ جُنحُها ولبَّته في لثمِ الترابِ الجماجمِ^(٣)
قناتهمُ في حيث لا السيفُ يُنتضى كأن ضياه في التراقى تئاتمُ^(٤)
كأن الطلأَ وسطَ العجاجِ خناصرُ وقد صيغ من بيضِ الفِرندِ خواتمُ^(٥)

(٣) الجنج: الظلام.

(٤) ينتضى: يُسَل من عمدته.

(٥) الطلأ: الأعناق. الفرند: السيف.

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسى للاستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ٨٦.

(٢) أنموذج الزمان في شعراء القيروان جمع وتحقيق محمد العروسى المطوى وبشير اليكوش ص ١٠٠.

وتصوير الفضا وأنه ضاق بالقتلى تصوير قريب، غير أنه جعل الأرض كأنها تحولت خاتما يختم على قتلى الأعداء، ويستمر فيجعل تآثر جماجمهم وروءوسهم على التراب كأنها تنفذ للمنصور أمرا بلثمها للتراب، ويتصور ضياء سيوف جيشه في تراقبهم كأنه قائم، ويتسع به الخيال فيجعل أعناقهم وسط غبار الملحمة كأنها خناصر وقد أحاطت بها من بيض السيوف خواتم. وهى روعات متتابعة من الخيال البديع، وقد عقب ابن رشيق على الأبيات بقوله: «هذا كلام منتقى، ليس فوqe مرتقى». ويقول قرهب الخزاعي فى باديس بن المنصور^(١):

أبْنَى مَنَادَ سَلَكَتُمْ سَنَنَ الْهُدَى وَالْعَقْدُ مِنْكُمْ بِالْوَفَاءِ مُعَارُ
وَكأنَّ بَادِيسَ الْمَمْلُوكِ فِيكُمْ شَمْسُ الضَّحَى وَكَأَنْكُمْ أَقْمَارُ
رَاقٍ تِلَاعَ الْعِزِّ يَحْمَى حَوَزه حَدُّ الْبَوَائِرِ وَالْقَنَا الْخَطَارُ
وَحَدَا بِمَدْحِهِ جَازِعٌ فِي مَهْمِهِ وَشَدَا بِهِ الْحَضَارُ وَالسَّمَارُ

والكلمات فى الأبيات رصينة، ولكن المعانى مطروقة فى المديح، فبنو مناد أسرة باديس يسلكون طريق الهدى، وهم أهل الوفاء، وباديس شمس وهم أقمار من حوله، وهو راق تلاع العز أى أعاليه حام لحوز ملكه ونواحيه بالأسلحة الفاتكة، وهو محبوب حتى ليحدو بمدحه فى القفار كل خائف وحتى ليشدو باسمه ويتغنى الحضار والسمار. ولإبراهيم بن القاسم القيروانى مدائح متعددة فيه وسنفرده بكلمة. وكان المعز بن باديس غيثا مدرارا، حتى قيل إن الشعراء الذين مدحوه وحفوا به بلغوا المائة عددا، ومن رائع مدائحه قول عبد العزيز بن خلف الحرورى^(٢):

لَوْ يَسْتَطِيعُ لِأَدْخُلِ الْأَمْوَاتِ مِنْ نَعْمَاهُ فِيمَا نَالَتِ الْأَحْيَاءُ
سَوَتْ رَعَايَاهُ يَدَا إِنْصَافِهِ حَتَّى الشَّوَامِخُ وَالْوَهَادُ سَوَاءُ
مُتَنَوِّعَ الْعِزْمَاتِ مَاءٌ مُغْدِقٌ فِيهِمْ وَعَنْهُمْ صَخْرَةٌ صَّمَاءُ
مَا أَنْتَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَمَا بَعْضُ الْحِصَى الْيَاقُوتَةُ الْحَمْرَاءُ

فلو يستطيع المعز لنشر الأموات كى يقاسموا الأحياء من رعيته ما ينثر عليهم من نعماه، وإن يدى إنصافه لتسوى تسوية عادلة بين الأغنياء والفقراء من رعاياه، وإنه لمتنوع العزمات فهو على رعيته غيث مدرار، وهو على أعدائه صخرة صماء، وما يلبث الشاعر أن يأتى بصورة بدیعة فالمعز حقا واحدا من الناس إلا أنه يتفرد عنهم كما تفرد من بين الحصى الياقوتة الحمراء.

(١) الأثوذج ص ٣٢٥.

(٢) الأثوذج ص ١٦٣.

وفيه يقول ابن شرف القيروان^(١):

شهابُ الحرب مهلكٌ كلُّ باغٍ ومحرقٌ كلُّ شيطانٍ رَجِيمٍ
تَقَطَّعَ دونه البِيضُ المواضِي وتُجْفَلُ منه إِجفالُ الظَلِيمِ^(٢)
ويَجْلُو عنه ليلَ النَّعَمِ وَجَهُ كبدِرِ التَّمِّ في الليلِ البهيمِ^(٣)

فهو لا يهلك البغاة فحسب، بل يدمرهم ويحرق شياطينهم الملعونين، كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ومن دونه تقطع السيوف الحداد القاطعة، وتنفر منه نفور النعام في البوادي، حتى إذا أثير بالغبار الكثيف في الحرب تجلى وجهه كما يتجلى البدر في اكتماله بالظلام المعتم الداجي. وكان يعاصر ابن شرف الحسن بن رشيق القيرواني شاعر المعز وسنفرده بكلمة. وخلف المعز في المهديّة ابنه تميم، وكان محباً للعلماء ومعظماً للشعراء وقصدوه من الآفاق البعيدة، وله أشعار جيدة، وفي عهده أغار أسطول النصارى على المهديّة وعاثوا فيها فساداً سنة ٤٨٠ هـ إلى أن انسحبوا منها بعد صلحهم مع تميم، ووصف شاعره أبو الحسن الحداد هذه الحادثة في قصيدة فائية استهلها بقوله^(٤):

أني يلمُّ الخيَالُ أو يقفُ وبين أجفاننا نوى قذُفٍ

وخلف تيميا ابنه يحيى، وبه نزل أمية بن أبي الصلت الشاعر الأندلسي الكبير فأغدق عليه من إكرامه وكذلك ابنه علي وحفيده الحسن وأغدق عليهم من مدائحه، وبني علي أسطولا للقاء روجار وحماية المهديّة فتبارى الشعراء في مديحه بسببه من مثل محمد بن بشير المهدي وغيره، وكان متولى قابس رافع بن جامع الهلالي مدّ يده إلى روجار ضده و ضد العرب فصم على فتحها وتم له ذلك سنة ٥١١ وتبارى الشعراء في تهنتته بهذا الفتح من مثل قول محمد بن بشير الذي يتهم رافعا بأنه أصبح نصرانيا^(٥)

سَلُّ رَافِعًا ما الذي أجرى تنصُّرُهُ وهل بَقِيَ الذلُّ عنه من بهِ وَثِقَا
لو لم ير الرومَ أهلاً والصَّليبَ أبًا لم يَشُكُّ من عيشه في قابسٍ رَنَقًا^(٦)

يقول له إن حياته في قابس كانت صفوا هنيئة لولا ما كدرها من تعاونه مع روجار وأعوانه

(٥) قذف: بعيدة.

(١) الأتمودج ص ٣٤٢.

(٦) الحلال ٣٥٥/٢ وقابل بتاريخ الأدب التونسي

(٢) البيض المواضي: السيوف القاطعة. تجفل: نفر وتفزع.

ص ١٧٦.

(٧) الرنق: الماء الكدر.

(٣) النقع: غبار الحرب.

(٤) الحلال السندسية ٤٦٨/٢. قذف: بعيدة.

من النصارى حتى لكأنما فارق دينه وتنصر بوقوفه مع أعداء الإسلام لا يذكر عهدا ولا ذمة.

وفي أواخر عصر الطوائف يلقانا مدافع بن رشيد من بنى جامع الهلاليين وكان شجاعا حتى لُقِّب بأبي الحملات، كما كان جوادا ممدحا، وذكر صاحب الخريدة من مداحه أبا محمد الكلبي والسكدلي القفصي ويحيى بن التيفاشي، وأهم شعرائه جميعا سلام بن فرحان القابسي جليسه ووزيره، وأنشد له العماد في مديحه ميمية بدیعة يقول فيها^(١):

هَنِيءٌ مُدَافِعٌ أَنْ اللهُ خَوَّلَهُ سَعْدًا يَنَالُ بِهِ كُلَّ الَّذِي رَامَا
قُمْ فَافْتَحِ الْأَرْضَ فَالْأَمْلَاقُ كُلُّهُمْ سَوَاكُ أَضْحَا عَنِ الْعِلْيَاءِ نُوَامَا

وكان في نفس الحقبة أميرا على سوسة جبارة بن كامل بن سرحان البعيد الصيت المشتهر بالجوهر، وهو هلالى مثل مدافع أمير قابس وشاعره ابن فرحان، ومن مداحه أبو الحسين بن الصبان المهدي وفيه يقول^(٢):

فَتَى لِلْعَشِيرَةِ عِزٌّ لَهَا غَدَا لَجَمِيعِ الْبَرَايَا ثِمَالَا

فهو ثمال وغيث لا للعشيرة وحدها بل لجميع الناس، وأهم منه بين شعراء جبارة التراب السوسى، وسنخصه بترجمة موجزة.

ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية وكان مؤسسها أبوزكريا يحيى بن عبدالواحد، وكان شاعرا محسنا، وله أشعار حماسية جيدة وفي موضوعات مختلفة، واهتم بالحركة العلمية والأدبية في عهده، وفسح فيها وفي دولته للمهاجرين الأندلسيين، ولم فيه ولمعاصريهم من التونسيين مدائح كثيرة، وهو جدير بها لما امتاز به من بعد النظر وحسن التدبير مع سمو الهمة، وكان يتلقب بالأمير فحسب، وعرض له بعض الشعراء بأنه ينبغي أن يتسمى بأمير المؤمنين قائلا^(٣):

أَلَا جِلُّ بِالْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْتَ بِهَا أَحَقُّ الْعَالَمِينَ

فزجره زجرا شديدا، ولم يقبل منه ذلك. حتى إذا تولى ابنه المستنصر عمل على أن تأتيه البيعة بالخلافة كما مر بنا في تاريخه، وكان ذلك من أسباب تكاثر العللاء والأدباء والشعراء في تونس، إذ أصبحت تعدُّ نفسها - من بعض الوجوه - حامية حمى الإسلام. ومن أهم شعرائها ابن عُرْبِيَّة وسنخصه بكلمة. وحدثت نفس لويس التاسع بعد إخفاق حملته على مصر أن يغير على تونس سنة ٦٦٨ للهجرة وحاصرها نحو أربعة أشهر، وكان عداد جيشه الذى هاجم به

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب) طبع تونس (٢) الخريدة ١/١٣٨.

(٣) الحلل السندسية ٤/١٠٢٤. ١٢٤/١.

مصر سبعين ألفاً فأصبح لا يُرى فيه إلا قتيل أو أسير أو جريح، وقيدَ لويس إلى دار تعرف بدار ابن لقمان والأغلال في يده وحارسه الطواشى صبيح، واقتك نفسه من الأسر بدية كبيرة، فقال للويس بعض التونسيين مشيراً إلى كارثته بمصر^(١):

يا فرنسيسُ هذه أخت مصر فتأهبّ لما إليه تصيرُ
لك فيها دارُ ابنِ لقمان قَبْرُ وطواشيك مُنْكَرٌ ونَكيرُ

وسدّقت الأقدار قول هذا الشاعر التونسي فإن لويس دُفن تحت سور تونس، وعاد جيشه إلى فرنسا مخذولاً مدحوراً. ولم يخل حكم المستنصر من عصيان بعض القبائل عليه في الجهات النائية، وعصت عليه رياح في جهة بسكرة، ووصلت إليه جماعة منها على غير أمان، فصلب أبدانهم ببسكرة ورءوسهم بتونس، وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن أبي تميم الحميري مادحاً للمستنصر^(٢):

وياحُسنَ ما قرّرت به أعينُ الورَى رءوسُ رياحٍ في رءوسِ رماحٍ
فهذي دماءُ المارقين مباحةٌ وهذا جِمَى الإسلامِ غيرُ مباحٍ
بمستنصرٍ يرُمى العدا بكتائبٍ نعم نواحي أرضهم بنواحي

ويظل خلفاء المستنصر معنيين بالحركتين الأدبية والعلمية ويشتهر بين كتاب دواوينهم وشعرائهم آل التجاني وتنبغ في الشعر بين نسائهم زينب بنت إبراهيم التجاني، ولهم أثر غير قليل في الحركة الأدبية حتى زمن الخليفين أبي عصيدة وأبي ضربة. واشتهر بين مداح الخلفاء في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، بل قبل ذلك بفترة عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة المتوفى بعد سنة ٧١٨ وسنخسه بكلمة، وكان يصادق كبير مشيخة الدولة أبا يحيى اللحياني الحفصي وتولى الخلافة حيناً. ومن خلفوه أبو بكر المتوكل، وكان شاعراً وفي شعره وشعر معاصريه من أهل تونس يقول ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار: «لأهل إفريقية (تونس) لطف أخلاق وشمائل بالنسبة إلى أهل برّ العُدوة (المغرب) وسائر بلاد المغرب بمجاورتهم مصر وقربهم من أهلها ومخالطتهم إياهم ومخالطة من سكن عندهم من أهل إشبيلية من الأندلس وهم ممّ هم خفة روح وحلاوة بادرة، وأهل انطباع، وكرم طباع، وناهيك من بلاد من شعر ملكها السلطان أبي بكر المتوكل قوله:

(١) الناذلي النيفر وعبدالمجيد التركي ص ١٣٠.

(١) اللحل ١٠٣٢/٤.

(٢) الفارسية لابن منقذ تقديم وتحقيق محمد

مَواطننا في دهرهنَّ عجائبُ وأزماننا لم تُعدهنَّ الغرائبُ
مواطنُنْ لم تحكَّ التواريخُ مثلها ولا حدَّتْ عنها الليالي النواهبُ

وقوله في الحماسة:

انظرْ إلينا تجدنا ما بنا دهشُ وكيف يطرقُ أسدَ الغابة الدهشُ
لا تعرفُ الحادثَ المرهوبَ أنفسنا فإننا بارتكابِ الموتِ نتنعشُ

وقوله في الغزل:

عسى اللهُ يُدنى للمحبِّين أوبةً فتُشفى قلوبُ منهمُ وصدورُ
وكم من قصيِّ الدارِ أُمسى بحُزْنِه فأعقبه عند الصبحِ سرورُ

وإذا كان هذا رقةً طبع السلطان فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء^(١)! ولعل هذا الحكم الدقيق لابن فضل الله العمرى خير رد على ابن خلدون المتوفى بعده بستين عاما وما ذهب إليه في مقدمته من عراقة العجمة في لغات أهل الأمصار، كما هو واضح - كما يقول - في لغات أهل إفريقية وأشعارهم، ويتسع بالتهمة في الإقليم التونسي قائلا: «ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها، ولم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور». وابن فضل الله العمرى إنما يتكلم عن شعراء الإقليم التونسي فما بالناس بالقرون التالية لابن رشيق وابن شرف ومن بها من الشعراء التونسيين المجيدين المحسنين، من أمثال علي الحصرى وعبد الله الشقراطسى من شعراء القرن الخامس بعد ابن رشيق وابن شرف وأبي الفضل بن النحوى والتراب السوسى من شعراء القرن السادس وابن عريبة والسَّماط المهدوى من شعراء القرن السابع وعبد الله التجانى وابن حسينة من شعراء القرن الثامن، وجميعهم ممن تباهى بهم تونس، وستترجم لهم في الصحف التالية محاولين أن نوضح براعاتهم الشعرية، ونفس ابن خلدون كان شاعرا وله مدائح في السلطان أحمد معاصره، وهو لا يتفوق في شعره تفوقه في نثره، ولذلك سنترجم له بين الكتاب. وفي الحق أنه قسا في حكمه على شعراء تونس وبالغ في قسوته. وفي سنة ٨٣٨ تولى أبو عمرو عثمان حتى سنة ٨٩٣ وهو خاتمة خلفائهم الضابطين للحكم وإدارته، وفي الحلل

(١) صبح الأعشى ١١٥/٥ وقارن بتاريخ الأدب التونسي ص ١٨٥.

السندسية أنه ممدوح الشهاب ابن خلوف^(١) الجزائري المتوفى سنة ٨٩٩ وله في مديحه^(٢):

تلقاه أَنَّى حَلَّ يَسُطُّ لِلقَرَى بُسْطًا يُظَلِّلُهَا القَنَا الرِّيَانُ
شَرَفُ أُتِيهِ وَبَيْتُ مُلْكٍ شَامِخٍ فَوْقَ السَّمَاءِ غَدَا لَهُ إِيوَانُ

فهو جواد لا يزال جوده يفيض في كل مكان يحل فيه، ولا تزال رماح شجاعته وشجاعته جيشه تظله وتظل من حوله من رعاياه، شرف ناله من بيت ملك سامق، إيوانه فوق السماء في أعلى مكان. وَيُخْتَمُّ العَصْرُ الحَفْصِي بِأبي الفتح بن عبد السلام الذي بكى الدولة الحفصية وتاريخها بكاء حاراً.

ويعود إلى المديح والشعر بعامة غير قليل من الانتعاش في عصر الدولة الحسينية، العثمانية كما أسلفنا إذ كان حكامها يولدون بتونس ويترَبَّون فيها تربية عربية، وأخذوا يشعرون بأنهم تونسيون وأن واجبهم أن ينهضوا بتونس علمياً وأدبياً وهو ما وضعه نصب عينيه مؤسسها حسين بن علي، وبالمثل على ابن أخيه حين استولى على الحكم، ودارت الدوائر عليه لابن عمه محمد الرشيد، فاستولى على صولجان الحكم، وكان شاعراً بارعاً وموسيقياً ماهراً فبث في تونس حركة أدبية وموسيقية تخفق بالحياة، وسار سيرة أبيه وابن عمه في تشجيع العلماء والشعراء، ولم يلبث أن توفي فخلفه أخوه على الثاني، وتعرض حكمه لهزات عنيفة كانت له فيها دائماً الغلبة، وخلفه ابنه حمودة وكانت أيامه أيام رخاء ويسر، ونعمت فيها الرعاية بالأمن والاستقرار ورخاء الأسعار وصلاح البلاد، فكان طبيعياً أن يكون القرنان الحادى عشر والثاني عشر الهجرى قرنى عمران وخصب في الحياتين العلمية والأدبية، غير أن تونس أصابها حينئذ ما أصاب البلاد العربية من تخلف في الحياة العلمية، فغدت تعتمد على المتون والشروح وكان ابن خلدون لم يخلف وراءه فيها من ينهض بالحياة العلمية في المستوى الذي كتب فيه مقدمته، وأيضاً فإن الحياة الأدبية - وحياة الشعر خاصة - أصابها غير قليل من التخلف، إذ أخذ الشعراء يرتضون لأنفسهم الاكتفاء في كثير من الأحيان بأن يعارضوا هذا الشاعر أو ذاك من شعراء الأسلاف، فإن تركوا المعارضة فإلى تمسك شديد بقنون البديع وخاصة فن التورية، وبذلك ضيقوا على أنفسهم القنوات التي ينبغي أن يجرى فيها الشعر وملأوها بما لا يحصى من المحسنات البديعية، وهي محسنات كانت من الكثرة بحيث كادت تخنق الشعر خنقاً، وتصبح وكأننا في حاجة إلى مصباح ديوجين لنجد شاعراً تونسياً يخلص أشعاره من هذه الأعشاب والمعوقات الضارة التي تكاد تفقدها الحياة، ومع ذلك لن نعدم أن نجد بين شعراء المديح من يخفف عن شعره عبء

أعباء هذه المحسنات، من مثل قول السراج صاحب اللؤلؤ السندسية مهنتاً محمدًا الرشيد بجلوسه على أريكة الولاية^(١) :

أمير السعادة يهنيكمُ شباب الولاية بعد المشيبِ
وأياهمُ ملكك ألبستها على العز ثوب الجمال العجيب
ملكك يخال سنا وجهه ضحى الشمس من فوق غصنٍ رطيب

فقد رُدَّ إلى الولاية شبابها وألبسها ثوب الجمال العجيب، وكأنما سنا وجهه ضحى الشمس من فوق غصن رطيب. وهو مجرد كلام وليس فيه رصانة التعبير ولا دقة المعاني ولا دقة التصوير، إنه مجرد كلام منظوم على وزن وقافية. وبنفس الأسلوب يهنيء حمودة بن عبد العزيز محمدًا الرشيد باى حين استولى على صولجان الحكم قائلاً^(٢) :

الآن قد وافى الأمير وطاب لى زمن الحسينى أن أبيت مسهرا
الأروغُ الملك الرشيدُ محمد أعلى الملوك ذرًا وأطيب عنصرا
وأجل من جلى الخطوب وقد دجتُ ليلا وأفضل من يقود العسكرا
بذل النوال كما استهلت ديمةً وبكفه سيفُ يريك تسعرا

والأبيات ليس فيها روح وبعض ألفاظها قلق ولا يكاد يستقر في موضعه على نحو ما يتضح في كلمة «مسهرا» في البيت الأول وكلمة «تسعرا» في البيت الرابع، وبدلا من أن يبيت هائنا لاعتلاء محمد الرشيد باى منصة الحكم يبيت مسهدا. وخير من هذين الشاعرين الطوير القيروانى في تهنته لعلى باى الثانى حين انتصر على بعض خصومه وأذاقهم وبال عصيانه مستهلا تهنته الطويلة بقوله^(٣) :

فَتَحْ ونصرٌ وإسعادٌ وإقبالُ لمن له خضعتُ صيدٌ وأقبالُ^(٤)
ومن له همَّةٌ شماءٌ قد سُجِبَتْ لها على الفلك الدوار أذبالُ^(٥)
ومن سريرته طابتُ وسيرته الـ غراء سارت بها فى الفلك أمثال
علئ بن حُسينٍ من له فخرٌ على الملوك وإعظامٌ وإجلالُ

والقصيدة بها شيء من الرصانة يحول بينها وبين السقوط كسابقتها، وإن كانت لا تستمر في

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص ٤٠. (٤) صيد: جمع أصيد: السيد التريف، أقبال: جمع
(٢) نفس المصدر ص ٤٥. قيل: ملك.
(٣) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص ٤٥. (٥) شفاء: سامية.

هذه الديباجة. وأكثر من هذه القصيدة رصانة وجزالة قصيدة الخليفة المشرق في نفس المدوح يحمسه ويستثيره فيها على منزلة خصومه مستهلا لها بقوله^(١):

قاتل بسعدك فالمعالي تنجدُ واعزمُ فجدُّك لم يزل يتجددُ
والحربُ أنتُ مُجيدُها ومجيلُها والخَلْقُ تَعْلَمُ والوقائعُ تشهدُ
سمعتُ خيولك بالحروبِ فهزَّها طربُ وياتُ لِلصَّهيلِ تردُّدُ
ما ذاك إلا أنها عودتُها حُمَرَ الدِّمَا حيثُ النَّجِيعُ المورِدُ^(٢)

ويستمر الشاعر طويلا في وصف معارك على باى وما يخوض فيها من الدماء إلى أعدائه وما يقطف من رءوسهم. والقصيدة حماسية قوية، ولم ننشد شيئا من شعر الشعارين الرسميين على العراب الصفاقسى ومحمد الوردغى، لأننا سنخصهما بترجمتين مجملتين. ونتوقف الآن لترجم لبعض من مرّوا بنا من شعراء المديح، وسنحاول الإيجاز قدر المستطاع.

على^(٣) بن محمد الإيادى

نشأ وتربى بتونس، وهو من أهم شعراء الدولة العبيديّة بالقيروان والمهدية، وخدم الخلفاء: القائم والمنصور والمعز، وذكره محمد بن شرف فقال: «وأما على بن الإيادى التونسى فشعره المورد العذب، ولفظه اللؤلؤ الرطب، وهو يحترى الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبب فيعشق ويحبب». ومن شعره في وصف أسطول القائم بالمهدية:

اعجبُ لأسطولِ الإمامِ محمدٍ ولِحُسْنِهِ وزمَانِهِ المُستَغْرِبِ
لبستُ به الأمواجُ أحسنَ منظرٍ يبدو لعين الناظرِ المستعجبِ
من كل مُشرقةٍ على ما قابلتُ إشرافَ صدر الأجدلِ المُتنصّبِ^(٤)
دهماءٌ قد لبستُ ثيابَ تصنعٍ تسمى العقولَ على ثيابِ ترهبٍ^(٥)

وتصويره للسفن بأنها منتصبية الصدر كالصقر ترقب ما تنقض عليه تصوير بديع، ويتصور اللون الأبيض في أعاليها كأنه ثياب ترهب، ويتحدث عن نار النفط التي تقذفها بألسنتها على الأعداء وعمّا يحفها من مجادف مصفوفة في الجانبين تطير بها في عباب البحر المتوسط طيرانا. ويظيل في وصف الأسطول متفلا بين تصاوير رائعة وهى قصيدة بديعة، ومثلها قصيدة ثانية

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى، ص ٤٥. للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ٩٦.

(٢) النجيع: دم الجوف.

(٣) انظر ترجمة الإيادى فى تاريخ الأدب التونسى (٥) دهماء: سوداء لطلانها بالقار.

(٤) الأجدل: الصقر.

وصف فيها القصر الذى أنشأه المنصور بِصَبْرَةِ إحدى ضواحي المهديّة، وفيه يقول:

بنى قُبَّةً للملك فى وسط جَنَّةٍ لها منظرٌ يُزهِى به الطَّرْفُ مُوقُ
 لها جدولٌ يَنصبُ فيها كأنه حسامٌ جلاه القَيْنُ بالأرضِ مُلصِقُ
 لها مجلسٌ قد قام فى وسط مائها كما قام فى قَبْضِ الفراتِ الخَوْرَتُقُ
 إذا بثَّ فيها الليلُ أشخاصَ نَجْمِهِ رأيتَ وجوهَ الزَّنجِ بالنارِ تُحَرِّقُ

والصور بديعة فالجدول كأنه حسام جلاه القين أو الحداد فهو يلمع أشد اللعان بما فيه من مياه، وهو مُلقًى على الأرض بل ملصق بها لا يتركها أبداً، وقد قام وسط الماء مجلسها، وكأنه قصر الخَوْرَتُق الذى بناه المنذر بن ماء السماء قديماً على ضفة الفرات، حتى إذا دجا الليل وانتشرت النجوم على صفحة السماء رأيت وجوه الزنج تُحَرِّقُ بالنار. وتتكاثر هذه الصور وما يماثلها فى شعر الإيادى مما يدل بوضوح على ثراء ملكته الشعرية، وقد توفى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م.

الكاتب^(١) الرقيق إبراهيم بن القاسم القيروانى

نشأ وتربى فى القيروان وإليها نسب، وهو شاعر باديس ورئيس الإنشاء فى الدولة الصنهاجية لمدة خمس وعشرين سنة، وهو مؤرخ إفريقية الكبير، وتاريخه فيها وفى المغرب فى عدة أجزاء، لم تنشر منه حتى الآن سوى قطعة صغيرة، ويقول عنه ابن خلدون فى مقدمته: «الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد له» ويقول ابن رشيق: «هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه، تلوح الكتابة على ألفاظه، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار، وهو بذلك أصدق الناس، وله فى باديس أشعار مختلفة منها قوله:

وما مثل باديسٍ ظهيرٌ خلافةٍ إذا اختير يوماً للظهيره موضعٌ
 نصيرٌ لها من دولةٍ حاتميهٍ إذا ناب خطبٌ أو تفاقم مطمعٌ
 حسامٌ أمير المؤمنين وسهمه وسمٌ زعافٌ فى أعاديه منقعٌ

فباديس ظهير الخلافة وعونها ونصيرها الأكبر حين تنوب كارتة أو يتفاقم خطب، إنه حسام أمير المؤمنين وسهمه وسمٌ قاتل لأعاديه. وله قصيدة يصف فيها وقعة حرية استبسل فيها باديس بشلف قرب المحمدية (المسيلة) سنة ٤٠٥هـ وكتب له فيها النصر على أعدائه، يقول:

ص ٥٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٢١.

(١) انظر فى الكاتب الرقيق معجم الأدباء ٢١٦/١ وفوات الوفيات ٤١/١ وابن رشيق فى الأنموذج

لم أُنسَ يوماً بشُلْفٍ راع منظرُهُ
والبيضُ في ظلمات النَّعَمِ بارقةٌ
وقد بدا مُعَلِّماً باديسُ مُشْتَهراً
وأى راحته لو فاضَ ناهلُها
لو صُورَ الموتُ شخصاً ثم قيلَ له
وقد تضايق فيه ملتقى الحَدَقِ
مثلُ النجومِ تهاوتُ في دُجَى الفَسَقِ
كالشمسِ في الجوِّ لا تخفى عن الحَدَقِ
وبأسها في الورى أشْفَوْا على الغرقِ
أبو منادَ تَبَدَّى ماتَ من فَرَقِ

وهو يصور في البيت الأول ما أخذ الناس من الفرع في أول المعركة، ويقول إن السيوف كانت تلمع وتبرق في ظلمات الغبار وكأنها نجوم تهاوى في دجى الليل، ولم يلبث أن بدا باديس وسط ظلام المعركة وكأنه الشمس لا تخفى عن الأبصار، ويتجسّد له الجود والبأس في راحته، فلو فاضت على الورى لأشفقوا على أنفسهم من الغرق في جوده وبأسه، وما يلبث أن يتفد في مدحجه لباديس إلى صورة طريفة، فلو تجسّد الموت شخصاً، ثم قيل له هذا أبو مناد باديس مات من الفرق والفرع، وقد علق ابن رشيقي على بعض أبيات القصيدة بقوله إنها بديعة «حسنا وملاحة وإيجازاً وفصاحة وليس في ألفاظ الكتابة العذبة مثل ما أتى به ولا مستزاد عليه، ألا ترى كيف تأتق فأغرب، ونمق فأعجب». وله مدائح رائعة في محمد بن أبي العرب قائد باديس. وزار القاهرة وله قصيدة يتشوق فيها إلى أهلها ومنتزهاتها البديعة، وقد توفي حوالى سنة ٤٢٠هـ/١٠٣٠م.

ابن رشيقي^(١)

هو أبو على الحسن بن رشيقي، ولد بمدينة المحمدية المعروفة الآن باسم المسيلة لأب رومى من موالى الأزدي سنة ٣٩٠ وكان أبوه يجترف الصياغة فعلمه صنعته، وأحسّ الغلام بنزعة فيه إلى الأدب، فهاجر إلى عاصمة القيروان المشهورة به حينئذ سنة ٤٠٦ وأخذ ينهل من حلقات شيوخها ويختلط بالأدباء والشعراء القيروانيين، وأخذت ملكته الشعرية تتفتح، واشتهر بجودة الخاطر وحسن القريحة، حتى إذا كانت سنة ٤١٧ وكان المعز بن باديس قد بنى لنفسه بناء في صبرة: إحدى ضواحي المهديّة، رأى أن ينشده قصيدة، ومما قاله فيها:

يابن الأعرّة من أكابر حميرٍ
وسلالة الأملاك من قحطانٍ

خلكان ٨٥/٢ وشذرات الذهب ٢٩٧/٣ والتنف من أشعار ابن رشيقي وابن شرف للميمنى ومجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ١٨٣ وديوانه بتحقيق د. عبد الرحمن ياغى.

(١) انظر في ترجمة ابن رشيقي آخر كتابه: أنموذج الزمان في شعراء القيروان والخريدة للعماد الأصهباني (قسم المغرب - طبع تونس) ٢٣٠/٢ وإنباه الرواة ١/ ٢٩٨ ومعجم الأدباء ١٩٠/٨ وابن

من كُلِّ أَبْجَعٍ أَمْرٍ بِلِسَانِهِ يَضَعُ السُّيُوفَ مَوَاضِعَ التَّيْجَانِ
وأعجب المعز بالقصيدة، وشعر ابن رشيقي باستحسانه لها، فحاول أن يتقرب منه بقصيدة
لامية أكثر من القصيدة الأولى إبداعاً وافتناناً، فقيّد في ديوانه وأخذ الصلة منه، وحُمل على
مركب تمييزاً له بين أقرانه، وفي مديحها يقول:

لُدُنُ الرِّمَاحِ لَمَّا تُسْقَى أُسْتَنَّتْهَا من مهجة القَيْلِ أَوْ مِنْ مَهْجَةِ الْبَطْلِ
لَوْ أَوْرَقْتَ مِنْ دَمِ الْأَبْطَالِ سُمْرُقْنَا لِأَوْرَقْتُ عِنْدَهُ سُمْرُ الْقَنَا الذُّبُلِ
إِذَا تَوَجَّهَ فِي أَوْلَى كِتَابِهِ لَمْ تَفْرُقِ الْعَيْنَ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبْلِ
فَالْجَيْشُ يَنْفُضُ حَوْلِيهِ أُسْنَتَهُ نَفَّضَ الْعُقَابَ جَنَاحِيهَا مِنَ الْبَلْلِ

فرماح المعز لُدنة لما يسقيها من مهج الملوك والأبطال، ولو أن الرماح تورق من دم الأبطال
لأورقت رماحه الدقيقة، وما أعظم كتابه إنه حين يتوجه في أولها لا تستطيع التفرقة بين
السهل والجبل وما يلبث ابن رشيقي أن ينفذ إلى صورة بديعة، فالجيش ينفض من حول المعز
أسنته نفص العقاب جناحيه من البلبل ويقول ابن خلكان: هذا البيت من فرائده، وكان كثيراً
ما ينفذ إلى مثل هذه الفرائد، فقد غاب المعز عن حضرته وكان العيد مطرا، فأنشد:

تَجَهَّمُ الْعَيْدُ وَانْهَلَتْ بَوَادِرُهُ وَكُنْتُ أَعْهَدُ مِنْهُ الْبَشَرَ وَالضَّحْكَ
كَأَنَّهُ جَاءَ يَطْوِي الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ شَوْقًا إِلَيْكَ فَلِمَا لَمْ يَجِدْكَ بِكَى

وكان يعرف كيف ينفذ إلى هذه الصور البديعة، ويدعها إنما يرجع إلى ما تحمل من عنصر
المفاجأة، ومن ذلك قوله في تميم بن المعز:

أَصْحٌ وَأَعْلَى مَا سَمِعْتَاهُ فِي النَّدَى مِنْ الْخَبْرِ الْمَأْتُورِ مِنْذُ قَدِيمِ
أَحَادِيثُ تَرَوُّهَا السُّيُوفُ عَنِ الْحَيَا عَنِ الْبَحْرِ عَنْ كَفِّ الْأَمِيرِ تَمِيمِ

وقد ظل مع المعز يؤلف كتبه الرائعة: العمدة وغيره، حتى إذا كانت الهجرة الهلالية وتراجع
أمر المعز بكى القيروان طويلاً، ورحل إلى جزيرة صقلية واستقرّ بمدينة مازر إلى أن وافاه أجله
سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، وله في بكاء القيروان وما صارت إليه أشعار كثيرة بديعة.

التراب^(١) السوسى

هو من شعراء عصر الطوائف ومن أهل سوسة. الثغر المعروف على المتوسط إلى الجنوب

(١) انظر في التراب السوسى الخريدة ١٣٠/١

والخلل السندسية ٣٦٠/٢.

الشرقي من تونس ومثلها مثل قابس دخلت في حوزة العرب الهلالية بعد زحفهم إلى الإقليم التونسي. وما زال يتوالى أمراء من عرب الهلالية منذ عهد تميم بن المعز، انتزعوها من أيدي الدولة الصنهاجية، وتملكها أخيراً جبارة بن كامل بن سرحان الهلالي الذي اشتهر بجوده، فأقبل عليه الشعراء يقدمون إليه مدائحهم وفي مقدمتهم شاعره التراب السوسى، وهو سوسى المولد والمربي والحياة والوفاء، وله فيه قصائد بديعة طوال إمارته لسوسه إلى أن استولى عليها روجار صاحب صقلية حين أخذ المهديّة من يد الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجى سنة ٥٤٣ واستولى معها على بقية بلاد الساحل التونسي إلى أن خلص عبد المؤمن سوسة والمهديّة وبلاد الساحل جميعاً من أيدي النورمان النصارى سنة ٥٥٥ ودخل جبارة في طاعته. وللتراب السوسى قصيدة بديعة في جبارة على نهج قصيدة مهبّار الديلمى: (بكر العارض تحدوه النعامى) ومقدمتها لا تقل عنها وجدا واضطرام الحبّ شوقاً وغراماً، كما لا تقل عنها نسفاً موسيقياً بديعاً، وفي مديحه لجبارة يقول:

مُقْبِلُ الْقَلْبِ عَلَى سُبُلِ الْهُدَى	معرضٌ عن كلِّ ماجرٍ الأثاما
ليس يَدْرِى ما المزاميرُ ولا	يسمع الصَّنَجَ ولا ذاقَ المُداما ^(١)
وإذا استصرخته فى حادثٍ	فعلَى الحادِثِ جَرَدَتْ حُساما
بيته كعبةُ بِشْرٍ نُصِبَتْ	تَفْصِمُ الْغَمَّ عن الناس انفصاما
لذوى الحاجِ زحامٌ حولها	زحمةُ الحجاجِ قد زاروا المقاما ^(٢)

وجبارة، - في الأبيات - يقبل على طرق الهدى ويعرض عن كل ما يجير إثما، كما يعرض عن كل لهُو من مزاميرٍ وخمرٍ وضربٍ للصنج، وإنه ليغيثك غوث السيف القاطع في أى حادثٍ يعتريك. وما يلبث التراب السوسى أن ينفذ إلى صورة بديعة، فبيت جبارة كأنه كعبة تفضم الغم عن قاصديه من ذوى الحاجات. ويتخيل أنهم يزدهمون حول منزله ازدحام الحجاج حول الكعبة، وله في جبارة قصيدة ثانية وقف فيها طويلاً عند أطلال صاحبتة وتحدث عن أيامها الخوالى ومن كان بها من الغانيات الفاتنات وأطلال في وصفهن، وخرج إلى مديح جبارة بمثل قوله:

جبارةُ ابنُ كاملٍ	كهفُ النَّدى والكرمِ
العارضُ الذى إذا	أخلفَ صوبُ الدِّيمِ
سرتُ سحابُ جوده	من غَيْثِهِ المُنْسَجِمِ
وأمرتُ من الحيا	نَهراً لكلِّ مُعْدِمِ ^(٣)

(٣) الحيا: الغيث.

(١) المدام: الخمر.

(٢) المقام: مقام إبراهيم في الكعبة.

الفارسُ الذى إذا أُسرج كلُّ شَيْظَمٍ^(١)
 وُسُلٌ كلُّ مُرْهَفٍ وُسُلٌ كلُّ لَهْذَمٍ^(٢)
 تراه إن صاح بهم تحت وطيسٍ قد حَمَى
 تراكبوا من خَوْفِهِ بَعْضًا على بعضهم

والأبيات تسيل عذوبة مع صور بديعة، فالعارض أو السحاب الذى يخلف صوب الدير والأمطار لا يزال يهطل بجانبه عارض جوده بغيته المدرار، حتى ليفيض أنهاراً من الحيا والغيث المتدافع لكل معدم، وحين يسرج كل فرس كأنه أسد ضخم، ويسل كل سيف حاد ولهزم قاطع ترى الأعداء حين يجمى وطيس الحرب ويصيح بهم يتراكبون بعضا على بعض فرعا منه ورعبا ما بعده رعب. والقصيدة توج بمثل هذه الصور البديعة، مع ما توج به من خفة في الموسيقى حتى لكأنما تطير عن الفم طيرانا، مما يرتفع بالتراب السوسى إلى منزلة عليا في عالم الشعر. وقد ظل الناس في الإقليم التونسى يغمون بإنشادها حتى أوائل القرن الثامن الهجرى، إذ يشهد التجانى بذلك في رحلته قائلا إن أعراب زماننا قد أولعوا بإنشادها وكثرة ترادها حتى عصره. ولعل في ذلك ما يدل - من بعض الوجوه - على صحة ما زعمناه في غير هذا الموضع من أن الفصحى كانت لا تزال تجرى في ألسنة الناس - وخاصة من الأعراب - حتى هذا التاريخ.

ابن^(٣) عُرَيْبَةَ

هو أبو عمرو عثمان بن عتيق المهدوى، من شعراء المهديّة وفقهائها ومحدّثيها الأعلام، ولد سنة ٦٠٠ وبها منشؤه ومرباه، وله كثير من المصنّفات منها كتاب جوامع الكلم النبوية، وآثار السحابة في أشعار الصحابة، وله ديوان سماه قصائد المدح ومصائد المنح، وكانت له في أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية مدائح كثيرة، وقد استدعاه مع جماعة من خواصه وشعرائه لنزّهة في روضه المسمى بأبي فهر، فنظّموا في وصفه قصائد وقدموها إليه، وأجابهم عنها بأبيات تتضمن تفضيل قصيدة ابن عريبة على قصائد من حضره من الشعراء قائلا:

ألا إنَّ مضمَارَ القريض لَممتدُّ به شعراءُ السَّبِقِ أربعةٌ لُدُّ
 فأما المجلَّى فهو شاعرٌ جمّةٍ أتى أوَّلًا والناسُ كلُّهمُ بَعْدُ

وجمّة من قرى المهديّة، وواضح أنه يريد بشاعرها ابن عريبة، وله شعر طريف في

(١) الشيّظم الطويل الضخم ويعنى به الفرس. ٥٠٣/٢ وما بعدها وكتاب الفارسية في مبادئ

(٢) لهزم: سيف قاطع. الدولة الحفصية ص ١١٣ ومجمل تاريخ الأدب

(٣) انظر في ترجمة ابن عريبة الحلال السندسية التونسى ص ١٩٧.

التشوق إلى بلده، وهو ما جعله في أثناء مدحه لأبي زكريا يطلب إليه أن يوليه قضاء بلدته
جمة قائلاً:

ذَكَرْتُ جَمَّةَ وَالذُّكْرَى تَهْيِجُ أَسَى وَأَيْنَ جَمَّةٌ مِنِّي وَالْمُنَسْتِيرُ
وَمَا مَنَائِ لِيَالِيهَا الَّتِي سَلَفْتُ وَمَا هَوَائِي مَحَانِيهَا الْمَعَاظِيرُ^(١)
لَكِنْ بِهَا رَجِمٌ مَجْفُوءٌ يَثْسَتْ مِنْ أَنْ تَقْرِبَنِي مِنْهَا الْمَقَادِيرُ
فَإِنْ رَأَى مَنْ أَدَامَ اللَّهُ نَعْمَتَهُ عَلَيْهِ لِي خَطَّةٌ فِيهَا فَمَا جُورُ

وكان ابن عريبة خير أبا زكريا بين قضاء جمة أو قضاء المنستير بالقرب منها، وعينه قاضياً
بتبرسق وظل بها إلى وفاته سنة ٦٥٩. ولما توفي أبو زكريا وتولى ابنه المستنصر نظم قصيدة
رائعة جعل شطرها الأول عزاء في أبي زكريا وشطرها الثاني تهنئة للمستنصر، وتمضى على هذه
الشاكلة:

وَلِئِنْ طَوَى بَدْرَ الْإِمَارَةِ مَغْرِبٌ فَلَقَدْ جَلَا شَمْسَ الْخِلَافَةِ مَطْلَعٌ
فَأَضَاءَ بِالْمَرْحُومِ ذَلِكُمْ الثَّرَى وَأَنَارَ بِالْمَنْصُورِ ذَاكَ الْمَرْبَعُ
بَسَطُوا لِسَانَ الشُّكْرِ فِيمَنْ بَايَعُوا وَثَنُوا عَيْنَانَ الصَّبْرِ عَمَّنْ وَدَّعُوا
وَرَأَوْا خِلَالَ مُحَمَّدٍ فَبَاشَرُوا وَتَذَكَّرُوا بِحَيِّ الرُّضَا فَتَفَجَّعُوا

ويقول الرواة إنها قصيدة طويلة، ويدل ما ذكره من أبياتها السالفة على مهارة ابن عريبة
في الجمع بين التعزية والتهنئة في كل بيت من أبياتها. ولو وصلتنا القصيدة أو بعبارة أدق
لو وصلنا ديوان ابن عريبة لاستطعنا أن نحكم على إبداعه الشعري بصورة أكثر دقة، ومع ذلك
فالأشعار التي أنشدتها له الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب تدل على موهبة شعرية فذة، وإذا
كان التراب السوسى يدل على خطأ حكم ابن خلدون في أن الشعر التونسي توقف بعد ابن
رشيق وابن شرف، فابن عريبة يدل بدوره على خطأ هذا الحكم.

عبد الله^(٢) التجاني

هو عبد الله بن محمد التجاني، من أسرة ظلت راعية للأدب والثقافة منذ عهد مؤسس الدولة
الحفصية أبي زكريا إلى عهد أبي يحيى زكريا الذي اشتهر باسم ابن اللحياني (٧١١-٧١٧هـ)

(١) محانيها: منعطفاتها.

(٢) انظر في التجاني الحلل السندسية (راجع

المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٢ وراجع
الرحلة طبع تونس.

الفهرس) والقسم الثالث من كتاب الورقات

وقد ولد عبد الله حوالى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م ورعاه أبوه محمد خير رعاية، فأخذ ما عند أبيه وأسرته من الأدب والفقه، وانتظم مبكراً مثله في ديوان الإنشاء وعُرف بالبراعة في الشعر والترسل، وكان طموحه أوسع من ذلك، فأخذ يختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين من أهل تونس والطارنين عليها. وانعقدت صداقة وثقى بينه وبين أبي يحيى زكريا المشهور بابن اللحياني كبير أمراء الدولة الحفصية، حتى إذا رأى هذا الأمير أن يقوم برحلة واسعة في شرقي الإقليم التونسي وجنوبيه سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م اصطحبه معه في تلك الرحلة التي ظلت سنتين ونصفا، وفي نهايتها تجوّل معه في الإقليم الطرابلسي، وأقام به التجاني مدة تحدّثنا عنها في طرابلس وعمن أخذ عنه صحيح البخارى ومسلم، وعاد إلى تونس وأخذ في تأليف رحلته الطريفة، وفيها يتحدث عن البلدان التي زارها مع ابن اللحياني جغرافيا ونباتيا وتاريخيا مع عرض أعلامها من الفقهاء والمحدثين وأصحاب العربية والشعراء الأفاضل على مر العصور حتى عصره، ويذكر أن الأمير ابن اللحياني فكر سنة في الحج فجاءتهم الأنباء بمجاعة شديدة في برقة، ويذكر أن ابن حُسينة نظم قصيدة ينهأ فيها عن الحج حينئذ، وينشد مطلعها، ويقول إنها سقطت من ذاكرته، غير أن له قصيدة جعلها معارضة لقصيدته، وينشدها، وفيها يقول مادحا ابن اللحياني:

مولئى زهتِ الأيامِ بهِ	وتحلّت من بعد العطلِ
شرفُ بالإرث تملكه	فتنقل أحسن منتقل
بأس كالنار إذا اضطرمّت	وندى كالقيت المنهمل
يُمضى الآراء مسدّدة	فى قول أنفذ أو عمل
فأقم للدين تجدّه	فى عزّ باقى متّصل
فشروط الحج قد ارتفعت	لزوال القُدرة والسُّبل

والقصيدة طويلة، وهى تدل على قدرة ملكته الشعرية إذ يندفع فيها ولايكاد يتوقف، ويقول لابن اللحياني أقم فيكفى ما تقدمه للدين من خدمات، وقد ارتفع عنك الحج لفقد شرط الاستطاعة وأمن السبل. وتمتلىء الرحلة بأشعار يتبادلها مع أصدقائه وأبيه وأفراد أسرته، من ذلك محاولة الشاعر ابن حسيّنة أن يتبادل معه الشعر، فأجابه مادحا:

أحمرز كلّ منقبية حميدة	ومن لم نلّف فى الدنيا نديده
أعنت على النّظام يُحسن طبع	وأفكار مؤيدة سيديه
وتسألنى الجواب وإن فكرى	ليقصر عن مجاريك المديده
فمهّد لى على التقصير عذرا	وهون من مطالبك الشديده
ودم فى عزّة وبلوغ قصد	وسعدٍ دائمٍ وعلا جديده

وهو يعلى من شاعرية ابن حسينة ويجعله أكثر منه تفوقاً في عالم الشعر، ولم يكن ابن حسينة يقلّ عنه شاعرية وبراعة فيما يورد من أشعار له.

على^(١) الغراب الصفاقسي

منشؤه ومرباه مدينة صفاقس في القرن الثاني عشر الهجري، وكان أبوه محمد في ثراء ونعمة مما أتاح له الاختلاف إلى حلقات العلماء والأدباء في بلدته والنهل من ينابيع علمهم وأدبهم وانتقل إلى تونس، فحضر دروس علمائها المختلفين في المنطق والفلك وأصول الفقه والفقه المالكي والحديث النبوي والبالغة والعربية، ويقال إن أصل مجيئه إلى تونس قضية شرعية في إرث أبيه وتعرف على رجالها: رجال الدواوين وساستها وقد وضع بين يدي ديوانه مقدمة طريفة ذكر فيها أنه كان في بدء حياته (بصفاقس على ما يظن) لا يزال حين تفتحت موهبته الشعرية ينتقل بين الجد والمجون إظهاراً لمقدرته، وكثير منها لم يكن مطابقاً للواقع بل على حسب ما يقتضيه المقام من المفاكيات أو محاكاة للبلغاء في بعض المطارحات. ويعود الغراب إلى ذكر ذلك في مقدمته لديوانه لعلى الثاني بن الحسين وقد سماه «ديوان بهجة النفس والعين في صفات الأمير على بن الحسين». وكان اتصاله برجال العصر من الساسة وكتبة الدواوين سلماً طبيعياً لاتصاله بعلى الأول ابن الأمير محمد الذي استلب أولاد أخيه الحسين الحكم إلى أن استرده محمد الرشيد وإخوته بعد عشرين عاماً بفضل جيش جزائري نصرهم على عمهم، واستقر الحكم من حينئذ في يد الأسرة الحسينية. وقد أسند على الأول إلى الشاعر خطة العدالة التي كان يرنو إليها، وله فيه ثلاث مدائح، أهمها مدحة رائية، وفيها يقول:

مليك له فضلٌ ومجدٌ وسؤددٌ	وكلُّ ملكٍ عن معاليه يقصُرُ
له عِفَّةٌ مقرونةٌ بصيانةٍ	عن الفحشِ في أفعاله وتطهُّرُ
إذا وقعتْ أسيافه في عِداته	رأيت رءوس المعتدين تطيَّرُ
إذا رفعَ الأعلام فاجزَمُ بفتححه	لما أمَّ والجمعُ الصحيحُ يُكسَّرُ

عنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم أديب (طبع تونس) ٣٢/٢ وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد مخلوف (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٣٩ وكتاب الأدب التونسي في العهد الحسيني للهادي الغزوي (طبع تونس) ص ٩١.

(١) انظر في ترجمة الغراب مقدمته العامة لديوانه والخاصة التي وضعها بين يدي ديوانه الثاني في مدائح على باي بن الحسين وهو مضمّن في ديوانه بتحقيق وتقديم محمد الهادي الطاهر المطوي وعمر ابن سالم (طبع تونس) وقد ضُمّن الديوان رسائله ومقاماته، ومن الكتب التي اهتمت بالترجمة له كتاب

وإنما ذكرت البيت الأخير لأنه كان يتصنع أحيانا لقواعد النحو، فقد ذكر فيه الرفع والجزم والفتح والجمع الصحيح السالم والجمع المكسر، ولكن ذلك كله لم يفسد البيت عنده، وهو لا يكثر من مثل ذلك في شعره، فقول من قال إنه كان يكثر من التورية في شعره يريد مثل ذلك من التصنع لبعض مصطلحات العلوم وخاصة النحو وأنه يخرج بذلك عن الحد المحدود فيه مبالغة، إذ تتضح في شعره قوة شاعريته وأنه يتدفق فيه رغم ما قد يتصنع له من المحسنات وخاصة الجناس، وله مدحة لم يُخل منه بيتا من أبياتها وقد ذكر في فاتحتها أن ذلك طُلب منه. والحق أنه يتميز بشاعرية خصبة، وديوانه الثاني أنشأه في علي بن الحسين وقد استولى على صولجان الحكم بعد أخيه الرشيد من سنة ١١٧٢ حتى سنة ١١٩٦ وكان سياسيا محتكا وقرب الشاعر منه وعاش في زمنه حتى توفي سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩م وأهداه أكثر من ثلاثين مدحة مكونا بذلك هذا الديوان الثاني الذي قلنا أننا إنه سماه: «ديوان بهجة النفس والعين في صفات الأمير علي بن الحسين» وله يقول في بعض مديحه:

إليه فثِقُ أَنْ الإِيَابِ مَغَانِمُ	مليكَ إذا الآمال منك توجَّهتْ
وهذا لجُرْحِ النَّائِبَاتِ مَرَاهِمُ	يحلم وعدلٍ حُصَّ، هذا لمن جنى
- وتجنين عنهن - الكُماة الضَّراغم ^(١)	له وثباتٌ في وَغَى الحرب تنثنى
لما علقَتْ بالعالمين مآثمُ	له عفةٌ لو أنها في الورى سرتُ
فذاك له كَفٌّ وذلك ساجمُ	إذا انبجستُ مَزُنُ السماء وكُفه
بنا من جنان الخُلْدِ حَفَّتْ تَعائِمُ ^(٢)	نَعْمنا به في ظلِّ عيشٍ كأنما

والقصيدة تتدفق برنات موسيقية بدعية، والألفاظ سلسلة عذبة، والتقسيم في البيت الثاني دقيق، فالعدل لمن جنى والحلم مرهم لجرح النائبات، وله وثباتٌ في وغى الحرب يتحاشاها ويحيد عنها الشجعان شجاعةً ضارية، ويبالغ في وصف عفته وأنها لو وزعت على العالمين ما كان في الدنيا مآثم، ويقول إذا انفجر مزن السماء بالغيث وكفه بالجود وتوقف المزن وكفه فكفه تظل هاطلة ولا تتوقف أبدا، ويذكر أنهم نعموا بالأمير علي الثاني في ظل عيش ناعم رافه، حتى لكأنما يعيشون معه في جنان الخلد، وقد حفت معيشتهم بتماثم وتعويدات حتى لا يتبدل أبدا. ولعل صوت على الغراب الصفاقي اتضح لنا الآن، وهو صوت فيه غير قليل من جمال العبارة وحسن الصياغة وأحيانا مع المبالغة الشديدة.

(٢) تائم: تعاويد.

(١) الكماة الضراغم: الشجعان الأسود.

محمد^(١) الورغى

هو محمد بن أحمد الورغى، نسبة إلى قبيلة ورغة التي كانت تنزل قرب مدينة الكاف في الجنوب وقيل بل كانت تنزل على الحدود التونسية الجزائرية، ولا نعرف شيئا عن ميلاده ولا عن نشأته، ويبدو أنه التحق أولا بالكتاتيب، وحفظ فيها القرآن الكريم. ونفاجأ به في جامع الزيتونة بتونس يدرس على شيوخه الفقه والتاريخ وعلوم الحديث والتفسير والكلام والمنطق وعلوم العربية والبلاغة، ويبدى من الذكاء ما جعله يجلس للتدريس بجامع الزيتونة. وجعلته نزعة الأدبية يختار العمل كاتباً في ديوان الإنشاء لعهد الأمير على الأول، ونال في عهده من الشهرة والجاه ما جعله كاتبه وشاعره الأول فلا يترك حادثاً ولا عيداً إلا ويدبج فيه مدحة، وتدور الدنيا دورات وإذ أولاد أخيه حسين يستردون السلطان المفقود، ويجلس على أريكة الحكم محمد الرشيد لمدة ثلاث سنوات ثم أخوه الأمير على الثاني حتى سنة ١١٩٦ ويوشك نجمه أن يأفل منذ ولاية الرشيد سنة ١١٦٩ فيسجن ويعذب، وما يزال يبعث بمدائح إلى أخيه الأمير على الثاني، ويتوسط له عند أخيه وترد إليه حريته، حتى إذا أصبح صولجان الحكم بيده قرّبه منه، ونظن ظناً أن لزوجه ابنة على الأول أترا في قربه منه وقرب على الغراب الصفاقسى كما مر بنا، مما جعله ينظمها بين كتابه وشعرائه. وظل الورغى يحظى بجوائز على الثاني حتى وفاته سنة ١١٩٠ للهجرة. ومدائحه منقسمة بين على الأول وعلى الثاني، ومن بديع ما له من مديح في على الأول قصيدته في إيقاعه بقبيلة النمامشة حين نهبت ركب حجيج من فاس وألزمها برد كل مانيته، وله يقول:

هو العزُّ فى سُمرِ القَنَا والقَوَاصِبِ	وإلا فما تُغْنِي صدورُ المراتبِ
وسَيانِ أغمارِ الرجالِ وصِيدِها	إذا لم يَمَيِّزْ فَضْلُها بالتجاربِ ^(٢)
هو الملكِ الداعى إلى الحقِ وحده	وإن كثرتْ أهلُ الدواعى الكواذبِ
ومنَ عَرَفَ الأيامِ قَصَّ غريبِها	وفى قصصِ الباشا عيونِ الغرائبِ
ومن مثله يُدعى لكشفِ مَلَمَّةٍ	إذا قال: واغوثاهُ أهلُ المصائبِ

(١) انظر في الورغى شجرة النور الزكية لمخلوف وعنوان الأريب لمحمد النيفر والجزء الثاني من

تاريخ ابن أبي الضياف والورغى للحبيب ابن الخوجة ومجمل تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب ص ٢٤٧ والأدب

التونسي في العهد الحسيني ص ١٤٩ وديوانه مطبوع بتونس.
(٢) أغمار الرجال: من ليس لهم خبرة من العامة. الصيد: السادة.

ترى الخيل فى آثارهم مستطيرةً
وما ارتفعت شمس الضحى قيدَ رمحهم
سحائبُ حَتَفٍ أُرِدَفَتْ بسجائب
عن الأفق حتى أنشبوها فى المخالبِ^(١)

والأبيات حماسية والورغى يقول فيها إن العز فى الرماح والسيوف ولا فضل بين شجاع وجبان إذا لم تميزهما التجارب فى وطيس الحرب، ويصف علياً الأول بأنه يعيش للدفاع عن الحق وكشف الملمات عند أهل المصائب، ويقول إن خيل على الأول عصفت بأعدائه، وما زالت سحائب حنفتها تعقبها سحائب حنفت حتى دمرتهم، وما ارتفعت شمس الضحى قدر رمح حتى أنشبوها فى مخالب فرسانه كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. وتختلف مدائحه فى على الثانى عنها فى على الأول فأكثرها استعطافات واعتذارات على شاكلة قوله:

يا أيُّها الملكُ الذى نَظَرَ السَّنا فى وجهه الأسنى فقالَ موفَّق
أنت الذى يَنسىَ الغريبُ بقرِبه أوطانه ويَجودُ منه المُمْلِقُ
مالى أحاولُ شُرْبَةً من عفوكم فأذادُ وهو على الورى يتدفَّق
إن كان لى الذَّنْبُ العظيمُ فحلّمكم يَبلى به ذاك العظيمُ ومُحَقُّ
قالت قُتَيْلَةُ لرسول «وربما منَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحَقُّ»

والقصيدة من نفس الوزن والقافية اللذين اختارتها قتيلة لبكاء أبيها النضر بن الحارث ومقتل رسول الله له بعد غزوة بدر بالصفراء، ويقال إن رسول الله ﷺ حين سمع شعرها قال: أما إنى لو سمعت هذا قبل مقتله لم أقتله، وتمثل الورغى فى البيت الأخير بجزء مؤثر من بيت لقتيلة، وكماله:

ما كان ضَرْكُ لو مننتَ ورُبَّما منَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحَقُّ
وكأنه يلفت عليا الثانى إلى مدى تأثر الرسول باستعطاف قُتَيْلَةَ، وهو يتخذ وزن قصيدتها وقافيتها وسيلة إلى قلبه، ويتأثر ببعض معانيها، وله قصيدة فى مديح على الثانى تسيل عنوبة وسلاسة بدأها بقوله:

حاجة المدح لُحْلُو الغَزَلِ حاجةُ الصَّبِّ لأولى القُبَلِ
حتى إذا استوفى الغزل فيها أخذ يمدحه بانتصاره على بعض الثائرين مُسَبِّحاً عليه كثيراً من
الشمائل مبالغاً مبالغات مفرطة. وكان لا يقل عن على الغراب الصفاقسى متانة أسلوب
ورصانة صياغة وجزالة ألفاظ، ولم يستكثر مثله فى شعره من مصطلحات العلوم ومحسنات البدع.

(١) قيد: قدر.

شعراء الفخر والهجاء

الفخر وما يتصل به من الحماسة من موضوعات الشعر القديمة، حتى لقد سُمى أبو تمام مختاراته من الشعر حتى عصره باسم ديوان الحماسة إشارة إلى أنه الموضوع الغالب على الشعراء قديماً، ومدّ مختاراته إلى عصره، ودائماً يزدهر في البيئات الحربية التي تكثُر فيها الحروب، ولا نغلو إذا قلنا إن القيروان ظلت تشهد حروباً كثيرة في القرنين الأول والثاني للهجرة، واتصل شيء من ذلك في فتح صقلية سنة ٢١٢ ثم في فتح مالطة سنة ٢٥٥ وهاجها مخلد بن كيداد الصفرى في عصر القائم الفاطمي ثم كانت زحفة بنى سليم وهلال في القرن الخامس، ومنذ غلب روجار النورماندى على صقلية سنة ٤٨٤ كانوا ينازلون الساحل الشمالى للإقليم التونسى واستولوا على المهديّة مراراً. وفي القرن السادس الهجرى صِلَى الإقليم نار الحرب التي أشعلها فيه قراقوش وابنا غانية، واستولى عليه الموحدون، ثم قامت الدولة الحفصية وكانت القبائل في الجنوب والجزائر ماتى تناوئها، ونزها الإسبان بأخرة من الدولة ثم العثمانيون. وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن الإقليم التونسى كان معداً دائماً ليزدهر فيه شعر الفخر والحماسة، وأول عصر ازدهر فيه هذا الشعر عصر الدولة الأغلبية إذ نجده على لسان مؤسس الدولة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب وحفيده أبى العباس بن الأغلب إذ يقول في قصيدة بناها على الفخر بالنسب والحسب^(١):

أنا الملكُ الذى أَسْمُو بنفسى فأبْلُغُ بالسّمُوِّ بها السُّحَابَا
إذا نَقَبْتُ عَنْ كَرْمِي وَمَجْدِي وَجَدْتَنِي المُصَاصَةَ واللُّبَابَا

فهو يسمو بنفسه مصعداً في السماء حتى يبلغ بها السحاب، وهو المصاصة أو الجواهر واللباب من المجد والكرم، ويمضى متحدثاً عن سياسته وحسن تدبيره وشجاعته. وكان من بيته أحمد بن سواده الأغلبى المتوفى سنة ٢٦٠ وإلى الزاب وطرابلس وصقلية، وكان بطلاً في الحروب وله في جميعها وقائع مشهورة، وله شعر كثير يفخر فيه بياسه وبطولته وبلائته في الحروب من مثل قوله^(٢):

أنا مَنْ قد جال ذكرى وَجَرَى بين الأنام

(١) مجمل تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٩. (٢) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٦٣.

أرْكَبُ الْهَوَلَ بِكَرًّا تَى عَلَى الْجَيْشِ اللَّهَامِ^(١)
تَعْرِفُ الْأَنْسُرَ بِأَسَى فَهَى مِنْ فَوْقَى حَوَايَى

فقد طار اسمه وطار صيت شجاعته بين الناس بركوبه أهوال الحرب، وإن النسور لتعرف بأسه فهي ما تزال حائمة حول راياته، ولا تزال خلفه وأمامه تنتظر غذاءها من أشلاء أعدائه ممن يذيقهم كأس المنون. وكان القائم بأمر الله، الفاطمي شاعرا مثل أبيه وله مثله شعر يفخر فيه، من ذلك قوله، وقد غزا مصر مرارا ولم يكتب له النصر كما كتب فيها بعد لجوهر الصقلي، ومن قوله يذكر هذا الغزو آملا في النصر^(٢):

فَسَرْتُ بِخَيْلِ اللَّهِ تَلْقَاءَ أَرْضِكُمْ وَقَدْ لَاحَ وَجْهُ الْمَوْتِ مِنْ خَلَلِ الْحُجْبِ
وَأَرْدَفْتُهَا خَيْلًا عِتَاقًا يِقُودُهَا رِجَالٌ كَأَمْثَالِ اللَّيُوثِ لَهَا خَيْبٌ^(٣)
فَكَانَ بِحَمْدِ اللَّهِ مَا قَدْ عَرَفْتُمْ وَفَزْتُ بِسَهْمِ الْفَلَجِ وَالنَّصْرِ وَالْقَلْبِ^(٤)
وَذَلِكَ دَأْبِي مَا بَقِيَتْ وَدَأْبِكُمْ فَدُونَكُمْ حَرَبًا تَضْرُمُ كَاللَّهَبِ

وهو يصور سيره بجيشه تلقاء مصر وقد تراءى الموت له ولرجالها، ولم ينكص، بل أردف خيله خيولا أخرى عليها رجال شجعان كأنهم الأسود، يثبون ويسرعون حتى تم له النصر، غير أنه اضطر إلى العودة بجيشه إلى المهديّة، وهو يتوعد خصومه بأنه سيظل يعاود الكرة عليهم وسيظل يشعل حربا تضطرم باللهب حتى يحقق ما يريد من النصر النهائي. وشاعر الفخر في الدولة الصنهاجية تميم بن المعز وسنخسه بكلمة، ومن نلتقى بهم في العصر أبو طاهر التجيبي، ومن طريف ما له في عزة النفس^(٥):

إِلْمِي كَمْ أَقْرَأْتُ النَّفْسَ فِي الْمَرْتَعِ الْمَحَلِّ وَأَقْنَعُ مِنْ جِدِّ الْمَكَاسِبِ بِالْمَهْزَلِ^(٦)
أَكْلَفُ أَقْلَامِي مَدَى مُتَمَاحِلًا وَلَمْ أَعْتَمَلْ مُهْرِي وَرُمْحِي وَلَا نَصْلِي
وَمَنْ كَلَّفَ الْأَقْلَامَ لَا الْبَيْضَ هَمَّهُ أَقْمَنَ بِهِ بَيْنَ الْمَذَلَّةِ وَالْقُلِّ

فهو يرى نفسه بكتابات وأدبه قد أقام في المرتع المجذب، إذ الأقلام لا تعود على صاحبها بحياة رافهة إنما الذي يعود عليه بذلك سلاحه، ويقول إن من كانت الأقلام لا السيوف مدى همّه في الحياة أقام فيها بين الذل والفقر، وإنه حرى به أن يحمل سيفه حتى يعدّ بين الأبطال

(١) اللهم: العظيم.

(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٨٣.

(٣) خيب: عدوّ سريع.

(٤) الفلج: النصر.

(٥) نفس المصدر ص ١٣٨.

(٦) المحل: المجذب.

الشجعان ويعيش معيشة جديرة به. ويلقانا في أول الدولة الحفصية مؤسسها أبو زكريا، وله قصيدة حماسية طويلة يقول في فاتحتها^(١):

أَجِبْ دَاعِيَهَا فَالنجبُ يُجِيبُ وَشَبَّ لظَاهَا فَالنجبُ يَخِيبُ^(٢)
 وَشِمَّ عَزْمَةً لَا يَغْزَمُ العِزَّ مَتْنَهَا فَذُو العَزْمِ فِي اليَوْمِ العَصِيبُ يُصِيبُ
 وَلَا تَتَّبِعِ العَلِيَاءَ إِلَّا بِأَبْيَضٍ لِغَرَبِيهِ فِي هَامِ الكُمَاةِ غُرُوبِ^(٣)

وهو يدعو كل شخص إلى أن يخوض غمار الحرب، إذ لا يُنكل عنها إلا الجبان. ويتدرّع بعزم قوى فصاحب العزم هو اللذي يصيب الهدف المأمول، ودائها تسلح للعلياء بسيف حاد يقطع رءوس شجعان الأعداء قطعاً ولا يبقى منها بقية. وتلقانا عند شعراء هذه الدولة الحفصية أشعار حماسية كثيرة، ونجد ابن خلدون يشارك فيها واصفاً شجاعة البدو وبطولة فرسانهم، وبالمثل نجد طائفة من هذه الأشعار عند شعراء العصر الحسيني، وما يمثلها فيه قصيدة على الغراب الصفاقسي في الأسطول الذي أنشأه على الثاني الحسيني، وفيها يقول^(٤):

بِشَائِرُ فِي الإِسْلَامِ زَادَ بِهَا عِزًّا وَأَيَاتُ نَصْرٍ نَوْرُهَا يُذْهِبُ العَجْزَا
 سَوَابِحُ فُلكِ للمغانمِ أَنْشَتُ بِسَابِقُ أَفْلَاكِ السَّمَاءِ جَرِيهَا وَخَزَا
 يَفُوزُ بِأَجْرٍ مَنَ عَلاهَا وَمَغْنَمٍ إِذَا ضَرَبُوا فِي البَحْرِ أَوْ رَكَبُوا غُرًّا^(٥)
 إِذَا لَقِيَ الإِسْلَامُ كُفْرًا تَرَى بِهَا جَمِيعَ العِدَا أَسْرَى وَأَعْنَاقَهُمْ حَزًّا

والقصيدة توج بحماسة ملتهبة، فالأسطول وسفنه بشرى للإسلام وآيات نصر مجيدته، وإن السفن لتسبق أفلاك السماء في جريها حتى لا يمكن أن يفلت منها العدو، وحتى إذا لقيته أصبح كل أفرادها إما أسرى وإما مذبحين ذبحاً، فهم بين أسير وقتيل، وكان يعاصر على الغراب الأمير على الثاني الحسيني وله في الفخر شعر بديع وسنخسه بكلمة، ومن أنشد لهم الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أشعاراً في الفخر ابن سعيد الحجري وحمودة بن عبدالعزيز.

وإذا تركنا الفخر إلى الهجاء لم نجد ابن رشيقي ولا من جاءوا بعده يتوسعون في الكتابة عن هذا الفن، إما لأن أهل الإقليم لم يكونوا يعجبون به، وإما لأن الشعراء أنفسهم لم يكونوا يعيشون له كما كان يعيش بعض الشعراء في العراق وفي الشام ومصر، ومع ذلك فقد توقف ابن

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٨.

(٢) النخب: الجبان.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٤١.

(٥) غرّاً: غزاة.

(٣) لغريه: لجانيه. هام الكماتة: رءوس

رشيق عند شاعر يسمى بكر بن علي الصابوني، وقال إنه كان صاحب نوادر وهجاء خبيث، ولم يكذب من هجائه إلا بأمثلة قليلة كان يسف فيها إسفافاً شديداً، ونجد عند بعض هجائهم هجاء للفقهاء كالشأن في الأندلس من مثل قول أبي طالب الدلائلي^(١):

لا تَكُنْ مِثْلَ مَعْشَرِ فُقَهَاءِ جَعَلُوا الْعِلْمَ لِلدَّرَاهِمِ صَيْدًا
طَلَبُوهُ فَصَيَّرُوهُ مَعَاشًا ثُمَّ كَادُوا بِهِ الْبَرِيَّةَ كَيْدًا

وفي ظننا أن أحد الأسباب في انصراف الناس بتونس وغيرها من البلاد المغربية إلى المتصوفة أن وجدوهم زهاداً في كل ما بيد الحكام من أموال فاطمأنوا إليهم، ومما ساقه ابن رشيق في أمودجه قول بعض الهجائين في أحد الكتاب^(٢):

وَكَاتِبٍ يَمْسُخُ مَا يَنْسُخُ جَمِيعُ مَا يَكْتَبُهُ يَفْسُخُ
جِرْتُ فَلَا أَدْرِي أَثَوَابُهُ أَمْ عِرْضُهُ أَمْ جِرُّهُ أَوْسُخُ

وقد عمم الوساخة في حبر الكاتب وعرضه وأثوابه، وبذلك لسعه لسعا شديداً، وأكثر منه لسعا وإيلا ما قيل في مصلوب، وهو قول قرهب الخزاعي، ويبدو أنه صلب معه آخرون بنفس تهمة المروق عن الدين^(٣):

مَا رَاقَبَ اللَّهَ فِي عِرْضِ النَّبِيِّ وَلَا خَافَ الْعِقَابَ وَلَا صَلَّى وَلَا سَجَدَا
مَرَدَّتُمْ فَلَقَيْتُمْ بَطْشَ مُقْتَدِرٍ وَتَلَّكَ سُنَّتَهُ فِي كُلِّ مَنْ مَرَدَا

فهو - وأصحابه - مارقون ملحدون، يستحقون ما نزل بهم من عقاب أليم. وتخف حدة الهجاء في زمن الدولة الحفصية ويعود إلى الاشتعال في عصر الدولة الحسينية، وخير من يمثله محمد الرشيد الحسيني في هجاء ابن عمه علي الأول وبيان عقوقه لعمه ونهيه للحكم منه ومن إخوته، وظل يكرر ذلك طويلاً في مثل قوله^(٤):

اسْتَأْصَلَ النَّاسَ نَهْبًا وَاسْتَبَاحَ دَمًا وَمَا نَجَا غَيْرُ مَنْ نَجَّتهُ رِجْلَاهُ
بَغَى عَلَيْنَا وَأَهْلِينَا وَشَتَّنَا وَعَمَّ بِالْجَوْرِ وَالْخُسْرَانُ أَعْمَاهُ
قَدْ عَقَّ وَالِدَهُ وَالْعَمَّ يَا عَجَبًا حَتَّى ابْنَهُ بِسَهَامِ الْحَرْبِ أَصْلَاهُ

(٤) ديوان محمد الرشيد ص ٦٤ وانظر الأدب التونسي في العهد الحسيني ص ٦٩.

(١) الأمودج لابن رشيق ص ١١٨.

(٢) الأمودج ص ٢٤٩.

(٣) الأمودج ص ٣٢٩.

وهو يهجو بظلمه وعسفه واستباحة أموال الناس ودمائهم وتشتيته له ولأخوته وفرارهم منه إلى الجزائر، مع عقوق ضخّم لأبيه ولعمه الحسين وابن عمه، بل لقد ظل يوقد الحرب حتى نصر الله الشاعر وعاد إلى صولجان حكمه. وحرى أن نتوقف الآن قليلا لنخصه ونخص تميم بن المعز بكلمة.

تميم^(١) بن المعز الصنهاجي

كانت الدولة الصنهاجية تنسب نفسها وقبيلتها إلى حمير، وهو أثر من آثار التعرب الذي أحدثته الزحف الهلالية في قبائل البربر، إذ انتسبت كل قبيلة إلى قبيلة عربية وخاصة القبائل العربية الجنوبية، وولد تميم لأبيه المعز بصيرة (المنصورية) سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م وعنى بتربيته وتثقيفه عناية واسعة، ولما بلغ سن الثالثة والعشرين فوّض إليه حكم المهديّة، ولم تلبث الزحف الهلالية أن قدمت إلى القيروان بدعوة من المعز لاستعانتهم بهم في حرب أبناء عمه بنى حماد أصحاب القلعة المنسوية إليهم في الجزائر، ونصحهم تميم أن لا يفعل ذلك ولكنه لم يستمع إلى نصحه فقدموا القيروان والإقليم التونسي وخربوا كل ما نزلوا به، ولم يجد المعز بدا من أن يلجأ إلى تميم في المهديّة سنة ٤٤٩ وظل بها إلى أن توفي سنة ٤٥٤ وطالت إمارة تميم فيها وتمهد سلطانه بها وظل ينازل بنى هلال مراراً إلى أن توفي سنة ٥٠١ عن تسع وسبعين سنة، وانتجعه شعراء الأندلس والمغرب والشام فأجزل لهم العطاء سوى من كان ينتجعه من شعراء الإقليم التونسي أمثال أبي الحسين بن خصيب وأبي عبد الله محمد بن علي القفصي وأبي الحسن علي بن محمد الحداد، وممن مدحه من شعراء أبيه ابن شرف وعبد الكريم بن فضال وابن رشيق ومرّ بنا مدحه له. وكان مع شاعريته الفذة ناقداً مجيداً للشعر، قال ابن الأبار: كان يعترض الشعراء وينتقد عليهم ألفاظهم، ويذكر أن شاعراً أنشده في وقت هرج:

تَنَبَّتْ لَا يَخَامِرُكَ اضْطِرَابُ إِلَيْكَ نَمْدُ أَعْيُنِهَا الرِّقَابُ

فقال له: رأيتني - ويحك - طرت خِفَّةً ورميت بنفسي من علو هذا القصر قلقاً واضطراباً، وسكَّته ولم يسمع من قصيدته سوى هذا البيت. ورؤى له شعر كثير، من ذلك قوله يحمس بعض القبائل لمنازلة الأعداء:

مَتَى كَانَتْ دِمَاؤُكُمْ تُظَلُّ أَمَا فِيكُمْ بِشَارٌ مُسْتَقْلُ
أَغَانِيُمْ ثُمَّ سَالِمٌ إِنْ فَشَلْتُمْ فَمَا كَانَتْ أَوَائِلُكُمْ تُذَلُّ

(١) الأعلام ٧٣/٣ ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٨.

(١) انظر في ترجمة تميم الحلة السيرة ٢١/٢ وابن خلدون ١٥٩/٦ وابن خلدون ٣٠٤/١ وأعمال

وَنِمْتُمْ عَنْ طِلَابِ الْمَجْدِ حَتَّى
وَمَا كَسَرْتُمْ فِيهِ الْعَوَالِيَّ
كَأَنَّ الْعِزَّ فِيكُمْ مُضَجِلٌ
وَلَا بَيْضٌ تُفْلُ وَلَا تَسْلُ^(١)

وتقيم يستثير حمية القبيلة بذكر الثأر الذي يشتعل له الغضب في صدر كل عربي، فالعار كل العار عند العرب أن لا يأخذوا بثأرهم وأن تطلّ دماؤهم وتذهب هدرا دون مناضل عنها يقتحم لها الموت اقتحاما. ويضرب للقبيلة على وترثان هو الذل، فالعربي الكريم لا يمكن أن يقبل الذل ولا الضيم، فقبل كل شيء عزة النفس، ومن أجلها تحطّم الرماح وتفل السيوف. ولا بد أن القبيلة امتلأت غيظا وحقدا على أعدائها، واندفعت تطلب ثأرها وتحمي عن كرامتها وعزتها باذلة المهج والأرواح. وينشد متحمسا غاية التحمس:

بَكَرَ الْخَيْلِ دَامِيَةَ النُّحُورِ وَقَرَعَ الْهَامَ بِالْقُضْبِ الذُّكُورِ^(٢)
لَأَفْتَحْمَنَهَا حَرْبًا عَوَانًا يَشِيبُ لِهَوْلِهَا رَأْسُ الْكَبِيرِ^(٣)
فَإِمَّا الْمَلِكُ فِي شَرَفٍ وَعِزٍّ عَلَى النَّجْجِ فِي أَعْلَى السَّرِيرِ
وَإِمَّا الْمَوْتُ بَيْنَ ظُبَا الْعَوَالِي فَلَسْتُ بِخَالِدٍ أَبَدَ الدَّهُورِ^(٤)

فسيظل تميم يدفع الخيل في موقعة بعد موقعة وقد تلطخت نحورها وصدورها بدماء الأعداء، وسيظل يضرب في رءوسهم وأعناقهم بسيوفها الحادة مشعلا مع أعدائه حروبا ضارية يشيب هولها كل من يراها، ويقول إنه لن يغادر ساحة هذا الشرف والعز، فإما يجمي التاج على رأسه ويصونه، وإما الموت الزؤام بين الرماح والسيوف، أو بعبارة أخرى إما حياة شريفة عزيزة، وإما موت أيضا شريف عزيز، موت الأبطال الكرام. ومن طريف ما لتمييم في هجاء منافق:

رَأَيْتَكَ قَاعِدًا عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَأَنْتَ الشَّهْمُ فِي قَالُوا وَقَلْتُ
وَأَطْوَارٍ لَهَا لَطْفٌ وَجِدْقٌ وَالْفَاطِظُ تَنَمَّقُهَا وَسَمْتُ
وَقَدْ يَبْعُدُ الْوَعْدَ وَلَيْسَ يُوفَى وَلَيْسَ بِقَائِلٍ يَوْمًا فَعَلْتُ
كَخَزِّ الْمَاءِ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ يَرُوقُ وَمَالِهِ أَصْلٌ وَنَبْتُ^(٥)
كَذَلِكَ زَهْرَةُ الدَّفْلِيِّ تَرَاهَا تَشُوقُ الْعَيْنَ حَسَنًا وَهِيَ سُحْتُ^(٦)

(٤) ظبا: جمع ظبية: حد الرمح القاطع.

(٥) خز الماء: الطحلب.

(٦) الدفلي: نبت مرزهه أحمر، السحت: الخبيث

الكريه.

(١) العوالي: الرماح. بيض: سيوف.

(٢) القضب الذكور: السيوف الحادة القاطعة.

(٣) الحرب العوان: الحرب المكررة مرة بعد

أخرى.

وهو يصوره يقعد عن كل خير، ويبادر بكلام فيه حذق ولطف وتمييز دون أن تكون فيه فائدة وإذا وعد أخلف ولم يوف بوعده، ولا خير عنده ولا غناء فيه كالخز الذي ينسجه الماء أحيانا على سطحه يروق النظر ولا أصل له، بل كزهرة الدفلى الحمراء تشوق العين ولا رائحة لها ولا عطر تنشره حولها

محمد^(١) الرشيد الحسيني

من أهم ما يميز الحكم العثماني في عهد الدولة الحسينية التي امتد حكمها منذ سنة ١١١٧ للهجرة/ ١٧٠٥ للميلاد أن حسين بن علي مؤسسها مع أنه كان تركي الأصل كان تونسي المولد والنشأة واللغة فأخذ يعنى بتقاليد التونسيين هو وجميع أفراد أسرته كما عنوا بالحركة العلمية في جامع الزيتونة وفيما أنشئوا من مدارس كثيرة، وعنوا أيضا بالحركة الأدبية فضموا إليهم كثيرا من الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال والرواتب، وشاركوا بأنفسهم في الحركتين العلمية والأدبية، وقد اشتهر على الأول بشرح له على كتاب التسهيل لابن مالك كما اشتهر على الثاني بدارسته صحيح البخاري غير تعمقه في النحو والفقه وأصول الدين والبيان كما تشهد مدائح الغراب الصفاقسي. واشتهر محمد الرشيد الذي استرد حكم تونس له وإخوته بأنه كان شاعرا فذا كما كان موسيقارا كبيرا، وإليه يرجع فضل ترتيب الأغاني الشعبية التونسية والأندلسية المسماة باسم المألوف، وله ديوان شعر، ونراه فيه أيام غربته بالجزائر يفتخر بتونس وما نشر فيها أبوه من العلوم والآداب بمثل قوله عن تونس ويسميتها باسمها القديم: ترشيش:

أَقْمَنَا بِقَدْرِ الْجُهْدِ قَائِمَ شَرْعِنَا فترشيش أضحى علمها يتدقق
وجرت ذبول الفخر عن نظرائها فلا الشام يحكيها وما هي جلق
وما في جميع الأرض مصر يفوقها وليس لنا نيل عليها محلق
أبي الله أن تمحى ديار أعزة وتدرس آثار المعاني وتمحق^(٢)

فهو يفخر بأن أباه أقام في تونس الشريعة وأحيا بها الآداب حتى غدت تفاخر الشام وعاصمتها جلق أو دمشق، ويرفعها فوق جميع البلدان العربية، رغم أن ليس فيها كمصر نيل يتدقق، ويقول إن الله حفظها وصانها عن أن تعفى ديارها ورسومها. وتبتم له الدنيا ويعود إلى تونس ويجلس على أريكته ويشعر بفخر لا يضاهاه فخر وينشد:

(١) انظر في ترجمة محمد الرشيد المشرع الملكي
والتاريخ الباشي والخلاصة النقية للباقي المسعودي
(٢) تدرس: تمحي. ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٣٦.

أُشْبِهْنَا فِي الْعَالَمِينَ قَبِيلُ وَنَيْلُ عُلَانَا مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
أَرَى الْعِزَّ لَا يَأْوِي سِوَى بَيْتِ مَجْدِنَا وَلَا فِي جِمَانَا يَسْتَنْدِلُ ذَلِيلُ
وَإِنْ نَحْنُ سِرْنَا فِي كُفَاةِ جِيوشِنَا فَلَلخَيْلِ وَقَعٌ فِي الثَّرَى وَصَهْلُ
تَكَادُ جِبَالُ الْأَرْضِ مِنْ عَظْمِ بَاسِنَا تَذُوبُ عَلَى سَطْحِ الثَّرَى وَتَمِيلُ

وهو يرفع نفسه وأسرته فوق العالمين، فلم ينل أحد ما نالوا من العلاء والمجد والعز، حتى إن أحداً في حاهم لا يمكن أن يصيبه أى أذى أو أى ذل. ثم يتحدث عن شجاعته وشجاعة جيوشه وكيف إذا سارت هزت الأرض خيولهم وزلزلتها زلزالا، بل إن الجبال لتكاد تميل أمام بأسهم وتذوب ذوبانا. وهو فخر لا يستغرب ممن دحر جيوش ابن عمه واسترد حكم أبيه لأسرته سنة ١١٦٩ للهجرة ولم يتمتع بنصره وحكمه طويلا فقد توفي بعد ثلاث سنين سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٩م.

٥

شعراء الغزل

لا يكاد شاعر ينظم الشعر إلا وينظم في الغزل بعض أبيات له مصورا فيها حبه إزاء المرأة ومعبرا عن هذه العلاقة الإنسانية الخالدة. ويموج كتاب الأنموذج لابن رشيق بأشعار الغزل والحب، منها الطبيعي الذي يتدفق عن نفس صاحبه في سهولة وطواعية، ومنها المتكلف الذي يصنعه صاحبه صناعة. وأيضا منه المستقل بقطع مفردة، ومنه الذي يوضع تمهيدا لما وراءه من مديح وغير مديح. ولن نستطيع أن نعرض ما في الأنموذج من طرائف الغزل الكثيرة، ولكننا سنكتفى ببعض ما أنشده لكبار العلماء والشعراء، ممن أعجب بهم ابن رشيق مثل أبي عبدالله بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز المتوفى سنة ٤١٢ وكان لا يبارى في علوم اللغة والنحو والقراءات، ويشيد بجيد شعره وبلوغه فيه بالرفق والدعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني، ويذكر من بديع غزله^(١):

أَمَا وَمَجَلِّ حَبِّكَ مِنْ فَوَادِي وَقَدَّرِ مَكَانَهُ فِيهِ الْمَكِينِ
لَوْ أَنْبَسْتُ لِي الْأَمَالَ حَتَّى تَصِيرَ لِي عَيْنَانِي فِي يَمِينِي
لَصُنْتُكَ فِي مَكَانِ سَوَادِ عَيْنِي وَخِطْتُ عَلَيْكَ مِنْ حَذْرِ جَفُونِي
فَأَبْلُغُ مِنْكَ غَايَاتِ الْأَمَانِي وَأَمُنُ فِيكَ أَفَاتِ الظَّنُونِ

(١) الأنموذج ص ٣٦٦ وإنباه الرواة ٨٤/٣ ومعجم

الأدباء ١٧/١ وابن حلكان ٣٧٤/٤.

والقطعة طريفة، فهو يريد أن يضع صاحبه في سواد عينه ويحيط عليها جفونه، حتى يحفظها ويصونها ويبلغ منها كل أمانيه، ويمضى في القطعة قائلاً إنها يخاف عليها من الحفى وراء الحاط العيون، وإنها كل دنياه. ويشيد ابن رشيق بابن البقال عبد العزيز بن أبي سهل الحسنى النحوى اللغوى المتوفى سنة ٤٠٦ ويقول عنه: «كان شاعراً مطبوعاً يلقي الكلام إلقاءً ويسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب وقرب مأخذ الكلام، وينشد من غزله قوله^(١) :

يا عُصْناً عُصّاً من الآسِ ودرةً وهى من الناسِ
صوركِ الله على صورةٍ كانت بها أسبابٌ وسواسِ
ترديدُ ذكرى لكِ فى خاطرى أكثرُ من ترديدِ أنفاسِ
نسيتِ وُدِّي وتناسيتِني وليس قلبى لكِ بالناسِ
وليس لى منكِ سوى حسرةٍ تجولُ بين الشوقِ والياسِ

فغصن صاحبه كغصن الآس يتنى لنا ونعومة، ويعجب أن تكون درة متألثة وهى من الناس، وقد صورت صورة جميلة كانت أسباب وسواسه واختلاط عقله، وإن ذكراها لتتردد فى خاطره أكثر من تردد أنفاسه، وقد نسيت وده وتناسته وليس قلبه لها بالناسى، فقد حفرت صورتها فيه حفراً، ولم يبق له منها سوى حسرة تتردد بين الطمع فى اللقاء والياس. ويقول^(٢) محمد بن على الأزدي:

ترنو بأجفانٍ سُكارى بلا سُكْرٍ من الحسنِ مراضٍ صحاحُ
احمرّ - لِمَا استضحكتُ - خدّها فلاحٌ ما بين الشقيقِ الأَفاحِ
بمهجتى أفيدي التى صيرتُ جسمى للأسقامِ منها مُباحُ
ومن إذا رُمْتُ سلوا دَعَا قلبى ولُبى: حبّها لابراخُ

فهى ترنو بأجفان كأنها سكرى عليله من الحسن وهى صحاح غاية الصحة، وضحكت واحمرّ خداه، وكأنا ومض تغرها المشبه للأفاح فى نصاعة بياضه بين ورد الشقيق المتوهج حمرة على خدودها. وإنه ليفيدها بمهجته رغم ما أصابت به جسمه من الأسقام، ويقول إذا أراد سلوا عنها نادى قلبه وعقله حبها لا تبرح أبداً. ويقول الأقالمي محمد بن سلطان شاكيا حبه وآلامه فيه^(٣):

(١) الأتمودج ص ١٦٠ وإنباه الرواة ٨٤/٢.

(٢) الأتمودج ص ٣٨٤.

(٣) الأتمودج ص ٤٠١.

مُقَلَّةٌ إِنْسَانُهَا غَرِقُ حَشْوُهَا التَّسْهِيدُ والأَرْقُ
 وَصَبَابَاتٌ مِضَاعِفَةٌ ودموعٌ ثَرَّةٌ دُفُقُ
 وَحَشًا يَسْطُو بِهِ لَهَبٌ عن قليلٍ سوف يحترق
 وَفَتَى أَشْفَى عَلَى جُرْفٍ من هلاكٍ مابه رَمَقُ
 وَيَحُ أَهْلَ الحَبِّ وَيَحْمُ لَيْتَ أَهْلَ الحَبِّ مَا خَلَقُوا

والشكوى بديعة، ومن شأنها أن تحنو صاحبته عليه لو سمعتها، ويقول ابن رشيقي: «هذه هي الألفاظ العذبة الغزلة الرائقة التي تلتصق بالقلب وتعلق بالنفس، وتجري مجرى النفس، وهذه هي طريق الحدائق في التغزل خاصة لأن المراد منه استدعاء المحبوب واستعطافه بركة الشكوى ولطف العتاب وإظهار الألم والإقرار بالغلبة.

ومرّ بنا في حديثنا عن الغزل بالجزء الخاص من الأندلس أن أدبية متظرفة عفيفة تسمى حمدة من مدينة وادي آش كانت تهوى صديقة لها وأنها نظمت فيها مقطوعة غزلية بديعة تصف فيها فتنتها بحسنها وجمالها، وكانت لها أخت تسمى زينب شاعرة مبدعة. ومن الطريف أننا نجد في أوائل الدولة الحفصية شاعرة من بيت التجاني تسمى زينب بنت إبراهيم التجاني تفتن بشعر إحدى صواحبها فتقول في وصف حسنه وجماله^(١):

إِذَا أُنْسَدَلَتْ مِنْهُ عَلَيْهَا ذُؤَابَةٌ كُفُصِنَ أَرَاكٍ عَانَقَتْهُ أَرَاقُمُ^(٢)
 أَثِيثٌ طَوِيلٌ فَهَوَ يَسْتَرُ جِسْمَهَا إِذَا نَزَعَتْ عَنْهُ المَلَابِسَ أَسْحَمُ^(٣)
 كَأَنَّ الصَّبَاحَ ارْتَاعَ مِنْ خَوْفِ طَالِبٍ بِشَارٍ فَالْوَى بِالذُّجَى يَتَكْتَمُ

وهي تتصور ذوائب صاحبها أو ضفائرها كأنها أرقام أو حيات تعانق غصن أراك أو بعارة أخرى تعانق قامتها الهيفاء الرشيقه، وتقول إن شعرها أثيث أو كثيف ملتف، وإذا نزعته عنه ثيابها بدا سواده على جسدها الأبيض الناصع، حتى لكأنه صباح أخذه الفزع من مطالب بثأر، فاخترت في دُجى هذا الشعر، متخفياً ومتستراً ما استطاع.

ونختار ثلاثة من الشعراء الغزلين من العصور المختلفة غلب عليهم الغزل واشتهروا فيه، وهم على الحصرى في زمن الطوائف وأحمد الليلياني في زمن الحفصيين ومحمد ماضور في زمن الحسينيين.

(١) ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية (٢) أرقام: حيات.

(٣) أسحم: أسود.

هو علي بن عبد الغنى الفهرى الحصرى ابن أخت الحصرى صاحب زهر الآداب كان كفيفا، وخلف فيه عدوان الزحفة الهلالية على القيروان مرارة شديدة، فولى وجهه نحو الأندلس، وتهاداه أمراء الطوائف وخاصة المقتدر بن هود أمير سرقسطة، وفيه يقول ابن بسام فى كتابه الذخيرة: «كان بحر براعة ورأس صناعة، وزعيم جماعة، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه بالقيروان، والأدب يومئذ بأفئنا نافق السوق، معمور الطريق، فتهادته ملوك طوائفها تهادى الرياض النسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار فى الأنس المقيم». ولما خلع يوسف بن تاشفين ملوك الطوائف استقر فى طنجة يقرئ بها القرآن إلى وفاته سنة ٤٨٨ وكان عالما فذا بالقراءات وطرقها، وله منظومة فى قراءة نافع، وكان شاعرا مبدعا، وله فى الشعر ديوان لم يصلنا، ومن رائع غزله قصيدته المرقصة:

بِالِيلِ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ	أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَارَقَهُ	أَسْفُ لَلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاهُ النُّجْمُ وَرَقَّ لَهُ	مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرُصُّدُهُ
نَصَبَتْ عَيْنَائِي لَهُ شَرْكًا	فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصِيدُهُ
يَا مَنْ سَفَكَتَ عَيْنَاهُ دَمِي	وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَّكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي	فَعَلَامُ جَفُونِكَ تَجَحَّدُهُ
بِاللَّهِ هَبِ الْمَشْتَاقَ كَرِي	فَلَعَلَّ خَيْالِكَ يُسْعِدُهُ

والقصيدة طويلة، وبلغ من روعتها أنه عارضها من شعراء العرب كثيرون آخرهم شوقي محاولين أن يقتبسوا منها شيئا من حسنها الموسيقى ومن معانيها البديعة، وهو يسأل ليل المحبوب عن غده، وهل سيستمر حتى قيام الساعة. وقد نام السمار، أما هو فيسهدده أسفه على الفراق وإنه ليبيكى بدموع غزار، حتى ليبيكى النجم له، وينام لأمأ آملا فى رؤيته حلما فلا يراه. ويقول إن عينها سفكت دمه، وشاهده توردد خديها المعترفين به فقيم جحود جفونها، ويسألها أن تهبه نوما لعل طيفها يسعده. والقصيدة تكتظ بركة بالغة، وهى رقة تشهد له بشاعرية فذة، ومما أنشده له ابن بسام:

الرابع ص ٢٤٥ ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ١٥٨.

(١) انظر فى ترجمة على الحصرى معجم الأدباء ٣٩١/١٤ وابن خلكان ٣٣١/٣ وجذوة الحميدى: ٢٩٦ وابن بشكوال فى الصلة والذخيرة القسم

رُدِّي حُشاشَةَ عاشقٍ مهجورٍ بينَ الملمومِ عليكِ والمعذورِ
 ذكرَ الفراقِ فماتَ إلا شوقَه وأرلُو الهوى مَوْتِي بغيرِ قبورِ
 ودَّعتُ مَنْ أهوى بل استودعتُها قلبِي وسِرّاً مدامعي وزفيرِي
 فبكتُ بِرَجَسَتَيْنِ خُفَّتْ عليهما نَفْسِي فلمِ أَلْتَمِ بغيرِ ضميرِي

وهو يسأل صاحبتَه أن ترد عليه مهجته، بعد أن هجرته وفارقتَه، ويحس كأنه مات، وما أهل الهوى إلا موتى بغير قبور، ويقول إنه ودَّعها بل لقد استودعها قلبه ودموعه وزفيره وحنَّت عليه فبكت، وهمَّ أن يقبلها وتراجع خوفاً عليها من نفسه الحار فاكْتَفَى بأن يقبلها سرا في ضميره، وكان يميل إلى الجناس والتلاعب به حتى في الحب وفي القوافي كقوله:

إن كنتُ الهوى فقد صار سِرِّي علانيه
 لسقامِ أذابني وشحوبِ علانيه

فلم تعد هناك فائدة من كتمانِه، فقد أصبح سره فيه ذاتعا ومعروفا لسقامه وشحوبه الذي علاه، وكان يعرف كيف ينفذ إلى مثل هذا الجناس في قافية البيتين بخفة، مما يدل على قدرة شاعرية بديعة، مع ما يمتاز به شعره من طرافة الأخيلة وحلاوة الموسيقى.

أحمد^(١) الللياني

هو أحمد بن إبراهيم القيسي المشهور باسم الللياني نسبة إلى قرية تسمى لليانة بالقرب من المهديّة، وقد نهل من حلقات شيوخها وأعلام أدبائها. وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فغادر المهديّة إلى تونس، واختلط برجال الدولة، وطمحت نفسه إلى الثراء، فعمل في التجارة وكون بينه وبين تجار جنوة ومرسيلية علاقات تجارية أثمرت منها ثراء طائلا، وأوغر حساده صدر المستنصر عليه، فكان ذلك سببا في مصادرتِه وإهدار دمه سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وله أشعار غزلية بديعة، منها قوله:

هذا العذيبُ وهذه نجدُ أين الذي يقضي به الوجدُ
 ما هكذا حالُ المحبِّ إذا أعلامُ رجع حبيبه تبدو
 سرَّحَ دموعَ العينِ مُتَدِرًا وبذكرِ ماضى عهدهم فاشدُ
 والثَّم على شغفِ مواطنهم إن عاقَ عن مقصودك البعدُ

(١) انظر في ترجمة الللياني الخلل السدسيه ٥٠١٢

ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٥.

ولعلّ ما نرجو تجودُ به كُفُ الزمانِ ويُسعدُ الجَدُّ

وهو يعجب فهذه ديار المحبوبة: العذيب ونجد، وهو لا يزال يبكي، وأن له أن يكف عن مكانه، فتلك أعلام ربيع محبوبته تبدو، فحق له أن يسرح دموع العين ويشدو بذكر الماضي من عهد الأحبة، بل إنه ليدعو المحب إلى لثم مواطئ أقدامهم إن عاقه عنهم البعد ولم يستطع سريعا لقاءهم، ويأمل أن تجود له كف الزمان بأمنيته ويساعده الحظ في نيلها. ويقول متغزلا:

خَلِيَانِي يَا صَاحِبِي وَنَجْدًا هِجْمًا بِالْمَلَامِ شَوْقًا وَوَجْدًا
فَلِنَجِدِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَدُّ مَسْتَجِدُّ مَا دَامَ رَبِّعًا لِسُعْدَى
لَا تَقُولُوا مَرَامُ سُعْدَى بَعِيدُ رَبِّ سَعْدَى أَتَى فَقَرَّبَ بَعْدًا
أَهْلٌ وَدَى مَا حُلَّتْ عَنْ حِفْظِ عَهْدِي وَهَوَاكُم مَّا غَيَّرَ النَّأْيُ عَهْدًا^(١)

وهو يطلب إلى صاحبيه أن يدعاه ونجدًا ويكفًا عن لومها فإنه كالريح تزيد نار وده المستكنة بين جوانحه اشتعالًا بتعلقه بسعدى، ولا تقولوا إن ربيع سعدى بعيد، فرب سعد حدث فقرب الربيع والديار، ويلتفت إلى سعدى قائلًا لها إنه لا يزال على العهد ويقسم لها بحبها ما غير العباد له عهدًا ولا حيا. ويلومه عذول في تعلقه بمحبوبته تعلقًا مسرفًا، فيقول له:

رُدِّ لِي قَلْبِي لَتَعْدَلَهُ فَهُوَ فِي كَفِّهِ أَجْمَعُهُ
لَفْظُهُ دُرٌّ يُسَاقِطُهُ وَنَطَاقُ السَّمْعِ يَجْمَعُهُ

فقلبه ليس معه ليعذله، بل هو مع صاحبتة، وإنه ليتراءى له جمال لفظها وهى تنثره دررا ونطاق سمعه يجمعها دررا وراء درر. ولعل في ذلك كله ما يصور افتتانه في غزله ورقته.

محمد^(٢) ماضور

من أسرة فاضلة من الأسر الأندلسية التي نزلت الإقليم التونسي في القرن الحادى عشر الهجرى واستقرت ببلدة سليمان، منشئة فيها كثيرا من البساتين وحقول الحبوب المتنوعة، وولد بتلك البلدة محمد لأبيه محمد ماضور أحد علمائها الأفاضل سنة ١١٥٠ هـ/١٧٣٧ م وفيها منشؤه ومرباه على أبيه وعلمائها حتى إذا أصبح شابا تحول إلى تونس وجامعتها الزيتونة، فنهل من حلقات علمائها، وأعجبهم فيه ذكاؤه، فأسندوا إليه - حين استكمل دراسته - الدرس للطلاب بتلك الجامعة، وعاد إلى بلدته «سليمان» إماما وخطيبا بجامعها، حتى إذا توفى أبوه حل محله في

(١) حلت: تغيرت. النأي: البعد.

(٢) انظر في ترجمة محمد ماضور مجمل تاريخ العهد الحسيني للهادى الغزى ص١٠٤.

منصب القضاء ببلدته، وظل يليه إلى وفاته سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م.

وكانت موهبة محمد ماضور الشعرية قد تفتحت مبكرة، فعُرف بين الشعراء والأدباء برقة أشعاره، وقد خلف ديوانا لا يزال مخطوطا، ومعظمه غزل ينبئ عن حس مرهف، من مثل قوله:

إلى كم تجورُ ولا تنصفُ وتهجرُ تيهًا ولا تعطفُ
وحتى متى الهجرُ لا ينقضى وإخلافُ وعدك لا يُخلفُ
وقد عيّلَ صبرى وشقَّ الهوى علىّ وبى ربحه تعصّفُ
وأسرُّ الهوى لَجَّ بى للتوى وقلبي بنيرانه يرجفُ^(١)
ولُبَّ سَهَا واصطبارُ وهى وشوقُ دَهَى القلبِ لا يُصرفُ

وهو يقول إن صاحبه تظلمه ولا تنصفه فدائيا تهجره ودائيا تخلف وعدها له، حتى نفذ صبره، وشوقه يتقد في فؤاده وإنه لأسير الهوى ويكاد يتلفه، بينما قلبه يتلظى بنيرانه، وقد سها لبه ووهى منه اصطباره، وشوقه لا يريم. ويقول:

ياظبيةً أشعلتُ فى القلب نيرانا وخَلَفْتَنِي مع الأشواق حيرانا
صبرى ودمعى لما حملتُ من شغفى هذا تلاشى وهذا صار غُدرانا
ياشمسَ حُسنٍ تَبَدَّتْ فى ملاحظتها هلا قرنتِ بذاك الحُسنِ إحسانا
ما إن ذكركِ إلا صرتُ من طَرَبٍ من طيب ذكراكِ ولهانًا ونشوانا

فصاحبه أشعلت في قلبه نيرانا لا تنطفئ أبدًا، وقد تلاشى صبره وذرف الدمع مدارا حتى ليستحيل غدرانا، ويستعطفها بحسنها الفاتن أن تقرن به إحسانا إليه ومودة، ويعترف بأنه أصبح من طيب ذكراها موها منتشيا. ويقول:

شوقى يزيد على طول المدى حرقًا ياظبية الإنسانِ رفقًا بالذى عَشِقَا
لله ذاك المُحِيًّا نورٌ بهجته يَغشى سَنَا القمر السارى إذا اتسقا
يهواك لُبِّي وقلبي مع جوانحه كذاك سمعى وطرفى كلما رَمَقَا

وهو يقول لصاحبه إن قلبه يزداد مع الزمن حرقا ولوعات مضية، ويتوسل إليها أن ترفق بعاشقها، ويتولاه العجب لجمال وجهها ويتخيل كأنها القمر يستمد سناه وضوءه في ليلة اكتماله من نوره البهيج. ويقول لها إن كل ما فيه يهواها، يهواها لبه وقلبه وجوانحه وسمعه وبصره.

(١) التوى: الهلاك.

الفصل الخامس

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغربية والشكوى والعتاب

كان كثير من سكان الإقليم التونسي يرحلون عن ديارهم إما طلبا للكسب وابتغاء الرزق وإما طلبا للعلم وابتغاء التعمق فيه وإما طلبا للجهاد في صقلية أو في الأندلس وابتغاء الاستشهاد في سبيل الله، ومن غادر القيروان إلى مجاهد صاحب دانية في شرقي الأندلس (٤٠٥-٤٣٦هـ) للجهاد ضد نصارى الشمال، ابن الصفار السوسى، وحين دخل عليه مدحه بقصيدة يائية حكي في فاتحتها حوار زوجته معه وقولها له: لمن تتركنى وتترك أطفالك يقول^(١):

بكتُ وشكيتُ واسترجعتُ وتوجعتُ فظلتُ لها مسترجعا متباكيا
وقالتُ أما تنهاك أن تذكر النوى نهى قد نهت عنك الصبا والتصايا
ومن لصغارٍ من عيالٍ تركتهم كزغب القطا يبغون طعما وساقيا
ولن يجدوا للعيش بعدك لذة ولن يشربوا من بعدك الماء صافيا
فقلتُ لها إن الذى ليس غيره إله كفاهم حافظا ومراعيا

وهو يصور ساعة الوداع لزوجته وصغاره وهى تبكى وتتوجع، وهو يبكى، وتقول له ألم ينهك عقلك الذى طالما نهاك عن الصبا والتصاى. وتستعطفه بصغار فى المهدي كزغب القطا لم ينبت بعد ريشهم، ولن يطيب لهم عيش بدونه، غير أن نداء الجهاد كان أقوى من نداء الأطفال فقال لها إنى تركتهم لرعى الكافى الحافظ الراعى. وكان شباب القيروان وغيرها من مدن تونس لا يزال يعد حقايبه للارتحال إلى المشرق للنهال من أساتذته فى مصر والحجاز والشام والعراق ولم يكن أبأوهم يقفون حجر عثرة فى طريقهم بل كانوا يشجعونهم للنهوض بهذه الرحلات العلمية، رغم ما يشعرون به من فقدهم وما يطوى فى ذلك من شوق وحنين، ومن خير ما يصور ذلك قول على الناسخ يخاطب ابنه وقد سافر إلى مصر وهو صغير السن ابتغاء العلم^(٢):

(٢) الأنموذج ص ٢٦٢.

(١) الأنموذج ص ٢٦٦.

يا دهرُ مالك لا ترثني لمكتسبٍ
 لم يكف صرفك صرفي عن ذوى ثقتي
 ابنٌ وكان أباً لى فى محبته
 أمسيتُ فى وطنى فى مثل غرْبته
 والله ياولدى المجدوبَ من كبدى
 فما الحياةُ إلى نفسى بِمُعْجَبَةٍ
 ما باتَ منك خَلِيًّا قَطُّ من كُرْبٍ
 حتى تعَقَّبَ بالتفريق فى عَقْبِي^(١)
 أمسى بأرض الفلا فرداً بغير أبٍ
 يا مَنْ لمغترِبٍ باكِ لمغترِبٍ
 للرأى ذاك وإن أمسى به عطى
 إن لم تجزُبِ بى أعلى السبعة الشُّهْبِ

وهو يعتب على الدهر أنه لا يبيت يوماً خالياً من إحدى كربه وأنه لم يكف نوائبه صرفه عن ثقاته حتى تعقبته فى ابنه البار به فحرمته منه وكأنما ألفت به فى فلاة دون أب يرعاه، ويشعر بفراق ابنه له كأنه أمسى غربياً فى وطنه، وكان مغترباً يبكى بدموع غزار مغترباً، ويتماسك الأب، أمام فلذة كبده، فيقول له إن رأيك فى الرحلة هو الصواب وإن كان فيه عطى وتلفى، ويضع نصب عينيه طموحه الهائل، فالحياة لا تعجبه ولا ترضيه إلا إذا تعدت به أعلى الشهب السيارة الساطعة. ويعلق ابن رشيق على أبيات هذا الشاعر فيقول: «هذا كلام يظهر عليه التوجع والتفجع، وتشوبه رافة الإشفاق، ورقة الاشتياق، حتى تدّر عليه الجفون بحلب الشئون (الدموع). وليس يخفى على أحد ممن يعرف الكلام حسن هذا التخريج والتلطف فى الاعتذار عما فعل الغلام. وإن هذا الشعر ليهون رزية من أصابه مثل هذا المصاب فى ولده، حتى يسهل على الآباء فقد الأبناء ويجسر الغلمان على مفارقة الأوطان». ومن تلهفوا على وطنهم تلهفا شديداً زمن الدولة الصنهاجية ابن عبدون الوراق السوسى، وستنخسه بكلمة. ولعل الحصرى الشاعر المبدع قطعة يتشوق فيها إلى القبروان وتونس حين إقامته بالأندلس، وهو فيها محزون حزناً شديداً وفيها يقول^(٢):

على العُدوة القُصوى وإن عَفَتِ الدارُ
 وحقَّ بكاءُ العين والقلبُ مُسَعِدُ
 شفى الله داءَ القبرِوائينِ بعدنا
 وكيف غناءُ الطيرِ فى غير أيكها
 ألا يا بروقا لُحْنٌ من نحو صَبْرَةٍ
 عسى فيك من ماء الحنِيَّاتِ شَرْبَةٌ
 سلامٌ غريبٍ لا يثوبُ فيزْدَارُ
 لمن باتَ مثلى لا حبيبٌ ولا جارُ
 فقد مرَّضتُ للقبرِوائينِ أبصارُ
 وقد بَعُدتُ منها فِرَاحُ وأوكارُ
 وليس لها إلا دموعى أمطارُ
 ولو مثل ما يُوعى من الماء مِنقارُ

وهو يحیی العُدوة القُصوى: القبروان وديارها ويصرِّح بأنه يانس من العُدوة بعد أن أنزل بها

(١) صرفك: نوابك وحدثانك.

(٢) الذخيرة ٤/٢٦٠.

أعراب سليم وهلال الدمار، وإنه ليكي بكاء لا ينقطع للوطن وما صار إليه من الوحدة الموحشة فلا حبيب ولا جار، ويدعو للقيروانين: القيروان وتونس أو القيروان وصبرة المذكورة في الأبيات وكانت بلدة كبيرة قريبة منها، يدعو لها أن يزايلها ما غشى الأبصار فيها من مرض الهدم والتخريب. ويعجب أن تغني الطير في غير أيكها وقد بعدت عنها أوكارها وفرادها الصغار، إنه وأمثاله من شعراء العدو القصوى لا يستطيعون الغناء إلا أن يكون بكاء وأنينا. وتلوح له بروق من نحو صبرة وهي بروق خلب، ليس فيها أمطار إلا دموعه، ويتمنى جرعة ماء من حنيات تونس ولو قدر ما يحمل منقار طير من الماء حتى يشفى به أو صاب نفسه وفؤاده. ويقول الشاعر الحفصي ابن عَرَبِيَّة يتشوق إلى المهديّة وأهله بها^(١):

أقولُ لركبِ قافلٍ عن معرّسٍ بِجَمَّةٍ تَرْدِي بالحمولِ مشاحِجُه^(٢)
 لك اللهُ أمتُّنا عن البلدِ الذي أكابره أسلافنا وأبالجه^(٣)
 وعن وطنٍ لولا العُلا وطلابُها لعزَّ على مثنائٍ أنى خارجه
 وشاطئه أنى تنوع حسنه وخضرمه أنى تدفع مائجه
 سلامٌ على المهديّتينِ ففيهما أبٌ بنتٌ عنه قاصرُ الخطو هادجه^(٤)

وهو يقول لركب راجع من منزله آخر الليل بجمة جارة المهديّة، وبغاله تضرب الأرض بحوافرها لثقل ما تحمله: لك الله أخبرنا وأمتنا عن البلد الذي يتميز رجاله ببلج وجوهم وطلاقتها وبشرها، وحدثنا عن هذا الوطن الذي اضطررنا إلى تركه في طلب العلا وعن شاطئه المتنوع الحسن وخضرمه أو بحره الذي تتدافع أمواجه. ويهدى المهديّة وأختها (صبرة) سلامه، ففيها أبوه الذي تركه واهن العظم قاصر الخطو يتهدج في مشيه مرتعشا، وإنه ليمتلئ عليه برا وشفقة. ويقول حمودة بن عبد العزيز أحد رجالات الدولة الحسينية المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م متشوقا في الغربية إلى أهله بتونس^(٥):

مللتُ دهرى وملّنتى حوادثُه فبعدكم ليس لى فى العيشِ من أربٍ
 لهنى على زمنٍ لا بل على سَكَنٍ عهدتُهُم منتهى الآمالِ والطلبِ
 كم ليلةٍ بعدهم قد بتُ أسهرها أشابتِ الرأسَ منى وهى لم تشبِ
 كأنّ أفلاكها من طول ما انقلبتُ أقت عَصَاها لِمَا لاقت من التعبِ

(٣) أبالجه جمع أبلج: الناظر وجهه بشرا.
 (٤) الهادج: الماشى متاقلا في ضعف وارتعاش.
 (٥) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٥٨.

(١) الحلل السنديّة ٥٠٥/٢ ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٧.
 (٢) تردى: تضرب الأرض بالحوافر. المشاحج: البغال

وهو يقول إنه ملّ دهره وما تقلب فيه من أحداث السياسة حتى لم يعد له بعد أهله في العيش من أرب. ويذكر أيام أن كان يقضى زمنه مع أهله وهم كل مناه من دنياه. وقد أصبح بعدهم يعيش مسهداً مفكراً فيما بلته به الليالي، ويتخيل كأن أفلاكها من طول ما سارت ألفت عصاها واستراحت لا تبرح ولا تريم لشدة ما عانت من التعب والمشقة. وحرى بي في ختام حديثي عن الغربية وتشوق القيروانيين والتونسيين فيها إلى ديارهم أن أشير إلى أنهم كثيراً ما تشوقوا إلى الديار التي بارحوها إلى وطنهم، ومن أهم الأقطار التي كانت تملأ نفوسهم بها صباية بما تمتعوا به فيها وبمناظرها الطبيعية الفاتنة مصر، وكان الكاتب الرقيق الذي مرت ترجمته كثيراً ما يكلفه حكام الدولة الصنهاجية بسفارات إليها، وله رائية يتشوق فيها إليها وإلى ساكنيها أشاد بها ياقوت في ترجمته، وأهم منها قصيدة لأبي الفضل يوسف بن محمد المعروف باسم ابن النحوى، وكان قد حج، وفي رجوعه افتتن بمصر وبنيلها وطبيعتها فنظم تلك القصيدة يصور تشوقه إلى ديارها ومشاهدها الفاتنة وفيها يقول^(١):

حَدَّثَانِي عَنْ نَيْلِ مِصْرَ فَإِنِّي مِنْذُ فَارَقْتُهُ إِلَى الْمَاءِ صَادِي
وَالرِّيَاضِ الَّتِي عَلَى جَانِبِيهِ وَاجْعَلَاهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ زَادِي
إِنَّ مِصْرًا لَهَا مَعَانٍ لِعَمْرِي قَدْ تَأْتَتْ عَلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ
هَذِهِ الْأَرْضُ إِنَّمَا هِيَ نَادٍ مِصْرٌ مِنْ بَيْنِهَا سِرَاجُ النَّادِي

وهو منذ فارق مصر ونيلها الكوثر - كما يقول شوقي - ظامئاً إلى جرعة ماء منها، وقد خلبته رياضها وورودها ورياحينها، ويقول إن مصر حظيت بعمان ومشاهد لم تحظ بها سائر البلاد، ويتصور المعمورة جميعها نادياً ومصر سراج النادى. وهى تحية كريمة لمصر من تونسى يوثق العلاقة بين الشعبين من قديم.

وتكثر الشكوى على ألسنة القيروانيين والتونسيين، مثلهم في ذلك مثل ليداتهم من شعراء الأقاليم العربية، فهم يشكون مثلهم من الدهر وما يصيبهم من بلائه وأرزائه، ويشكون من الإخوان أنانيتهم وعدم وفائهم، ومن طريف شكواهم من الدهر وصروفه ونوائبه قول إبراهيم المصرى صاحب «زهر الآداب» وغيره من التأليف الرائعة والتصانيف الفائقة كما يقول ابن^(٢) بسام:

تَلَحَّظْنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ شُرَّارًا كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْأَيَّامِ وَتَرَا
وَفِي عَيْنِي دَمُوعٌ لَيْسَ تَرَقًّا^(٣) وَفِي قَلْبِي صُدُوعٌ لَيْسَ تَبْرًا

(٢) الذخيرة القسم الرابع ص ٥٩٤

(٣) رقا الدمع: جف بعد جريانه.

(١) الخريدة (قسم شعراء المغرب - طبع تونس)

أَقْلَبُ فِي الدُّجَى طَرْفًا كَلِيلًا إِذَا جَبَّ الظَّلَامَ عَلَيَّ زُرًّا
 وَلَوْ نَشِرَ الذِّي أُطْوَى عَلَيْهِ عَلَى مِنْ تَحْتَوِيهِ الأَرْضُ طُرًّا
 أَصَمُّ مَسَامِعِ الدُّنْيَا عَوِيلًا وَهَزُّ جَوَانِحِ الأَيَامِ دُعْرًا

وهو يشكو شكوى مرة من صروف الدهر وكيف أنها تنظر إليه غاضبة كأن لها عنده ناراً وما تزال النوائب تنزل به وما تزال دموعه لا تجف أبداً، وقد تصدع قلبه، ولا يبرأ من صدوعه أبداً، وأف للليل، فإنه لا يزال مسهداً فيه كلما زرَّ عليه رداء الظلام، ويقول إن ما يطوى عليه من الهموم لو وزع على جميع من تحتويهم الأرض من الأنام لأصموا مسامع الدنيا عويلاً وأنيئاً وهزوا ضلوع الأيام ذعراً وفزعاً ما بعده فزع. ويقول تميم بن المعز شاكياً من الزمان وأرزائه^(١):

وَذِي عَجَبٍ مِنْ طُولِ صَبْرِي عَلَى الذِّي أَلَاقَى مِنَ الأَرْزَاءِ وَهَوَّ جَلِيلُ
 يَقُولُونَ مَا تَشْكُو فَقَلْتُ مَتَى شَكَا شَبَا السَّيْفِ عَضْبُ الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلُ^(٢)
 وَإِنْ امْرَأً يَشْكُو إِلَى غَيْرِ نَافِعٍ وَيَسْخُو بِمَا فِي نَفْسِهِ لَجْهُولُ
 عَذَابِي أَنْ أَشْكُو إِلَى النَّاسِ أَنْتَى عَلِيلُ وَمَنْ أَشْكُو إِلَيْهِ عَلِيلُ

وهو يقول إن الناس يتعجبون من طول صبري على ما يصيبني من الرزايا والمصائب العظيمة، ويسألونني مم تشكو، وأجبتهم هل يشكو حد السيف القاطع، ولمن أشكو؟ إن من يشكو إلى من لا يستطيع نفعه ويسير إليه بما في نفسه دون فائدة لجهول بالناس وحقائقهم، وإنه ليعذبي أن أشكو إلى الناس أننى عليل ومَنْ أشكو إليه مثلى عليل ويقول ابن خلدون في شكوى الزمان^(٣):

إِلَى مَ مَقَامِي حَيْثُ لَمْ تُرِدِ العُلا مُرَادِي وَلَمْ تُعْطِ القِيَادَ ذُلُولُ
 وَيَذْهَبُ لِي مَا بَيْنَ يَأْسٍ وَمَطْمَعٍ زَمَانُ بِنَيْلِ المَعْلُوتِ بِخَيْلِ^(٤)
 أَمَا لِلْيَالِي أَنْ تَرُدَّ خَطُوبَهَا فَفِي كَبْدِي مِنْ وَقْعِهِنَّ فُلُولُ
 يَرُوعُنِي عَنِ صَرْفِهَا كُلِّ حَادِثٍ تَكَادُ لَهُ صُمُّ الصَّلَادِ تَزُولُ^(٥)

وحق ابن خلدون يشكو من أن العلاء لا تعطيه ما يريد وأنه لا يجد في دنياه ذلولا تعطيه القيادة، ولا يزال بين يأس وطمع أو أمل، والزمان بخيل عليه بنيل المعالي، ويقول أما أن لليالي

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٩.

(٢) شبا السيف: حد طرفه. عضب: قاطع.

(٣) نفس المصدر ص ٢١٨.

(٤) المعلوات: المعالي.

(٥) الصلاد جمع صلد: الصخرة الصلبة.

أن تردّ خطوبها وكوارثها عنه وإن فلوها وشررها ليتضحان في كبده، وإن كثيرا من الأحداث لينزل به مما تكاد يتشقق له الصخر الصلب. ويقول ابن سعيد الحجريّ في العهد الحسيني المتوفى سنة ١٧٨٥ للميلاد^(١):

يطول علىّ الليل حتى كأنما لياليّ من فرط الجوى ليلة الحشر
ويزعجني الإصباح حتى كأنما نهارى سيف سُلّ من حيث لا أدري
خليليّ إن الدهر أبدى إساءتي وأظهر ما قد كان أضمرّ من مكر
وماضراً مثلي أن تلطّي بناره وهل ضرّ إبريزاً تلطّيه بالجمر

فليله يطول عليه من فرط الوجد حتى كأنه ليلة الحشر، ويزعجه الصباح حتى كأنما سيف نهاره سُلّ عليه من حيث لا يدري. ويخاطب صاحبيه، فالدهر قد أظهر ما كان يضر من مكر وأساء إليه إساءة بالغة، ويتماسك، ويجمع إرادته، ويعلن أنه لن يضره التلطي بناره، وهل يضر الذهب الخالص التلطي بالجمر وهيبه؟!

وعلى نحو ما أكثر القيروانيون والتونسيون من الشكوى سواء من الدهر أو من الناس أكثروا من العتاب وما قد يجير إليه من الاستعطف، وهما بابان قديمان في الشعر العربي، ومن طريف ما للقزاز من عتاب لأحد أصدقائه وكان قد أولم وليمة في ختان لابنه وابن أخيه ولم يدعه سهواً^(٢):

واحسرتا مات أترابي وأقراني وشئت الدهر أصحابي وأخذاني
وغيّرت غير الأيام خالصتي والمنتضى الحرّ من أهلي وإخواني
وصار من كنت في السراء أذكره بل لست أنساه في الضراء ينساني

وهو يتحسر على أصدقائه جميعاً، إذ غيّرت الحوادث أخلصهم وأصفاهم وأعزهم، وصار من كان يذكره في السراء ولا ينساه في الضراء ينساه كأن لم يكن بينهم ودّ ولا صداقة. ومن طريف ما نقرؤه من عتاب في عصر الدولة الصنهاجية عتاب خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري لأخيها، وكانت شاعرة مجيدة وأعجبت بشاعر أندلسي نزل بديارها، وشبّب بها، فغار لذلك إخوتها فكتبت إلى كبيرهم^(٣):

أأخي الكبير وسيدي ورئيسي ما بال حظّي منك حظّ نجيس

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٥٦. (٢) الأنموذج ص ١٢٤ والخريدة ١/٣٢٧.

(٢) الأنموذج ص ٣٦٨.

أبغى رضاك بطاعةٍ مقرونةً عندي بطاعة ربِّي القدوسِ
 فإذا زَلَلْتُ وجدت حلمك ضيقًا عن زَلَّتِي أبدًا لِفِرْطِ نحوسِي
 يا سيِّدِي ما هكذا حُكْمُ النُّهْيِ حقُّ الرئيسِ الرفقُ بالمرءِ وسِ
 وإذا رضيتَ لِي الهوانَ رضيتَهُ وجعلتُ ثوبَ الذلِّ خيرَ لبوسِ

وخديجة تعاتب أخاها عتابا رقيقا فهو أخوها وسيدها ورئيسها وتشكو من حظها السيء معه، مع أنها تبغى رضا وطعيه طاعتها لربها القدوس، فإذا ودَّت شاعرا وجدت حلمه لا يسع ودَّها ولا يغفره لها لفرط نحوسها، وتستعطفه فليس هذا حكم العقل ولا حق المرءوس على الرئيس من الرفق، وتحاول أن تميل قلبه إليها، فإذا كان قد رضى لها الهوان رضيته ولم تخلع عنها ثوب الذل يوما. والقطعة رقيقة منتهى الرقة. وخديجة بجانب زينب التيجانية الشاعرة التي مر ذكرها في الحديث عن الغزل رمزان قويان لمشاركة نساء القيروان وتونس في الحركة الأدبية بالعصور الماضية. ويقول ابن رشيق معاتباً^(١):

أجِدُّكَ لم أجد للصبر بابًا فتدخله على سعةٍ وضيقِ
 وإن أُصْبِرُ فعن إفراطِ جُهْدٍ وإن أَقَلُّ فحسْبُكَ من قَلْوِي
 سأعرضُ عنك إعراضاً جميلاً وأبدي صفحةً الوجه الطَّلِيقي
 ولا ألقاك إلا عن تلاقٍ بعيدِ العهدِ بالذكري سَحِيقي

فقد أعتته صديقه حتى لم يعد يجد للصبر بابا، ومع ذلك إن استطاع يوما الصبر فعن فرط جهد، وحرى به أن يقلق أشد القلق، ويقول له سأعرض عنك إعراضا جميلا، وسألقاك بوجه بشوش حين يتصادف اللقاء، وقد بعد العهد بالذكرى بعدا شديدا. ويقول على الحُصْرَى معاتباً بعض خلَّانِه^(٢):

بَرِمْتُ بما ألقاه ممن أوامقُ وأوذيتُ حتى لأرى من أصادقِ^(٣)
 إذا ما امرؤُ أصفيتُهُ الودَّ واثقا بخَلَّتِهِ لم تَصْفُ منه الخلائقُ^(٤)
 فيا ليتَ شعري هل إلى الناس كلهم أنا مذنبٌ أم ليس فيهم موافقُ
 فلا أنا مسرورٌ بمن هو واصلِي جذارا ولا آسى على من أفارقِ
 وإنِّي لمن يبغي انتقاصِي لقامعُ وإنِّي لمن يبغي وِدادي لوامقُ

(٣) أوامق: أتبادل معه الود.

(٤) خلَّته: صداقته.

(١) الأنموذج ص ٤٤٦.

(٢) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٠.

وعلى المصرى متبرم بأصدقائه لما يلقى من أذاهم، وقد يظن بشخص خيرا فيصفيه الود لما رأى من بعض صفاته، حتى إذا اختبره وجد أخلاقه كدرة غير صافية، ويعجب هل أساء إلى الناس جميعا حتى لا يجد بينهم صديقا موافقا، وجعله ذلك لا يُسرَّ بمن يحاول صداقته ولا يأسى على من ينقضها نقضا، ويعود فيقول إنه يجمع ويقهر كل من يحاول انتقاصه، وأما من يد له يد الوداد فإنه يصبح وامقا له ومحبا. ويلقانا عتاب عنيف بين وزير المستنصر الحفصي محمد بن أبي الحسين وشيخ قبيلة سليم: عنان بن جابر، وسنخسه بكلمة، ويرسل شاعر العصر الحسينى الأول على الغراب الصفاسى بمقطوعة شعرية لمحمد بن كمون يعاتبه لإبطائه في كتابة عقد له^(١):

يا أبا عبد الله حَتَّامَ أَسْعَى لَكَ فيما أرومُ شهرا فشهرًا
هل لهذا الوقوفِ منك وجربى غايةً ينتهى لها الجرىُّ أخرى
ما أرى فى قضاءٍ ما رُمَّتْ عُسْرًا ولئن كان، إن للعسرِ يُسرًا
ليت شعرى أفى وقوفك هذا طولُ جرىِّ تروم أم رُمَّتْ أجرا

وهو يعتب على الكمونى أنه دائم السعى له والإلحاح عليه لا يوما بعد يوم بل شهراً بعد شهر ليكتب له العقد، والكمونى يسوّف ويماطل، ويقول له ليس فيما أريده عسر، وإن كان فإن للعسر يسرا، ويسأله هل تريد منى طول جرى لمزيد من الإلحاح أو تريد منى مزيداً من الأجر. وحرى بنا الآن أن نتوقف لنخص شاعر الغربة ابن عيدون بكلمة، وبالمثل شاعر العتاب الغاضب: ابن أبى الحسين.

ابن^(٢) عيدون

هو محمد بن عيدون الوراق من أهل مدينة سوسة على ساحل البحر، ويؤه ابن رشيق بشعره قائلاً إنه «شاعر وطىء الكلام، كلف بعدوبة اللفظ والتسلل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جاش». وحدث أن توفيت زوجته وابنه فى آن واحد، ففارق بلدته «سوسة» فى سنة ٣٩٣ للهجرة ورحل إلى جزيرة صقلية ونزل على أميرها ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ومدحه، وكان قد أتاب عنه فى الحكم ابنه جعفرًا منذ سنة ٣٨٨ لإصابته بالفالج، فألحقه بابنه، فأدناه وقربه، غير أنه سرعان ما حنَّ إلى بلده، فرفع إلى جعفر قصيدة يسأله فيها الرجوع إلى وطنه، وصور مدى رغبته فى ذلك من خلال تسوقه إلى رؤية قصر طارق وكان رباطا بقرب سوسة، له

والحلل السندسية ٣٠٧/٢ والمجلد فى تاريخ الأدب

١) الديوان ص ٣١٠.

٢) انظر فى ترجمة ابن عيدون النموذج ص ٣٩٠. التونسى ص ١٠٨.

برج شديد العلو، ويصور حنيننا متأججا في صدره إلى سكانه قائلا:

يا قَصْرَ طَارِقِ الذِي طَرَقْتُ أَحْسَائِي فِيهِ بِلَابِلِ الصَّدْرِ
وَاللَّهِ مَا قَصَّرْتُ عَنْ تَلْفٍ لَكِنِّي قَصَّرْتُ بِالْقَسْرِ
فَسَقَاكَ مَنَّهُلُ الْحَيَا وَسَقَى عَصْرًا تَقَضَّى فِيكَ مِنْ عَصْرِ
أَعْطَى عَهْدَ اللَّهِ صَفْقَةً مَنْ أَعْطَى الْعَهْدَ بِجَانِبِ الْحِجْرِ
لَوْ أَسْتَطِيعُ سَبَحْتُ مِنْ طَرِبٍ شَوْقًا إِلَيْكَ سَوَادَ الْبَحْرِ

وهو يهتف بقصر طارق المجاور لمدينته سوسة وما يثير في صدره من شجون، ويقول إنه لم يُقَصِّرْ إزاءه عن تلف وإنما قَصَّرَ قَسْرًا وجبرا، ويدعو له ولأيامه الخوالي فيه بالسقيا، وبعاذه عهد حجاج بيت الله الحرام عند الحجر أو الحطيم بجانب الكعبة المقدسة أنه لو استطاع لسبح إليه سواد البحر المتلاطم بين صقلية سوسة. ويقول ابن رشيقي تعليقا على هذه المقطوعة: «رقة الشوق ظاهرة على هذا الشعر ولطف الحضارة مع مياه تكاد تتبع من جانبه، فهو أندى من الزهر، غب القطر، وأحلى من الوصل بعد الهجر». ولما سمع جعفر بن ثقة الدولة هذه الأبيات ازداد به إعجابا وفيه ضئانة، فمنعه من السفر، فكتب ابن عبدون إلى أبيه ثقة الدولة يسأله فيما سأل فيه ولده، ويشكر لما ناله لذيها من الجود، ويتشوق إلى وطنه مجسداً شوقه في قصر طارق قائلا:

يا قَصْرَ طَارِقَ هَمِّي فِيكَ مَقْصُورٌ شَوْقِي طَلِيقٌ وَخَطُوبِي عِنكَ مَأْسُورٌ
إِنْ نَامَ جَارُكَ إِنِّي سَاهِرٌ أَبَدًا أَبْكِي عَلَيْكَ وَبَاكِي الْبَيْنِ مَعْدُورٌ
عِنْدِي مِنَ الْوَجْدِ مَا لَوْ فَاضَ مِنْ كَبْدِي إِلَيْكَ لاحتَرَقْتُ مِنْ حَوْلِكَ الدُّورُ
لَا هُمْ إِنْ الْجَوِي وَالْوَجْدُ قَدْ غَلَبَا صَبْرِي فَكُلُّ اصْطَبَارِي فِيهِمَا زُورُ

وهو بيت قصر طارق همه ويقول له إن شوقي لك حر طليق وخطوبى إليك مقيد مأسور، وإن نام جارك نوما هنيئا فإني أتجرع سهراً مريراً أبكى فيه عليك بكاء لا ينقطع. ويذكر أن في كبده من لواجع الوجد وهيبه ما لو فاض على ما حول القصر من الدور لاحتترقت جميعا، ويفزع إلى ربه فإن ما يحمل من الجوى والوجد المتناع قد غلبا صبره، ولم يعد يستطيع احتمالاً لها. ومضى في القصيدة يمدح ثقة الدولة. ولم يجد عنده - كما لم يجد عند ابنه جعفر - مأموله، فاضطر إلى أن يخرج من صقلية خفية دون علمها. وعاد إلى سوسة، وبها توفي حوالى سنة ٤٠٠ هـ/١٠١٠ م. وينشد له ابن رشيقي مقطوعة بدبعة في ملعب سوسة الروماني وفيها يتحدث عن شادوه وملكهم وجيوشهم، ويقول إن الأرض ضمتهم جميعا:

طحنَهم طَحْنُ الرَّحَا فإذا الْإِنْسَانُ وَالدهرُ صخرةٌ وزجاجُ

فالناس جميعا يطحنون طحن الرحا، بل لكان الدهر صخرة، وهو يطحنهم بل يفتتهم كأنهم زجاج لا يعاد له سبك.

محمد^(١) بن أبي الحسين

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين العنسي كان أحد الرجالات دهاء وذكاء، وقربه منه أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية وابنه المستنصر. حتى كان كبير رجالاتهم ووزرائهم، وكان متفتنا في ضروب العلوم ومتعمقا في اللغة، وله معجم رتب فيه محكم ابن سيدة على نهج الصحاح للجوهري بحسب أواخر الكلم، واختصره في معجم سماه الخلاصة. وكان مع ذلك سيوسا يحسن تدبير الدولة الحفصية ويقود جيوشها في المعارك الحربية، وما زال المستنصر حفيبا به إلى أن توفي سنة ٦٧١هـ/١٢٧٣م. وكان شاعرا مجيدا. وكان أبو زكريا يقرب منه شيوخ القبائل ومن بينهم عنان بن جابر زعيم عشائر مرداس من قبيلة بني سليم النازلين في قابس، وكانت له مكانة كبيرة عند أبي زكريا وصلات وعوائد. ويبدو أنه ظن به وبالعشائر المرادسية بعض الظنون فأوقع بينها وبين قبيلة علاق ونسبت بينها معارك. وتنبه عنان بن جابر لصنيعه، فغضب غضبا شديدا، ورحل مع عشائره إلى بني هلال في الجزائر أو المغرب الأوسط، وعرف أبو زكريا خطأه فسأل وزيره ابن أبي لح ن أن يكتب إليه مسترضيا، وكان مما تبادل معه ابن أبي الحسين قصيدتان راثيتان، وابن أبي الحسين في قصيدته يعاتبه في شيء من اللين حينما وفي شيء من الجفاء حينما آخر، لعله يعود إلى صوابه ويرجع إلى موطنه، وله يقول مستطردا من التشبيب إلى عتابه عتابا رقيقا:

فدونكم يا للرجال نحيّة	يخص بها عنى عنان بن جابر
فتى ما دعت زلة فأجابها	فكيف طوى كشحا على نفس غادر ^(٢)
وقد كان بينى - يا عنان - وبينكم	بواطن صنّاه يحفظ الظواهر
وفي كل عام كان للجيش وقعة	نجر بها أذياننا جر سادر ^(٣)
تظللنا الرايات وهى خوافق	على كل رنبال يخفان خادر ^(٤)

(١) انظر في ترجمة محمد بن أبي الحسين القسم

الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ص ٧٥ وكذلك كتاب المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٩٩ ومنها تقتطف بعض أسعار ابن أبي الحسين.

(٢) طوى كشحا: أضر نية.

(٣) سادر: لايبالي بشيء.

(٤) الرنبال: الأسد والشجاع الجرى. خفان:

مأسدة. خادر: مقيم.

وهو يخص عنان بن جابر بتحية يستحقها. إذ هو فتى عزيز شريف لم يستجب يوماً إلى أية زلة تدعوه، ويعجب إذن كيف ولّى مغاضباً مطويماً على الغدر بدولته، ويحاول أن يجذبه إليه، بما كان بينهما من صداقة ومن اشتراك في حرب أعداء الدولة سنويًا جارّين أذيتال الخيلاء بانتصاراتهم غير مبالين بشيء، والرايات تظلّ متحركة أبطال جيشهم بل ليوثه التي اندفعت من مأسدة خفان المقيمة بها تريد أن تلتهم الأعداء التهاماً، ويمضى ابن أبي الحسين معاتباً لعنان:

أذْكَرَكَ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا وَإِنْ كُنْتَ عَنْهُ سَالِيًا غَيْرَ ذَاكِرٍ
وَكُنْتَ تُجِيرُ النَّاسَ فِي خَيْرِ دَوْلَةٍ فَأَصْبَحْتَ جَارًا فِي هَلَالِ بْنِ عَامِرٍ
وَكُنْتَ كَلَيْثِ الْغَابِ عَزًّا وَمَنْعَةً فَصُرْتَ كَأَمْثَالِ الرُّنَالِ النَّوَافِرِ^(١)
وَكُنْتَ نَزِيلَ الْمُلْكِ تَجْنِي ثَمَارَهُ أَفَانِينَ مِنْ أَفْنَانَ رِيَّانَ نَاضِرٍ
وَقَدْ كُنْتَ تَلْقَى الْعَزَّ تَحْتَ ظِلَالِهِ فَهَا أَنْتَ تَلْقَى الذَّلَّ تَحْتَ الْهَوَاجِرِ

وهو يذكره بما كان بينه وبين رجال الدولة الحفصية من عهد وميثاق، وكأنه نسيهما نسياناً تاماً، ويقرن حال العز القديمة لجابر بما صار إليه، فقد كان يجير الناس وأصبحت قبيلة هلال تجيره، وكان كالأسد عزا ومنعة فصار مثل النعام المتناثر في البوادي وكان يجني ألواناً من ثمار ملك وطيد ناضر، وكأنما يحاول أن يؤنبه، فيقول له إنك طالما تمتعت بالعز في ظلال الملك الحفصي وها أنت تصطلي بالذل في هواجر المغرب الأوسط. ويعود إلى اللين مع عنان فيقول:

عَزِيزُ عَلَيْنَا - يَا عِنَانُ - ضَلَالَةٌ حَدَّثْتُ بِكَ لَا تَلْوِي عَلَى زَجْرٍ زَاجِرٍ
فَدَيْتُكَ لَا تَشْرِي الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَدَيْتُكَ لَا تَشْرِي الْعَمَى بِالْبَصَائِرِ
وَمَا الْعَرَبُ الْعَرَبَاءُ إِلَّا بَعْدَهَا فَمَنْ كَانَ أَوْفَى كَانَ أَوْلَ فَاخِرٍ
هَدَيْتَكَ الْهُوَادِي - يَا عِنَانُ - وَأَمْطَرْتُ ذَرَاكَ الْغَوَادِي بَيْنَ بَادٍ وَحَاضِرٍ^(٢)

وهو يتلطف له ذاكراً أن هجرته بعشائره كانت ضلالة لم يستمع فيها إلى نصح ناصح ولا إلى زجر زاجر، ويفدّيه بنفسه أن لا يشتري الضلالة بالهدى ولا العمى بالبصر وأن يتبع سنن آبائه بالوفاء بالعهد. ويدعو الله له أن يهديه وأن تمطر السحب الغادية أكناف دياره بادية وحاضرة. وقد رد عنان بن جابر عليه عنيفاً بقصيدة تُعدّ من درر الشعر التونسي، وفيها يذكر أنه لم يبرح موطنه إلا بعد أن ضاقت به الأرض كحلقة خاتم، وبعد أن تبين من أبي زكريا حالاً، لا يطيق احتمالها، فهاجر إلى بلد من بلدان بني هلال بن عامر لا يعرف أهلها الذل، ويذكر أنه إنما غادر

(١) الرنال: النعام. السحب. الذرا: الكنف والحمى.

(٢) هدتك الهوادي: يدعو له بالهدى. الغوادي:

موطنه صيانة لنفسه ولقومه من الأذى، ويفتخر بأنه ما من أحد من قومه إلا نال عزا ورفعة ويتحدّى من يعادهم، إذ يطئون أرضه بحوافر خيلهم ويقضون عليه قضاء مبرما. والتصيدة على لسان هذا البدوي عنان بن جابر السلمي تُعدُّ أحد البراهين القوية - كما مرَّ بنا - على خطأ ابن خلدون فيما زعمه من أن أعراب بني سليم وهلال زابلت ألسنتهم الفصحى في أرجاء الإقليم التونسي منذ القرن السابع الهجري بل ربما قبله بفترة غير قليلة.

٢

شعراء الطبيعة

من قديم يتغنى الشاعر العربي بالطبيعة، ومعروف أن الشاعر الجاهلي لم يترك في بيئته الصحراوية زهرة ولا شجرة ولا سحابا ولا نجما ولا طائرا ولا حيوانا أليفا ولا وحشيا إلا تغنى به واصفا لجماله أو لسرعته أو لقوته، وتبعه الشعراء في العصور التالية يصفون الرياض والأنهار وما أودع على ضفافها من جمال، كما يصفون الحيوانات والطيور من كل نوع، ويصف إبراهيم المصري صاحب زهر الآداب الياسمين قبيل تفتحه قائلا^(١):

لقد راعَ رأسُ الياسمينِ منورًا كأقراطِ دُرٍّ قُمَعَتْ بِعَقِيقِ^(٢)
يميلُ على ضعفِ الغصونِ كأنما له حالتا ذى غَشِيَةٍ ومُفِيقِ
إذا الريحُ أدنته إلى الأرضِ خِلَّتُهُ نسيمَ جنُوبٍ ضُمَّخَتْ بِخَلُوقِ^(٣)

فالياسمين وهو يوشك على التفتح وقد انبثقت في أعلاه زهرة حمراء يروعك منظره، وكأنه أقراط ذهبية خُصِبَتْ بعقيق أو باقوت، ومنه ما يميل منحنيا لضعف غصونه، ومنه ما يظل نابتا في وقوفه، وكأنما له حالتا مغشى عليه ومفوق، وإذا مر به النسيم ظننته تعطر بخلوق أو طيب ذكي الرائحة. ويقول إبراهيم بن غانم الكاتب القيرواني واصفا النيل^(٤) وكان قد أقام بمصر فترة وعاد إلى القيروان وتوفى بها سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.

النيلُ بين الجانبين كأنما صُبَّتْ بصفحته صفيحةٌ صَيَّلُ
يأتيك من كَدْرِ الزواجرِ مدُّه بممسكٍ من مائه ومُصَنَدَلِ^(٥)

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١١٩. (٤) الأعمدج ص ٥٠.

(٢) العقيق: حجر كريم أحمر. (٥) ممسك: مطيب بطيب المسك. مصنذل: مطيب

(٣) ضمخ: لطَّخ. خلوق: ضرب من الطيب. بطيب الصنذل.

وَكأنَّ ضَوْءَ البِدرِ فى تَمويجِهِ بَرَقُ تَمَوِّجٍ فى سَحابٍ مُسَبَّلِ
وَكأنَّ نَورَ السُّرَجِ فى جَنبائِهِ زُهرُ الكواكبِ تحتَ ليلِ اللَّيلِ^(١)

وهو يصور النيل بين شاطئيه كأنه سيف حدّاد بالغ في جلانه لشدة لمعانه، ويقول إن فيضانه يأتيك بلون كدر كأنه اختلط بمسك أو بشجر الصندل الأحمر، يشير بذلك إلى ما كان يختلط به في فيضانه من الطمي المائل إلى الحمرة، وكأن ضوء البدر على صفحة أمواجه برق يموج في سحب يهطل مدراراً، وكأن نور المصابيح في جنباته كواكب مشرقة لامعة في ليل شديد الظلام. ويقول عبد العزيز بن خروف المتوفى حوالى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٩م في وصف سحابة^(٢):

مرتجّة الأرجاء يَحْبِسُ سَيْرَها يُقَلُّ فتعطيهِ الرِياحُ سَراحا
أخفى مسالكها الظلامُ فأوقدتُ من بَرَقَها - كى تَهتدى - مِصباحا
وَكأنَّ صوتَ الرِّعدِ خَلَفَ سَحابِها حادٍ إذا وَنتِ الرِكايبُ صاحا

وهو يقول إنها سحابة مثقلة بمطر غزير، وكأن ثقل ما تحمله يجبس سيرها، وتطلقه الرياح، فتسير ويئدة في ليلة داجية وكأن الظلام أخفى مسالكها، فأوقدت من برقها مصباحا كى تهتدى به في سيرها، ويتصور كأن صوت الرعد فيها حاد خلفها إذا توانت الركايب وتباطأت صاح بها كى تمضى في سيرها مسرعة. وكان يعاصر هذا الشاعر ابن أبى حديدة وكان يعنى بوصفه للسحب والنجوم، وسنخسه بكلمة. ومعروف أن البحر المتوسط يمتد طويلا على شواطئ الإقليم التونسى شرقيه وشماليه من قابس إلى بنزرت، فكان طبيعياً أن يتعرض الشعراء في ثغوره المختلفة لوصفه، من مثل الشاعر أبى الحسين الكاتب، وكان حسن البصر بصناعة الشعر - كما يقول ابن رشيق - سالكا لجميع شعابها، داخلًا من جميع أبوابها متقنا لها في لطافة وحلاوة. وقد توفى سنة ٤٠٨هـ/١٠١٨م وفي البحر يقول^(٣):

أَنظُرُ إلى البَحرِ وأمواجِهِ فقد علاها زَبَدٌ مَسْبِقُ
تخالها العينُ إذا أقبلتُ خَيْلاً بدتُ فى حَلْبَةٍ تَسْبِقُ
حُمْراً ودُهْماً فإذا ما دنتُ من شاطئِ البَحرِ علاها بَلَقُ
ظهورها درٌّ وأكفألها ألبسها الجَرِيُّ صَيِّبَ العَرَقِ

وهو يصور أمواج البحر حين تعانق رمال الشاطئ وما يعلوها من زبد، ويخالها خيلا تستبق

(٣) الأنوذج ص ٣٦٣.

(١) ليل أليل: ليل شديد الظلام.
(٢) المجمل في تاريخ الأدب التونسى ص ١٢٣.

في حلبة، ويراها حين تعانق الرمال يعلوها لوان أسود منها وأبيض من الزبد مما يجعلها بقاء في مرأى العين، وكأنما الرمال تحيلها درا سائلا بينما أواخرها يتصب عرقا أو زبدا. وكان على بن حبيب التوخى شاعراً عذب اللفظ - كما يقول ابن رشيقي - لطيف المعنى قليل التكلف، وقد توفي حوالى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م وله في تصوير المد والجزر عند صفاقس^(١):

بَلْدٌ يَكَادُ يَقُولُ حَيْدَ مِنْ تَزْوَرِهِ أَهْلًا وَسَهْلًا
وَكأنه وَالْبَحْرُ يَحُ سِرُّ تَارَةً عَنْهُ وَيَمْلًا
صَبٌّ يُرِيدُ زِيَارَةً فإِذَا رَأَى الرُّقْبَاءَ وَلِيَّ

وهو تعليل طريف للمد والجزر أمام صفاقس التي ترحب دائها بضيوها، وكأنما أمواج البحر، حين تمتد أمامها وتقرب منها وسرعان ما تتراجع، عاشقٌ يريد زيارتها، ويرى الرقباء فيولّي راجعا من حيث أتى.

ونلتقى بأبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، وكان شاعراً مجيداً وناقداً بصيراً بالشعر، وله أشعار مختلفة في الحماسة ووصف آلات الحرب وغير ذلك، ومن شعره يصف حديقة ونهرها وأزهارها من الرياض التي أنشأها قرب عاصمته تونس باسم أبي فهر^(٢):

وسال نَمِيرُ المَاءِ بَيْنَ اخْضَارِهَا فجَاءَ كَمَثَلِ الفَرْقِ بَيْنَ الدَّوَانِبِ
وإِلا كَمَا شَقَّ الكَنْهَوْرَ بَارِقُ وإِلا كَمَثَلِ الصُّبْحِ بَيْنَ الغِيَاهِبِ^(٣)
وَاللُّرْجَسِ النَّضْرِ اصْفِرَّارُ تَخَالِهِ كَشَمْسِ أَصِيلٍ بَيْنَ بِيضِ السَّحَابِ
وَاللياسمينِ الغَضِّ فِي خُضْرِ بُسْطِهَا نَتَائِرُ دُرٍّ أَوْ سِبَائِكُ سَاكِبِ
مَعْطَرَةُ الأَرْدَانِ يَفْغَمُ نَفْحُهَا بِحَيِّكَ عَرَفَ الطَّيْبُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ^(٤)

فماؤها العذب ينساب بين خضرتها المائلة إلى السواد وكأنه فرق شعر في أعلى ضفائر أو كأنه برق في كنهور أو سحب مترام أو كأنه ضوء صبح يشق غياهب الليل وظلماته. ويقول إن النرجس النضر المصفر يتهدل بين الأزهار البيضاء كشمس أصيل تنسدل على الطبيعة من خلال سحب بيضاء، وزهر الياسمين يتناثر على بسطها وكأنه تثار درٌّ أو سبائك صانع حاذق، والحديقة جميعها معطرة الجوانب، ونفحها يحمل أفاويه ذكية، ويحيك شذا طيبها من كل منعطف وركن. ويستمر أبو زكريا في مثل هذا الوصف بقصيدته. ومن وصف جنات «توزر» وحدائقها شاعرها

(١) الأتمودج ص ٢٨١ والحلل السندية ٣٢٦/٢. (٤) الأردن: الأكام يريد أكام الزهر، يغمم
(٢) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٩. نفحها: تلاً المكان بأفاويه الطيب. عرف: شذا
(٣) الكنهور: قطع السحاب الضخمة. ورائحة.

أبو علي بن إبراهيم، وسنفرده بكلمة. وبالقرب من تَوَزَّرَ شَطَّ الجريد وبه سَبِيخَةٌ إذا حاد سالكها عن طريقه غاص في رمالها ولم يُرَ له أثر، وتسمى التاكمرت وماؤها ملح أجاج، وهوؤها شديد الحرارة ملء بالرمال العاصفة، وقد وصفها ابن حُسَيْنَةَ المتوفى حوالى سنة ١٣٤٠هـ/١٣٤٠م قائلًا^(١):

قطعنا التاكمرت سُرى وسرنا	صبيحة يومنا حتى الزوال
فلا تسأل لما قاسيتُ فيه	الأهوال والكرب الثقَالِ
فليلٌ لاتسير به نجومٌ	من نيظتُ إلى بعض الجبال
وأرياحٌ تصمُّ الأذنَ منها	تهبُّ عن اليمين مع الشمال
تصدُّ عن الطريق القصدِ قَصْدِي	وتضربُ حرًّا وجهي بالرمالِ
ولا أستطيع فَتَحَ العَيْنِ فيها	لبعض الأمرِ إلا باحتيالِ

يقول ابن حُسَيْنَةَ إنه قطع التاكمرت في ليلة وصبيحة يوم حتى الظهر وقد قاسى من الأهوال والكرب الثقيلة ما يعزَّ وصفه، فالليل طويل حتى كأنما علقت نجومه ببعض الجبال فهي لا تتحرك، والرياح تهب ذات اليمين وذات الشمال محملة برمال تصك الآذان ضاربة الوجوه بحصائها وملقية ستارة كيفية على الأعين حتى لا يمكن فتحها إلا بضروب من الاحتيال. ويقول محمد الظريف المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م في وصف روض^(٢):

الروضُ أصبح يُجلى في غلاله	وأنشد الطيرُ فوق الغصنِ وأرنجالا
وألقت القُضْبُ من أوراقها بسطًا	وأليس الروضُ من أنواره حللا
وقبل الطلُّ خدَّ الأرض فابتسمتُ	أزهارها فعدتُ تزهر بحسنِ حلى
والوردُ لما اعتلى من فوق وجنته	ماءُ الحياءِ بدا في خده خجالا

فالروض يُجلى في أجمل ثيابه البديعة، والطير يتغنى فوق الغصون، وألقت الأغصان على الثرى بسطا خضراء من أوراقها، وليس الروض حللا من أنواره وأزهاره وقبل الطلُّ خدود الأغصان فابتسمت أزهارها وافتخرت بأجل حللى، أما الورد فقد اعتلى فوق وجنته ماء الخفر، فبدت حمرة الخجل في خده، ويقول الأمير محمد الرشيد الحسينى في وصف الربيع^(٣):

قَدِمَ الرَّبِيعُ ووجْههُ يَتَهَلَّلُ	والطَّلُّ يَلْتَمُّ خَدَّهُ وَيَقْبَلُ
فتدفقت أنهاره وتفتقت	أزهاره والدُّوحُ خُودُ تَرْفُلُ

(٣) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢٢٨.

(١) الحلل السندسية ٢/٣٩٢.

(٢) المجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ٢١٦.

بِقْلَانِدٍ مَوْشِيَّةٍ بِزَبْرَجِدٍ تَيْجَانُهَا بِيَدِ الرَّذَاذِ تَكَلُّلُ
وَالرَّعْدُ يَضْرِبُ بِالطُّبُولِ وَبَرْفُهَا كَالشَّمْعِ تُطْفِئُهُ الرِّيَّاحُ فَيُشْعَلُ

فالريبع وقد بوجهه المتهلل يعانق الطلّ ويقبله مرارا وتكرارا، والأنهار تدفقت والأزهار
تفتحت والأشجار تنبخر بقلائد مزينة بزبرجد، بينما يتوجها المطر بالأزهار، وكأنا الرعد
يضرب بطبول ابتهاجا بالريبع، وأمامه شموع البرق فرحة به، وكلما أطفأتها الرياح عادت أكثر
اشتعالا وأوفر ضياء.

وإذا تركنا الطبيعة الصامتة إلى الطبيعة الحية وجدنا الشاعر التونسي يكثر - كما أكثر سلفه
المشركي من قديم - من وصف الحمام والديكة والفرس، وينشد ابن رشيق فيها جميعا أشعارا
كثيرة، من ذلك ما أنشده لعنترة التميمي الذي كان مفتونا بالحمام الداجن، وفي صفات أحدها
يقول^(١):

وَأَصْفَرَ فَاقِعٍ لَا عَيْبَ فِيهِ يَفُوتُ - إِذَا وَنَى - عَصْفَ الْجَنُوبِ
كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ الصُّحُورِ أَلْقَتْ عَلَيْهِ رِءَاءَهَا عِنْدَ الْغُرُوبِ
وَتَنْظُرُ شَخْصَهُ الْأَلْحَاطُ عَشَقًا كَمَا نَظَرَ الْمَحَبُّ إِلَى الْحَبِيبِ

فهو أصفر فاقع لونه لا عيب فيه، يفوت الريح حين يطير حتى لتعجز عن مداها، وكأنا
الشمس ألقى عليه رداء أصيلها الذهبي، وإنه ليفتن الأبصار حين تنظر إليه ويغلب لبها كما
يغلب المحبوب لب محبّه. ويقول ابن الغطاس في وصف طائفة من الحمام^(٢):

تَوْسَدَنَّ مَطْوِيُّ الْجَنَاحِ كَأَنَّمَا لَهْنٌ حَشَايَا فَوْقَهُ وَدَرَانِكُ^(٣)
وَيَمْلَنَ عَلَى حُضْرِ الْغُصُونِ كَأَنَّمَا لَهْنٌ عَلَى قُضْبِ الْأَرَاكِ أَرَانِكُ^(٤)
وَلَا شَدْوٌ إِلَّا مَا تَصَوَّغَ لِحُونُهَا وَلَا دَمَعٌ إِلَّا مِنْ جَفُونِي سَافِكُ

فقد اتخذن من أجنحتهن وسائد، وكأنها لهن كالحشايا والطنافس للإنسان، وقد اتخذن من
غصون الأراك أرائك ومقاعد ينزلن عليها للراحة، وما أجل شدوها وغناها وما تصوغ منها
من لحون تنير فيه الشجن، وإن دموعه لتنزل مدرارا. وبلتقت عبد الرازق بن علي النحوي إلى
قمرى من الحمام على غصن شجرة ينوح فيخطبه قائلا^(٥):

(٤) الأراك: شجر. أرائك: مقاعد.

(٥) الأنموذج ص ١٥٦.

(١) الأنموذج ص ٣١٧.

(٢) الأنموذج ص ٢٣٤.

(٣) درانك: بسط وطنافس.

أقمرى أَيْكُ الجزع هل أنت جازع وهل لك إلفٌ نازحٌ عنك نازعٌ
وفى لحنك المسجوع فى رَوْنِقِ الضحى دليلُ أَسَى لو أن جفنك دامعٌ
أثار كمينَ الشوق أنك صادحٌ وإن كان لا يدري مرادك سامعٌ
كأن نسيماً للشمال وللصبا نسيبُ الصبا طيباً إذ الشملُ جامعٌ
وإذ ليس بسرٌّ للمرّة ذائعٌ وليس ذِمَامٌ بالمذمّة ضائعٌ

وهو يخاطب قمرى أيك الجزع متعجبا ومتسانلا إذ يراه ينوح هل هو جزع لا يستطيع صبرا على فراق أليفته وصاحبته التى نزحت بعيدا عنه مثله، ويقول له إن فى نبرات صوتك أسى وحزنا عميقا وإن جفونه لا تريحه بدموع تخففه عنه، ويذكر أنه أثار فى نفسه بصراحة كوامن حبه ولواعجه، وإن كان أحد لا يدري مقصدك من نواحك فقد استعدت لى ذكرى محببة، حتى كأنما تهب على صبا كنسيب الصبا طيبا حين كان الشمل ملتثما بالمحبوبة، ونعيش فى سرور دائم وعهد وثيق.

ونسخص عبد الواحد بن فتوح المتغنى بالديكة والحمام بكلمة. وأكثر شعراء القيروان وتونس من وصف الخيل وخاصة الفرس، إذ كانت أمتها أمة حرب ونزال، ومن ذلك أن أبا الحسين الكاتب الذى مرت بنا مقطوعة له فى وصف أمواج البحر يصف فرسا أشقر له قائلا^(١):

لى فرسٌ قد حسنتُ حاله واستكملَ الإعجابَ إكماله
أشقرٌ كالتبر جلا لونه عن محضه بالسبك صقاله
كأنما البدر إذا ما بدا غرته والشمس سرباله
كأن فى حلقومه جُلجلا حرّكه للسمع تصاله

وهو فرس بلغ الغاية من الحسن حتى ليعجب به كل من يراه، فرس أشقر سُقرّة ناصعة، جلاه فيها صانعه أتمّ جلاء، وكأنما البدر غرته البيضاء المشرقة وكان الشمس رداؤه الذهبى الدرّى، وكان فى حلقومه جرسا ما يزال يرن بصهيله، ومع هذه الأبيات أبيات أخرى بديعة، ويعلق عليها جميعا ابن رشيقي بقوله: «هذا شعر جمع شذور الحسن واشتمل على فنون الملاحاة، حتى خلطت حقيقته بمجازة، وطوى إسهابه فى إيجازه، واشتبه حوكه بطرازه، ونهضت صدوره بأعجازه، وأما التجنيس والطباق، والمقابلة والاتفاق، فمن حلاه المشهورة، وصفاته المذكورة».

وكان الخليفة الفاطمى بالقاهرة: نزار رأى أن يرسل إلى المنصور بن بلكين الصنهاجى واليه

(١) الأتودج ص ٣٦١.

على الإقليم التونسي وإفريقية سنة ٣٨٤ هدية سنية ومعها فيل وطائفة من الخيل وجمار مخطط بديع الشكل، فكان يخرج بها جميعا في مواكبه، ومثله ابنه باديس، وحفيده المعز، ومنذ المنصور يتبارى الشعراء في وصفها نافذين إلى تصاویر لها رائعة، من ذلك قول التونسي على بن يونس المتوفى سنة ٤١٠ في قصيدة يمدح بها المنصور واصفا هدية نزار وما كان بها من الخيل والإبل والفيل^(١):

جُرْدٌ سَبَقَ البرقَ غيرَ حوافل	وجرّين أبعدَ شأوه والأقربا
يرْقُلَنَ في حُللِ العراقِ وحلّيه	زَهْواً فتحسبهنّ روضاً مُعسِبا
ونجائبٍ مثل السّفينِ ترى لها	تَحْتَ القِبابِ تَغَطُّمًا وتغضبا ^(٢)
يحملن من زِيّ الملوكِ هودجًا	مثل القصورِ مُفَضِّضًا ومذهبا
والفيلُ يَخْطُرُ بينها وكأنّه	وكأنّها طودٌ أنافِ على رَبِي
شَرِسٌ إذا أَحْفَظْتَهُ سهلٌ إذا	لاطَفْتَهُ صعبٌ إذا ما صُوعِبا

وهو يقول عن الخيل إنها جُرْدٌ قصيرة الشعر، وهي صفة من صفات الخيل الكريمة، ويقول إنها تسبق البرق غير حافلة به وتجري شوطيه الأبعد والأقرب، وإنها لتتبختر في سروج مزركشة ولجم محلاة بالجواهر، حتى لكأنك تنظر منها إلى روض زاهٍ بأزهاره. ويصف الإبل بأنها كالسفن ضخامة، وإنك لترى لها تحت الهودج هدير الغاضب وزبحرته، وإن هودجها الضخمة لتزدان بفاخر الرياش المفضض والمذهب، والفيل يَخْطُرُ متهاديا بين تلك الإبل والخيل وكأنه جبل أشرف على رَبِي وتلال، ويصفه بأنه شرس إذا أغضبت، سهل إذا لاطفته صعبٌ إذا ما أترته. وأهديت من السودان في الجنوب زرافة إلى المعز بن باديس، فصورها شاعره ابن رشيقي تصويرا بديعا في قصيدة مديح له جاء فيها^(٣):

واتتكَ من كَسْبِ الملوكِ زرافةٌ	سَتَى الصّفاتِ لونها أثناء ^(٤)
تحتّها بين الخوافي مَشِيّةٌ	بادٍ عليها الكبر والخيلاءُ
وتمدُّ جيّداً في الهواءِ يزينها	فكأنّه تحت اللواءِ لواءُ
حَطَّتْ مآخِرها وأشرفَ صدرها	حتى كأن وقوفها إقعاء ^(٥)

وهو يقول للمعز أتتك زرافة ذات صفات ستى في لونها انعطافات أو بقع كثيرة حمراء

(١) الأنموذج ص ٣٠٠.

(٤) أثناء: يريد أنها ثنائية اللون.

(٥) الإقعاء: جلوس الرجل على مؤخرته ونصب

(٢) تغطمطا:

(٣) المحمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٦. ساقيه وفخذه.

وصفراء ودكناء ويميزها بين الخوافق أى الخيل المسرعة مشية خاصة يبدو عليها فيها الكبر والخيلاء والعجب الشديد، كما يميزها جيد طويل جدا ترفعه إلى أعلى، وكأنه لواءان ممتدان. وترى لطول يديها وقصر رجليها وإقبالها عليك بصدرها كأن وقوفها ضرب من الإقعاء أو الجلوس على المآخر مع نصب اليدين وهو تصوير بديع، ومثله تصويره لفحل الإوز، إذ يقول^(١):

نظرتُ إلى فحل الإوزِ فخلَّتهُ من الثُّقلِ فى وَحْلِ وما هوَ فى وَحْلِ
ينقلُ رجليه على حين فَترةٍ كمتعل لا يحسن المشى فى النَّعلِ
له عنقٌ كالأصُولجانِ ومَحطِمٌ حكى طرفَ العُرجونِ من يانع النَّخلِ^(٢)
يداخله زهوٌ فيلحظُ من عِلِّ جوانبهُ الحَاظُ متهمِ العقلِ

وهو يجسد ذكر الإوز في مشيته المتناقلة كأنه يخطو في وحل، فينقل رجليه، أو كأنه لا يس نعلا لا يحسن المشى فيه. وبعد أن جسّد مشيته هذا التجسيد الرائع، أخذ يصور خلقته فله عنق طويلة طول عصا الملوك المسماة بالصولجان، وله محطم أو منقار معقوف كعرجون النخل الذى يحمل شماريخه وقره، ثم صور شموخه في وقفته فقال: كأننا يداخله زهو فينظر من أعلى إلى جوانبه نظر المشدود الذى يظن أنه متهم العقل لطول نظره وإمعانه فيه. وحرى بنا أن نلم ببعض شعراء الطبيعة ممن ذكرنا أننا سنخص كلا منهم بكلمة مع ترتيبهم ترتيبا تاريخيا وهم عبدالواحد بن فتوح وصّاف الديكة والحمام وابن أبي حديدة وصّاف السحب والنجوم وأبو على بن إبراهيم وصّاف البساتين.

عبد الواحد^(٣) بن فتوح الزّواق

نشأته ومرباه بتونس وبها تأدب، ثم استوطن القيروان، وانتظم في سلك كتاب الدواوين، وفيه يقول ابن رشيقي: «شاعر مفلق قوى أساس الشعر وأركانه وثيق دعائمه وبنيناه، كأنه أعرابى بدوى يركب ظهر الشعر ويخوض بحر الفكر، يتكلف بعض التكلف، وفي قصائده طول، ويُعدّ من خيار طبقته» توفى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٦م. ومن شعره في وصف الديك:

وهبٌ للأطيار ذو خبيرةٍ منه بما يعرفُ من خبرها
فنصَّ جيّداً ورقي منبراً دار الذى عودٌ من خدرها^(٤)

(١) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٧.
(٢) الصولجان: عصا الملك الرامزة لسلطانه:
محطم: منقار العرجون ما يحمل التمر. العنق:
(٣) انظر في عبدالواحد بن فتوح الأثوذج
(٤) نصّ: رفع. ص ٢٢٦ والمجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٣٥.

واستفتح الصوتَ بتصفيقه اسد
فبَلَّلَ البَلْبَلُ في غُصْنِهِ
كأنما تُوجُّ يا قوتةً
كأنما يَحْطِرُ في حُلَّةٍ

تفتاحَ ذاتِ الطَّارِ في بَشْرِها^(١)
وأرَّقَ الوَرَقَاءَ في وَكْرِها^(٢)
واتخذَ الشَّنْفِينِ من شَطْرِها^(٣)
من عَدَنِيَّ الوَشَى لم يَشْرِها

وهو يقول إن الديك هبَّ للطير يريد أن ينافسه بما يعرف من خبره وتجربته فنصَّ جيده ورفعه ورقى منبرا في دار صاحبه وماعود من مسكنها، واستفتح الصوت بتصفيق جناحيه وتحريكهما كما تستفتح صاحبة الطار الضرب عليه تقدمه لما توقع عليه من أشعار. وما إن رفع الديك صوته وصياحه حتى اضطرب البلبل في غصنه وألمت به الوسوس، وحتى أرق الحمامة في وكرها، لحسن ما يسمعان من صياحه، ويحئل لمن يراه كأنما تُوجُّ يا قوتة ناصعة الأحرار. وسقط منها لأذنيه قرطين بديعين، وإنه ليخطر ويتبختر في حلة مزركشة كأنها صنعت من وشى عدن، غير أنه لم يشرها، إذ هي منحة إلهية مُنحها في خلقه. ويقول في وصف حمام:

يجتابُ أُرْدِيَةَ السَّحَابِ بخافقٍ
لو سابقَ الرِّيحَ الجَنُوبَ لغايةٍ
يَسْتَقْرِبُ الأَرْضَ البَسيطَةَ مذهباً
ويظَلُّ يَسْتَرْقِي السَّمَاءَ بخافقٍ
يبدو فيعجب من يراه لحسنه
مترقِّقٌ من حيث دُرَّتْ كأنما

كالبرقِ أومضُ في السحابِ فأبرقا
يوماً لجماءك مثلها أو أسبقا
والأفقُ والسَّقْفُ الرَفيعةُ مُرتقى
في الجوّ تحسبهُ الشهبابُ المُحرقا
وتكاد آيةُ عتقه أن تنطقا
لبس الزجاجة أو تجلبب زنبقا

وهو يقول إن الحمام لا يزال يقطع بخافقه أو جناحه أردية السحاب رداء وراء رداء، وكأنه برق يومض ويبرق ويلمع للناظرين، ولو سابق الريح لغاية أو مقصد ما تأخر عنها بل ربما سبقها، وهو يعيش في الأرض ويتخذها مسكناً ومأوى ومع ذلك يرتقى ويصعد إلى الآفاق والسقف العليا، ويظل مصعداً بجناحه في السماء حتى ليظن أنه شهاب فيها سيسقط على الأرض، ويقترّب ممن يراه فيعجب بحسنه وتكاد آية عتقه أن تنطق بجمال منظره، ويقول إنه مترقّق متلألئ أنها درت ببصرك حوله ظننت كأنما تدور حول زجاج دُرّي أو حول زئبق رجراج بهي. ويعلق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله: «لا أعرف أحداً وصف الحمام بمنل هذه الصفة».

(٣) الشنفين: القرطين.

(١) تصفيقه: تحريك جناحيه.

(٢) بلبل حير.

هو أبو العباس أحمد بن القاسم اللخمي، أحد الكتاب الناهيين في الدولة الصنهاجية وظل يعمل فيها بديوان الرسائل بجانب ابن رشيقي وابن شرف إلى أن توفي حوالي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ويبدو أن منشأه ومرباه في القيروان، ويقول فيه ابن رشيقي: «شاعر فكه الشعر رائق التشبيه مولع به قليل التكلف قوى المنهج والظرف، ممن رفض الم والهجاء، وكان يخبّر التصنيع خيرة جيدة ولا يركبه إلا في الأماكن التي تصلح له كما شرط حذاق المتقدمين، وله بديهة مرضية. وله في وصف سحاب:

يَارُبُّ مُتَأَفِّةٍ تَنوُّ بِثِقْلِهَا	تَسْقِي الْبِلَادَ بَوَابِلِ غَيْدَاقٍ ^(٢)
مَرَّتْ فَوَيْقَ الْأَرْضِ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا	وَالرَّيْحُ تَحْمِلُهَا عَلَى الْأَعْنَاقِ
وَدَنَتْ فَكَادَ التُّرْبُ يَنْهَضُ نَحْوَهَا	كُنْهَوْضٍ مَشْتَاقٍ إِلَى مَشْتَاقٍ
فَكَأَنَّمَا جَاءَتْ تَقْبَلُ تَرِبَهَا	أَوْ حَاوَلَتْ مِنْهُ لَنَيْدَ عِنَاقِ

وهو يقول: رب سحابة مألانة مطرا تنوء بثقلها منه تسقى البلاد منه بوابل غزير، ويتخيلها كأنها امرأة جميلة تمر على الأرض تسحب ذيلها من المطر المتدفق والريح يحملها على الأعناق إجلالا لها، ويقول إنها دنت من الأرض فنهض الترب لها نهوض مشتاق إلى مشتاق، وكأنا جاءت محمولة على الريح لتقبل تربها، بل لكأنما تحاول منه عناق محب لمحبوبة غابت عنه طويلا. وله في النجوم:

وَلَقَدْ حَمَى عَنْ مَقْلَتِي كَرَاهِمَا	وُرُقَّ لَهْنٌ عَلَى الْأَرَكَ حَنِينٌ
فِي لَيْلَةٍ لَيْسَ الْحَدَادُ هَوَاؤُهَا	فَكَأَنَّمَا هُوَ رَاهِبٌ مَحْزُونٌ
قَدْ رَصَعَتْ زُهْرُ النُّجُومِ سَمَاءَهَا	فَكَأَنَّمَا هِيَ لَوْلُؤُ مَوْضُونٌ ^(٣)
وَكَأَنَّهَا خَلَّلَ الظَّلَامُ رَوَانِيَا	أَحْدَاقُ رُومٍ مَا لَهْنٌ جَفُونٌ ^(٤)
وَكَأَنَّمَا الْفَلَكَ الْمُدَارُ عَلَى الدُّجَى	بِحَرٍّ أَحَاطَ بِهَا وَهْنٌ سَفِينٌ

وهو يقول إن حنين حمامات على الأراك ملتاعة نحي النوم عن عينيه في ليلة ليس الهواء فيها ثياب الحداد في دجاها فكأنما هو راهب محزون أشد الحزن، وقد رصعت النجوم المضئنة

(١) انظر في ابن أبي حديدة الأتمودج ص ٧١ (٣) موزون: متراكم.

والمجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤١. (٤) رواتيا: ناظرات.

(٢) متأفة: ممتلئة. غيداق: كثير.

المشركة السماء وكأنما هي لآلئ تتداخل في نسيجها المحكم، ولكأنها وهي تنو خلال الظلام أحداق روم ليس هن جفون فهي ما تنى رانية مديمة نظرها، ولكأنما الفلك المستدير على الدجى بحر أحاط بتلك النجوم وهن سفن الله. كأن لا فارق كوني بين البر والبحر والسماء عند ابن أبي حديدة وغيره من الشعراء التونسيين، فهم يتغنون بسفن البر من الإبل، ويتغنى ابن أبي حديدة بسفن السماء من النجوم.

أبو علي بن إبراهيم^(١)

لم يزد صاحب الحلل السندسية في التعريف به عن قوله إنه كان كاتباً، وأكبر الظن أنه توزري الأصل، والتحق بدواوين الدولة الحفصية في القرن السابع الهجري. وتوزر هي عاصمة واحات الجنوب التونسي، وكان لها نهر ينقسم إلى ثلاثة أنهار كبار، وكل نهر من الثلاثة ينقسم إلى ستة جداول، وأتاح لها ذلك أن يكثر بها النخيل والبساتين، ولأبي علي بن إبراهيم وصف رائع لها ولتخيلها وبساتينها وجداول مياهها ضمنة قصيدة له رائعة، ومن قوله في نخيلها:

النَّخْلُ مِثْلُ عِرَائِسٍ مَجْلُودَةٍ فِي سُنْدُوسِيَّاتِ اللَّبَاسِ تَبَخَّرُ^(٢)
 وكأنما نُظِمَ الحَلِيُّ لِنَحْرِهَا مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ يَتَخَيَّرُ
 وترى الزَّبَرْجَدَ عَسْجَدًا وَيَوَاقِتًا ذَا أَحْمَرٍ قَانٍ وَهَذَا أَصْفَرُ^(٣)
 أَحْلَى مِنَ العَسَلِ المَصْفَى طَعْمُهُ وَمَذَاقُهُ لَا يَدَّعِيهِ السُّكَّرُ

وهو يقول كأن حدائق النخل بتوزر فرح كبير يضم ما لا يكاد يحصى من عرائس تجلج في ثياب سندسية اللون تتبختر فيها، وقد استدارت حول نحورها عقود متخيرة من اللؤلؤ المضيء في أول نشأة البلح وإنما لتستحيل إلى زبرجد أخضر، ويستحيل الزبرجد إما عسجدا ذهبيا وإما ياقوتا قانيا، ومنه الرطب وغير الرطب، وإن طعمه لأحلى من العسل، مع مذاق بديع لا يستطيع السكر أن يدعيه لنفسه لجماله وحسنه. ويصف بساتين توزر وأشجارها وأزهارها، فيقول:

الدَّوْحُ قَدْ لَبَسَتْ غَلَاتِلَ سُنْدُسٍ تَخْتَالُ فِي أَيْدِي النَّسِيمِ وَتَخْطِرُ^(٤)
 حَلَّتْ هَوَادِيهَا عَقُودُ أَزَاهِرٍ فَتَبَرَّجَتْ عَجْبًا لِمَنْ يَتَبَصَّرُ^(٥)
 والطيرُ قَدْ رَقِيَتْ مَنَابِرَ قُضْبِهَا خَطْبَاؤُهَا تَشْدُو بِلَحْنٍ يَسْحَرُ

(١) انظر في أبي علي بن إبراهيم وقصيدته الحلل السندسية ٤٣٥/٢.

(٢) سندسيات: نسبة إلى السندس وهو الدياتج.

(٣) العسجد: الذهب.

(٤) غلائل: جمع غلالة: ثوب رقيق. تخطر: تتبختر.

(٥) هودايا: مقدماتها.

وَالْقَضْبُ يَنْبِيهَا النَّسِيمُ فَتَنْشِي
كَعَقَائِلٍ تَبْغِي السَّرَارَ فَتَلْتَقِي
بَعْضُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا وَيُقَهْقِرُ
لِصْغَا الْحَدِيثِ وَتَارَةً تَتَأَخَّرُ^(١)

فالشجر الملتف قد لبس ثيابا رقيقة من السندس الأخضر، وهو يختال في أيدى النسيم ويتبختر، وقد حلتُ مقدماته عقود زهر منمقة تبرج فيها لناظره أيما تبرج، والطير قد سعدت إلى منابر غصونها، وخطباؤها تنغني بلحن ساحر يخلب الألباب، والغصون ينيها النسيم فتسنى وكأنما يقبل بعضها بعضا ثم يتقهقر أو كأنهن سيدات يردن المسارة ببعض الحديث فتلتقى مصفية إلى الحديث تارة، وتارة تتأخر، ويستمر أبو علي قائلا:

الْأَرْضُ عَاطِرَةٌ تُزْفُّ كَأَنَّمَا
وَتَأْرَجَتْ أَرْجَاؤُهَا فَكَأَنَّمَا
غَشَى نَوَاحِيهَا عَيْبِرٌ يُنْشَرُ
مِسْكَ يَضُوعٌ خِلَالِهَا أَوْ عَنِبرٌ^(٢)
وَكَأَنَّ رِيحَانَ الْحَيَاةِ وَرَوْحَهَا
مُسْتَنْشَقٌ مِنْ عَرْفِهَا وَمِعْطَرٌ^(٣)
وَكَأَنَّمَا كُسَيْتُ بَسَاطَ زَبْرَجِدٍ
نُشِرَتْ يَوَاقِيْتُ عَلَيْهِ وَجَوْهَرُ

فالأرض جميعها عاطرة وكأنما تُزفُّ في عُرس لها، وكل نواحيها ينتشر فيها عيبر ذكي، وكل أرجائها تفوح بصنوف من الطيب والمسك والعنبر، وكان أريج الحياة ونسيمها العطر مستنشق من شذاها العطر، وكأنما اكتست ببساط من الزبرجد تناثرت عليه جواهر ويواقيت من كل صنف، ويمضي أبو علي واصفا جداؤها بمثل قوله:

الماء تَشَعَّبَهُ إِلَيْكَ جَدَاوُلُ
صَافٍ عَلَى صِفَةِ الْمَهَا يَجْرِي عَلَى
قَدِ مَدَّهَا النُّهْرُ الزُّلَالُ الْأَكْبَرُ^(٤)
رَمْلُ النُّقَا عَذْبٌ قَرَّاحٌ كَوَثْرُ^(٥)
وَكَأَنَّمَا حَصْبَاؤُهُ فِي رَوْتِقِ الْ
سَاءِ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ جَوْهَرُ

والماء تشعبه وتوزعه جداول: ثمانية عشر كما أسلفنا، وقد أمدها النهر الكبير بمائه الزلال العذب البارد السلس، والماء في منتهى الصفاء، كأنه مهأ أو بلور ناصع، وهو يجري على رمل يشبه رمل النقا الذي يذكره العشاق النجديون، وهو عذب قراح أو خالص، بل هو كوتر كثر الفردوس وكأنما حصباؤه جواهر تناثر من عقود كثيرة. وأبو علي بدون ريب شاعر بارع براعة فائقة.

(١) عقائل: جمع عقيلة: السيدة الكريمة. السرار: المناجاة وكتمان الحديث. صغا الحديث: سماعه.
(٢) تأرجت: فاحت. يצוע: يفوح.
(٣) عرفها: شذاها.
(٤) تشعبه: تفرقه. الزلال: العذب الصافي.
(٥) المهأ: البلور. قراح: سائغ. كوتر: حلو والكوتر: من أنهار الفردوس.

شعراء الرثاء

(أ) رثاء الأفراد

للغرب - منذ الجاهلية - في رثاء الأفراد تراث ضخم، وهو يتخذ عندهم ثلاثة ألوان هي الندب والتأبين والعزاء، والندب هو البكاء على ذوى الرحم من الأهلين والأقارب من لبوا نداء ربهم وغادروا الفانية إلى الباقية، والتأبين هو بكاء الشخصيات الفذة الحربية أو السياسية أو العلمية أو الأدبية بذكر فضائلهم وخسارة المجتمع والأمة فيهم، والعزاء استرسال في الحديث عن الحياة والموت وبيان أن الحياة ظل متنقل سرعان ما ينحسر عن صاحبه، فالجميع إلى فناء وعدم، وكثيرا ما يختلط العزاء بالتأبين والندب. وكل هذه الألوان الثلاثة مبتوتة في مرثي القيروانيين والتونسيين، وتأخذ في الكثرة منذ عصر الأغالية، ويتوفى فيه سحنون إمام المذهب المالكي ويؤبنه تلميذه عبد الملك المهري بمثل قوله^(١):

وَلِي - لعمرى - بأرضِ الغَرْبِ قَاطِبَةً	مَيَّتْ لَهُ الْبَدُوُّ وَالْحَضْرَاءُ قَدْ خَسَعَا
لِلَّهِ أَنْتَ إِذَا مَا هَابَ فَاصِلَةٌ	مِنَ الْقَضَاءِ كَلِيلُ الْحَدِّ فَارْتَدَعَا
هَنَّاكَ بَرَزْتَ يَا سَحْنُونُ مَنْفَرِدًا	كَسَابِقِ الْخَيْلِ لَمَّا بَانَ فَانْقَطَعَا
فَاذْهَبْ فَقِيدًا حَيْسَاكَ اللَّهُ جَنَّتَهُ	وَاحْضُدْ مِنَ الْخَيْرِ مَا قَدْ كُنْتَ مُزْدَرَعَا

وهو يقول إن أهل البدو والحضر جميعا قد خسعوا حين سمعوا بوفاة فقيه الغرب قاطبة، ويقول ما أعظمك حين كنت قاضيا تقضى بالحق على كل متهم فيرتدع ويزدجر، وينوه بقضائه وأنه سبق فيه مجليا كل عالم في عصره، وما أعظم الخسارة في فقدته ويدعو الله أن يفسح له في فراديسه وأن يجزيه الجزاء الأوفى عما غرس وقدم بين يديه. ولما توفى ابنه محمد رثاه أحمد بن أبي سليمان داود الصواف بمرثية بلغت ثلاثمائة بيت، وفيها يقول^(٢):

أَلَا أَيُّهَا النَّاعِي الَّذِي جَلَبَ الْأَسَى	وَأُورَثْنَا الْأَحْزَانَ لَا كُنْتَ نَاعِيَا
نَعَيْتَ إِمَامَ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدًا	وَقَلَّتْ مَضَى مِنْ كَانَ لِلدِّينِ رَاعِيَا
وَمَنْ كَانَ حَبْرًا عَالِمًا ذَا فَضِيلَةٍ	نَقِيًّا رَضِيًّا طَاهِرَ الْقَلْبِ زَاكِيَا

والشاعر يبكي في محمد بن سحنون إمامته الدينية وفقهه وعلمه ونقاء صدره وطهارة قلبه

(٢) رياض النفوس ٢٥٧/١.

١ رياض النفوس للمالكي ٢٩٠/١.

وفضيلته أو فضائله. وتوفى يحيى بن عمر إمام المذهب المالكي في سوسة سنة ٢٨٧هـ/٩٠٠م ويرثيه سعدون الوريثي بمثل قوله^(١):

عَيْنُ أَلَمٍ بِهَا وَجَدْتُ فَلَمْ تَنْمِ تَبْكِي بِدَمْعٍ كَقَطْرِ الدَّرِّ مُنْسَجِمٍ
عَجِبْتُ أَنْ لَمْ أُمَّتْ حَزَنًا وَقَدْ دَفَنْتُ كَفَأَى فِي التُّرْبِ أَنْقَى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ
يَا مَوْتُ أَنْكَلْتَنَا بِحَيِّى وَكَانَ فَتَى فِي بُلْدَةِ الْعَرَبِ مِثْلَ الْبَدْرِ فِي الظُّلْمِ
مَنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ سَحْنُونٍ لَنَا خَلْفًا مَنْ كَانَ فِي الْحَقِّ مِثْلَ الصَّارِمِ الْخَذِيمِ^(٢)

وهو يقول إنه بات مسهدا محزوننا يبكي بدمع لا ينقطع، ويعجب أن لم يميت حزننا وقد دفنت كفاه في التراب يحيى بن عمر أنقى العرب والعجم، ويلتفت إلى الموت لانها، فقد أفقدهم يحيى وكان فقيها لا نظير له، وكان مثل البدر يحسر الظلمات عن الناس، إذ كان خلفا لأستاذه سحنون، وكان في إحقاق الحق وإبطال الباطل مثل السيف الحاد القاطع. وحظيت الأسرة الأغلبية الحاكمة حينذاك بشاعرة تسمى مهريّة الأغلبية، توفيت حوالى سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م وكان لها أخ ناسك يسمى أبا عقال هاجر إلى مكة ومات بها غربيا عن وطنه ودياره، وله مواعظ كثيرة أنشدها المالكي في الرياض وقالت أخته نادية له باكية^(٣):

لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي عَايَنْتَهُ بَعْدَ طَوْلِ الصَّوْمِ مَعَ نَفْيِ الْوَسَنِ
مَعَ نُزُوحِ النَّفْسِ عَنْ أوطَانِهَا وَالتَّخَلُّى عَنْ حَبِيبٍ وَسَكَنِ
يَا شَقِيقًا لَيْسَ فِي وَجْدِي بِهِ عِلَّةٌ تَمْنَعُنِي مِنْ أَنْ أُجَنَّ
وَكَمَا تَبَلَّى وَجْوهُ فِي الثَّرَى فَكَذَا يَبْلَى عَلَيْهِنَّ الْحَزَنُ

وهي تتجه بالسؤال إلى شقيقها ماذا رأى في بلاد الغربة بعد ما عانى من طول الصوم والسهاد ومع حرمانه من وطنه وتخليه عن سكنه وأحبابه، وتحزن عليه حزنا عميقا فلن تراه، وتظل مواجدها معلقة به حتى لتشعر أنها ستجن، وتعود إلى نفسها، فكما تبلى وجوه في الثرى يبلى الحزن وتبلى لوعته.

ولكراهية أهل السنة في القيروان للعبديين ومذهبهم الإسماعيلي انضموا إلى مخلد بن كيداد الثائر البربري الصفري على القائم بأمر الله العبدي في حصاره للمهدية سنة ٣٣٣ و قتل في هذا الحصار شيخ كبير ن شيوخ أهل السنة هو أبو الفضل المسمى، فرناه تلميذه أبو القاسم الفرزاري، بمثل قوله^(٤):

(١) رياض النفوس ٤٠٥/١.
(٢) الصارم الخديم: السيف القاطع.
(٣) رياض النفوس للمالكي ٤٣٦/١ والمجمل ص ٧١.
(٤) المجمل ص ٨٧.

(٣) رياض النفوس للمالكي ٤٣٦/١ والمجمل

بنفسى صريعُ جالتِ الخيلُ حوله بمُعْتَرِكِ الأبطالِ أئى صريعِ
ولستُ له أبكى ولكنْ لمعشِرِ أصيَّبوا به من فُرْدٍ وجميعِ
والعلمِ والإسلامِ والدِّينِ والتقى وطولِ احتمالِ واضطّاعِ صَنِيعِ
مضى عَلمُ العِلْمِ الرفيعِ وظالما أصابتُ قنأةُ الموتِ كلُّ رفيعِ

وهو يتمنى لو استطاع أن يفدى هذا الشيخ الصريع بروحه، ويتصوره والخيل تجول حوله في معركة الأبطال، ويقول إنه لا يبكى له ولكن يبكى لخسارة معشر فجعوا فيه، كما يبكيه للعلم والإسلام والدين والتقى وطول ما أدّى واحتمل في سبيل طلابه وأهل القيروان، وإن كان قد فُقد علم العلم الرفيع فظالما أصابت رماح الموت العلماء من أمثاله. ويؤيّن ابن الخواص الكفيف أبو القاسم عبد الرحمن بن يحيى إمام المالكية ورياستها بالمغرب في زمنه أبا محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٧م وفي تأييده يقول^(١):

كادتُ تميدُ الأرضُ خاشعةَ الرُّبى وتمورُ أفلاكُ النجومِ الطُّلَعِ^(٢)
عجباً أيْدري الحاملونَ لنعْشِهِ كيف استطاعوا حملَ بَحْرِ مُتْرَعِ^(٣)
عِلْماً وحلماً كاملاً وبراعةً وتقى وحسنَ سكينَةٍ وتورَعِ
وسَعَتْ فِجاجُ الأرضِ سَعياً حوله من راغِبٍ فى سَعِيهِ متسرّعِ
يبكونه ولكلِّ باكٍ منهم ذلُّ الأسيرِ وحُرْقَةُ المتوجّعِ

فالأرض تكاد تضطرب وتموج خاشعة الرُّبى لهول موته، وبالمثل أفلاك النجوم الساطعة، ويعجب الشاعر متسائلاً أيعرف الحاملون لنعشه أنهم استطاعوا حمل بحر ممتلئ علماً وحلماً وبراعةً وتقى وحسن سكينه وجمال تورع، وقد اكتظت فجاج الأرض وطرقها الواسعة بالمسيحين الذين جاءوه محزونين عليه بيبكونه خاشعين متوجعين ملتاعين. ويحكي غير واحد عن أبي طالب الدلائى الشاعر فى الدولة الصنهاجية أنه فقد من أحبته نيفا وأربعين غريقاً فى البحر - ربما كانوا ذاهبين إلى صقلية - فصار شعره رناء كله تفجعاً عليهم ووفاء لهم^(٤)، من ذلك قوله فى أحدهم:

نأى يسُرورى وضُبرى معاً وأبقي فوادى عليه صديعا

(١) الأنموذج ص ١٥٣.

(٢) تمور: تموج.

(٣) مترع: ممتلئ.

(٤) انظر فى هذا الخبر وأبيات الدلائى الأنموذج

ص ١١٨.

ومات فماتَ سُرورى بهِ وَصُنْتُ حياقى فمنا جميعا
أصابته عينٌ من الحادثات أصاب العمى ناظرَها سريعا

وهو يقول إنه حين فارقه أخذ سروره وصبره على بعده معه، وكأنما ترك جرحا بفؤاده، ولم يلبث أن مات غريقا فمات سرور الشاعر، وكان قد صان حياته من الرحيل معه، وشعر كأنه مات معه. ويقول كأن عيننا من الحادثات أصابته، ويدعو عليها بالعمى جزاء وفاقا لها، ويقول ابن رشيقي تعليقا على الأبيات: «هذا هو التفجع والتوجع الذى يقطع القلوب حشرات، ويذهب العيون عبرات». وينشد من مراثيه بيتين، هما:

أودعته بطنَ الثرى وتركته في رَمْسِهِ والموت ما لا يُنكرُ
قدمته ولو أنى أنصفتُهُ ماكنتُ عنه ساعةً أتأخرُ

فهو قد أودعه في رمسه أو قبره ببطن الأرض. والموت حق لا أحد ينكره، ويقول كأنه قدمه إلى الموت ولو أنه أنصفه لرافقه ولم يتأخر عنه ساعة. ويقول ابن رشيقي: «هذه أنفاس مشتعلة عن نفس مشتعلة قد دلت على مآنى الصدر دلالة الشواظ على الجمر». ويموت لابن عبدون الذى مرت ترجمته بين شعراء الغربة ابن وكانت قد ماتت قبله زوجته ويكيها بمنى قوله^(١):

قبرٌ بسوسةً قد قَبُرْتُ بهِ النُّهى أدرجتُ قلبى في مَدَارِحِ لحده
صَمْتُ علىَّ مسامعى في رَجَّةٍ وَصَعِفْتُ من صَعِقِ الصُّراخِ وَرَعْدِهِ
وجهدتُ أن أبكى فلم أجِدِ البُكا فسكَّتْ سَكَنَةً صارمٍ في غمده
هَبْنى بكيت له وما يُجِدَى البُكا ماءً بخدَى والترابُ بخدِّه
هيهاتَ قد مَنَعَ الهدو لناظرى قبرانِ ذا ولدٌ وذاك لودِّه^(٢)

وهو يقول إنه دفن النُّهى والعقل السديد في قبر بسوسة، وكأنما أدخل قلبه في ثنايا لحده، ويقول كأنما سُدتْ أذناه حين سمع رجَّة موت زوجته وابنه، بل لكأنما أصابته صاعقة من صعق الصراخ ورعده، وكأنما غُشى عليه فلم يستطع بكاء، وأخلد إلى الصمت إخلاد سيف في غمده، وماذا يجدى سَل سيف في الموت؟ وماذا يجدى البكا وعلى خده دموعه والتراب بخد ابنه، ويقول لقد منع النوم لعيني قبران: قبر ابنى الحبيب، وقبر زوجتى المحبوبة. وقال على الحصرى الذى

(٢) الهدو بتشديد الواو: النوم.

(١) انظر الأتمودج ص ٣٩٤

مرت ترجمته بين شعراء الغزل يبكي أباه حين ودّع قبره عند رحيله إلى الأندلس^(١):

أبى! نَيْرُ الأيامِ بعدك أَظْلَمًا وَبُنْيَانُ مَجْدِي يَوْمَ مِتَّ تَهْدَمًا
وَجِسْمِي الَّذِي أَبْلَاهُ فَقَدْتُكَ إِنَّ أَكْنَ رَحَلْتُ بِهِ فَالْقَلْبُ عِنْدَكَ خَيْبًا
وَقَى اللهُ عَيْتِي مَنْ تَعَمَّدَ وَقْفَةً بِقَبْرِكَ فَاسْتَسْقَى لَهُ وَتَرَحَّمَا
وَقَالَ سَلَامًا، وَالنُّوَابِ جِزَاءَ مَنْ أَلَمَّ عَلَى قَبْرِ الْغَرِيبِ فَسَلَّمَا

وهو يخاطب أباه محزونًا قائلاً إن الأيام النيرة بعد فقدته أظلمت وتهدم بنيان مجده وعزه يوم موته، وإن كنت راحلاً عنك بجسمي الذي أضناه فقدك فإن قلبي عندك مخيم مقيم، ويدعولن يقف على قبره مستسقيًا مترحمًا مسلماً راجياً أن يجزيه الله خير الجزاء. ويقول ابن بسام منشداً الأبيات السالفة إن الحصري لم يكتبها في وداعه لقبر أبيه، فقد طأطأ رأسه ومدّ يده إلى التراب حول القبر، قائلاً:

رَحَلْتُ وَهَهْنَا مَثْوَى الْحَبِيبِ فَمَنْ يَبْكِيكَ يَا قَبْرَ الْغَرِيبِ
سَأَحْمِلُ مِنْ تُرَابِكَ فِي رِحَالِي لَكِي أَغْنَى بِهِ عَنْ كُلِّ طِيبِ

والبيتان مؤثران - كالأبيات السابقة - تأثيراً عميقاً لكل من فقد أباه واضطر إلى فراق قبره بعد موته. وكان على الحصري في الذروة من شعراء القيروان المبدعين. ومات له ابن فجع عليه جزعاً شديداً، ونظم فيه ديواناً على حروف المعجم سماه «اقتراح القريح واجتراح الجريح» ومن قوله فيه وقد بلغ به الحزن أقصى غايته^(٢):

ذَوَى رِيحَانِي الْأَرْجُ وَضَاقَ بِخِلِّي الْفَرْجُ^(٣)
ذَبِيحُ طُلٍّ مِنْهُ دَمٌ وَلَمْ يُقَطِّعْ لَهُ وَدَجٌ^(٤)
عَرُوقُ النَّاسِ كُلُّهُمْ إِلَى عِرْقِ الثَّرَى تَشِجٌ^(٥)
بَنُو الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ لِقَلَّةِ هَهُمِ هَهُجٌ
وَهَلْ هِيَ غَيْرُ دَارِ أَدَى إِذَا دَخَلُوا بِهَا خَرَجُوا
تَأْمَلُ كَيْفَ تَأْكُلُهُمْ وَهَمٌ وَلَدُّهَا نُتَجُوا

(٤) الودج: عرق في العنق إذا قطع الذابح انتهت الحياة

(٥) تشج: تلتف وتعود.

(١) انظر في رثاء على الحصري لأبيه. الذخيرة

لاين بسام ٢٧٠/٤

(٢) انظر في الأبيات التالية للذخيرة ٢٧٤/٤

(٣) الأرج: العطر.

يقول إن ريحانه العطر ذوى فجأة، وضاق بابنه الفرج من سقمه ومرضه، ولا يلبث أن يصرخ، فهو لم يمت حتف أنفه، بل مات ذبيحاً وظلّ دمه وأهدر دون أن يُقَطَّع منه عرق العتق الذى لا يبقّى مع قطعه حياة، ويعود الحصرى إلى نفسه، فالتاس جميعاً ميتون وكلهم راجعون إلى عرق الثرى الذى يتشابك مع عروقهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى خلق آدم إذ قال: ﴿إِن مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. ويعجب لأبناء الدنيا وقلة همهم كأنهم همج لا يعون حياتهم، ويقول إنها دار أذى وإنهم لا يلبثون حين يدخلون بها أن يخرجوا منها بل تأمل كيف نأكلهم مع أنهم أبناؤها وكأنها هرة تلد أبناءها وتضمهم. ونغضى إلى العاص الحسى ويوى سيخ محمد زيتونة العالم الجليل سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م ويرثيه الشاعر محمد الحضراوى بمثل قوله^(١):

قلب يذوبٌ ومهجة تتقطعُ وأسى يزيدٌ ومقلّةٌ لا تهججُ
ولهيبٌ نيرانٍ تضرّمٌ وقدها يصلّى بجمرتها الحشا والأضلعُ
وتلهفٌ وبُكاٌ وفرطٌ كآبةٍ ومدامعٌ مسفوحةٌ لا تقلعُ
فعلبه فلتبك الأنامُ جميعهم وعليه فليتوجع المتوجعُ

وقلب الشاعر يذوب حزناً لموت العالم الكبير ومهجته تتقطع حسرات ويزداد أسى وحزناً وبييت مسهداً، وكأنما اضطرّم لهيب نار فى دخائله احترق حشاه وأضلعه بجمرته الموقدة، ويزيد به التلهف والبكا والكآبة ولا تقلع الدموع بل تنهمر انهماراً لما نعى الناعى إمام العلماء وشيخ الأنام ومفزعهم فى الفتوى ومسائل الدين، وعليه فليبك الناس جميعاً ويتوجعوا لفقده ويتفجعوا مراراً وتكراراً.

ويرثى محمد الورغى فى العصر الحسينى الأمير محمد الرشيد، ويجمع فى مرثيته بين التعزية فيه وتهنئة أخيه على خلفه بمثل قوله^(٢):

من أين أدركه الجمامُ ودونه حزمُ السلاح وحومةُ الحُرّاسِ
أتعافل البوابُ أم سبقت له قبل الهجوم يدٌ مع العُساسِ
جهدَ الزمانُ ولو درى بمقامه ما ساقه قسراً إلى الأرماسِ^(٣)
كادتُ عراً الإسلامُ تنقضُ بعده لولا مقيم الدين بالقسطاسِ
ما أخلق الملك العلى عمادهُ بعلىّ الشهمِ النزيه الباسِ

(٣) الأرماس: جمع رمس: القبر.

(١) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص ٥٧

(٢) الأدب التونسى فى العهد الحسينى ص ١٧٠

وهو يعجب من أن الموت أدرك محمداً الرشيد وسلاحه وحرسه من حوله لحمايته، ويتساءل هل تغافل الحمام أو الموت البواب أو سبقت له يد عند الحراس، ويقول إن الزمان لودرى بمقامه ما ساقه قهراً إلى القبور، وإن عراً الإسلام الوثقى لتكاد تنقض بعده لولا قيض لها مقيم الدين بالعدل والقسطاس، على أخوه، وما أجدر الملك الرفيع عماده به لخلقه الكريم.

(ب) رثاء المدن والدول

هذا الضرب من الرثاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية على نحو ما هو معروف عن الأسود بن يعفر ورثائه لدولة المناذرة في الحيرة ولما قضى العباسيون على الدولة الأموية بكاهها أبو العباس الأعمى المكي. وحين حاصر طاهر بن الحسين قائد المأمون بغداد في حرب الأمين ورماها بالمجانيق وكثر فيها الحرق والهدم بكاهها غير شاعر عباسي بكاء مرأً وتقدم مع الزمن إلى سنة ٢٥٧ وهاجم البصرة الزنج وبمحرقون مسجدها الجامع وبمحولونها أنقاضاً، وبكاهها الشعراء وفي مقدمتهم ابن الرومي الذي تفجع لها وتوجع مستصرخاً لها الخليفة وجيوشه والأمة، ولبأه الموفق أخو الخليفة، وظل يندل الزنج نزلاً عنيفا حتى قضى نهائياً على ثورتهم سنة ٢٧٠م. ويدور الزمن دورات، وإذا أعراب بني سليم وهلال يزحفون إلى القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م وينازلهم صاحبها المعز بن باديس الصنهاجي، ويلحقون به هزيمة شديدة، ويضطر إلى ترك القيروان لهم وينحاز إلى المهديّة عند ابنه حاكمها تميم، ويدخلون القيروان فيحولونها أنقاضاً، ويقضون على حضارتها، ويفرّ منها كثير من علمائها ونابهى شعرائها، ومن غادرها ابن رشيق، ونراه يصف تلك النكبة في قصيدة طويلة، ومن قوله الحزين فيها^(١):

المُسلمون مفسّمون تنألهم	أيدي العُصاة بذلّة وهوان
يَستصرخون فلا يُغاتُ صرِيخهم	حتى إذا سَيموا من الإِرنان ^(٢)
خرجوا حُفأةً عائِذينَ برَبِّهم	من خَوفهم ومصائب المَلوان ^(٣)
هربوا بكلِّ وليدٍ وفَطيمةٍ	وبكلِّ أُرملَةٍ وكلِّ حَصان ^(٤)
فتفرّقوا أيدي سِبا وتشتّتوا	بعد اجتماعهم على الأوطان ^(٥)

وهو يقول إن المسلمين تقسموا فرقا بينما أيدي العصاة للرحمن تنالهم بغير قليل من الذل والهوان، وهاهم أهل القيروان يستصرخون فلا يغاث صرِيخهم حتى إذا بُحّت أصواتهم من

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ١٤٥
 (٢) الإرنان: الصباح والصراخ.
 (٣) الملوان: الليل والنهار
 (٤) حصان: سيدة عفيفة
 (٥) يقال: نفرقوا أيدي سباً إذا تشتتوا في أرجاء الأرض

الصراخ ولا مغيث ولا مستجيب خرجوا على وجوههم يَعدون حفاة عائذين برهبهم من القتل والأسر وما يأتي به الملوان أو الليل والنهار من مصائب ونكبات، ويقول إنهم فروا من الأعراب بكل مولودة ومقطومة وبكل أرملة وكل عفيفة رجاء أن يحموهن من السبي والهوان، وتفرقوا وتشتتوا في البلاد وتشتت معهم العلماء والشعراء. وكان يعاصره ابن شرف، وله بدوره في القيروان حينئذ بكاء وتفجع مرير، وسنخسه بكلمة. ومن نديها وتذكر إخوانه بها وقد رحل عنها إلى الأندلس على الحصري، وفيها يقول^(١):

ألا سَقَى اللهُ أرضَ القيروان حَيًّا كَأَنَّهُ عَبْرَاقِ الْمَسْتَهْلَاتِ
فإنها لِدَةُ الْجَنَّاتِ تُرْبَتُهَا مِسْكِيَّةٌ وَحَصَاها جَوْهَرِيَّاتُ
إلا تكن في رُبَاها رَوْضَةٌ أَنْفٌ فإنما أوجهُ الأحبابِ رَوْضَاتُ^(٢)
لايَشْتَمَنَّ بها الأعداءُ أَنْ رُزِنَتْ إن الكسوفَ له في الشمسِ أوقاتُ^(٣)
هل مطمَعٌ أَنْ تُرَدَّ القيروانُ لنا وصبرةٌ والمعلَى فالحنيَّاتُ

وهو يدعو للقيروان بالسقيا الوافرة كدموعه الغزيرة التي لاتزال كلما ذكرها استهلته فإنها رفيقة الجنّات، تربتها مسك وحصاها جواهر لامعة، وإلا يكن في رباها الآن بعد أن خربها بنوسليم وهلال روضة جديدة بديعة فأوجه الأحباب بها روضات فاتنة، ويذكر ما أصاب القيروان من خراب فيقول: لا يشمت بها الأعداء لأن رُزنت ونُكبت فإن الشمس الساطعة يلم بها الكسوف أحيانا، فهو رزه إلى أجل، وتعود بعده القيروان إلى حضارتها وازدهارها المعهود. ويتمنى أن تعود سريعا إلى أهلها هي وصبرة وغيرها من المواضع والمدن. ومررنا أن عبدالمؤمن بن علي أمير الموحدين استولى على مدينة قابس من يد مدافع بن رشيد الهلالي بعد موقعة هُزم فيها مدافع وفر إلى أعراب طرابلس ثم لحق بعبد المؤمن في مدينة فاس فأكرمه وأسكنه بها، وكان ممن فرّ بعد الموقعة أبو ساكن عامر بن محمد من عشيرة مدافع وأبعد في فراره حتى دمشق وهناك بكى قابس وأيام حكم عشيرته لها. ومن قوله^(٤):

يا حارِ طَرْفِي غيرِ هاجِعٍ والدَّمْعُ من عينيَّ هَامِعٌ^(٥)
إني من السُّمِّ الأَلَى شادوا العُلا أبناءِ جامع
ولقد مَلَكْنَا قَابِسا بالمُشْرِفِيَّاتِ القواطِعِ

(٤) الخريدة ١٣٩/١ وما بعدها والحلل السنديسة

٣٥٧/٢ وما بعدها.

(٥) هامع: سائل

(١) الذخيرة ٢٧٧/٤

(٢) أنف: مزدهرة جديدة

(٣) رزنت: نزل بها رزه: مصيبة

تسعين عاما لم يكن فيها لنا أحدٌ منازعٌ
عبثت بنا أيدي الزمان وأحدثت فينا البدائع

وحارٍ مرثمةً أى ياحارث، وهو يشكو من أنه يبئ مسهدا ودموعه تهمى لاتتوقف لسقوط قابس في أيدي الموحدين وانتهاء حكم دولتهم من بني جامع الهلاليين، ويقول إنه من الشم العظام الذين شادوا العلا ورفعوها إلى السماء أبناء جامع الهلاليين الذين ملكوا مدينة قابس بسيفهم الحادة القاطعة تسعين عاما متصلة لم ينازعهم فيها أحد، وأخيرا عبثت بهم أيدي الزمان فأخرجتهم من قابس وتركوها إلى الأبد. ويبكى الدولة الحفصية في أواخر أيامها وحاضرتها تونس محمد بن عبد السلام وسنخسه بكلمة بعد ابن شرف.

ابن^(١) شرف القيرواني

هو أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي الأجدابي المولود بالقيروان حوالى سنة ٣٩٠ ويبدو من نسبه إلى قبيلة جذام أنه من أبنائها إما صلبية وإما ولاء، كما يبدو من تلقيه بالأجدابي أن أصل أسرته من أجدابية بليبيا ونزلت القيروان وعلى كل حال هو قيرواني المولد والمنشأ والمربي، ويذكر ياقوت في صدر ترجمته له أنه درس على أبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي. وكان القابسي شيخا جليلا من شيوخ القيروان في الفقه والتفسير والحديث، وتوفى سنة ٤٠٣ فلزم تلميذه أبا عمران الفاسي يأخذ عنه ما عنده كما لزم القزاز عالم النحو واللغة بالقيروان في زمنه وأيضا لزم أبا إسحق إبراهيم الحصرى المتوفى سنة ٤١٣ صاحب زهر الآداب، وكان حبيبا إلى نفوس شباب القيروان قريبا إلى قلوبهم، فكان يجتمع معهم عنده وينهل من معارفه الأدبية الكثيرة. وتفتحت ملكته الأدبية مبكرة، وألف في نقد الشعراء منذ الجاهلية مصنفا موجزا وصف كثيرين فيه وصفا مجملا سماه «رسائل الانتقاد» وهو أشبه بمقامة.

ويبدو أنه أخذ يحظى بمكانة مرموقة في الشعر مما جعله يتعرف على رئيس ديوان الإنشاء للمعز بن باديس الصنهاجي على بن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٥م وأعجب بدائحه فيه، فرأى أن يقدمه إلى المعز، ونال استحسانه، وأصبح من شعراء الدولة يتغنى بانتصاراتها على

(١) التونسي ص ١٥٠ وابن شرف القيرواني للدكتور طه الحاجري (طبع بيروت).

(١) انظر ترجمة ابن شرف في الذخيرة ١٦٩/٤ وما بعدها والخريدة ٢٢٤/٢ ومعجم الأدباء لبافوت ٩٤/٢ والأغودج ص ٣٤٦ والمجمل في تاريخ الأدب

قبائل زناتة ولواتة، ويغدو على المعز في المناسبات المختلفة بدائع مع قرينه ورفيقه ابن رشيقي. وكان المعز أديبا ويعقد ندوات يحضرها ويحضرها بعض العلماء والأدباء، وأصبحت شاعرية المقربين، وجراً ما ينظمه في مديحه إلى شيء من المنافسة بينها، وجرت المنافسة إلى شيء من الجفوة ثم الخصومة، وفزعا أحيانا إلى التهاجي وأخذ كل منها يتعقب سقطات صاحبه، ويكتب في ذلك رسائل وخاصة ابن رشيقي. وكثيرا ما كانا يعودان إلى التصافي والمودة - وبينما هم في ذلك إذا بالزحفه الهلالية تدمر القيروان فيتركها الشاعران مع المعز إلى المهديّة، وسرعان ما ينزلان صفلية، ويظل بها ابن رشيقي، أما ابن شرف فيرحل عنها مع أسرته إل الأندلس، ويبدو أنه لقي مع أطفاله الصغار عنقا في رحلته بحرا وبراً، وبصورهم في بعض شعره حماما ضل أوكاره وكلما أفزعهم شيء تزاهاوا على ضلوعه، وحضنه لا يسعهم - إذ كانوا تسعة، فهذا يثبت عليه وذاك يُزلق عنه، وهو حان مشفق عليهم. وينزل المرية في الأندلس برحاب المعتصم بن صمادح ويمتدحه وينال عطاياه ويرسل ببعض قصائده إلى المعتضد أمير إشبيلية، وظل ينتقل بين أمراء المدن الأندلسية ببلنسية ومرسية وبظليوس وطليلطة والوزير ابن السقاء بقرطبة وينال عطاياهم إلى أن توفي سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. ولم يكن ابن شرف شاعرا فحسب، بل كان أيضا صاحب شعور رقيق رقة مفرطة، كما كان صاحب حس مرهف إلى أبعد حد، ويتضح ذلك في وصفه لنكبة القيروان سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٨م حين نزل بها الأعراب الهلاليون، وأخذوا يفتكون برجها ويسبون نساءها ويهدمون دورها ويأتون على كل ما كان بها من مظاهر الحضارة والعمران، وله فيها وفيما نزل بها وداهما من الخراب قصائد رائعة، يقول في إحداها - وهي رائية - إنه لم يبق بها سراج مضىء سوى النجوم ولم يعد ينطق فيها خليط معاشر ولا عاد يُرى فيها أحد من نساها الجميلات فقد رحلن عنها وأصبحن يبتن على فرش الحصى يتغطين بأسمال بالية. ومن رائع تصويره لما حل بالقيروان من عدوان هؤلاء الأعراب الجفاة يوم غزوهما لها ويصور هذا اليوم الأسود قائلا:

بعد يومٍ كأنما حُشِرَ الخلد	سُقْ حُفَاةً به عَوَارِي رَجَلِي
ولهم زحمةٌ هنالك تَحْكِي	زَحْمَةَ الحَشْرِ والصَّحَائِفُ تُتَلِي
وعجيجٌ وضجةٌ كضجيج الـ	سَخْلِقِ يَبْكُونُ والسَّرَائِرُ تُبْلِي ^(١)
من أَيَامِي وراهن يتامى	مُلثُوا حَسْرَةً وَسَجَّوْا وَتُكَلَّا ^(٢)

(١) في القرآن في وصف يوم القيامة أنه ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وتختبر.

(٢) أَيَامِي: جمع أيم: العزب من الرجال والنساء. تكلأ: فقدا للولد

وَنَكَالِي أَرَامِلًا حَامِلَاتٍ طِفْلَةً تَحْمِلُ الرِّضَاعَ وَطِفْلًا^(١)

لقد كان يوماً عصيباً لا كمثلته يوم، يوماً حُشر فيه أهل القيروان حفاة عراة راجلين، يتدافعون في زحام رهيب كزحام الحشر يوم البعث حين تُتلى الصحف، وصباح وضجيج وبكاء من كل جانب كأنه يوم الحشر حقاً يوم تُبلى وتبدو السرائر، ونساء أيامى غير متزوجات اكتظوا حسرة وحزناً ونكالي فاقدمات لأزواجهن أرامل مرضعات يحملن طفلات أو أطفالاً. ويستمر ابن شرف باكياً ما نزل بالقيروان قائلاً:

ناديات، عَفْرَاءُ تُسَعِدُ سَعْدِي	وسعادٌ تجيب بالنَّوْحِ جُمَلًا ^(٢)
ليس منهن من تودّع جارا	لا، ولا حُرْمَةً تَشِيْعُ أَهْلًا
فإذا القَفْرُ ضَمَّهُمْ فَوْقَ الدَّهْرِ	رُ لَهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ النَّبْلِ نَبْلًا ^(٣)
من ثعابين حاملين نيوبًا	عُصَلًا: ذَابِلًا وَنَبْلًا وَنَصَلًا ^(٤)
وشياطينَ رامحين يُلاقو	ن بِجُونِ الْفَلَا مَسَاكِينَ عَزْلًا ^(٥)

وهن ناديات، عفرء تساعد سعدى فى الندب والبكاء وسعاد تجيب جملا بالنواح والعيول، وليس منهن من تقف لتودع جارا ولا سيدة تودّع أهلا، وإذا الخلاء ضمهم صوب الدهر لهم نبلا غير ذلك النبل من ثعابين حاملين نيوبا صلبة: رماحا ونبالا ونصالا، وشياطين تطعن بالرماح فى سود الفلوات، مساكين عزلاً دون سلاح. ويبكى ابن شرف رجال القيروان الذين ولوا منها فرارا، قائلاً:

وإذا نَجَّتِ المَقَادِيرُ مِنْهُمْ	راحلا بالخلاص يحمل رَحْلًا ^(٦)
لَقِيَ الهَوْنَ وَالمَذْلَةَ أَنَّى	كان من سائر البلاد وَحَلًّا
وترى أَشْرَفَ البَرِيَّةِ نَفْسًا	ناكسًا رأسه يلاطفُ نَذْلًا
مَرْقُوا فى البلاد شرقا وغربًا	يَسْكُبُونَ الدَّمْعَ هَطْلًا وَوَبْلًا ^(٧)

والرجال إن نجت المقادير منهم راحلا ومعه رحله وما استصحبه فيه من الأوعية لقي الهوان والذل أنى كان وأين حل، وترى أشرف البرية وأعزها نفسا ناكسا رأسه يلاطف أحد هؤلاء

(١) نكالى جمع ناكلة: فاقدة الولد.

(٢) عفرء وسعدى وسعاد وجمل أساء نساء.

(٣) فوق: سُد.

(٤) عصلا معوجة يريد صلبة. ذابلا: رمحا دقيقا.

(٥) رامحين: يحملون الرماح، جون: سود من كثرة

الغيار.

(٦) الرحل: ما يحمل على الدابة للركوب أو من

متاع وأثاث.

(٧) مرقوا: تفرقوا. هطلا: متتابعة، وبلا: منهمة.

الأندال، ويا للحسرة لقد مُرِّقَ وفُرو أهل القيروان في البلاد شرقا وغربا، وإنهم ليسكبون الدموع متتابعة ومدارارا. ولا ريب في أن ابن شرف استطاع أن يثار لقومه وأهله من سكان القيروان من هؤلاء الأعراب الجفاة الغلاظ ثارا خالدا على مر الزمن بفضل شاعريته الفذة النادرة.

محمد^(١) بن عبد السلام

هو أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد السلام مولده ومنشؤه ومرباه بتونس في القرن العاشر الهجري اختلف في شبابه إلى حلقات العلماء بجامع الزيتونة، وكان ذكيا فحمل عنهم معارفهم وأخذوا ينوّهون به وخاصة في الأدب، ولمع اسمه بين أدباء تونس وشعرائها، ولما احتل الإسبان مدينة تونس وأخذت تصدر منهم المظالم التي سجّلها التاريخ غضب ابن عبد السلام لمدينته وقومه وصمّم على مغادرة البلاد واتجه إلى الشام واتخذ دمشق مقرا له، وأخذ يقرئ بها للطلاب العلوم المختلفة ونصوصا جيدة من الأدب إلى أن توفي سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م ودُفن بباب الفراديس، وله قصيدة طويلة أرسل بها من دمشق إلى أهله يتشوق فيها إلى وطنه، ويكي تونس ودولتها الحفصية، وهو يستهلها بيت أشواقه قائلا:

سلوا البارق النجدى عن سُحب أجفاني	وعما بقلبي من لواعج نيران
ولا تسألوا غير الصبا عن صابتي	وشدة أشواقى إليكم وأشجاني
وكم نحوكم حملتها من رسالة	مدونة في شرح حالى ووجدانى
وناشدتها بالله إلا تفضلت	بتبليغ أحبابي السلام وجيراني
تحية مشتاقى إلى ذلك الحمى	وسكّانه والنازحين بأظعان ^(٢)

وهو يطلب إلى أهل بلده تونس الحبيبة أن يسألوا البرق المقبل من نجد منوى الحب عما يذرف من دموع حنيننا إليهم وعما يضطرم في قلبه من نيران الشوق ولواعجه، ويقول لهم: لا تسألوا غير الصبا - التى طالما ذكرها النجديون المحبون - عن أشواقى وصابتي وأشجاني، وكم حملتها إليكم من رسالة مفعمة بمشاعرى الوجدانية، وقد ناشدتها الله واستحلفتها به أن تفضّل بتبليغ أحبابي وجيراني التونسيين سلامى وإنها لتحية مشتاقى إلى ذلك الحمى وسكّانه وإلى النازحين عنه فى الأظعان والهواج ويقول.

(١) انظر فى ترجمته وشعره المجلد فى تاريخ الأدب التونسى ص ٢٣٠.

(٢) أظعان جمع ظعينة: الراحلة يرحل عليها، والهودج.

سقى الله هاتيك الديار وأهلها
 وحيًا ربوع الحي من خير بلدة
 هي الحضرة العليا مدينة تونس
 لها الفخر والفضل المبين بما حوت
 سحائب تحكى صوب مدمعى القانى^(١)
 تخيرها قديمًا أفاضل يونان
 أنيسة إنسان رآها بإنسان^(٢)
 من الإنس والحسن المنوط بإحسان

وهو يدعو الله أن يسقى تلك الديار وسكانها بسحائب تحكى ما ينهل من مدمعه القانى، ويسأل الله أن يحيى تلك البلدة العظيمة التى تخيرها قديما فضلاء اليونان، إنها المدينة العليا تونس مؤنسة كل إنسان يراها بعينه، وإن لها الفخر والفضل البين بما حوت من رجال الإنس ومن الحسن البارع. ويسترسل باكيا الدولة الحفصية بها قائلا:

لقد حلّ منها آل حفص ملوكها
 وسادوا بها عظم الملوك وشيدوا
 وكان لهم فيها بهاء وبهجة
 وكان لهم فيها عساكر جمّة
 وكانت على الأعداء فى حومة الوغى
 مراتب تسمو فوق هامة كيوان^(٣)
 بها من مباني العز أفرخ بنيان
 وحسن نظام لا يعاب ينقصان
 تصول بأسياف وتسطو بمران^(٤)
 تصول بأبطال وتسطو بشجعان

وهو يبكى الدولة الحفصية مشيدا بملوكها الذين سمت مراتبهم فوق رأس كوكب كيوان أو زحل، وسادوا أكثر الملوك وشادوا بها من قصور العز أفرخ القصور وكان لهم فيها حسن وبهجة وجمال، وكانت لهم جيوش كثيرة تصول وتقهّر بسيوف ورماح صلبة، وكانت تسطو على الأعداء فى ساح لوغى والحرب بأبطال لا يمانلهم أبطال، ويبكى ما كان بتونس من علم وعلما وأدب وأدباء قائلا:

وكانت لطلاب المعارف قبلة
 وكان لأهل العلم فيها وجهة
 ومن أدباء النظم والنثر معشر
 وما برحت فيها محاسن جمّة
 لما فى جها من أئمة عرفان
 وجاءه وعز مجده ليس بالفقان
 يفوق بناديبها بلاغة سحبان
 وفى كل نوع أهل جذق وإتقان

وهو يبكى حركتها العلمية والأدبية، ويذكر كيف كان الطلاب يؤمون أئمتها من كل فج كما يذكر ما كان لعلمائها عند حكّامها وأهلها من جاه وعز مجده لا يفنى، ويشيد بأدبائها من

(٣) كيوان: زحل.

(١) صوب هنا: سيل.

(٤) المران: الرماح.

(٢) إنسان الثانية: إنسان العين وهو الحدقة.

الشعراء والكتاب وبلاغتهم التي تفوق بلاغة سحبان المشهور بحسن بيانه في أوائل العصر الأموي، وبنوّه بما كان بها من محاسن حضاريّة وصناعات بديعة قام عليها أهل حذق واقتنان وإتقان. ويأسى لهذا المصير المحزن الذي أصاب مدينة تونس قائلا:

فَشُتَّتْ ذَاكَ الْأَنْسُ مِنْ بَعْدِ جَمْعِهِ كَمَا انْتَشَرَتْ يَوْمًا قَلَانْدُ عَقِيَانِ
فَاعْظَمَ بَرُزِيَّ خَصَّ خَيْرَ مَدِينَةٍ وَخَيْرَ أَنْاسٍ بَيْنَ عَجْمٍ وَعُرْبَانِ
لِعَمْرَى لَقَدْ كَادَتْ عَلَيْهَا قَلْبُونَا تَضَرَّمُ مِنْ خَطْبٍ عَلَيْهَا بَنِيرَانِ
وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا هَكَذَا فَاصْطَبِرْ لَهُ رَزِيَّةً مَالٍ أَوْ تَفَرَّقْ خِلَانِ

وهو يقول إن كل هذا الأنس الذي كانت تحظى به مدينة تونس وكل هذا الجاه والمجد تفرّق وتشتت كما تشتت وتنتثر قلاند أو عقود ذهبية بديعة، وما أعظمه من رزء فادح نزل على خير مدينة وخير أناس بين الأعاجم والعرب، وإن قلوبنا لتضطرم عليها نيراناً ملتهبة. ويعود إلى نفسه فيقول إنه ليس أمامنا إلا الصبر حتى تنجلي عن مدينتنا تلك الغمرة. وهي حقيقة الدهر، فهو دائماً يرزأ المدن كما يرزأ الناس إما في مال وإما في فراق إخوان وخلان.

٤

شعراء الوعظ والتصوف

(أ) شعراء الوعظ

القرآن الكريم دائماً يعظ ويدعو الإنسان إلى التفكير المتصل في ملكوت السموات والأرض ليعلم أن له خالفاً أحكم صنعه، ودائماً ينبه إلى أعمال وأقوال من العبادات التي تطهر نفسه كما ينبه إلى أنه حرّم الفواحش ما كبر منها وما صغر وأنه ينبغي أن يسلك طريق الفضيلة والتحلّي بالخلق الحسن حتى ينال رضا ربه نابذاً كل الرذائل ومراقباً ربه في كل ما يأتي من قولٍ أو فعل. ويبدئ القرآن ويعيد في عقيدة المعاد وأن الناس سيبعثون جميعاً يوم القيامة وكلّ يحاسب على أعماله ويجزي عليها فإما إلى نعيم الله ورضوانه وإما إلى جحيمه وعذابه. وشرع الله الخطابة الواعظة في صلاة يوم الجمعة كل أسبوع وصلاة العيدين، وواعظ الأمة الأول الرسول ﷺ وتلاه الخلفاء الراشدون يعظون الناس، وبالمثل خطباء الأمة في مشارق العالم الإسلام ومغاربه، وتكاثر الوعاظ - مع مر الزمن - يعظون الناس في المساجد، وللإقليم التونسي مثل غيره من الأقاليم الإسلامية نشاط واسع في هذا الجانب، ويكتظ كتاب رياض النفوس للمالكي بأسماء وعاظ كثيرين كانوا يعيشون معيشه تقشف وزهد، رافضين متاع الدنيا

طالبين ما عند الله من ثواب الآخرة. وساعد على انتشار هذه الروح الدينية هناك كثرة المحارس أو الرباطات التي أقيمت على طول الساحل التونسي للعبادة والنسك وحراسة البلاد من القراصنة وأعداء الله الروم وغيرهم. ولم يكن هناك فقيه كبير إلا ويقوم بها بعض أشهر سنويا للدفاع عن الوطن حين يباغته عدو أو قرصنة، واشتهر سحنون إمام المذهب المالكي في المغرب جميعه بأنه كان يرباط وقتا في السنة بالمنستير قرب مدينة سوسة، وكان واعظا وزاهدا كبيرا وكثير من تلاميذه كانوا واعظا زهادا واشتهر منهم شاعران فقيهان واعظان، هما أبو العباس بن زرزور وأحمد الصواف، أما ابن زرزور فأكثر من الشعر في توحيد الله والرد على المارقين والملحدين، وأما أحمد الصواف فله شعر كثير في المواعظ وسنخسه بترجمة. ويلقانا بعده ابن الرايس الفضل بن نصر المتوفى سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م وهو من أفاض الشعراء والعلماء، وله يعظ من قصيدة^(١):

ماذا تريك حوادث الأزمانِ وصروفها وطوارقُ الحَدَثانِ^(٢)
والجارياتُ السَّبْعُ في الفلكِ الذي يجرى بتقدير العظيم الشانِ
من خَفْضِ أَعْلَامٍ وَرَفْعِ معاشِرِ وزوالِ سلطانِ إلى سلطانِ
أما الزمانُ فواعظُ لك صرفهُ لو كنت متعظاً بِصَرْفِ زمانِ

وهو يقول: ها هي حوادث الأزمان ونوائبها وحوادث الليل والنهار وما تجرى به الكواكب السيارة في الفلك بتقدير الله وما يتصل بذلك من الهبوط بأناس والارتفاع بأخرين وزوال سلطان إلى سلطان، كل ذلك هو الزمان، وحرى بك أن تتعظ بصرفه وبما يجرى به من محن وخطوب. ولا ريب في أن حلقات الوعظ الكثيرة التي كانت منبثة في القيروان وغيرها منذ القرن الثالث بل قبله هي التي أعدت لكثرة الوعظ على السنة الشعراء. ويقول عبد الله بن رشيح المتوفى سنة ٤١٩/١٠٢٩م^(٣):

خيرُ أعمالك الرُّضا بالمقادير والفضا
بينما المرءُ ناطقٌ قيلَ قد كان فأنقضى

وهو يدعو إلى الرضا بالقضاء فلن يستطيع أحد أن يبدل حكما له، وإذن لا بد أن يقبل كل ما ينزله به، فذلك هو عين العقل والصواب. ويخوف عبدالله بن رشيح من الموت إذ ما يلبث أن ينزل بالإنسان، فيقال: قد كان حيا وانقضى أجله وانتهى. ويقول على بن أبي الرجال رئيس

(١) المجلد في تاريخ الأدب التونسي ص ٨٨. والنهار.

(٢) صروف جمع صرف: نواب المحدثان: الليل (٣) الأنموذج ص ١٩٢.

ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية المتوفى سنة ٤٢٦ للهجرة^(١) :

أَمَّنُ الزَّمَانَ زَمَانَةَ الْعَقْلِ فَأَخَشَّ إِلَاهَهُ وَحُلَّ عَنِ الْجَهْلِ^(٢)
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ فِي الْحَسَابِ غَدًا تُجْزَى بِمَا قَدَّمْتَ مِنْ فِعْلٍ

وهو يقول إن من يأمن الزمان لا يُعدّ صحيح العقل، بل لكأنما عقله به آفة، وأى زمان إننا نحیی فيه حياة قصيرة أو طويلة ثم نلقى الله فحرى بكل شخص أن يخشاه وأن يتخلص مما على عقله من غشاوة الجهل فإنه معروض على ربه في الحساب غدا ويجزى بما قدمت يده من عمل طيب أو سيئ. ويقول على بن حبيب التنوخي المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٩م واعظا^(٣) :

لِلْمَرْءِ فِي أَيَّامِهِ وَاعْظُ لَوْ فَكَّرَ الْمَغْرُورُ فِي رَمْسِهِ^(٤)
كَمْ مِنْ قَرِيرِ الْعَيْنِ فِي غَبِطَةٍ أَعْرَاهُ صَرْفُ الدَّهْرِ مِنْ لُبْسِهِ
فَفَارِقَ الْأَحْبَابِ عَنْ كُرْهِهِ وَاسْتَبَدَلَ الْوَحْشَةَ مِنْ أَنْسِهِ
يَارِبُّ غُفْرَانَكَ يَرْجُو الَّذِي أَسْرَفَ فِي الدُّنْيَا عَلَى نَفْسِهِ

وهو يعظ المغرور بأنه لو فكر في رسمه أو قبره وأنه مدفون به غدا لطأطأ من غروره، وتذكركم من شخص كان مسرورا في نعمة وحياة رغدة طيبة جرّده حادث الدهر من ذلك كله، ففارق الأحباب مكرها مرغما وأصبح في حفرة مظلمة لا أنيس ولا رفيق . ويتجه الشاعر إلى ربه معترفا بما أسرف على نفسه من الذنوب راجيا منه الغفران. ويقول عبد الله التجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المديح من قصيدة وعظيمة طويلة^(٥) :

بَادِرٌ إِلَى التَّقْوَى بِدَارِ مُسَارِعٍ وَانْهَضْ إِلَى الطَّاعَاتِ نَهْضَ سِبَاقِ
وَاعْنَمْ مِنَ الْأَيَّامِ مَهَلَةَ سَاعَةٍ قَبْلَ التَّفَافِ السَّاقِ مِنْكَ بِسَاقِ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ كَدْحًا وَأَنْتَ لَمَّا كَدَحْتَ مُلَاقِي
وَالْمَرْءُ مَجْزِيُّ بِمَا هُوَ فَاعِلٌ وَجِزَاؤُهُ جَارٍ عَلَى اسْتِحْقَاقِ

وهو ينصح من يخاطبه بالمبادرة إلى التقوى وعبادة الله بدار مسارعٍ عجل، وبالنهوض إلى

(١) المجلد ص ١٢٩.

(٤) رمس: قبر.

(٢) زمانة: مرض. حُل: تحول.

(٥) الحلل السنديسي ٥١٦/٢ والمجلد في تاريخ

(٣) الأنموذج ص ٢٨١ والحلل السنديسي ٣٣٤/٢

الأدب التونسي ص ٢١٣.

والمجلد ص ١٣٤.

أداء الطاعات نهوض من يريد الحصول على قصب السبق، وينصحه كذلك أن لاتفلت منه مهلة ساعة أو لحظة دون أن يعبد الله حق عبادته قبل أن يوافيه القدر ويبعث يوم القيامة يوم الهول الأكبر والتفاف الساق بالساق كما جاء في وصف يوم البعث بسورة القيامة. ويستعين عبد الله في البيت الثالث بالآية القرآنية في سورة الانشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْتِيهِ﴾ فالإنسان عامل في دنياه وسيلقى جزاء ما عمل من خير أو شر في أخراه، إذ كلُّ يُجْزَىٰ بعمله وينال ما يستحقه من ثواب أو عقاب. وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الصواف ومواعظه.

أحمد^(١) الصواف

هو أحمد بن أبي سليمان داود الصواف، ولد سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ودخل الكتاب مثل لداته وحفظ فيه القرآن الكريم، واختلف إلى حلقات المحدثين والفقهاء، ولزم حلقة سحنون وكان من أقرب تلاميذه إليه لما عهد فيه من ذكاء، وفي كتاب الحلال السندسية روايات مختلفة له عن أستاذه تتصل ببعض أخباره وبيعض الأحاديث النبوية. وكان ثقة في الفقه والعلوم الإسلامية، وروى كثيرا من الشعر غدّي به ملكته الشعرية، وكان يوصى طلبته بالوقار والتعفف ومجالسة العلماء ومجانبة الأشرار، وكان كثير التأمل في ملكوت السموات والأرض، ونقش على خاتمه: «أحمد تفكر تعتبر» ويؤثر عنه أنه كان يقول: أنا حُبْسُ (موقوف) وكتبتى حبس على طلبة العلم، فهو محبوس على عبادة ربه ونسكه وكتبه محبوسة على طلاب العلم والمعرفة، وكان شاعرا جيدا وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره في الحكمة والعظة الحسنة، وعاش طويلا حتى وافاه الأجل سنة ٢٩١هـ/٩٠٣م ومن وعظه:

تركتُ تكاليف الحياة لأهلها وجأنتُها طوعًا فجانبني الردى
أراني بحمد الله في المال زاهدًا وفي شرف الدنيا وفي العزّ أزهدًا
تخليتُ عن دُنْيَايَ إلا ثلاثةً بدفاتر علمٍ ثم بيتًا ومَسْجِدًا

وهو يقول إنه لم يتعلق بشيء من تكاليف الحياة ومتاعها، ولذلك بارك الله في حياته وجانبه الموت، ويصرح بأنه زاهد في كل ما يطمع فيه الناس من المال ومن الشرف والعز والمجد فكل ذلك لا يعتد به إنما يعتد بثلاثة لا غير: بدفاتر العلم ومدارسته وبالمسجد يتبتل فيه إلى ربه وبيت يأوى إليه، فتلك الثلاثة هي غناه وسعادته وكل ما يقتنيه من دنياه. ثم بقول:

(١) انظر في أحمد الصواف رياض النفوس السندسية (انظر الفهرس).

للمالكي ٤٠٧/١ وما بعدها والمجلد ص ٦٩ والحلل

ألم تر أن الدهر يَقْرِي أَهْلَهُ همومًا وأن العيش صار منكدًا^(١)
فما حلَّ قومٌ فيه إلا بِفَجَعَةٍ وأنت لأخرى فيه منتظرٌ غدا
وكم قد رأينا من عزيزٍ مشرفٍ بيت مَقْرًا في القبابِ مُمهَّدًا
أنته المنايا وهو في حين غفلةٍ فأضحى ذليلا في الترابِ موسدًا

وفيم تعلق الناس بالدنيا؟ إن الدهر لا يزال فيها يَقْرِي الناس - ويطعمهم - هموما هما من بعد همٍّ، وقد صار العيش فيها نكدًا كله، وهل أحد فيها إلا أصابته فجعة أو مصيبة موجعة من موت صديق أو قريب، وإن الكأس التي ذاقوها ليدوقها كل شخص بدوره، وكم قد رأينا من عزيز له شرف لا يدانيه شرف يترك ذلك كله حين يوافيه القدر إلى قبر مههد بين القبور، وإنه ليموت على حين غفلة من أهله وأصفيائه، ويدفن في التراب ويتوسد به ويصبح فيه أسيرا ذليلا لا شرف ولا طنافس، ولكن تراب بجانبه تراب. وقال مبتهلا إلى ربه في ختام قصيدة له طويلة:

أَجْرَنِي مِنْ عَذَابِكَ وَاعْفُ عَنِّي وَكُنْ لِي مِنْكَ يَا أَمَلِي مُجِيرًا
فإني قد كبرتُ ورقَّ عَظْمِي وَجئتُ إِلَى فِنَانِكَ مُسْتَجِيرًا

فهو لا يخاف الموت ولا يرهبه، ولذلك لا يعد المشيب نذيرا له بل بشيرا، إذ سيلقى ربه، وعاش حتى توفي في السابعة والثمانين من عمره.

(ب) شعراء التصوف

مر بنا في الفصل الأول كيف أخذت تنشط حركة الزهاد والنسك في القيروان وتونس وغيرها من بلدان الثغور على الساحل التونسي منذ أواخر القرن الثاني للهجرة، إذ بُني بجوار هذه الثغور رباطات - وتسمى هناك محارس - للمجاهدين في سبيل الله ضد القراصنة وكانت أشبه بحصون كبيرة إذ كان بعضها يبلغ نحو ثلاثين غرفة ومعها مسجد وحمامات وأحواض مياه، وكثيرا ما كان يُلْحَقُ بها إسطلب للخيل حتى يتمرن العباد فيها والناسكون على الفروسية ولقاء العدو، وطبيعي أن كان بها بعض الأسلحة. وأعطت هذه المحارس أو الرباطات الفرصة لكي تتكون طبقات من النسك الذين وهبوا نفوسهم للجهاد أعداء الله، وكان الفقهاء - حتى كبارهم من أمثال سحنون إمام المذهب المالكي في الفقه - ينزلونها فترات ويلقون بها محاضرات ودروسا من شأنها أن تزيد النسك نسكا وأن تدلع الحماسة في قلوبهم لحماية الإقليم التونسي.

(١) يقري: يطعم.

ويمننا الآن جانب النسك والعبادة، وقد أخذ كثيرون في تلك المحارس يعيشون للنسك الخالص وحاكاهم في ذلك بعض سكان القيروان وغيرها من المدن. وكان التصوف قد أخذ يشيع في المشرق وانبثق عنه ضرب فلسفي آمن بالحللول على نحو ما هو معروف عن الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ للهجرة، وظلت القيروان ومحارس الساحل التونسي بعيدة عن هذا التصوف الفلسفي، غير أنه مع الزمن أخذ يظهر فيها من استغرقوا في الزهد والنسك، حتى ليتمكن أن نسميهم متصوفة، غير أنهم متصوفة سنيون، وهو تصوف فردي فلا طريقة صوفية للمتصوف ولا مبادئ خاصة يتخذها لطريقته الصوفية مثل أبي عقال المار ذكره غلبون بن الحسن بن غلبون من أسرة الدولة الأغلبية من أبناء مدينة رقادة بالقرب من القيروان، وكان عابدا ناسكا، وهاجر إلى مكة واختارها دار مقام له إلى أن توفي، وله أشعار زاهدة كثيرة عليها مسحة من التصوف أتشد منها المالكي في رياض النفوس مقطوعات متعددة^(١).

ومن متصوفة هذا الدور محرز بن خلف المتوفى سنة ٤١٣ وأبو الفضل بن النحوي المتوفى بعده بقرن. وسنخص كلا منها بكلمة. ومعنى ذلك أن القيروان ظلت لا تعرف التصوف الفلسفي ولا الطرق الصوفية حتى منتصف القرن السادس الهجري إلا ما كانت تقرؤه في الكتابات المشرقية، وتنتشر موجة التصوف الفلسفي غربي الإقليم التونسي بمدينة بجاية إذ ينزها أبو مدين شعيب المتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م وكان يشوب تصوفه شيء من النزعة الفلسفية، وتبعه كثيرون في الجزائر والمغرب وزار تونس، وتبعه فيها غير تلميذ مثل أبي سعيد خلف بن يحيى التميمي المولود سنة ٥٥١ والمتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. ويبدو أن عقيدته الصوفية لم ترسخ في القيروان، وزار تونس - بعده - يحيى الدين بن عربي المتصوف الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٨ وأقام بها مدة التف فيها حوله بعض الأتباع، وأهم منه ومن أبي مدين تأثيرا في الإقليم التونسي أبو الحسن الشاذلي المولود سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م والناسي فيه بشاذلة إحدى بلدانه واتجه إلى التصوف مبكرا، ورحل إلى المشرق وتعرف فيه على أحد معتققي الطريقة الرفاعية، وهي إحدى الطرق الصوفية السنية التي ظهرت بالمشرق في القرن السادس الهجري، وعاد إلى المغرب واتجه غربا إلى فاس ولقى فيها عبد السلام بن مشيش أحد أتباع طريقة أبي مدين، فلزمه مدة، ثم تركه إلى شاذلة وعاش بها فترة، وكان يتركها، أحيانا إلى تونس وينشر فيها دعوته، وتبعه فيها أصحاب كثيرون وكان يهاجم الخانقاهات والتسول بقوة، وتعرف على تلميذه أبي العباس المرسي وأعجب كل منها بصاحبه. ويبدو أنه رأى أن يتسع بدعوته إلى طريقته، فصمم على مغادرة تونس إلى الاسكندرية وصحب معه

(١) رياض النفوس للمالكي ٤٣٧/١ - ٤٤٢

أبا العباس المرسى وجمعا من مرديه ونزلها سنة ٦٤٢هـ، ويقال إنه ترك في تونس خمسين تلميذا متصوفا من أتباعه مثل علي القرجاني وعائشة المنوبية^(١) وطريقته أقرب إلى الطرق الصوفية السنية منها إلى الطرق الصوفية الفلسفية، وشاعت طريقته لا في الاسكندرية وحدها، بل أيضا في القاهرة والمدن المصرية المختلفة، بفضل تلميذه السكندري ابن عطاء الله، وقد تولى مشيخة الطريقة بعد وفاة أبي العباس المرسى سنة ٦٨٥هـ وله فيه وفي الشاذلي كتابه الرائع لطائف المتن في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن» وقد ساق فيه أربعة أوراد للشاذلي، وأخذت تتولد من هذه الطريقة بمصر طرق جديدة مثل الطريقة الوفائية، وكلها تنزع منزعا سنيا. وظلت الطريقة الشاذلية تشيع في عصر الدولة الحفصية، وأخذت تشيع معها طرق صوفية مختلفة. ولا بد أن نشير إلى اهتمام هذه الدولة ببناء الزوايا في تونس لكبار المتصوفة، حتى اكتظت بها المدينة كما لا بد أن نشير إلى مآذركناه في الفصل الأول من أن المتصوفة في العهد الحفصي انحرفوا عن واجبهم من الجهاد ضد أعداء الله وعاشوا عالة على الدولة والأمة مرددين للعامّة كلمات القطب والأبدال والكرامات. وتوقف قليلا لتحدث عن صوفيين سنيين مبكرين هما محرز بن خلف وأبو الفضل بن النحوى.

محرز^(٢) بن خلف

هو محرز بن خلف بن رزين من ذرية أبي بكر الصديق رضى الله عنه، نشأته ومرباه بتونس، ولا بد أن كان والده من فضلائها، وقد عكف على حلقات الشيوخ بها ينهل من معينهم في الفقه والتفسير والحديث النبوى، وأيضا في علوم العربية. ولم يحاول بعد أن فرغ من تعلمه وأخذ ماعند الشيوخ أن يجلس إلى حلقة يعلم فيها الطلاب الناضجين من الشباب، بل رأى أن يعنى بتعليم الناشئة العربية وأصول الدين الحنيف وتعاليمه، وكان يسلك في ذلك طرقا تعليمية حميدة مما جعل الناس يطلقون عليه اسم المرزى محرز. وكانت مدرسته في مدينة تونس معروفه باسمه، دفن فيها، وكان تقيا صالحا يتوفر على عبادة ربه والنسك له، مما لفت إليه أنظار مواطنيه، وجعلهم يحسنون الاعتقاد فيه، حتى أطلقوا عليه اسم الولي الصالح، وظل هذا الاعتقاد يلازم التونسيين بعد وفاته عن سبعين عاما ونيف سنة ٤١٣ حتى لقبوه بسلطان المدينة، لقب خصوه به دون غيره من الصوفية أصحاب الزوايا الكثيرين في البلدة. ونسوق بعضا من كلام صاحب الحلل السندسية في ترجمته له إذ يقول عنه: «الشيخ الأستاذ الذى شحن بنفحات عوارفه الألباب، وتغذى من الإخلاص بخالص اللباب، وفتح له بحضرة اللطائف أعرض باب.. ألا وهو الحجاب الإحاطى بقصور العرفان والكوكب الذى قصر عن مشاهدته العيان، والكهف

(١) من قرية منوبة بالقرب من تونس.

(٢) انظر في محرز الحلل السندسية ٨٧٤/٤.

والمجمل في تاريخ الأدب التونسي ص ١١٦.

الذى استظل تحت جناح مدده الملوان (الليل والنهار).. المالكى مذهب الصوفى دأبا البكرى (نسبة إلى جده) نسا». وهى مبالغة واضحة، غير أنها تدل - من بعض الوجوه - على مدى اعتقاد التونسيين فيه. ومن قوله فى الدنيا وتصاريفها وتقلباتها:

أبدت لنا الدنيا زخارف حُسْنِهَا مكرًا بنا وخديعةً ما فترت
وهى التى لم تحل قط لذائق إلا تكدر طعمها فتمررت
خداعةً بجمالها إن أقبلت فجاعةً بزوالها إن أدبرت
وهأية سلايةً لهباتها طلايةً لخراب ما قد عمرت
فإذا بنت أمرا وتم بناؤها نصبت مجانقها عليه فدمرت

وهى عظة بديعة، يقول: لا تغتر بما تيديه لك الدنيا من زخارفها وزينتها، فذلك مكر منها وخديعة لا تقصّر فيها، إنها لم تصف وتحل قط لذائق إلا تغير طعمها وتمرّ مرا شديدا، وحذار من إقبالها بحسنها عليك فإنها لا تلبث أن تدبر عنك وتفجعك فيما أعطتك، إنها وهابة غير أنها سرعان ما تسلب ما وهبتك، وإنها لتخرب ما عمرته لك، وإذا شادت أمرا ورفعته عاليا سرعان ما تنصب مجانيقها عليه وتدمره تدميرا كأن لم يكن شيئا مذكورا. ويحاول أن يعزى المظلومين قائلا:

إذا ظالم قد عاهد الظلم مذهبًا وجار غلواً فى علو اكتسابه
فكله إلى ربّ الزمان وجوره سيئدى له ما لم يكن فى حسابه
فكم ذا رأينا ظالماً متجبراً يرى النجم تهباً تحت ظل ركابه
فلما تمادى واستطال بجوره أناخت صروف الحادثات ببابه
وعوقب بالذنب الذى كان يجتنى وصب عليه الله سوط عذابه

وهو يقول للمظلوم إذا رأيت ظالما باغيا غلا وجار فى بغيه وعدوانه فاصبر ودعه إلى صرف الزمان وتقلبه فإنه سيريه ما لم يكن يخطر على باله، وكم رأينا ظالما عاتيا بلغ من عتوه وتجبره أن كان يرى النجم كأنه يمشى فى ركابه، ولما تمادى فى عتوه وبغيه وظلمه نزلت النكبات ببابه وأقامت به لا تبرحه فعوقب عقابا أليبا بذنبه الذى جناه بعمى بصيرته وصبّ الله عليه سوط عذابه جزاء وفاقا لظلمه وبغيه. وله موعظة جعل موضوعها مدينة قرطاجة عاصمة الفينيقيين، ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون، وتحدث عن عظمة الأولين البحرية وبناء الثانين للطباطرو (اللتياترو) وبناء حناياها لتوصيل مياهها وتشبيدهم للقصور، ويقول إن كل ما عاشت فيه كل تلك الدول المختلفة أصبح أطلالا دوارس، ويختمها بقوله عن حكماها جميعا واعظا ومنبها إلى أنه لا بقاء لشيء فى الحياة:

لقد وُسِّدوا بعد الحرير جنادلاً ولم يُغْنِ عنهم ما بَنَوْهُ وشيِّدُوا ولم يَسْتطيعوا للحوادث مدْفَعاً ومأمُتَعُوا في الدهر مَع من تمتَعاً ومجيباً له ثمَّ الرِّياحُ الرُّعازِعَا^(١)

وهو يقول إن حكامها بعد معيشتهم في القصور الباذخة وما كانوا يتوسدون من الحرير والإستبرق والطنافس أصبحوا يتوسدون الصخور والتراب، وعبثاً حاولوا أن يدفعوا عنهم حوادث الدهر إذ خروا صرعى جميعاً، ويلتفت الشيخ محرز إلى صاحبيه هاتفاً إن جزئاً بر بوعها الدارسة نادبانى وتسمعا فإنكما لن تسمعا إلا صدى نداءكما ورياحا عاصفة، إذ أصبحت تلك المدينة ذات التاريخ العريق والأبنية الشامخة أطلالا عافية ورسوما دائرة، وهذه هي الدنيا كل شىء فيها إلى بلى وفناء

أبو الفضل^(١) بن النحوى

هو أبو الفضل يوسف بن محمد الذى عُرف باسم ابن النحوى، مولده ومرباه بمدينة توزر قاعدة بلاد الجريد فى الإقليم التونسى وتركها شابا إلى القيروان لينهل من حلقات شيوخها وصحب اللحمى وأخذ عنه صحيح البخارى، ولما توفى لزم تلميذه المازرى حامل لواء الفقه المالكى، وحمل عنه مصنفاته الفقهية وأماليه فى الحديث النبوى، ونزل قلعة بنى حماد وأقرأ أو درس بها للطلاب وجال فى أنحاء المغرب، وأقرأ فى سجلماسة وفى فاس، وعاد إلى قلعة بنى حماد وتصدر فيها للتدريس بقية حياته إلى أن توفى عن ثمانين عاما سنة ٥١٣هـ/١١٢٠م، وكان لا يقبل من أحد عطاء ولا من حاكم راتباً، وظل يعيش طوال حياته من دخل مزرعة له بتوزر. وكان مثالا رفيعا للعلماء وعلى سنن الصالحين، قال عياض: «كان من أهل العلم والفضل، شديد الخوف من الله، غالب حاله الحضور معه تعالى». وله قصيدة استغاثية بديعة تسمى «المنفرجة» طارت شهرتها فى الآفاق وفيها يقول:

اشتدَّى أزمَةٌ تَنفَرِجِي قَد آذَنَ لِيْلِكِ . بِالْبَلِّجِ^(٣)

تاريخ الأدب التونسى ص ١٧٢ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع دار المعارف) ١٠٩/٥ وذكر لقصيدته المنفرجة شروحا كثيرة منها شرح للنقاوسى البجائى وشرح لشيخ الإسلام زكريا الأنصارى كما ذكر لها تشطيرات وتخميسات مختلفة. (٣) البلج: ضوء الصباح.

(١) الزعازع: الشديدة
(٢) انظر فى أبى الفضل بن النحوى الجريدة ٣٢٥/١ وعنوان الدراية للغيربى ص ١٩٤ والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن منقذ ص ٢٦٨ وكتاب تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ١٩٥/١ وما به من مصادر والمجمل فى

وظلامُ الليل له سُرجٌ حتى يغشاه أبو السُّرجِ (١)
 وسحابُ الخير له مطرٌ فإذا جاء الإبان يجي (٢)
 وفوائدُ مولانا جملٌ لسرورِ الأنفسِ والمهجِ
 ولها أرجٌ مُحى أبداً فاقصد مَحيا ذاك الأرجِ (٣)
 والخلقُ جميعاً في يده فذوو سعةٍ وذوو حرجِ (٤)

وهو يسلم أمره إلى ربه مؤمناً بأن أى أزمة أو كارثة مهما اشتدت لا بد أن تنفرج، وأن ليولها ليوشك أن يتلوه البلج أو ضوء الصباح، ونفس ظلام الليل الداغى له سرج من النجوم حتى يغمره ضوء الشمس أبو السرج، وإن كل شيء له أوان، وما أسرع أن يهطل سحاب الخير حين يأتي إبانُه وأوانه، وإن نعم الله لتأقُّ جُملاً تترى لتضيء النفوس والأرواح ولها شدَى عطر محي دائماً فاقصده واحرص عليه حتى تحيا حياة هنيئة، وارض بقضاء الله في قسمته الخلق بين موعٍ - ومضيقٍ - عليه في الرزق، فلذلك حكمته. وفيها أيضاً يقول:

وإذا انفتحتُ أبوابُ هُدَى فاعجلْ لخزائنها وِلجِ (٥)
 ولطاعته وصباحتها أنوارُ صباحِ مُنبِلجِ (٦)
 من يخطبُ حورَ العينِ بها يظفرُ بالخورِ وبالغنجِ (٧)
 وكن المرضيُّ لها بتقَى ترضاه غداً وتكون نجي

وهو ينصح مخاطبه إذا انفتحت أمامه أبواب الهدى أن يسارع إلى ولوجها ودخولها ليهنأ بطاعة ربه وأنوارها المضيئة المشرقة، وليكون من أهل الجنة ويحظى بالخور ودلائن وجمالهن، وهولن ينالهن إلا بتقى الله حق تقاته وعبادته له حق عبادته. ويوصيه بتلاوة القرآن الكريم والتهجد قربى لرضوان ربه. والمنفرجة في أربعين بيتاً، كلها بهذه اللغة السلسلة العذبة وهذه الموسيقى ذات الألحان البديعة. وكان أبو الفضل صوفياً بحق، يأخذ نفسه بالتقشف ويلبس خشن الصوف، ويعبد الله كأنه يراه أو كما قال عياض كأنه حاضر معه، وله يضرع إلى الله تعالى في بعض تهجده:

-
- (١) سرج: يقصد النجوم. أبو السرج: ضوء الشمس.
 (٢) صباحة: إشراق. منبيلج: مضيء.
 (٣) الإبان: الأوان.
 (٤) أرج: عطر.
 (٥) وِلج: ادخل.
 (٦) الخور العين: نساء الجنان كما في القرآن.
 (٧) الغنج: الدلال.
 (٨) حرج: ضيق.

لبستُ ثوبَ الرَّجَا والنَّاسُ قد رَقَدُوا
 وَقَلْتُ يَا سَيِّدِي يَا مُنْتَهَى أَمَلِي
 يَا مَنْ عَلَيْهِ بِكَشْفِ الضَّرِّ أَعْتَمِدُ
 يَا مَالِي عَلَى حَمَلِهَا صَبْرٌ وَلَا جَلْدُ
 وَقَدْ مَدَدْتَ يَدِي لِلضَّرِّ مُشْتَكِيًا
 إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ

وهو يضرع إلى ربه لا بسا ثوب الرجاء والأمل والناس نيام قائما بين يديه يشكو متضرعا متذلا إلى سيد الكون ومنتهى أمله في دنياه أن يكشف عنه الضر وكل ما يعلمه مما لا طاقة له ولا صبر ولا جلد على حملة، ويقول ضارعا شاكيا لقد مدت يدي إلى خير من تمد له الأيدي فلا تردني عن بابك خائبا. واكشف عني ما أصابني من ضر بفضلك وإحسانك وإنعامك.

٥

شعراء المدائح النبوية

الرسول ﷺ المثل الأعلى الكامل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهم حين يحجون يقصدون إليه في المدينة لزيارة قبره العطر، وما من مسلم إلا وهو يتمنى هذه الزيارة الشريفة، فإن أقدته - أو منعتة - الضرورة وكان شاعرا دبح قصيدة يتشوق فيها إلى اكتحال عينيه برؤية قبر حبيب الله وصفه: الرحمة المهداة والنعمة المسداة إلى أمته المخصوص بالإسراء ليلا إلى بيت المقدس ومعراجة أو رقيه إلى السموات السبع، الذي خُصَّ بالقرآن الكريم معجزته الكبرى التي ليس لها سابقة ماثلة ولا لاحقة، مع ما اتصف به من خلق رفيع يعجز البيان عن وصفه، ومع رسالته الإلهية الهادية التي تحقق للناس السعادة في الدارين. وقد دبح حسان وكعب بن زهير وغيرهما في حياته قصائد بديعة في مديحه، وتكاثرت سيول هذا المديح بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلى اليوم على ألسنة شعراء العالم الإسلامي شرقا وغربا بحيث تكون نهرًا عظيمًا لكل بلد أو قطر إسلامي جدولُه المتدفق فيه. والإقليم التونسي كغيره من الأقطار الإسلامية له جدول تترقق فيه المدائح النبوية. ولن نستطيع أن نعرض ما قاض على ألسنة شعراء القيروان وتونس من هذه المدائح، وخاصة في العصر الحسيني - لكثرتها، ولذلك ستكتفى باتنين من العصور المختلفة اشتهرت مدائحها النبوية، وهما عبدالله الشقراطسي وابن السَّمَاط المهدوي.

عبد (١) الله الشُّقْرَاطِيسِي

هو عبد الله بن يحيى بن علي الشُّقْرَاطِيسِي نسبة إلى قلعة رومية أقيمت قديماً بالقرب من قفصة تسمى «شُقْرَاطِس». ومولده ومرباه في «توزر» مثل أبي الفضل بن النحوى، وهو يسبقه بنحو خمسين عاماً إذ توفي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. ولما بلغ مبلغ الشباب رأى أن يكمل دراسته في القيروان، فاختلف إلى شيوخها، وأخذ ما استطاع منهم حتى غداً فقيهاً محدثاً، وحجَّ، وعاد فعين قاضياً في بلده توزر إلى وفاته، وكان مع قيامه فيها بالقضاء يدرس للطلاب وينشر العلم ما استطاع، ويقال إن ابن النحوى درس عليه. وقد طار صيته في أنحاء العالم العربي بقصيدة فريدة في ١٣٣ بيتاً نظمها في مديح الرسول ﷺ، استهلها بقوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ مِمَّا بَاعَثَ الرَّسُولَ هَدَى بِأَحْمَدَ مِمَّا أَحْمَدَ السَّبِيلَ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضْرٍ وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ
تَوْرَةَ مُوسَى أَتَتْ عَنْهُ فَصَدَّقَهَا إِنجِيلُ عِيسَى بِحَقِّ غَيْرِ مُفْتَعَلِ
ضَاءَتْ لِمَوْلِدِهِ الْآفَاقُ وَاتَّصَلَتْ بُشْرَى الْهُوَائِفِ فِي الْإِشْرَاقِ وَالطُّفْلِ (٢)

وهو يحمد الله باعث الرسل إلى الأمم أن بعث الرسول إلى أمته المحمدية هادياً لها إلى خير السبل أو الطرق وإنه لأفضل البرية جمعاء متبديّة ومتحضرة وأكرم الخلق جميعاً حفاةً ومنتعليين، ويقول إن توراة موسى بشرت به وصدقها الإنجيل، مشيراً بذلك إلى آية سورة الأعراف وأنه ممن تشملهم رحمة الله ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ويقول إن الآفاق أضاءت لمولده ودقت البشائر في الإشراق والظلام. ويمضي في ذكر معجزات مولده ومعجزاته في حياته وفي الهجرة وما خصه الله به من عروجه إلى السماء. ويعود إلى تفصيل القول في معجزاته ومعجزته الكبرى القرآن، ويلم بأذى قريش لمن اتبعوه وهو لا يزال بمكة وخاصة بلالا، ويذكر انتصاره على قريش بيدد إذ حطم جيشهم حطماً، وأسر نفراً من أشرفهم، وبكى أهل مكة من رجال ونساء بدموع غزار، ويذكر يوم فتح مكة، وقد جاءها الرسول في عديد من الجنود من يثرب

التوزري مواطنه المتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م، كما ذكر لها تقييمات لابن الشباط وغيره.
(٢) الطفل: الظلام.

(١) انظر في الشقراطسي الوفيات لابن منقذ طبع بيروت) ص ٢٥٢ وعنوان الأريب ٤٢/١، ومجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٦٣ وبروكلمان ١٠٨/٥ وذكر أن للشقراطية شرحاً لابن الشباط

ومختلف القبائل، ورأت قريش أن لا قبل لها بلقائه، فاستسلمت ودخلت في دين الله، يقول:

ويومَ مكة إذ أشرفت في أممٍ
خوافقُ ضاق ذرعُ الخافقين بها
وجحفَلِ قذِفِ الأرجاءِ ذى لَجِبِ
وأنتِ صلَّى عليك اللهُ تقدّمهم
والخَيْلُ تختال زهواً في أعنتها
أهلُّ نهلانٍ بالتهليل من طربِ
الملكِ لله هذا عزٌّ من عُقدتِ

يضيقُ عنها فِجَاجُ الوَعْتِ والسَّهْلِ (١)
في قاتمٍ من عجاجِ الخَيْلِ والإِبِلِ (٢)
عَرَمَرَمٍ كزُهاءِ الليلِ مُنْسَجِلِ (٣)
في بهوِ إشراقِ نورٍ منكِ مكتملِ
والعيسُ نثالَ رهواً في ثنىِ الجُدْلِ (٤)
وذابَ يذبلُ تهليلاً من الذُّبْلِ (٥)
له النبوة قبل العرش في الأزل

وهو يتحدث عن يوم فتح مكة ومع الرسول أمم من يثرب والقبائل تضيق عنها فجاج الأرض العسرة والممهدة السهلة، خوافق متحركة ضاقت بها لكثرتها طاقة المشرق والمغرب، وقد عقدت حركة الخيل والإبل عليها غباراً كثيفاً، وإنه لجيش ضخم متسع الأرجاء له لجب وصخب عرمرم أو شديد، كزهاء الليل ومقداره، تنصب قطعه انصباباً، والرسول - ﷺ - على رأس هذا الجحفل، يحف به بهاء ونور منه مكتملان والخيل تختال في أعنتها ومسيرتها زهواً، والعيس أو الإبل تتابع سائرة في مضاعف من جُدها أو أزمته، وأهل نهلان رافعا صوته بذكر الله من طرب وفرح، وذاب يذبل خوفاً من الرماح وكثرة السلاح، وهذا عز لا يماثله عز، عز من كتبت له النبوة في الأزل البعيد قبل خلق العرش وتكوينه. ويتحدث عن الانتصارات في الفتوح الإسلامية في أنحاء المعمورة في العراق وديار الفرس والترك والصين وبلاد النوبة والزنج ومصر والمغرب، كما يتحدث عن منزلة الرسول ﷺ عند الله واختصاصه بالشفاعة للعباد خلاصاً من هول المحشر، ويطلب منه الشفاعة ومن الله الغفران.

-
- (١) فجاج الوعت: الطرق العسرة.
(٢) ضاق ذرع الخافقين: ضاق وسع المشرق والمغرب. عجاج الحرب: غبارها.
(٣) جحفل: جيش ضخم. قذِف: بعيد لجب: صباح. عرمرم: شديد. زهاء الليل: مقداره.
(٤) العيس: الإبل. نثال: تسيل وتنصب. رهوا: بطيئة أو مثتدة. ثنى الجدل: الأزمة المزدوجة الطاقات.
(٥) نهلان ويذبل: جبلان عند مكة. الذبل: الرماح.
منسجل: منصب ومصوب.

ابن^(١) السماط المهدي

هو أبو يعقوب يوسف بن علي بن عبد الملك بن السماط البكري، ولد بالمهدية سنة ٦١٣ وبها منشؤه ومرياه، من بيت علم وفضل وثراء، وتفتحت شاعريته مبكرة، وكان من نعم الله عليه أن قصر شعره على مدح الرسول ﷺ، فلا يوجد له في غير هذا المديح شعر إلا التافه النزر مما قاله في صباه، ويقول صاحب الحلل السندسية: «هو عالي الطبقة في الشعر جدا، وشعره مدون مشهور». وظل يحيا في المهديّة بمدح الحضرة النبوية حتى وافاه الأجل سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م واحتفظ له صاحب الحلل السندسية بخمس قصائد نبوية باهرة، وفي ثانيها يقول متشوقا إلى يثرب وزيارتها الشريفة:

رَعَى الحقوق - كما علمت - حقيقُ
والصبر عن وادي العقيقِ عقوقُ^(٢)
ولأهل ذِيَاك الحمى بقلوبنا
شغفٌ يسوق نفوسنا ويشوقُ
ولذکرهم برّدٌ على طيِّ الحَسَا
تُشْفَى به مرضاهم وتُفِيقُ
قومٌ بهم طاب النسيمُ بطيِّيةً
حتى انتنى كالمسك وهو فتيقُ^(٣)
وعَدَا تراها للشِّفاء مَرَاشِفَا
وبقاعُها كلُّ البقاعِ تفوقُ
ومزارها أشهى إلى عُشاقها
من شاطيءِ يَأْوِي إليه غريقُ

وهو يقول إن للزيارة النبوية حقوقا ينبغي أن تؤدي، وإن الصبر عن زيارة وادي العقيق بالمدينة المنورة ليعد عقوقا، وإن لأهل هذا الحمى بقلوبنا شغفاً وشوقاً شديداً ولذکرهم برّداً على الأحشاء حتى لكانه دواء يشفى المرضى من عللها الدفينة، قوم بهم ذكا النسيم وطاب بطيية أو يثرب، حتى أصبح كالمسك حين يسطع شذاه، وإن تراها ليود الناس حبا في الرسول أن يرشفوه بشفاهم رشفا، وإن عشاقها في المعمورة ليتمنون زيارتها يطلبون بها النجاة كما يتمنى الغريق شاطئا يأوي إليه من الهلاك. ويقول في القصيدة الرابعة:

أَعِدْ الحديثَ فليس بالمملولِ
عن خَيْرِ مبعوثٍ وخَيْرِ رسولِ
وأَمَلًا مَسَامَعَنَا بطيبِ حديثه
فهو الشفاءُ لحرِّ كلِّ غَلِيلِ^(٤)
وأذَابٌ عليه مصلِّيا ومسلِّما
فكذا أتى في محكم التَّنْزِيلِ

(٢) وادي العقيق: واد بالمدينة.

(٣) طيبة: المدينة. فتيق: ساطع الراححة.

(٤) غليل: شدة العطش وحرارته.

(١) انظر في ابن السماط المهدي الحلل

السندسية ٥٠٨/٢ وما بعدها وشجرة النور الزكية

١٩٢/١ ومجلد تاريخ الأدب التونسي ص ٢٠٨.

واخْصُصْ بترَدَادِ السَّلَامِ ضَرِيحَهُ فِي كُلِّ شَارِقَةٍ وَكُلِّ أَصِيلٍ^(١)
 قَمَرٌ لَهُ هَضْبَاتٌ مَكَّةَ مَطْلَعُ وَالرَّوْضَةُ الْفَيْحَاءُ أَفْقُ أَقْوَلٍ^(٢)
 جَاءَتْ نَعْوَةٌ كَمَالِهِ مَنْصُوصَةٌ فِي الذِّكْرِ وَالتُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 هَذَا الْفَخَارُ وَمَنْ يَكُنْ ذَا وَصْفِهِ فَالْمَدْحُ فِيهِ كَقَطْرَةٍ فِي النَّيْلِ

وهو يطلب من صاحبه أن يعيد الحديث مراراً وتكراراً عن خير رسول ومبعوث أهدى إلى البشرية، وأن يملاً المسامع بحديثه الطيب الذكي فإن فيه شفاء من حرارة كل ظمأ شديد، وأن يدأب ويجد في الصلاة والسلام على الرسول اتباعاً لهدي القرآن القائل: ﴿إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ويقول لصاحبه خُصَّ بترداد السلام وتكراره قبره كل صباح وكل مساء، وإنه لقمَر بدر طلع من هضبات مكة وأفقها، وأفل أو غرب في أفق يثرب في الروضة الفيحاء ذات الشذى العطر، ويذكر أن نعوت كماله نصَّ عليها التنزيل كما جاء بآية سورة القلم في خطابه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ كما نصَّت عليها التوراة والإنجيل وكما جاء بآية سورة الأعراف السالفة في تعليقنا على بعض أبيات عبد الله الشقراطسي. ومضى ابن السماط في القصيدة يعدد شمائله الرفيعة وبعض معجزاته، وقال هذا هو الفخر الحقيقي ومن يكن هذا وصفه فالمدح فيه كقطرة -حقاً- في نهر النيل. ونبويات ابن السماط تتميز بلغة سلسة عذبة منتهى العذوبة والسلاسة.

(٢) الروضة الفيحاء: لعله يشير إلى قول الرسول ﷺ ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة.

(١) الأصيل: وقت اصفرار الشمس قبيل الغروب.

الفصل السادس

النثر وكتابه

١

الخطب والوصايا

معروف أن الإسلام فرض في صلاة الجمعة الأسبوعية والعيدين: الفطر والأضحى خطبتين للوعظ والنصح للمسلمين، وظل يتولى ذلك في تونس وإقليمها كبار الفقهاء الوعاظ من علمائها الأبرار، غير أنه لم يصلنا من هذه الخطب ما نستطيع به الحديث عنها وعرض بعض نصوصها. وطبيعي أن يكون لولاتها في القيروان وقادتها في الحروب أو على الأقل لبعضهم خطب من حين إلى آخر، وأقدم خطبة وصلتنا عن لواتها خطبة موسى بن نصير التي خطبها بجامعة القيروان حين دخلها سنة ٨٥ في أول ولايته على إفريقية وفيها يقول^(١):

«أيها الناس! إنما كان قبلي على إفريقية أحد رجلين: سالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية، ويكره أن يُكَلِّمَ^(٢) ويحب أن يسلم، أو رجل قليل المعرفة راض بالهونى، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السَّهْر، وأحسن النظر، وخاض الغُمر^(٣) وسمت همته، ولم يرض بالدون من المغنم، لينجو ويسلم، دون أن يكلم أو يكلم.. إن ظفر لم يزد الظفر إلا حذرا، وإن نكب أظهر جلادة وصيرا.. وبعد فإن من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصى ويترك عدواً منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويُدلّ منه على العورة، ويكون عوناً عليه عند النكبة، وأيم الله لا أرىم^(٤) هذه القلاع والجبال الممتعة حتى يضع الله أرفعها، ويُدلّ أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو أجمعها، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين».

وبدأ موسى بن نصير بالجيوب في الإقليم التونسي مثل جبل زغوان، ثم أخذ يمتد بفتوحه العظيمة حتى دان له المغرب جميعه، وكان شديد الطموح فمدّ بصره وراء المغرب إلى شبه جزيرة

(١) تاريخ الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني (٣) الغمر: الشدائد.

عبدالوهاب ص ٢٦. (٤) أريم: أترك.

(٢) يكلم: يجرح.

إيبيريا وأرسل إليها طارق بن زياد وتبعه، وأتم فتحها ناشرا فيها الإسلام، كما عمل على نشره في ديار المغرب من برقة إلى المحيط، وافتتح له إقليما كبيرا في أوربا، ولم يترك قلعة ولا حصنا لا في المغرب وحدها كما قال في خطبته بل أيضا في إيبيريا مما جعله بحق من أكبر قواد العرب على مر التاريخ. ومن كبار القواد في الإقليم التونسي بعده أسدين الفرات أمير الجيش الفاتح لصقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وحين دقت الطبول والبوقات ونشرت الألوية واستعدت السفن لمغادرة ميناء سوسة للفتح تلفت حوله وخطب الجنود، وكان من قوله^(١): «لا إله إلا الله وحده لا شريك له أيها الناس! ما ولي لي أب ولا جد ولا ولاية قط، ولا رأى أحد من سلفي هذا قط، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وثابروا عليه تنالوا به الدنيا والآخرة».

وكان أسد شيخ فقهاء المالكية في القيروان، واختاره الأمير زيادة الله الأعلى لقيادة الجيش، وهو ينصح بالمناجزة في العلم وتدوينه، فإن من يثابر في تحصيله ويسهر الليالي يحظى بكل ما يتمناه، وقد مضى حين أرسى أسطوله على شواطئ صقلية يفتح المدن والقلاع واتجه إلى قاعدتها الكبرى: «سرقوسة» في شرقها، وحاصرها واستشهد في حصارها ودُفن تحت أسوارها، وتم فتح جميع مدنها بعده.

ومن المؤكد أن خطبا كثيرة ألهاها حكام الإقليم التونسي في أول حكمهم - وربما في أثنائه - ولكن الكتب التاريخية والأدبية لم تحتفظ بها، وأيضاً لا بد أن كثيراً من الوصايا في الدول التي حكمت الإقليم التونسي أوصى بها الآباء الأبناء من بعدهم سقطت من يد الزمن فيما عدا وصية أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية لابنه وولى عهده المستنصر، وفيها يقول^(٢):

«اعلم - سددك الله وأرشدك، وهذاك لما يرضيك وأسعدك، وجعلك محمود السيرة، مأمون السيرة - أن أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه، وجعله مسئولاً عن رعيته في جُل أمرهم ودقّه^(٣) أن يقدم رضا الله في كل أمر يحاوله.. واعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزامة^(٤) وأخذ الرأي من عقلاء الدولة ورؤسائها، وذوى التجارب من نبيائها، ثم الإقدام عليه، والتوكل على الله فيما لديه.. ولا تسمع أقوال الغالطين المغلطين بأنك أعظم الناس قدرا، وأكثرهم بدلا، وأحسنهم سيرا، وأجلهم صبورا، فذاك غرور ويهتان وزور.. وعليك بتفقد أحوال رعيته، ولا تنم عن مصالحهم، ولا تسامح أحدا فيهم، ومهما دعيت لكشف ملامة فاكشفها عنهم، ولا تراع فيهم كبيرا ولا صغيرا إذا عدل عن الحق،

(١) الحلل السندسية ٧٥٣/٣.

(٢) دقه: دقيقه.

(٣) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ١٨٧.

(٤) الحزامة: الحزم.

ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعية والمظلمين، ولا تقف عند مراده فيهم، واتخذ ثقات صادقين مصدقين لهم في جانب الله أوفر نصيب».

والوصية طويلة، وهي أشبه بدستور يضعه لولى عهده، ليمسك به في حكمه من بعده، وواضح أنه يطلب إليه أن يكون محمود السيرة وأن يجعل رضا الله نصب عينيه في تدبير أمور رعيته وإذا نزلت به شدة استعان بالصبر والحزم وبرؤساء الدولة ونبائها المجريين وعمل بمشورتهم ونصيحتهم، ويحذره من الاستماع إلى من يتملقونه في حاشيته زورا وبهتانا ابتغاء القربى إليه والزلفى لديه، والحاكم الحصيف يبعد عنه هؤلاء المناققين المرائين. ويوصيه بتفقد أحوال الرعية وأن لا يغفل عن مصالحها ولا يتسامح مع من يعتدى عليها ويسارع إلى كشف كل ملة تتعرض لها، ويأخذ على يد كل ظالم، ولا يقتصر في رفع مسائل الرعية إليه على شخص بعينه خشية أن يكون مغرضا فيما يعرض عليه، لذلك ينبغي أن يشرك معه آخر أو آخرين، حتى لا يتعرض في فهم هذه المسائل لغش أو خديعة، وينبغي أن تكون حاشيته مؤلفة من ثقات صادقين لا يحوم حولهم شك أو ريبة.

ونرى ابن خلدون حين نزل القاهرة سنة ٧٨٥هـ/١٣٨٤م يجلس للتدريس بالجامع الأزهر ويتصل بالسلطان المملوكى برقوق فيكرمه ويوفر له الراتب شأنه مع أهل العلم، ويتوفى البساطى أستاذ المدرسة القمحية المالكية، فيعيه مكانه في شهر المحرم سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م ونراه في يوم جلوسه للتدريس بها يخطب خطبة طويلة يستهلها بالحمد لله مطيلا في نعوته القدسية كما يطيل في الصلاة على الرسول والرضا عن آله وصحبه، ويتحدث عن الملة الإسلامية وانتصار أهلها على الفرس والروم وفتحهم العظيمة، ويشيد طويلا بملوكها وبدولة الماليك ونصرتهم للإسلام وإنشائهم للمدارس وتعميرهم للمساجد وعنايتهم بالعلم والعلماء ويشيد بالسلطان برقوق وأعماله وأفضاله عليه. وخلت وظيفة أستاذ الحديث في مدرسة صرغتمش بجوار جامع ابن طولون، فولاه برقوق تلك الوظيفة فاختار كتاب الموطأ للإمام مالك ليحدث به للطلاب في شهر المحرم سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وحين جلس للتدريس بها ألقى خطبة طويلة، وبعد حمد الله فيها والصلاة على رسوله والثناء على السلطان برقوق قال إنه قرأ للقراءة في دروسه كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس لأنه من أصول السنن وأمهات كتب الحديث، وأفاض في الحديث عن مالك ونشأته وسيرته وتأليفه لكتابه الموطأ، ثم أخذ يعدد الطرق لرواية تلامذة مالك عنه الكتاب، وانتقل إلى بيان سنده للكتاب والشيوخ الذين أخذه عنهم بتونس والأندلس والمغرب في بلدانه المختلفة، ويذكر مع كل طائفة منهم شيوخهم وسندهم في الرواية، ويضيف طرقا أخرى، مما جعل سامعيه في هذا المجلس يرمقونه بالثجلة إلى أبعد مدى. وإنما أظلت في بيان ذلك لأدل على أن علماء تونس - فيما يبدو - كانوا يأخذون في

درسهم الأول بجامعة الزيتونة بهذا التقليد من الخطبة الطويلة عن الكتاب الذى سيدرسونه للطلاب، وإن لم تصلنا خطبهم العلمية كما وصلتنا خطب ابن خلدون، إذ سجلها بنفسه فى ترجمته^(١) عن حياته، ويقول إنه أعدها، وهى مكتوبة بأسلوب أدبى مسجوع بليغ.

٢

الرسائل الديوانية

عرفت القيروان الدواوين منذ أنشأها فيها واليها حسان بن النعمان (٧١-٨٥هـ) إذ أقام بجانب دار الإمارة ديوانا للجند وديوانا للخراج وديوانا للرسائل على شاكلة دواوين الخلافة فى دمشق، غير أننا لا نسمع عن كاتب كبير تولى ديوان الرسائل قبل خالد بن ربيعة كاتب عبد الرحمن بن حبيب الوالى فى القيروان من قبل مروان بن محمد، ويذكر البلاذرى أنه كانت بينه وبين عبد الحميد الكاتب المشهور كاتب مروان بن محمد مودة ومكاتبة، وأنه - بفضل هذه المودة - أقرَّ الخليفة عبد الرحمن بن حبيب على ولاية القيروان^(٢)، ويذكر ابن النديم فى الفهرست خالدا بين الكتاب قائلا: «خالد بن ربيعة الإفريقى مترسل بليغ نشأ فى الدواوين، وله رسائل مجموعة فى الأدب نحو مائتى ورقة^(٣)».

وجمع رسائل خالد بن ربيعة سقطت من يد الزمن وسقط معها جميع الرسائل الديوانية فى القيروان إلى أن نلتقى بإبراهيم بن الأغلِب مؤسس الدولة الأغلبية ونراه يتبادل مع خُرَيْش الكندى أحد قواد الجند النائر عليه بتونس سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م رسالتين أولاهما لخريش يتهدده فيها ويطلب منه طاعته له، ويرد عليه إبراهيم بن الأغلِب برسالة يقول فيها^(٤):

«من إبراهيم بن الأغلِب إلى خُرَيْش رأس الضلال سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن مثلك مثل البعوضة التى قالت للنخلة وسقطت عليها: استمسكى فإنى أريد الطيران، فقالت النخلة: ما شعرت بسقوطك فيكرُبى طيرانك».

ولا نعرف هل كتب إبراهيم بن الأغلِب هذه الرسالة بنفسه أو كتبها له أحد كتاب دواوينه وتُعنى الدولة الأغلبية (١٨٤ - ٢٩٦هـ) بكتاب دواوينها وتأخذ فى النهوض بها، ومن اشتهروا

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٤٠.

(٢) الفهرست (طبع القاهرة) ص ١٧٧.

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى (طبع القاهرة) ص ٢٨٠ وما بعدها.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٤٢.

من كتبها أبو العباس البريدى محمد بن حيون رئيس ديوان الإنشاء لعهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١ - ٢٨٩ هـ). وقدّم على إبراهيم من بغداد أبو اليُسّر الشيبانى إبراهيم بن محمد، وكان قد غضب على البريدى فأقامه مقامه على ديوان الإنشاء بعاصمته «رقّادة» وهو أهم كتاب هذه الدولة وسنخسه بكلمة. وكانت الدولة الصنهاجية تعنى بدواوينها ورأس ديوان الإنشاء بها لمدة ربع قرن الكاتب الرقيق القيروانى، كما رأسه على بن أبى الرجال، وهما من الكتاب البلغاء، غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ ببعض ما دبجاه من الرسائل. ومع ذلك فإن أمير المهديّة الحسن حفيد تميم بن المعز حين هزم أسطول الملك روجار الثانى أمام عاصمته سنة ٥١٧ كتب إلى سائر الجهات كتباً منها كتاب يقول فى بعض فصوله^(١): «إن صاحب صقلية ليجّ فى طغيان غيّه، واستمر على عدوانه ويغيّه، وحمله سوء تدييره، وفساد تقديره، على اهتضام جانب الإسلام، وتوهم أن ذلك سهل الملتمس قريب المرام، فاستجاش وحشد، واستغزر واستمدّد، ولما استتبّت فى ظنه أموره، وكمل تدييره، الذى كان فيه تدميره، سير أسطوله نحو المهديّة - حماها الله - فى نحو ثلاثمائة مركب، حمل على ظهرها ثلاثون ألف راکب، وزهاء ألف فارس وكان إقلاعه فى طالعٍ مقارن للنحوس، قاضٍ عليه بإتلاف الأموال والنفوس، فمن أول ما أنشأه اللّهُ فيه من صنعه الجميل، وأظهره من عنايته التى لا يؤدى حقها بغير الشكر الجزيل، أن أرسل عليهم ريحا صيرت جميعهم إلى التّبار^(٢)، ونابت فى إهلاكهم مناب زُرُق الأسنّة وبيض الشّفار.. واستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا فأقبلوا أفواجا أفواجا، وجاءوا بجىء السيل يعتلج^(٣) اعتلجا، ويتدفق أمواجا، وكلهم على نيات فى الجهاد خالصة، وعزائم غير راهية من مواقف الموت ولا ناكصة، ووصل الأسطول المخذول بمن أسلمه السّوق إلى حد الحسام، ونخطّاه الغرق من الحمام إلى الحمام^(٤)، ونزلوا على عشرة أميال من المهديّة بجزيرة هنالك فتسرّع إليهم من جندنا ومن انضاف إليهم من العرب المنجدة لنا طائفة أوسعت أعداء الله طعنا وضربا، وملأت قلوبهم خوفا ورعبا. فلما عاينوا ما نزل بهم، أنزلوا عن ظهور مراكبهم، ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، وكانت نحو خمسمائة فرس.. فأكذب الله ظنّونهم، وخيّب آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم.. فولوا أديبارهم يرون الهزيمة غنيمة، والهرب غلبة، وتركوا كثيرا من خيلهم وأسلحتهم نهباً مقتسها، وقينا^(٥) مغتنا»

ومضى الكتاب يذكر أن الجيش النورمانى كان قد استولى فى أول نزوله على قصر الديعاس بين المنستير والمهديّة، وكانوا قد أنزلوا به مائة منهم فاستوصلوا عن آخرهم. والكتاب يتميز

(٤) الحمام: الموت.

(٥) فينا: مغتنا.

(١) الحلل السندسية ٤٧٢/٢.

(٢) التبار: الهلاك.

(٣) يعتلج: يجتمع.

بألفاظ منتخبة مختارة، وليس فيها غريب مهجور، والأسلوب فيه مسجوع، ويترد في يسر، مما يدل على ما حازته كتابته الرسائل الديوانية في العهد الصنهاجي من تقدم ورقى.

ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية وتحدث نهضة حقيقية في ديوان الإنشاء بفضل من عمل فيه من كبار الكتاب الأندلسيين المهاجرين إلى تونس من أمثال ابن الأَبَّار ومحمد بن الحسين بن أبي الحسين وزير مؤسس الدولة أبي زكريا وابنه المستنصر وأيضا بفضل طبقة بارعة من الكتاب التونسيين أمثال أبي العباس أحمد بن إبراهيم الغسانی المتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م وقد جمعت له خِطَّة العلامة وخِطَّة الإنشاء وابن الحَبَّاب محمد بن يحيى المَعافرى وأبي بكر بن خلدون وله كتاب في النظم الحفصية لا يزال مخطوطا وفي معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مخطوطة منه، وفي الورقة رقم ٥٣ يتحدث عن طريقة المخاطبات الصادرة عن الخليفة الحفصي قائلا: «في مخاطبة من الأمير الأعظم إلى غيره تقول: من فلان باللقب: أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وتعدُّ آباءه الخلفاء إذا لم تذكر اللقب، فإن ذكرته جعلته جملة، وذكر اللقب أحسن في الحالتين، ثم نقول أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الشيخ أبي فلان أو إلى أبي فلان أو إلى الأشياخ والأعيان والكافة من بنى فلان أدام الله كرامتهم وتوفيقهم بتقواه سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله. وبعد تمام الصَّدْر تكون الوصية بتقوى الله وبما يجب. هذا إذا كان كتابا، وإذا كان صَكًا، ويسمى الآن ظهيرا فلا يكون فيه صدر ولا وصية ولا اسم المكان الذى كُتِب منه»

وكان أبو بكر بن خلدون يعمل في دواوين أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية، ونرى القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ يؤكد استمرار هذا التقليد في الكتابة الديوانية التونسية حتى عصره إذ يقول في كتابه صبح الأعشى عن رسم المكاتب الواردة إلى القاهرة عن صاحب تونس: «عادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ من عبد الله الفلاني مع ذكر لقب الخلافة: أمير المؤمنين بن فلان، ويقال في كل أب من آباءه: أمير المؤمنين إن كان قد ولى الخلافة ويدعى له. إلى أخينا فلان، ويؤتى بالسلام والتحية، ثم يتخلص بالبعديَّة إلى المقصد ويختم الكتاب^(١)». ويورد القلقشندى عقب ذلك مباشرة رسالة من الخليفة الحفصي المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله الحفصي (٧٧٢-٧٩٦هـ) إلى السلطان برقوق يهنئه فيها باسترداده عرش سلطنته سنة ٧٩١ وهى تستهل بهذه الصورة:

«من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين أحمد ابن مولانا الأمير أبي عبد الله ابن مولانا الأمير أبي يحيى بكر ابن الأمراء الراشدين أعلى الله به كلمة الإسلام، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام، إلى أخينا الذى لم نزل

(١) صبح الأعشى ٧٩/٨.

نشاهد من إخائه الكريم، في ذات الربِّ الرحيم، قبلةً صفاء لم تغيَّرْها يدُ بَعاد ولا انتزاح، ونشاهد من حفظ عهده، والقيام بحقِّ وُدِّه، على ما يؤكد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح، ونبادر لما يبعث القلوبَ على الالتفاف، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف، وإن شحطت الدارُ وتناوت الصور والأشباح، ونعترف بما له من مزيد الإِعظام بمجاورة البيت الحرام، والقيام بما هنالك من مطالع الوحي الكريم ومشاعر الصلاح، ونَجْتَلِي من أنوائه الكريمة الشريفة، ومطالعه العالية المنيفة، وجوه البشائر رائحة الفرر والأوضح.. ونبتهل إلى الله بالدعاء أن يخبرنا عنه، ويطلعنا منه على ما يقرُّ عيون الفوز ويشرح صدور النجاح، السلطان الجليل الظاهر، الملك الأعظم الظاهر... أبي سعيد برقوق»

وواضح أن الكاتب الحَفِصِيَّ لم يكتف في مستهل رسالته بالأسجاع الحائية، فقد ضمن كل سجة سجتين داخليتين، وكان السجع في الرسائل الحفصية أصابه ما أصاب السجع في الرسائل الديوانية - منذ القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي - من تطويل لتضم السجعة تحت جناحيها سجتين داخليتين كما في هذه القطعة من الرسالة. وعضى في الرسالة فيحمد الله ناظم الشمل وجابر الصُدْع الذي قرن بالعُسْرِ يُسْرًا. ثم يصلى ويسلم على الرسول الذي صَدَعَتْ بالحقِّ آياته، وقامت بحجة دعواه معجزاته.. ويضيف الصلاة على آله وأصحابه أولياء دينه الكريم وولائه، وأنصار حزبه المفلح ومُحَمَّاتِه، ولُيُوثُ دفاعه في صدور الأعداء وكُماتِه. ويدعو الكاتب لخليفته، ويذكر للسلطان برقوق أنهم ظلوا حين عُزِلَ عن السلطنة يدعون له أن يُردَّ الأمر إلى نصابه، ويُطِيل في تهنته بنصره، ويُشيد برسالة السلطان برقوق إليه بأنه استعاد سلطانه، ويذكر انتصاراً لأسطوله أذ أغار على بعض جزر البحر المتوسط وكان صاحبها أغار على الساحل التونسي، يقول:

فلم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حَرَمَهُ وِجْمَاهُ، ونَطْرُق طروقَ الغارة السَّعْواءِ بلاذَه وقُراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يدها إلى أن ذاقوا من ذلك وبأل أمرهم، وتعرَّفوا عاقبة مكرهم. وكان من جرائرهم المعترضة شَجًّا في حلوق الخُطَّارِ^(١)، ومتجسِّمِي الأخطار، ورُكَّاب البحار، من الحجاج والتجار، جزيرة غودش^(٢) وبها من أعداء الله جَمٌّ كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غَرَبَانًا^(٣) نَعَقَتْ عليهم بالمنون، وعرَّفَت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون.. وسارت تحت أجنحة النجاح إليها، إلى أن رمت مخالبَ مَرَّاسِيهَا عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بُهَّت الذي كفر، وودَّ الفرارَ والحَيِّينَ (الموت) يناديه

(١) الخطار: المتحركين بحرا.

(٢) غربانا: سفنا مطلقه بالفار.

(٣) لعلها جزيرة رودس.

أين المقرّ، فلما قضى السيفُ منهم أو طاره، وشفى الدينُ من دمائهم أوّاره^(١)؛ جمعوا منهم عدداً يُنيف بعد الأربعمئة على الأربعين، وجاءوا بهم في الأصفاد مقرّنين، وامتلاّت بغنائمهم - والحمد لله - أيدي المسلمين، وانقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين». وإنما ذكرنا هذه القطعة الطويلة في ختام الرسالة لندل على براعة كاتبها وأنه لم يكن يقلّ عن كتاب المشرق بياناً وبلاغة. وفي ذلك ما يدل على أن الكتابة الديوانية في العهد الحفصيّ رقيت رقياً بعيداً وأن كتابها لم يكونوا يقلّون عن نظرائهم في المشرق فصاحةً لفظاً ورسالةً مع اصطفاء الكلام والملاءمة بين الكلمة والكلمة والسجعة والسجعة بحيث يجد القارئ لرسائلهم لذة ومنتعة مع ما يجد فيها من الحقائق التاريخية كهذه الغارة على جزيرة غودش، غير أن الزمن لم يحتفظ بها جميعاً، فضاقت فيما ضاع من نصوص أدبية تونسية.

٣

الرسائل الشخصية

إذا كان جمهور الرسائل الديوانية القيروانية والتونسية سقط من يد الزمن فإنه احتفظ بكثير من الرسائل الشخصية، ومن أوائل ما يلقانا منها رسالة استعطاف لداود القيرواني المتوفى حوالي سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م وكان قد تقلد ديوان الرسائل لمحمد بن مقاتل العكّي فلما عزل وتولى على القيروان وإفريقية مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م اختفى داود أياماً وكتب - من مخبئه يستعطف ابن الأغلب - رسالة يقول فيها^(٢): «ذنبى عظيم، وحناقى ضيق، وحجتي ضعيفة، وعفو الأمير وطوّله^(٣) أعظم من ذلك كله، فإن تداركنى الأمير - أعزّه الله - بما أوّملُ فذلك الذى يشبهه ويُنسبُ إليه وأرجوه منه، وإن يعاقبُ فبالذنب الذى اجترّمته^(٤) وهو أحقُّ بانتشالي من زلّتى، وإقالتى^(٥) عن عترتى.. والأمير أولى فىّ، وأنظرُ منى لنفسى، وأعلى بما سألتُهُ ورغبتُ إليه فيه عيناً وبدّاً، والله ولىُّ توفيقه فيما عزم عليه من ذلك. أتمّ الله على الأمير نعمته» فعفا عنه الأمير إبراهيم بن الأغلب وقرّبهُ منه، واستكتبه، وعهد إليه فى مهماته واتخذهُ مستشاراً فى أموره، وكان نعم الناصح له الأمين. واشتهر ابنه إبراهيم بإتقان الكتابة وعين مثل أبيه فى الدواوين الأغلبية. وإذا مضينا إلى عهد إبراهيم الأغلبى الثانى (٢٦١-٢٨٩) وجدناه يسخط على كاتبه الخاص البريدى محمد بن أحمد بن حيون المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ويزج

(١) أوّاره: ناره. (٢) اجترّمته: اقترفته.

(٣) المجمل فى تاريخ الأدب التونسى ص ٤٥. (٤) إقالتى: الصّح.

(٥) طوله: فضله.

به في غياهب السجون، فيرسل إليه رسالة طويلة مستعظفا، وفيها يقول^(١) :

«لكرم العفو وعلو قدره وجليل خطره تسمى الله عز وجل به فسمى نفسه: ﴿العفو الغفور﴾ والطبع البشري مركب على النقص، مقرون بالزلل.. ولست - أيد الله الأمير - من يدعى العصمة والبراءة من الهفوة، ولست أمت^(٢) إليك إلا بفضلك علي، وإحسانك إلي.. وإن من غرس غرسا فواجب أن لا يجتته (يقطعه) وإن أبطأ بسوقه^(٣) بل يمدّه بمدد مواريده العذبة حتى تمتد خيطانه^(٤) وتورق أغصانه. أعاذك الله - بما أودعك من معالي الأخلاق - من ترك العفو عن مقرر معترف لا يعرف إلا فضلك، ولا يرجو إلا عدلك.. فالخطي بعين عفوكم، وأضف^(٥) (أسبغ) على ستر نعمتك».

ويبدو أن ذنب البريدي كان كبيرا فلم يلن له قلب إبراهيم الثاني الأغلبى ولا صفح عنه، بل أمر بقتله وسفك دمه. وتكثر الرسائل الشخصية في عصر الدولة الصنهاجية، وسنخص إبراهيم الحصرى صاحب زهر الآداب بكلمة عنه وعن رسائله. وتلتقى بابتن شرف القيروانى المترجم له بين أصحاب المراثى للمدن والدول، وكما كان شاعرا مبدعا كان ناثرا مبدعا، وقد رحل إلى الأندلس بعد ما نزل بالقيروان من طوفان الأعراب الهلالين، كما أسلفنا، وترجم له ابن بسام في ذخيرته ترجمة ضافية، وذكر له فضلا من رسالة خاطب بها المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، وفيها يقول^(٦) :

«كتبت وشوقى إلى شرف لقباه، وشيم^(٧) سقياه، شوق القارظين^(٨) إلى سكون وسكنى، والقيسين إلى لىلى وألبنى.. والله ببلوغ الأمل خير كليل، والشيخ يهدمه الشتاء وقد رأيت طوفان قرطبة يقيم دهرًا، وإنما أقام طوفان نوح شهرا». ويذكر له ابن بسام فصولا نثرية يبدو أنه حبرها للكتاب كى ينتفعوا بها في رسائلهم المختلفة في مديح أمير أو وزير أو قائد أو قاض أو كاتب أو فقيه زاهد، من ذلك فصل يصلح أن يكتب به إلى حاكم أو وزير، وفيه يقول^(٩) :

«يقدم الحزم، ويشئ بالعزم، يشاور ذوى الألباب على أن رأيه لباب، يثب وثوب اللئث،

- | | |
|--|---|
| (١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع | (٥) أضف: أسبغ. |
| الدار البيضاء) القسم الثالث ص ٣٠ وقارن | (٦) الذخيرة ١٩٢/٤. |
| باين عذارى ١١٥/٨ ومجمل تاريخ الأدب التونسى | (٧) شيم: بارد. |
| ص ٦٥. | (٨) القارظان: جاهليان خرجا في طلب القرظ |
| (٢) أمت: أنتسب. | (شجر) ولم يعودا. |
| (٣) بسوقه: ارتفاعه. | (٩) الذخيرة ١٨٤/٤. |
| (٤) خيطانه: فروعه. | |

ويتدفق دُفوقَ الغيث، ويُراوح بين العَجَل والرَّيث، نومه غِرارٌ^(١) واضطرار، وحاجاته سِرار^(٢) ثم اقتدار، لا تَبْطِطه الظلُّ ولا الظُّلال، ولا تَطْبِيه^(٣) الكِلل ولا يَبْنِيه الكلال (التعب). رأيه قَبْسُه (مصباحه) وعزمه فرسه، وبصيرته بَصْرُه، وصَدْرُه وِرْدُه وصَدْرُه^(٤)».

وهذه المقدره الأدبية البديعة تتوالى هذه الفصول النثرية في المديح للحكام والوزراء ورجال الدولة من قواد وقضاة وكتّاب، ويورد له ابن بسام فصولاً أخرى في الذم لا تقل عن الفصول السابقة في روعتها الأدبية، وفي أول فصولها يقول^(٥):

«فلان غَوْرُه أقرب قريب، وقلبه مورود القلب^(٦)، فسراثره مكشوفة، ودَخِيلَتُه معروفة، كتمانُه إخبار، وتديبره إِدْبَار، رأيه وراء، وساحته عَراء، حِسُّه هامد، وفهمه جامد، لا يعرف الرِّشْد من الغيِّ، ولا يَفْرُق بين التَّقْبِيل والكَيِّ، طُلُّ بال، لا يخطر على بال، الشمس عنده سُهّا^(٧) والحُمق نَهْي^(٨). لا يعلم رأسه، من أين أنفاسه، ولا يدري دماغه، أين أصداعه».

والفصل يموج كسابقه بالسجع المختار والألفاظ المنتخبة والطباقات والجناسات وناهيك بما يحمل الفصل في سجعه من روعة، مما يزين وقعه في الأذن والنفس، إذ ما تزال الإرنانات متصلة في الكلام، وما يزال جرسها يمتع الأسماع والأفئدة، مع ما يبهر من الألفاظ الثلاثية التي نظير عن الأفواه في خفة. ويلقانا بعد ابن شرف على الحصري الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل، وقد ترجم له ابن بسام في ذخيرته، وأورد له فصولاً من بعض رسائل، استهلها بالفصل التالي له من رسالة^(٩).

«السلام عليك أيها القلب الثاني، والبعيد الداني، الراقى في سماء المعالي، الواقي من داء اللبالي، أول مَنْ عَدَدْتُ، وأفضل من أَعَدَدْتُ، وَمَنْ لازل النسيم في البُكر والعَشِيَّات، يُهْدِي إليه أطيب التحيات، وَمَنْ جُعِلْتُ وِقَاءه، ولا عدمت لِقَاءه، وإذا كان الكريم سالماً، كان الزمان مسالماً».

وفي سجعه نفس العذوية التي مرت في سجع ابن شرف، وفيه الطباقات وكثير من الجناسات، ومع كثرتها لا يشوبها أى تكلف، وكأنه يستمدّها من نبع فيّاض لا ينضب، وكانت قد نشبت بينه وبين ابن الطراوة النحوى الأندلسي المشهور المتوفى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م خصومة

(١) غرار: قليل.

(٢) سرار: كتمان.

(٣) لا تَبْطِطه الظلُّ ولا الظُّلال أى حياة الدعة.

(٤) ومثله لا يَطْبِيه أى لا تستمليه الكلال/الأستار/ أى

أنه لا يستقيم حياة الدعة والحمول بَل يقتحم

(٥) المخاطر والمهالك، ويجد في هذا الاقتحام متاعه.

(٦) صدره وردده وصدره كأنه النبع الذي يَرده

ويصدر عنه دون التماس رأى من أحد.

(٥) الذخيرة ٤/١٨٨.

(٦) القلب: البئر.

(٧) سها: نجم صغير أى أنه لا يميز.

(٨) نهى: عقل.

(٩) الذخيرة ٤/٢٤٧.

ومخاطبات نال كل منها فيها من صاحبه، ويذكر ابن بسام له فصلا من إحدى مخاطباته ورسائله إلى ابن الطراوة، وفيه يقول^(١):

« ما حياقي بين الحيات، وثباتي في الجميع أو الثبات^(٢) وقد حانت وفاة الوفاء، وخانت صفات الصفاء، وأرداني^(٣) الزمان بأردانه^(٤) وأعياني بتقلب أعيانه. الجاهل هو الحاظي^(٥) والعالم ميخوس الأحاظي^(٦).. وما أضحكني ملء في، وأطاشني وليس الطيش في، هذا المنتحوي^(٧) المنتحوي^(٨) نظمت قصيدة سميتها سهم الشهم، وضمتها مسائل لا تخفى على أولى الفهم، فما بلغته حتى دمعته^(٩) وألفاها كأنها حية لدغته. أيها المموه بجهله، والمدعى العلم وليس من أهله، سكرت فصحوك لا يجديك.. وكأني بمن ضمك قد ضامك (ظلمك)، وبمن لك قد لامك. وزعم هذا الأهوج الأعوج أنه لم يعرف رسمى، ولا سمع باسمي، كأنما ولد بالأمس، أو بُعث من الرمس (القبر)، أو عمي عن الشمس».

وكأنما بلغت القيروان في القرن الخامس عند ابن شرف وعلى الحصرى كل ما كانت تحلم به من روعة وإبداع في الكتابة الأدبية وأسجاعها القصيرة وألفاظها المنتخبة الرشيفة، ونمضى إلى عصر الدولة الحفصية، ويرسل أبو الفضل التجاني المتوفى سنة ٧١٨ رسالة إخوانية يتودد فيها إلى ابن عمه عبد الله التجاني صاحب الرحلة المشهورة في أثناء رحلته بالقسم الجنوبي من الإقليم التونسي آملا في لقاء قريب به، وفيها يقول^(١٠):

« هذا الزمن الذي أوقع ريبا واشتعل الرأس به شيبا، سرعان ما تتقهقر القواطع منه مقصرة، وتمحو ليله آية النهار مبصرة، وتلقى حيلاه من سقط الفرقة مضعة، ويرجع راجع الشباب صبغة الله (ومن أحسن من الله صبغة) وإذ كان يعيده حامل كلام، ويرده واصل سلام، فما ظنك به حين يلتقى المقيم والآيب، وتقبل الركائب، وتراج من جذب البرى^(١٢)، ويراح^(١٣) إلى جنة القرب ونار القري^(١٣) وحينئذ تتصل الأفرح، وأنشد:

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحٍ^(١٤)»

والقطعة مسجوعة وتحمل كثيرا من الصور وبها طباقات وجناسات واقتباس من الذكر

- | | |
|-------------------------|---|
| (١) الذخيرة ٢٤٩/٤. | (٩) دمعته: ألمت دماغه. |
| (٢) الثبات: الجماعات. | (١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢١١. |
| (٣) أرداني: أهلكني. | (١١) تراج: تستريح. البرى جمع برة وهي حلقة |
| (٤) أردانه: أكمامه. | من نحاس ونحوه توضع في إحدى فتحتي أنف |
| (٥) الحاظي: المحفوظ. | البعير لجذبه بزمام منها لتذليله. |
| (٦) الأحاظي: الحظوظ. | (١٢) يراح: يرجع. |
| (٧) المنتحوي: من النحو. | (١٣) القري: الطعام يقدم إلى الضيف. |
| (٨) المنتحوي: المتعاطف. | (١٤) براح: فراق. |

الحكيم واستشهاد بيت سعد بن مالك في حرب بكر وتغلب معرّضا فيه بالحارث بن عباد حين اعتزل هذه الحرب، وهي تصوّر براعة كاتبها الأدبية، وكان يتقلد رئاسة ديوان الإنشاء أيام الخليفة الحفصي أبي يحيى زكريا المشهور باللحياني وابنه محمد الملقّب بأبي ضربة. ومن كتاب الرسائل الشخصية في هذا العصر ابن خلدون، وسنخسه بكلمة. وتتكاثر الرسائل في العصر العثماني، من ذلك رسالة تعزية لعلی الغراب الصفاقسي يعزى صديقا له في أمه ومن قوله فيها^(١):

«ترك القلب بعد المسرة أسيفا، وقرع الأسماع قرعًا عنيفا، ذكر ما أصبت به في مبدأ لَوْحَتِكَ^(٢)، ومُنبت دَوْحَتِكَ، ومنع مَشْرَبِكَ، ومطلع كوكبك، حيث أجابت الدواعي العُلُوِيَّة، إذ قالت لها ﴿أرجعي إلى ربك راضية مرضية﴾.. فعز علينا - والله - هذا المصاب، وبلغنا من الحزن بهذا الرُزء^(٣) النَّصَاب (الغاية).. فتأس يا أخى بصر ذوى الألباب، وأدخر ما أصبت به عند الله ليوم الحساب، فلا يخفاكم ما أعد للصابرين من الأجر والثواب ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أحسن الله لك بها العزاء، وجزاك الله أفضل الجزاء».

والتكلف واضح في هذه الرسالة، وعلى الغراب يكثر في كتاباته من صور التصنع المختلفة، وسنعود إلى بيان ذلك في الحديث عن مقاماته، ولمحمد ماضور المترجم له بين شعراء الغزل رسائل شخصية متعددة، من ذلك رسالة في تهنئة صديق بالإبلال من مرضى، وفيها يقول^(٤):

«سلام أعلى وأغلى، وأجلى وأحلى، وأبقى وأتقى، من سلام شائق لمشوق، وواقم لموموق، أخص به حضرة الموسم بصدق الإخاء، في الشدة والرخاء، لازالت عيون السعادة تلاحظه، وأيادي الإيادة (التأييد) تفاوضه بمئة الله تعالى، أما بعد فإني أحمد الله لي ولك على العافية الكافية، والنعمة الضافية الوافية، أمدها الله علينا امتداد رحمته، وأبقاها لدينا بقاء كرامته ومينته».

ولغه ماضور سهلة وليس فيها لفظ غريب ولا تكلف، وهي مسجوعة، مثلها في ذلك مثل الرسائل الشخصية في عصرها وقبل عصرها، إذ لم يستجيب الكتاب إلى دعوة ابن خلدون بتخليص الرسائل من السجع، وكأنها كانت صرخة في فلاة، والرسالة مكتظة بالجناسات زينة الكتابات الأدبية هي وأخواتها من المحسنات البديعية. وله من رسالة يعزى صديقا في رُزء أصابه^(٥):

«كتابي هذا عن نفسٍ مستطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شعاره برحاء (شدة) الجوى تفجعا لما فجعك، واشترাকা في عظيم المصاب معك، وأسفا على من فقدناه فقدان

(١) انظر ديوان على الغراب الصفاقسي (٣) الرزء: المصيبة.

(٤) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص ٢٦٣.

(٥) نفس المصدر ص ٢٦٤.

(٢) لوحتك: خلقتك ووجودك.

السمع والبصر، ورُمينا فيه بأعظم الحوادث والغير، وأى رُزء ما أفضعه في القلوب، وأى خطب ما أشنعه في الخطوب.. وقد رمانى ساعد الزمان حين رماك، وأصماني سهمه كما أصماك.. لا أعاد الله عليك بعد هذا الخطب خطبا، ولا أرجف لك قلبا».

والاستعارات في التعزية والجناسات تخلو من التكلف، والسجع ينزلق في الرسالة - كسابقتها - عن اللسان بخفة، والألفاظ فيه متأخية كأنما بينها رحم وقراية، لما بينها من تلاؤم في الجرس ييسرها في النطق على اللسان، ويزينها في السمع للأذان.

٤

المقامات

فن المقامة فن عربي عباسي ابتكره بديع الزمان عارضا فيه جيل الأدباء السيارين المحترفين للكُذبة أو الشحاذة الأدبية عن طريق ما يخلبون به الناس من فصاحتهم، وقد كتب مقاماته بأسلوب قصصي، واتخذها جميعا رواية هو عيسى بن هشام وبطلا هو أبو الفتح الإسكندري، وعيسى يروي في كل مقامة حيلة لأبي الفتح مع شيء من حواره معه في أساليب أدبية مسجوعة بديعة. وتلقانا في القيروان وتونس رسائل أدبية يسميها أصحابها مقامات، وهي لا تقوم - كما قامت عند بديع الزمان والحريري بعده - على الكذبة أو الشحاذة الأدبية، مما يجعل في تسميتها مقامات ضربا من التجوز. ومن أقدمها في القيروان رسالة نقدية لابن شرف سماها «رسائل الانتقاد» عرض فيها نحو أربعين شاعرا منذ العصر الجاهلي حتى عصره، وأتبع ذلك ببحث في سقطات عدد من الشعراء وعيوبهم. وأحكامه على الشعراء مجملة وغير معللة غالبا، وهي بذلك ليست مقامة وإنما هي رسالة نقدية ولا نسمع بعد ذلك عن عمل لقيرواني حاكي به قصص الشحاذة الأدبية عند بديع الزمان والحريري، حتى إذا كنا في العصر العثماني وجدنا غير شاعر ينسب إليه بعض المقامات، وأول ما يلقانا من ذلك ثلاث^(١) مقامات للشاعر على الغراب الصفاقسي المترجم له بين شعراء المديح، وأولاها تسمى المقامة الباهية نسبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد الباهي في إقامه مدرسة أحدثها لعهد الأمير على باي الأول، وقد حدثه بها أبو الصلاح مسعود عن أبي التناء محمود الذي روى له أخبار تونس مفيضا في مديحها ومديح الأمير على باي الأول. ثم يفيض في وصف المدرسة ومبانيها وغرفها وصفا مسهبا، ثم يطنب في تهنئة الشيخ الباهي وابنه بإتمام المدرسة ويختتم المقامة بقصيدة في مديح الشيخ. وواضح أن هذه المقامة ليس لها من فن المقامة شيء، أما في حقيقتها فإنها رسالة تهنئة للشيخ الباهي المسماة باسمه. وسمى مقامته الثانية باسم المقامة الهندية نسبة إلى الهندي وهو التين الشوكي، وكان شخص ذمه فأخذ يبدئ ويعيد في وصفه ووصف نموه على شجره قبل قطفه والالتذاذ

(١) انظر المقامات في ديوانه ص ٣٣١ وما بعدها.

بطعامه، وحاكى المقامة أبو سنان الهندي عن أبي عاصم الهندي، وليست مقامة إنما هي رسالة في وصف التين الشوكي، ومقامته الثالثة اتخذ موضوعها عبادة كان كلّف حمودة بن عطاء الله بحملها وغسلها فأبظأ بها عليه، فكتب إليه هذه المقامة مداعبا، وفيها يقول:

«المسئول من على همتكم وشريف حرمتكم أن العبادة إذا كانت في دائرة الوجود وعلى الوجود مشتملة، فأيسر عَ إنفاذها على الحال اللازمة لها أو المنتقلة، وإلا فأخبرنا لنعرض عنها ونقول: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ فإن الشتاء أرسل يخبرنا بموافاته.. وهذه العبادة غاشية^(١) لجميع أهل بيتنا في البرد، كافية للجمع منهم والفرد، ومنذ فقدت زمن ذلك الحر الكثير، لم يسألني عنها منهم صغير ولا كبير، بل كلما أمال النوم رقبهم غلقوا أبوابهم ﴿وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ ولما أن قطب وجه الشتاء وعَبَس، وقد أصبح أنفه يتنفس، صاروا كلما أقبلت ليلة شاتية، تنقلب جنوبهم في المضاجع كل ناحية، وقاموا قبل الفجر يسألونني ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وجعلوا يتأسفون على فقرهم إليها ويقولون: ﴿يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾.

وليس الحديث عن هذه العبادة مقامة إنما هو رسالة أراد بها إلى الدعابة، ونراه في هذه القطعة من الرسالة يقبس مرارا من القرآن الكريم آيات يزين بها أسلوبه، وهو يكثر من ذلك في مقاماته كما يكثر من التصنع لمصطلحات العروض والعلوم وخاصة النحو. وفي هذه القطعة من مصطلحاته الحال اللازمة والمنتقلة، وأيضا فإنه يكثر من التوريات، ويتكلف لذلك كله في صور مختلفة.

وللشاعر محمد الورغي ثلاث^(٢) مقامات أيضا، سمي أولاها الباهية، وهي تتطابق مع المقامة الباهية لعلي الغراب في أنها تتخذ موضوعها مديح الشيخ الباهي وابنه اسماعيل وهي بذلك مثل مقامة الغراب رسالة لا مقامة. وسمى مقامته الثانية الورغية كتبها حين ختن على باي الثاني أولاده وأولاد أخيه محمد الرشيد، وفيها يفتخر بشعره ويضع نفسه فوق شعراء عصره، ويعارض قصيدة أحدهم ويتناولها بالنقد، وهي أيضا لا تشبه فن المقامة في شيء إلا في نسبتها إليه. وسمى المقامة الثالثة المقامة الحميرية كتبها حين هدم الأمير على باي الثاني الحانات في عاصمته تونس، وجعل بطلها سعد السعود مكنيا به عن نفسه، وحاور فيها فتاة رامزا بها عن تونس، ويستهلها بقوله^(٢):

«يارواة الأخيار، وحمة القول المختار، شمل الله جمعكم بسلام، وجمع شملكم في دار السلام^(٣). خير المتكلمين من حدّث بما نفع، وخير السامعين من أحرز وجمع، وخير ما قيل من

(١) الغاشية: الغطاء.

(٢) انظر في هذه المقامات كتاب الأدب التونسي

(٣) دار السلام: الجنة.

الكلم، ما يقال لقائله: سَلِمَ، فاسمعوا الآن لحديث حسن، تخيرته في سالف الزمن: كنت ممن حُبِّب إليه معاناة الأسفار، وخَفَّف عنه مفارقة الأوكار، ورأى أن من العجز تفضيل داره على دار، وأن من الأسر اتخاذ خليفة أو جار، وأن يقعد عن كَسْبٍ يحويه ليوم تظهر فيه مساويه، فشدت على وسطى أطماري^(١)، وشمرت لقطع المفاوز بإزارى» ويقول إنه رأى من البلاد ألوفا، وخالط من أهلها صنوفا، حتى ألقى عصاه بتونس ويسمى فتاة فيها أعجب بها «تونس» ويجرى على لسانها بعض أحوالها ويستطرد إلى مديح حاكمها على باى الثانى ويصفها لعهد على لسان فتاته، مشيدا بها وبه قائلا إنها:

«محط الرحال، ومطمح الآمال، تجارتها نافقة، مبانيها رائقة، وسلُعها ثمينه، ومياها التي عمّت بها معينه، ومساجدها معمورة، وبركاتها منشورة، ومرتبّاتها لمدرسيها جارية.. وأما خراج بلاده، فقد زاد على معتاده، لكثرة العمارة، بحسن سياسة الإمارة».

وتطلب إليه الفتاة أن ينشئ قصيدة في مديح الأمير على باى الثانى لهدمه حانات العاصمة، وينظم فيه قصيدة. ووضح أن هذه المقامة مثل أختيها أشبه برسالة منها بمقامة، ونلاحظ أن لغته في مقاماته أخف وأعذب من لغة على الغراب في مقاماته. ومثل مقاماتها مقامة لحمودة بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. ولعل فيما قدمته مايدل على أن فن المقامة لم يزدهر لا في تونس ولا في القيروان. بينما ازدهرت فنون النثر الأخرى وخاصة الرسائل الديوانية والشخصية، وحرى بنا أن نترجم لأشهر الكتاب ممن سميناهم، وهم أبو اليسر الشيباني وإبراهيم الحصرى وابن خلدون.

٥

كبار الكتاب

أبو اليسر^(٢) الشيباني

هو إبراهيم بن محمد الشيباني ولد سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م ببغداد وبها المنشأ والمربى واختلف إلى حلقات شيوخها من المحدثين والفقهاء واللغويين أمثال المبرد والأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة، وبدا فيه ميل مبكر إلى الأدب جعله يلقي كبار الشعراء بها من أمثال البحتري وابن الرومي

(١) أطمار جمع طمر: التوب البالى.
 (٢) انظر في ترجمة أبى اليسر الشيباني التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) ١٩٠/١ والبيان المغرب لابن عذارى (طبع مكتبة صادر ببيروت) ٢٥٤/١ ونفح الطيب للمقرئ وورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ٢٤٤/١.

ويحمل عنهم دواوينهم، ويبدو أنه عمل في دواوين الدولة العباسية فترة مع سعيد بن حميد وسليمان بن وهب وأمثالهما. وكان فيه ميل إلى الرحلة ولعله عرف ارتحال زرياب إلى الأندلس ومحقق لنفسه من النجاح العظيم لعهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ) فرأى أن يؤم بدوره قرطبة، وقدمها في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) وطوّف في أنحاء الأندلس، ثم رأى أن يغادرها، ولا نعرف أسباب ذلك، وركب البحر إلى إفريقية، وقصد الأمير الأغلب إبراهيم الثاني (٢٦١-٢٨٩هـ) فلقى لقاء حسنا، وعمل بدواوينه ولم يلبث أن اتخذته رئيسا لديوان الرسائل لم يجد عنده من الأدب الرفيع والترسل البليغ والشعر الرائع مع حصافة الفكر ومكارم الأخلاق، ويبدو أنه هو الذي دفع إبراهيم الثاني إلى تأسيس بيت الحكمة في عاصمته رقادة، حتى إذا تولى زيادة الله الثالث عهد به إليه مع رياسته لديوان الانشاء، ويقول الكاتب الرقيق مؤرخ القيروان المشهور إنه هو الذي أدخل إلى إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وأخبارهم، واستمرت له منزلته الرفيعة عند الأغلبية حتى إذا انتهت دولتهم سنة ٢٩٦ وخلفتها في إفريقية الدولة الفاطمية أقره عبيد الله المهدي في عمله مستعينا به في توطيد حكمه، ولم يلبث أن توفي سنة ٢٩٨هـ/٩١١م بعد أن لقن ابنه وعددا من أبناء رقادة والقيروان أصول الكتابة الديوانية، ويذكر من ترجموا له مؤلفات لغوية وأدبية مختلفة، منها: سراج الهدى في معاني القرآن وإعرابه ومشكله، ومسند في الحديث، وكتاب لفظ المرجان على شاكلة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ويقال إنه كان أكبر منه حجما. وخلف بجانب ذلك مجموعة من الرسائل الثرية البليغة، واتخذ لبعضها أسماء مثل المرصعة والمدبجة والوحيدة والمؤنسة. وهو صاحب الرسالة العذراء التي نسبها محمد كرد على إلى إبراهيم بن المديني في كتاب رسائل البلغاء خطأ، وفي كتاب صبح الأعشى نصوص منها منسوبة إلى أبي اليسر مما يؤكد نسبتها إليه كما في كتاب العصر العباسي الثاني ص ٥٢١ وأشار إلى هذه النسبة الدكتور محمد طه الهاجري في كتابه دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب ص ١٠٧ ووثق نسبتها إلى أبي اليسر الدكتور محمود مكى في بحث قدمه إلى المجمع اللغوي.

والرسالة طويلة وتعرض بدقة موازين البلاغة وأدوات الكتابة، وهي - في رأينا - أول رسالة عرضت في تفصيل صناعة الكتابة الديوانية، ويذكر في مطلعها أن شخصا طلب إليه أن يعرفه بأداب الكتاب، ويطلب ممن يريد حذفها طول الاختلاف إلى العلماء ودراسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وأمثالهم ورسائلهم وعهودهم، مع التزود بالنحو والصرف واللغة والفقه. ويقول إن من يريد التفوق في صناعة الكتابة ينبغي أن يحسن اقتباس آي القرآن الكريم ووضعها بدقة في مواضعها وكذلك الأمثال والأشعار. ونشر أنه يستمد من الجاحظ

كثيرا من أفكاره عن الكتابة الأدبية، وقد طالب - كما طالب الجاحظ من قبله - بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس، وبالمشاكلة بين الألفاظ والمعاني حتى توضع الألفاظ في مواضعها. ونراه لا يرتضى - مستضيئا بابن قتيبة - عبارات في الدعاء مثل: «أبفأك الله طويلا» فخير منها «أطال الله بقاءك» إذ العبارة الثانية في رأيه أرجح وزنا وأنبه قدرا. ويطلب إلى الكاتب أن لا يستعمل الدعاء: «جُعلت فداك» لأنه ابتدل حتى بجمته الأفواه، كما يطلب إليه أن يعرف لكل كلمة مكانها، ويضرب مثلا لتوضيح رأيه هو أن شخصا كتب إلى داود بن خلف الأصفهاني صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر هذه العبارة: «وإن قال كذا فقد خرج عن الملة، والحمد لله» فقال له داود متعجبا من وضع الحمد في عبارته: «وتحمد الله على أن تخرج امرءا مسلما من الإسلام، هذا موضع استرجاع وللحمد مكان يليق به، وإنما يقال في المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون. ويقول أبو اليسر إنه يوضع مع ذكر الشكوى مثل: «والله المستعان» ومع ذكر البلوى: «نسأل الله صرف السوء» ومع ذكر النعم: «الحمد لله».

ويستضىء بالجاحظ في النهي عن الإيجاز المفرط في الرسائل والألفاظ المشتركة والمبهمة، ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث يشير الكاتب في صدرها إلى المراد منها. ويفيض في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة بريه، ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطبها ويلفت إلى كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قيل: لكذا ليلة مضت من شهر كذا وإن كان الباقي أقل من النصف قيل: لكذا ليلة بقيت. ويعود إلى الحديث عن وضع الألفاظ في مواطنها بكل دقة وينهى من ليست له موهبة في الكتابة عن الانتظام في هذه الصناعة.

وينقل عن الجاحظ إعجابه بالكتاب إذ التمسوا من الألفاظ ما ليس متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا، وبين أهمية الرسائل المحيرة تحبيرا جيدا في استنزال الجابرة وأنها قد تصنع ما لاتصنعه الجيوش اللجبة، وينقل عن البيان والتبيين للجاحظ نقولا كثيرة مثل تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة والصحيفة التي دوتها عن الهنود في البلاغة، وأيضا ما سجله الجاحظ عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين. وتأثير الجاحظ وابن قتيبة واضح في الرسالة، وللجاحظ النصيب الأوفر. ولعل في هذا التلخيص المجمل إجمالا شديدا للرسالة العذراء لأبي اليسر الشيباني ما يوضح كيف أنه عنى عناية واسعة بنقل تقاليد الكتابة في بغداد إلى إفريقية كما عنى زرياب قبله بنقل تقاليد الغناء البغدادي إلى الأندلس، وبدون ريب يفتح أبو اليسر الشيباني في إفريقية للكتابة الدبوانية عصرا جديدا بأكمله.

هو أبو إسحق إبراهيم بن علي المشهور بالحُصْرِي نسبة إلى قرية بحذاء القيروان اسمها الحُصْر، قال ابن رشيقي في التعريف به إنه «نشأ على الوراثة والنسخ لجودة خطه، وكان منزله لزيق جامع القيروان فكان الجامع بيته وخزانته، وفيه اجتماع الناس إليه ومعه. ونظر في النحو والعروض. ولزمه شبان القيروان، وأخذ في تأليف الأخبار وصنعة الأشعار، مما قرَّبه إلى قلوبهم، فرأس عندهم، وشرف لديهم. ووصلت تأليفاته صقلية وغيرها وانتالت (انتهالت) الصلوات عليه، مات بالمنصورة (بالقرب من القيروان) سنة ٤١٣ وقد جاوز الأشد. وكان شاعرا نقادا عالما بتنزيل الكلام وتفصيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة تشبُّها بأبي تمام في أشعاره، وتبعها لآثاره، وعنده من الطبع مالو أرسله على سجيته لجرى جَرِي الماء، ورق رقة الهوا». ويتبع ابن رشيقي في الثناء عليه ابنُ بسام في الذخيرة قائلا إنه كان صدر الندى ونكته الخبر الجلي، وديوان اللسان العربي، راض صعابه، وسلك أوديته وشعابه، وجمع أشتاته وأحبا مواته». وللحُصْرِي مؤلفات أدبية بديعة، أهمها زهر الآداب وثمر الألباب المنشور في أربع مجلدات، عارض به كتاب البيان والتبيين للجاحظ كما يقول ابن بسام «وما يقصر عنه مدا، ولا قصرت خطاه، ولم يورد فيه كلام العرب كما صنع الجاحظ، وإنما أورد روائع العباسيين من الشعراء والكتاب حتى عصره، وكاد لا يترك لهم مقطوعة شعرية بديعة ولا رسالة أدبية رائعة إلا دونها، يسعفه ذوق مصفى وحس دقيق وشعور رقيق، وأكثر من الاختيار لبديع الزمان فلم يترك له رسالة بليغة ولا مقامة باهرة في رأيه إلا دونها في كتابه، ونعجب أن يقدم لشباب الأدباء في الإقليم التونسي مقامات بديع الزمان، ولا يصدرون عنها في صنع مقاماتهم، غير أنهم إن كانوا عزفوا عما في مقاماته من الكدية والشحاذة الأدبية فما لاشك فيه أنهم مضوا يستوعبون ويتمثلون ما قدمه لهم من غذاء الشعر والنثر العباسي الرفيع، وهو غذاء ظل يحيا حياة متصلة في جيله والأجيال بعده، ومن أجله كان الشباب في إفريقية التونسية يلزمونه في حياته ويلزمون آثاره بعد مماته، إذ كان له من التأليف بجانب زهر الآداب كتاب الجواهر في الملح والنوادر وكتاب المصون والدرر المكنون وكتاب النورين أو نور الظرف ونور الطرف، وجميعها مختارات من رسائل وأشعار «أندى - كما يقول ابن بسام - من نسيم الأسحار، وأذكي من شميم الأزهار» وقد عرض منها فصولا بديعة. وتهمنا الفصول التي اختارها من رسائله، ومما اختاره له من رسالة إخوانية قوله:

خلكان ٥٤/١ والوافي للصفدي ٦/٦١.

(١) انظر في ترجمة الحُصْرِي الأنموذج ص ٤٥

والذخيرة ٥٨٤/٤ ومعجم الأدباء ٩٤/٢ وابن

«قد تقاربت الصفات، وتوازنت الذوات، وتكاشفنا لما تعارفنا، ورفعت الخلوة حجاب الاحتجاب، وخطت الخلطة لثام الاكتتام، وكنا مع طول الامتحان والاختبار ومدة الالتباس والاختيار، نقنع من ارتفاع القناع بلمحة، ومن اتقاد الزناد بفدحة، وتبرز العبارات، من معارض الإشارات، وغوامض الاستعارات، في طراز يديق عن مسرى السحر، ويرق عن مجرى الخمر.. ونختلس حركات البيان، في سكنات الزمان، كما اختلس اللفظ المحبُّ الكتوم، فهلمَّ الآن إلى التصريح دون التعريض، والتصحيح دون التمريض، وتعال نتلاطف، وتتكاشف، إذ قد لبسنا ثوب الأمان من الزمان».

والجناسات كثيرة في الرسالة، وبالمثل الطباقات في السطور الأخيرة، والاستعارات كثيرة كثرة مفرطة، وكأنه لم يكن يكثر من هذه المحسنات البديعية في الشعر فحسب، كما قال ابن رشيق، بل كان أيضا يكثر منها في النثر. ومن فصل في الإشادة بكتابة كاتب يقول:

«إذا بدأ القلم الأعلى براحتيه مطرِّزًا لرداء الفخر بالظلم
رأيت ما اسودَّ في الأبصار أبيض في بصائر لحظها للفهم غير عم
كروضة خطرت في وشى زهرتها وافترَّ نوارها عن ثغر مبتسم

وتبرجت في حللها وحليها، وابتهجت بوسميتها^(١) ووليها^(٢)، فاجتنت ما اشتبهت من خزامها وعرارها^(٣)، واجتلت ما رأيت من خيرها وبهارها^(٤)، ولثمت خدود وردها وسوسانها^(٥)، ورشفت ثغور أفاجها وحوذانها^(٦)، والتقطت مالا تخلق^(٧) الأيام بهجته، ولا تغير الأعوام جدته، من نور^(٨) يُقطف بالأسماع والأبصار، وزهر يتناول بالخواطر والأنكار، وسرحت الطرف، فيما يفوت الوصف، من غرائب إبداع، وعجائب اختراع، لم تفترعها^(٩) الأسماع».

والفصل مليء بالاستعارات فسطور كتابة هذا الكاتب تطرِّز بسوادها أو ظلمها رداء فخره، وما أشبه كتاباته بروضة تتمايل أغصانها بوشى زهرها، وتتلاأأ البسمات على ثغور نوارها. ويمضى في وصف الروضة طويلا مصورا بأزهارها كلماته، وكأنما أكبَّ على خدود وردها يلثمه

-
- (١) الوسمى: أول المطر. الولي: المطر بعد المطر.
(٢) الخزامى والعرار: نباتات طيبة الرائحة.
(٣) الخيري: زهر أصفر، والبهار: زهر أبيض وهما عطران.
(٤) السوسن: زهر متعدد الألوان جذاب عطر.
(٥) أفاح جمع أفحوان: زهر عطر يشبه النغر، والحوذان: نبات عشبي زهره طيب الرائحة.
(٦) تخلق: تيلي.
(٧) نور: زهر.
(٨) تفترعها: تتعود عليها.

وعلى ثغور أقحوانها يرشفه، وظل يقطف من زهر خواطر هذا الكاتب وأفكاره العبقية، مسرّحاً الطرف فيما يفوت الوصف. ويقول الحصرى من فصل مقذع في الهجاء:

«هو كليل الخاطر سقيم النفس، صدىء القريحة عديم الحس، ذو طبع جاس^(١)، وفهم قاس.. قد تعود لى الألسن بالسباب، وغمّز الأعين على الصحاب، واستعمل الملقّ والكذاب، فهو بين جاهل متغافل، قد حُسى قلبه رَيْنًا، ومُلئ لسانه مِينًا^(٢)، وبين من سمائم غائمه تلذع، وعقارب مكايده تُلسع.. قد أسكرته خمره الكبر، فخيّل إليه أن كسرى حامل غاشيته، وأن قارون وكيل نفقته، ويُلقيس إحدى داياته».

وذمّ هذا الأديب المتعالى الدّعوى شديد الإيلام، إذ لم يترك فيه الحصرى شيئاً من نفس أو حسّ أو طبع أو ذهن أو خلق إلا وجرحه، وكأنما يريد أن يمزقه تمزيقاً، ووصّفه بالكبر والتعالى حتى ليخال أن كسرى ملك الفرس من حشمه الذين يحملون من ورائه غاشيته وأن قارون صاحب الكنوز المشهور وكيل على نفقته، وأن بلقيس ملكة اليمن من حواضنه. ومضى يذكر له أنه يخال شعراء الجاهلية الكبار امرأ القيس والنابغة وزهيرا ليسوا شيئاً مذكوراً بجانيه. والرسالة طويلة ونظن طناً أن ابن زيدون استضاء بها في رسالته الهزلية. ولعل فيما قدمت من هذه الفصول ما يشهد له بأنه كان كاتباً مبدعاً إبداعاً رائعاً لا بما كان يزين به كتاباته من محسنات البديع فحسب، بل أيضاً بما كان ينتخب من الألفاظ مسويًا منها دُرراً متلاحقة.

ابن^(٣) خلدون

هو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى التونسى، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م حتى إذا أبلغ قرأ القرآن العظيم على أبى عبد الله بن برّال، وبعد أن استظهره قرأه عليه بالقراءات السبع المشهورة وبقراءة يعقوب أحد العشرة، وعرض عليه الشاطبيتين في القراءات وكتاب التقصّى لأحاديث الموطأ لابن عبد البر وكتاب التسهيل في النحو لابن مالك ومختصر ابن الحاجب في الفقه، وفي خلال ذلك تعلّم صناعة العربية على والده

ودائرة المعارف الإسلامية في ابن خلدون، وكتاب ابن خلدون: حياته وراثته الفكرى (طبع القاهرة) وأعمال مهرجان ابن خلدون في يناير سنة ١٩٦٢ بالقاهرة ودراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصرى (طبع القاهرة) وعبد الرحمن بن خلدون للدكتور على عبد الواحد وافي (طبع القاهرة) ومجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢١٨.

(١) جاس: غليظ.

(٢) رينا: دنسا. مينا: كذبا.

(٣) انظر في ترجمة ابن خلدون كتابه: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، وهو سيرته بقلمه (طبع القاهرة) والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ١٤٦/٤ والحلل السندسية ٦٦٥/٣ وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية لظه حسين ترجمة محمد عبد الله عنان وبرتشفيك ٤٠٥/٢ ومابعدها

وعلى الشيخين الحصائري والزُرزالي، وعلى إمام العربية والأدب بتونس أبي عبد الله بن بحر وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ كتاب الأشعار الستة للأبجلم وكتاب الحماسة وشعر أبي تمام وطائفة من أشعار المتنبي وسقط الزند للمعري ولازم مجلس المحافظ ابن جابر الوادي آشيً وسمع عليه صحيح مسلم، وكتاب الموطأ، وأجازة إجازة عامة. وأخذ الفقه عن جماعة منهم أبو القاسم محمد بن القصور قرأ عليه كتاب التهذيب للبرادعي ومختصر المدونة وتفقه عليه، وفي خلال ذلك كان يحضر مجلس الإمام محمد بن عبد السلام، وعليه سمع كتاب الموطأ. ولما ملك السلطان أبو الحسن المريني تونس سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م أحضر معه جماعة كبيرة من علماء فاس، فاستمع إليهم وانتفع بهم، وبخاصة من الشيخ أبي عبد الله الأبي التلمساني تلميذ ابن البناء المراكشي، وعنه أخذ الأصلين والمنطق وسائر الفنون الحكيمة والتعليمية.

وواضح من ذلك أن ابن خلدون كان - منذ نشأ - يكب على تحصيل العلوم بل يلتهمها التهاما، وقد لفت إليه معاصريه منذ حدثته، مما جعل أبا محمد بن تافراكين المستبد بالدولة بعد رحيل السلطان أبي الحسن المريني عن تونس يستدعيه سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م لكتابة العلامة عن الخليفة الحفصي أبي إسحق وهي وضع كلمة «الحمد لله والشكر لله» بقلم غليظ بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مكاتبة، وفي سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٣م استدعاه السلطان المريني أبو عنان فارس لينتظم في سلك رجال دولته، ولبّاه، فأكرم وفادته عليه، وعهد إليه سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٦م بالكتابة والتوقيع بين يديه، ونفس عليه بعض من حوله هذه المكانة عند السلطان وأخذوا يدسّون عليه فاعتقله السلطان سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م وظل في معتقله حتى توفي سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ورُدّت إليه حرّيته بعد وفاته، ولحق بالسلطان أبي سالم وولاه كتابة السر والإنشاء حتى توفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ودخل بعده إلى غرناطة بالأندلس واحتفى به سلطانها ابن الأحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب، وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير، وأرسله السلطان سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م في سفارة إلى ملك قشتالة، ونجح في سفارته وسرعان ما أخذ أهل السعيات يفسدون ابن الخطيب عليه، وأحسّ منه شيئا من الانتقباض لم يكن عهد فيه، وكانت قد وردت عليه كتب من الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية يستدعيه، فصمم على مغادرة غرناطة وركب البحر سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٥م إلى بجاية. واحتفل أميرها ورجال دولته به، وخالع عليه، وأخذ يستعين به في تدبير حكمه، وأسند إليه خطابة الجامع، ودرّس للطلاب، وقتل وخلقه أخوه، وأحسّ بالسعيات تكثّر ضده، وجاءه كتاب من السلطان أبي هو صاحب تلمسان في الجزائر سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م يستدعيه - وهو بمدينة بسكرة - لحجابه، فلّبّاه، وظل عنده حتى سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٣م إذ استدعاه السلطان المريني عبدالعزيز ليعمل معه، وارتحل إليه، غير أنه توفي قبيل قدومه عليه، ولقيه الوزير أبو بكر بن غازي لقاء كريما، وأحسّ بدسائس تُحاك ضده من

حواله، فرحل إلى غرناطة سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م رحلته الثانية، وسرعان ما أخذ أهل الدولة بفاس يدسون ضده عند سلطانها ويحثونه على إعادته إلى تلمسان، وعاد إليها وأحس ريبة من أبي حمو سلطانها لتركة له وعمله مع الدولة المرينية، فخرج من تلمسان واتجه إلى أحياء أولاد عريف في البادية فأكرموه، ومكت بينهم مع أسرته أربعة أعوام، نزل فيها مع أهله بقلعة ابن سلامة في جبل بني راشد وأسكنوه فيها قصرا، اختلى فيه لوضع أصول كتابه العبر ومقدمته. وأحس أنه محتاج إلى مطالعة أمهات الكتب في مكتبات الدولة الحفصية في تونس ليستعين بها في تاريخه منقحا ومصححا وارتحل في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م يريد تونس ولقى في سوسة سلطانها. فراجعها وذكر له أنه يريد الرجوع إلى تونس مسكن أبائه، فجهزه إليها، وعاد إلى عُسّه الذي درج منه، وكان السلطان قد أمر نائبه فيها أن يهيء له منزلا كريما مع راتب كاف. وعاد السلطان الحفصي إلى عاصمته، وأخذ يستشيريه في شئون الدولة، وطلب إليه الإكباب على تكملة تاريخه، وأكمله وأهدى الخزانة الحفصية الكبيرة منه نسخة، وأحس بسعايات ضده عند السلطان الحفصي فقرر مغادرة تونس متعللا بالحج وركب البحر إلى الإسكندرية سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٣م ودخل القاهرة وانهاled عليه طلابها يريدون الاستماع إليه، فانتصب للتدريس بالجامع الأزهر، يقرأ لهم كتاب الأصول للإمام المصرى المالكي ابن الحاجب، وأخذت شهرته تنتسح في أروقة العلماء والأمراء، ولقى السلطان المملوكى برقوق فأنسه ووفّر راتبه، وولاه التدريس في المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو أهم مدارس الفقهاء المالكية بمصر. والتمس منه ابن خلدون أن يرسل إلى الخليفة الحفصي بتونس رسالة يرجوه فيها أن يرسل إليه أسرته بحرا، وأرسلها، غير أنه لم يكتب له أن يري أحداً من أهله، فقد غرقت السفينة بكل من كان فيها، وحزن حزنا شديداً. وكان برقوق قلده قضاء القضاة المالكية سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م بالإضافة إلى تدريسه في المدرسة القمحية وكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابه في أهله وولده، وعظم جزعه، فاعتزم الخروج من منصب القضاء والخلوص للعبادة والتدريس، وظل مترددا، حتى إذا عرف برقوق رغبته أخلاه من هذا المنصب سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٦م. ومكت بعد عزله منه نحو سنتين في حال رفعة وعز من تردد الطلاب والعلماء ووجوه القاهرة إليه، وتوجه إلى أداء فريضة الحج سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م ففضى النسك وعاد إلى القاهرة محمّوفا بمحبة الناس ومجّلتهم له إلى أن رأى السلطان أن يقلّده القضاء ثانية في سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م وُصّرّف عنه في سنة ٨٠٣. ولم يلبث أن خرج مع السلطان فرج للقاء تيمور لذك وإعصاره التتارى، وهزم فرج وجيشه بالقرب من دمشق وخرج ابن خلدون مع وقد للقاء تيمور لذك والتفاوض معه في تسليم دمشق ووعظه وعظا طويلا استطاع به أن يفديها من النهب والسلب وما كان يأتي جيش تيمور لذك من الفظائع، وعُقد صلح بين السلطان فرج وتيمور لذك. وعاد ابن خلدون إلى القاهرة واستقبل بحفاوة بالغة، وأعيد إلى القضاء في نفس السنة، وُصّرّف في السنة التالية، وأعيد فيها،

وصرف سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م وأعيد سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وليلى نداء ربه - وهو قاض - في السنة التالية.

وقد بهر ابن خلدون معاصريه ومَنْ جاءوا بعدهم إلى اليوم بتاريخه الذى سماه: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» وهو ثلاثة أقسام في سبعة كتب، والكتاب الأول مقدمة في الفلسفة الاجتماعية في مجلد كبير، والكتاب الثانى فى أربعة مجلدات تناول أخبار العرب فى المشرق، والكتاب الثالث فى مجلدين يتناولان تاريخ البربر، وهو حجة فى تاريخهم، وأيضاً فيما كتبه عن تونس وصقلية والأندلس. والدافع الذى دفعه إلى كتابة مقدمة مسهبة لتاريخه ما لاحظته عند المؤرخين قبله من قبولهم كثيراً من الأخبار الزائفة والخرافية وخضوعهم للأهواء وبعض النحل دون تصور واضح للقوانين الاقتصادية التى تحكم المجتمعات الإنسانية، فأراد أن يفهم على هذه القوانين ومدى سيطرتها على الظواهر الاجتماعية والسياسية، وبذلك فسر التاريخ على أسس تطور الأوضاع الاقتصادية لا على أسس تطور الأوضاع السياسية كما تصوره اليونان. والمقدمة فى ستة أبواب، أولها يتحدث عن العمران البشرى وضرورة الاجتماع الإنسانى ومن قوله فى ذلك.

«إن الاجتماع الإنسانى ضرورى، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدنى بالطبع أى لا يبد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم، وهو معنى العمران، ويبينه أن الله سبحانه خلق الإنسان ورَكَّبَه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما رُكِّب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه، وهو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخورى. هب أنه يأكله حَباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج فى تحصيله إلى أعمال أخرى أكثر من هذه: من الزراعة والحصاد والدَّراس الذى يخرج الحب من غلاف السُّنبل، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بُدَّ من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه».

ويقول إنه إذا حصل للبشر هذا الاجتماع أو المجتمع وتم لهم العمران كان لا بد لهم من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وهذا الوازع إما يكون بواحد منهم له عليهم الغلبة والسلطان، وإما بشرع مفروض من عند الله يأتى به واحد

منهم متميز بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه، حتى يتم له الحكم فيهم من غير إنكار. ويفيض في الحديث عن العمران بالأرض وأقاليمها ومدى تأثير البيئة في السكان سواء في الألوان أو في الأخلاق.

والباب الثاني يتناول العمران البدوي مع مقارنات بالعمران الحضارى وبيان أن الأمم الوحشية تتغلب على مالا يبلغها في الوحشية من الأمم، ويقول إن الانغماس في الترف من عوائق الملك، وإن المغلوب مولع أبداً بالاقْتداء بالغالب، وإن تغلب العرب على الأوطان يسرع إليها بالخراب وإنهم أبعد الناس عن سياسة الملك. ووطن بعض الباحثين أنه يريد العرب عامة، وهو إنمّا يريد الأعراب المتبدين الجفأة من أمثال بنى هلال وبنى سليم الذين سبق أن تحدثنا عنهم وعن سيولهم التي قدمت إلى إفريقية وخرّبت القيروان وغيرها من المدن في القرن الخامس الهجرى.

والباب الثالث عن الملك وأصنافه وأنه يحصل بالعصبية وحين يسود فيه الترف يفضى إلى الهرم، ويقول إن الدول تنتقل من البداوة إلى الحضارة وإن لها أعماراً مثل الأشخاص، ويتحدث عن الخلافة وانتقالها إلى الملك كما يتحدث عن تسعين بهم الدول من الوزراء والحجاب والعمال والكتاب ورجال الشرطة وقواد الجيش، وعن الحروب والجباية والمكوس، ويقول إن التجارة من السلطان مفسدة للرعية، وبالمثل تفرده هو وحاشيته بأكبر نصيب من دخل الدولة. وليس شيء يؤذّن بخراب العمران مثل الظلم، ولا يد للعمران البشرى من سياسة عادلة ينتظم بها أمره. والباب الرابع عن البلدان والأمصار وما يجب مراعاته في أوضاع المدن، ويقول إن الحضارة غاية العمران غير أنها تعدّ لفساده. والباب الخامس عن المعاش (الاقتصاد) ووجوه من الكسب ويقول إنه: «إما أن يكون بالاستيلاء عليه من يد الغير على قانون متعارف ويسمى مَغْرماً وجباية وإما أن يكون باقتناص الحيوان الوحشى وأخذه بِرُمْتِهِ ويسمى ذلك اصطياًداً، وإما أن يكون من نتاج الحيوان الداجن كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله، وإما أن يكون من الزُّرع نباتاً أو شجراً ويسمى ذلك فلاحاً أو قَلْحاً، وإما أن يكون من الأعمال الإنسانية في مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخباطة وحياسة وفروسية وأمثال ذلك، وإما أن يكون من البضائع وأعدادها للأعْواض^(١)، ويسمى ذلك تجارة». ويفصّل القول عن الفلاحة وعن التجارة وأصنافها وما يحدث فيها من الاحتكار، ويقول إنه يعود على صاحبه بالتلف والخسران، وإنه هو الذى اعتبره الشارع أخذ أموال الناس بالباطل، ويفيض في الحديث عن أمهات الصنائع ويذكر من بينها صناعة التوليد وصناعة الطب ويفصّل القول فيها كما يفصله في صناعة الغناء وأنعامه وآلاته وتطوره من الجاهلية إلى زمنه.

(١) الأعْواض جمع عوض: البديل في التجارة.

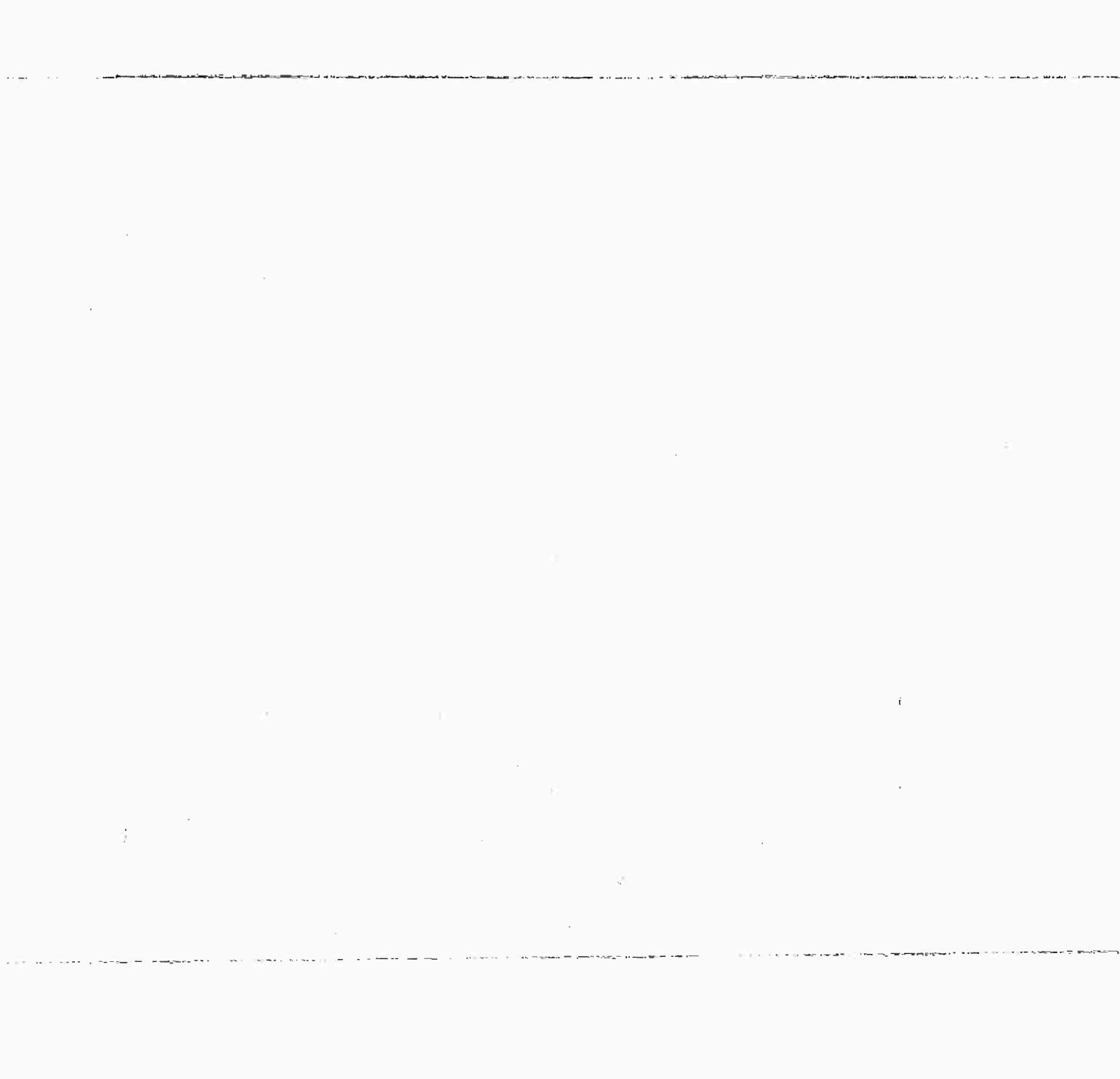
والباب السادس مقصور على العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويتحدث عن العقل التجريبي وعلوم الأنبياء وأن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب وأن العلم والتعليم طبيعيان في العمران البشري وأن العلوم إنما تكثر حين يكثر العمران وتعظم الحضارة، ويُفيض في الحديث عن أصناف العلوم بادئاً بالعلوم الإسلامية: علوم القرآن من التفسير والقراءات وعلوم الحديث وعلوم الفقه وأصوله وعلوم الكلام وعلوم التصوف ومذاهب الوحدة والحلول فيه، ويتسع بالحديث في علوم الأوتل من الحساب والهيئة والمنطق والطبيعات والطب والفلاحة وعلوم الإلهيات وعلوم الكيمياء والفلسفة عارضا في كل علم تاريخه وأشهر أعلامه. وينتقل إلى علوم اللسان العربي: علم النحو وعلوم اللغة وعلوم البيان وعلوم الأدب ويقول «إنه لا موضوع له يُنظرُ في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، ويقول إن لغة العرب من أهل الحضرة والأمصار لزمته مغايرة أو مخالفة للغة مضر الفصحى، إذ اتخذ كل مِصر وكل بلد لنفسه لغة عامية عربية مستقلة به، ويتحدث عن صناعة الشعر والنثر وأشعار العرب والأمصار لزمته الموسحات والأزجال وغيرها من فنون الشعر المستحدثة كالمواليا. وبذلك كله وضع ابن خلدون في مقدمة تاريخه لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني علم الاجتماع بأركانه وقواعده وقوانينه أو كما يسميه علم العمران البشري سابقا بذلك علماء الغرب الذين لم يعنوا به بعده إلا بنحو أربعة قرون، وهو بحق عبقرى فذ لا لتونس وحدها بل للعرب جميعا في كل مكان وزمان.

وواضح من حياة ابن خلدون أنه عمل بدواوين حكام مختلفين، وهو بذلك يُعد من كتّاب الدواوين، وكان السجع قد شاع في كتاباتهم بحيث لا يكتبون رسالة ديوانية إلا مسجوعة سجعا تاما، وليس ذلك فحسب، بل كانوا يضيفون إلى السجع المحسنات البديعية، ورأى أن ينحى هذه الطريقة عن كتابته الديوانية، وأن يكتب بالأسلوب المرسل محاكيا عبد الحميد الكاتب والملاحظ وأضرابها من قداماء الكتاب البلغاء، ويصرح بذلك في كتابه: «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، إذ يقول فيه: «لما استعملني السلطان أبو سالم [المريني] في كتابة سيره والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته كان أكثرها يصدر عني بالكلام المرسل دون الأسجاع لضعف انتحالها وخفاء العالی منها على أكثر الناس بخلاف الكلام المرسل، فانفردت به يومئذ، وكان مستغربا بين أهل الصناعة». ونراه في المقدمة بهاجم الكتابة الديوانية المسجوعة بعنف في الفصل الذي عقده لانقسام الكلام إلى فني النظم والنثر، ويقول: «استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية.. واستمروا على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية.. وهجروا المرسل وتناسوه.. ووجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه.. والمحمود فيها الترسل، وأما إجراؤها على هذا النحو المقفى فمذموم، وما حملهم عليه إلا استيلاء العجمة على أسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطائهم الكلام حقه في

مطابقته لمقتضى الحال، فعجزوا عن الكلام المرسل، وجبروه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب (المحسنات) البديعية». وهو يضم إلى مهاجمة الأسجاع في المكاتبات السلطانية مهاجمة المحسنات البديعية التي أكثر منها المتأخرون، وعاد إلى هذه المهاجمة في الفصل الذى عقده في المقدمة بعد ذلك للمطبوع والمصنوع من الكلام، وقال إن تلك المحسنات تغلب اليوم على أهل العصر، وأصحاب الأذواق في البلاغة يسخرون من كلفهم بهذه الفنون ويعدون ذلك من القصور عن سواه وليس بين أيدينا رسائل ديوانية لابن خلدون إلا ما ذكره في كتابه: «التعريف» من فصل في رسالة أرسل بها إلى ملك المغرب أبي سعيد عثمان بن أحمد المربى يخبره فيه بأحوال تيمور والتتار منذ جنكيزخان وفيه يقول:

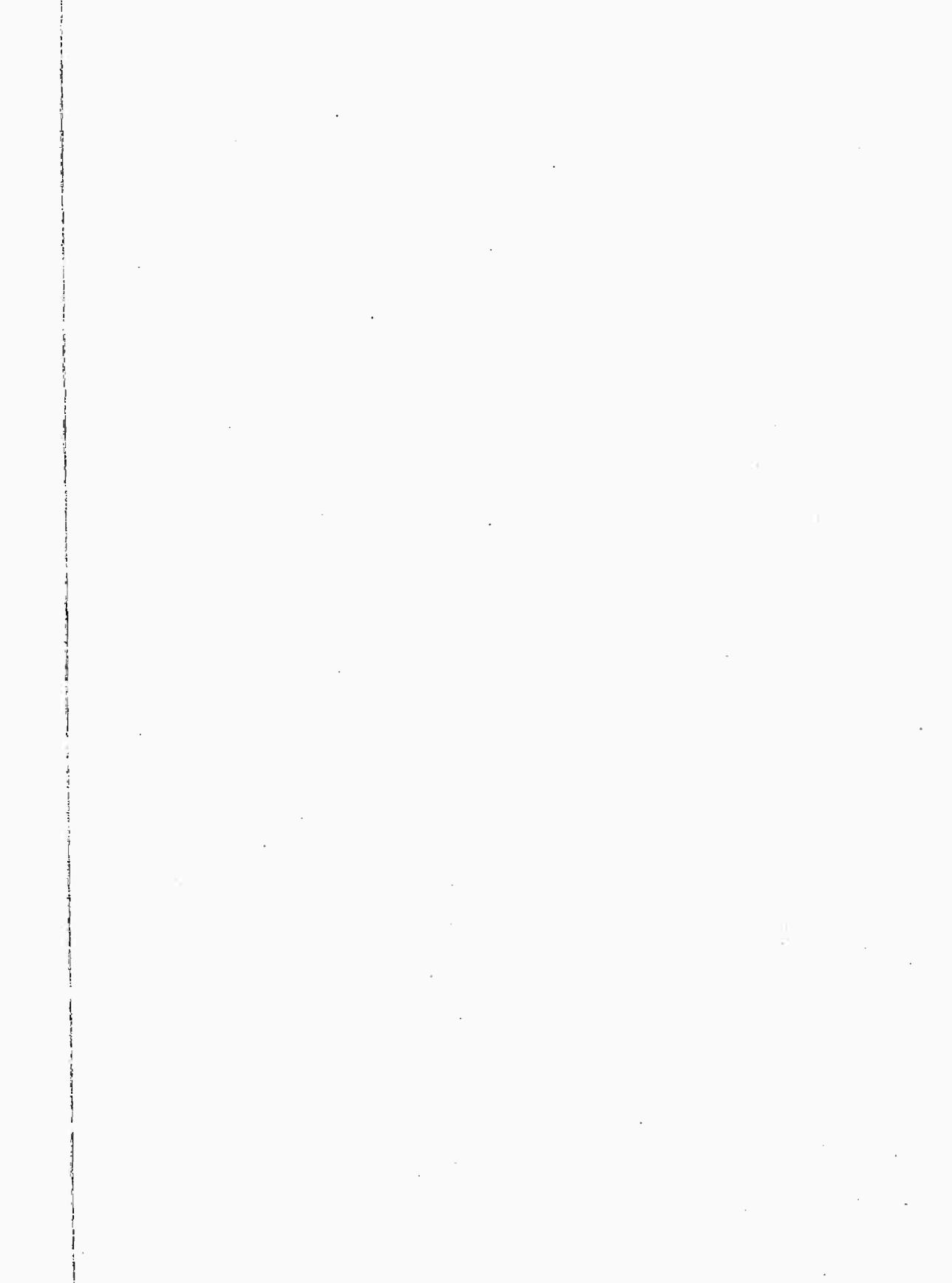
«كنت في العام الفارط توجهت صحبة الرُّكَّاب السُّلْطَانِي (الناصر فرج) إلى الشام عندما زحف الطُّطر إليه من بلاد الروم (آسية الصغرى) والعراق مع مَلِكِهِمْ تَمْرُو استولى على حلب وحمّة وحمص وبعلبك وخرَّبها جميعا، وعانت عساكره فيها بما لم يُسَمَّع أشنع منه، ونهض السلطان في عساكره لاستنقاذها، وسبق إلى دمشق وأقام في مقابلته نحوًا من شهر، ثم قفل راجعا إلى مصر، وتخلَّف الكثيرُ من أمرائه وقضاته، وكنت في المخلفين، وسمعت أن سلطانهم تَمْرُ سأل عني، فلم يَسْعَى إلا لقاءه، فخرجت إليه من دمشق، وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الأمان لأهل دمشق، وأقمتُ عنده خمسة وثلاثين يوما، أباكره وأراوحيه، ثم صرَفني وودَّعني على أحسن حال، ورجعت إلى مصر.. ثم رجع آخرًا إلى بلاده، والأخبارُ تتصل بأنه قصد سَمَرْقَنْدَ، وهى كرسِيُه (عاصمة ملكه) - والقومُ في عددٍ لا يسعه الإحصاء، إن قَدَّرْتُ أَلْفَ أَلْفِ (مليون) فغير كثير، ولا تقول أنقص، وإن خيِّموا في الأرض ملأوا السَّاح (الساحات) وإن سارت كتابتهم في الأرض العريضة ضاق بهم الفضاء، وهم في الغارة والنهب والفتك بأهل العمران وابتلائهم بأنواع العذاب على ما يحصلونه من فتاتهم آية عجب، وعلى عادة بوادى الأعراب».

والفصل - على هذه الشاكلة - مكتوب بأسلوب مرسل دون أى تكلف لسجع أو لمحسن بديعى. وكان يستخدم هذا الأسلوب في رسائله الشخصية على نحو ما يتضح في رسالة أرسل بها إلى لسان الدين بن الخطيب ردًا على رسائله الموشاة بالسجع والبديع، وقد دون الرسالة ورسائل ابن الخطيب في كتابه: «التعريف» ويقول ابن خلدون إنه تفادى في رسالته السجع خشية القصور عن مساجلة ابن الخطيب في رسالته المسجوعة، وهى مجاملة لابن الخطيب، والحقيقة أنه نحى السجع عن كتاباته في الرسائل الشخصية والديوانية جميعا، ودعا الكتاب - إلى ذلك - كما أسلفنا - في مقدمته غير أنهم ظلوا لا يستمعون إليه في جميع البلدان العربية، إلى أن تحررت الكتابات ديوانية وغير ديوانية من السجع والمحسنات البديعية بمصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتبعته البلدان العربية.



القسم الثالث

صَلَاة



الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية^(١)

صقلية جزيرة كبيرة تقع في منتصف البحر المتوسط، فتقسمه إلى شطرين شرقي وغربي، ويكاد يتلاقى شماليها الشرقي بإيطاليا فبينها مضيق مسيني الذي لا يكاد يتجاوز عرضه ثلاثة كيلو مترات. بينما يتسع البحر المتوسط بينها وبين تونس وطرابلس حتى ليبلغ عرضه نحو مائة وعشرين كيلو متر تقريبا أو يزيد وبخاصة أمام طرابلس. وهى فى الداخل مرتفعات وهضاب ووديان، وعلى مرتفعاتها أقيمت مدنها الداخلية لتكون حصينة. وفى جنوبها إلى الغرب مدينة جرجنت، والشاطئ الغربى والجنوبى الغربى موانئها لا تصلح للملاحة، وإذا تغلغلنا نحو الشمال الغربى وجدنا مروجاً ومرعى متسعة، ونمضى نحو الشمال فنجد ثغر أومرفاً طرابنش، ونتجه غرباً فى الساحل الشمالى وهو ساحل صخرى جبلى، وتلتقى بخليج تام الاستدارة، ويلقانا بعده خليج مدينة بلرم (Palermo) عاصمة صقلية الإسلامية ولا تزال عاصمتها إلى اليوم، ووراءها تنحسر الجبال ويلقانا سهل من أخصب السهول، ونستمر فى السير على الساحل الصخرى الجبلى حتى تلقانا مسينى على مضيقها. ونسير من مدينة سيني متجهين إلى الجنوب شرقى صقلية فى ساحل جبلى صخرى وتلتقى بثغر أو مدينة طبرمين، ونمضى حتى قرب ثغر أو ميناء قطانية حيث يصبح الساحل رملياً، ويصبُّ فيه بعض الجداول. وإذا مضينا فى اتجاهنا نحو الجنوب لقينا ثغر سرقوسة الذى أنشأه اليونان، وبه ولد العالم الإغريقى الفيزيقي المشهور أرشميدس، وبها قتل سنة ٢١٢ ق.م.

وأعلى جبال صقلية جبل إتنا فى أقصى الشمال، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة آلاف وثلاثمائة متر

المدنى (طبع الجزائر) وكتاب العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس (طبع دار المعارف - القاهرة).

(١) انظر فى جغرافية صقلية صورة الأرض لابن حوقل ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدرسى وكتاب المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق

تقريبا، ويجل هامة شيب أو تلج أزل، بينما يغلى جوفه بنار لا تخمد أبدا، وكأنه شيخ رحيم قاس في آن واحد، وقسوته لا توصف، إذ يظل يلقي بحممه مغيظا محنقا أياما، وتغطي حممه الأرض بطبقة خصبة. وتمتد شمالي الجزيرة سلسلة جبال من الشرق إلى الغرب، أكبر الظن أنها امتداد لجبال الأبنين في إيطاليا وجبال الأطلس في شمالي إفريقيا، وهي جبال صخرية جرداء عارية مما كأن ينتظر لها من زينة النباتات الخضراء، وطبقتها الخارجية تتكون من حجارة كلسية وبعض أنواع الرخام الرفيع، ومنها تتكون بعض جبال فرعية، تنحدر صوب الجنوب ومن أهمها الجبال التي أنشئت فوقها مدينة قصر يانة وسط الجزيرة، والجبال التي تتجه نحو مدينة جرجنت. وهذه الجبال غنية بالحزف والرخام والملح المعدني والجص، وكل ذلك يكون ثروة طبيعية مهمة لصقلية، ويوجد الكيريت قرب جرجنت وحول قطانية وبلرم.

ومناخ صقلية في جلته معتدل، وفصل الشتاء فيها ليس قارس البرد بفضل الجبال الشمالية التي تحميها منه، وهو يمتد فيها من شهر نوفمبر حتى شهر مارس، وفصل الصيف معتدل الطقس إلا ما يهب عليها فيه من رياح السموم التي تأتيها من إفريقيا. ويكفي لتصور اعتدال المناخ فيها أن درجة الحرارة في بلرم لا ترتفع عن ٢٦ درجة صيفا ولا تهبط عن ١١ درجة شتاء، ولذلك سميت بلاد الربيع الأبدى.

واعتدال مناخها هيأها لأن تنمو فيها مختلف الزروع والغروس، وتكثر الأمطار في ساحلها الغربي والشمالي وقد نقل إليها القرطاجيون القمح والزيتون والإغريق الكرمة، ونقل إليها العرب النخيل والليمون واللوز والفسق والتين ومختلف الأزهار، وأيضاً الموز والبرتقال، وبها بعض مراعي سهولها هيأت لكثير من قطعان الغنم والماعز والخنازير. ويكثر في سواحلها صيد البحر بمختلف أنواعه.

٢

التاريخ^(١) القديم

استوطن صقلية في أقدم عصورها شعب الصيقول (Les Sicules) ومنه اشتق اسمها، ومنذ أكثر من ألف سنة قبل الميلاد أخذ يفد عليها غزاة من الشرق أو الجنوب أو الشمال، فكانت

وكتاب العرب في صقلية ص ٢٥ وما بعدها وتاريخ صقلية الإسلامية في القسم الثالث من كتاب ورات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسني عبدالوهاب ٤٣٥/٣ وما بعدها.

(١) انظر في التاريخ القديم لصقلية كتاب تاريخ مسلمي صقلية لميخائيل أماري: Amari: Storia Dei Musulmani Di Sicilia وكتاب السلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٩ وما بعدها

تخضع لهم بحكم أنها جزيرة صغيرة لا يمكنها مقاومة هؤلاء الغزاة. ولها قبل الفتح الإسلامي تاريخ قديم، وبعده تاريخ نورمانى سنلم بأحوال المسلمين فيه. وأول من سكنها - كما قلنا آنفا - شعب الصيقول، وكان الفينيقيون - منذ نشأتهم على صفحات التاريخ - شعبا تجاريا يجوب سواحل البحر المتوسط، ويؤسس له عليها قواعد تجارية، وقد نزلوا سواحل صقلية وأسسوا لهم فى شمالها قاعدة هى بِلْرْم. ومضت على ذلك قرون، وإذا اليونان يتبعونهم فى الاستيلاء على ساحلها الشرقى ويؤسسونهم به قاعدتين فى القرن الثامن قبل الميلاد هما سرقوسة وقطانية، وسرعان ما تحولتا مدينتين كبيرتين، وصعدوا إلى الشمال وأسسوا مدينة مسينى. وفى هذه الأثناء كانت دولة قرطاجة فى الشمال التونسى آخذة فى القوة ومددت ذراعها إلى صقلية تريد أن تستولى عليها من الإغريق وظلت الحرب بينها فى مدّ وجزر وانتصار وانهازم إلى أن استطاعت قرطاجة أن تفرض سيادتها على الجزيرة سنة ٢٦٤ قبل الميلاد. غير أن القرطاجيين لم يكادوا يحوزونها لأنفسهم حتى نشبت حروب عاتية بينهم وبين الرومان، وعبثا حاولوا إنقاذها، فغادروها سنة ٢٤٢ قبل الميلاد، وأصبحت جزءا من الإمبراطورية الرومانية، وأصابها ما أصاب أهل روما منذ القرن الثالث الميلادى من التدهور والفتن والفساد الأخلاقى. ولما سقطت روما تحت أقدام المغيرين الشماليين لم تلبث أن سقطت بدورها تحت ضربات الواندال الذين استولوا على إفريقية التونسية، وقد أرققوهم لمدة نحو قرن بالضرائب الفادحة، وأذاقوهم ضربوا من العسف والظلم والاستبداد لا تطاق.

وتسترجع بيزنطة فى عهد جستينيان صقلية، إذ كلف قائده بلزارىوس بالاستيلاء على الجزيرة من الواندال كما استولى على إفريقية الشمالية وكانت المدن خالية من حاميات واندالية، ما عدا بلرم، فقد كان بها حامية لهم، وكانت أسوارها منيعة، فقاومته فترة ثم استسلمت مثل أخواتها الصقليات، وفرحت جميعها بنزول الجيش البيزنطى فيها واستبشرت لخلصها من ظلم الواندال وتعسفهم فى جمع الضرائب، غير أنهم لم يلبثوا أن شعروا بأنهم تخلصوا من ربة عسف إلى ربة عسف جديد، إذ أصلاهم ولاء بيزنطة طوال ثلاثة قرون عبثا ثقيلًا من الضرائب الفادحة، فقد فرضوا عليهم ضريبة على الأملاك وضريبة على الرءوس وضريبة على التجارة أو الصناعة وضريبة للجيش أو ضريبة دفاع وضريبة للملاحين وضريبة للموظفين. ولم تكن الدولة البيزنطية وحدها هى التى تجنى الضرائب من صقلية، فقد كانت تجنيها معها الكنيسة: كنيسة روما وميلانو ورافنا، وكان للكنيسة الأولى الحظ الأوفر، إذ كان لها إقطاعات كثيرة موزعة حول بلرم وقطانية وسرقوسة وجرجنت، وكان يديرها قسيسان أحدهما فى بلرم والثانى فى سرقوسة. وكان هم كل منها أن يجمع أكثر ما يمكن من الضرائب، وبالمثل كان وكلاء كنيسة ميلانو ورافنا، وكان يرسل إلى روما سنويا أسطولان محملان بالقمح فى الربيع وفى الخريف، وكانت ترسل إلى رافنا سفن محملة بمئات القناطير من القمح والفواكه والخضراوات والجلود المدبوغة والحزير

والمواد الصوفية، والفلاح الصقلي يتصبب عرقا، ويجمع الضرائب وكلاء الكنائس المذكورة مرة وبجمعها وكلاء الدولة البيزنطية مرة، دون رحمة أو إشفاق. وكانت روما في أثناء ذلك تُرسِل إلى صقلية بكثير من العبيد، وأضافت إليهم من كانت تنفيهم من المذنبين ومقترفي الجرائم والجنود المتعدين. وكل ذلك عمل على إضعاف شخصية صقلية في العهد البيزنطي - كما يقول أماري - وأزهق فيها الشعور بالكرامة الإنسانية ولم يبق فيها منه بقية.

٣

الفتح^(١) العربي وعهد الدولة الأغلبية

بيننا هذا الظلام يطبق على صقلية ويطبق معه الضنك والضييق والإعس إذا بالعرب يفتحون ديار إفريقية التونسية المواجهة لصقلية ويستولون على جميع بلاد المغرب، وكان طبيعيا أن يفكروا في السيطرة على البحر المتوسط وعلى جزره: صقلية وغيرها، وتبعاً لمخطتهم الحربية في التعرف على أحوال البلاد قبل غزوها نراهم يرسلون سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م حملة استطلاعية إلى صقلية بقيادة عبد الله بن قيس، وبعد تعرفه على سواحلها الجنوبية عاد إلى إفريقية التونسية، وأرسلت بعد ذلك حملات بحرية ماثلة بقيادة محمد بن أوس الأنصاري وبشر بن صفوان الكلبي، وتبعهم جميعا في تلك الحملات سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م حبيب بن أبي عبيدة حفيد عقبة بن نافع مؤسس القيروان، واضطر إلى العودة سريعا لاضطراب الأحوال في إفريقية التونسية ويقول ابن عذارى إن ابنه عبد الرحمن غزا بعده صقلية ثم سردانية وقاتل بها حتى صالحه أهلها. وهذه الحملات المبكرة نبّهت الدولة البيزنطية إلى أن تحسب حساب الغزو العربي المفاجيء، فأحالت صقلية إلى قاعدة حربية تمتلئ ثغورها ومدنها وقلاعها وحصونها بالعتاد الحربي الوافر.

وكان من أهم الأسباب التي أسرعت بفتح صقلية أن قائدا بيزنطيا يسمى أوفيموس (Euphemius) وتسميه المصادر العربية فيمى ثار على قسطنطين بطريق صقلية، فأمرته حكومة

(١) الحضارة العربية بإفريقية والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدني والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الفتح والعهد الأغلبى البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب والمؤنس لابن أبي دينار والجزء الثالث من كتاب ورفات عن

القسطنطينية بالقبض عليه وتعذيبه، وعلم فيمى بذلك الأمر، فرأى أن يستنجد بالأمير زيادة الله الأغلبى حاكم إفريقية التونسية ضد البطريق وحكومته، واستجاب إليه زيادة الله إذ رأى في ذلك فرصة لا تعوّض للاستيلاء على صقلية، فأعدّ سريعا جيشا لفتحها، ورأى بكياسته أن يسند قيادته إلى أسد بن الفرات القاضى وشيخ فقهاء المالكية بالقيروان.

وأقلع الأسطول الأغلبى بقيادة أسد بن الفرات من ميناء سوسة في منتصف ربيع الأول من سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وكان يحمل عشرة آلاف مقاتل، وأرسى بعد ثلاثة أيام على ساحل صقلية عند مدينة مازر في الجنوب الغربي، واستطاعوا في وقت قصير الاستيلاء على بعض المدن والحصون الجنوبية، وتقدموا إلى الساحل الشرقى حتى حاصروا مدينة سرقوسة قاطعين نحو مائتى كيلو متر إليها، وتعززوا بمدد جديد إليهم من إفريقية. وكان أسد يباشر الحصار بنفسه ويضيق على المدينة، وانتشر مرض بين صفوف الجند العرى أودى بحياته العظيمة، فلبى داعى ربه في ربيع الثانى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م ودُفن تحت أسوار سرقوسة. وخلفه على قيادة الجيش محمد بن أبى الجوارى، واستولى على جرجنت في الجنوب بالإضافة إلى مازر، وأخذ يستعد للهجوم على مدينة قصر يانة، وكانت الحملة قد أصابها عناء شديد بسبب العارك المتصلة، وأوشكت على الانسحاب إلى إفريقية، غير أن ما نذروا أنفسهم له من الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام تحت راية الشيخ أسد بن الفرات كان يطرد اليأس من نفوسهم ويشدّ أزرهم إلى أبعد حد، ولم يلبث الأمل أن ملأ نفوسهم إذ رفدهم مدد جديد من إفريقية ومن أسطول لشرحان المجاهدين الأندلسيين سمع بحملتهم، فجاء يؤيدهم، وتوفى قائدهم محمد بن أبى الجوارى سنة ٢١٦هـ/٨٣١م فأرسل إليهم الأمير زيادة الله الأغلبى قائدا جديدا هو زهير بن عوف، فصمم على الاتجاه إلى الشمال وغزّو يلمر وحاصرها برا وبحرا وضيق الخناق عليها، وفي أثناء ذلك استولى على ماسيني سنة ٢١٩هـ/٨٢٤م ومازال يزداد شدة في تضيق الحصار على يلمر إلى أن استيأس منها الروم، فغادروها بحرا وبراً، تاركين المدينة مفتوحة أمام جيش المسلمين فدخلها في رجب سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م وكان بها سبعون ألفا قبل الحصار فلم يجد الجيش بها سوى ثلاثة آلاف كما يقول ابن الأثير في تاريخه. واتخذها المسلمون هناك عاصمة لحكمهم في الجزيرة كما كانت عاصمة لمن قبلهم، وظلت كذلك لمن بعدهم، وأخذوا في تشييد القصور بها والمساجد والحمامات والفنادق وإقامة الأسواق بها والحدائق حولها، وحولوها مركزا علميا يبت إشعاعات نوره إلى ظلمات القرون الوسطى في أوروبا.

وتوفى هذا القائد المجاهد العظيم زهير بن عوف سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م وولى صقلية بعده أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب واهتم بالحرب البحرية ونازل سفن البيزنطيين غير مرة وانتصر عليها، بل حطمها حطما، وبذلك أصبحت للأسطول الإسلامى الصقلى سمعة كانت

تُدخل الرعب والفرح في قلوب الأعداء، وكانت مطامع المسلمين المجاهدين تتجه صَوْبَ إيطاليا القريبة ديارها من مَسِينِي فجهز أسطولا أرسل به صوب قَلْوَرِيَّةَ بجنوبي إيطاليا فنزل بها الجند المسلمون ووصلوا إلى نهر البو سنة ٢٢٣هـ/٨٣٨م. ويتوفى أبو الأغلب سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م ويتولى صقلية العباس بن الفضل ويجهز أسطولا لغزو قَلْوَرِيَّةَ سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣م. ويقوم بها بعض الحاميات، وخرجت مَسِينِي بعون من الروم عليه فأعادها سنة ٢٤٢ وأخذ يفتح الحصون في الداخل الواحد بعد الآخر، وفتح جفلود (شفلودي) على البحر بالشمال في نفس السنة، وشدّد الحصار على قصر يانّة المنيعه في وسط الجزيرة، واستسلمت سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م بعد جهاد عنيف، وبنى العباس فيها تَوًّا مسجدا، ونَصَب فيه منبرا وخطب فيه الجمعة. ولعل في ذلك دلالة واضحة على أن قواد الفتوح في صقلية وجنودها المسلمين كانوا يعدون غزو مدنها وحصونها جهادا في سبيل الله. وأزعج أخذَه لمدينة قصر يانّة الكبيرة المحصنة بيزنطة فأرسلت أسطولا يحمل مددا كبيرا من الرجال والمؤن إلى سرقوسة، والتقى به الأسطول الإسلامي الصقلي ونشبت بينهما معركة عنيفة انتصر فيها الأسطول الإسلامي، واستولى على مائة من سفن الأسطول البيزنطي، ولاذ الباقيون بالفرار، ويقول ابن الأثير إن المسلمين لم يستشهد من جنودهم في هذه المعركة البحرية سوى ثلاثة، وكان الجنود البيزنطيين لم يلبثوا حين رأوا أسطول المسلمين وجنوده البسلاء أن ألقوا سلاحهم وسفنهم وفرّوا من المعركة منهزمين.

ولم يلبث هذا القائد المجاهد أن لبى نداء ربه سنة ٢٤٧هـ/٨٦٢م ويتولاها خفاجة بن سفيان سنة ٢٤٨هـ/٨٦٣م ويحتل مدينة نُوطِس في شرقي الجزيرة إلى الجنوب، وكان أهل طبرمين ينازلون المسلمين نزالا مستميتا، ورأوا أن يجنحوا إلى السلم بعد أن أعياهم القتال وطلبوا إلى القائد خفاجة أن يرسل إليهم وفدا للصلح فأرسل إليهم وفدا يفاوضهم وعلى رأسه زوجته، ومرّ بنا في إفريقية التونسية إلى أي حد كانت المرأة التونسية تحافظ على كرامتها ومدى ما كان لها من منزلة في نفوس التونسيين بالقيروان وغير القيروان، وهذه إحدى نساءهم تتولى السفارة لأول مرة بين قومها وأعدائهم لتضع شروط الصلح، وهي بذلك تعد أول سفيرة عربية، واستقبلها الأعداء بحفاوة واستجابوا لما وضعته من شروط الصلح، وسلموها مفاتيح المدينة، وبذلك نجحت السفارة نجاحا عظيما، فدخلها المسلمون صلحا. ولابن هذه السيدة محمد الذي كان يناضل نصارى صقلية نضالا عنيفا الفضل في استيلاء المسلمين على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م فإنه جهز أسطولا لفتحها ونزلها، وقضى على الحامية الرومية فيها واستولى عليها وجعلها تابعة لصقلية. ونزلتها جالية تونسية أشاعت بها لهجتها العربية، ودارت السنة فأرسلت بيزنطة أسطولا تبغى استردادها، ولم يكده يظهر له في مياها الأسطول الإسلامي الصقلي حتى ألقى الرعب والفرح في قلب كل من فيه، فولّوا على وجوههم فرارا دون أن يخوضوا معركة، وظلت مالطة تابعة لصقلية نحو مائتين وعشرين عاما إلى أن استولى عليها

النورمان مع استيلائهم على صقلية، ولغتها إلى اليوم لهجة عربية تونسية محرفة حُرِّفَت بر الزمن، وعبثا حاولت الدول التي استولت عليها - ومعها إنجلترا - أن تترك لغتها كما تركت الإسلام وتتخذ في ألسنتها مكانها اللغة الإيطالية أو اللغة الإنجليزية، وباءت كل هذه المحاولات في القرون الثمانية الماضية بالفشل، مما يدل على قوة العربية وحيويتها، وأن قوما إذا اتخذوها لا يمكن أن يتحولوا عنها - مهما دخل عليها من التصحيف والتحريف خلال قرون متطاولة - إلى لغة أخرى لسلاستها وعذوبة جريانها في الألسنة.

ويتوفى خفاجة وابنه محمد، وتؤول ولاية صقلية إلى أحمد بن عبد الله الأغلبى، وكان بطلا مقداما فصم على فتح سرقوسة، وكانت بيزنطة لا تزال ترسل إليها بالنجدة تلو النجدة، وكلما انهزم لهم أسطول جهزوا لها أسطولا آخر، وحاصرها أحمد، واستمر الحصار تسعة أشهر من أوائل المحرم إلى أواخر رمضان سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٧ م ثم اقتحمها بمجانيقه وخيله وجنده، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت الأمرين من الجوع ودك الأسوار وسقوط القلاع، وبعد أن لقي حتفه من المدافعين عنها أكثر من أربعة آلاف جندي بيزنطي. وولى صقلية سنة ٢٦٨ هـ/٨٨١ م محمد بن الفضل فجعل همه القضاء على معقل مهم للروم هو قلعة الملك وكان من فيه يُكثرون من الإغارة على المسلمين ويقضون مضاجعهم، والتقى الجمعان بقرب المعقل وحمل وطيس الحرب وانجلت عن انتصار عظيم للمسلمين واندحار شديد لأعدائهم إذ قتلوا منهم ما يزيد عن ثلاثة آلاف ودخلوا القلعة تحفق على رؤوسهم رايات النصر.

وولى إبراهيم بن الأغلب ابنه عبد الله على صقلية، وفي أيامه سنة ٢٧٥ نشبت معركة عنيفة براً وبحرا بين الروم والعرب، فإن الدولة البيزنطية أرسلت بأسطول ضخم إلى صقلية، ولقيه الأسطول الإسلامي الصقلى واحتدمت المعركة، وكانت كارثة الروم هائلة وإذ قتل منهم سبعة آلاف وغرق خمسة آلاف ولأذ من كتبت له الحياة بالفرار. وانتزه المسلمون هذه الفرصة من النصر على الأسطول البيزنطي، وهاجموا قلوربة في جنوب إيطاليا تاديبا لمن يحشدهم الروم فيها لإمداد حاميات المدن والحصون التي لم يستسلم من فيها للمسلمين.

وفي سنة ٢٨٩ هـ/٩٠١ م استدعى الأمير إبراهيم بن الأغلب ابنه عبدالله والى صقلية وتنازل له عن صولجان الحكم في القيروان وإفريقية التونسية، وصمم على أن يقضي بقية أيامه مجاهدا في صقلية، واتجه إلى سوسة في ثوب مرقع علامة الزهاد، وأبحر منها على رأس جيش قوى إلى بلرم، وكان قد أعد إعدادا قويا بالأسلحة والعتاد، وسار على رأسه لغزو مدينة طبرمين شرقي الجزيرة إلى الشمال أمنع المراكز التي لا تزال باقية للروم في الجزيرة، وكانوا لا يزالون يرسلون إليها بالإمدادات. وهاجها ودارت رحى الحرب عنيفة بين الفريقين. وأحس شيئا من التخاذل في صفوف جيشه لاشتداد وطيس الحرب فجمعهم، وأمر قارئا أن يقرأ عليهم بصوت مرتفع

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قَطَعْتُمْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾. ولعل في ذلك ما يؤكد مرة أخرى أن عَزَّوْ صَقْلِيَّة وفتح بلدانها إنما كان جهادا في سبيل الله ونشر دينه الخفيف. وبمجرد أن استمع الجند إلى هذه الآيات الكريمة وارتسم أمامهم الفردوس وما أُعِدَّ فيه للمجاهدين امتلأوا حماسة وانقضوا على أعداء الله ودينه الخفيف، فانهزموا انهزاما ساحقا، وأصبحت مدينة طبرمين أمام جيش المسلمين مفتحة الأبواب ولا حامى ولا مدافع، وارتعدت فرائض إمبراطور بيزنطة كما رَوَى ذلك ابن الأثير وابن خلدون وأُعلن في القسطنطينية الحدادَ سبعة أيام لم يضع فيها على رأسه تاج الملك. وسار إبراهيم بن الأغلب توا إلى مدينة رمطة آخر معاقل الروم شرقي الجزيرة جنوبي طبرمين، ففتحوا له أبوابها سريعا واستولى عليها دون قتال. ولم تكف إبراهيم بن الأغلب هذه الانتصارات، فقد ركب البحر مع جنده من مسيني إلى شبه جزيرة قَلَوْرِيَّة جنوبي إيطاليا، واخترقها بجنده مستوليا فيها على كثير من الحصون، ونصب الحصار على قلعة كشننتا (Consenza) المنيعة شمالي قَلَوْرِيَّة وضيق عليها الحصار، غير أن مرضا ألم به في أثناء ذلك، فأسلم روحه إلى بارئها تحت أسوار هذه القلعة، ونُقل رفاته إلى بلرم ثم نقله ابنه أبو العباس إلى القيروان.

ولعل في كل ما قدمت ما يَصُورُ الدور التاريخي المجيد الذي نهضت به الدولة الأغلبية في القرن الثالث الهجري الذي ظلَّ فيه صولجان الحكم بإفريقية التونسية في يدها، فقد أضافت إلى البقاع الإسلامية جزيرتين كبيرتين: صَقْلِيَّة ومالطة، وظلت تجاهد في سبيل الله بصقلية وتعدُّ الأساطيل لمنازلة الأسطول البيزنطي وتنكّل به وتمزّق سفنه شرمزق. وبدأت تلك الحرب بشارة تميزها وأنها حرب جهاد ونشر للإسلام، إذ كان قائد الحملة شَيْخَ الإسلام وإمام المالكية وقاضي قضاتها أسد بن الفرات، وكان يشترك في هذا الجهاد غير واحد من أمراء الدولة الأغلبية، حتى إذا أوشكت شمس دولتهم على الغروب خلع إبراهيم بن الأغلب زِيَّ الإمارة والسلطان ولبس زِيَّ الزهاد المجاهدين في سبيل الله، وأبلى في الجهاد بصقلية وقَلَوْرِيَّة بلاء عظيما.

العهد^(١) العبيدي - عهد بني أبي الحسين الكلبيين

(أ) العهد العبيدي

انتهى عهد الدولة الأغلبية في القيروان وإفريقية التونسية سنة ٢٩٦ وانتقلت البلاد إلى عهد جديد هو عهد الدولة العبيدية وانقسم الناس بين راضين عن العهد الشيعي الجديد وساخطين على هذا العهد وهم فقهاء أهل السنة ومن كان يبجلهم من العامة، وكان لذلك تأثيره في صقلية، وانضاف إليه أنه برزت في نفوس كثيرين هناك فكرة الاستقلال والانفلات من التبعية الإفريقية، وأيضا فإن بعض الولاة كان يعدُّ صقلية كأنها كنز ألقى إليه، وينبغي أن يأخذ لنفسه منه كل ما يريد من مال وثروة، وقد تفاعلت هذه العوامل بعضها مع بعض وأدت إلى اضطراب وفتن كثيرة في السنوات الثلاثين الأولى من حكم العبيديين لإفريقية التونسية، وأسرع عبيد الله المهدي بإرساله إلى صقلية واليا وقاضيا يحكماتها بمبادئ الفقه الشيعي ويحاول أن ينشر فيها الدعوة العبيدية الشيعية، وثاروا على أول ولاته وتأنبهم، وولوا عليهم من أنفسهم واليا هو أحمد بن زيادة الله ابن قره ب، فاشتراط عليهم أن يعلن ولاءه للدولة العباسية، وكانت عامتهم سنية فارتضوا ذلك وأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله يضع إمارة صقلية تحت سلطانه، وخطب له وقطع خطبة المهدي الفاطمي. وأرسل إليه المقتدر بالوية سود وخلع سود وطوق ذهب، وكان للمهدي العبيدي أسطول برسي لمطة فأحرقه وقتل قائده. وثار عليه أهل جرجنت وصقلية جميعها فحاول الهروب إلى الأندلس فأسره أهل صقلية هو وابنه وقاضيه وبعثوا بهم إلى المهدي سنة ٣٠٤ فصلبهم وانتهت بذلك حركة ابن قره ب. وأرسلت صقلية تطلب من المهدي واليا وقاضيا وأنهم في غير حاجة إلى جند، فتنبّه إلى ما يريدون من الاستقلال فأرسل إليهم من الكتامين حملة تؤدبهم، وولى عليهم في سنة ٣٠٥ سالم بن أبي راشد، وكان جبّارا عاتيا وظالما عسوقا، فأخذ ينزل صورا شديدة من التنكيل لا بالأفراد فحسب، بل أيضا بالمدن، وهو تنكيل أدى بأهل صقلية إلى الإمعان في مقاومته فتارت عليه جرجنت، وتبعتها بلرم،

(١) الحطط والنويرى في المكتبة الصقلية وأبا الفدا في حوادث سنة ٣٣٦ وسفرنامه لناصر خسرو، ورياض النفوس للمالكي.

(١) انظر في العهد العبيدي وعهد بني أبي الحسين المراجع المذكورة في عهد الأغالبة والحلة السراء لابن الأبار في الخلفاء العبيديين و خليل بن إسحق واتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء للمقریزی وكتابه

فأرسل إلى الخليفة العبيدي القائم يهول عليه الأمر ويقول إن أهل صقلية خرجوا عن طاعته، فأرسل إليه سنة ٣٢٥ جنداً جديداً يقوده خليل بن إسحق، واستقبلوه بالشكوى من سياسة سالم وبطشه، يظنون أنه سيرتق الفتق ويصلح الأمر، وسرعان ما خيَّب ظنّهم إذ رأوه يهدم أسوار بلرم ويبنى عند المرسى مدينة جديدة لخاصته وجنده وسلاحه ويحصنها مسمياً لها باسم: «الخالصة» وأرهب أهل بلرم إرهاباً شديداً في بنائها. وثارت عليه جرجنت واستعدت لحربه، فسار إليها سنة ٣٢٦ وحاصرها ثمانية أشهر، ودخل الشتاء ففك عنها الحصار. وفي سنة ٣٢٧ ثارت عليه جميع القلاع وسكان مازر، وكاتب أهل جرجنت إمبراطور بيزنطة يستنجدون به، فأمدّهم بالرجال والطعام. واستنجد خليل بالقائم فأمدّه بجيش ضخم أخذ يحاصر به المدن والقلاع سنة ٣٢٨ وحاصر جرجنت وضيق عليها الخناق حتى سنة ٣٢٩ وفر كثير من أهلها إلى بلاد الروم وتنصّر كثير منهم وهو لا يرعوى ولا يزدجر، بل يزداد ظلماً وإرهاباً للأرواح إلى درجة لم يُسمع بها من والٍ مسلم لا قبله ولا بعده. وبعد أربعة أعوام عاد إلى إفريقية، فحمل معه جماعة كبيرة من كبراء الجزيرة وأعيانها وعلمائها، وبين أمواج البحر أمر بثقب مراكبهم، ففرقوا جميعاً فيه غير مراعاة عهداً لهم ولا لآبائهم الذين فتحوا صقلية وجاهدوا في سبيل نشر الإسلام فيها بدمائهم وأرواحهم، وإنما لصفحة سوداء له وعار في جبينه لا يمكن أن تطمسه الأيام.

(ب) عهد بنى أبي الحسين الكلبيين

ولّى الخليفة العبيدي القائم على صقلية بعد خليل بن إسحق والياً جديداً هو عطاف الأزدي فاستمر في سياسة الظلم والقمع، وطّفح الغضب بالمدن الصقلية وفي مقدمتها بلرم، وثارت جميعاً في سنة ٣٣٥ ثورة كبرى عامة، والتجأ عطاف إلى قلعة الخالصة وامتنع فيها، واجتمع رأى وجوه بلرم وغيرها من المدن على أن يذهب وقدّ إلى الخليفة الفاطمي الجديد المنصور ويطلب إليه أن يقوم الحكم في صقلية على أسس راسخة من العدل الذي لا تصلح حياة الشعوب بدونه ومن الحرية في العقيدة فلا يتعرض حاكم وزبانيته لأهل السنة وأيضاً الحرية في المعاملات فلا يُغتصب من أى تاجر ولا من أى شخص ماله. وكان الخليفة المنصور حصيماً، فرأى أن سياسة الخليفين قبله وما أرسلوا لهم من ولاية جبارين كانت سياسة جائرة باطشة إلى أقصى حد، ورأى أن يقنع بالسيادة الاسمية على صقلية إرضاء لأهلها، وعهد بالولاية عليها لقائد من خيرة قواده سنة ٣٣٦ هو الحسن بن على بن أبي الحسين الكلبي. ومنذ هذا التاريخ أصبح حكم صقلية وراثياً في أسرته، وأخذ يحكمها حكماً عادلاً رشيداً، وتصادف في أول حكمه أن غلاماً من غلماناه اغتصب إحدى جواريه، فأمر بقتله حتى لا تسوّل لأحد من جنده وغلماناه نفسه بالاعتداء على الحرمات، وأكبر الناس ذلك منه واستبشروا به. ولما رسخت قدمه في بلرم

قبض على مدبري الفتنة فيها من بنى الطبرى وصادر أموالهم. واطمأن له الناس والتفوا حوله، وحاول إمبراطور بيزنطة في أول حكمه أن يسترد ما استولى عليه الصقليون من شبه جزيرة قَلُورِيَّة، وأرسل لذلك أسطولا فردّه على أعقابهم مخذولا، وشيّد مسجدا بها بمدينة رجيو (Reggio) ترسيخاً لحكم المسلمين لها وتثبيتا، وأجبر الروم في مدينة تارنته Tarente على أداء الجزية. وجمع هذا الوالى وقيل بل ابنه أحمد ثلاثين رجلا من وجوه صقلية وسار بهم إلى الخليفة العبيديّ في المهديّة بإفريقية وبايعوه وخلع عليهم الخليفة. وهو رمز لدخول الجزيرة في المذهب العبيدي، ونرى ابن حوقل - وهو من دعاة الفاطميين - يذم الصقليين ذما شديدا، مما قد يدل على أن العامة فيها لم تعتق هذا المذهب.

ويتوفى الحسن سنة ٣٤١ ويخلفه في حكم صقلية ابنه أحمد، وكان يشاركه في الحكم والتدبير فاتبع سياسته العادلة الرشيدة وكانت رمطة قد خرجت على الدولة فاسترجعها، وركب البحر إلى قَلُورِيَّة وأحرق أسطول بيزنطة وأسر قائده وأرسل به مع عدد كبير من الروم إلى المعز، وشعرت بيزنطة بأن أمهلها في صقلية أصبح من إحدى المستحيلات فأرسلت إلى المعز وفدا يطلب الصلح حاملا إليه هدايا ثمينة، وتعاقد الودع معه على ترك الجزيرة له، في مقابل إخلاء المسلمين مدينتي طبرمين ورمطة لنصارى الجزيرة، وارتضى ذلك المعز، وكانت غلطة كبيرة من أغلاطه. وأخذ المسلمون يتلكئون في تسليم المدينتين وعُزل أحمد بن الحسن سنة ٣٥٨ وكان حسن السيرة كما يقول ابن خلدون وولّى الجزيرة سنة ٣٥٩ أخوه أبو القاسم على بن الحسن، وكانت مسيبي خرجت على الدولة واتخذها العدو مركزا لأعماله ضد المسلمين، فنازلها وحاصرها حتى أعلنت الطاعة، واستعاد مدينة رمطة وأمر بتجديد بنائها، ونازل الروم بقَلُورِيَّة ومن عاونهم من الألمان والنُرمَان، واستشهد في إحدى المعارك الطاخنة سنة ٣٧٢ ونقل المسلمون رفاته إلى صقلية. وولى بعده من الأسرة الكلبيّة أحد أبنائها: جعفر بن محمد وكان من أصحاب الرأى والتدبير، فأخذ يحكم صقلية حكما عادلا نزيها. وحدث في عهده أن جارية صقلية للخليفة الفاطمي العزيز وكانت محببة عنده وكان لها أخ راهب بصقلية فتوسلت إليه أن يرجع إلى النصارى فيها قلاع طبرمين ورمطة وأجابها إلى مطلبها وكتب إلى واليه جعفر يأمره بإخلائها لنصارى الجزيرة، فراجع الخليفة بدهائه حتى عدل ن مطلبه. وتوفى سريعا سنة ٣٧٥ وتولى الجزيرة بعده ثقة الدولة أبو الفتح يوسف بن عبد الله سنة ٣٧٧ وهو من خيرة الولاة الكلبيين، وفيه يقول ابن خلدون: «أنسى بجلالته وفضائله من كان قبله منهم» ويقول لسان الدين بن الخطيب في أعمال الأعلام: «كانت أيام الناس في مدته على أفضل ما يشتهون، وقد ضبط الجزيرة ضبطا محكما وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف. وعمّ العدل والرخاء والأمن كل جهات الجزيرة» ولم يتحرك في وجهه عدو من داخل البلاد ولا من خارجها، وزار القاهرة، واستقامت الأمور في عهده أعظم ما يكون من الاستقامة، وكانت دار

ولايته أو إمارته في بلرم مقصد الشعراء والأدباء والعلماء، وهو ممدوح الشاعر الجزائري المشهور ابن قاضي ميلة، وما زال يسوس الجزيرة وأهلها خير سياسة حتى أصابه الفالج سنة ٣٨٨ وعطلَّ جانبِه الأيسر، واتفق الناس معه على تسليم صولجان الحكم لابنه جعفر، وثار عليه أخوه على وانضمَّ إليه البربر والعبيد، وانتصر عليه جعفر فقتله، وأمر بقتل العبيد ونفى الجند البربري من صقلية، وجعل جنده جميعاً من أهل صقلية المسلمين، فقلَّ بذلك جنده - كما يقول البكري - وأعدَّ لانهباء ملكه. وسخط عليه أهل صقلية لتغاضيه عن كاتبه حسن الباغاني في عسفه في جباية الضرائب، وزادهم سخطاً عليه استخفافه بشيوخ بلرم: فحاصروه وشدّدوا الحصار عليه، فخرج إليهم أبوه في محفّة، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، فاحتفوا به، وطلبوا إليه أن ينصفهم منه، واتفق معهم على أن يعزله من ولايته عليهم ويولّي أخاه الأكحل، وارتضوه أميراً بعد أخيه، ولم يلبث الأكحل أن أشرك ابنه جعفراً معه في الحكم، وكان غرّاً تنقصه الخبرة، فاتبع سياسة حمقاء هي التفرقة بين الإفريقيين والصقليين في المعاملة المالية، واستجار الصقليون من ظلمه بالمعز بن باديس حاكم إفريقية التونسية سنة ٤٢٧ فأرسل معهم ابنه عبيد الله في جيش عداده ستة آلاف نصفه من الفرسان، وانضم إليه أهل الجزيرة، وسرعان ما ندموا وتكروا لعبد الله بن المعز، فعاد مع جيشه إلى إفريقية، وولّوا عليهم صمصام الدولة شقيق الأكحل. ولم تطل مدته، إذ ثار عليه أهل بلرم، وخلعوه.

وتدخل صقلية بعد خلع الصمصام في عهد يمكن أن يسمى عهد أمراء الطوائف، وفيه ضاعت كل ممتلكاتها في قَلَوْرِيَّةَ بإيطاليا، وأخذ قواد الثورة على الصمصام يستقلون ببلدانهم مكونين فيها إمارات، وكانت بلرم من نصيب محمد بن الثمنة أحد القواد، وضمَّ إليه مدينة سرقوسة، واستقل ابن متكود من قواد الثورة بمدن: مازر وطرابنش والشاقة ومرسى على في الغرب والجنوب الغربي، واستقل ابن الحواس على بن نعمة من قواد الثورة أيضاً بمدنتي قصريانة وجرجنت، وتفاقت الفتن وسوء الأحوال في الجزيرة، ونشبت الحروب بين هؤلاء الأمراء، وأشدّها ما كان بين ابن الثمنة وعلى بن نعمة. وهُزم ابن الثمنة هزيمة ساحقة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م فاستغاث بالنورمان، وكان ذلك إيذاناً قويا بضياع الجزيرة من أيدي المسلمين.

التاريخ النورمانى - أحوال المسلمين

(أ) التاريخ^(١) النورمانى

النورمان قبائل متبربرة سقطت من شمالى أوروبا على شرقها وغربها مهاجمة ومكتسحة، وقد اكتسحت الشمال الغربى لفرنسا. واضطر ملك فرنسا إلى إقطاعهم الإقليم المشتق من اسمهم «نورمانديا» فتأقلموا فيه وانتهى عدوانهم. واتجهت جماعات منهم إلى إيطاليا واستولت على أجزائها الجنوبية، وتوافق الفرصة أحد ملوكهم المسمى روجار الأول كى يستولى على صقلية بخيانة أحد أبنائها: «ابن الثمنة»، إذ ساومه فى عونه ضد على بن نعمة على أن يفتح له أبواب مدينة مسينى واحتلها واتخذها قاعدة لأعماله الحربية فى الجزيرة، غير أن ابن الثمنة توفى فى العام التالى، وكان جيش روجار قليلا فلم يسارع إلى فتح مدن صقلية. واستصرخ المسلمون فى صقلية تميم بن المعز أمير المهديّة فى إفريقية التونسية لينقذهم من براثن روجار والنورمان فأنجدهم بأسطول يقوده ابنه: أيوب وعلى، ونزل أيوب فى الجنوب بمدينة جرجنت ولقيه على بن نعمة لقاء حسنا، بينما نزل أخوه على فى بلرم، واستبشر الناس واستعدوا مع عسكريها لجنود النورمان، غير أن على بن نعمة صاحب جرجنت عاد فظن الظنون بهذا الجيش الغربى، وانضمّ الأخوان إلى حربه، وسقط فى المعركة. وقامت فتنة بين أهل جرجنت والجيش الإفريقى، وكان النورمان قد جمعوا جموعها ولقوا هذا الجيش وهزموه، واضطرّ أيوب وعلى أن يعودا إلى إفريقية التونسية بمن بقى من جيشها سنة ٤٦١ للهجرة، واندفع روجار والنورمان يحتلون المدن فى الجزيرة، وبدءوا بمدينة بلرم وحاصروها بحرا وبرا خمسة أشهر وأهلها يقاومون، وخنقهم الجوع، وظلوا لا يبالون به إلى أن فشا بينهم وباء، ودخلها النورمان سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م ينهبون ويفتكون بشبابها الباسل ويتوزعون بينهم الصبية ليبيعوهم عبدا، وأحال روجار مسجدها كنيسة. وسلّمت مازر سريعا خوفا من أن يصيبها ما أصاب بلرم وتبعها قطانية فى الشرق، غير أن بقية مدن صقلية ظلت تقاوم النورمان عشرين عاما طوالا، وكان من أشدها

(١) انظر فى التاريخ النورمانى بصقلية بن الأثير ورحلة ابن جبير والمكتبة الصقلية لأمارى وكتابه تاريخ مسلمى صقلية المار ذكره وكتاب Freeman تاريخ صقلية وكتاب Edward, History of Sicily, Oxford, 1891 وتاريخ

ابن خلدون والعرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس والجزء الثالث من كتاب وركات عن الحضارة العربية بإفريقية ص ٤٥٧ والمسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدنى.

مقاومة لهم سرقوسة بفضل بطلها ابن عباد الذي نظم المقاومة فيها وفي ولاية نوطس. وبعد خمس سنوات من الاستيلاء على بلرم استولى روجار على ثغر أو مدينة طرابنش في الغرب وهدم سورها ووزع أرضها على أتباعه. وبعد سنتين من استيلائه عليها استولى على طبرمين في الشرق. وكان ابن عباد بطل سرقوسة استطاع الاستيلاء على مدينته وجهاز روجار الأول أسطولا ضخما هاجم به سرقوسة بعد أربعة عشر عاما من استيلائه على بلرم وظلت الجبهة الشرقية تقاومه مقاومة عنيفة مع سرقوسة غير أن كفة الأسطول النورمانى علت أخيرا على سفن ابن عباد، وكان يقودها بنفسه وكلها غرقت سفينة من سفنه انتقل إلى أخرى، وزلت به القدم في إحدى قفزاته، فتلقت موجات البحر منحنية لبطولته، وشيخته إلى قرارها شهيدا، ولولا ذلك لظلت سرقوسة تقاوم النورمان طويلا. وحاصر النورمان مدينة جرجنت ثلاث سنوات طوال إلى أن اضطرتها المخصصة والجوع إلى الاستسلام، وظلوا بعدها يحاصرون مدينة قصر بانه وهي تضرب أروع الأمثلة في مقاومتهم مقاومة باسلة حادة إلى أن سلمها لهم سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م أميرها ابن حمود، وخشى على نفسه من أهلها أن يفتكوا به فلجأ إلى روجار وتنصر فيها يقال خاسرا بذلك بلده ودينه. واستسلمت مدينتا نوطس في الجنوب الشرقي وبشيرة في الجنوب. وبذلك استولى روجار على الجزيرة جميعها وأقل نجم الإسلام بها سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م وبالمثل استولى على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م، وظل ملكا عليها وعلى بعض أجزاء في جنوبي إيطاليا نحو عشرين عاما حتى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م. وخلفه على حكم صقلية روجار الثاني وطال حكمه خمسين عاما ونيفا (٤٩٤هـ/١١٠٢م - ٥٤٨هـ/١١٥٤م) وبينما كان حكم أبيه يعد دورا من أدوار الفتح الحربي وتثبيت الحكم النورمانى في الجزيرة كان حكمه يعد دورا حضاريا للنورمان -عن طريق العرب- إذ تحضروا في الجزيرة وامتدت آثار ذلك في الغرب، وبالمثل حكم ابنه غليوم الأول حتى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م وحفيده غليوم الثاني حتى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م. وتولى بعد ذلك ابن عمه طانكرد لمدة أربع سنوات ثم ابنه غليوم الثالث، وتطورت الظروف واستولى أباطرة ألمانيا على صقلية وأصبح فرديريك الثاني ملكا عليها (١١٩٤-١٢٥٠م).

وحرى بنا قبل أن نترك الحديث عن الحكم النورمانى بصقلية أن نذكر أنه ظل لأسطول صقلية الإسلامية طويلا استعلاء في البحر المتوسط بحيث كان يعد من شمالي مصر إلى الأندلس بحيرة عربية، ومررنا أنه حطم الأسطول البيزنطى مرارا حتى اضطروا أن يرسلوا وفدهم خانعين مستذلين إلى المهدي يطلبون الصلح. وهذه المكانة للأسطول الإسلامى الصقلى ضاعت بضياح صقلية، واستحالت إلى مكانة للأسطول النورمانى الصقلى بحيث أصبح البحر المتوسط بين صقلية ومصر بحيرة نورمانية، وساعدت على ذلك هجرة القبائل العربية من بنى سليم وهلال إلى أفريقية التونسية وقضاؤها على الدولة الصنهاجية بالقيروان وانحيازها إلى

المهدية، فلم يعد عندها من المال ما تستطيع أن تُعَدَّ به أسطولا ضخما يقف لأسطول النورمان، وكان للدولة العبيدية أسطول قوى أيام مقامها بالمهدية حتى إذا بارحها المعز الفاطمي إلى مصر لم تعد تلك الدولة تُعنى بأسطولها إلا بعض سفن تحرس سواحلها، ويدل على مدى ما كان يشعر الخلفاء الفاطميون تجاه النورمان الصقليين وأسطولهم من خزي أن نجد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤-٥٤٤هـ) حين يستولى روجار الثاني على جزيرة جربة التونسية لا يكتب إليه مهذبا متوعدا، بل يكتب إليه متخاذلا ردًا على رسالة له كما سجل ذلك القلقشندى في الجزء السادس من صبحه ص ٤٥٨ قائلا: «وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجزيرة لما شرحت من عدوان أهلها.. واجترائهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها.. فإن من كانت هذه حاله حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمته أخذة رابية^(١)». وبدلا من أن يعد أسطولا لإخراج النورمان على وجوههم من صقلية التي طالما طعم هو وآباؤه من خيراتها وطيباتها أرسل إليه هذا الخطاب المخزي. ومن الغريب أن الحملات الصليبية بدأت بعد تمام استيلاء النورمان على صقلية بسبع سنوات، وقد ظللنا تنازها نزالا عنيفا قرنين من الزمان والبحر المتوسط بحيرة نورمانية، وهم يغدون فيه ويروحون، ولو أن أسطول صقلية الإسلامية كان لا يزال قائما لقل من قوتهم بل لأغرق كثيرا من سفنهم المتجهة إلى ساحل الشام ومصر، بل أيضا إلى ساحل تونس على نحو ما هو معروف من حملة لويس التاسع عليها وموته تحت أسوارها سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م. ويتضح من ذلك أن صقلية لم تكن جزيرة إسلامية فقدتها المسلمون فحسب بل كانت درعا كبيرا لهم يحمي ثغورهم على سواحل المتوسط، حتى إذا سقط هذا الدرع أخذ الصليبيون يجوبون المتوسط وأخذ النورمان الصقليون يغيرون على سواحل إفريقية التونسية، وكانت آخر غاراتهم وأشدّها على تلك السواحل غارتهم سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م في عهد روجار الثاني وابنه غليوم واغتصابهم لمدينة المهديّة وغالب المدن الساحلية الشرقية: قابس وصفاقس وسوسة، وكان ذلك بعد احتلال جربة التي هناهم بها الخليفة الفاطمي بقليل. وكان ذلك بسبب ما حدث في إفريقية التونسية من قيام عصر أمراء الطوائف بعد الهجرة الهلالية السلمية وتنايذ هؤلاء الأمراء وتحاربهم ومحاوله بعضهم الاستعانة بصاحب صقلية ضد إخوته وأهله. ولولا أن قيَّض الله لإفريقية التونسية عبد المؤمن أمير الموحدين بالمغرب، ففرض فيها على هؤلاء الأمراء المتنازعين وقهر نصارى النورمان المستولين على الساحل التونسي ومدنه وعلى جربة وطرابلس لظلوا بها طويلا إذ أخرجهم على وجوههم، وسحقهم سحقا ذريعا بحيث لم يعد النورمان بعده يحاولون احتلال الساحل التونسي.

(ب) أحوال المسلمين

لما فتح النورمان صقلية الإسلامية ظلوا طوال فتحهم لها يشعرون أنهم دخلاء غرباء على من فيها من المسلمين والعناصر الأخرى الصقلية الأصلية والإغريقية والرومية وغير الرومية، وعمق هذا الشعور في نفوسهم أنهم لم يكونوا متحضرين وواجهتهم مدن إسلامية متحضرة في سكانها وفي نظمها فلم يكن أمامهم إلا أن يحاولوا الانتفاع بحضارتها، غير أنهم كانوا مشبعين بدعوات وإجاءات من بابا روما ضد الإسلام والمسلمين لتمكين سلطان المسيحية فيها واستئصال جذور الإسلام منها، وهو ما يلاحظ على تصرفات روجار الأول فيها، إذ أنزل بالمسلمين بها في حكمه الذي امتد نحو ثلاثين عاما صورا مختلفة من التنكيل، وأول ما يلاحظ من ذلك أنه عمم نظام الإقطاع في الجزيرة، فكان يُقطع أنصاره وجنوده والأساقفة والقساوسة ما يفتحه من البلدان، ويُعدُّ مَنْ يفلح أو يزرع تلك الممتلكات من المسلمين عبدا يهدون مع الأرض إلى صاحب الإقطاع، على نحو ما صنع بمدينة قطانية حين فتحها، إذ جعل أهلها المسلمين عبداً مسترقين ومنحها إقطاعاً للأسقف هناك. وكانت هذه أول ضربة أنزلها بأعدائه المسلمين. والضربة الثانية أنه قرَّر على المسلمين عامة دفع جزية، وظلوا يدفعونها حتى نهاية الحكم النورمانى. والضربة الثالثة أنه أسكن الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد منهم - كما يقول ابن الأثير - حماً خاصة به - ولا دُكاناً ولا طاحوناً ولا فرناً. ويقول بعض الباحثين المعاصرين إن هذا إنما يصدق على جماعات الفلاحين أو من أحاطهم الفتح مسترقين، وهو تخصيص لا يقتضيه كلام ابن الأثير. ويقول آخرون دفاعاً عن الملك النورمانى روجار الأول إنه لم يشرد المسلمين عن مدن صقلية ولو كان يريد التنكيل بهم حقاً لشردهم، وينسبون أنه كان لا يستطيع تشريدهم وإخراجهم من البلاد، لأنهم كانوا الأداة التى تزرع فيها وتصنع وتنتج ولو شردهم لأصبحت خراباً ولجفت ضروعها ولم يُعدَّ يجد فيها ما يحميه هو وجنده وشعبه من الجوع والمسغبة.

ومع أن ابنه الملك روجار الثانى (٤٩٤-٥٤٨هـ) وحفيده غليوم الأول (٥٤٨-٥٦١هـ) كانا لا يقسوان على المسلمين قسوته ظلت في عهدهما آثار من هذه المعاملة الظالمة للمسلمين صورها في رحلته ابن جبير الذى زار صقلية في أيام الملك غليوم الأول، إذ يقول عن مدينة مسينى إنها: «معمورة بعبدة الصليبان، يشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسنوا السيرة في استعماهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة (جزية) في فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها» فتملك الأرض في مسينى - مع سعتها - كان محرماً على المسلمين، فهم يشتغلون في مسينى عملاً ولا يتحولون بحال ملاكاً.

ويقول ابن جبير عن مسلمي بلرم إن لهم أرباضاً (ضواحي) انفردوا بسكناها عن النصارى، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم إلا في الأعياد، فهم ممنوعون من صلاة الجمعة. ومحدثنا عن فتى بمسني كان يحفى إسلامه متسماً باسم عبد المسيح وأنه احتفى به وبمن كان معه حتى إذا لم يجد حوله من يتهمه بإفشاء سره محافظة على نفسه من النصارى سأهم عن مكة ومشاهدها المعظمة ومشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبروه وهو يدوب شوقاً وتحرقاً إلى مشاهدة تلك الأماكن، وغبطهم على رحلتهم إلى مشاهدتها، وقال: أما نحن فكاتون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا. ومما يذكره ابن جبير مما يدل على اضطهاد المسلمين وإدخالهم في النصرانية قسراً أن فقيهاً حدثه في مدينة طرابنش أنهم ظلوا يطاردونهم بمطالبتهم بأموال يكتنزها في رأيهم حتى أظهر لهم أنه فارق دينه الحنيف، ولكي يقنعهم بذلك حول مسجداً له بجوار داره إلى كنيسة، فكفوا عنه وقال إنه يكتم إيمانه! وذكر أنه لقي زعيم المسلمين المعروف في تلك الديار باسم ابن حجر ممدوح ابن فلاقس الشاعر الإسكندري. فقال له إنهم ظلوا يوالون عليه مصادرات بلغت ثلاثين ألف دينار، وما زال يتخلى عن جميع ممتلكاته وعقاراته حتى أصبح بدون مال، ومما قال له: «كنت أودُّ لو أباغُ أنا وأهل بيتي لعل البيع يخلصنا مما نحن فيه ونصبح في بلاد المسلمين». ويروي ابن جبير قصة تقطع نياط القلوب حسرة إذ يقول إن أحد أعيان الجزيرة وجّه ابنه إلى حاجٍ من أصحابنا الحجاج راغباً إليه في أن يقبل منه بنتاً له عذراء صغيرة السن قد راهقت الإدراك، فإن رضيها تزوجها، وإن لم يرضها تزوجها، ممن يرضاه لها من أهل بلده. طمعا في التخلص من هذه الفتنة. وطاب الأب واخوتها بذلك نفساً لعلهم يجدون يوماً السبيل إلى التخلص إلى بلاد المسلمين. وتأجر (طلب الثواب) هذا الحاج المرغوب إليه بقبول ذلك، وأعانه ابن جبير ومن معه على اغتنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة، يقول ابن جبير: «وطال عجبنا من حالٍ تؤدي بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة في القلب وإسلامها إلى يد من يغريها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها والوحشة دونها، كما استغرنا حال الصبيّة، صانها الله، ورضاه بفرأق أهلها رغبة في الإسلام واستمساكاً بعروته الوثقى».

وهل بعد ذلك من دليل على أن النورمان عاملوا المسلمين في صقلية بتهمة الظلم والقسوة والعتو والبغى حتى يفارقوا دينهم الحنيف كرها، ومن عجب أن يكتب المؤرخون الغربيون أبناء عمومتهم أنهم عاملوا المسلمين بتسامح لا حد له وبعدلٍ ما بعده عدل، فنصدهم، وهم قد عاملوهم بوحشية مامثلها وحشية واستذلّوهم ونهبوا حريتهم التي خلقهم الله بها وأحالوهم - أو أحالوا الشطر الأكبر منهم - عبيداً مسترقين.

وازدادت هذه الوحشية ضراوة في عهد أباطرة الألمان حين استولوا على صقلية سنة

١١٩٤هـ/١٥٩١م فإنهم أخذوا ينزلون بأهلها من المسلمين - بتأثير الكنيسة - صورا فظيعة من الاضطهاد والتنكيل، ومنعواهم منعا باتا من حمل السلاح، وفرضوا عليهم - كما يقول الأستاذ الجليل حسن حسنى عبد الوهاب - أن يُعمد أبنائهم مثل أبناء النصارى: أمرٌ لا رادٌ له من البابا دون استحياء، كما فرضوا عليهم أن يضعوا على صدورهم قطعة من النسيج الأحمر طولها شبر وعرضها إصبعان للتمييز بينهم وبين النصارى، وهاجرت كثرة من مسلمى صقلية - وخاصة من التجار والصناع - إلى الساحل التونسى والبلاد الإفريقية، فرارا من هذا الظلم الذى لا يطاق، وبقيت قلة مستضعفة - وخاصة من أهل الأرياف - تتحمل هذا العذاب والهوان، وتعامل معاملة العبيد الأرقاء. وحين صارت إفريقية التونسية إلى إبي زكريا الحفصى وعلم بما يقع على تلك القلة من الظلم فى أشنع صورته كاتب فردريك الثانى إمبراطور المانيا وملك صقلية ليرفع هذا الظلم عن مسلمى الجزيرة، وعقد معه معاهدة تضمن لهم الحرية الدينية، حتى إذا توفى أبو زكريا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٥م رجع الظلم والعدوان الذى لا يطاق، واستغاثوا بالمستنصر بن أبى زكريا، فاتفق مع فردريك الثانى إمبراطور المانيا وملك صقلية سنة ٦٤٧ على إجلائهم إلى إفريقية التونسية، وبالمثل إخلاء مالطة من كل من بقى فيها من المسلمين.

الفصل الثاني

المجتمع الصقلي والثقافة

١

المجتمع الصقلي^(١) في العهد العربي

ظل المسلمون في صقلية - طوال حكمهم بها - لا يزيدون عن نصف سكانها وكانت مجعاً لعناصر شتى مسيحيين من سكانها الأصليين الصيقول ومن النورمان والإغريق والصقالبة ومن بقايا الفينيقيين والقرطاجيين مع قلة من اليهود وكانت لهم حارة في بلرم وقلة من الزنوج ونزل أكثر البربر.. نواحي مازر وجرجنت. وكان في كل بلد من يملكون الإقطاعات الكبيرة ومن يملكون القطع الصغيرة، وكان الولاية يكتنزون لأنفسهم كثيراً من الذهب والفضة، ويقال إن واليها ثقة الدولة حين ارتحل إلى مصر كان معه ٦٧٠ ألف دينار سوى آلاف الخيل والبغال، ويبالغ ابن حوقل فيقول إن أهلها فقراء بينما نجد الإصطخرى يقول: «في صقلية من الخصب والزروع والمواشى والرقيق ما يفضل سائر الموانئ المتاخمة للبحر» ونفس ابن حوقل يعدد الأسواق في بلرم ويبلغ بها نحو الثلاثين إذ كان بها سوق الزياتين والدقاين والصارفة والحدادين والصيافة وبانعي القمح والطرازين والسماكين والأبزاريين وباعة البقل وأصحاب الفاكهة وباعة الریحان والجزارين والخيازين والعطارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين، وكان بها للقصابين نحو مائتي حانوت لبيع اللحم ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاءون». وفي ذلك مايدل على انتعاش الحركة التجارية في بلرم وأن سكانها لم يكن يعمهم الفقر كما يقول ابن حوقل، وبالمثل بقية المدن في صقلية.

والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس: الفصل الثاني من الكتاب الأول، وكتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية، الفصل الخاص في الجزء الثالث بتاريخ صقلية الإسلامية.

(١) انظر في المجتمع الصقلي في العهد العربي صورة الأرض لابن حوقل ومسالك الممالك للإصطخرى ونزهة المشتاق والتويرى والمكتبة الصقلية وإنباه الرواة في ترجمة ابن البر ١٤٦/٢ ورياض النفوس للملكي وسفر نامه لناصر خسرو

وكانت الجزيرة موزعة قبل فتح المسلمين لها إلى ولايتين كبيرتين: ولاية بلرم وولاية سرقوسة، ووزعها المسلمون بعد الفتح إلى ثلاث ولايات كبيرة: شرقية وجنوبية غربية ثم غربية وتضم الشمال. وجعل المسلمون لكل ولاية واليا يدير أعمالها ومعه عدد من العمال يساعدونه في تصريف هذه الأعمال، وكان كل وال يسمى قائدا، ربما لكثرة ما كان ينهض به من الحروب ضد الحصون في إقليمه. وكان في كل ناحية وكل بلد قاضٍ ومعه كاتب لتقييد الأحكام. وكان قاضى بلرم يفصل في القضايا المهمة، ولذلك كان يسمى المفتى. وكان السكان المسيحيون في الجزيرة يمثلون ما يقرب من نصف سكانها وعاملهم الولاية المسلمون ونوابهم بمنتهى العدل والتسامح طبقا لتعاليم الإسلام فكان الثرى يدفع سنويا للدولة ٤٨ ديناراً والفرد في الطبقة الوسطى يدفع ٢٤ ديناراً، بينما يدفع من يكسب عيشه بعرق جبينه ١٢ ديناراً فحسب. ولم تكن تؤخذ ضريبة من الرهبان والقسس والنساء والعجزة والأطفال، فهم جميعاً مُعْفَوْنَ من الضرائب إعفاء تاماً. وكانت الضريبة السالفة تسمى خراجاً وهى في حقيقتها ضريبة دفاع. وحافظ المسلمون في صقلية - كما حافظوا في كل ديارهم - على مؤسسات المسيحيين الدينية من كنائس وغير كنائس، كما حافظوا لهم على قوانينهم الدينية والمدنية وعلى محاكمهم الخاصة، وأتاحوا لهم الحرية التامة في أداء شعائرتهم الدينية.

وطببعي أن تكون بصقلية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم وتدير شؤونه، فكان بها ديوان المحاسبة الذى يقوم بأعمال وزارة المالية في عصرنا، فيه خزانة الدولة، وفيه موظفون يراجعون ما يجمعه المحتسبون في المدن والأعمال المختلفة من الضرائب. ويقول ابن حوقل إن الضرائب فيها كانت تضم: «خمسها ومستغلاتها ومال اللطف والجوالى المرسومة على الجماجم ومال البحر والهدية الواجبة في كل سنة على أهالى قَلْوَرِيَّةَ وقبالة الصيد وجميع المرافق». ولم يسمَّ ابن حوقل. الدواوين التى كانت تشرف على جمع هذه الضرائب الكثيرة، ومن الممكن بالمقابلة على النصوص الصقلية أن نعرف بعضها على الأقل فكان عندهم ديوان الخمس المشرف على ما يجمع من غنائم الحرب، فإن للدولة - كما هو معروف - خمس ما يجمع من الغنائم كما تقرر ذلك سورة الأنفال، وكان عندهم ديوان الممتلكات العقارية المستغلة. وديوان اللطف وهو ديوان الهدايا التى كانت ترسل سنويا للخليفة الفاطمى في المهديّة والقاهرة، وديوان الجوالى وهو ديوان الجزية التى كانت تؤخذ على الرؤوس أو على الجماجم كما يقول ابن حوقل. وكانت تُفرضُ ضريبة على الوارد من البحر، وإما كان لها ديوان خاص وإما كانت تضم إلى ديوان المستغلات، وقبالة الصيد أى ضمانها مبلغ معين ولعلها كانت تضم أيضاً إلى ديوان المستغلات، ولعله هو المسمى في بعض النصوص باسم ديوان التحقيق. وكلمة: جميع المرافق عند ابن حوقل تدل على أنهم كانوا يأخذون ضريبة على كل المنتجات وخاصة الصناعة إذ كان للصناعة ديوان خاص وقد يسمى ديوان الطراز. وكان من أهم الدواوين عندهم ديوان الإنشاء

ويتولاه أبلغ الكتاب مثل ابن الطوبى في عهد ثقة الدولة وأبنائه. ويبدو أنه كانت في بلرم طبقة من الشيوخ وبعض الأعيان يرجع إليها الوالى للمشورة في بعض القضايا العامة أو بعض الأحكام، وكانت تبرز حين يُؤخَذُ الرأى فى والى صقلية الجديد، وكثيرا ما كان يؤخذ برأىها فيه كما كان يؤخذ برأىها فى ضبط أموال الدولة.

وكانت الزراعة فى صقلية تُغَلُّ محصولا كبيرا من القمح الذى أدخله فيها القرطاجيون وكان يغطى أجزاء كبيرة فيها بردائه الذهبى كل عام، وكانوا قد أدخلوا فيها غرس شجر الزيتون كما أدخل الإغريق غرس الكروم، وعينها يُفضل عِنَبَ اليونان، ونقل العربُ إليها كثيرا من الزروع مثل القصب والأرز والقطن والبصل وكثيرا من الأشجار مثل النخيل والليمون واللوز والفسق وكثيرا من الفواكه مثل التين والبرتقال والتوت وكثيرا من الخضروات ومن الرياحين. وفى سبيل خدمة الزراعة والحصول على إنتاج وافر حفروا القنوات والترع التى ماتزال موجودة بها إلى اليوم، واستعملوا طواحين الماء والخزانات لتوزيع المياه على الزرع والبساتين كما استعملوا النواعير والمواسير المعقوفة التى توجه مجارى المياه كما يشاءون. وبذلك أحال العرب صقلية إلى مزرعة كبيرة، تتخللها الحدائق والبساتين البديعة. وكان بها مراعى واسعة يربى بها الماعز والأغنام والمواشى، وكانت بها خيول مشهورة فى عهد البيزنطيين، وأدخل فيها العرب خيولهم، وتفوقت على الخيول البيزنطية.

وكانت فى صقلية بعض صناعات قبل نزول المسلمين بها، ولكن صناعاتها ازدهرت فى أيامهم ازدهاراً واسعاً بما ألقته الأرض إليهم من مناجمها فى حجورهم من الذهب والفضة والنحاس والكبريت سوى منتوجات الثروة المعدنية من الشَّبِّ والمُفَطَّران ومنتوجات البحر المتوسط حولها من التِنِّ والمرجان ومختلف الأسماك. وأدخل المسلمون إليها صناعة الحرير وتطريز المنسوجات وتزيين السجاجيد بالنقوش البديعة وزركشة الثياب والجلود المصبوغة وإتقان صناعة الحلى. واشتهر ما كان ينتجه المسلمون من الكَتَّان فى الجزيرة شهرة واسعة، ويشيد بكتانها ابن حوقل جودة ورخصاً، ويقول إن نسيجه مما يقطع قطعين وكان يباع بمصر من خمسين رباغياً إلى ستين، ويقول ناصر خسرو: يُجَلَّبُ من صقلية كتان رقيق وثياب منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير مغربية، وفى خطط المقرئى أنه وجد لعزّة بنت المعز فى خزائنها ثلاثون ألف شقة صقلية. وكان قَطْعُ الأخشاب فى غابات جبل إتنا والغابات الشمالية يعود بغير قليل من الريح، وكانت صناعة السفن رائجة، وكان يُجَلَّبُ لها الخشب من جفلود والحديد من بلهرا. وكانت بالجزيرة بقاع يكثر فيها البربر، وهو البردى، وكانت مصر من قديم تصنع منه الورق للكتابة عليه، ونقل العرب عنها هذه الصناعة وكان الورق المتخذ منه لكتابة المنشورات والوثائق يسمى باسم الكاغد، ونقلت الدولة الأغلبية صناعته عن مصر إلى إفريقية

التونسية وأدخلتها إلى صقلية، فكان يصنع لها فيها الكاغد أو الطوامير لكتاباتها الرسمية، وما فضل عن حاجتها يفتله صنّاع جبالاً للمراكب وغيرها. واجتازت صناعة الطوامير من مضيق مسيني إلى سالرنو Salerno بإيطاليا وتغلغت - في عهد النورمان - إلى الشمال ومدينة نابولي، واجتازتها إلى أوروبا الوسطى وألمانيا وهو فضل كبير لمسلمي صقلية على الحضارة الإنسانية، فلولاهم ما عرفت ألمانيا الورق ولا صناعته، ولا أتيح فيما بعد - لعالمها الفذ «جوتنبرج» - اختراع الطباعة.

ولا ريب في أن صناعة صقلية الإسلامية المزدهرة وازدهار إنتاجها الزراعي أهلها لأن تزدهر بها التجارة، وقد مرت بنا كثرة الأسواق في بلرم حتى لتبلغ نحو ثلاثين سوقا، وكان بسوق القصابين أو الجزارين وحدهم - كما مرّ بنا - نحو مائتي محل أو دكان. وأتاح ذلك لصقلية ثراء واسعاً، أما ما يقوله ابن حوقل من فقر أهلها فكان داعية للفاطميين ووجد عامة الناس هناك تنفر من العقيدة الفاطمية وتعلق بمذاهب أهل السنة فحمل عليهم، ولم يحمل عليهم من ناحية ما وصفهم به من الفقر المادى فحسب فقد حمل عليهم أيضا من ناحية الفقر الخلقى، فوصفهم بالخبث واللؤم وقلة الذكاء ونقص المروءة وشدة الجهل، وهو متهم في كل ما وصفهم به من الناحية الخلقية وأيضاً من الناحية الدينية فقد رامهم بضعف دينهم لأنهم - في رأينا - لا يدينون بالمذهب الفاطمي الإسماعيلي، بينما يصفهم غيره بنظافة الثياب وحسن الصور إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة. والحق أن ابن حوقل في ذلك كله مغرض، ومن يقرأ وصف مدنها عند الإدريسي يراه يشيد بقصورها وبساتينها وأسواقها مبهوراً بما فيها من حركة تجارية واسعة لا في بلرم وحدها بل في كل المدن التي زارها وخاصة مسيني وقطانية وسرقوسة ونوطس وجرجنت ومازر وأطرابنش، وإذا كان الإدريسي زارها في العصر النورماني فإننا نجد أماري ينقل في المكتبة الصقلية عن الراهب نيودوسيوس - وكان قد أسر في سرقوسة بالقرن التاسع الميلادي سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م زمن الأغالية ونقل منها إلى بلرم - أنه تحدث بإعجاب عما شاهده من القصور في المدينتين كما تحدث عن أسواق بلرم وكثرة من فيها من جميع الأجناس الأوربية والإفريقية والآسيوية، ويقول نوبل دي فرجي في كتابه «العالم» إن تجارة صقلية بلغت أيام المسلمين ازدهاراً عظيماً لم تدركه في تاريخها لا قبلهم ولا بعدهم. وعلى الرغم من عوادي الأيام على قصور المسلمين ومساجدهم ومبانيهم فيها لا تزال في بقاياها وأروقتها الباقية ما يشهد بأن شعباً عظيماً سكن تلك الجزيرة وشاد فيها روائع من القصور والأبنية الفخمة برخامها وقسيفسائها ونقوشها البديعة، مما بهر فون شاك وتجرد له سنوات طوالا يصفه في كتابه: الفن العربي في إسبانيا وصقلية. ومن القصور المشيدة التي خلفها المسلمون ببلرم قصر العزيز الذي بناه الأمراء الكليبيون وقصر القبة وقصر المنصورية وقصر الفوارة شرقي بلرم، وسنذكر طرفاً مما نظمه فيها بعض الشعراء في غير هذا الموضوع.

وطبيعي أن يكون للزهد والتصوف مسارب في الحياة بصقلية الإسلامية، وكان القضاة والفقهاء في طليعة من يملكون الزهد والتقشف والانصراف عن متاع الحياة طلباً لما عند الله من ثواب الآخرة، وتلتقى في أول نزول المسلمين في صقلية بقاضيها ابن أبي محرز، وكانت تُضْرَبُ بعدله ونزاهته وتقواه الأمثال، وكان قد عاد إلى القيروان قبيل وفاته، فأوصى عمر أخاه أن يكتب خبر موته حين ينزل به القضاء، خوفاً من أن يكفنه ويدفنه الأمير الأغلبى وينفق ثمن ذلك عليه من بيت مال المسلمين، فيلقى الله وعليه من مال المسلمين شيء، وأنفذ أخوه وصيته، وتعجب الناس من ورعه حتى في موته. ويذكر صاحب رياض النفوس عن القاضي أبي عمرو ميمون بن عمر المتوفى سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م أنه ولي قضاء صقلية، فاجتاز بمدينة سوسة، فقال: يا أهل سوسة انظروا هذا كسائي وهذه فروق وهذا خُرج فيه كتبي وهذه الجارية السوداء تخدمني ومعها جُبَّةٌ وكساء، فبهذا رحلت عنكم، فانظروا بأى شيء أرجع. فلما وصل إلى بلرم قالوا له: هذه دار القضاء (وكانت واسعة) تنزل فيها، فتركها ونزل في دُويرة (صغيرة) لطيفة، وكانت الجارية السوداء تغزل وتبيع غزلها وتتفق عليه من فضل ذلك. ومرض ولم يخرج ثلاثة أيام فدخلوا عليه لعبادته فوجدوا عند رأسه وسادتين محشوتين تَبْنًا وتحتة حصيرة من البردى. وعاد إلى بلده عن طريق سوسة فاستقبله بعض أهلها، فقال: يا أهل سوسة كما غادرناكم نعود إليكم: هذه جُبَّتِي وكسائي وخُرْجِي فيه كتبي، وهذه السوداء تخدمني.

والقاضيان: ميمون وابن أبي محرز مثلاً رائعان لمن كان يزهد من أهل صقلية وقضاتها وفقهائها في متاع الحياة مكتفياً بأقل القليل من عيشته راضياً بحياة التقشف بل واجداً فيها متاعه فليس له مأرب سواها، ومن يمثل ذلك من أهل صقلية ما رواه المالكي في رياض النفوس عن أبي الحسن الصقلي الحريري من أنه قضى عمره - أو شطراً كبيراً منه - صامتاً لا ينطق إلا بذكر الله تعالى أو بما يعنيه، فإذا أقيمت الصلاة تأوّه وتواجد وقال: «وَأَدَّاهَبَ عَمْرِي فِي خَسَارَةٍ». وقد ظل الزهد في صقلية الإسلامية فردياً، ولم يتحول إلى حركة واسعة بحيث تنشأ عنه حركة صوفية، وحقاً قد يوصف بعض الصقليين بأنه صوفي دون أن يعنى الموصف بذلك الحقيقة الصوفية إنما يعنى العبادة، وربما كان الشخص الوحيد الذي يمكن أن يسلك هناك في عداد الصوفية هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري الذي حجَّ وسمع العلماء بمكة سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م ويوصف بأنه «إمام الحقيقة وشيخ أهل الطريقة» وله مؤلفات مختلفة تدل على أنه كان ينزع نزعة صوفية، منها: «الأنوار في علم الأسرار ومقامات الأبرار وصفة الأولياء ومراتب أحوال الصفاء والشرح والبيان لما أشكل من كلام سهل التستري»، ودار الكتب المصرية منه مخطوطة في ستة أجزاء وعبد الرحمن فيه فقيه يتمسك بمذهب أهل السنة مستشعراً دائماً القرآن الكريم والسنة النبوية، والكتاب إلى أن يكون زهداً وتقشفاً في الحياة أقرب منه إلى أن يكون تصوفاً بالمعنى الدقيق. وظل التصوف بعد البكري في صقلية

لا ينفك عن الفقه والحديث ومذهب أهل السنة غير متخذاً منهجاً عملياً من التصوف، على نحو ما يلقانا عند الفقيه الحافظ السمنطاري، فقد صنف في الرقائق وأخبار الصالحين كتاباً كبيراً، كان في عشرة مجلدات، سماه: «دليل القاصدين» كما ذكر ذلك ياقوت عند ذكره بلدته «سمنطار». وبذلك لم يكن - في رأينا - للتصوف حياة في صقلية الإسلامية إلا هذه الحياة السنوية الملتزمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتي تدفع الفقهاء إلى التأليف النظري في التصوف بمعناه العام أكثر مما تدفع إلى التطبيق العملي.

٢

المجتمع^(١) الصقلي في العهد النورماني

من قديم كان يقال إذا كانت روما فتحت أئينا حربيا فإن أئينا فتحتها حضاريا بأديها وفلسفتها وروعة فنونها، وهو ما نستطيع أن نقوله عن النورمان وصقلية الإسلامية فإن النورمان فتحوا صقلية الإسلامية حربيا، وفتحتهم صقلية الإسلامية حضارياً، إذ كانوا شعباً متبريراً ليس له حضارة ولا عهد له بأى حضارة، فلما نزلوا صقلية بهرتهم الحضارة الإسلامية فيها، واجتمعت أسباب كثيرة لكي يحنوا رؤسهم أمام من بها من المسلمين، فقد كانوا قلة ضئيلة بالنسبة إلى سكانها، وكانوا لا يعرفون شيئاً من نظمها الإدارية ومن تراتيب أهلها في الزراعة والصناعة وأسباب العمران، فاضطروا إلى استبقائهم لينتفعوا بهم في شئون الصناعة والزراعة وتشبيد القصور والمباني الباذخة. ومع ذلك فإن الملك روجار الأول الفاتح لم يحسن معاملتهم بتأثير الكنيسة كما أسلفنا فإذا هو يحيل كثيرين منهم في المدن والقلاع والحصون المفتوحة عنوة إلى عبيد مسترقين، وإذا هو يطبق عليهم نظام الإقطاع مسرفاً في تطبيقه، وإذا هو لا يترك لأحد منهم لا أرضاً متسعة فحسب، بل أيضاً لا محاماً - كما يقول ابن الأثير كما مر - ولا دكّانا ولا طاحونا ولا قرناً، وأسكن معهم في الحقول الروم والفرنج - كما يقول ابن الأثير - حتى يتعلموا منهم طرق الفلاحة والقيام على الزروع والغروس كما حدث في قطانية وغيرها من المدن ومن الحصون والقلاع التي بلغت ثلاثمائة وعشرين عدداً. ويبدو أنه أخذ يتوب إلى رشده، فخفف من هذه المعاملة الصارمة للمسلمين وخاصة في بلرم وفيمن اتخذهم جنداً في

المشتاق للإدريسى والعرب في صقلية للدكتور
إحسان عباس والمسلمون في جزيرة صقلية وجنوب
إيطاليا للأستاذ أحمد توفيق المدني.

(١) راجع ابن الأثير في الجزءين العاشر والحادي
عشر، وتاريخ ابن خلدون وأماري في المكتبة
الصقلية وتاريخ مسلمي صقلية وقريمان في كتابه
السالف: تاريخ صقلية ورحلة ابن جبير ونزهة

جيشه وأسطوله، ومع ذلك فقد فرض عليهم - كما فرض على مسلمي الجزيرة عامة - أن يدفعوا جزية، ولم يتنبه إلى أن المسلمين لم يكونوا يفرضونها ضريبة عامة على الرؤوس من حيث هي ضريبة، وإنما كانوا يفرضونها على غير المحاربين ضريبة دفاع عنهم، ولذلك لم يكونوا يفرضونها على القساوسة والرهبان والعجزة والنساء والأطفال، فهي ليست عندهم ضريبة اضطهاد، إنما هي ضريبة دفاع لجيش المسلمين الذي يحمي النصارى ويحارب دونهم، نصيباً مما يحتاج إليه في حربه من الموزن وعُدّة السلاح، أما هو فجعلها ضريبة اضطهاد عامة، مع استخدامهم في الجيش والأسطول والدفاع عن الجزيرة. وكان ابنه الملك روجار الثاني قد نشأ نشأة صقلية عربية، فإن اللغة النورمانية لم يكن بها علم ولا فلسفة ولا فكر ولا أدب، فاضطر أبوه إلى تعليمه العربية اللغة المتحضرة، وتنفس في الحضارة الإسلامية التي كانت مسيطرة على الجزيرة بروحها وتقاليدها، وأخذت هذه الحضارة تؤثر في حياة النورمان الغالين كما أخذوا يُفيدون من نُظمها وتراتبيتها الإدارية، وبالمثل من شئون الزراعة والصناعة والجيش، وفيه يقول ابن الأثير: «سلك طريق ملوك المسلمين من الجنائب (ما يركبه) والحجاب والسلاحية والجانندارية وغير ذلك، وخالف عادات الفرنج في ذلك كله فإنهم لا يعرفون شيئاً منه، واتخذ الملك روجار الثاني ديوان المظالم الذي كان شائعاً عند الحكومات الإسلامية الصقلية فنقله عنهم كما نقل عنها ديوان التحقيق وديوان الجزية وديوان الصناعة، ومنه يتفرع ديوان الطراز الخاص بالمنسوجات المطرزة بالذهب وغيرها، وأيضاً ديوان المستغلات من تجارة المواقيت الصادرة والواردة وصيد البحر. وكان في بلاطه. نفر من علماء العرب ومفكرهم وأرباب الأدب والصناعة، وكان هناك ديوان عام ينظر في أمور الدولة اشترك فيه بعض العرب. وخلفه ابنه الملك غليوم الأول، وكان قد تعلم العربية وحذقها مثل أبيه، ويقال إنه كان يعتمد في كثير من المهمات على مسلمي صقلية، وإنه فتح في وجوه مناصب الدولة يتولونها وقرب منه بعض العلماء المسلمين وبعض رجال الأدب والفكر. وقد دفع هو وأبوه النورمان إلى اقتباس الفنون والعلوم والعناصر الأساسية للحضارة الإسلامية، فتحضروا بعد أن كانوا قوماً متبذّين ونقلوا حضارتهم إلى إيطاليا فكانت بذلك من أسباب انبعاث النهضة الإيطالية بها في القرن الخامس عشر قبل غيرها من الأمم الغربية، وهو تأثير عميق لصقلية الإسلامية في النهضة الأوربية الوسيطة، وينقل الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب عن دى سلان وصف البلاط النورمانى في عهد غليوم الأول وأبيه روجار الثاني إذ يقول: «إن كل شيء في البلاط النورمانى أصبح يذكر بالعادة والتقاليد الشرقية من حجاب وغلمان وعبيد إلى خصيان (سود وبيض) وقيان وعازفين، ومن حريم إلى مراسم وتشريفات». ولم تكن اللغة العربية لغة التخاطب فحسب، بل كانت أيضاً لغة الثقافة، وكانت المراسم تصدر عن الديوان الملكى باللغة العربية ثم تنقل إلى اللاتينية أو اليونانية، كما كانت النقود منقوشة بالخط الكوفى» ومرّ ابن جبير بالجزيرة بعد عودته من الحج في أيام غليوم

الأول حوالى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م فنوه بأنه يتخذ من فتیان مسلمین مجابیب حُجَابَه ووزراء وعیون دولته وعمالته فی الجزيرة، ویقول إنه کثیر الثقة بالمسلمین وساکن إلیهم فی أحواله والمهم من أشغاله وله جملة من العبيد السود المسلمین وعلیهم قائد منهم. ویقول إن أهل دولته من المسلمین یلوح علیهم رونق ملکه، لاتساعهم فی الملابس الفاخرة والمراکب الفارهة، وما منهم إلا من له الحاشیة والعبيد والأتباع، ویقول عن غلیوم الأول: «لیس فی ملوک النصارى أترف فی الملک ولا أنعم ولا أرفه منه، وهو یتشبه بملوک المسلمین فی الانغماس فی نعيم الملک وترتیب قوانینہ ووضع أسالیبه وتقسیم مراتب رجاله وتفخیم أهبة الملک وإظهار زینته، ویذكر ابن جبر حین مرَّ ببلده أنه کان فی نحو الثلاثین سنة من عمره وأنه یتقن العربیة قراءة وكتابة، والعلامة التي یضعها علی رأس مناشیره ورسائله: «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبیه ووجَّار الثاني: «الحمد لله شکرًا لأنعمه». ومما یدل علی مدى انغماس النورمان فی الحضارة الإسلامیة التي كانت منبئةً فی الجزيرة أن زی النساء النصرانیات فی بلرم کان نفس زی النساء المسلمات، ویقول ابن جبر إنهن فصیحات الألسن بالعربیة الشریفه طبعًا (اللغة الأولى فی الجزيرة حینذاك) وإنه رآهن فی عید الفطر قد خرجن فیہ ولبسن ثياب الحریر المذهب والتحفن للحف (الملاءات وما یشبهاها) الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة (أى أنهن کن محجبات تماما مثل المسلمات) وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لکنائسهن حاملات جمیع زینة نساء المسلمین من التحلی والتخضب والتعطر».

ومن دلائل الانغماس الواضح فی الحضارة الإسلامیة لعهد غلیوم الأول ما یذكره ابن جبر من أن جواریه وحظایاه فی قصره کُنَّ مسلمات جمیعهن، وأن الجاریة النصرانیة من الفرنجیات إذا وقعت فی قصره أصبحت مسلمة بفضل من فیہ من الجوارى المسلمات. ولم یکن غلیوم ولا أبوه یتعرضان - فیها یظن - لأداء شعائر من فی بلاطها وبلدتها أو عاصمتها بلرم من المسلمین، وربما کان تسامح غلیوم فی هذا الجانب أقوى وأوسع من تسامح أبیه فقد کان من فی بلاطه من الفتیان یصوم الأشهر تطوعًا وطلبًا للأجر والثواب، وکان إذا دخل وقت الصلاة یمخرجون من مجلسه فرادی فیؤدونها، وهو لا یتعرض لهم أى تعرض. ویقول ابن جبر إن بلرم كانت غاصة بالمسلمین وهم فیها أرباض أو ضواح ینفردون فیها بسکناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، ویقول إن لهم مساجد یمرونها ویقیمون الصلاة فیها بأذان مسموع، وإن لهم قاضیا یتقاضون أمامه، ویذكر أن المساجد کثیرة، وکان یحفظ فی أكثرها القرآن. علی أنه یعود فیذكر أن صلاة الجمعة كانت محرمة علی سکان بلرم - كما مر بنا - بسبب الخطبة الدینیة التي تسبقها إذ كانت محظورة علیهم.

وحرى بنا أن نتوقف لنعود إلى المقالة الشائعة بین المؤرخین، من أن النورمان عاملوا مسلمی

صقلية معاملة حسنة وأنهم سمحوا لهم بحرية العقيدة مستدلين على ذلك بما يقول ابن جبیر وغيره عن بلاط روجار الثاني وغلجوم الأول من أنه كان بلاطا عربيا إسلاميا في نظر أمراء المسيحية، وهو إنما كان كذلك بحكم تبدی النورمان وشعور هذين الملكين بحاجتها وحاجة شعبها إلى تشرب الحضارة الإسلامية العربية، ولذلك أحسنا معاملة المسلمين وسمحا لهم - على الأقل في بلرم - بإقامة شعائرهم الدينية والأذان والصلاة في المساجد، وبالمثل سمحا بذلك لمن شعرا بحاجتها إليه في بلاطها وحياتها من الفتيان ومن الجوارى والحظايا. أما بعد ذلك فكانت المسألة تتوقف على كثرة المسلمين في البقاع والمدن، فقد اتجه ابن جبیر بعد زيارته لبلرم إلى زيارة مدينة طرابنش، ولاحظ أن جميع سكان الطريق بين المدينتين مسلمون يفلحون الأرض في ضياع ومحارث ومزارع متصلة، واقترب من مدينة ثرمة في الشمال، وكان الإعياء قد أخذ منه فبات بقصر قريب منها داخله مساكن وعلالي مشرفة، وهو كامل مرافق السكنى، وفي أعلاه مسجد من أحسن مساجد الدنيا بهاء، وبات فيه أحسن مبيت وأطيبه وسمع أذان الفجر - وكان قد طال عهده بسماعه كما يقول - وأكرمه القائمون عليه وصلى به الفريضة والتراويح إذ كان في رمضان، وأكبر الظن أنه كان محرسا للمدينة وبني على شاكلة المحارس في الساحل التونسي، وانتهى إلى طرابنش ورأى ما للمسلمين والتصارى فيها من مساجد وكنائس، ورأى المسلمين يصلون يوم العيد بالطبول والبوقات وعجب من ذلك.

وقبل أن نستمع إلى ابن جبیر فيما ذكره بتلك البلدة من الفتنة في الدين الحنيف نتوقف قليلا عند سياسة الملك، روجار الثاني، فقد ظل معتمداً لإجراءات الإقطاع التي فرضها أبوه روجار الأول في البلاد والحصون التي فتحت عنوة، ولما هاجم أسطوله الساحل التونسي واستولى على مدينة بونة (عناية) ترك أميره فليب جماعة من العلماء والنساک يخرجون منها إلى القرى المجاورة بأهلهم وأموالهم، فلما عاد قبض عليه لرفقه وحسن صنيعه بجماعة من المسلمين وجعل الأساقفة والقسس والرهبان يحاكمونه فحكموا عليه حكما ظالما بحرقه، كما نص على ذلك التجاني في رحلته. فلم يكن روجار الثاني يؤمن بحرية العقيدة كما يحلو لمؤرخي الغرب - وتابعهم مؤرخو العرب - القول بذلك. ونفس غلجوم الأول الذي أشاد ابن جبیر بمعاملته لمن في بلاطه من المسلمين ومن في قصره من الجوارى والحظايا المسلمات حدثت مذبحة للمسلمين ببلرم في أيامه، إذ أمر وزيره مايون بنزع السلاح من أيدي المسلمين سنة ١١٦٠/٥٥٦م فنار المسلمون ضد هذا الأمر، وانتهز المسيحيون الفرصة فسفكوا دماء كثيرين منهم في شوارع بلرم وفي الدواوين والحوانيت والفنادق كما سفكوا دماء جماعة ممن كانوا في القصر، وقتل في هذه الواقعة الشاعر القفصى يحيى بن التيفاشى كما قتل - في ظن أمارى - الإدريسي الجغرافي، وهو ما يؤكد أن استخدام غلجوم الأول للمسلمين في القصر إنما كان ضرورة حضارية، اضطرته إليها الحضارة الإسلامية التي قهرته وقهرت شعبه. ومرت بنا - منذ قليل - أخبار عن ابن جبیر

تدل على أن حرية المسلمين في إقامة شعائرهم الدينية لم تكن مكفولة تماماً على نحو ما أوضح ذلك على لسان عبد المسيح في مسيئتي وفتية مدينة طرابنش وزعيم المسلمين بها ابن حجر والمسلم الصقلي الذي اختار أن يُحرم من ابنته وأهداها زوجة إلى أحد الحجاج مع ابن جبير حتى لا تذوق ما يذوقه مع إخوتها من العذاب الأليم.

ويتضاعف الظلم الغاشم مع استيلاء أباطرة الألمان على صقلية - كما مرَّ بنا في الفصل الأول - ويفر من صقلية آلاف من المسلمين إلى إفريقية التونسية، ولا يبقى بها إلا من عجزوا عن الفرار والرحيل ويصبحون بها مستعبدين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام للسادة الفرنجة ولا يكفل لهم شيء من الحرية الدينية، واستغاثوا بأبي زكريا مؤسس دولة الموحدين فعقد مع فردريك الثاني الإمبراطور الألماني، وتعهد له فردريك فيها بضمان تلك الحرية، ولم يطبق هذا التعهد، وازداد العسف والظلم الغاشم، واستغاث المسلمون هناك بالمستنصر ابن أبي زكريا، فعقد مع فردريك على إجلاء المسلمين نهائياً من صقلية، وحلوا بتونس في سواحلها ورحبت بهم المدن الساحلية وعاشوا في أمان، ويقال إن فردريك أجلى من بقى بجزيرة مالطة من المسلمين إلى أمالفي Amalfi جنوبي إيطاليا، ويمر الزمن تنصرت ذرارهم.

٣

الثقافة^(١) في العهد العربي

دائماً تتحرك الثقافة الإسلامية مع الجيوش العربية الفاتحة، فبمجرد أن يفتح جيش عربي بلداً يقيم فيه مسجداً تُخَطَّبُ فيه خطبة الجمعة وتُؤدَّى الصلوات الخمس، ويدخل أهل البلد المفتوح في الإسلام أو كثيرون منهم، وتنشأ كتاتيب لتحفيظ الداخلين في الإسلام شيئاً من سور القرآن وتعليمهم وتعليم ناشئتهم مبادئ الكتابة العربية وشيئاً من الشعر العربي لتستقيم العربية في ألسنتهم. وكان هؤلاء المسلمون الجدد والجند العربي يتحلّقون حول الشيوخ في المساجد يأخذون عنهم تعاليم الإسلام، وكان من هؤلاء الشيوخ من يعرض الأسدية لأسد بن

الرواة للقطي وبغية الوعاة للسيوطي وطبقات القراء لابن الجزري والسديج المذهب لابن فرحون والصلة لابن بشكوال والحلة السيزاء لابن الأبار والقسم الثالث من كتاب ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالعهد العربي البيان المغرب لابن عذارى ومعجم الأدباء ومعجم البلدان في سمنطار لياقوت وتثقيف اللسان لابن مكى وتاريخ الحكماء للقطي وصورة الأرض لابن حوقل وطبقات الأطباء لابن جلجل وطبقات الأمم لصاعد والحريدة للعماد الأصبهاني: الجزء الأول وإنباه

الفرات قائد الحملة الذى قضى نحبه فى حصاره لسرقوسة وهى تصور مذهب مالك من إملاءات أستاذه عبد الرحمن بن القاسم بمصر، حتى إذا شاعت مدوِّنة سحنون - وهى أيضا من إملاءات ابن القاسم - فى القيروان والبلاد المغربية أخذ الشيوخ فى صقلية يلقنونها الناس والطلاب هناك.

ومع أن المسلمين فى صقلية ظلوا أشبه بمعسكر حربى لا يزالون ينتظرون النداء للحرب صباح مساء، ولا يزالون يُشهرون سيوفهم مع أول صارخ، ومع أن الصرخات كانت لاتنى ترتفع، ومع أنهم ظلوا يفتحون الحصون طوال عهدهم بها ولا يكادون ينتهون من حرب حتى يبدءوا حربا جديدة، مع ذلك كله استقروا بالمدن التى فتحوها، وكوّنوا لأنفسهم فيها ولايات إسلامية، ونقلوا إليها الحضارة العربية وكل ما اتصل بها من عمران وبناء منازل وقصور فخمه، ونهضوا بالزراعة والصناعة والتجارة، كما نهضوا بالثقافة فى مختلف فروعها وعلومها وفنونها. ولم يكتف الشباب المسلم الصقلى بما كان يحصّله من ذلك على علماء سرقوسة وجرجنت ومازر وبلرم وغيرها من المدن فقد كانوا يرحلون إلى القيروان للتزود من حلقات علمائها، وكان كثيرون من علماء القيروان وشيوخها يعبرون البحر لتزويد الطلاب هناك بما أحرزوا من العلوم وصاغوا من المؤلفات. وكأنما كانت صقلية - طوال العهد الإسلامى - بلدا تونسيا، فكل ما فى القيروان من كتب ومصنفات وعلوم وآداب يرحل مع التونسيين المهاجرين إليها ومع أبنائها فى حقائبهم حين عودتهم إلى بلدانهم. وليست المسألة إذن أن كتابا نثر على اسمه فى النصوص الصقلية مثل كتاب الملخص للقابسى الذى لخص فيه ما اتصل إسناده من أحاديث كتاب الموطأ للمالك، حتى إذا وجدناه هو أو غيره من الكتب سجلنا به وبها ما نقل إلى صقلية من المصنفات العلمية، والمسألة كانت أوسع من ذلك إذ لم يؤلف فى القيروان كتاب مهم إلا سُمِل إلى صقلية، وقد يحمله نفس مؤلفه على نحو ما هو معروف عن كتاب العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى، فقد ارتحل إليها بعد الهجرة الهلالية إلى موطنه، وحمل إليها معه هذا الكتاب النفيس الذى يُعدُّ أروع ما وضعت المغرب والأندلس فى النقد الأدبى والبلاغة ومحسناتها من كتب، ولا ريب فى أنه كان له أثر بعيد فى نهضة صقلية الأدبية.

وعلى نحو ما تبادل العلماء والأدباء فى صقلية الرحلة مع علماء وأدباء القيروان كذلك تبادلوها مع علماء وأدباء المشرق والأندلس، بل كان بعض الشباب الأندلسى يقصد إلى صقلية للاستماع إلى هذا العالم أو ذاك ممن بلغت شهرتهم العلمية الأندلس، وكثيرا ما كان يقصد بعض علماء صقلية الأندلس فيجد شهرته سبقته إليها. وكانت رحلة الطلاب الصقليين إلى مصر والمشرق كثيرة، ونزلها غير عالم وأديب من المشرق من مثل أبى محمد إسماعيل بن محمد النيسابورى، وأخذ عنه - كما يقول ابن ظافر فى كتابه بدائع البدائه - غير واحد كتاب

اليتيمة للتعالبي، ومثل على بن حمزة اللغوي فقد ذكر ياقوت في ترجمته أنه كان راوية لديوان المتنبي وأنه رحل إلى بلرم في صقلية وظل فيها يروى للطلاب ديوان المتنبي ويشرحه إلى أن توفي سنة ٣٧٥هـ/٩٨٦م ويبدو أن دواوين أخرى كثيرة دخلت إلى صقلية، فابن مكي يذكر في الباب الأربعين من كتابه «تنقيف اللسان ما كان يخطئ فيه المغنون من أشعار كثيرٍ وذى الرمة وجريير وابن الرومي والشريف الرضي. ويقول القفطى بكتابه تاريخ الحكماء في ترجمة أبي سليمان المنطقي عن كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى: إنه خاض كل بحر وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة منه بخط بعض أهل جزيرة صقلية، وهو قوله: «ابتدأ أبو حيان كتابه الإمتاع صوفيا وتوسطه محدثا وختمه سائلا ملحقا». وفي ذلك ما يدل على أن كتب الفكر العميق المشرقية - مثل كتب أبي حيان - كانت تحت أعين الصقليين. وما ذكرناه أو أشرنا إليه من ذلك إنما هو رموز لما نُقل إلى صقلية من نفائس الكتب الأدبية والفكرية، ولا بد أن كانت نفائس الكتب التونسية والمشرقية في التفسير والحديث النبوي والفقه تُنقل بدورها إليها.

ومن المؤكد أن الحركة العلمية كانت نشيطة بها، ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يقوله ابن حوقل في كتابه صورة الأرض من أنه كان بها ما يزيد على مائتي مسجد، ويقول أيضا - ونقل ذلك عنه ياقوت في معجم البلدان - إن في بلرم ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم، ولا بد أن كانت لهم حلقات كثيرة في المساجد يحاضرون بها الناس في مختلف فروع الثقافة الإسلامية. ومن طريف ما يذكره ابن حوقل أنه رأى بها كتابا به خمسة من المعلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكتاب أو مدير هذه المدرسة، ويقول إن صبيان الكتاتيب كثيرون وإنهم يبلغون أحيانا ثمانين طالبا في الحلقة الواحدة أو الفصل الواحد، وهي بذلك ليست كتاتيب - كما يقول - إنما هي مدارس، وقد أهلت لنشاط علمي واسع في بلرم، وعلى شاكلتها كانت المدن الأخرى في صقلية.

وحرى بنا أن نستعرض النشاط في العلوم المختلفة بصقلية الإسلامية، ونبدأ بعلوم الأوائل، وكانت - في رأينا - نشيطة بصقلية، إذ كان ما يقرب من نصف سكانها من الإغريق والرومان وكان لهم تراث قديم بلغتها الإغريقية واللاتينية، وحذق كثيرون منهم العربية وحذق بعض العرب لغتها بحكم الامتزاج والاختلاط والتعامل اليومي بين السكان، ودفع ذلك إلى التبادل عن طريق الترجمة بين التراث الإغريقي اللاتيني والتراث العربي، ومن أهم من عنوا بذلك الرهبان الصقليون، فكانوا ينقلون عن العربية بعض نفائس تراثها كما كانوا ينقلون إليها بعض نفائس التراث الإغريقي اللاتيني ويدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما ذكره الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب في الجزء الأول من كتابه ورقات عن الحضارة العربية

بإفريقية التونسية من أن الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد (٢٧١ - ٢٨٩ هـ) مؤسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة تَحَيَّرَ بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية التي اطلع عليها، وكُلِّفَ بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية وألحق بهم بعض علماء اللغة من الإفريقيين، وعهد إليهم بمهمة تنقيح عباراتهم وسبكها في قالب عربي صحيح» ويستظهر أن يكونوا قد نقلوا إلى العربية كتاب بلينوس (Plinius) في علم النبات، ويذكر ابن جلجل في كتابه طبقات الأطباء أنه هاجر إلى قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ) من صقلية طبيب يدعى أبا عبد الله كان يتكلم اليونانية ويعرف أسماء العقاقير والأدوية، فضمه الناصر إلى علماء قرطبة وأطبائها ليكون عوناً لهم في ترجمة كتاب ديوسقوريدس المؤلف بالإغريقية عن الأدوية والنباتات. وقد مضت صقلية تعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب في الترجمة. وكما كان التراث اللاتيني الإغريقي العلمى يترجم إلى العربية كان التراث العربى العلمى يترجم بدوره إلى اللاتينية. وكان الأطباء قد أخذوا يتكاثرون في القيروان منذ أيام الأغالبة، فتكاثروا بصقلية مجارة لأختها القيروان واطرد ذلك في القرون التالية، ومما يدل عليه الفصل الذى عقده ابن مكي في كتابه: «تنقيف اللسان» لبيان أغلاط الأطباء في صقلية، واشتهرت في القرن الرابع الهجرى بأنها بيئته فلسفية، مما جعل سعيد بن فرحون التجيبى الملقب بلقب الحمار السرقسطى يلجأ إليها حين أصابته محنة أيام المنصور بن أبى عامر في أواخر هذا القرن كما يقول صاعد في كتابه طبقات الأمم وظل بها إلى وفاته، وكان يحسن الفلسفة والموسيقى جميعاً وله في علوم الفلسفة رسالة بديعة سماها شجرة الحكمة. وبجانب فلاسفة أو متفلسفة صقلية كان هناك مهندسون ورياضيون من مثل العالم الإياضى عبد العزيز المعافرى وله ترجمة في الحريدة، وتؤكد القصور الباذخة في بلرم التي تغنى بها شعراء صقلية واصفين فخامتها وزخارفها وحدائقها النضرة وفواراتها البديعة مهارة مهندسيها البارعين، وبهرت قصور بلرم وغيرها من مدن صقلية فون شاك بفسيفسائها ورخامها وأبهائها وغرفها ونقوشها، وظل يدرسها سنوات طويلاً كما مر بنا في غير هذا الموضع وسجل ما بهره من مشاهدتها في كتابه الفن العربى في إسبانيا وصقلية.

وتنشط صقلية الإسلامية في الدراسات اللغوية والنحوية، وتمدها في تلك الدراسات روافد من الخارج، فقد نزلها موسى بن أصبغ المرادى القرطبى الذى رحل في طلب التعمق في اللغة إلى المشرق، ودخل العراق وتعلمذ لعلمائه اللغويين وخاصة ابن دريد صاحب معجم الجهمرة، ولم يعد إلى وطنه وإنما عاد إلى صقلية واتخذها موطناً له كما يقول السيوطى في البغية، وتلاه صاعد اللغوى الأندلسى المشهور بكثرة تلاميذه الأندلسيين رحل إليها في أوائل الفتنة التي نشبت بقرطبة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ورجع إلى الأندلس ولم يلبث أن عاد إلى صقلية وتوفي بها سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م كما ذكر القفطى في إنباه الرواة. ومن علمائها في اللغة والنحو على بن

حبيب اللغوى الصقلى أحد رجال اللغة المعدودين والعلماء بها المرزبن، ومنهم طاهر بن محمد الرقباني الصقلى اللغوى، ويقول القفطى عنه: لم يكن في زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها، ونثرها ونظامها، وقصدته العلماء من كل مكان فلقوا منه بحرا خضرا (واسعا) وعلى شاكلته ابنه على بن طاهر الرقباني، وكان حافظا للغة وأيام العرب، جامعا لأدوات الأدب. وما نلبث في القرن الخامس أن نلتقى قبل الغزو النورمانى بعلم كبير من أعلام اللغة والنحو تكونت له بها مدرسة لغوية كبيرة هو محمد بن على بن الحسين بن البر التميمى، ولد بصقلية في أواخر القرن الرابع الهجرى، حتى إذا أخذ ما لدى شيوخها من اللغة والنحو رحل عنها إلى المشرق للتزود منها، وألقى عصاه بالقاهرة، وتلمذ فيها ليوسف النجيرمى المتوفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م وهو أهم من روى عنه المصريون كتب اللغة ودواوين الشعراء، يقول ابن خلكان: «أكثر ما تُروى الكتب القديمة في اللغة والأشعار العربية وأيام العرب في الديار المصرية من طريقه» وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرج في أوثق صورة ممكنة، وبجانب الدواوين التي أخذها عن النجيرمى وفي مقدمتها ديوان ذى الرمة أخذ في القاهرة عن صالح بن رشدين ديوان المتنبى الذى سمعه مباشرة من المتنبى وشرحه له، وأخذ أيضا في القاهرة عن ابن بابشاذ مقدمته المشهورة في النحو، وعاد إلى موطنه، واتخذ مدينة مازر مقاما له، وأكرمه صاحبها ابن متكود وقربه منه، وتحوّل إلى مدينة بلرم سنة ٤٥٠ واتسعت شهرته وجاءه الطلاب من كل فج صقليين وغير صقليين، ومن الصقليين على بن جعفر السعدى المعروف بابن القطاع وسنعود إلى الحديث عنه في أيام النورمان، ومن تلاميذه غير الصقليين عبد الله بن إبراهيم الصيرفى ومنه سمع ديوان المتنبى سنة ٤٥٩، ومنهم عبد المنعم بن من الله القروى المعروف بابن الكماد وقد ألمنا به في كتابنا عن الأندلس وردّه المضم على رسالة ابن غرسية، وحرى بنا أن نذكر أن من تلاميذه الصقليين عمر بن خلف المشهور باسم ابن مكى الصقلى مصنف كتاب تثقيف اللسان الذى سجل فيه الأغلاط التي سمعها من أفواه العلماء وغيرهم ونراه يقول في مقدمته إنه عرضه على أستاذه ابن البر «الإمام الأوحى والعلم الفرد، فأثبت ما عرفه وارتنضاه، ومحا ما أنكره وأباه». وقد وُزع ابن مكى كتابه على خمسين بابا تحدث فيها عن التصحيف والتبديل والزيادة والنقص في الأسماء وكذلك الزيادة والنقص في الأفعال وتأتيث المذكر، وتذكير المؤنث إلى غير ذلك من صور الغلط على السنة الخاصة والعامة، وأضاف إلى ذلك فصولا طريفة عن أخطاء القرّاء والمحدثين والفقهاء والأطباء. والكتاب يدل على أنه كان في صقلية حينئذ حركة لغوية خصبة بثها ابن البر في تلاميذه كى يخلصوا الألسنة من أغلاطها وخاصة ألسنة العلماء. وما توفى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م حتى يبارح ابن البر صقلية إلى الأندلس، ويبارحها تلميذه ابن مكى إلى تونس، ويقول العماد الأصبهاني عنه في ترجمته بالحريفة: «ولى قضاء تونس وهو فقيه محدث خطيب لغوى، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة

مأثور مروى، وله خطب لا تقصّر عن خطب ابن نباتة». وابن نباتة أكبر خطيب أنتجه المشرق، وكان خطيب سيف الدولة في حربه لبيزنطة. ولعل في هذه الشهادة لخطيب من صقلية ما يحو محوا ما زعمه ابن حوقل عن خطيب شاهده بيلرم يوم جمعة يجزم الأسماء مع الوصل ويجر الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، وليس في المستمعين له من مسلمي بيلرم من يعترض عليه، مع أنه ظل يخاطبهم نحو عامين! وذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان مغرضا في كل ما وصف به صقلية لأنها كانت ترفض المذهب الشيعي الإسماعيلي مذهب الدولة الفاطمية، فإتهاماته لها ولخطبائها اتهامات زائفة، وسنراها تنتج في مجال الدراسات الدينية والأدب شعرا ونثرا ما يؤكد بطلان إتهاماته.

ويدل ما قدمنا على أنه وصلت الشباب الصقلي مجموعة اليتيمة للثعالبي وديوان ذي الرمة وغيره من شعراء الجاهلية والإسلام، كما وصلتهم دواوين عباسية مختلفة لأبي تمام وابن الرومي والمتنبي وأضرابهم، ولا بد أن وصلهم كتاب البيان والتبيين للجاحظ وما به من خطب ومجموعة زهر الآداب للحصري، وما من شك في أن أكثر مجاميع الأدب المؤلفة في المشرق وصلتهم ومررنا أن ابن البر كان يروى بين ما يروى من الكتب والدواوين كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة، وكل ذلك كان له تأثيره في نشوء ذوق أدبي عام في صقلية بين الشباب والشيوخ، ولا بد أن اطلعوا على بعض الكتابات البلاغية والنقدية في المشرق بدليل استخدام شعرائهم وكتّابهم لمحسنات البديع، وبدليل ما في أشعارهم من عذوبة وسلاسة، وكان حظ الشباب في صقلية عظيما إذ نزل ابن رشيق في أواخر أيامه بمازّر واتخذها مقاما له إلى وفاته سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وظل هناك سنوات يدرس للطلاب كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده وبعد من أروع كتب الأسلاف في النقد وفي بيان المحسنات البلاغية إن لم يكن أروعها كما يقول ابن خلدون، وقرأه عليه ابن متكود والى مازر بشهادة نسخة من الكتاب وقعت للقبطي كما يقول في ترجمته بكتابه إنباه الرواة وأخذ الطلاب في صقلية بمازّر وغير مازر يتدارسونه في حياته وبعد وفاته. ومعنى ذلك أن صقلية أتيح لها من المختارات الشعرية والنثرية ما أتاح لأدبائها ملكات أدبية خصبة كما أتيح لها من كتب البلاغة والنقد، وفي مقدمتها كتاب العمدة ما أتاح لأدبائها جمال الصياغة ودقة الذوق الأدبي ورهافته.

وإذا تركنا الدراسات النقدية واللغوية في صقلية الإسلامية إلى الدراسات الدينية وجدنا من كبار قرائها في القرن الرابع الهجري محمد بن خراسان كما في طبقات القراء لابن الجزري، طلب العلم بمصر وفيها درس القراءات والحديث النبوي وتلمذ لأبي جعفر النحاس وكتب عنه مصنفاته وقرأها عليه وكان بينها كتابه إعراب القرآن، وظل مقرنا متصدرا بصقلية إلى أن توفي سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وقد بلغ ستا وتسعين، ومن روى القراءة عنه يوسف بن حبيب وغيلان بن

تميم. وطبيعي أن تزدهر قراءة القرآن في صقلية مثلها في ذلك مثل جميع البلاد الإسلامية، وكانت مثل تونس والبلاد المغربية - تقرأ بقراءة ورش المصري عن نافع وعادة يوصف المقرئ بأنه مفسر للقرآن مما يدل على أن المقرئين للذكر الحكيم في صقلية كانوا كثيراً ما يعنون بتفسيره حتى تفهم الناشئة ما تحفظه منه، ونجد حمل محمد بن خراسان المار أنفاً لكتاب إعراب القرآن للنحاس يحدث في صقلية نشاطاً في هذا الموضوع فإذا أبو طاهر إسماعيل بن خلف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٥ هـ/١٠٦٣م يؤلف كتاباً في إعراب القرآن كان في تسع مجلدات، وستترجم - فيما بعد - لابن ظفر الصقلي وله في التفسير ثلاثة كتب.

وعلى نحو ما كان إقرأء الذكر الحكيم وإعرايه وتفسيره ناشطاً في صقلية كانت - بالمثل - رواية الحديث النبوي، إذ كان حفاظه الناهيون كثيرين من مثل أبي بكر الحصائري، ومن أهم حفاظها عتيق السمنطاري وقد نوه به ياقوت في الحديث عن بلدته «سمنطار» في كتابه «معجم البلدان» وكان قد لزم حلقات الشيوخ في بلرم حتى أخذ ما عندهم، وارتحل إلى لقاء الشيوخ ونزل مدينة الرسول ﷺ، واتسع في رحلته فأخذ عن شيوخ اليمن وفارس وخراسان والشام ومصر، وكان يلقي في تلك البلدان بجانب شيوخ الحديث وحفاظه العبّاد والنسك ويكتب ما يسمعه من الفتنين، وصنف كل ما جمعه عنهم، كما صنف في الفقه تأليفاً كان في غاية الترتيب والبيان. وكان يدرس لتلاميذه في صقلية الحديث النبوي وكتاب الموطأ في الفقه المالكي، وتوفي سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧١م حين احتل روجار الأول ملك النورمان بلرم.

وأكثر فقهاء المالكية بصقلية كانوا محدّثين لأن الموطأ لمالك كتاب فقه وحديث وكان نشاط الفقه بصقلية واسعاً جداً، وهياً لذلك أن كان قضاة صقلية - منذ أول الأمر - يحاضرون الناس في الفقه المالكي عمدتهم في القضاء يتقدمهم في ذلك سالم بن سليمان الكندي الذي ولي القضاء في صقلية سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤م وقد عمل بكل جهده على نشر مذهب مالك في صقلية كما في كتاب رياض النفوس. ونزلها تلميذ من كبار تلامذة الإمام ابن أبي زيد فقيه القيروان المتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦م هو البراذعي خلف بن أبي القاسم وكان زملاؤه من فقهاء القيروان يزورون عنه، فلم تحصل له بها رياسته، فرحل إلى صقلية، وقصد أميرها في بلرم، فحصلت له عنده مكانة طيبة، وعنده ألف كتابه التهذيب في اختصار مدونة سحنون في الفقه المالكي يقول ابن فرحون وعليه معول الناس في صقلية والمغرب والأندلس، وطارت شهرته في العالم الإسلامي وكتبت له شروح مختلفة، وألف بصقلية أيضاً كتاباً في التمهيد لمسائل المدونة وكتاب الشرح والتتمات لمسائل المدونة، وله أيضاً اختصار الواضحة من كتب الفقه المالكي يقول ابن فرحون: وعليه اعتماد طلبة العلم للمذاكرة وكان ابن أبي زيد قد جمع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتابه النواذر فنقل البراذعي معظمه في كتابه على المدونة. ويبدو أنه توفي بصقلية في أوائل القرن الخامس الهجري.

ومن فقهاء صقلية بعده محمد بن يونس التميمي من مدينة مازر المتوفى سنة ٤٥١ وقد لقب بالإمام الأكبر لتبحره في الفقه المالكي وجاءه الناس للفتوى، وله مؤلف جيد في مسائل كتاب الموطن للإمام مالك، وله إضافات مفيدة وتعليقات علمية جيدة على مدونة سحنون. وكان يعاصره عبد الحق بن محمد القرشي الصقلي، لزم حلقات الشيوخ في بلده حتى ارتوى منها، ورحل للحج ولقاء الشيوخ والفقهاء الكبار والتقى بأبي ذر الهروي شيخ المالكية في هراة وبالقاضي عبد الوهاب المالكي شيخهم في العراق كما التقى في حجة ثانية بإمام الحرمين الجويني وسأله عن مسائل أجابه عنها وسجل ذلك في أحد كتبه، وكان يدرس لطلابه في بلرم مدونة سحنون التي جمعت أصول المذهب المالكي، يقول ابن فرحون أيضا عنه: «كان مليح التأليف، ومن مؤلفاته كتابه «النكت والفروق لمسائل المدونه» ويقول ابن فرحون أيضا إنه «عاد إليه بالتغيير والتبديل ورجع عن كثير من اختياراته وتعليقاته» وله كتاب في الفقه المالكي كبير باسم «تهذيب الطالب» وله استدراك على تهذيب المدونة للبراذعي وله كتاب في بسط ألفاظ المدونة، وكان أعماله الفقهية انحصرت في خدمة مدونة سحنون. وحاز شهرة كبيرة في حياته وكان كثير الارتحال، فدرس عليه في القيروان - كما في الصلة لابن بشكوال - ابن الخياط ومحمد بن نعمة الأسدي، ودرس عليه في صقلية من الأندلسيين أبو بكر بن الحصار، وهاجر إلى الأندلس من تلامذته الصقليين - ثابت الفقيه الصقلي، وتوفى بالاسكندرية سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م ويبدو أنه رحل عن بلرم بمجرد استيلاء روجار الأول ملك النورمان عليها سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م.

٤

الثقافة^(١) في العهد النورماني

دخل النورمان صقلية والحركة العلمية بها مزدهرة، وهالهم ما رأوا فيها من حضارة ومدنية إسلاميتين، وشعروا بوضوح أنهم في حاجة، بل في أشد الحاجة إلى أن يجلسوا من سكانها العرب مجلس التلامذة من أساتذتهم في الزراعة والصناعة والتجارة وفي الثقافة والعلوم والفنون المختلفة، ودفع روجار الأول ابنه روجار الثاني إلى تعلم العربية وإلى الإكباب على علومها وفنونها، وبالمثل دفع روجار الثاني ابنه غليوم الأول إلى التزود من هذه العلوم والفنون ما وسعه

والقسم الثالث من ورقات عن الحضارة في إفريقيا التونسية، والعلم عند العرب لألدومبيل ترجمة الدكتور عبدالحليم التجار، والعرب في صقلية للدكتور إحسان عباس.

(١) انظر في الثقافة بالعهد النورماني نزهة المشتاق في اختراق الآفاق لإلديسي ورحلة ابن جبير، وخطط المقرئ، والخريدة للعماد الإصبهاني، وإنباه الرواة للقفطي، وطبقات الفراء لابن الجزري، وابن خلكان، ومقدمة ابن خلدون،

التزود وحث بدوره ابنه غليوم الثاني على استيعابها ما أمكنه، ويحدثنا الإدرسي في فواتح كتابه «نزهة المشتاق» عن مدى ما أحرز روجار الثاني من هذه الفنون والعلوم قائلاً: «أما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تُدرِكُ بَعْدَ، ولا تُحَصَّرُ بِحَدِّ، لكونه قد أخذ بكلِّ فنٍّ منها بالحظِّ الأوفر، وضرب فيه بالقدح المَعْلَى» ويقول ابن جبير - كما مرَّ بنا - عن غليوم الثاني: «له الأطباء المنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى إنه متى ذُكر له طبيب أو منجم اجتاز ببلده أمر بامساكه، وأدرَّ له أرزاق معيشته، حتى يسليه عن وطنه. وأحسَّ روجار الأول - منذ أول الأمر - بالحاجة إلى ترجمة الكنوز العلمية النفيسة من العربية إلى اللاتينية، حتى يحوز النورمان لأنفسهم هذه الثروات العلمية، ولم يلبث أن أتاح له ذلك نصراني يسمى قسطنطين الإفريقي ولد بمدينة قرطاجة التونسية سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م وثقف العربية وأتقنها، واختلف في القيروان إلى أصحاب علوم الأوائل في الطب والرياضة والفلك، ورحل إلى القاهرة وفيها استكمل معرفته بالعلوم المذكورة، وعاد إلى بلده: قرطاجة وتركها إلى صقلية في عهد روجار الأول وعرف منه حاجته إلى ترجمة كل ما كتبه العرب عن الطب، فرجع إلى القيروان، وجمع منها أنفس ما كتبه أطباؤها العظام، وعاد إلى روجار الأول يبشره بأنه اصطفى له أفضل وأنفس ما لأطباء القيروان والعرب عامة من كتب طبية وغير طبية، فأسَّس له دَيْرَ جبل كاسينو بالقرب من مدينة سالرنو في جنوبي إيطاليا فتولى رياسته وأخذ يُعْرِى رهبانه بتعلم العربية حتى إذا تعلموها أغراهم بترجمة مصنفاتها الرياضية والفلكية والطبية إلى اللاتينية، ودرَّس ما ترجموه في كلية سالرنو ومنها نقل إلى الجامعات الأوربية، وما يدل على ذلك أبلغ الدلالة في المجال الطبي أن نجد فردريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا يسنُّ لائحة خاصة لمزاولة العمل الطبي في مملكته يفرض فيها على كل طبيب يعمل بها أن يحصل على إجازة الطب من كلية سالرنو، وكان ذلك قبيل عصر النهضة الأوربية، فكان له تأثير بالغ فيها. ويقول الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب في القسم الأول من كتابه: «ورقات عن الحضارة العربية في إفريقية التونسية»: «جدير بالملاحظة أن جُلَّ ماترجه قسطنطين من الكتب العربية إلى اللاتينية أو حاول تقليده والوضع على غراره إنما كان مستمداً من مصنفات أطباء قيروانيين مثل إسحق بن عمران وأحمد بن الجزار، كما أنه اعتمد في الفلك وعلم الهيئة على كتاب البارح في الفلك والنجوم لعلي بن أبي الرجال القيرواني». وكل ذلك كان يصب في صقلية أخت القيروان، ويبدو أنها اشتهرت في الفلك والهندسة بعلماء ومهندسين أفاضل، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - أننا نجد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦هـ/٩٩٦م - ٤١١هـ/١٠٢٠م) حين ينشئ مرصده في القاهرة يرسل إلى صقلية، في طلب حدائقها في الهندسة والتنجيم، ويوافيه أبو محمد عبد الكريم المهندس الصقلي، ويتوقف العماد الأصبهاني في القسم الخاص بصقلية ليقول عن هذا الشاعر أو ذاك إنه رياضي أو منجم فلكي أو مهندس

مثل عبد العزيز المعافري وكان من علماء الرياضيات ومثل ابن القرفي وكان منجما حاسباً، ومثل محمد بن عيسى الفقيه وكان مهندساً منجماً وشاعراً بارعاً.

ومعروف أن روجار الثاني ملك صقلية النورماني استدعى الشريف الإدريسي إلى «بلرم» عاصمته، وطلب إليه أن يؤلف له كتاباً في الجغرافيا، فألف له كتابه الرائع: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وهو أكمل كتاب جغرافي ألفه العرب، وظل عند الأوربيين أهم مرجع في علم الجغرافيا إلى القرن السادس عشر، وقد أتم الإدريسي تأليفه سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م وترجمت قطع كبيرة منه إلى مختلف لغات العالم. وطلب منه روجار الثاني خريطة للعالم فنقشها على كرة من الفضة وزن ثمانمائة أوقية، ورسم عليها جميع الأقاليم التي كانت معروفة لعصره، وهما عملاقان باهران من أعمال العبقرية العربية. وكان حرياً بالإدريسي أن يقدمها إلى حاكم عربي في عصره لا لحاكم نورماني نهب هو وأبوه صقلية العربية وقد وجه إلى المهديدة بالإقليم التونسي اسطولاً مكوناً من ثلاثمائة سفينة سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م واستولى عليها وظل بها اثني عشر عاماً حتى خلصها عبد المؤمن سلطان الموحدون. وظل الإدريسي في بلرم أيام غليوم الأول وله ألف كتاباً سماه «روض الأنس ونزهة النفس، وقد وضع فيه الإدريسي - كما يقول الدومبيلي - خرائط أصغر سعة ومقياساً، وخرائطه جميعاً تقوم على تحديد درجات الطول والعرض، ويقال إنه توفي سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م والمظنون أنه قتل في ثورة للنورمان حينئذ على العرب في بلرم.

ويلقانا في العهد النورماني غير عالم لغوي ونحوي، ومن نحاتها ولغويها الذين ظلوا بها ولم يبرحوها على بن بشرى اللغوي الصقلي ويقول القفطي: «كان في النظم والنثر سابقاً لا يجارى، وفي اللغة والإعراب لا يبارى» ومنهم عمر بن حسن النحوي الصقلي يقول القفطي: «شيخ في اللغة والنحو طويل الباع فيها، أخذاً ورؤياً عنه تصدر للإفاده ببلرم» ومنهم محمد بن زيد الطرطائي الصقلي «أخذ من كل العلوم بالحظ الوافي، متقدم في علم الأوزان والقوافي». ومن بارحوا صقلية - في العهد النورماني من كبار اللغويين والنحاة على بن عبدالرحمن الصقلي العروضي، يقول عنه القفطي: «نزىل الإسكندرية عالم بعلمى النحو والعروض قيم بها. بليغ فيها، مشارك في جميع الأنواع الأدبية، متصدر لإفادة الطلاب». ومنهم ابن القطاع على بن جعفر التميمي المولود سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م تلميذ ابن البر، وكان مثل أستاذه عالماً لغوياً كبيراً، ومازال بصقلية يدرس ويؤلف لطلابه حتى إذا كانت سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م انتقل إلى مصر فأحتفى به أهلها، وتصدر للتدريس والإفادة إلى أن توفي سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ومن تصانيفه كتاب تهذيب أفعال ابن القوطية في اللغة وهو خير من كتاب ابن القوطية وكتاب أبنية الأسماء يقول ابن خلكان جمع فيه فأوعى. وكان كتاب الصحاح للجوهري بمصر - كما يقول القفطي - لا يرؤى إلا عن طريقه عن ابن البر، وكان له كتاب نفيس في

شعراء صقلية سماه: «الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة» وفي دار الكتب المصرية مختصر له، ونقل عنه العماد الأصبهاني في الخريدة: قسم صقلية طائفة كبيرة من شعرائها البارعين. ومن هؤلاء النازحين عن صقلية في العهد النورماني على بن ابراهيم النحوى الصقلى المعروف بابن المعلم، كان مجيدا للغة والنحو وتصدر للإفادة فيها، بارح صقلية واستوطن مصر إلى أن توفى بها سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م. ومنهم عثمان بن على السُّرقوسى الصقلى النحوى، كان عالما نحويا مقرنا للقرآن الكريم، وله حاشية على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى، وكانت له في جامع القسطاط حلقة للإقراء وانتفع به الناس ونقلوا كلامه وكتبوا تصانيفه، وله مختصر كتاب العمدة لابن رشيقي زاد به أبوابا أدخل بها مؤلفه وهى واقعة موقعا جيدا من التصنيف. وحقا كان النشاط العلمى هؤلاء النحاة واللغويين الصقليين خارج جزيرتهم، ولكنى ذكرتهم لأدل على مدى ما حدث بالحركة العلمية فى صقلية من خمود وقف ما كان ينتظر لها من ازدهار عظيم بسبب استيلاء النورمان عليها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة الدينية وبدأنا بالقراءات القرآنية وجدنا لصقلية إماما كبيرا من أئمتها هو عبد الرحمن بن عتيق المقرئ المعروف بابن الفحام المولود بسرقوسة سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وقد رحل من صقلية إلى مصر سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م فى طلب القراءة القرآنية على أئمتها المصريين وظل يأخذها عنهم حتى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ومن شيوخه فيها ابن نفيس تلميذ عبد المنعم بن غلبون شيخ القراءات بمصر، وتلمذ لابن بابشاذ وأملى عليه شرح مقدمته المشهورة فى النحو، وعاد إلى بلده، ولم يلبث أن نزلها النورمان فإرحها إلى الإسكندرية واتخذها موطنها له، وكان من أعلم القراء بالقراءات ووجوهها، ولم يلبث أن أصبح شيخ القراء بالاسكندرية علما ودراية، وألف فيها كتابه «التجريد فى بغية المرید» وبها توفى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م.

وكان كثير من القراء لا يزالون يلقون على طلاب صقلية دروسا فى التفسير، ويلقانا فى منتصف القرن السادس الهجرى مفسر صقلى كبير هو ابن ظفر وهاجر منها إلى الشام وستترجم له فى حديثنا عن النثر الصقلى، وتظل رواية الحديث النبوى ناشطة فى العهد النورمانى، ويلقانا فيه إمام من أئمته، هو الحافظ محمد بن على بن عمر التميمى المعروف باسم المازرى نسبة إلى مسقط رأسه فى مدينة مازر بصقلية، وقد لزم حلقات شيوخها حتى اكتمل مرياه العلمى، وهاجر منها إلى الإقليم التونسى، وتولى القضاء فى القيروان ثم فى المهديّة، وبها ألقى عصاه إلى أن توفى سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م عن ثلاث وثمانين سنة ودُفن برباط المنستير وفيه يقول ابن خلكان هو أحد الأعلام المشار إليهم فى حفظ الحديث، ويقول المقرئ فى أزهار الرياض ناعتا له: «الإمام المجتهد أبو عبد الله المازرى عمدة النظار، ومحور الأمصار، المشهور

في الآفاق والأقطار حتى عُدد في المذهب المالكي إماماً». وله في الحديث النبوي شرح جيد على صحيح مسلم سماه كتاب «المعلم بفوائد مسلم» وفيه يقول ابن خلدون في المقدمة: «أما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به.. وأملى الإمام المازري من كبار فقهاء المالكية عليه شرحاً سماه المعلم بفوائد مسلم اشتمل على عيون من علم الحديث وفنون من الفقه. وكان العلماء في عصره يتسابقون إلى أخذ الإجازة عنه برواية هذا الشرح وبقية كتبه، ومنهم القاضي عياض الإمام المشهور وقد بنى على شرحه لصحيح مسلم شرحاً سماه «إكمال المعلم بفوائد مسلم». وللمازري بجانب هذا الشرح مصنفات في الفقه المالكي وعلم الأصول، من ذلك شرحه لكتاب التلقين للقاضي المالكي عبد الوهاب ويقال إنه ليس للمالكية كتاب مثل شرح كتاب هذا القاضي وشرح البرهان في الأصول لإمام الحرمين الجويني. وهو بحق يعد خاتمة الفقهاء والمحدثين بصقلية.

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

نشاط الشعر

كانت صقلية جنةً من جنان العالم الإسلامي بما كانت تحمل فوق حقولها من رداء القمح الذهبي ورياءات الكروم والبرتقال ومزارع القطن الزمردية وبساتين النخيل والموز والفواكه والزهور الأرجة، والخليل الكريمة، ومعادن الذهب والفضة والكبريت والنحاس ومصانع الأقمشة والحريير المزركش. لقد كانت حديقة كبيرة في البحر المتوسط لم يحسن الخلفاء العبيديون بعد الدولة الأغلبية القيام عليها فضلاً عما تبعها من شبه جزيرة قَلُورِيَّة في إيطاليا.

وطبيعي أن يتغنى بهذه الحديقة الفاتنة كثير من الشعراء، ونلاحظ أن هذا التغنى تأخر نحو قرن فقد تأخر طوال حكم الدولة الأغلبية، إذ كانت في صراع مستمر مع كثير من المدن والحصون، ومع ذلك مدّت ذراعها إلى جنوبي إيطاليا واستولت على قَلُورِيَّة. وتستولى الدولة العبيديَّة على مقاليد الأمور بإفريقية التونسية وتخدم حركة الفتوح في الجزيرة وكأنما لم تكن تعنيها في قليل ولا كثير، حتى إذا تركت شئونها السياسية والإدارية إلى بني أبي الحسين الكلبيين أخذت الجزيرة تشعر معهم بشيء من الاستقلال، كما أخذت تشعر بشيء من شخصيتها، وعادت لها الحماسة الإسلامية، وأخذت هذه الدولة تعنى بفتح ما تبقى من البلدان والحصون في صقلية وفي قَلُورِيَّة.

وتزدهر الحركة الشعرية في صقلية لعهد هذه الدولة، وخير كتاب كنا نطلع منه على هذا الازدهار لو أنه لم يسقط من يد الزمن هو كتاب «الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة» لابن القطاع على بن جعفر السعدي الذي توفي بمصر سنة ٥١٥هـ/١١٢٦م، فقد كان يشتمل على مائة وسبعين شاعراً، وكأنه أراد أن يناقش بكتابه كتاب الأئودج لابن رشيقي الذي اشتمل على مائة شاعر فحسب، صوّر بهم الحركة الأدبية في إفريقية التونسية، ولو أن كتاب ابن القطاع وصلنا لاستبانَت الحركة الشعرية بصقلية الإسلامية تمام الاستبانة إذ قصره على تلك الحركة وحدها، ولم يدخل عليه أحداً من العصر النورماني. وفي المكتبة التيمورية مختصر للكتاب اختيار أبي إسحق بن أغلب، قال في مقدمته له إنه ذكر فيه سبعة وستين شاعراً فقط،

ولا يوضح على أى أساس اختار من اختار وأهمل من أهمل، والنسخة بها نقص في تضاعفها وفي آخرها، بحيث لم يبق فيها سوى ٤٣ شاعرا، وحَدَفَ ما وضعه ابن القطاع مع الشاعر من مقدمات كانت حريّة أن تفيد الباحثين في دراستهم لشعراء صقلية الإسلامية في عصر الكلبيين. وهناك اختيار ثان لعلى بن منجب الصيرفي المصري المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة من كتاب الدرّة الخطيرة ضمنه تسعة عشر شاعرا، وهو منشور في عنوان الأريب المطبوع بتونس للشيخ الجليل محمد النيفر التونسي. وبجانب اختيارات ابن منجب الصيرفي وأبي إسحق بن أغلب من الدرّة الخطيرة تلقانا اختيارات العماد الأصبهاني منها في كتابه الخريدة، وبلغ ما اختاره منها ٤٤ شاعرا مجموعة في الجزء الأول المنشور وبعدها في نفس الجزء شاعر من الدرّة الخطيرة ص ٣٢٧ من طبعة تونس ثم شاعران آخران ص ٣٣٥، ٣٣٦ وربما كانا أيضا من شعراء الدرّة. ويبدأ العماد الحديث عن شعراء الخريدة بشاعر يقول إن أبا الصلت أمية بن أبي الصلت الأندلسي سماه في رسالته المصرية، البهلّوني أبا الحسن على بن عبدالرحمن بن أبي البشر الكاتب الصقلي الأنصاري، ويفيض في ذكر غزلياته، ثم ينقل عن ابن بشر بن المهدي من كتابه المختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر أحد عشر شاعرا كلهم من العصر النورماني، ويضيف إليهم في ص ٢٧٣ ترجمة لأبي الضوء سراج بن أحمد بن رجاء الكاتب اعتمد فيها على كتاب ابن بشر بن فيكون مجموع ما ساقه عن ابن بشر بن اثنين عشر شاعرا من العصر النورماني، وبذلك يبلغ من ذكرهم العماد في الخريدة من شعراء صقلية نحو ستين شاعرا وإذا حاولنا أن نرصد بينهم أول من له صلة بالولاية الكلبيين لقينا القاسم بن نزار الكلبي يعاتب ابن عمه الأمير أحمد بن الحسن بن أبي الحسين الكلبي (٣٥٤-٣٥٨هـ) على جفائه له وهو عتاب فيه مرارة شديدة إذ يقول^(١):

إنّي متى يجفو الحبيب بٌ وصلت جفوته بيّن
ومنعتُ عيني أن ترا هُ ولو رأته فقأت عيني
ووضعته دون الحضيض ض لو أنه في الفرقدين
وقطعته لو كان يُش به أحمد بن أبي الحسين

وأكبر الظن أن الأمير أحمد بن الحسن بن أبي الحسين لم يكن فظا فقد كان قائد أسطول صقلية قبل توليه زمام الأمور بها، وكان يتعامل مع الناس تعاملًا كريما، ونرى المعز يستقدمه إلى المهديّة، ويوليه قيادة أساطيل الدولة، ويولى مكانه أخاه على بن الحسن (٣٥٩ - ٣٧٢ هـ)

(١) الخريدة للعماد الأصبهاني (طبع تونس)

ومن مادحيه سهل بن مهران، وعُرف بأنه كان ممن يطيلون فيجيدون. وولى - بعد علي - صقلية جعفر بن محمد فحسنت به الأحوال واستقامت الأمور إلى أن توفي سنة ٣٧٥ وخلفه أخوه عبد الله ولم تطل مدته إذ توفي بعد عامين، وولى بعده ابنه يوسف، وكان عادلا حسن السيرة فأحبه الناس ولقبه الخليفة الفاطمي بلقب ثقة الدولة وعمّ الرخاء والأمن في أنحاء الجزيرة وفي عهده وصل حكم الكلبيين فيها إلى القمة المتباعدة من المجد والعزة، ووفد عليه الشعراء من إفريقية التونسية ومن الجزائر يمدحونه وفي مقدمتهم محمد بن عبدون السوسى الذى ترجمنا له بين شعراء تونس وأطلنا في بيان صلته بثقة الدولة وابنه جعفر، وعلى شاكلته شاعر الجزائر أبو محمد عبد الله بن محمد التنوخى المعروف بابن قاضى ميله، وله في ثقة الدولة مدحة ضافية، ومن شعراء صقلية الذين دَبَّجوا فيه المدائح الطوال ابن القرقورى وهاشم بن يونس ولهما في الخريدة مدحتان في ثقة الدولة نُوحَا فيها بشجاعته وبأسه، وعلى شاكلتها شعر مشرف بن راشد، وإن لم يسم ممدوحه، ومن شعرائه الحسن بن محمد الطوبى، وله مدحة في المعز بن باديس، ومنهم محمد بن أحمد أبو عبد الله الصقلى صاحب ديوان الإنشاء، وله في ثقة الدولة مرثية استهلها بقوله: (حنانك ما حى على الدهر يسلم). وأخذت الولاية الصقلية تتضعض في عهد ابنه جعفر ثم في عهد أخيه أحمد الأكل، ومن شعرائها المشرف بن راشد وابن الحياط، وثار عليه الصقليون كما أسلفنا واستغاثوا بالمعز بن باديس صاحب القيروان وإفريقية التونسية، ثم عادوا فولوا عليهم صمصام الدولة وسرعان ما يثور به الصقليون وتدخل صقلية في عصر أمراء الطوائف، وأصبح لكل أمير شاعره أو شعراؤه، فمحمد بن القاسم بن زيد ينحاز إلى علي بن نعمة صاحب جرجنت وقصريانة، وعبد الحليم الصقلى إلى ابن متكود في مازر وابن الحياط إلى ابن الثمنة في بلرم، ونلتقى بعد ذلك بالشعراء الذين بكوا صقلية ومدنها حين سقطت في حجر النورمان من أمثال أبي محمد القاسم بن عبد الله التميمى وابن حمديس. وحرى بنا أن نتوقف الآن لتحدث عن شعراء الشعر الصقلى موزعين على موضوعاته.

٢

شعراء المديح

ظل المديح يدبج في أمراء الأسرة الكلبية طوال حكمها لصقلية، غير أن كتب المختارات لم تعرض علينا منه إلا شظايا: بيتا أو بيتين من القصيدة مع عرضها في الغالب لمقدمتها من الغزل وغير الغزل، وكانت صقلية قد أخذت تكتظ بالشعراء منذ عصر ثقة الدولة يوسف بن عبد الله الكلبى (٣٧٧-٣٨٨هـ) وجاءه من يمدحونه من الجزائر وإفريقية التونسية كما أسلفنا وكثر من يمدحونه في صقلية نفسها من أبنائها الشعراء مثل أبي الفتح محمد بن الحسين بن القرقورى

الكاتب، وله يعتز به وبما ينال من عطاياه في التخلص إلى المدح من قصيدة^(١):

وماذا عليهم أن أجودَ بتالدي وأفنى طريفى قبل يومى وأتلف^(٢)
 لهم ما اقتنوا فليحرصوا فى أدخاره ولى كنز شعري لا يببىد ويوسف
 ويوسف هو يوسف بن عبد الله ثقة الدولة، وهو يقول لخصومه الذين يعنفونه لتبذيره أمواله
 إنه لا يخشى شيئاً من هذا التبذير طالما ينظم مدائحه المطولة فى يوسف ويسبغ عليه عطاياه.
 وأكبر الظن أن ما ساقه العماد للمشرف بن راشد وهاشم بن يونس من مدح لقائد بشجاعته
 إنما يريدان به ثقة الدولة، وهى أبيات محدودة. ومن شعراء ثقة الدولة على بن الحسن الطوى،
 وكان يلازمه ونراه بعد وفاته يعبر البحر إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية التونسية، وله
 يقول من مدحة رصع بها ديوانه كما يقول العماد^(٣):

إليك معز الدين وابن نصيره حملت عقود المدح بعد أنتخاها
 وأثواب حمد حكت أثواب وشيها على ثقة منى بعظم ثوابها

وكان الشعراء فى صقلية وإفريقية التونسية كثيراً ما يتبادلون ممدوحهم، فالشاعر القيروانى
 يعبر البحر لمدح الوالى أو الأمير الكلبى كما عبّره محمد بن عبدون السوسى، والشاعر الصقلى
 يجتاز بدوره البحر ليمدح الأمير القيروانى أو الأمير المشهور فى عصر أمراء الطوائف ويلقانا
 بأخرة من عصر الكلبين ابن الخياط، وسنخصه بكلمة، وتلتقى بعده بجعفر بن الطيب الكلبى،
 وكان شاعراً مجيداً، وله قصيدة بديعة يمدح بها مدافع بن رشيد الهلالى أمير قابس فى آخر عهد
 أمراء الطوائف، وله يخاطب ناقته فيها^(٤):

سأنزل عنك فى مرعى خصيب وماء بارد عذب فُرات
 بأرض مدافع ماوى الأمانى وقتال السنين المُجدبات
 فيحمل عنك همى فوق طرف سبوق من خيول سابقات^(٥)
 أغر نخاله ريحاً أعيرت قوائم باللجين محجلات^(٦)
 لقد أطمعت فى جدواك حتى سباع الطير من بعض العفاة^(٧)

وهو يقول لناقته إنه سينزل عنها فى مرعى مدافع الحصيب حصن الأمانى وقتال السنين

- (١) الخريدة ٩٦/١.
 (٢) تالدى: مالى القديم. طريفى: مالى الجديد.
 (٣) الخريدة ٧٣/١.
 (٤) الخريدة ١١٣/١.
 (٥) طرف: فرس كريم.
 (٦) أغر: له غرة بيضاء. قوائم محجلة: بيضاء أو
 بها بعض بياض. اللجين: اللجين: الفضة.
 (٧) جدواك: عطائك، والعفاة: طلاب المعروف.

العجاف المجذبات، فيحمله فوق حصان سبق أغرّ قوائمه محجلة بلجين يخطف الأبصار، ويقول له لقد أطمعت في كرمك الفيّاض حتى إن سباع الطير لتلزمك وتلزم جيشك لما تعرف من كرمك وفتكك المستمر بالأعداء، حتى لكأنها من طلاب النوال.

ويظُلُّ العهد النورماني صقلية، وكان المظنون أن لا يمجّد الشعراء المسلمون الذين ظلّوا هناك ملوك النورمان، ويبدو أنهم كانوا يفرضون على الشعراء تمجيدهم، وكانوا يضطرون إليه أحيانا لأنهم أسرى في أيديهم ويريدون أن يفكوا عن أقدامهم أغلال الأسر، على نحو ما نجد عند أبي حفص عمر بن حسن النحوي في مديحه لروجار الثاني وهو في قبضة سجنه قصيدة له وفيها يقول^(٤):

يهتزُّ للجَدْوَى اهتزاز مَهْنَدٌ يهتزُّ في كَفِّهِ يوم جِلادِهِ
ويضيئُ في الدِّيَجورِ ضوءُ جَبِينِهِ فتخالُ ضوءَ الشمسِ من حُسَّادِهِ

وأظنها كانت فدية لتحريره وأنه ردّ إليه حريته. ويدل على ما نقول من أن الشعراء المسلمين كانوا يضطرون أحيانا إلى مديح روجار أن نجد شاعرا يسمى عبد الرحمن بن رمضان المالطي استنفد معظم شعره - كما يقول ابن بشر - في مدح روجار الإفرنجي المستولى على صقلية يسأله العودة إلى مدينة مالطة، ولا يحصل منه إلا على المغالطة^(٢). غير أننا نجد ثلاثة شعراء يشيدون لروجار الثاني بقصوره - وفي قصره: القبة والمنصورية يقول عبد الرحمن بن محمد البشيري^(٣):

وقصورٍ منصوريةٍ حطَّ السرورُ بها مَطِيئِهِ
أعجبُ بمنزلها الذي قد أكمل الرحمنُ زِيئَهُ
ورياضه الأنفِ التي عادتُ بها الدنيا زَهِيئَهُ^(٤)
وأسودُ شاذرَوانِهِ تهَمي مياها كوثرِيئَهُ^(٥)

وهو يقول إن السرور ألقى عصا تسياره بهذه القصور لجمالها وبنوه بكانها وما حولها من الرياض وأزهارها العطرة وحللها البهية، وما بها من الأسود التي تمج المياه من أفواهاها في شكل بديع وكنا نؤثر له أن لا يزجّ باسم الرحمن ومياه الكوثر نهر الجنة في قصيدة يقدمها للملك نصراني. وحين قدّم قصيدته إلى ابن بشر - ليسجلها في كتابه: «المختار من النظم والنثر لأفاضل العصر» سأله أن يعارضه بقصيدة على وزنها وروّها فقال^(٦):

- (١) الخريدة ٤٥/١ وإنباه الرواة ٣٢٨/٤ (٤) الأنف: الجديدة.
والجدوى: العطية والمهند: السيف.
(٢) الخريدة ٢١٠/٢.
(٣) الخريدة ٢٣/١.
(٤) الشاذروان: مقدم البيت. تهمي: تصب.
(٥) كأنها من مياه نهر الفردوس: الكوثر.
(٦) الخريدة ٢٤/١.

لِلَّهِ مَنْصُورِيَّةٌ رَاقَتْ بِبِهْجَتِهَا الْبِهْيَةَ
وَبَقَصَّرَهَا الْحَسَنِ الْبِنَا وَالشَّكْلَ وَالغُرْفِ الْعَلِيَّةِ
وَبُوحْشِيهَا وَمِيَاهِهَا الـ غُزْرَ الْعُيُونِ الْكُوْثِرِيَّةِ
وَقَدْ اِكْتَسَتْ جَنَاتُهَا مِنْ نَبْتِهَا حُلَلًا بِهْيَةَ

ويقول العماد: اقتصرت من القصيدتين على ما أوردته، لأنها في مدح الكفار فما أثبتته، ونحن بدورنا إنما اقتطفنا بعضا مما أنشده من قصيدتي الشاعرين، وقصر ثالث هو قصر الفؤارة شرقي بلرم، وقد عنى روجار الثاني - فيها نظن - ببركة بجواره أمر أن يوضع فيها السمك من كل نوع وأن تحف بها الأشجار والأزهار بحيث تصبح متنزها بديعا وفي الفؤارة ورياضها يقول عبد الرحمن بن أبي العباس الأظرابنشي^(١):

فَوَؤَارَةَ الْبَحْرَيْنِ جَمَعَتِ الْمُنَى عَيْشٌ يَطِيبُ وَمَنْظَرٌ يُسْتَعْظَمُ
وَكَأَنَّ أَغْصَانَ الرِّيَاضِ تَطَاوَلَتْ تَرْتُوْنَ إِلَى سَمَكِ الْمِيَاهِ وَتَبَسِّمُ
وَكَأَنَّ نَازِجَ الْجَزِيرَةِ إِذْ زَهَا نَارٌ عَلَى قُضْبِ الزَّرْبَجِدِ تُضْرَمُ
وَكَأَنَّمَا اللَّيْمُونُ صَفْرَةٌ عَاشِقٍ قَدْ بَاتَ مِنْ أَلَمِ النَّوَى يَتَأَلَّمُ
وَالنُّخْلَتَانِ كَعَاشِقَيْنِ اسْتَخْلَصَا حَاذِرَ الْعِدَا حِصْنًا مَنِيعًا مِنْهُمُ
يَا نَخَلْتِي بِحَرِّيْ بِلَرَمٍ سُقَيْتُمَا صَوَّبَ الْحَيَا بِتَوَاصُلٍ لَا يُضْرَمُ^(٢)
هَنَيْتُمَا مَرَّ الزَّمَانِ وَنَلْتُمَا كُلَّ الْأَمَانِي وَالْحَوَادِثُ نَوْمُ

والبحرين يريد بها بحر البركة وبحر خليج بلرم، وهو يشيد بالبركة وما عليها من أشجار تطاولت أغصانها بأزهارها لترسل ببسماتها إلى سمك البركة، ويتخيل النارج نارا مضمرة على قضب زبرجدية، والليمون يحيط بها وقد علا وجهه صفرة العشاق، وتسترعيه النخلتان المغربروستان على حافة البركة وكأتما هما بقية للعرب وصحرائهم في الجزيرة ويتخيلهما كعاشقين، استخلصا لها حصنا منيعا في عنان الساء ولا يستطيع الأعداء الوصول إليه، ويستمر في الدعاء لها أن يرعاهما المطر بتواصل لا ينقطع أبدا، وأن تظللهما الهناءة على طول الزمان وكل ما تصبوان إليه، وتظل الحوادث نائمة عنها لا تنالها أى نيل. ويبدو أن الشاعر لم يتمد في مديح روجار كما تمادى عبد الرحمن البشيري وابن بشرون المهدي، ولذلك لم يعلق عليه العماد بتعليق مائل، ونعجب أن لا يستنكف هؤلاء الشعراء المسلمون من مديح ملوك النصارى الذين نهبوا منهم الأرض وأحالوها أنهارا من دماء أهلهم، ولكن ربما ألجأتهم إلى ذلك ضرورة من أسر أو تعذيب أو معاملة سيئة، ولن نستطيع بحال الاعتذار عن الشريف الأدريسى وذهابه إلى

(٢) الحيا: الغيث. يصرم: يقطع.

(١) الخريدة ٢٥/١.

روجار الثاني حين استدعاه وتأليفه له - أو إهدائه إليه - كتابه المشهور في الجغرافيا الذي مر حديثنا عنه ووضعه له خريطة العالم. وتوقف قليلا للحديث عن ابن الخياط شاعر المديح في زمن الكلبين.

ابن^(١) الخياط

شاعر من شعراء الكلبين في عهدهم الأخير، ولا نعرف شيئا عن نشأته كأكثر شعراء صقلية الإسلامية، ونراه يمدح من أمرائهم الأكحل الملقب بمؤيد الدولة (٤١٠ - ٤٢٧ هـ) كما يمدح أخاه صمصام الدولة (٤٢٧ - ٤٣٦ هـ) وفي مدحها معا يقول:

كلاهما زين أخوه به كما يزين الفرقد الفرقد^(٣)
من تره منفردا منها في مجلسٍ قلت هو السيد

فهما فرقدان أو كوكبان لا يتميز أحدهما عن صاحبه وكل منهما عليه سياء السيادة والشرف، ونراه حين شغبت صقلية على الأكحل في سنة ٤٢٧ يعزيه عن شغبهم بمثل قوله:

أرى كل شيء له دولة لحكم التعاقب فيها عمل
فلا تفرحن ولا تحزنن لشيء إذا ما تساهى انتقل

فالدول لا تظل لأحد، بل تتعاقب كما يتعاقب الليل والنهار والحاكم العاقل لا يحزن إن عبس له القدر، كما لا يفرح له حين يبتسم، إذ لا شيء من عبوسه ولا من ابتسامه باق، بل الكل إلى زوال. ونراه يتعلق بمدح قائد من قواد الدولة كانت لقبته بلقب انتصار الدولة، ويصور شجاعته وبأسه في الحروب منشدا:

ويارب يوم له مسعر إذا خمدت ناره أوقدا^(٣)
تخاف به الرجل من أختها ولا تأمن اليد فيه اليد
ترى السيف عريان من غمده وتحسبه من دم مغمدا

فهو مسعر حرب بوقدها كلما خمدت أو خبت، ويكاد الخوف والفرع يخنقان محاربيه حتى لتتخوف الرجل من أختها واليد من شقيقتها لما يأخذ الناس من الهول، وترى السيف فتخاله

(١) انظر في أشعار ابن الخياط شرح صديقه

ص ٢٠٧. (٢) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي.

(٣) مسعر: موقد.

التجيبى القيرواني للمختار من شعر بشار، وراجع ترجمة إحسان عباس له في كتابه: العرب في صقلية

عريان من غمده بينها هو مغمد ومغمور من دم الأعداء. ويصور أحد أعدائه وقد أخذه الهلع من كل جانب:

ظنَّ الإمارةَ ظلَّةً فإذا بها حربٌ يكاد أوارها يتأججُ^(١)
ومهنداتٌ كالعقائِقِ ماؤها مترقرقٌ ولهيبها متأجج
لا تستقرُّ العينُ فوق مُتونها فكأنما هي زئبقٌ مُترجرجُ
في موطنٍ سلب الحليمِ وقاره فكأنما هو مستطارٌ أهوجُ

فهذا الخارج ظن الإمارة ظللة يستظل بها ويستريح عندها فإذا هي نار حرب متأججة. وإذا السيوف يلمع عليها ما يشبه الماء بل ما يشبه النار المضطربة، والعين لا تستطيع استقراراً فوق متونها لأنها زئبق مترجرج، في ساحة حرب تسلب الحليم وقاره حتى ليغدو كأنه مستطارٌ أهوج من شدة الهول والفرع. وتولى الحكم بعد الأكلح صمصام الدولة لمدة أربع سنوات وضاعت الجزيرة من يده ودخلت في عصر أمراء الطوائف وأخذ ابن الخياط يعزى أمراء بني أبي الحسين الكلبيين بمثل قوله:

لِيُسَلِّكُمُ أَنْ الْجَزِيرَةَ بَعْدَكُمْ كما قيل في الأمثال لحمٌ على وَضْمٍ^(٢)
تَرَكْتُمْ بِقَايَا حَسَنِكُمْ فِي خَرَابِهَا كما ذَبَلُ النُّوَارِ فِي خَلَلِ الحُمِّ^(٣)
وَجُوهٌ كَأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمَائِهَا ترقرقُ حَيَاءٌ وامزج الحُسْنَ بالكِرْمِ
كَأَنَّهُمْ فَوْقَ الأَسِيرَةِ أَنْجُمٌ سَعُودٌ وَفِي الهَيْجَا ضِرَاعِمَةٌ بِهِمْ^(٤)

فالجزيرة قد تعرّت بعد الكلبيين من بهجتها وأصبحت عارية من حسناتها لما على وضم، وإن شعبيها لا يزال يكنّ لكم حبا وكأني به ذبل كما يذبل النوار في أثناء اللحم المنتهية، ويقول ما أروع وجوه الكلبيين، لقد كان الحياء يترقرق فيها، وكان الحسن يمتزج بالكرم، وكانوا فوق الأسرة والعروش وبأيديهم صولجان الحكم كأنهم نجوم ساطعة في السلم، وفي الهيجاء أسود لا يماثلها أسود. ولا نعرف شيئا عن مولد ابن الخياط ولا عن وفاته، ويبدو أنه عاش في عصر أمراء الطوائف حتى زمن محمد بن الثمنة حاكم بلرم، غير أنه لم يلحق عصر روجار وأبنائه، وربما كان قد ترك صقلية إلى القيروان قبل هذا التاريخ.

(١) أوارها: نارها.

(٢) لحم على وضم: ما يوضع عليه اللحم.

(٣) الحُم: الفحم والرماد.

(٤) بهم، جمع بهمة: الشجاع.

مثل للدلالة على أنه لم يعد لها واق.

شعراء الغزل

هذا هو الموضوع الأساسي لشعر صقلية الإسلامية سواء فيما اختاره لها ابن القطاع أو ابن بشر بن المهدي أو العماد الأصبهاني، وهو موضوع إنساني نجده دائماً في جميع البيئات الإسلامية، إذ يتغنى الشعراء بحبهم للمرأة ويتفننون في هذا التغنى بصور مختلفة، لعلها تعبرهم التفاتة أو تذكر لهم عهداً أو تفي لهم بوصل أو بوعد، من ذلك قول أبي الحسن علي بن الحسن بن الطوبى أحد شعراء ثقة الدولة^(١):

ما أحسبُ السحرَ غَيْرَ مَعْنَاهَا	والعنبرَ الجَوْنَ غيرَ رِيَاهَا ^(٢)
إنا جهلنا ديارها فَبَدَا	من عَرَفَهَا ما به عَرَفْنَاهَا ^(٣)
كأنما خَلَفْتُ بِسَاحَتِهَا	منه دليلاً لكل مَنْ تَآهَا
وأغبط الماء حين تَرَشَفَه	إذ كان دوني مقبلاً فَاها
وما ثنائى على قلائدها	إلا بأن أشبهتُ ثنَاياها

وكان ابن الطوبى قد عبر البحر إلى القيروان في أيام المعز بن باديس فاصطفاه لنفسه، ومَرَّتْ بنا إحدى مدائحه له، وكان المعز كثيراً ما ينشد البيت الرابع من هذه المقطوعة لرقته وعدوبته وهي جميعها في غاية النعومة والسلاسة، حتى لتكاد ألفاظها تطير عن الفم طيراناً لما فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويذرف الدموع مدراراً، فذلك نصيبه وحظه في دنياه. وهذه الصورة الطبيعية من الغزل نصادفها عند غير شاعر صقلى، من ذلك قول مستخلص الدولة عبد الرحمن بن الحسن الكلبي ممدوح ابن الحياط^(٤):

قلتُ يوماً لها - وقد أخرجتني -	قولةً ما قدرت أنفكُ عنها
أشتهى لو ملكتُ أمركِ حتى	أمر الآن فيك قَهراً وأنهى
فيك - ثم أعرضت - ثم قالت	خُنْتَنِي في محبةٍ لم أخُنْها

وهي رقة شعور واضحة، فإنها لم ترنض منه أن يملك أمرها ويأمر فيها قهراً وينهى، وأين الحب؟ لقد خانته، ولذلك بكت بكاء مرا، إنه لم يعد عاشقاً بل أصبح سيّداً يريد أن يسترقها ويستذلها. ويقول أبو محمد جعفر بن الطيب الكلبي^(٥):

(١) الخريدة ٧٤/١.
 (٢) رياها: شذاها العطر.
 (٣) عرفها: شذاها وعطرها.
 (٤) الخريدة ٨٥/١.
 (٥) الخريدة ١١٤/١.

فأرقتكم لا عن قِليٍّ وتركتكم
وفقدتكم من ناظري فوجدتكم -
رَغْباً على حكم الزمان الجائرِ
- لما أردت لقاءكم - في خاطري

فقد فارق صاحبه لا عن بغض ولكن نزولاً على حكم الزمان الظالم، وفقدها من ناظره وأمام عينيه ووجدتها بطلعتها السنية في خاطره، وهي فكرة رقيقة ودقيقة. ويقول الفقيه عبد الرحمن بن أبي بكر السرقوسي^(١):

أسارقه اللحظ الخفيّ مخافةً
وأجهد أن أشكو إليه صبابتي
عليه من الواشين والرقباءِ
فيمعنى من ذاك فَرَطُ حياتي
سأكتم ما ألقاه من حُرْقِ الأسي
عليه ولو أني أموت بدائي

فهو يسارق صاحبه اللحظ خشيّة أن يتنبّه بعض الواشين والرقباء، ويجهد في أن يشكو إليها صبابته فيمنعه فرط حياته، وسيظل يكتم ما ينطوي عليه قلبه من حرق الأسي ولوعاته مؤثراً أن يموت بدائه. ومثل هذه القطعة اليائسة قطعة لابن الخياط يقول فيها.

ليس إلا تنفسُ الصعداءِ
وبكائي وما غناءُ بكائي
مَنْ رسولى إلى السماءِ يؤدى
لى كتاباً إلى هلال السماءِ
كيف يرقي إلى السماءِ كثيفُ
يسلك الجسمَ فى رقيق الهوائِ
عجز الإنس أن شوقى إليها
فعسى الجن أن تكون شفائى
أم ترى الجن تتقى شهبَ الرّجمِ
فدعنى كذا أموت بدائي

وصاحبه فى السماء فكيف يرقى إليها فى الهواء جسم كثيف لإنسان فيفكر فى الجن، غير أن الجن حرّم عليها الصعود فى السماء، وشهب الرجم لها بالمرصاد وستلقاها بالموت الزؤام، ويأس فلا الجن تنفعه ولا الإنس ويزدرف الدموع مدراراً، فذلك نصيبه وحظه فى دنياه.

وإذا تحولنا إلى العهد النورمانى لقينا عبد الحليم بن عبد الواحد السوسى الأصل الإفريقى المنشأ الصقلى الدار، وهو من سكان مدينة بِلْرم، وله مقطوعتان غزليتان طريقتان، يقول فى أولاهما^(٢):

قالت لأترابٍ لها يشقّعن لى
وحياة حاجته إلى فقّره
قول امرىءٍ يزهى على أتراه
لأواصلنّ عذابه بعذابه

(٢) الخريدة ١/٢٢٤.

(١) الخريدة ١/١١٦.

ولأَمْنَعَنَّ جُفُونَهُ طَعَمَ الْكَرَى ولأَمْزِجَنَّ دَمَوْعَهُ بِشْرَابِهِ^(١)
لِمَ بَاحَ بِاسْمِي بَعْدَ مَا كَتَمَ الْهَوَى دَهْرًا، وَكَانَ صِيَانَتِي أَوْلَى بِهِ

وهي تعلم مدى حبه لها وشغفه بها، وكان يكتُم حبه ولا يصرِّح باسمها، فلما صرَّح به وأعلن حبه لها غضبت غضباً شديداً وصممت على الانتقام منه أشد الانتقام، إذ ستواصل عذابه بعذابه وستمنعه النوم وتمزج دموعه بأى شراب يشربه، حتى تأخذ بثأرها من بؤحه باسمها بعد كتمانها دهرًا، وكان أولى أن لا يصرح به أبداً. ويقول في الأخرى^(٢):

شَكوتُ فَقالتُ كلَّ هذا تَبْرُمًا بحَبِّي أراحَ اللهُ قَلْبِكَ من حُبِّي
فلما كَتَمْتُ الحَبَّ قالْتُ: لَشَدَّ ما صَبَرْتُ وما هذا بفعلِ شَجِي القَلْبِ
فأَدنُو فَتَقْصِينِي فأبْعُدُ طالِبًا رِضاها فَتَعْتَدُ التَّباعِدُ من ذَنْبِي
فَشكواي تُؤذِيها وَصَبْرِي يَسوؤها وَتُخْرِجُ من بَعْدِي وَتَنْفِرُ من قَرَبِي^(٣)
فيا قوم هل من حيلةٍ تَعلمونها أَشيروا بِها واستَوْجِبوا الأجرَ من رَبِّي

وهو لا يعرف كيف يرضى صاحبه، فإنه إذا شكَا من حبهَا عدَّت ذلك تبرما ودعت له أن يريجه الله من حبه، وإذا كتُم شكواه وحبه قالت له: ما أشد صبرك وليس هذا من ديدن المحب العاشق. ويقول إنه يدنو فتقصيه، فيبعد أملا في رضاها، فتعد بعده أو تباعده من ذنوبه عندها، وهو حائر فشكواه تؤذيها وصبره يسوؤها، ويؤلمها بعده وتنفّر من قربه، ويسأل من حوله هل من حيلة له في إرضائها ويدعو لمن دلّه على حيلة أن ينال جزاءه من ربه. وله بيتان بديعان يصور فيهما حال صقلية وقد نهكتها حروب النورمان^(٤):

عَشَقْتُ صَقَلِيَّةً يافِعًا وَكانتُ كَبعضِ جِنانِ الخُلودِ
فما قَدَّرَ الوَصْلُ حَتى اكَتَهَلْتُ وَصارتُ جَهَنَّمَ ذاتُ الوَقودِ

فصقلية الجنة البديعة بقصورها وحقولها وزروعها وثمارها وأزهارها الزاهية أصبحت في عهد النورمان بحروبهم وفتكهم برجالها وشبابها جهنم المتقدة المشتعلة التي تلتهم كل سكانها، ولمحمد بن عيسى بن عبد المنعم من غزلية رائعة كان يغنى بها هناك^(٥):

مولايَ يا نورَ قَلْبِي وَنورَ كلِّ القُلوبِ
أما تَرى ما بِجسْمِي من رِقَّةٍ وَشُحوبِ

(٤) الخريدة ٢٢/١.

(٥) الخريدة ٣٦/١.

(١) الكرى: النوم.

(٢) الخريدة ٢٢/١.

(٣) تخرج: تضيق.

فَلَمْ يَخْلُ بِوَصْلِي وَليْسَ لِي مِنْ ذَنْوِبِ
وَمَا لِسُقْمِي شِفَاءً وَلَا لَهُ مِنْ طَبِيبِ
وَلَا لِدَائِي دَوَاءً إِلَّا وَصَالَ الْحَبِيبِ

والقطعة جديرة بأن يغنى بها، لحفتها في السمع وعذوبتها وتعبيرها عن الحب الذي أضناه ببساطة، وفيه هذا البخل بالوصل، وليس له من ذنوب، والبيتان الأخيران في غاية الرشاقة مع النعومة ومع الحلاوة في السمع التي تشيع في كل الأبيات. وتوقف قليلا للحديث عن الشاعر البلنوي وغزلياته.

البلنوي^(١)

هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الأنصارى، ولد بمدينة بلنوبة Villanova في صقلية، فنسب إليها، وعلى شاكلة لداته اختلف إلى الكتاب لحفظ القرآن الكريم، ولزم الشيوخ حتى ثقف ما عندهم في اللغة والنحو، وهاجر إلى مصر وعنى فيها بتدريس العروض والنحو في كتبها المشهورة حتى توفي سنة ٤٤٢ للهجرة ويبدو أن ملكته الشعرية تفتحت بصقلية مبكرة ونشر رزيتانو قطعة من شعره باسم ديوان البلنوي، وافتتح العماد تراجم الشعراء في صقلية بترجمته، وبها مختارات كثيرة من غزلياته، وهو في غزله يصور ما يتسم به الغزل عند شعراء صقلية من التجاني عن الغزل المادى الحسى وما يتصل به من وصف الجسم إلى الغزل المعنوى وما يتصل به من رقة الحس والشكوى من عذاب الحب والسهر وبعد الحبيب وهجره وما يبجره ذلك على المحب من الضنا والنحول والسقم الذى لا شفاء منه، ومن طريف غزله:

إليك أشكو عيونا أنتِ قلبِ لها فيضى فقد فضحتني بين جُلاسِي
وما تركتِ عَدُوًّا لِي علمتِ بهِ إلا وقد رَقَّ لِي من قلبِك القاسِي
فإن رضيتِ بأن ألقى الحِمَامَ فيا أهلاً بذاك على العينين والراسِ

فهى التى أمرت عيونه أن تظل تذرف الدمع شوقا إلى لقائها، حتى فضحته بين جلاسه من صديق وعدو فالكل يرق له من قلبها المتناهى في القسوة، وهو بذلك راض أن يظل مستجيبا لها ويظل الدمع يترقرق في عيونه، حتى لو رضيت بأن يموت في سبيلها، فسيقبل الموت بمنتهى

ونشر رزيتانو ديوانه بالقاهرة سنة ١٩٦٨.

(١) انظر في البلنوي إنباه الرواة ٢/٢٩٠

والخريدة للعماد الأصهباني ١/٥ والعرب في صقلية

الرضا. ويقول :

أترانى أحيا إلى أن يعودا نازح لم يدع لعيني هجودا
كيف أرجو الحياة بعد حبيب كان يومي به من الدهر عيدا
أشتهى أن أبوح باسمك لكن لقتنتي الوشاة فيك الجحودا

وهو يظن أنه لن يحيا حتى يعود حبيبه لطول سهاده وما يعانى منه، حتى ليتصور أنه ميت لا محالة، فقد ذهبت أيام لقائه به التي كان يعدها أعيادا، وإنه ليشتهي أن يبوح باسمه أو اسمها ولكنه يخاف الوشاة، وكأنما علموه الجحود ونكران الحب. ويقول:

أما تعطينن على خاضع لديك يُناجيك مُستعظفا
إذا كتبت يدهُ أحرُفا إليك مَحَا دَمْعُهُ أحرُفا
ولو كنت أملك غرَبَ الدموع منعتُ جُفونِي أن تَنزُرفا^(١)

وهو يشكو لصاحبه حبه متذلا مستعظفا، ويقول إنه كلما كتب لها سطرًا فى رسالة محت الدموع سطرًا سابقا له، ولو كان يملك مصدر دموعه لمنع جفونه أن تذرف الدمع مدرارًا، وصورة السطر الذى يكتب والسطر الذى تمحوه دموعه فى الرسالة بديعة. ويقول:

هجرتك يا سؤل نفسى ولى فؤادُ متى تُذكَرى يَخْفِقِ
وما ذاك منى أطراح الملول ولكنه نظرُ المشفقِ
كما تتركين برودَ الشرا بَ ظمأى مخافة أن تَشْرِقى

وهو يقول إنه هجر سؤل نفسه حُب قلبه لا ملاملا ولكن إسفاقا عليها أشد الإسفاق، كما تترك وهى شاعرة بحرقة العطش كوبا من الماء البارد الذى يطفىء غلة ظمئها خوفا من أن تشرق بها وتفص غصة مؤذية شديدة. وكان يدرس العروض لطلابه، فرأى أن ينظم لهم مقطوعة غزلية ثلاثية الشطور، والسطر الأول فيها من مجزوء الخفيف والثانى من مجزوء الرمل والثالث من مجزوء المجتث بحيث إذا ضمَّ سطر إلى أخويه أو إلى أخيه نتج وزن جديد، وهى تجرى على هذه الشاكلة^(٤):

وغزالٍ مشنَّفٍ^(٢) قد رثى لى بعد بَعْدَى
لما رأى ما لقيتُ

(٢) مشنَّف: متخذ قرطا.

(١) تذرف: نسيل.

مثل روض مفوّف^(١) لا أبالي وهو عندي
في حبّه إذ ضيّتُ

وهي غزلية للتدريس، وإن شكا فيها بعد المحبوبة وجفائها وامتناعها، ومن هذا الباب عنده مقطوعات يجمع فيها حروف المعجم أو يلغز فيها. وفي الحق أنه يصور الغزل الصقلي المعنوي تصويراً بديعاً بما نجد عنده من الصباية واللهفة على لقاء المحبوبة وكثرة الشجى لهجرها والحزن حتى ليكاد يموت المحب في إثر محبوبته ضنا وسقما وبكاء متصلا.

٤

شعراء الفخر

من موضوعات الشعر العربي القديمة الفخر، وكان كثيراً جداً في الجاهلية، لأن القوم كانوا يقتتلون، وكان الشعراء من ورائهم يحمسونهم في القتال، وكان من المقتتلين أنفسهم شجعان يذودون عن القبيلة ويفتخرون بشجاعتهم ومآثر قبائلهم، فكثر شعر الفخر والحماسة حينئذ، وكان المظنون، والسيوف في صقلية دائماً مشرعة وقلما توضع في أعمادها أن يكون شعر الفخر والحماسة فيها كثيراً، غير أن ماروي منه قليل، وقد يرجع ذلك إلى ابن القطاع الصقلي وابن بشرون المهدي، فإنها لم يرويا منه إلا القليل وخاصة ابن بشرون فإنه كاد أن لا يروى منه شيئاً في العهد النورمانى، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن العرب كانوا مهزومين، فقيم الفخر وقيم الحماسة، أما في العهد السابق لذلك فإن نفسياتهم كانت قوية، ونجد ابن القطاع يسوق لهم فخراً وحماسة من حين إلى آخر، من ذلك قول أبي عبد الله محمد بن علي بن الصباغ الكاتب^(٢):

قَوِّمِي الَّذِينَ إِذَا السَّنَابُكُ أَنْشَأَتْ	دُونِ السَّحَابِ سَحَابًا مِنْ عَثِيرٍ ^(٣)
بَرَقَتْ صَوَارِمُهُمْ وَأَمْطَرَتِ الطُّلِّي	عَلَقًا كَثْرَثَارَ الْحَيَا الْمَتَفَجِّرِ ^(٤)
الْوَاتِرِينَ فَلَا يُقَادُ وَتِيرُهُمْ	وَالْقَاتِكِينَ بِحِمِيرٍ وَبَقِيصَرٍ ^(٥)
وَالْمَانِعِينَ جِمَاهُمْ أَنْ يُرْتَعَى	وَالْحَاسِمِينَ لِكُلِّ دَائِمٍ يَغْتَرَى

فقومه حين يشتد وطيس الحرب وتنشئ سنابك الخيل سحابا من غبارها تيسرق

(١) مفوّف هنا: جميل.
(٢) الخريدة ٨٤/١.
(٣) السنابك جمع سنبك: طرف الحافر. عثير: دابة قتيلهم.
(٤) علقا: دما غليظا. ثرثار الحيا غزير الغيث.
(٥) الواترين: القاتلين. لا يقاد وتيرهم: لا تؤدى دية قتيلهم.

سيوفهم وتطر أعناق الأعداء سيولا من دم متفجر أنهارا، وإنهم لَيَتَرُونَ أَعْدَاءَهُمْ وَيَفْتَكُونَ بِهِمْ دُونَ أَنْ يُطَلَّبَ مِنْهُمْ - لِبَأْسِهِمْ - وَتَرُ أَوْنَارًا، وَطَالَمَا فَتَكُوا بِأَقْيَالِ حَمِيرٍ وَفِرْسَانَ قَيْصَرَ، وَقَدْ اشتهروا بأنهم المانعون حِمَاهُمْ فَلَا تَسْتَطِيعُ قَبِيلَةٌ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهُ وَتَرَعَاهُ، وَإِنَّهُمْ لِيَحْسُمُونَ كُلَّ شَرِّ وَيَقْضُونَ عَلَيْهِ قَضَاءَ مِيرْمَا. وَسَنَخْصُ مَعَاصِرَهُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ الْحَسَنِ بْنِ الطُّوَيْبِيِّ بِكَلِمَةٍ. ويقول أبو علي أحمد بن محمد بن القاف الكاتب^(١).

سَأَكْرِمُ نَفْسِي جَاهِدًا وَأَصُونُهَا وَإِنْ قَرَّحَتْ مِنْ نَاظِرِي جَفُونَهَا
وَلَسْتُ بِزَوَارٍ لِمَنْ لَا يَزُورُنِي وَلَا طَارِحًا نَفْسِي عَلَيَّ مِنْ يَمِينِهَا

فهو سيكرم نفسه إلى أقصى حد ويصونها عن أن تتعرض لإهانة مهما كلفه ذلك من السهاد، ولن يزور من لا يزوره إكراما لنفسه أن تمسها إهانة بأي صورة من الصور. ويقول الفقيه المحدث أبو محمد عمار بن المنصور الكلبي وكان من أفاضل العلماء وسادات الأمراء^(٢):

تَقُولُ: لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالَ نَجْدٍ وَمَا أَبْصَرْتُ مِثْلَكَ مِنْ يَمَانٍ
أَلْفَتْ وَقَائِعَ الْغَمْرَاتِ حَتَّى كَأَنَّكَ مِنْ رَدَاهَا فِي أَمَانٍ^(٣)
إِلَى كَمْ ذَا الْهَجُومُ عَلَى الْمَنَائِمَا وَكَمْ هَذَا التَّعَرُّضُ لِلطُّعَانِ
فَقَلَّتْ لَهَا: سَمِعْتُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ أَسْمَعْ بِكَلْبِيَّ جَبَانَ

وهي ترفعه فوق رجال نجد واليمن جميعا، فليس مثله بينهم شجاع، وتقول إنه ألف وقائع الحرب حتى كأنه من موتها في أمان، بل إنه ليهجم على الموت هجوما ضاريا متعرضا للطعان غير جزع ولا وجل، وردة عليها قائلا إنه سمع بكل شيء إلا أنه لم يسمع بكلبي يمانى جبان. ونقف عند ابن الطويبي قليلا.

أبو الحسن^(٤) الطويبي

هو أبو الحسن علي بن الحسن بن الطويبي الذي تقدم ذكره في المديح والغزل، وفيه يقول العماد الأصبهاني نقلًا عن ابن القطاع: «إمام البلغاء وزمام الشعراء مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين، ومعتمد سلاطين» يقول في قصيدته التي مدح بها المعز بن باديس ومر ذكرها:

الردى: الهلاك.

(١) الخريدة ٨٧/١.

(٤) انظر في أبي الحسن الطويبي الخريدة ٧٢/١.

(٢) الخريدة ١٠٧/١.

(٣) الغمرات: الشدائد ويريد شدائد الحروب.

وإما المنى أو فالمنية إنها حياة ليب لم ينل من لبها
وهل نعمة إلا ببؤسى وإنما عذوبة دنيا المرء عند عذابها

فإما تحقيق المنى والحصول عليها وإما الموت الزؤام، وهل نعمة إلا مصحوبة ببؤس وشقاء،
وإنما عذوبة دنيا الإنسان في عذابها، وهو بذلك صاحب نفس كبيرة، ويصورها في الأبيات
التالية:

أعددتُ للدهر إن أزدتُ حوادثه عزما يحلُّ عليه كلُّ ماعَقدا
وصارماً تتخطى العين هِزَّتَه كأنما ارتاعَ من حَدْيِهِ فارتعدا
وذابلاً توضح العليا ذبالتَه كأنها نَجْمٌ سعدٍ لاحٍ منفرداً^(١)
وتشراً ليس للريح المضى بها إلا كما عرضتُ للنهى فاطرداً^(٢)

وهو يقول إنه أعد للدهر حين تنزل به حوادثه عزما يحل كل شدائده، وسيقا قاطعا تتخطى
هزته العيون، وكأنما أخذه وجل من حديه القاطعين فارتعد، ورمحا يوضح العليا حده القاطع
وكانه نجم سعد يكتب له دائما النصر والظفر، ودرعا تشبه طياتها موجات مياه الغدير حين
تحركها الرياح ويقول.

سَل الليل عني هل أنامُ إذا سَجَى وهل ملَّ جَنبِي مضجعي ومكاني
على أننى جَلْدُ إذا الضرُّ مَسَّنِي صبورٌ على مانابني وعُراني

وهو يقول لصاحبه: سل الليل عني فإني دائما يفظ، ودائما يجفو جنبى المضجع والمكان، وإننى
لجلد أحتمل كل ضر يسنى، صبور على كل ماينوبنى، أحتمل من ذلك ما يطاق وما لا يطاق،
حتى يأتي الله بالفرج.

٥

شعراء الوصف

الشاعر العربي - من قديم - يصف كل ما حوله من الإنسان وغير الإنسان من
الحيوانات والنباتات والأزهار، وقد مر بنا في المديح وصف قصور روجار: القبة والمنصورية
والفسوة عند البشيرى والطرابنشى وما حف بالأولين من بركة وبها جميعا من رياض،
ولأبى الحسن بن الطوبى في وصف الثريا^(٣):

(٣) الخريدة ٨٠/١.

(١) ذابلا: رمحا. ذبالته: حده القاطع.

(٢) نثره هنا: درعا. النهى: الغدير.

انظر إلى الأفق كيف بهجتُهُ
ولثرياً عليه تنكتُهُ
كأنها وهى فيه طالعةٌ
قميصٌ وشىٍ وتلك عروتهُ

فالسماء بنجومها كأنها قميص وشىٍ بديعٍ والثريا عروته المضيئة الجميلة، وسنخص أخاه أبا عبد الله بن الطوبى بكلمة لإكثاره من الأوصاف والتشبيهات فى الطبيعة وغير الطبيعة. ويقول مشرف بن راشد^(١):

وروضةٍ بالحَزْنِ مطورةٍ
لم تنتهبها أعينُ الناسِ
بكى عليها الغيثُ فاستضحكتُ
عن نرجسٍ غَضٌّ وعن آسِ

وكان يكثر من استخدام الطباق كما فى البيت الثانى، وجعل الروضة تضحك أو تبتم عن نرجس غَضٌّ وعن آسِ، ويقول ابن متكود صاحب مازر فى عهد أمراء الطوائف واصفاً النيلوفر^(٢):

كنوسٌ من يواقيتِ
تفتَّح عن دنانيرِ
وفى جنباتها زهراً
كألسنة العصافيرِ

والنيلوفر هو اللوتس عند المصريين القدماء والبشنيين عند أهل الريف المصرى، وحين تفتتح تتدل من جنباتها أزهار - كما يقول ابن متكود - مثل ألسنة العصافير. ويقول ابن القطاع فى وصف رمانة^(٣):

كأنها حُقَّةٌ من عَسَجِدٍ ملئتُ
من اليواقيتِ نثراً غير منظومٍ

وهى صورة بديعة، ويفتح ابن القطاع صحفاً غير قليلة لمديح المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات ودمهم، من ذلك ذم البلنوبى لمغن فى قوله^(٤):

ولنا مغنٌ لايزا
ل يغيظنا ما يفعلُ
غنىٌ ثقيلاً أولاً
وهو الثقيلُ الأولُ

والثقل الأول نغمة موسيقية معروفة عند العرب، وهى مكررة مئات المرات فى كتاب الأغانى واستغلها البلنوبى فى هجاء هذا المغنى، والتورية واضحة ونراه يمدح راقصة من راقصات صقلية قائلاً^(٥):

(٤) الخريدة ١٣/١.

(٥) الخريدة ٦/١.

(١) الخريدة ٩٣/١.

(٢) الخريدة ١٠٣/١.

(٣) الخريدة ٥٣/١.

هَيْفَاءُ إِنْ رَقِصْتُ فِي مَجْلِسٍ رَقِصْتُ قُلُوبُ مَنْ حَوْلَهَا مِنْ جَذَقِهَا طَرَبًا
خَفِيفَةُ الوَطءِ لَوْ جَالَتْ بِخَطْوَتِهَا فِي جَفْنِ ذِي رَمَدٍ لَمْ يَشْتَكِ الوَصْبَا

فالقلوب ترقص مع رقصها، وهي خفيفة الوطاء للأرض في رقصاتها حتى لو جالت بخطوتها الخفيفة في جفن أرمد لم يحس بها فحسب، بل أيضا أزلت عنه ما يشكو من صب الرمد - ويقول أبو بكر محمد بن علي الكموني في وصف راقص^(١):

مَا إِنْ رَأَيْتَ كِرَاقِصٍ مُسْتَظَرَفٍ فِي كُلِّ فَنٍّ
يُحْكِي الغِنَاءَ بِرَقِصِهِ كَمِرَاقِصٍ يُحْكِي المَغْنَى
رَجَلَاهُ مَزْمَارٌ وَعَوِ دُ فِي نِهَائِهِ كُلُّ حُسْنٍ
فَهُوَ السَّرُورُ لِكُلِّ عَيْدٍ وَالنَّعِيمُ لِكُلِّ أُذُنٍ

وتدل المقطوعة دلالة قاطعة على أن الغناء كان قد ارتقى في مصاحبة الرقص فنونا من الرقي، حتى ليقول ابن الكموني عن هذا الراقص أن رجليه كانتا مزمارا له وعودا فهو يوقع على ضرباتها غناؤه ويلحنه تلحينًا دقيقًا، فهو سرور برقصه لكل عين، وهو نعيم بغناؤه لكل أذن. ونتوقف لنتحدث عن أبي عبد الله بن الطوبى وبراعته في الوصف.

أبو عبد الله^(٢) بن الطوبى

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الطوبى، كان صاحب ديوان الإنشاء في عهد ثقة الدولة وأبنائه - كما يقول العماد - ومن ذوى الفضائل البلغاء، طيبًا، مترسلا، شاعرا. ويقول القفطى: «مقيم بصقلية يتولى الإنشاء نحوى أربى في النحو على نفظويه وفي الطب على ابن ما سويه، وكلامه في نهاية الفصاحة وشعره في غاية الملاحاة وله مقامات تزرى بمقامات البديع وإخوانيات كأنها زهر الربيع. كان بصقلية سنة خمسين وأربعمائة وأظنه عاش بعد ذلك مدة، وأورد ابن القطاع من نظمه كل مליح الحوك، صحيح السبك، فمن ذلك قوله في نرجس:

أُرِيدُ لِأَشْفِي سَقَمَ قَلْبِي بِنَرْجَسٍ فَيَذْبَلُ إِنْ صَافَحْتَهُ بِتَنْفُسِي
لَهُ مَقْلَةٌ كَالتَّبْرِ، وَالجَفْنُ فَضَّةٌ وَقَدْ كَغُصْنِ البَانِ فِي ثُوبِ سُنْدُسٍ

ويدل العماد على براعته في هذا الوصف للنرجس بأنه أتى فيه بأربع تشبيهات، كما يتضح في

(١) الخريدة ١٠٤/١.

الخريدة ٥٥/١ وإنباء الرواه للقفطى ١٠٧/٣

والمكتبة الصقلية ٥٨٩.

(٢) انظر في ترجمة أبي عبدالله بن الطوبى

البيت الثاني، وهي تشبيهات دقيقة. ويقول في نار فحم والشرار يتظاير من حولها:

ونارِ فحمٍ ذى منظرٍ عجبٍ يطرد عنه الشَّرَارَ بالهلب
كأنما النارُ مبردٌ جعلتْ تبرُدُ منه بُرَادَةَ الذهبِ

فلهب النار يطرد الشرار من حولها، كأنما النار مبرد يبرد من الفحم برادة ذهبية، وقد راعى النظير في البيت الثاني، فالنار مبرد وهي تبرد من الفحم برادة الذهب، ويقول في مديح مغنٍ.

إذا غنَى يُزِيلُ الهَمَّ عَنَّا ويأتينا بما نهواه منه
له وترٌ يطالب كلَّ همٍّ بوترٍ فالهموم تفسرُ عنه

فهو مغن حاذق يعرف ما تهواه النفوس ويعرضه على سامعيه، وكأنما لعوده وتر يطالب كل هم في نفوس الناس بوتره أو تأره، فالهموم تفر عنه منطلقة إلى غير مآب. ويذم في مقابل هذا المغنى مغنين آخرين من يرد غنائهم يجعلون الصيف شتاء ويحولون الأعراس مآتم، وفي أحدهم يقول، وهو أخف ما قال:

لنا مغنٌ غنأه يعود شراً عليه
لم يأت منزل قومٍ فعاد قطُّ إليه

فبمجرد أن يسمعه أهل منزل يزورون عنه ولا يعودون إلى طلبه مرة أخرى. وكان يُعرب أحياناً في أوصافه مدحا وذما، وقد وجد الناس يمدحون البياض في المرأة ويذمون السواد، فرأى أن يعكس عليهم القضية قائلاً:

شبهاتِ المشيب تعافُ نفسى وأشباهُ الشيبه هُنَّ حورٌ
سواد العين نورٌ العين فيه وما لبياضها في العين نورٌ

فهو يرى بسواد عينيه لابياضها، ولذلك يعاف البياض رمز المشيب والشيخوخة، كما يعاف معه المرأة البيضاء، بينما يحب السواد رمز الشيبه ونضرة الحياة ويحب المرأة السوداء. وكانت لديه قدرة في حسن التعليل كقوله في فصٍ أحمر:

حمرتى من دم قلبى أين من يندبُ أيننا
أنا من أحجار أرضٍ قتلوا فيها الحسينا

وربما كان في ذلك مايدل على أنه كان متشيعاً يعتقد المذهب الإسماعيلي الفاطمي. ومن حسن تأتبه في التصوير قوله في لحية كبيرة غطت وجه صاحبه:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بلحيةٍ عَرُضَتْ كَلْحِيَةَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ
سَدَّتْ عَلَيْهِ وَجْهَهُ فَكَأَنَّمَا عَيْنَاهُ فِي ثُقْبَيْ كِسَاءٍ أَسْوَدٍ

فهى قد سترت وجه صاحبها حتى لم يعد يبدو منها إلا العينان، وكأنها ثقبان في كساء أسود.
وكما كانت لحية جعفر بن محمد تؤذيه كذلك كانت لحية حمدون، وفيها يقول:

لِحْيَةُ حَمْدُونَ دِثَارٌ لَهُ تُكِنُّهُ مِنْ شَدَّةِ الْبَرْدِ
كَأَنَّهَا - إِذْ غَابَ فِي وَسْطِهَا - قَطِيفَةٌ لُفَّتَ عَلَى قِرْدٍ

فلحية حمدون كأنها دثار أو ثوب تكتنه من قسوة البرد، وكأنها إذ غاب في وسطها ولم يعد
أحد يرى له أثرا قطيفة لفت لا على إنسان بل على قرد. ونختم تصاويره بتصويره لراقصة
صقلية:

راقصةٌ كالغصنِ من فوقه بدرٌ منيرٌ تحت ظلِّ الماءِ
تلهبُ مثل النارِ في رقصها وهى من النعمة كالماءِ
كأنما فى رجليها عودها وزامرٌ يتبعُ بالناءِ
ساحرةٌ الرقصِ غلاميةٌ منها دوائى وبها دانى
إذا بدت ترقص ما بيننا يرقص قلبى بين أحشائى

وهى راقصة قوامها كغصن البان ووجهها كالبدر المنير، وكأنما تجمع النار والماء في
رقصها، تجمعها بحركاتها وتثنياتها وكأنما توقع حركات أرجلها على عودها وزامر يتبعها بالناء
وإنها لساحرة في رقصها، ويأخذى يديها داؤه، وبالتانية دواؤه. وإن القلوب لترقص مع رقصها
وإيقاعاتها المبدعة فيه.

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الرثاء

من موضوعات الشعر القديمة الرثاء، وهو يتخذ ثلاثة اتجاهات: اتجاه الندب والتوجع لفقد المصاب، وعادة يكون من الأهل وخاصة الأخ والولد، واتجاه التأين وهو ذكر فضائل الموت وبيان خسارة القبيلة أو الأمة فيه، والعزاء وهو التعزى عن المصاب في الميت بأن الموت كأس دائر على الجميع لا يقلت منه أحد. ويقول الحسن بن إبراهيم الشامي الكتاني^(١):

فلا البؤس مدفوع بما أنت جازعٌ ولا الخيرُ مجلوبٌ بعلمٍ ولا فَهْمٍ
وإن الحريصَ العمرَ يُلقيه جِرْصُهُ إلى حُفرةِ جَوْفاءِ واهيةِ الرُّضْمِ^(٢)
تعلّمُ بأن الموتَ أزينُ للفتى وأهونُ من عيشٍ يَشِينُ ومن وَصْمِ

وهو يقول إن الحزن لا يدفعه الجزع والمرء لا يعرف ماكتبه القدر ولا أحد يستطيع أن يحمي نفسه من الموت، فالحريص كغير الحريص لا بد أن يُلقى يوماً في حفرة واهية الرضم أو واهية الصخور والحجارة، وإن الموت لأزين للفتى من عيش نكد يعيشه ووصم يشينه - ويقول عمر بن الحسن بن الفوفى الكاتب فى مطلع مرثية^(٣) له:

للموتِ ما يولدُ لا للحياةِ وإنما المرءُ رهينُ الوفاهِ
كأنما يَنشُرُهُ عمره حتى إذا الموتُ أتاه طَواه
من تَرَمَ أيديِ الدَّهرِ لا تُخِطُهُ والدَّهرُ لا يخطيهُ من قد رماه
نفسُ الفتى عاريةٌ عنده ما يُخلُّهُ بالردِّ إلا سَفاهِ^(٤)

وهو يستهل مرثيته بالعزاء وأن الموت مكتوب على الإنسان منذ مولده، وكأنه يولد للموت

(١) الخريدة ١/٩٩.

(٢) الخريدة ١/١٠٣.

(٣) الرضم: انضمام الحجارة بعضها إلى بعض.

(٤) سفاه: سفاهة.

لا للحياة، ويظل منذ خطواته الأولى في دنياه رهين الوفاة، وما أشبهه بثوب ينشره عمره حتى إذا الموت أتاه طواه إلى الأبد، ومن ترمه أيدي الدهر تصبه ولا تخطئه أبداً، فإن الدهر لا يخطئ البتة فيمن قد رماه، وكأنما نفس الفتى عارية عنده ولا بد أن تسترد وما يخله بردها إلا حق، لأنها لا بد أن تعود إلى بارئها، ويظل الرثاء في عهد النورمان. وسنخص محمد بن عيسى بكلمة فيه، ويلقانا به عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن السوسى، ومالطة مسقط رأسه وبها تهذب وقرأ على أبيه الأدب، ثم سكن بلرم واتخذها داراً، ووجد بها قراراً، وله مرثية في بعض رؤساء المسلمين بصقلية تدل على ماحواه من فضائل، وهى مرثية طويلة، استهلها^(١) بقوله:

رَكَابُ الْمَعَالِي بِالْأَسَى رَحْلَهُ حَطًّا وَطَوْدُ الْعُلَى الْعَالِي تَهْدَمُ وَانْحَطًّا
وكيف لنور الشمس والبدر عودةً وهذا منارُ المجد والعزْ قد قُطًّا^(٢)
أَصِيبَ فَمَارِدِ الرَّدَى عَنْهُ رَهْطُهُ بلى أودعَ الأحزانَ إذ ودعَ الرَّهْطَا^(٣)
فِيَارِزُهُ مَا أَنْكَى وَيَا حُزْنَ مَا أَيْكَى وَيَا دَهْرُ مَا أَعْدَى وَيَا مَوْتَ مَا أَسْطَا^(٤)

وهو يقول إن ركاب المعالي حط رحله بالحزن الطويل، وقد تهدم طود العلا السامى ولن يعود أبداً، وكيف يعود نور الشمس والبدر وهذا منار المجد والعز قد استوصل استئصالاً، أصابه الموت فما ردتة عنه عشيرته ولا أهله، ودعهم وأودع في قلب كل منهم جرة حزن لا تنطفئ أبداً، فيارزه ما أشد نكايتك، وباحزن ما أشد ما تثير من البكاء، ويادهر ما أشد عدوانك، وياموت ما أشد سطوتك، وكأنما كان يبكى فيه رؤساء صقلية المسلمين بصقلية جميعاً. ونعجب إذ نجد أبا الضوء سراج بن أحمد بن رجاء يعزى روجار الثانى عن ابنه روجار بمرثية باكية، وفيها يقول^(٥):

خَبَا الْقَمَرُ الْأَسْنَى فَأَظْلَمَتِ الدُّنَا وَمَادَ مِنَ الْعِلْيَاءِ وَالْمَجْدِ أَرْكَانُ^(٦)
تَخَطَّفَهُ رَيْبُ الْمَنُونِ مُحَايَلًا عَلَى غِرَّةٍ إِنْ الْمَنُونِ لِحَوَانُ^(٧)
فِيَالِكَ مِنْ رُزْءٍ عَظِيمٍ وَحَادِثٍ يَعِزُّ لَهُ صَبْرٌ وَيَعْوِزُ سُلْوَانُ

وقد ذهب يقيم الدنيا ويقعدها لموت ابن روجار الثانى وأنه حرى أن تهمل له العيون وتحترق الأكباد وتعظم الأشجان وأن تبكى عليه خيماته وقصوره وسيوفه ورماحه وأن تعاف

(١) الخريدة ١/٤٦٧.

(١) الخريدة ١/٤٦٧.

(٢) خبا: خفت. الأسنى: على الضوء، الدنى:

(٢) قُطُّ هُنَا: انطفأ.

جمع دنيا، ماد: مال.

(٣) الردى: الهلاك. الرهط: الجماعة والعشيرة.

(٤) محاتلاً: مخادعاً.

(٤) ما أسطا: ما أشد بطشك.

خيله اللجم والأرسان، وما نواح الحمام إلا له، وما كان أفضع يومه، لكأنه كان يوم الحشر. كل ذلك ولا يرجع أبو الضوء إلى نفسه ويستنكف من تقديم هذا العزاء للملك نصراني. وتوقف قليلا لتحدث عن محمد بن عيسى ومراثيه.

محمد^(١) بن عيسى

هو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم يقول القفطي عنه: «من أهل صقلية من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم ماهر فيها قيمٌ بها مذكور بين الحكماء هناك بأحكامهما»، ويقول العماد نقلا عن ابن بشر: «كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس، منجم، لغارب (لكاهل) الفصاحة متسنم، في ملتقى أولى العلم كمي (شجاع) معلم (معروف). ويقول إن ابن بشر أورد من شعره ما يهز أعطاف القلوب مراحا (مرحا) ويدير على الأسماع من الرحيق المختوم راحا. ويعجب العماد بمراثيه وينقل قطعة طويلة من إحداها، وفيها يقول:

عزَّ العزاءُ وجَلَّ البينُ والجَزَعُ	وحلَّ بالنفسِ منه فوقَ ما تَسَعُ
مَنْ لليتامى وأبناء السبيل وهم	قد ارتَووا من أياديه وقد شَبِعوا
بكنه شمسُ ضُحاهُ واختفتْ جَزَعًا	والفَيْتُ تحتِ سِترٍ للغميم تَطَّلُعُ
سعوا مشاةً وهم في الزَّيِّ أَغْرِبَةٌ	مسوَدَةٌ من وراء النعشِ تَتَّبِعُ
ولم يكن لهم بالعيدِ مَنْ فَرَحَ	ولا لهم في التسلُّ بعده طَمَعُ

فالعزاء في موت هذا الشخص صعب إذ عظم فيه الجزع وحلَّ بالنفس حزن لا تطيقه. ويكي فيه الشاعر مواساته لليتامى وأبناء السبيل والبؤساء الذين طالما أسبغ عليهم من أفضاله، ويقول إن الشمس توارت باكية وراء سحاب لتطلع على جنازته الضخمة، وقد سعت الجموع وراء نعشه تلبس السواد بعد أن كانت تلبس البياض وكأنما كانت حائم وانقلبت غربانا، وجاء العيد سريعا فلم يفرحوا فيه ولا فزعوا إلى شيء يتسلون به، إذ غمرهم لموته حزن شديد. ويقول إن أعماله الطيبة ستفسح له في الفردوس الأعلى:

جاءت ملائكة الرضوانِ مُعلِّمَةً بأنه لجنان الخلد مرتفع

والخريدة ٣٤/١ وما بعدها

(١) انظر في ترجمة محمد بن عيسى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي (طبع ليبزج) ص ٢٨٩

وقد أعدت له أعماله عُرفًا
يا فجعةً لم تدع في العيش من أرب
أضرمت نارا على الأحشاء مُوصدةً
فيها لأنفس أهل الفضل مُرتبَع^(١)
وُغصّةً في لهاه ليس تُبتلَع^(٢)
أكبأدنا في لظى أنفاسها قَطَع

فملائكة الرضوان نزلت لتستقبله وتأخذه إلى الرفيق الأعلى وجنان الخلد، إذ أعدت له أعماله الخيرة بها عرفا في عليين. ويعود على بن عيسى إلى التفجع على الميت قائلا إن الفجعية فيه لم تدع في الحياة من أمل فقد ماتت معه كل الآمال، وأودع موته غصصا لا يطبق أحد ابتلاعها، وقد أضرم في الأحشاء نارا متقدة تتقطع في لظاها الأكباد حسرة عليه. ويختار العماد من مرثية ثانية لمحمد بن عيسى مقاطع، وفيها يقول:

شهابُ المنايا من ساء الردى انقضا
بكته المذاكي المُقرباتُ وقطعتُ
وكادت سيوفُ الهندُ لتندقُ حَسرةً
شهدنا على قربٍ بمشهد موتهِ
أعادَ سرورَ العيدِ حُرنا مماته
وركنُ المعالي والجلال قد انفضا
شكائمه إذ منه أُعدمتِ الرِّكضا^(٣)
وأجفانها تنشقُ عنها لكي تُنضى^(٤)
مشاهد لم تُحطِ القيامة والعرضاً
ومبرمُ أمرٍ فيه حوله نُفضاً

فشهاب الموت قد انقض على هذا الميت من ساء الهلاك، وانهدم بذلك ركن المعالي والجلال، وإن الخيل الكريمة أو المكرمة لتبكي فروسيته، وقد قطعت الشكائم، إذ لم يعد يركض عليها لقتال أعدائه، وإن سيوف الهند لتندق حسرة عليه، وإن أعمادها لتتنشق عنها لكي ينتضيها فارسها المغوار. ويصف الشاعر جنازته ويقول كأنها كانت يوم الحشر ازدحاما وهولا، وأعقب موته العيد فلم يعرف الناس فيه سرورا ولا استطاعوا أن يبرموا أمرا من أمورهم، إذ انتابهم حزن عميق. ويصور الشاعر مدى الخسارة فيه قائلا:

لقد مات فيه عُدّةٌ أيُّ عُدّةٍ
وأبصارنا كانت تسامى له وقد
وقد كان طرفي ليس يُغضى على القُدَى
لنا فَعِدْمنا كل عيشٍ به يُرَضَى
غدا الكلُّ منا طرفه اليوم قد غَضّا^(٥)
فأضحى على أقدائه اليوم قد أغضى^(٦)

فقد ماتت في هذا الفقيد عُدّة ضخمة للمسلمين في صقلية النورمانية، إذ عدم الشاعر وغيره

(١) مرتبَع: مقام طيب.

(٢) لهأة كل ذى حلق: الجزء المشرف عليه في

أقصى سقف الفم.

(٣) المذاكي: الخيل. المقربات: المعدة للركوب

(٤) أجفانها: أعمادها. تنضى: تسَل

(٥) غصّ الطرف: خفضه

(٦) أغضى يغضى: أغمض

من المسلمين هناك كل عيش كانوا يقتنعون به وبعد أن كانت أبصارهم تتطلع إلى الفقيه معلقة به أمانيتها أخذت اليوم تغض منها خشوعا، وكان طرف الشاعر لا يفضى على القذى فأصبح اليوم يفضى على أقداء كثيرة.

٢

شعراء الزهد والوعظ

زاهد الأمة الأول وواعظها الرسول ﷺ وتلته طبقات من الزهاد والوعاظ كانت تفرح وعظها وزهدا بالعبادة والنسك، ونجدهم في جميع البيئات الإسلامية، وفي كل زمن. وتموج بمواعظهم وكلماتهم الزاهدة الكتب من مثل البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وزهر الآداب للحصري، وتجري على ألسنة الشعراء في صقلية الإسلامية أبيات تتصل بالوعظ والزهد، من ذلك قول أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الغني المقرئ الواعظ^(١):

أيا من نال في الدنيا مناهُ تأهب للفراق وللرحيل
ولا تفرح بشيءٍ قد تناهى فما بعد الطلوع سوى النزول

وهو ينصح من نال في الدنيا كل أماله أن يتأهب لفراقها بالصلاة والنسك، ويقول له لا تفرح بشيء بلغ نهايته، فلم يعد أمامك بعد المنزلة التي صعدت إليها إلا النزول إلى قبرك الموحش. ويقول جعفر^(٢) ابن الطيب الكلبي:

ومغتبط بعيشٍ غير باقٍ يروم سلامةً تحت الهلاك
ألا يا حارٍ قد حارت عقولٌ وعُلت بالقليل عن الحراك
وقد نصبت لك الدنيا شباكا فإياك الدنو من الشباك

وهو يعجب لمن يفرح بعيش لا يدوم وكأنه يروم سلامة تحت هلاك محقق، ويعجب لأناس غرهم ما حصلوا عليه من قليل في الدنيا فسكنوا إليه ولم يتحركوا لقضاء ما عليهم من الحقوق لربهم، وينصحهم أن لا يقتربوا من شباك اللذات والشهوات التي نصبتها لهم الدنيا، حتى لا يقعوا فيها عن غير بصيرة. ويقول أبو عبدالله محمد بن قاسم بن زيد اللخمي الكاتب القاضى مناخيا ربه^(٤):

(٣) حار: مرخم حارث

(١) الخزينة ١١٠/١

(٤) الخزينة ١١٨/١

(٢) الخزينة ١١٤/١

يَارِبُّ صَفْحَا وَغَفْرَانَا وَمَعْدَرَةً
لِمَذْنِبٍ كَثُرَتْ مِنْهُ الْمَعَاذِيرُ
يُبْكِيهِ إِجْرَامُهُ طَوْرًا وَيُضْحِكُهُ
رَجَاؤُهُ فَهُوَ مَحْزُونٌ وَمَسْرُورٌ

وهو يطلب من الله الصّحف والعفو والغفران لما ارتكب من الذنوب، ويفكر في أمره فيراه يبكي لكثرة ذنوبه ويضحك لرجائه لربه، وكأنه يجمع بين نقيضين، فهو دائما محزون لمعاصيه ومسرور لما يأمل عند الله من العفو والمغفرة، ولأبي حفص عمر بن حسن بن الطبريق، وكان من أهل الدين والورع والعفاف^(١):

سِيلْقَى الْعَبْدُ مَا كَسَبَتْ يَدَاهُ
وَيُسْأَلُ عَنِ ذُنُوبٍ سَالَفَاتٍ
وَيُقْرَأُ فِي الصَّحِيفَةِ مَا جَنَاهُ
فِيَبْقَى حَائِرًا فِيهَا دَهَاهُ
فِيَاذَا الْجَهْلُ مَالِكٌ وَالتَّمَادَى
فَعَوَّلَ فِي الْأُمُورِ عَلَى كَرِيمٍ
وَأَمَّلَ عَفْوَهُ وَأَفْرَعَهُ إِلَيْهِ
وَلَيْسَ يَخْتِيبُ مَخْلُوقٌ رَجَاهُ

وهو يقول إن كل إنسان سيحاسب يوم القيامة وتعرض عليه صحيفة حاملة إليه ما كسبت يده في دنياه، ويسأل عما ارتكب من ذنوب وأثام فيُرتج عليه، ويختار فيما اقترفه، وواجب أن لا يتمادى الإنسان في غيه ويذكر الجحيم المعدة للعاصين، ولا ييأس من رحمة ربه الكريم قابل الذنب والتوب الذي يعفو عن عباده الآثمين، ولا يخيب مخلوق رجاءه. ويقول أبو عبدالله بن الطوبى^(٢):

يَحِبُّ بَنُو آدَمَ رَبَّهُمْ
وَأِبْلِيسُ قَدْ شَرِبُوا بَغْضَهُ
وَلَكِنَّهُمْ بَعْدُ يَعْصُونَهُ
وَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يُطِيعُونَهُ
فِي هَذَا التَّنَافِي فَمَا بِالْهَمِّ
يُرُونَ الضَّلَالَ وَيَأْتُونَهُ

وهو يعجب لمن حوله، فهم يعلنون حبهم لربهم ويعصونه، كما يعلنون بغضهم لإبليس وطيعونه، وإنه لتناقض ما بعده تناقض، فما بالهم يرون الضلال وانحرافه بهم عن الطريق المستقيم ويأتونه. ويقول في مقطوعة ثانية^(٣):

لَوْ قَلَّتْ لِي أَيُّ شَيْءٍ
النَّاسُ طَرًّا أَفَاعٍ
تَهَوَّى؟ لَقَلَّتْ خِلَاصِي
فَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ^(٤)

(٣) الخريدة ١/٧٢

(٤) مناص: ملجأ

(١) الخريدة ١/١٠٦

(٢) الخريدة ١/٦٤

نَسُوا الشَّرِيعَةَ حَتَّى تَفَامَزُوا بِالْمَعَاصِي
يَاوِيحِهِمْ لَوْ أَعَدُّوا لَهَوْلَ يَوْمِ الْقِصَاصِ

وهو يقول إن المجتمع فسد، والناس فيه جميعاً أفاع ويتمنى منهم الخلاص، إذ نسوا الشريعة وأوامر الدين وإنهم ليتغامزون على ارتكاب المعاصي في غير خوف من الله ولا من يوم القيامة يوم يؤخذ العاصون بالنواصي والأقدام ويقول: ياويحهم لقد كان حرياً بهم أن يُعدّوا ليوم القصاص، يوم يُسأل كل شخص عما قدمت يداه. ويبدو أن ظاهراً من التصوف كان قد دخل صقلية الإسلامية في زمنه، فأناس يلبسون مرقعات الصوف، وأناس يغنون على صفوف الذكر، وآخرون يصبحون ويرقصون، فقال^(١):

ليس التصوف لبس الصوف ترقرعه ولا بكازك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خائفاً لله ذا ندم على ذنوبك طول الدهر محزونا

فالتصوف ليس لبس مرقعات الصوف واللبكاء حين سماع المغنين والرقص والطرب وأن يقع المتصوف مغشياً عليه أو كالمغشى كأنه صار مجنوناً، بل التصوف الصفاء الديني واتباع الكتاب والسنة والخوف من الله والندم على الذنوب. ومن الوعاظ قبل العهد النورماني عمر بن خلف بن مكى، وسنفرده بكلمة، ويقول ابن القطاع^(٢):

تنبّه أيها الرجل النؤوم فقد نجمت بعارضك النجوم
وقد أبدى ضياء الصبح عما أجنّ ظلامه الليل البهيم^(٣)
فلا تغررك يا مغرور دُنْيَا غرور لا يدوم بها نعيم^(٤)
ولا تخبط بمعوج غموض فقد وضع الطريق المستقيم

وهو يقول تنبه أيها الرجل الذي اعتاد النوم عن أداء فروض دينه وعبادة ربه، فقد ظهرت نجوم الشيب بعارضيك. وأبدى ضياء الرشد عما أجنّ ليل الشباب البهيم من ظلام الغى، فلا تغتر يا مغرور بدنيا خادعة لا يدوم بها نعيم ولا تخبط - كالأعمى - في طريق معوج غامض، فقد وضع أمام عينيك الطريق المستقيم. ونلم بعمر بن خلف بن مكى وماله من مواعظ.

(٣) البهيم: المعتم

(٤) غرور: خادعة

(١) الحريدة ٧٢/١

(٢) الحريدة ٥٥/١

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكي، منشؤه ومرباه وشيوخه في صقلية وفي مقدمتهم ابن البر اللغوي، وعليه تخرج ويذكر في مقدمة كتابه اللغوي النفيس: «تثقيف اللسان» أنه عرضه عليه فما أقره أبقاه وما أنكره أخلا الكتاب منه، وأدى به فقهه وعلمه إلى تولى منصب القضاء في بلده، وقد خرج منها إلى تونس قبيل استيلاء النورمان عليها، واستوطنها وولى قضاءها وخطابة جامعها، وينقل العماد عن ابن القطاع تقديمه له بقوله: «انتقل إلى تونس، وولى قضاءها، وهو فقيه محدث، خطيب، لغوي، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مروى، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة، تُعجب رواته، ومن قوله:

يا حريصاً قطع الأيام في بؤس عيشٍ وعناءٍ وتعَبٍ
ليس يعدوك من الرزق الذي قسم الله فأجمل في الطلُب

وهو يدعو إلى القناعة والزهد والرضا بما قسمه الله للإنسان، فإن أحداً لن يصيبه ضياع، بل الكل سيكفل له رزقه، ولا داعي للعناء الشديد في طلبه ولا للحرص أكثر مما ينبغي، فما قدر لك سيأتيك. ويقول مذكراً بالموت داعياً إلى التقوى والعمل الصالح:

عجباً للموت يُنسى وهو ما لا بُدَّ مِنْهُ
كيف تنساه وقد جا ءتكَ رُسلٌ من لُدُنِهِ
سوف تلقى الويلَ إن جئ تَ بعذرٍ لم تُبَيِّنِهِ
وترى جسمك في النا ر غدا إن لم تُصْنِهِ
والذي ينجو من النا ر أخو التقوى فكُنْهِ

وهو يعجب لمن ينسى الموت وهو مكتوب على الإنسان، وقد جاءته رسل من لدن الله تهديه إلى الرشاد، ويقول إن من لا يستطيع أن يقدم عذراً عن سيئاته سيقى الويل والعذاب الشديد، ومن لا يصون جسمه بالعمل الصالح ستكون النار مصيره، إذ لا ينجو منها إلا أخو التقوى والعمل الصالح، وحرى بك أن تسلك مسالك التقوى والهدى، فإن في ذلك الفوز الكبير. ويدعو إلى العزلة عن الناس والاكتفاء بأقل ما يمكن من العيش وبمصاحبة الكتب، ولا تعلق رجاءك بأحد، يقول:

٦٤٦ وكتابه تثقيف اللسان مطبوع بالقاهرة بتحقيق الدكتور رمضان عبد التواب

(١) انظر في ابن مكي الحريدة ١٠٦/١ وإنباه الرواة للفظي ٣٢٩/٢ والمكتبة الصقلية ٥٩٧.

اجعلْ صديقَكَ تَفْسَكَ وجوفَ بيتِكَ جِلْسَكَ^(١)
 واقْنَعْ بِخُبْزٍ ومِلْحٍ واجعلْ كتابَكَ اُنْسَكَ
 واقطعْ رجاءَكَ إلا ممن يصرفُ نَفْسَكَ
 نَعِشْ سَلِيماً كَرِيماً حتى توافيَ رَمْسَكَ^(٢)

وهو ينصح الإنسان أن لا يتخذ صديقا له إلا نفسه، فليس من صديق حقيقي تستطيع الاستعانة به حين يلم بك خطب من الخطوب، بل إنه ليدعوه إلى اعتزال الناس جميعا ولزوم بيته، حتى لا يصيبه أذاهم، وينصحه بالزهد في متاع الحياة والرضا بأقل القليل: بخبز وملح فهما حسبه، وهما يكفيانه أن يريق ماء وجهه في طلب ما فوقها من طيبات الدنيا. ويقول له: اكتف بالكتاب، واتخذ صديقك وأنيسك فإنه سيضيف إليك معرفة، ولن يؤذيك أى أذى ولن يضرك أى ضرر، وينصحه أن يقطع رجاءه من الناس، فليس بينهم من يحقق له رجاء إلا إذا ألجأته الضرورة لمن يصرف أمره، ويقول له إذا اتبعت هذه النصيحة من الزهد في متع الحياة وعشت متقشفا ترضى بكسرة أو قطعة من الخبز واكتفيت بإدامها من الملح، ولم تتخذ لك صديقا سوى الكتاب، ولا أملت من أحد شيئا عشت أسعد السعداء حتى وفاتك. ويقول:

مَنْ كان متفردا في ذا الزمان فقد نجا من الذلِّ والأحزان والقلِّقِ
 تزويجنا كركوب البحر ثم إذا صرنا إلى وليدِ صرنا إلى الغرقِ
 وهو يمتدح العزلة والانفراد عن الناس حتى عن تكوين الأسرة، ويتمثل الزواج كركوب البحر ومخاطره من العواصف، ويتصور الأولاد ومطالبهم ومتاعبهم في الحياة عواصف ماتي تتناول راكب البحر وسفينته، حتى يغرق.

٣

شعراء التفجع والحنين واللوعة

استحالت صقلية في العهد الإسلامي إلى جنة فيحاء من جنات المسلمين بمدنها وحصونها التي تُعد بالعشرات، بل بالمئات، وبحقولها وزروعها من كل صنف، وبحداثتها وثمارها من كل لون، وبأزهارها الأرجة التي تعطر جميع الأنحاء فيها والأرجاء. وبينما كانت تعيش في أمن ورفاهية إذا أمراء الطوائف يقيمون لهم فيها عروشا وإمارات ويدب بينهم الشقاق وتتكاثر الفتن. ويشهر الإخوة المسلمون السلاح بعضهم على بعض، ويسلل ابن الثمنة حاكم بلرم الخائن إلى روجار وروبرت ابني طنكراد (Tancrede) أميرى قَلُورِيَّة وأنكَبَرْدَة في جنوبي إيطاليا مستنجدا بها ضد

(٢) رمسك: قبرك

(١) حلسك: مكان إقامتك لا تبرحه

حاكم مدينة قصر يانة وينجده روجار، ويستولى على مسيني ثم على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وكان ذلك إنذاراً باحتلال الجزيرة وضياعها، فلم يمر عشرون عاما حتى أخذت مدنها فيها تتساقط في حجر روجار، وأصبح المسلمون يقبلون أكفهم على ما أنفقوا فيها وأنشوا بها من حضارة وقصور وزروع وحدائق ذات بهجة، وأخذ كثير من علمائها وشعرائها يودعونها، منهم من يتماسك مثل أبي العرب^(١) الصقلي الذي رحل عنها إلى الأندلس منشدا:

أهمُّ ولى عَزْمانَ عَزَمَ مشرِّقٌ وأخَرُ يُغْرِى هَمَّتِي بالمغربِ
ويا وطني إن بِنْتَ عَنِّي فإِنِّني سأوطُنُ أَكوارَ العِناقِ النجائبِ^(٢)
إذا كان أصلى من ترابٍ فكلُّها بلادى وكلُّ العالمين أقاربي

وكان لا يدري حين فراقه للجزيرة هل يتجه شرقا أو يتجه غربا إلى الأندلس، واختار الاتجاه إلى الغرب. ويتخيل كأن الوطن هو الذى بان عنه بكثرة ما فيه من الفتن والحروب مما اضطره إلى مفارقتها وتوطئه في رحال الإبل النجيبة باحثا عن وطن جديد، ويخفف الأمر على نفسه، فإذا كان أصله من تراب وكل البلاد تحمل التراب فهي جميعا بلاده، وكل من فيها من العالمين من أقاربه وذوى رحمه، وإذا كان أبو العرب متماسكا هذا التماسك في اضطرابه إلى النزوح عن وطنه فقد كان هناك من لا يزال يحن إليه مثل عمر بن رحيق الذى نشأ وترى في بلرم، حتى إذا استولى عليها روجار والنورمان رحل عنها، ولا تزال ماثلة نصب عينيه، ولا يزال يحن لها ولأهله، ولا يزال حباها يضطرم في حنايا فؤاده وهتف^(٣).

نفسى تحنّ إلى أهلى وأوطانى وهل رأيتم محبًّا غير حنانِ
كانوا بقلبيّ أحياءً وفى كَيْدِي نارٌ تأجج من شجوى وأحزانِ
عزَّ اصطبارى لرُزءٍ قد دُهِيتُ به وبانَ عني لُوشكِ البَيْنِ سُلوانِي

فهو يحن إلى أهله ووطنه حين ملتاغ فقد هما، وكانوا ماثلين تحت بصره وفي قلبه، فغابوا عنه وتأججت نار بكبده من شجوه وأحزانه التى يكتوى بها فؤاده، ويقول إنه رزء ومحنة دهنه، وعز عليه أن يتحملها وكيف يتحملها؟ لقد نفذ صبره، وفارقه سلوانه، ولم يبق له إلا الحزن الممض والشجوى الموجع، وأكبر شاعر توجع وتفجع على فقدان صقلية ابن حمديس، وهو جدير بأن نفرده بترجمة.

(٣) الخريدة ٢/٢٨٩

(١) الخريدة ٢/٢٢٢

(٢) بنت: بعدت. أكوار جمع كور: الرّحل

ابن^(١) حمديس

هو عبدالجبار بن حمديس، ولد بمدينة سرقوسة الواقعة شرقي صقلية سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٦ م لأسرة على شيء من الثراء والعلم والفضل، واختلف مثل لداته إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم، وتحول منه إلى حلقات الشيوخ، ونزعت به ميوله إلى الأدب والشعر، ولم تلبث موهبته الشعرية أن تفتحت، وتكونت له رفقة كانت تأخذ بنصيب غير قليل من اللهو والذهاب إلى الحانات والأديرة لشرب الخمر والمتاع بالغناء. وكانت بلرم قد سقطت في يد روجار والنورمان، وبدا في الأفق أنهم يتأهبون للاستيلاء على سرقوسة وغيرها من بلاد الجزيرة، وأخذ يعد نفسه - مثل أقرانه - للقائهم برا وبحرا، ونفاجأ به في نحو الرابعة والعشرين من عمره يُصِرُّ على أن يغادر بلده إلى الأندلس مارا بإفريقية وتيم بن المعز مرورا سريعا وربما كان السبب الحقيقي في مغادرته بلده لا فرارا من معركة صقلية وسرقوسة مسقط رأسه ضد النورمان، ولكن طلبا للشهرة في عالم شعري مزدهر، يأمل أن يتحقق له فيه ما يتمناه لنفسه من مكانة أدبية مرموقة بين شعراء الأندلس الذين كانت أسماؤهم تدوي في العالم العربي، ولعله من أجل ذلك اختار النزول بأهم بيئة شعرية في الأندلس، إذ كان بها أكبر راع للشعر بين أمراء الطوائف، ونقصد المعتمد بن عباد. وحط رحاله في بلدهته إشبيلية سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م ولزم باب قصره فترة، وبعث إليه ببطاقة شعرية يقول فيها:

أيا مُوَلِّي الصُّنْعِ الجَمِيلِ إذا اُنْتَشَى ويا مُسَدِّي النَّيْلِ الجَزِيلِ إذا صَحَا
وفي كل أرضٍ من نَدَاهُ حَديقَةٌ تَضَوُّعٌ مَسْكَانُ نُورِهَا وتَفْتَحُهَا^(٢)
أُفْرَدُ بِالْحَرَمَانِ من كل عاطلٍ تَطَوَّقُ من نُعْمَاكَ ثم تَوْشَحُهَا^(٣)

وما إن قرأ المعتمد البطاقة حتى أعجب به واستدعاه محفلا باستقباله ومنحه جائزة سنوية، وطلب إليه أن يظل في حضرته، وظل بها يدحه بقصائد طوال في مناسبات مختلفة، وكانت إشبيلية في عهد المعتمد تعيش عيشة لاهية فشارك في هذه المعيشة وتمتع بمناظرها الطبيعية البديعة، وأتاه نعي أبيه فحزن لوفاته وراثه بقصيدة باكية استهلها بقوله:

(١) انظر في ابن حمديس، الحريدة ١٩٤/٢ والذخيرة ٣٢٠/٤ وابن خلكان ٢١٢/٣ والجزء الأول من عنوان الأريب لمحمد التيفر (طبع تونس) بتحقيقه وتقديمه له ودراسة الدكتور إحسان عباس في كتابه العرب في صقلية ص ٢٣٥ وديوانه
(٢) تضع: ذكت رائحته
(٣) تطوق من الطوق وتوشح من الوشاح كتابة عن إسباغ نعمه عليه

أتانى بدار النوى نعيه فيا روعة السمع بالداهيه

وكان يسمع أخبار مسقط رأسه سرقوسة ومقاومتها العنيفة للنورمان بقيادة بطلها ابن عباد فيهتز طربا ويكبر عنده الأمل في ضرب النورمان الضربة القاضية، وبالمثل كانت تأتبه أخبار ابن حمودة في قصر يانة ومنازلته للنورمان منازل ضارية، فيعظم عنده الأمل في طرد النورمان من صقلية، ويرسل إلى قومه يحضهم على جهاد العدو الفاشم ويحثهم على منازلة العدو منازل حاسمة، فلها عليهم جميعا حقوق، وواجب أن ينصروها ولا يخذلوا حتى الذمء الأخير:

ولله أرض إن عديتم هواءها
وعزكم يفضي إلى الدل والنوى
أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم
تقيد من القطر العزيز بموطن
فأهواؤكم في الأرض منثورة النظم
من البين ترمى الشمل منكم بما ترمى
وكم خالة جداء لم تغني عن أم^(٣)
ومت عند ربع من ربوعك أو رسم
فإن يستجيز العقل تجربة السم

وهو ينصح الباقيين بعده في سرقوسة وغير سرقوسة أن لا يفكروا في مبارحتها حتى لا يعدموا هواءها الذي يتنفسونه ويحيون به ولا عزهم الذي يعيشون فيه وإلا تحولت حياتهم إلى ذل وهوان، وهل تغني أرض عن أرض الوطن، وهيب بكل صقل مسلم أن يقيد نفسه بموطنه، وأن يظل يدافع عنه حتى يموت عند ربع من ربوعه أو عند رسم من رسومه، ويحذره من الهجرة عنه والإفضاء إلى غربة، هي سم قاتل. ويعتذر لنفسه مرارا عن مبارحته الوطن في وقت محنته وأنه لا يستطيع العودة إليه، لما يقدق عليه المعتمد بن عباد من أفضال متصلة. وفي رأينا أن العائق الأهم عن عودته لوطنه إنما كان المجد الأدبي الذي أخذ شعره يحققه له في الأندلس، وبذلك تحققت أمنيته الكبرى من مبارحة الوطن. وكأنا قيده هذا المجد باشبيلية فلا يستطيع منها خلاصا وحراكا. وتسقط في أيدي النورمان سرقوسة مسقط رأسه سنة ٤٨٢ وتسقط بعدها قصر يانة سنة ٤٨٤ ويتلاشى من نفسه ونفس كل صقل الأمل في استرداد صقلية، وينظم قصيدة جنائزية يودعها بها قائلا:

أعاذل دغنى أطلقي العبرة التي
لقدرت أرضي أن تعود لقومها
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت
إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت
عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
فساءت ظنوني ثم أصبحت يائسا
مساجدها أيدي النصارى كنائسا
مع الصبح والإمساء فيها النواقسا

أرى بلدى قد سامه الروم ذلّةً وكان بقومى عزّة متقاعسا^(١)
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذلك الخوف منهن لابساً

وهو يقول لصاحبه دعنى أذرف الدموع التى لم يعد لها حابس من الصبر، إذ ظل سنين طويلة يظن أن صقلية ستعود إلى أهلها، فخاب ظنه، بل لقد أصبح يأساً يأساً مرا، فقد صهلت خيل النورمان فى كل أنحاءها، وسيمت هوانا ما بعده هوان، وأى هوان أعظم على نفس المسلم من أن يرى بلده تسقط فى حجر النصارى ويحولوا مساجدها كنائس، ويضرب الرهبان فيها التواقيس صباح مساء، لقد سام الروم صقلية الإسلامية ذلة ماثلتها ذلة، صقلية التى كانت تعزّز بمسليها عزة لا تدانيها عزة. وكان النورمان فى جنوبى إيطاليا إذا سمعوا اسمها ارتعدت فرائصهم خوفا ورعبا، فإذا الأمر ينعكس ويصبحون هم مصدر الخوف لأهل صقلية الإسلامية.

وفيض ابن حمدىس فى الحديث عن بأس أهل صقلية المهيضة وجهادهم اليائس حين كانوا يسوقون أمامهم فرائس قلووريةً وبطارقتها وأشائوسها أسارى منكسين ومعهم نساؤهم حواسر. وليتأن الجيش النورمانى فى خطوه، فإنه يمشى فى بلاد تحت أرضها شجعانها الذين طالما أذلوا أهل قلووريه، ولو شقت القبور عنهم لخرج إليهم منها أسد كاسرة غاضبة، غير أن الغيل غابت ليوثه فتبخرت فى أرجائه الذئاب.

ويحدث عقب ذلك أن يخلع يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد سنة ٤٨٥ من إمارته فى إشبيلية وينفيه إلى أغمات فى مراكش ونرى ابن حمدىس يزوره بها ويحاول أن يخفف عنه مادهاه، منشدا ردا على شعر كتب به إليه مستيئسا:

أتيأسُ فى يومٍ يناقضُ أمسهُ وزهرُ الدرارى فى البروج تدور^(٢)
ولما رحلتم بالندى فى أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبيرُ
رفعتُ لسانى بالقيامة قد دنتُ فهذى الجبالُ الراسياتُ تسيرُ

رضوى جبل بالمدينة، وثبير: جبل بمكة، وهو يقول له ينبغى أن لاتيأس من أن يتغير الحال، فالكواكب الساطعة لا تثبت بل تدور فى بروج متعددة، ولما رحلتم بالوجود الفياض فى أكفكم وكأنما تحرك جيلا المدينة ومكة المقدسان صحت إن القيامة قد دنت فيها هى الجبال الراسيات تسير كما جاء فى الذكر الحكيم نعتا ليوم البعث.

ويتصل بأبى القاسم بن عشرة قاضى «سلا» على المحيط ويتجه إلى بجاية بالجزائر ويمدح المنصور بن الناصر بن علئاس (٤٨٣ - ٤٩٨ هـ) ويولى وجهه نحو المهديّة وتقيم بن المعز بن

(٢) الدرارى: الكواكب.

(١) متقاعسا: متخلفا.

باديس ويلقاه لقاء حسنا، ويظل يتردد بين البلدتين ويضفي مداخله على يحيى بن تميم بن المعز وابنه من بعده على وحفيده من بعدهما الحسن ويكتظ الديوان بمدحهم جميعا، ومدح بنى خراسان في تونس ويظل يتردد على بجاية بمدح بعض رجالاتها من بنى حماد. ومنذ أن هاجر من صقلية لم ينسها يوما وظلت لا ترح ذاكرتة حتى أنفاسه الأخيرة، ويخصها بعد سقوطها بأشعار مؤثرة ييكها ويكي أيام مجدها، من ذلك قصيدة بائية في مدح تميم بن المعز وفيها يقول:

تدرعتُ صبرى جنةً للنوائبِ فإن لم تُسلم بإزمانٍ فحاربِ

وهو إنما يتدرع صبره ويحتمى به استسلاما، فإن الزمان أدار معه معركة حامية الوطيس فقد فيها كثيرا من أهله وحماة بلده، بل لقد فقد بلده نفسها غير مبق له على أى شىء، إلا أن يتنقل في صحارى إفريقيا وسهوبها ولا أليف ولا أنيس:

ولا سكنٌ إلا مناجاةً فكرةً كأنى بها مستحضرٌ كلَّ غائبِ
ولما رأيتُ الناس يُرهبُ شرهم تجنبتهم واخترتُ وخذةً راهبِ
وحتى خيالٌ كنت أحظى بوصله له فى الكرى عن مضجعى صد عاتبِ
فهل حالٌ من شكلى عليه - فلم يزر - قضاةً جسمى وأبيضاض ذوائبى^(١)

فلم يعد له سكن يسكن إليه إلا أن يناجى فكره مستحضرا ما غاب عنه خاليا بنفسه ومعتزلا للناس، بل لكأن كل شىء من حوله يعتزله حتى الطيف الذى كان يسعده وصله في نومه وأحلامه انقطع عن مضجعه صاداً عنه لا يزوره، فهل تغير شكله عليه وماحدث له من نحافة جسمه وابيضاض شعره، فلم يعد يعرفه ولم يعد يلقاه، ويذكر إخوان الصفاء وليالى الأنس بصقلية. وكان يتمنى لو استطاع الرجوع، غير أنها أصبحت مسترقة للأعداء:

ولو أن أرضى حرةً لأتيتها بعزمٍ يعدُّ السيرَ ضربةً لازبِ
ولكنَّ أرضى كيف لى يفكها من الأسرِ فى أيدى العلوج الغواصبِ
لئن ظفرتُ تلك الكلابُ بأكلها فبعد سكونٍ للعروق الضوارب^(٢)

فعائنه إلى أرضه أنها استعبدت وأصبحت ملكا لغير أهلها، بل لقد أسرت ووضعت الأغلال في أيديها وأرجلها، ولم تعد تستطيع خلاصا ولا فكاكا ولا تحررا، وقد ظفرت بها كلاب الأعداء تنهشها بعد جهاد أهلها لهم جهادا عنيفا، ويمر بفتنتهم قبل غزو النورمان مرورا خاطفا ويفيض

(١) قضاة: نحافة. عن هود مقاومة أهل صقلية بعد الجهاد العنيف.

(٢) كنى ابن حمديس بسكون العروق الضوارب

في الحديث عن بطولتهم في حروب الروم وكيف كانوا يموتون موت البسلاء الشجعان:

يموتون موت العزِّ في حومة الوغى إذا مات أهل الجبن بين الكواعب^(١)
 حشوا من عجاجات الجهاد وسائداً أعدت لهم في الدفن تحت المناكب^(٢)
 فغاروا أقول الشهب في حفر البلى وأبقوا على الدنيا سواد الغياهب^(٣)

لقد أبلوا بلاء عظيماً في حرب الروم قديماً بقلورية وحديثاً بصقلية، وما منهم إلا من يقدم نفسه فداء لوطنه، وما منهم إلا من واقع الروم مرارا وتكرارا حتى اجتمعت له وسادة من غبار وقائعه أعدت له ليتوسدها في قبره، وما زالت بهم البطولة المتناهية حتى أفلوا - أقول النجوم - في حفر البلى مخلفين وراءهم على آفاق الدنيا سواد حزن وثكل لا يشبهه سواد. ويلتفت إلى داره الغريقة بنوطس وسرقوسة، ويستودعها الله ويستمطر لها السحاب الممطر، وهتف:

ألا في ضمان الله دار بنوطس ودرت عليها معصرات الهواضب^(٤)
 أمثلها في خاطري كل ساعة وأمرى لها قطر الدموع السواكب^(٥)
 أحن حنين النيب للموطن الذي مغاني غوانيه إلى جواذبي^(٦)

وهي تمثل له ليل نهار وصباح مساء في خواطره، بل إنها لتمثل له كل ساعة وكل لحظة، وينرف لها الدموع السواكب مدرارا، ويحن - حنين الإبل - للموطن الذي نبتت فيه، وإن مغانيه ومنازله لتجذبه إليها جذبا، وكأنما أودعها فزاده ويريد أن يسترده، حتى لا يجبا جسمه بدونه ودون خفقاته. وله في صقلية قصيدة ثانية هائية يستهلها بقوله:

قضت في الصبا النفس أوطارها وأبلغها الشيب إنذارها^(٧)

وهي أشبه بشريط لذكريات صباه وشبابه في سرقوسة، ويذكر مجالس لهوه بها ويتذكر ليلة ساهرة والندامي من حوله وساقية تزرر بكفها أزارها:

تدير بياقوتة درة فتغمس في مائها نارها

ويشربها رفاقه، ويمعنون في الشرب، ويذهبون إلى دير، يحتمسون الخمر، ويطلق في وصف

-
- (١) حومة الوغى: أشد موضع في الحرب.
 (٢) عجاجات جمع عجاج: غبار.
 (٣) الغياهب جمع غيهب: الظلام الشديد.
 (٤) المعصرات: السحب الممطرة والهواب.
 (٥) أمرى: أسكب وأذرف.
 (٦) النيب: النوق. مغاني: منازل.
 (٧) أوطارها جمع وطر: البغية والحاجة.

مجلس الطرب، ويذكر ما فيه من الغناء والرقص والشموع المتقدة قائلًا:

لقد سَكَنْتُ حركاتِ الأسي قِيانُ مُحَرِّكٍ أوتارها
فهذي تعانقُ عُوْدًا لها وتلك تقبِّلُ مِزْمارها
وراقصةٍ لقطتُ رِجْلُها حسابَ يَدِ نَقَرْتُ طَارها
وقُضِبَ من الشمعِ مصفرةٍ تريك من النار نُورها
كأنا نَسَلْتُ آجَالها عليها فتمَحَقُ أعمارها

وإن للغناء هناك من القيان لنشوة تسكن حركات الأسي في النفس أو تارها بما تصب في الآذان من نعم بديع، والعود مسند إلى صدر قينة كأنه يعانقها، وقينة أخرى كأنها تقبِّل مزارها، وراقصة كأنما تلتقط قدمها نقر صاحبها بيدها على طارها، متفننة في حركاتها، والشموع متقدة طول هذا المجلس اللاهي، وكأنما آجالها تنقص أعمارها تدريجًا حتى تتمحق. وينتهي شريط الذكريات ويخُنُّ إلى صقلية مستودع صباه وشبابه وليالي أنسه ومرحه، ويهتف.

ذَكَرْتُ صَقْلِيَّةً وَالْأَسَى يهيجُ للنفس تَذْكَارها
ومنزلةً للثصابي خَلْتُ وكان بَنُو اللُّهُو عُمَارها
فإن كنتُ أُخْرِجُ من جَنَّةٍ فإني أُحَدِّثُ أخبارها
ولولا ملوحةُ ماء البُكا لَخَلْتُ دموعي أنهارها

وهو يذكر صقلية ومنازل صايه وشبابه فيها والحزن يقطع نياط قلبه عليها حسرة ولوعة، ويقول إنها لجنة عظيمة أخرجت منها، وحرى بي أن أُحَدِّث أخبارها وأبكيها بدموع غزار، ويذكر أنه سببكيها عشرات السنين بأنهار من الدموع لا تتوقف سيولها. ولعلها توقفت قليلا حين أهبه انتصار جيش الحسن بن علي بن يحيى بن تميم سنة ٥١٧هـ/١١٣٧م على جيش الملك روجار الثاني في وقعة الديماس بمنتصف الطريق بين المنستير والمهدية على الساحل التونسي، وكان روجار يبغى الاستيلاء على المهديّة، فرُدَّ جيشه مدحورا إلى صقلية، وأشاد ابن حمديس بهذا الانتصار إشادة رائعة في قصيدة له رائية يمدح بها الحسن بن علي بن تميم مهنتا له بالنصر على الأعداء من النورمان:

ليهنك فتحٌ أولغَ السيفَ فيهمُ ولاح بوجه الدّين من ذكره بِشْرُ^(١)

(١) أولغ السيف فيهم: جعله يلغ ويشرب من

ودون مَرامِ الرُّومِ فيما سَمَوْا له
وكم من فريقٍ منهمُ إذ تمزَّقوا
فَسَلَّ عنهمُ الديماسُ تسمَعُ حديثهمُ
هناك شفى الإسلامُ منهمُ غليلُهُ
قلائدُ أعناقِي هي القُضْبُ البُتْرُ^(١)
له غَرَقٌ في زَحْرَةَ الموجِ أو أُسْرُ
فهم بالمواضي في جزيرته جُزْرُ^(٢)
بطعنٍ له بَتْرٌ وضربٌ له هَبْرُ^(٣)
خنازيرٌ شَبَّتْ حَرَبُها أُسْدُ هُصْرُ^(٤)
أعاربُ جَدُّوا في جهادِ أعاجمِ

وهو يهنته بهذا الانتصار المروِّع الذي جعل السيوف تلغ في دمائهم وتشرب منها مرتوية، وكأنما ابن حمديس نفسه هو الذي يشرب منها محاولاً أن يشفى غليله من التورمان وقد استبشر وجه الدين بشرا لا يماثله بشر. ويقول إن فيما تطلعوا إليه من استيلائهم على الساحل التونسي قلائد من الرماح استأصلت أعناقهم وتمزقوا كل ممزق، ووقع منهم فريق في قبضة الأسر وفريق غرق في زخرة الموج، وسَلَّ عنهم حصن الديماس الكبير يجيك أن عيداً كبيراً نصب لنحرمهم وذبحهم في جزيرته بالسيوف المواضي، وهناك شفى الإسلام غليله وغيظه بطعن وضرب يقطعان أجسادهم تقطيعاً، ومحجِّي الجيش الباسل إنه جيش أعارب صدقوا في حملتهم العنيفة على الروم الخنازير، وإنما لحملة أُسْدٍ افترستهم، أسد أعز الله بها الدين الخفيف. والقصيدة من أرواح القصائد في جهاد أعداء الإسلام وتدمير جيوشهم تدميراً لا يكاد يبقى منهم باقية.

ولم يلبث أن عاد إلى حزنه على وطنه الضائع، وعاد إلى شعوره بغربته، وهو شعور لازمه طول حياته، وطالما رددته في قصائده وجاءه وهو في سن الثمانين نعى ابنته، ولم تكن تظن أنه على قيد الحياة فبكاها بقوله:

أراني غريباً قد بكيت غريبةً كلانا مشوقٌ للمواطن والأهل
بكتني وظننتُ أنني متُّ قبلها فعشتُ وماتت - وهي محزونة - قبلي

واجتمع عليه حزنه في فلذة كبده بحزنه في وطنه أو فردوسه المفقود، ودار به العام فلبى نداء ربه سنة ٥٢٧ هـ/١١٣٣ م في بجاية، وما تعرف العربية شاعراً عاش يتفجع على وطنه ويحجُّ إليه كما تعرف في ابن حمديس، إذ كان يشعر شعوراً عميقاً بأنه كان كل شيء في دنياه، بل كان فردوسه الذي أخرج منه كما أخرج أبوه آدم قديماً من الفردوس، ويشعر كأنما أتى ذنباً كبيراً كذنب أبيه آدم، بل لكأنما غربته المستمرة وتطوافه في الأفاق إصرار منه على ارتكاب هذا الذنب:

(١) القضب البتر: السيوف الفاطمية.

(٢) المواضي: السيوف. جزر جمع جزور: الذبيح.

(٣) هبر: قطع، واستئصال.

(٤) هصر جمع هصور: مفترس.

ألم تر أننا في نوى مستمرّة نروح ونغدو كالمصرّ على الذنب

وديوان ابن حمديس ديوان ضخم وقد حققه تحقيقا دقيقا الدكتور إحسان عباس وهو يوج بقصائد المديح كما يوج بقصائد الغزل ووصف الطبيعة والخمر ومجالسها، وكأنما يريد أن يفرق فيها لوعاته على ضياع صقلية وظلت تشتعل في دخائله إلى آخر أنفاسه، وللصيد أراجيز بديعة في الديوان وبالمثل للرثاء وخاصة لمن فقدهم من أسرته وذوى رحمه، ونلمح من حين إلى آخر مقطوعات في الزهد لعله نظمها بأخرة من حياته، وغرض وحيد من أغراض الشعر العربي لم ينظم فيه بيتا هو الهجاء، إذ كان يترفع عن الشتم والبذاءة، يقول:

إني امرؤ - وطباع الحق تعضدني - مطهر العرّض لا أدنو من الدّنس
فما أحرّك في فكّي عن غضبٍ لسان منتهش الأعرّاض منتهس

فهو طاهر النفس يسمو عن كل دنس فضلا عن دنس الهجاء، وهو حلیم لا يقضب غضبا يخرج عن طوره، فينتهك أعرّاض الناس ويمضغ لجومهم موجدةً وغلا، وليس ذلك عن ضعف في شاعريته، بل هو العفو والصفح عن مقدرة، يقول:

إني امرؤ لا ترى لسانيّ منظرًا ما حييت هجّوا
كم شاتم لي عفوت عنه مصمًا في اللسان نهوا
لو شئت صيرت بالقوافي غارة هجّوى عليه شعّوا
ومزق القول منه عرّضا لا يجد المدح فيه رّفوا

فقد عاهد نفسه أن لا ينظم هجاء طوال حياته، وأن يعفو عن من يشتمه، ولو أراد لتتابع على خصمه حملات شعواء من هجائه ولزق عرضه وهتكه هتكا لا يمكن أن يرفوه مديح أو يرتق فتوقه صنيع. وفي ذلك دلالة واضحة على نبيل خلقه وسمو نفسه.

وكان خياله خصبا إلى أبعد حد مما جعله ينفذ إلى كثير من الصور المبتكرة الفريدة، وهي تلقانا في جميع أعرّاض شعره مفاجئة لنا، مما يحدث تأثيرا بعيدا في نفس قارئه كقوله في الغزل:

زادت على كحلّ الجفون تكحلا فيسم نصل السهم وهو قتل

والشعراء قبله كانوا يتحدثون عن سهام العيون وأنها قاتلة، وزاد ابن حمديس أن سهام عيون صاحبتة أشد قتلا وفتكا بما أضافت إليها من تكحل جعلها سهاماً مسمومة، ما إن تصيب شخصا حتى تفقده حياته، ويقول في نهر لعله نهر إشبيلية مصورا خرير مياهه:

جريح بأطراف الحصا كلما جرى عليها شكّا أوجاعه بخريره

وهو خيال بديع، فأطراف الحصا كأنما تجرح النهر وكلما جرى عليها شكا جاعه بخيريه،
 وكأنما هي أوجاع ابن حمديس لفراقه وطنه إلى الأبد، ومن تلك الصور الفريدة قوله في
 البرد:

نَشَرَ الْجَوُّ عَلَى الْأَرْضِ بَرْدًا أَيُّ دَرٍّ لِنَحْوِ لَوْ جَمَدٌ

وكان السماء لا تمطر بردًا وإنما تمطر دررا تطوّق عقودها جيد الطبيعة بلألئها المتساقطة من
 أصداف السحب. ويطول بنا القول لو أردنا أن نعرض فرائد ابن حمديس ما يفجأ به قارئه
 من الصور والمعاني المبتكرة. وهو بحق يعد في الذروة الرفيعة لا من شعراء صقلية وحدها، بل
 أيضا من شعراء العرب والأندلس قاطبة.

الفصل الخامس النثر وكتابه

نشاط النثر

من المؤكد أن النثر الفنى من رسائل وغير رسائل نهض في صقلية كما نهض الشعر، وكما نهضت العلوم الدينية، ومن يرجع إلى الخريدة ومن ترجم لهم من الشعراء هناك يجده يذكر في عنوانات الشعراء أنهم كتاب، ذكر ذلك مع خمسة عشر شاعراً، ونوه في غير كتاب بإحسانه في الكتابة كأن يقول في البشيري الشاعر الكاتب: «باعه في الترسل أمد، وخاطره في النثر أحد» ويقول في علي بن الحسن بن الطوبى: «مؤلف دفاتر، ومصنف جواهر، ومقلد دواوين» يشير بذلك إلى أنه من كتاب الدواوين، ويصف نثره بأنه جواهر، ويقول عن ابن القرقورى إن ابن القطاع أتى على نظمه ونثره كثيراً، كما يقول إن ابن القطاع ذكر عن هاشم بن يونس الكاتب أنه صاحب ترسل ومقامات وعن محمد بن الحسن الطوبى أنه كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء مترسلاً شاعراً، ويقول القفطى عنه: عالم بالرسائل، وكلامه في نهاية الفصاحة، وشعره في غاية الملاحاة، وله مقامات تُزرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع».

وكل ذلك يدل على أن صقلية حازت لنفسها في النثر نشاطاً واسعاً، بل إن من كتبها - كما يقول القفطى - من كانت مقاماته تزرى بمقامات البديع، وسقطت تلك المقامات من يد الزمن كما سقطت معها الرسائل البديعة شخصية ورسمية مما دَبَّجَه الكتاب هناك قبل العصر النورمانى وأيضاً ما كتبوا ودَبَّجُوا من أعمال أدبية متنوعة، ولولا أن ابن بسام ترجم لبعض من غادروا صقلية من الكتاب البارعين قبيل العهد النورمانى مثل ابن الصباغ، وسنخسه بكلمة. وأيضاً لولا أن ابن بشرى المهدي زارها في عهد روجار الثانى واحتفظ في ترجمته لبعض شعرائها - وأقصد عيسى بن عبد المنعم وابنه محمد - ببعض رسائلها ما استطعنا التعرف بوضوح على ما حظى به النثر هناك من نهضة ورقى، وسراها واضحين عند كاتبها المتأخر ابن ظفر، وسنفرده بترجمة قصيرة.

أما عيسى بن عبد المنعم فيذكر العماد عن ابن بشرى أنه: «كان كبير الشأن، ذا الحجّة والبرهان، فقيه الأمة، وأمثلة الأئمة، له المعاني الأبيكار البعيدة مرامى مرامها، والألفاظ التى هى

كالرياض جادها هامي رهامها (غيتها)» ويقول العماد إنه أورد من كلامه ما يأسو سماعه الكلوم (الجروح)، ويجلو سناً إحسانه العلوم، ويحكي درر الأصداف ودرارى (كواكب) النجوم.. ويذكر له العماد فصولاً من ثلاث رسائل، أولها في براعة صديق له في خطه الرائع وبلاغته البديعة، ومن قوله فيها:

«نظرت من الكتاب إلى خط موصوف، معتدل الحروف، أملس المتون، مفتح العيون، لطيف الإشارات، دقيق الحركات، لين المعاطف والأرداف، متناسب الأوائل والأطراف، يروق العيون حسنه وشكله، ويعجز المحاول صنع، متضمنا معاني كأنها رقية الزمان، وصمته (الهيئة) الأمان.. وقلت سبحان ربى القيوم: ﴿أفسحراً هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ أكل هذا الإحسان، في طاقة الإنسان.. ثم رجعت إلى نفسى، وثاب إلى جسى، فقلت عند سكون جاشى (نفسى) وثبوت طيشى، وإفراخ روعى وذهاب دهشى، إن من دبّ في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بلبانها، وجرع من درّها (لبنها الكثير) وصحب السادات مقتبلاً (شاباً) والأبجاء مكتهلًا لخلق أن يحل من الفضل وسائطه ويجمع قطريه، بل يستولى على غواربه (أعاليه) ويملك شطريه».

وانتخاب الألفاظ واضح في الرسالة مع المقدرة البيّنة على وصف الخط البديع وما يحسن عيسى بن عبد المنعم من وصف بلاغة صاحبه، مع ما يزين وصفه من سجع أحياناً وهو سجع طبيعى لا تكلف فيه، إذ يأتي به في تضاعيف الكلام دون محاولة التعمّل له، وليس ذلك كل ما يزين به وصفه فهو يزينه بعبارات تصويرية كوصفه المعانى في رسالة صاحبه بأنها «رقية الزمان وصمته الأمان» وكوصف صاحبه بصور متلاحقة إذ يقول إنه «دبّ في الفصاحة ودرج في وكرها، ورضع بلبانها، وجرع من درّها. ويقتبس العماد فصلاً من رسالة ثانية لعيسى بن عبد المنعم أسقط فيها حرف الألف واللام مشيداً في مطالعها:

«رقتى نحوك سيدى وسندى، ودُخرى وعَضدى، ومن بَدَّ^(١) وبرزَّ.. فُدْدره، ووحد عصره، وغريب زمنه، ونسيج وحده، مدّ ربى مُدَّتكَ في مربوب (دائم) نعمته، ومدد نُصْرَتَه، وكبّت من نكب^(٢) عن ودك بعظيم دُخْرَه (المُدْخِرْكَ) ومخوف زجره.. وسوَعَكَ من ضَرْب^(٣) نعمه بهنيّه، ومَرِيّه^(٤)، ومتعك من موفور قَسْمَه^(٥) بحميده، ومزيده».

ولا يحسّ القارئ للرسالة بما تكلفه عيسى بن عبد المنعم من إسقاط الكلمات ذات الألف واللام لمقدرته البيانية، وكأن كتاب صقلية لم يتأثروا في كتابة رسائلهم بأسلوب السجع الذى عمّ في المشرق منذ أواسط القرن الرابع الهجرى، بل تأثروا أيضاً بما شاع في كتابة الرسائل من

(١) بدّ: سبق. بز: غلب.

(٢) نكب: انحرف.

(٣) الضرب: غسل النحل.

(٤) مريه: سائغه.

(٥) قسمه: ما يقسمه للناس.

ضروب تصنع مختلفة كأن تخلو الرسالة من حرف معين كهذه الرسالة أو يطرد حرف معين في جميع ألفاظها على نحو ما صورنا ذلك مرارا في عرضنا للكتابة الأدبية بالمشرق وفي الأندلس. وأحكم عيسى بن عبد المنعم في هذه الرسالة انتخاب الألفاظ والأسجاع، ولم يكتب بالسجع من حيث هو، بل طلب فيه القصر حتى تكون الرسالة وافرة النغم، وعنى في السجع بتصاوير كثيرة. ورسالة عيسى بن عبد المنعم الثالثة في العتاب وفيها يقول:

«لولا أن ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب.. لكان لنا وللرئيس مجال واسع ومتسع بالغ فيما أتاه، إن لم نقل جناه، وفيما وعد فأخلف، إن لم نقل الذنب الذي اقترف، ومهما أجللنا قدره عن أن ينسب إليه خلف الوعد وإن كان جليلا، ما عذره إذ لم يكتب بوجه العذر أنه ما وجد سبيلا، وقد كنا نتوقع تداني العناق، فصرنا نتنعق بأمانى التلاق».

والعناية بانتخاب الألفاظ والأسجاع واضحة في الرسالة، مع رهافة الشعور في مثل قوله: «ذنوب الحبيب، تصغر عن التأنيب» وقوله: «كنا نتوقع تداني العناق، فصرنا نتنعق بأمانى التلاق».

وقد ترجمنا لابنه محمد بين الشعراء وعرضنا هناك إشادة ابن بشرون به في الفصاحة والقفطى به في علوم الأوائل، وألمنا ببعض مراثيه البديعة، وساق له العماد عن ابن بشرون فصولا من ثلاث رسائل، مثل أبيه، وأولاها في التشويق إلى صديق عزيز، ومن قوله في صدرها:

«أخى ومولائى علّ الدهر يجمعنا بمنزلٍ عن جميع الشرِّ مُبتعدٍ
شوقى إلى لقائك شوق الظمان إلى الماء الزلال (العذب الصافي) وارتياحى إلى ما يرد من تلقائك ارتياح السقيم إلى الصّحة والإبلال، وتلهفى على فراقك تلهف الحيران، وتأسفى على بعدك تأسف الوهلان، لكننى إذا رجعت إلى شاهد العقل، وعدلت إلى طريق العدل، يمازج قلبى سرورا، ويخالط شوقى بهجة وحبورا.. فأفزع إلى الدعاء لمقدر الأمور، الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) أن يحسن لنا العقبى، ويقضى لنا بالحسنى، ويسبل علينا من العافية سترا سابقا ضافيا، ويوردنا من السلامة موردا سائعا صافيا، وأن يقرب بك الاجتماع، حيث يوجد الاستمتاع، بما تقرب به الأعين ويلذ الأسماع».

ومحمد لا يقل عن أبيه عيسى بن عبد المنعم في براعة اختياره للألفاظ وروعة انتخابه للتصاوير، مع حسن الأسجاع وكأنه يريد أن يرضى الأذن بما تجد في الألفاظ من جمال الجرس، وفي المعانى والتصاوير من الحسن الفائق، وربما تفوق في ذلك كله على أبيه. وله من رسالة في عتاب بعض خلصاته:

«قد عاملنى في مشاهد هذه الأيام، التى قمعت (قهرت) الخاص والعام، بأشياء لو جرت بينى وبينه على خلوة لعددتها من لذيذ الأنس، لكنها أتت فى الملاء (أشراف الجماعة) بما ألم النفس، واحتملت ذلك منه، رجاء أن يقلع عنه، فازداد لجاجة، وازدادت حراجة (ضيقا) حتى استفحل

التُّغاة (التافهون) علىّ بسبب ذلك المزاج، واستنسر البغاث إلى وهزّ الجناح.. وأعرضت عن أشياء لو شئت قلتها، ولو قلتها لم أُبق للصالح موضعاً، وأنا أحرص على صحبته ومن يرهاها حق رعايتها.. فأحب أن يحسن الظن بي، والذكر عني، فإن فعل ذلك فعل الأشكل (الأشبه) به، والأليق بأدبه، والأولى بجميل مذهبه. وقد أطفأت هذه المعاتبة ناراً مؤصدة (مطبقة) وبردت من صدري غلّة موقدة».

والرسالة عتاب لشخص لا يعرف متى يمازحه، إذ يمازحه بما قد يقبله منه في الخلوة، أما أمام الناس فإن المزاج يصبح كأنه هزم به وسخرية منه، ولذلك يؤلمه، ومع ذلك يقول إنه يحتمله رجاء أن يكف عنه ولكنه لا يكف، حتى تعاضم من لا وزن لهم عليه، وحتى «استنسر البغاث» وهو مثل يضرب لمن استشعر العزة بعد الهوان، إذ البغاث من أضال الطير فشعر كأنه أصبح نسراً. وأضاف محمد بن عيسى إلى ذلك إضافة بديعة، إذ قال إنه استنسر وهز الجناح كناية عن شعوره الشديد بالعزة إزاءه. ومع ذلك كله يصفح محمد بن عيسى عن هذا الصديق الثقيل، إذ التزم له التجلّة أمام الناس. والرسالة تتخفف من السجع أحياناً، مما يدل على أن محمد بن عيسى لم يكن يتكلفه دائماً، وكأنما كان يجرى على لسانه عفواً. وله من رسالة في الشكر لشخصية مهمة يثنى على حضرتها قائلاً:

«إن غرّس فضلها السابق إليه أثمر عنده شكراً وحمداً، وأثبت لديه محبة ووداً، وإنه من موالاتها لعلى صراط مستقيم، ومن الإقرار بفضلها لعلى منهج قويم، ومن الدعاء لها لعلى حال مقيم، وكيف لا يكون كذلك وقد صيره سالف إحسانها في الرّق، ومَلِكه فارطُ امتنانها ملك المستحق، فهو لا يفتر من جميل شكرها لساناً، ولا يخلى من خلوص ودّها جناناً».

والفصل - على شاكلة فصليه السالفين - في دقة اختياره للألفاظ والأسجاع حتى تنزلق عن الألسنة في يسر، وحتى يحسن وقعها في الأسماع، وهو لذلك لا يزال يلائم بين اللفظ واللفظ، وبين المعنى والمعنى وبين الصورة والصورة، حتى يلذ الآذان والألسنة والأذهان حين تقرأه أو تصغى إليه. وحرى بنا أن نتوقف قليلاً بإزاء الكاتبين الصقليين: ابن الصباغ وابن ظفر.

ابن الصباغ الصقلي^(١)

هو أبو عبدالله محمد بن الصباغ، من أدباء صقلية وكتابها البارعين، تألق اسمه فيها لأواخر عهد بنى أبي الحسين الكلبيين بالقرن الخامس الهجري، وحين اضطربت صقلية بعدهم واستقل

محمد بن علي بن الصباغ الكاتب وقال عنه: كان في عهد ابن رشيّق المتوفى سنة ٤٥٦ وقال كانت بينها مراسلات.

(١) انظر في ترجمة ابن الصباغ الذخيرة ٣٠٨/٤ ولعله هو نفسه الذي نقل ترجمته العماد عن الدرّة الخطيرة لابن القطّاع ص ٨٣ باسم أبي عبدالله

كل قائد فيها ينطقته غادرها إلى الأندلس، واستوطنها، وفيه يقول ابن بسام: «أحد أدياء وقته المشاهير، وكلامه يعرب عن أدب كثير وحفظ غزير». ويعرض طائفة من فصول رقاعه ورسائله، من ذلك فصل من رقعة وجه بها إلى ابن الشامي متولى الأرض التي كانت تملكها الدولة في المدن التي افتتحت عنوة، راغبا في أن يكلم له أمير صقلية صمصام الدولة آخر الأمراء الكليبيين الذي تولى الجزيرة بعد أخيه الأكلح سنة ٤٢٧ كي يحرر له أرضا للدولة كان اشتراها مما عليه من ضربيتها، وربما من دين للدولة كان لا يزال مدينا به، ويمضى صدر الرسالة على هذا النمط:

«إذا الحاجات عني بها رجالُ وكان قضاؤها صعبَ المرامِ
وقلتُ حيلةَ الشُّفَعَاءِ فيها فحاولُ نُجْحَهَا بِنَبِيِّ الشَّامِ
درارِيُّ العُلَا حَفَّتْ بِبَدْرِ منيرٍ في سماءِ المجدِ سامِ

ويعلم - أدام الله تمكينه - مذهبي في التخفيف، وحمل ثبوت التكليف، إلا فيما تلجىء الضرورة إليه، ويحمل الاضطهاد عليه، وكنت من ترفيه النفس عن الامتحان، والقناعة بما تسمح به نفسُ الزمان، في حالة يعلم - حرس الله مجده - تقلبي في أثنائها، ومقيلي (قبولتي) في أفياتها (ظلالها) حتى عرض لي من سوء القضاء، ما أجار بالنار من الرَّمضاء (شدة الحر) فسؤل لي الحرص الذي ما شمت (رأيت) له بارقا، والطمع الذي ما ركبت قط له عاتقا (منكبا) النظر في إحداث بستان في خرائب أخريت مالي، وشغلتي عن كثير من أشغالي، وصرتُ منفقاً ما جمعت في الغربة والوطن، وكسبت في الإقامة والظن (الارتحال) بين جدار فيها أهده، وغار أهدمه، وأرض أرفع مرة وهادها، وأخفض تارة نجادها (مرتفعاتها) حتى استوت ساحاتها وتوطدت (تمهدت) وغابت مغاراتها وتغطت، وانكشطت أسنمتها وانحطت... ولا يُقدَّر على سقي دوحاته، ولا يتوصل إلى إحياء مواته، إلا بدولاب (ساقية) وجابية (حوض) يأخذان الماء أخذة رابية (شديدة).. ومتى أعلم الأمير أن هذه الخرائب التي عانى وليه غراسها لا يرتجى لها عمارة تعود بفائد، ولا ينتفع الدبوان منها بدرهم واحد، وساكنوها منذ أعوام ما أدى واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولا رتاجا (بابا كبيرا) فهم بين قوم يأكلون الشجر قبل الثمر، ويرعون الأب (الحشائش) قبل الحب».

والرسالة قطعة أدبية بديعة، وهي مكتوبة بأسلوب السجع الذي يتع اللسان بنطقه والآذان بسماعه، وتكتظ بصور تتعاقب فيها ومشاهد بديعة كمشهد إصلاح ابن الصباغ للأرض وإعدادها للزرع بين جدار يهدمه وغار يردمه ونجاد يخفضها ووهاد يرفعها حتى غابت مغاراتها وانكشطت أسنمتها وانحطت. فهو ليس حائك أسجاع وراسم تصاوير فحسب، بل هو أيضا

مصور يعرف كيف يعرض عليك مشهدا بأكمله كأنك تبصره وتراه. وهو إلى ذلك خفيف الظل يعرف كيف يسرك بالكلم، وكيف يورد عليك ما يضحك سنك على نحو ما صور ساكني أرضه وبستانه، فمنذ أعوام لم يؤد واحد منهم خراجا، ولا صنع لبيته بابا ولا رتاجا، وإتهم - لفقرهم المدقع - ليأكلون الشجر والأبّ ومراعيه كالأنعام قبل الثمر والحب. ولا يد أن ابن الشامي ومصصام الدولة ضحكا طويلا حين وصلا في الرسالة إلى هذا المشهد المضحك . وهذا الجانب الفكه في ابن الصباغ اتضح بصورة أوسع في رسائل ساقها له ابن بسام حين استوطن الأندلس وصحب هناك الأديب أبا حفص القعيني، وكانت فيه بدوره دعابة، وحدث أن ماتت له هرة، فجلس للغزاء عنها تماجنا، فما كان من ابن الصباغ إلا أن كتب له رسالة عزاء فيها، ومن قوله في بعض فصولها:

«الحياةُ لبني الدنيا مراحل، والمنايا لجميعهم مناهل، والأعمار، كالأسفار، منها القريب الوصول، العاجل الحلول، ومنها البعيد الشُّقة، الشديد المشقَّة، أنفاس معدودة، وآجال محدودة، وليس يَناج من محتومها أحد، ولا لمخلوق منها مُلتحد (ملجأ). وانتهى إلى - جعل الله الصبر الجميل سبيلك، وأظفياً ببرد السُّلوان غليلك - نبأً جَلَل، وخطب معضل، وهو مصابك بشقيقة نَفْسك، وموضع راحتك وأنسك، وربيبه جِجْرُك وحجرتك، وآلة حِيطتِكَ على حِيطتِكَ (قمحك) وكالئة (حافظة) ذخائرك وقُتَيْتِكَ (ما تفتنيه) واستحواذ فجيعتها على لُبِّك، وما عاجلتها به من ذُرور (ما يُدْر من العطور على الميت) وحَنوط (ما يخلط من الطيب بأكفان الموتى وأجسادهم) وإشفاقك من إسلامها إلى التراب، وإبقائك إياها طويلا في المحراب، وألَيْتِكَ (حَلْفُكَ) عليها لتدعونَ إلى جنازتها مَأْتما، يَشْقُقْنَ (أى النساء) عليها جُيوب المِدارع (فتحات الثياب) ويُفَضْنَ من الوجد بها غُرُوبَ (دلاء) المِدامع، ويُعولن عليها بالصراخ والنِّباح، ويُذَرِن (يرسلن) لمصرعها شعورهن مع الرياح».

وابن الصباغ عَزَى أبا حفص القعيني في هَرَّتِه، وكأنها كانت شقيقة نفسه وموضع راحته وأنسه، كما يقول، أو كأنها كانت محبوبة عزيزة، وهو يبدأ رسالته بأن هذه حالة الدنيا فهي دائيا إلى فناء، أنفاس معدودة وآجال محدودة، ويدعو الله له أن يلهمه الصبر الجميل على فجيئته ويظفئ ببرد السلوان غليله، ويعزِّيه في ربيبة حجره وحجرتِه، وإضافة حجرته إلى حجره بدبعة. وتراءى لنا في الرسالة روح الفكاهة والسخرية مجسدة، وخاصة حين يحدثنا أن القعيني أقسم ليعقدنَ لها مَأْتما كبيرا تُشَقِّ فيه جيوب النساء على محبوبته ويفضن الدمع ويرسلنه وجدا على هرتِه. ويُعولن عليها بالصراخ والنواح. ولا نصل إلى هذه القطعة من الرسالة حتى نغرق في الضحك، ويستمر قائلا للقعيني:

«ولستُ بناسٍ ذكر تلك المُلح التي كتبت لي تصف من أخلاقها وآدابها، والمِدَح التي أوردت

في أعراقها وأنسابها، والغرائب التي ذكرت عن قوتها وأيدها، وجيلها وكيدها، ومكرها بالفار وصيدها.. ذات ناب مطلول (عجيب) وساعد مفتول، وخصر مجدول (صلب) ربانة (ممتلئة) الكاهل، ظمآنة الأسافل، تستضيء من عينيها بأنور من المصباح، وتعتدُّ من مخالبتها بأمضى من السلاح».

وابن الصباغ يستمر في روحه الفكهة، فيزعم أن القعيني طالما حدّثه عن أخلاقها وآدابها وأعراقها وأنسابها ومكرها بالفار وصيدها له في لمحة، ويشيد بجمال تكوينها وقوة بصرها ومخالبتها. وهى روح فكهة بديعة لابن الصباغ، مع القدرة البارعة على انتخاب اللفظة وأختها والسجعة وشقيقتها مع إحكام التصاوير والمشاهد. وحدث أن كانت لصديقه القعيني جارية سوداء كلّف بها ثم باعها، وندم فحاول استرجاعها، فزعم مشترئها أنها حامل، وتولاه الأسف، ونظم في ذلك أشعاراً كثيرة، فكتب إليه ابن الصباغ رسالة فكهة يقول فيها:

«نقل إلى بعض من يعرف أحوالك، ويشارف فعالك خبيراً يُصمّ السَّمع، ويضيقُ الدُّرع (الطاقة الواسعة) وذلك أنك أخرجتَ عن ملكك ضفدعتك المريعة (المفرعة) فتناولها من استحسنتُ غُدْرانه، وبلغك من إقبالها عليه، وانصرافها بكلّيتها إليه، ما أضرم قلبك شوقاً لا تخبو ناره، وسلّ الوجد بها عَضْباً (سيفاً) لا ينبو غراره (حدّه) فأنشرت (بعثت) للناس من نفسك (توبة) الأخيالية، وأحييت لهم منك بحنون (قيس) العامرية، وعضضت على بيئها أناملك، وأنضيت (أهزلت) في طلبها زواملك (إبلك) وأطلت في وصف شوقك لها وأوجزت، وقصدت (نظمت القصائد) في ذكر الأسف عليها ورجزت (نظمت الأراجيز) وجمعت لها من المحاسن ما افترق، وفتحت من البدائع فيها ما انغلق.. فأصبحت والظنون بك مرّجة (متكلمة) والألسنة عنك مترجمة، والأقوال فيك كثيرة، والأيدى إليك مشيرة، فنّهيه (أزجر) قلبك، وراجع لُبك. واذكر خلقها وخلقها، وتأمّل وجهها وعنقها، وانظر خدّها وقدها، وهل شيء مما يستملحُ عندها؟! فهنيئاً أبا حفص راحة بصرك من شخصها المقيت، وفراغ قلبك من الكبد بخلقها المييت.. وكأني بك قد أنشدت بيت ابن الرومي فيمن لا يشبهها إلا في سواد الجلد، ولا يشركها إلا في النسبة إلى الجد، إذ يقول:

أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ صِبْغَةَ حَبِّ القلوبِ والمَدْحِ

هيهات.. ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء قمر».

وابن الصباغ يتهم بصديقه القعيني مراراً وتكراراً، إذ يصور عشقه لجاريته وما يضرم في قلبه من نار لا تخبو، حتى لكأنما بعث من نفسه توبة بين الحمير عاشق ليلي الأخيالية وقيساً عاشق ليلي العامرية، ويذم الجارية ذمّاً شديداً ترويحاً عن صاحبه حتى يسلوها ويمسك عن ذكرها

وينساها كما نسيته. وهو يسوق ذلك في لغة عذبة صافية وفي عبارات مسجوعة مصورة منمقة باللغة الروعة، وراجع القعيني برقعة انتصر فيها لنفسه، فأجاب الصقلي برقعة على شاكلة رقعته السابقة، وإن ما دونه ابن بسام من رقعته ورسائله ليصور للنثر الأدبي في صقلية نهضة وازدهاراً.

ابن^(١) ظفر الصقلي

هو حجة الدين أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المشهور باسم ابن ظفر الصقلي، وُلد بصقلية سنة ٤٩٧ في أيام ملكها النورمانى روجار الثانى، رحل من بلده صغيراً فى طلب العلم، ويقال إنه نشأ فى مكة، ولا نعرف كيف انتقل إليها، وبارحها إلى مصر ثم إلى إفريقيا، وأقام بالمهدية مدة فى زمن الحس بن على بن تميم آخر ملوكها الصنهاجيين، وشهد بها الحروب بين روجار الثانى ملك صقلية والحسن المذكور، كما شهد أخذها منه واستيلاء النورمان عليها سنة ٥٤٣ ورحل إلى صقلية وفيها تعرف على قائد مسلم من قوادها يسمى محمد بن أبى القاسم القرشى، وبقي عنده فترة أكرمه فيها غاية الكرم، مما دفعه إلى تصنيف أربع مؤلفات أهداها إليه جميعاً، ولم يحتفظ الزمن باثنين منها، وهما أساليب الغاية فى إحكام آية ومثنى الاستئناف للمعونة والإشراف، واحتفظ باثنين طبعاً ونشراً هما: أنباء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع فى عدوان الأتباع، وسنلم بها عما قليل، وعاد من صقلية إلى مصر، ورحل منها إلى حلب وأقام فيها بمدرسة ابن أبى عسرون، ووقعت فيها فتنة بين الشيعة وأهل السنة نهبت فيها كتبه، فخرج منها إلى مدينة حماة فصادف من أهلها وطلابها قبولا فسكن بها، ويقول العماد الأصبهاني: «كان إمام وقته فى التفسير والأدب، رأته بحماة مقبياً، ونفوس طلبة العلم إليه هيا (عَطَشَى) وأجرى له راتب فى ديوان حماة، غير أنه كان دون الكفاف»، فلم يزل يكابد الفقر إلى أن لُبى نداء ربه سنة ٥٦٧ للهجرة. وكان قصير القامة تفتحه العين، غير أنه كان علامة فى التفسير واللغة والأدب غزير التأليف والتصنيف، وإن كانت أكثر مصنفاًته ومؤلفاته سقطت من يد الزمن، ومنها فى التفسير ثلاثة كتب: التفسير الكبير وينوع الحياة وإكسير كيمياء التفسير، وحاشية على كتاب درة الغواص للحريرى ردَّ فيها عليه، والمطول شرح مقامات الحريرى، والمختصر شرحها أيضاً، والتنقيب على ما فى المقامات من الغريب، وخير البشر بخير البشر ذكر فيه الإرهاصات التى كانت بين يدي ظهور الرسول ﷺ، وأرجوزة فى الفرائض، وكتاب الاشتراك اللغوى، وكتاب ملح اللغة فيما اتفق لفظه واختلف معناه وكتاب القواعد والبيان فى

١٤١/١ والعقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى
(طبع القاهرة) ٣٤٤/٢ وبغية الروعة للسيوطى ٥٩
والمكتبة الصقلية لأمارى ٦٠٥، ٦٥٩، ٦٦٥، ٦٧١.

(١) انظر فى ترجمة ابن ظفر الحريدة قسم
الشام ٤٩/٣ وابن خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدياب
٤٨/١٩ وإنباه الرواة ٧٤/٣ والواقى للصفدى

النحو. ونلم بكتابه البارعين في الأدب وهما أبناء نجباء الأبناء، وسلوان المطاع في عدوان الأتباع.

أبناء نجباء الأبناء

كتاب تربوى عرض فيه نجابة الصفة من أبناء الأمة العربية في حدائتهم، وأضاف إليهم بعض من عرفوا بنجابتهم في الصغر من الفرس وزراء للعباسيين أو ملوكا في القديم، واستهله بأخبار الفريدة اليتيمة المهداة إلى الأمة الإسلامية محمد ﷺ وبعض ما ذُكر عنه قبل بعثته، تيمنا بذكره العطر، ثم وزع الكتاب على أربعة أصناف ممن رُويت الأخبار عن نجابتهم في صغرهم، والصنف الأول عشرة ممن كرمهم الله بصحابة رسوله، وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب والعباس عم الرسول والحسن والحسين حفيدها والنفس الزكية محمد بن علي ومعاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن الزبير، والصنف الثاني في ذكر طائفة من أبناء الصحابة النجباء وغيرهم مثل عبد الملك بن مروان ويزيد بن المهلب والمأمون، والصنف الثالث للنجباء في الصغر من الزهاد والمتصوفة، والصنف الرابع للنجباء من عرب الجاهلية في الحدادة مثل لبيد ومن ملوك الفرس مثل بهرام جور. ويقول ابن ظفر في مقدمة الكتاب: «وبعد فهذا كتاب أودعته من أبناء نجباء الأبناء ما هو كشررة من ضرام (نار مضطربة) بل كقطرة من رهام (غيت منهمر) لأنى قصدت به تلقيح همة غلام، وتنقيح فطنة كهام (بليد). فغرضه من الكتاب تعليمي، ليعت الهمة في الناشئة بما يعرض عليهم من هم نظرائهم، وليشخذ أذهانهم بما يعرض عليهم من فطن قرنائهم. وأيضاً ليتخذوا من خلقهم وحسن سلوكهم أمثلة رفيعة يقتدون بها في حياتهم، ونضرب لذلك مثلا بما ساقه في الصنف الثاني مما يدل على نجابة الفضل وجعفر ابني يحيى البرمكى ووزيرى هرون الرشيد فيما بعد. وعادة إذا كان الحديث عن شخص يجعل له عنوانا: دُرّة زين لقرّة عين، وإذا كان عن شخصين مثل الفضل وأخيه جعفر يجعل العنوان: درتازين لقرتي عين أى لمسرتي الأب والأم. ويذكر أن ابن صاحبة لأمها سأها عن ابنيها أيها يفضل صاحبه قائلا إن الناس يختلفون فيها منهم من يقدم الفضل ومنهم من يقدم جعفرا، فقالت له: أأحدثك عنها واقض أنت.

«إنها كانا يوما يلعبان في داري، فدخل أبوها يحيى، فدعا بالغداء وأحضرهما، فطعما معه ثم أنسهما بحديثه، فقال لهما أتلعبان بالشطرنج، فقال جعفر وكان أجراًهما: نعم، قال فهل لا عبت أخاك بها قال جعفر: لا، قال: فالعبا بها بين يدي لأرى لمن الغلب، فقال جعفر: نعم - وكان الفضل أبصر منه بها - فجىء بالشطرنج، فصفت بينهما، وأقبل عليها جعفر، وأعرض عنها الفضل، فقال له أبوه: مالك لا تلاعب أخاك، فقال: لا أحب ذلك، فقال جعفر

إنه يرى أنه أعلم بها فيأنف من ملاعبي، وأنا ألاعبه مخاطرة (قمارا) فقال الفضل: لا أفعل، فقال أبوه: لآعبه وأنا معك، فقال جعفر: رضيت، وأبى الفضل، واستعفى أباه فأعفاه. ثم قالت الأم للسائل: قد حدثتكَ عنها فاقض، فقال: قد قضيت لجعفر بالفضل على أخيه، فقالت له: لو علمت أنك لا تحسن القضاء ما حكمتك أفلا ترى أن جعفرا قد سقط أربع سقطات تنزه الفضل عنهن، فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج وكان أبوه صاحب جد، وسقط على التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغلبه والتعرض لغضبه، وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه. والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه: لآعبه وأنا معك، فقال أخوه: لا، وقال هو: نعم، فناصب (عادي) صفاً فيه أبوه وأخوه، فقال السائل [حين سمع منها ذلك] أحسنتِ والله. ثم قال لها: عزمت عليك أخبريني هل خفى مثل هذا على جعفر وقد فطن له أخوه، فقالت له: لولا العزيمة ما أخبرتك، إن أياهما لما خرج قلت للفضل خالية به: ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك؟ فقال أمران: أحدهما لو أنى لآعبته لغلبته فأخجلته، والثاني قول أبي: لآعبه وأنا معك، فما يسرني أن يكون أبي معي على أخی. ثم خلوت بجعفر فقلت له: يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف، وأبوك صاحب جد، فقال: إني سمعت أبي يقول: نعم هو البال المكدود، وقد علم ما تلقاه من كد التعلم والتأديب، ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعب بها، ولا أن يبادر فننكر، فبادرت بالإقرار إشفاقاً على نفسي وعليه، وقلت إن كان توبيخ فديته من المواجهة به. فقلت له: يا بني فإلم تقول: لآعبه مخاطرة، كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله؟ فقال: كلا، ولكنه يستحسن الدواة التي وهبها لي أمير المؤمنين (الرشيد) فعرضتها عليه، فأبى قبولها، وطمعت أن يلاعبنى فأخاطره عليها وهو يغلبني، فتطيب نفسه. فقال لها السائل: ما كانت هذه الدواة؟ فقالت إن جعفرا دخل على أمير المؤمنين، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر، فرآه ينظر إليها، فوهبها له. ثم قالت: قلت لجعفر: هيك اعتذرت بما سمعت، فما عذرك من الرضا بمغاضبة أبيك حين قال: لآعبه وأنا معك، فقلت أنت: نعم، وقال هو: لا، فقال: عرفت أنه غالبى ولو فتر لآعبه لتغالبت له مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه. فقال لها السائل مادحا للأخوين ومعجبا: بَخْ بَخْ هذه والله السيادة، ثم قال لها: أكان منها من بلغ الرشد، فقالت له: يا بني أين يذهب بك؟! أخبرك عن صبيين يلعبان، فتقول أكان منها من بلغ الرشد، لقد كنا نهى الصبي - إذا بلغ العشر وحضر من يستحبي منه - أن يتسم.

وهذه الدرّة - كما يسميها ابن ظفر - أو هذا الخبر عن الفضل بن يحيى البرمكى وأخيه جعفر بلسان أمهما يصور مدى براعة ابن ظفر الأدبية في السرد الأسلوبى لأخبار نجباء الأبناء بحيث لا تجد عنده أى غرابة أى لفظة ولا أى التواء فى عبارة، بل تجد أسلوباً مطرداً متسقاً

يروع بحسن اتساقه، فإذا أنت تركت ذلك إلى ما يشتمل عليه هذا الخبر من تربية وجدته يصور إلى أبعاد حد الفطنة التي ينبغي أن يتحلى بها الناشئة إزاء إخوتهم ورفقائهم بحيث لا يبدر منهم لهم ما قد يؤذيهم، والخبر بحق يجسّد آداب الأخوة كما يجسّد التربية الرشيدة للأم وما أروع قول الأم: لقد كنا ننبئ الصبي - إذا بلغ العشر وحضر من يُستحى منه - أن لا يبتسم». وهى صحيفة تربية بدعية فى آداب الأخوة خاصة وآداب السلوك عامة.

سلوان المطاع فى عدوان الأتباع

كتاب نفيس فى التربية السياسية ترجمة المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، وقد استهله ابن ظفر بشكر القائد الصقلى محمد بن أبى القاسم القرشى الذى صنعه له سنة ٥٤٥هـ ويقول فى خطبته أو مقدمته إنه عمد فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها، ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها، فتوسع فى التعبير بألفاظه عنها والتفنن بقوى فطنته فيها، وكسا جسمها حلل الآداب الملوكية، وقلد عواتقها بسيوف المكاييد الحربية. فالكتاب إذن ليس رواية عن كتب غيره السابقة، بل هو من تأليفه وصنعه نثرا وشعرا وحكما وأمثالا وقصصا، وهو فيه يكثر من ضرب الأمثال تارة على أسنة بعض الحيوانات مثل كليلة ودمنة، وتارة على أسنة شيوخ حكماء ووزراء دهاة من الفرس والعرب، وقد يتوسع بذكر قصص عن ملوك اليونان وبالمثل عن ملوك الفرس. وقد يستطرد من قصة إلى قصة أو من مثل إلى مثل على طريقة كتاب كليلة ودمنة. وإذا كان كتاب أنباء نجباء الأبناء فى السلوك الاجتماعى والخلقى وأدائها فإن هذا الكتاب فى آداب السياسة وما ينبغى أن يكون عليه الحاكم من الرفق بالرعية والعدل والإنصاف وما ينبغى أن يتخلّى عنه من البغى والطغيان والعسف والظلم. والكتاب موزع على خمس سلوانات: السلوانة الأولى فى التفويض، والثانية فى التأسى، والثالثة فى الصبر، والرابعة فى الرضا، والخامسة فى الزهد. وعادة يبدأ السلوانه بأى من القرآن الكريم وبأحاديث نبوية، ويعلق عليها تعليقات طريفة، ثم يفضى إلى غرضه فى الكتاب من ضرب الأمثلة والقصص الحيوانية والإنسانية تبصرة وعظمة للحكام، حتى يتبعوا الصراط السوى فى تدبير حكمهم وشئونهم مع سياسة الرعية سياسة حكيمة محكمة.

وابن ظفر يذكر فى مستهل سلوانة التفويض لأحكام الله قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون التى وردت فى الذكر الحكيم وكيف أن الله تقدس اسمه وقاه سيئات ما مكروا، ويذكر بعض أسجاع وأبيات حكمية، فمن النثر قوله:

معارضة العليل طبيبه... توجب تعذيبه... إنما الكيس (العاقل) الماهر، من استسلم فى قبضة القاهر - إذا التبتست الموارد بالمصادر، ففوّض إلى الواحد القادر.

ومِن الشعر قوله:

ياربِّ مغتبطٍ ومغ جوط برأى فيه هُلكه
علمُ العواقبِ دونه سترٌ وليس يرام هتكه
ومعارضُ الأقدارِ بأل آراءِ سَيِّئِ الحالِ صُنكُه

ويذكر مأزقين لخليفتين: أموى وعباسي، هما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، والمأمون وكيف أن لقاءهما بشخصين محنكين بصراًهما بما ينبغي أن يتخذا من سياسة إزاء باغيين عليهما، أما شيخ الوليد فقد عرض عليه مأزقا ماثلاً لجده عبدالمك بن مروان وكيف أن شيخا كبير السن لقيه وهداه إلى ما ينبغي اتخاذه من السياسة والتدبير حتى ينتصر على عدوه الباغي، وضرب له مثلاً أو قصة عن ثعلبين وحية وكيف أن الباغي تدور عليه الدوائر، وأما شيخ المأمون فضرب له مثلاً من بغي فيروز الملك الفارسي على ملك الهياطلة الذي كان قد أسره في بعض الحروب ورد إليه حرите بعد أن عاهده على أن لا يغزو بلده ولا يقصدها بسوء، ودارت الأيام بعد رجوعه إلى دار ملكه فصمم على غزو ملك الهياطلة وبلاده، وفي طريقة بغي أحد فرسانه على مسكين فقتله، وتصدى له أخوه يريد مصارعتة، وخوفه الناس منه، فقال لهم: دعوني وإياه فإنه على فرس الفرور وأنا على فرس البصيرة، وهو لابس درع الشك وأنا لابس درع الثقة، وهو مقاتل بسيف البغي وأنا مقاتل بسيف الحق، وانتصر الحق على البغي وقتل أخو المسكين الفارس أو الإسوار العظيم من أساورة فيروز. ويقول الشيخ للمأمون إن فيروز لم يتعظ من هذا الحادث ومضى حتى وطىء كثيراً من أرض ملك الهياطلة، والثقيا ودارت الدوائر على فيروز وجنده ثمة بغيه وعدوانه. ولقيت مقالة الشيخ قبولاً لدى المأمون على إرسال الجيوش للباغي عليه، وكان أخاه الأمين الذي نكث عهد أبيه أن يكون المأمون ولي عهده والخليفة بعده، فنكث العهد ونسبت بينها الحرب ضارية وانتصر جيش المأمون وقتل الأمين الذي لم يرع لأبيه عهده ولا خاف تبعة نكته.

وخلال هذه الأمثال أو القصص التي ضربها الشيخان للمأمون والوليد تتعاقب حكم كثيرة طريقة لتوعية الحكام بآداب الحكم وما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم من السياسة الحكيمة للرعية ومع الأعداء. من ذلك قول ابن ظفر: «الرأى سيف العقل - كل رأى لم تتمخض به الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام - من دلائل الوفاء بر الآباء والأهماء وصلة ذوى القربايات - الباغي باحث عن مدية حتفه بظلفه ومتردٌ في مهاوى تدميره بمساوى تدميره - الهوى طاغية فمن ملكه أهلكه - الهوى كالنار إذا تحكمت اتقادها عسر إخمادها، وكالسيل إذا اتصل مده تعسر صده».

ودائماً تلقانا مثل هذه الحكم في الكتاب، وننتقل معه إلى سلوانة التأسى، وقد أدارها على قصة طويلة لسابور الملك ووزيره وحيله واستطرد في أثنائها لقصتي فتى وقتاة وفرس وخنزير وينثر في تضاعيفها كثيراً من الحكم السياسية والاجتماعية مثل قوله: مَنْ غرس العلم اجتنى النباهة، ومن غرس الزهد اجتنى العزة، وَمَنْ غرس الإحسان اجتنى المحبة، ومن غرس الحلم اجتنى الحكمة، ومن غرس الوقار اجتنى المهابة، ومن غرس المداراة اجتنى السلامة، ومن غرس الكبر اجتنى المقت، ومن غرس الحرص اجتنى الذل، ومن غرس الطمع اجتنى الخزي، ومن غرس الحسد اجتنى الكمد. ويقول: تتميز الملوك على السوق بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذات الملك تتميز بخمس خصال: رحمة تشمل الرعية، وتغطية تحوطهم، وصوله تدب عنهم، وفطنة يكيد بها الأعداء، وحزم ينتهز به الفرص. ويقول في سلوانة الصبر التالية:

صبر الملوك ثلاثة قوى: قوة الحلم وثمرتها العفو، وقوة الكلاءة (الرعاية) والحفظ وثمرتها عمارة المملكة، وقوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات وفي حُماة المملكة الإقدام في المعارك، ولا يراد من الملك الإقدام في المكافحة، فإن ذلك من الملك تهور وطميش وتغريب، وإنما شجاعته ثباته حتى يكون قُطباً للمحاربين ومعقلاً للمنهزمين، وهذا ما دام بحضرته من يثق بذبه عنه، ودفاعه دونه، وحمايته له. ومما قاله في هذه السلوانة: صلاح الملك: الرفق بالرعية، وأخذ الحق منها بغير عنف، والتودد بالعدل، وأمن السبل، وإنصاف المظلوم.

وتلى ذلك سلوانة الرضا، ومن حكيمه فيها الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولا يخفى عن البصائر الباصرة - أمران يسلبان الحر كمال الحرية: قبول البر، وإفشاء السر - كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار - مَنْ لزم الرقاد عدم المراد - كن من عينك على حذر، قرب جنوح حين (هلاك) جناه جموح عين - السامة من أخلاق العامة - ما أحرى الملوك بأن يحرم المأمول. ومن قوله في سلوانة الزهد الأخيرة:

يا متعباً كده الجِرْ صُ في الفضول وكاده
لو حزتَ ما حاز كسرى وما حوى وأفاده
ما كنت إلا معنيئاً ومغرماً بالزُيادة
لم يَصِفُ في الأرض عَيْشُ إلا لأهل الزهاده

ودائماً يضع مثل هذه الأبيات في صدر كل سلوانة، مما يصور شاعرية خصبة لديه بجانب ما يسوق من حكم مسجوعة في عبارات محكمة، وأيضاً ما يسوق من أمثال وقصص في أساليب متناسقة، تصور حساً دقيقاً وذوقاً مصفى وقدرة على الحوار الأدبي البارع.

ملحق

ابن قلاقس الإسكندري^(١) في صقلية

لعهد غليوم الثاني

مرّت بنا ترجمة ابن قلاقس الإسكندري في الحديث عن تاريخ الأدب العربي بمصر، وهناك ألمنا برحلته إلى صقلية في إيجاز، وحرى بنا الآن أن نفصل الحديث فيها بعض الشيء تنمة للكلام عن صقلية، وقد رحل إليها في سنة ٥٦٣ للهجرة، وهو في نحو الثلاثين من عمره وظل بها نحو سنتين، وحاد الدارسون له في تبين أسباب تلك الرحلة ودوافعها، غير أن من يتعقب أشعاره وأخباره يعرف أنه كان على صلة وثيقة بالرشيد بن الزبير أحد أعلام الثقافة والأدب والشعر في عصره حين ولى النظر بشعر الإسكندرية في الدواوين السلطانية سنة ٥٥٩ للهجرة وكان قد وضع يده في يد صلاح الدين الأيوبي حين ولاه عمه أسد الدين شيركوه الإسكندرية في أثناء حربه مع شاور وزير الفاطميين وأعوانه من الصليبيين سنة ٥٦٢ وتطورت الظروف حينئذ وعاد صلاح الدين مع عمه شيركوه إلى الشام وتركها مصر. ولم يكن هم شاور بعد خروجهما من مصر في تلك المرة إلا طلب من انضموا إلى صلاح الدين من رجال الدولة في الإسكندرية وفي مقدمتهم الرشيد بن الزبير، وسارع الرشيد فاختماً في إحدى الدور بالمدينة فترة، وقُبض عليه وقتل في شهر المحرم سنة ٥٦٣ ونرى ابن قلاقس يرسل إليه في محبته قصائد يستهل إحداها بقوله:

تدائيتَ داراً والوُصُولُ سُسُوعٌ فخلُّك ذو الودِّ الوُصُولُ قَطُوعٌ

وهو يقول له إن دار محبّتك قريبة، غير أن الوصول بعيد، وكأنه يخشى أن يزور الرشيد فيتنبه رجال شاور إلى محبته، ويقول له: خلك الودود الوُصول يُرى كأنه لم يثبت على ودك وإخائك، ولعله يريد نفسه، وفي رأينا أن هذه الصلة بين ابن قلاقس والرشيد الذي كان في مقدمة الثائرين على شاور وانحاز إلى صلاح الدين وما حدث من طلب شاور له، ومقتله هذه الصلة هي التي جعلت ابن قلاقس - في رأينا - يفكر في الرحيل عن الإسكندرية خشية أن يلقى نفس المصير على يد رجال شاور، إما لصداقته للرشيد وإما لأنه كان ممن التفؤوا حول

شعر ابن قلاقس الإسكندري وآثاره النثرية
للككتور محمد زكريا عناني (طبع دار المعارف)
وترسل ابن قلاقس الإسكندري تحقيق الدكتور
عبد العزيز بن ناصر المانع (طبع الرياض) وكتاب
العرب في صقلية للدكتور إحسان عباس ص ٢٨٧
وما بعدها.

(١) انظر في رحلة ابن قلاقس إلى صقلية
كتاب خريدة القصر: قسم شعراء مصر (طبع
القاهرة) ١٤٦/١ وما بعدها وكتاب الزهر الباسم
والعُرف الناسم في مديح الأجلّ أبي القاسم
لابن قلاقس تحقيق الدكتور عبد الحسّ المانع (نشر
جامعة الملك سعود) والتصوص الصقلية من

صلاح الدين في مقامه بالإسكندرية حينئذ. وأخذ يفكر إلى أين يرحل ورأى أن يرحل بعيدا عن مصر وديارها، وصمّم على الرحيل إلى صقلية، وكان قد سمع من يلمون بمجالس شيخه السلفي أحيانا من أهل صقلية في ذهابهم إلى الحج أو في عودتهم منه - بزعم المسلمين بجزيرتهم أبي القاسم ابن الحجر بن حمود بن محمد القرشي وكرمه الفياض وفي كتابه الرائع: الزهر الباسم والعرف الباسم في مديح الأجل أبي القاسم الذي وصف فيه رحلته إلى صقلية وسجل مدائحه في أبي القاسم بن الحجر نراه يذكر أنه كان قد أرسل إليه مدحة سنة ٥٦١ فكان طبيعيا أن يفكر في النزول بجزيرته فرارا من شاور ورجاله. ونزل في غُرّة شعبان من سنة ٥٦٣ في مدينة مَسِينِي في الشمال الشرقي من صقلية، وأعجب بموقعها من البحر المتوسط وبمشاهدها الطبيعية ومبانيها الرائقة، مما جعله ينشد في وصفها قوله:

بِلْدُ أَعَارَتِهِ الْحَمَامَةُ طَوَّقَهَا وَكَسَاهُ حُلَّةَ رِيَشِهِ الطَّاوُوسُ
فَكَأَنَّمَا الْأَزْهَارُ مِنْهُ سُلَافَةٌ وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّيَارِ كَثُوسُ

ومكث بها فترة قليلة، واتجه غربا إلى العاصمة «بلرم» على الساحل الشمالي للجزيرة. وأحسن استقباله أبو القاسم بن الحجر بن حمود القرشي وظل حفيا به طوال مقامه بالجزيرة. وكان زعيم المسلمين في الجزيرة، كما أسلفنا، ومن كبار رجالات الدولة لعهد الملك غليوم (غليوم) الثاني وأخذ ابن قلاص يتعرف عن طريقه إلى بعض رجال الدولة النورمانية، وكأنا كان من واجب من ينزل صقلية من الشعراء المسلمين أن يمتدح ملكها النورماني وبعض رجال دولته، ومر بنا أن عبد الرحمن بن رمضان المالطي استنفذ أكثر شعره في مديح روجار وأن ابن بشرون المهدي التونسي مدح روجار الثاني، وقد مدح ابن قلاص غليوم (غليوم) الثاني بقصيدة ميمية روتها إحدى مخطوطات الديوان. وله يقول:

كَذَا فَلْيَكُنْ عَزْمُ الْمُلُوكِ وَقَلْبًا تَرَى مَلِكًا يَأْتِي بِمَالِكَ مِنْ عَزْمِ

وفي القصيدة مبالغات مفرطة في مديح غليوم، وكان حريا بابن قلاص أن يأنف من أن يسبغها على ملك مسيحي نهب هو وأباؤه الجزيرة من أهلها المسلمين، ولكن ربما دفعته إلى ذلك ضرورة لبقائه في الجزيرة دون تعرض له أولادًا من برحيله، ولعل نفس الضرورة هي التي دفعته لمديح جردنا أحد رجال الدولة النورمانية ويصفه بأنه وزير، وربما كان قائما على شؤون الأمن، وفيه يقول:

وَجَرَدْنَا الْمَدَائِحَ فَاسْتَقَرَّتْ عَلَيَّ أَوْصَافُ جُرْدَنَا^(١) الْوَزِيرِ
فَنظَّمْنَا الْمَفَاخِرَ كَاللَّالِي وَحَلَّيْنَا الْمَعَالِي كَالنُّحُورِ

(١) في الزهر الياسم: يزجرد.

وأعجبُ ما جرى أنا أمينا
رأى منه الملكُ جليّ أمين
فصدّره على الديوان سَطْرًا
ومدّ على الرعيّة ظلّ عدلٍ
ونحن بجانب اللَّيْثِ الهصورِ^(١)
بَرِيءِ النَّصْحِ من سَقَمِ الضَّمِيرِ
هو البَسْمُ الذي فوق السطورِ
وقاهم لَفْحَ ألسنةِ الهَجِيرِ

والقصيدة تطفح بالمبالغات المسرفة مثل قصيدة غليولم (غليوم) الثاني. وشخصية ثالثة من شخصيات الدولة النورمانية هي شخصية غارات بن جوش، ولم ينظم فيه قصيدة إنما كتب إليه رسالة شكر، يقول فيها إنه فارق حضرته: «ممتلىء اليد نعمة، والفم نعمة، وال خاطر آمالا، والنظر أموالا، اصطناعا منها (أى الحضرة) وتفضلا أرى الله أن يصدر إلا عنها».

وإذا رجعنا إلى راعيه أبى القاسم بن الحجر الذى قصد الجزيرة من أجله وجدناه يلقب بالقائد، وكان من الأثرياء ذوى الإقطاعات الواسعة، ويذكر ابن جبير في رحلته أنه رأى له ولأهل بيته قصورا أنيقة في بلرم، وقد أضفى على ابن قلاقس من الإكرام والأموال مما جعله يلهج بالثناء عليه في قصائد كثيرة بل ما جعله يؤلف فيه كتابه الزهر الباسم من أوصاف أبى القاسم» ويشيد في مطلع الكتاب به إشادة رائعة، ثم يصف ركوبه البحر المتوسط نثرا مسجوعا بديعا وشعرا رائعا من مثل قوله:

الناس كُثْرٌ ولكن لا يقدّر لى
أقلعتُ والبحر قد لانتُ شكائمه
فعاد - لاعاد - ذاريحٍ مدمرةٍ
ونحن في منزلٍ يسرى بساكنه
إلا مرافقةُ الملاحِ والحادى
جداً وأقلع عن موجٍ وإزبادٍ
فأسمعُ حديثَ مقيمٍ بيتهُ غادى
كأن حالاتنا حالاتُ عبّادٍ
لا يستقرُّ لنا جنْبٌ بمضجعه

وهو يقول إن كثيرين من الناس مقيمون لا يبرحون ديارهم وأوطانهم، أما هو فقدر له أن يرافق الملاحين في لجج البحار وحداة الإبل في فيافي الصحارى، ثم يقول إن السفينة أقلعت رافعة شراعها وقد سكن البحر وكف عن موجه وإزباده، وسارت السفينة في عرض البحر المتوسط، وما هى إلا ساعات حتى هبت ريح عاصفة أشد العصف، كأنها أخت ريح عاد الموصوفة في الذكر الحكيم بأنها صرصر شديدة البرد عاتية ويتصور السفينة منزلا غير أنه منزل لا يستقر، وكأنه ساكن مقيم وبيته منطلق به، وهو ومن حوله لا يستقر لهم جنب في مضاجعهم بهذا المنزل لكثرة تمايله، وكأنما هم عبّاد فهم بين راكم وساجد منكفٍ على جبينه. وما زالت تلك

(١) الهصور: المفترس.

حال السفينة وسكانها والبحر المتوسط وجنونه حتى اقتربت السفينة من الجزيرة ونغر مُسِينِي في أقصى الشمال الشرقي، وحينئذ كست البحرَ الرُّخَاءَ (الريح اللينة) ثوب وقارها، وأمسكت الرُّعْزُعَ (الريح العاصفة) عنه كأس عُقارها (خمرها) وصحا بعد جنونه وسكره» كما يقول ابن قلاؤس.

ومضى العماد في الخريدة يقتبس من كتاب الزهر الباسم بعض المدائح التي نظمها ابن قلاؤس في أبي القاسم بن الحجر، ويتضح منها ومما تحدث به عن أبي القاسم في الكتاب أنه لم يكن قائداً أو مساعداً من مساعدي الدولة فحسب، بل كان أيضاً على رأس دواوين الدولة، ومعروف أن تلك الدولة كانت تتخذ العربية لغة رسمية لها أو على الأقل كانت مكانتها في الدواوين لا تقل عن مكانة اللغة النورمانية، ونرى ابن قلاؤس يشيد ببراعة أبي القاسم الكتابية حتى ليقول: «إن ألبس قلمه المداد عرى من الفصاحة قسُ إياد، وإن أنطق طرسه الرسائل، أحرَسَ عن الخطابة سحبان وائل، يلزم لديه ابن العميد، سَمَتَ العبيد، ويغدو عليه عبد الحميد غير حميد، ويقول له الصاحب أنا عبد لا صاحب ونهاية الصائب أنه بألفاظه صائب». وهو بذلك يرفع بلاغته الكتابية فوق بلاغة قس الإيادي خطيب الجاهلية وسحبان وائل خطيب العصر الأموي وعبد الحميد الكاتب المشهور في الدولة الأموية وابن العميد والصاحب بن عباد الكاتبين الفُذَيْنِ للدولة البويبية والصائب الكاتب البغدادي المعروف في القرن الرابع، وكان من الصائبة ويستغل اسمه في أنه إزاء بلاغة أبي القاسم يصبأ أو يكفر ببلاغته. ومن قوله فيه بأولى مدائحه، وفيها يصف البحر وركوبه وصفاً بديعاً:

أنت في الفضل في بنى الحجر الـ	دة مثلُ الياقوت في الأحجار
ويُمنَّاك طَيْرُ يُمْنٍ وَسَعْدٍ	أَصْفَرُ الظُّهْرِ أَسْوَدُ المنقارِ
قلمٌ دَبَّرَ الأقاليمَ فَالْكُتِّ	بُ به من كتائب الأقدارِ
يا طرازَ الديوانِ والمُلكِ أصبح	تَ طرازَ الديوانِ في الأشعارِ

والبيت الأول بديع، فبنو الحجر السادة أحجار كريمة، وهو بينهم ياقوت متوهج، وبينما قلم كأنه طير يمن وسعد، جلده - أو كما يقول ظهره - أصفر ومنقاره أسود، وهي إشارة بديعة إلى أنه يُعْمَسُ في مداد أسود، ويقول: إن هذا القلم يدبرُ أقاليم الجزيرة بما يكتب من رسائل ديوانية مختلفة، سياسية وغير سياسية يصرِّف بها أمور سكان الجزيرة المسلمين، وهنئه بشأنه زخرفُ الديوانِ والمُلكِ النورماني، وانضاف إليه أنه أصبح زخرف ديوانه وأشعاره. ويقول في قصيدة أخرى:

قد أقسم الحمدُ لا يُشِيرُ إلى غير أبي القاسم بن حمود

فى يده للنَّوَالِ مَعْرَكَةٌ أُرْدَى بِهَا الْبُخْلُ صَارُمُ الْجَوْدِ^(١)
وتلتقى كُتْبُهُ الْكُتَائِبُ فِى جَيْشٍ مِنَ الْخَطِّ صَائِدِ الصَّيْدِ^(٢)
بِكُلِّ لَفْظٍ كَأَنَّهُ نَفْسٌ غَيْرِ مَمْلٍ بِطَوْلِ تَرْيِدِ
صَحَّتْ مَعَانِيهِ فَانْقَسَمَ إِلَى فَضْلِ ابْتِكَارٍ وَحُسْنِ تَوْلِيدِ
وربما استضحك الخميسُ بِهِ عَنِ أَهْرَتِ الْمَاضِيْنَ صَنِيدِ^(٣)

فالحمد لا يعرف طريقا إلى أحد يستحقه سوى ابن حمود أو ابن الحجر الذى أقام للجود معركة تلمع فيها السيوف القاطعة للرقاب: رقاب البخل والشحّ اليغىض، وإن رسائله لتخضع لها كتائب الجيوش المسلحة، وبعبارة أخرى تخضع لجيش من الخط والكتابة البليغة التى تستنزل العصاة العتاة، بكل لفظ يلذ اللسان والأذان بحسن جرسه وروعة معانيه المولدة والمبتكرة. وليس ذلك كل ما يميز ابن حمود فإنه يتميز أيضا بالبأس والشجاعة حتى لكأنه أسد يمزق فرائسه بماضيه أو أنيابه، أسد صنيدي، شديد غاية الشدة. ولابن قلاص مدائح وأشعار كثيرة بديعة فى ابن الحجر، من ذلك قوله:

إِنَّ ابْنَ حَمُودٍ لَهُ رَاحَةٌ تَسْتَجْلِبُ الْحَمْدَ مِنَ الْمِرْزَمِ^(٤)
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَوْفُودِ النَّدى بِيَابِهِ مُجْتَمِعُ الْمَوْسِمِ
لِلْمَالِ مِنْ رَاحَتِهِ عِنْدَهُمْ أَعْصَافُ مَا لِلْمَاءِ مِنْ زَمَزَمِ
وَلَوْ أَعَارَ اللَّيْلَ آرَاءَهُ مَا أَحْتَاجُ سَارِيهِ إِلَى الْأَنْجَمِ
فَضَائِلُ كَادَتْ لِإِفْرَاطِهَا تَنْطِقُ بِالشُّكْرِ فَمَ الْأَبْكُمْ

وهو يقول إن راحة ابن حمود ما تزال تهطل بالجود، حتى لكأنما تريد أن تجلب لنفسها الحمد من نوء المطر وغيته المدرار، وبيالغ فى مديحه فيقول كل يوم تجتمع الوفود ببابه وتأخذ من ماله أضعاف ما يأخذ الناس من ماء زمزم، ولو أنه أقرض الليل آراءه ما احتاج ساريه إلى نجوم تهديه فى جنح الظلام. فضائل ليس لها مثيل تكاد تنطق فم الأبكم بالشكر والامتنان. ونراه يقوم برحلة بحرية إلى سرقوسة فى شرقى صقلية، ويبدأ فيها بمدينة ثرمة فى الشمال شرقى بلرم، وغادرها سريعا لحرارتها الشديدة حتى لكأنه شرب فيها ماء المهلّ أو شراب الكفار فى جهنم أو كأنما طيم شجرة الزقوم طعام الكفار فى النار الحامية، واتجه شرقا إلى جفلود، وشاهد رياضها

(١) صارم: سيف. الشديقين. صنيدي: شجاع.

(٢) الصيد جمع أصيد: السيد.

(٣) الخميس: الجيش. أهرت الماضفين: واسع

(٤) المرزم: نوء كثير المطر.

وما يحفّ بالعيون فيها من حورعين، غير أنه أسرع في مغادرتها إسراراً من يُطلب بالدين أو كمن يُطلب في صقلية بالدين مشيراً بذلك إلى اضطهاد المسلمين فيها، ويقول إنه نزل نغم مسبني وظل فيها تسعين يوماً عند جلف ثقيل الظل لا يخفّ أبداً حتى لو طار بجناحي جبريل، وركب السفينة أو المجنونة كما يسميها على ماء مجنون حتى ليظن أنه سيكون طعاماً للحيتان، وينزل سرقوسة أخيراً ويجد فيها الملجأ الأمين. والقصيدة وصف بديع لرحلة بحرية في صقلية، وقد أتبعها بوصفه لرحلة برية من سرقوسة إلى بلرم حيث راعيه الأمين أبو القاسم بن الحجر، ولا يتضح سبب رحلته إلى سرقوسة وعودته، وفي رأبي أنه كان يبحث في الثغور التي مرّ بها عمن يحدثه عن مصر وأحوالها وهل لا يزال شاوور وأعوانه متسلطين فيها على الحكم، وكان أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين قد عادا إلى مصر سنة ٥٦٤ في قدمتها الثالثة، وسرعان ما قبض على شاوور وقتل وتولى أسد الدين الوزارة لمدة شهرين وتوفى، وتولاها صلاح الدين. وأكبر الظن أن كل ذلك علم به ابن قلاقس، فاطمأن وصمّم على العودة إلى وطنه بعد وداع راعيه أبي القاسم وأصدقائه في بلرم من مثل هبة الله السديد الحصري وله فيه مدائح بديعة ومثل الفقيه أبي الحسن علي بن أبي الفتح بن خلف الأموي، ويقول عنه في كتابه الزهر الباسم: «هو حدّقة العلم الناظرة، وحدىقة الأدب الناضرة» ويسوق ابن قلاقس في الكتاب ما كان بينها من مكاتبات شعرية قبيل رحيله، وله يقول مودعا:

تَخَذْتُكَ مِنْ صَقْلِيَّةِ خَلِيلَا فَكُنْتَ الْوَرْدَ يُقَطَّفُ مِنْ قَتَادِ
وَشِمْتِكَ بَيْنَ أَهْلِهَا صَفِيًّا فَكُنْتَ الْجَمْرَ يُقْبَسُ مِنْ زِنَادِ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو صقلية وأهلها بأنهم شوك وابن خلف وحده هو الورد، ولا أنهم زناد صلد لا يخرج منه شرر وهو وحده الجمر، وكل ما في الأمر أنه مدحه مودعا وبالغ في مدحه. ولابن قلاقس أشعار متعددة في وصف مجالس الشراب بصقلية ووصف المغنين بها والراقصات من مثل قوله:

وَمَغْنٌ تَتَاوَلَتْ يَدُهُ الْعَوَى دَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الْعَزَامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
وَصِبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طُرْرَ اللَّيْلِ لَ جَمَالًا عَلَى الْوَجْهِ الصَّبَاحِ
يَبْعَثُ الرَّقْصُ مِنْهُمْ حَرَكَاتِ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طِبْوَالُ الرَّمَاحِ

وهو يقول إن صوت المغنى وهو يضرب على العود صوت مفرح ونسيم أنغام المزامير من حولهم تسرى في أجسامهم سريان الأرواح، وراقصات فانتات تهدل خصل الشعر على جباههن وهن يتثنين ويتحركن حركات رشيقة، وكأننا سرقت الرماح في أيدي المحاربين بعض

حركاتهن ورشاقتهن. وقد رحل عن صقلية والصلة بين أبي القاسم والدولة صلة طيبة، وبتأثير من الوشايات صودرت أمواله بعد رحيل ابن قلاقس وإقطاعه وأغرم ما يزيد على ثلاثين ألف دينار، وزار ابن جبير الجزيرة وقد عُفي عنه وعاد إلى سابق العهد به، ولذلك يقول ابن جبير عنه حينئذ إنه زعيم أهل الجزيرة من المسلمين وسيدهم. وعاد ابن قلاقس إلى القاهرة سنة ٣٦٥ قبل تولي صلاح الدين وزارة العاضد الفاطمي فمدحه ومدح رئيس الدواوين، القاضي الفاضل، وكأنما ظن أن الأحوال في مصر لا تزال غير مستقرة فرأى أن يزور اليمن، وربما كان الذي حُبب في زيارتها صديقه الرشيد بن الزبير الذي كان قد زارها وتقلد أحكامها وقضاءها فترة كما يقول ياقوت، وفي أثناء عودة ابن قلاقس منها سنة ٥٦٧ أسلم روحه إلى بارئها بتغر عذاب على الساحل المصري للبحر الأحمر وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

خاتمة

١

تحدثت - في الصحف الماضية - عن ليبيا في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي تونس وصقلية من الفتح العربي إلى العصر الحديث. وعرضت جغرافيتها وتاريخها القديم وأنها ظلت تستقبل الحضارات الفينيقية والقرطاجية واليونانية والرومانية والبيزنطية دون أن تضيف إليها شيئاً، وألمت بفتح العرب لها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتعاقب الولاة عليها في العصرين الأموي والعباسي، وتبعية طرابلس للدولة الأغلبية في القيروان منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م إلى ٢٩٦هـ/٩٠٨م بينما كانت برقة تتبع مصر. ويتبعان جميعاً الدولة العبيدية، ويسترد بلكين الصنهاجي تبعية طرابلس إلى القيروان ويؤسس بها بنو خزرون دولة ظلت خمسين عاماً، وتعمها هي وبرقة الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف القرن الخامس الهجري، وقد أحالوا معظم ليبيا إلى مشيخات بدوية، ويعيث فيها فساداً قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، وتتبع برقة مصر في عصر الأيوبيين والمماليك، ويوكلون عنهم بنى عزاز في حكمها وجبايتها، وتتبع طرابلس الدولة الحفصية في تونس، ويؤسس بها بنو عمار دولة لهم من سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م إلى ٨٠١هـ/١٣٩٨م وتعود للحفصيين ويستولى عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩١٦هـ/١٥١٧م ويتركها سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م لفرسان مالطة، ويخرجهم منها الأسطول العثماني سنة ٩٥٨هـ/١٥٥١م وتظل للعثمانيين، ويتولاها منهم أحمد القرمانلى سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م ويجعلها وراثية في أبنائه إلى أن استردها العثمانيون منهم سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م وبذلك تبدأ ليبيا عصرها الحديث.

وسكان ليبيا - من قديم - ينقسمون إلى حضر في المدن على الساحل وما وراءه من بساتين وزروع، وإلى بدو رُحّل في منطقتي شبه الصحراء والصحراء الليبية المترامية الأطراف. وقد نزلتها عناصر جنسية كثيرة بجانب سكانها البربر من فينيقيين وإغريق ويهود ورومان وزنوج وعرب وترك وجلبهم المسيحي الأوربي من القرصنة. وبجانب النشاطين الزراعي والرعوي وصيد الأسماك والإسفنجة على السواحل نمت بليبيا صناعات يدوية كثيرة مثل عصر الزيت ونسيج الملابس والأبسطة ودبغ الجلود واستخراج الملح من السواحل. وكان البربر وتبين،

ونزل بديارهم اليهود، وحاول الرومان وكنيسة الإسكندرية نشر المسيحية بها وخاصة في المدن الشمالية واكتسحها الإسلام، ودخل فيه سكانها أفواجا، حتى أصبح دينهم في كل مكان كما أصبحت العربية لسانهم، وشاع المذهب الإباضي في جبل نفوسة وطرابلس، وحاول العبيديون - حين أقاموا دولتهم في القيروان - نشر عقيدتهم الإسماعيلية الشيعية في ليبيا، ورفضها سكانها، وعلى مر العصور آثرت ليبيا مذهب مالك السني، وتبع بعض أهلها في العهد العثماني المذهب الحنفي غير أن مذهب مالك ظل هو المذهب الغالب على الليبيين. ونرى كثيرين من الليبيين - على مر العصور - يؤثرون الزهد في متاع الحياة والتقشف طلبا لما عند الله من الثواب ونعيم الفردوس، وشاعت بينهم في الحقب المتأخرة الطرق الصوفية السنية.

ومنذ الفتح العربي ودخول ليبيا في الإسلام كان فاتحوها يعملون - بكل ما وسعهم - على نشر الدين الحنيف بها، وسرعان ما شاعت فيها الكتابات لتحفيظ القرآن الكريم، كما استدارت في المساجد حلقات الشيوخ يلقنون الناس شيئا من تفسير الذكر الحكيم ومن الحديث النبوي وقواعد الفقه وتعاليم الإسلام، وأخذ بعض أبناء ليبيا يطلبون السعة في الزاد العلمي، فرحلوا إلى المشرق للتزود من حلقات علماء العربية وعلماء الفقه والدراسات الدينية، وعُتوا خاصة بالأخذ عن الإمام مالك ققيه المدينة وتلاميذه المصريين. وأخذت تنمو العلوم الإسلامية واللغوية في ليبيا على مر الزمن وازدهرت في عهد الدولة الحفصية بما أنشأت من مدارس وما نشأ من زوايا كانت تُعنى بدراسة العلوم، وأصاب الحركة العلمية غير قليل من الحمود والركود في عهد الدولة العثمانية.

وإذا تعقبنا العلوم والعلماء في ليبيا على مر القرون لاحظنا أنه لم ينشأ فيها نشاط في علوم الأوائل، بخلاف العلوم اللغوية والدينية فقد اشتهر فيها كثيرون في مقدمتهم الأجدابي اللغوي في القرن الخامس الهجري والمقرئ مؤمن بن فرج في القرن الخامس الهجري أيضا والحافظ المحدث الكبير أحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع الهجري وعلى شاكلته ابن عبيد في القرن السابع، ويتكاثر الفقهاء السنيون مثل ابن المنمر في القرن الخامس وعمران بن موسى في القرن السابع، وبالمثل فقهاء الإباضية، ومنهم عمرو بن فتح النفوسى في القرن الثالث والجيطالى في القرن الثامن.

وأسرعت ليبيا في التعرب لسبيين : كثرة من نزل بها من القبائل وكثرة من استقر بها من الجند، وأتمت تعربها هجرة الأعراب الكبرى من بنى سليم وبنى هلال وامتزج الشعبان: البربري والأعرابي وأصبحت شعبا واحدا في الأخلاق والعادات والفروسية والنجدة والرزي والمأكل والأفراح والأحزان، وسرعان ما انتصرت العربية على البربرية. ويشهد الرحالة العبدري في أواخر القرن السابع لأهل برقة بالفصاحة ولا تزال لغتهم في التخاطب إلى اليوم

أقرب إلى الفصحى من لغة أى بلد عربى. ولم تحدث في ليبيا قبل عصرها الحديث نهضة أدبية واسعة، ومرجع ذلك إلى أنها لم تنشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء ولا أنشئ فيها ديوان يبعث فيها حركة نثرية أدبية، وأول شاعر بها ينال شيئا من الشهرة خليل بن إسحق في القرن الثالث الهجرى، ويتكاثر شعراؤها في القرن السابع من أمثال فتح بن نوح الإباضى وابن أبي الدنيا وابن معمر، وأهم شعرائها في العهد العثمانى البهلولى الطرابلسى، وله ديوان كله مدائح نبوية، ومن الشعراء بعده أحمد بن عبد الدائم. وتشير كتب التراجم بأن لهذا الكاتب الليبى أو ذاك رسالة أو مقامة، وتكتفى بمثل هذه الإشارة ولا تذكر منها شيئا، ولفتح بن نوح الإباضى الشاعر كتاب كله وعظ على شاكلة كتاب ملتقى السبيل لأبى العلاء المعرى.

٢

وانتقلت في القسم الثانى من هذا الجزء إلى تونس فتحدثت عن جغرافيتها وتاريخها القديم وفتح العرب لها ودخول أهلها في الإسلام أفواجا وظل مدة يتعاضم فيها وفيها وراءها من بلاد المغرب. ومن ولايتها الأولين وولاية المغرب جميعه عقبة بن نافع مؤسس مدينة القيروان وحسان بن النعمان مؤسس مدينة تونس وموسى بن نصير فاتح الأندلس وناشر الإسلام فيه وفي المغرب جميعه حتى المحيط، ووليها للعباسيين يزيد بن حاتم المهلبى وأحدث بها حركة أدبية خصبة، وتولاها إبراهيم بن الأغلب للرشيد سنة ١٨٤ هـ/٨٠٠ م وبجعلها الرشيد وراثية في أبنائه، وتظل تلك الدولة الأغلبية حتى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م ومن أعمالها الجليلة فتح صقلية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م وفتح مالطة سنة ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م ونشر الدين الحنيف واللغة العربية بهما، وتختلف الدولة العبيدية تلك الدولة إلى أن انتقل الخليفة العبيدى المعز إلى القاهرة سنة ٣٦١ هـ/٩٧١ م وجعل حكم إفريقية التونسية بعده لقبيلة صنهاجة وزعيمها بلكين، وظلت تلك الدولة الصنهاجية موالية للخلفاء الفاطميين في القاهرة إلى أن أعلن المعز بن باديس الصنهاجى استقلاله عن خلافتهم سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م وقبل بل في سنة ٤٣٩ أو ٤٤٠ وغضب الخليفة الفاطمى المستنصر، فسلب عليه أعراب بنى سليم وبنى هلال الناقلين شرقى الصعيد، وكانوا نحو نصف مليون، فانتسحوا ليبيا وإفريقية التونسية، وحاربوا المعز في القيروان وهزموه، واضطروه إلى الانزواء في مدينة المهديّة، واستقل بعض الولاة في مدن إفريقية التونسية وأنحائها بالحكم، وقام فيها نظام أمراء الطوائف إلى نحو قرن. ونزل روجار الثانى النورمانى ساحل تونس سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م واستولى على المهديّة وطرده منها عبد المؤمن أمير دولة الموحدين المغربية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وعات بها في النصف الثانى من القرن السادس الهجرى قراقوش وابن قراتكين وابنا غانية، وخلصها منهم الموحدون والدولة الحفصية، وازدهرت الحياة بها في أيام

الحفصيين، وحاصر لويس التاسع تونس، وقُبر تحت أسوارها، ونهضت البلاد طوال ثلاثة قرون، وأغار عليها شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م وخلصها من الإسبان الأسطول العثماني سنة ٩٨١ هـ/١٥٧٤ م وأصبحت تابعة للدولة العثمانية وتوالى عليها البايات، ومن خیرهم مراد باى وتوارثها أبناؤه وحسين بن على وبالمثل توارثتها أسرته حتى العصر الحديث. ونزل إفريقية التونسية - بجانب سلالات البربر العريقة بها - عناصر جنسية كثيرة: فينيقية وقرطاجنية ويهودية وزنجية ورومانية وألمانية من الواندال وبيزنطية وعربية ومن كان فى جيوش العرب من الشعوب الإسلامية ونزلتها عناصر أندلسية وتركية وأوربية مسيحية ممن كان يأسرهم القراصنة، ومع كل هذه العناصر ظلت للعنصر البربرى الغلبة، وظل يفرض عليها شخصيته وهويته. وتموج إفريقية التونسية - من قديم - بطيبات الرزق من الزروع وأشجار الزيتون والفاكهة والنخيل، وتموج مراعيها بقطعان الغنم والأبقار والخيول والإبل. وتكثر بها الصناعات اليدوية مثل عصر الزيتون ودبغ الجلود وصناعة الزجاج والبلور والخزف والمنسوجات على اختلاف أنواعها والورق وكل ما يحتاج إليه المنشآت العمرانية. وأهلتها هذه المنتجات الصناعية والزراعية وما كان يرد إليها من إفريقيا السوداء لتكون سوقا تجاريا عالميا. وهياها كل ذلك لرفه واسع فى المطعم والملبس وما يتصل بذلك من كثرة الاحتفالات والأعياد والعناية بالموسيقى وآلات الطرب. وحظيت المرأة فى هذا المجتمع بمكانة كريمة.

وكان البربر قديما وثنيين، ونزلت بينهم جماعات من اليهود، وحاولت نشر دينها اليهودى فيهم واستجابت لها أقلية، واستولى الرومان على ديارهم وأخذوا يجاولون - كما حاولت كنيسة الإسكندرية - نشر الدين المسيحى بها وتأسست بعض الكنائس والأسقفيات، واعتنقه بعض البربر - وخاصة فى المدن الشمالية، وظلت فى العهود الإسلامية عناصر صقلية مسيحية تنزل بالبلاد، وعناصر أخرى ممن كان يأسرهم القراصنة من البحر المتوسط. والإسلام هو الدين السماوى الوحيد الذى عمّ - بعد الفتح - إفريقية التونسية وجميع البلدان المغربية لتحريره الشعوب من الظلم والاستعباد ولبساطته ومحوه الفوارق الطبقيه بين أفراد الأمة. واختارت إفريقية التونسية مذهب مالك الفقهى السنى، وعاش بجانبه المذهب الحنفى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى، وعاد إلى الظهور أيام العثمانيين. ولم تنجح فى إفريقية التونسية مبادئ الإباضيين ولا مبادئ العبيديين الإسماعيلية الشيعية، ومن قديم يتكاثر بها الزهاد وكثرت فيها - منذ القرن السابع - الطحق الصوفية.

ونشطت الحركة العلمية فى إفريقية التونسية منذ الفتح، وكان يقودها فى أول الأمر الفاتحون بنشرهم للدين الحنيف وتعاليمه، وما نكاد نقبل على القرن الثانى الهجرى حتى ينشأ جيل من أبناء البربر والعرب يطلب المزيد من العلم، ويرحل فى طلبه إلى المشرق للقاء أبى حنيفة ومالك

ويحمل مذهبها إلى مدينتي القيروان وتونس، ويساعد في ازدهار الحركة العلمية - على مر العصور - جامع أو جامعة عقبة في القيروان وجامع أو جامعة الزيتونة في تونس وما أنشأه الحفصيون من مدارس ومكتبات. وتعنى إفريقية التونسية بعلوم الأوائل ويؤسس فيها الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٧١-٤٨٩هـ) بيت الحكمة للعناية بتلك العلوم، وتشتهر القيروان بأطباء كبار كان لهم تأثير عظيم في النهضة الغربية كما تشتهر بفلكي جزائري كبير هو علي بن أبي الرجال كان له تأثير قليل في علم الفلك الأوربي. وتؤسس الدولة الصنهاجية مدرسة في الكيمياء، وينبغ في الدولة الحفصية كيميائي هو التيفاشي، وملتقى فيها بأطباء ورياضيين متعددين وبعض الجغرافيين. ويكثر علماء اللغة والنحو في العهد الصنهاجي من مثل القزاز والحصري، ويضع ابن عصفور أسس مدرسة نحوية تونسية، ويقود ابن رشيق بكتابه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» حركة نقدية واسعة، ويشتهر في القراءات ابن خيرون حامل قراءة ورش عن نافع إلى موطنه، ولا يلبث أن يظهر إمام كبير من أئمة القراءات هو مكى بن أبي طالب. ومن أوائل المفسرين عكرمة مولى ابن عباس ومن كبارهم في القيروان علي بن فضال وابن بزينة ويكثر الحفاظ المحدثون ومن كبارهم القابسي في القرن الرابع والمازري في القرن السادس، ويتعاش في الفقه المذهبين: المالكي والحنفي وفتهاؤهما في القرنين الثاني والثالث من أمثال سخنون المالكي وعبد الله بن فروخ الحنفي، ثم تصيح الغلبة للمذهب المالكي منذ أخذ المعز بن باديس الناس والفقهاء به، ويعود المذهب الحنفي إلى الظهور في عهد العثمانيين، وتكون له الكلمة العليا في الفتوى والقضاء. وكل ما كان موضعاً للمناظرة والجدل من المذاهب الكلامية في المشرق انتقل إلى المغرب سواء في ذلك مذاهب الخوارج والمرجئة والمعتزلة، وأخذ المذهب الأشعري يعم منذ القرن الخامس الهجري. ونشطت الكتابات التاريخية في القيروان عن مغازي إفريقية والدولة الأغلبية وأمرائها والدولة العبيدية وخلفائها وعن علماء إفريقية وتاريخهم وتاريخ المغرب وعن شعرائها وعن من كان بها من الزهاد وكبار العلماء وعن دولة بني عبدالواد بتلمسان، ولابن خلدون تاريخه العظيم ومقدمته النفيسة، ويلقانا بعده كتاب الهنتاق عن الدولة الحفصية وكتاب ابن أبي دینار: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، وكتاب السراج: الحلل السندسية وكتاب حسين خوجه: ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، وفيه ترجمات لفقهاء البلدان الكبيرة.

وعلى الرغم من أن اللغة البربرية ظلت تعايش لغتين متحضرتين هما الفينيقية واللاتينية فإنها لم تتحول قديماً إلى لغة متحضرة لها أبجديتها وكتابتها التاريخية، وكان من يتحضر من البربر أيام الفينيقيين يكتب بلغتهم، وبالمثل أيام الرومان، وكثيرون منهم كانوا يتقنون اللاتينية نطقاً وكتابة، وظلت من ذلك بقية بعد الفتح، وسريعاً أخذت البربرية لغة الشعب واللاتينية لغة بعض الخاصة تزايلان الألسنة وتحل محلها العربية حتى إذا كانت الهجرة الأعرابية الكبرى في منتصف

القرن الخامس الهجري اختلط البربر بالأعراب وكُونُوا شعبا عربيا واحدا في حياته ولغته ودينه. وظلت الكثرة من الأعراب تنطق بالفصحى نطقا سليما حتى القرن السابع الهجري، وسرت إليهم عدوى العامية فهجروا الإعراب، ومع ذلك ظلت الفصحى لغة العلم والأدب الرفيع، وغذاها المهاجرون الأندلسيون في القرن السابع ثم في القرن التاسع والحادي عشر بغذاء قويم بثَّ فيها روحاً وغير قليل من الانتعاش. ويكثر الشعراء في إفريقية التونسية منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى في أواسط القرن الثاني الهجري، وكان أمراء الدولة الأغلبية وخلفاء الدولة العبيدية شعراء وأجزلوا العطايا لمادحيهم، وينهض الشعر في زمن الدولة الصنهاجية، ويقال إن مادحى المعز بن باديس بلغوا المائة عدداً، وكان ابنه تميم شاعرا ومقصدا للشعراء من كل بلد مغربي ومشرقي وكان ابنه يحيى وحفيده على وابنه الحسن غاية في الجود، فقصدهم غير شاعر، ولابن حمديس وأمّية بن أبي الصلت الأندلسى فيهم مدائح رائعة، ويتكاثر الشعراء حول أمراء الطوائف مثل سلامة بن فرحان شاعر أبي الحملات أمير مدينة قابس والتراب السوسى شاعر جبارة بن كامل أمير مدينة سوسة. ومن شعراء هذا العهد على الحصرى وعبد الله الشقراطسى. ويزدهر الشعر في العهد الحفصى ويرفده جدول أندلسى، ومن شعرائه جابر بن عنان وابن عَرَبِيَّة وابن حُسَيْنَة وابن السماط المهدوى والللياني وغيرهم كثير، ومنذ القرن الثامن الهجري يزاحم الشعر الشعبى الملحون الشعر، ويهاجر كثير من الأندلسيين إلى إفريقية التونسية في القرن الحادى عشر ويسترد الشعر شيئا من حيويته ونشاطه في العصر العثمانى، وخاصة منذ عهد الأسرة الحسينية.

وتظهر في كل غرض من أغراض الشعر طائفة من الشعراء المبدعين، ودائها كانت سوق المديح نافقة، ومن أعلامه الذين ترجمنا لهم على بن محمد الإيادى، والكاتب الرقيق وابن رشيق والتراب السوسى وابن عَرَبِيَّة وعبد الله التجانى وعلى الغراب والورغى. ومن أعلام الفخر المهمين تميم بن المعز ومحمد الرشيد الحسينى. ومن أعلام الغزل على الحصرى وأحمد الللياني ومحمد ماضور. ومن أعلام شعر الغربة والشكوى والعتاب ابن عبدون ومحمد بن أبي الحسين. ومن أعلام شعر الطبيعة عبد الواحد بن فتوح وابن أبي حديدة وأبو على بن إبراهيم. ومن أعلام شعر الرثاء للأفراد والمدن والدول ابن شرف القيروانى ومحمد بن عبد السلام. ومن أعلام الوعظ أحمد الصواف، ومن أعلام التصوف محرز بن خلف، ومن أعلام المديح النبوى الشقراطسى والسماط المهدوى. وكل هؤلاء الشعراء حاولت تبين شخصياتهم، مع عرض أهم رواثعهم الشعرية.

ونهض النثر في تونس على لسان الولاة والقواد، وتأسست بها - مبكرة - الدواوين، وانهض أبو اليسر الشيبانى رئيس ديوان الانشاء في عهد الأغلبية بالكتابة الديوانية وكون فيها

مدرسة كانت لها تقاليد متبعة، وفي صبح الأعشى رسالة ديوانية بليغة من العهد الحفصي. وكثرت الرسائل الشخصية، وهي مسجوعة، وبها - في الحقب المتأخرة - كثير من التكلف. وتلقانا بعض مقامات، وهي لا تتناول حياة أديب متمسول وخُدَّعه الكثيرة لجذب السامعين، إنما هي موضوعات أدبية، لبيان التفنن في الكتابة الأدبية، وترجمت لثلاثة من الكتاب البارعين أبي اليسر الشيباني رئيس ديوان الإنشاء في عهد الأغالبة وإبراهيم المصري صاحب زهر الآداب، وابن خلدون الكاتب التونسي الفذ.

٣

وتحدثت - في القسم الثالث من هذا الجزء - عن جزيرة صقلية وجغرافيتها وتاريخها القديم إلى أن فتحها العرب أيام الأمير زيادة الله الأغلب سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م وظلوا طويلا يفتحون مدنها وحصونها وينشرون العربية والدين الحنيف في ربوعها. واستولوا على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشروا بها - مثل صقلية - الإسلام والعربية، ولا يزال أهلها - حتى اليوم - يتكلمون لكنة عربية تونسية دخلها - مع طول الزمن - كثير من التحريف - وغزوا قَلُورِيَّةَ في جنوبي إيطاليا، وظل للدولة الأغلبية فيها شطر بل أشطار طوال مدة حكمهم. وولى على صقلية للدولة العبيدية ولاية أساءوا السيرة إلى أن وليها للخليفة العبيدي المنصور قائد من خيرة قواده هو الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م فجعلها وراثية في أبنائه، وساء حكمهم في القرن الخامس الهجري، وثار صقلية عليهم، واستحالت إلى إمارات طوائف لكل بلدة أمير، واختارت بلرم قائدا من قواد الثورة هو ابن الثمنة، وكان شؤما على الجزيرة كلها فإنه تحارب مع أمير قسريانة وهُزم، فاستغاث بالنورمان في قَلُورِيَّةَ بجنوب إيطاليا، وأغاثه روجار الأول، وسرعان ما استولى على بلرم سنة ٤٦٤هـ/١٠٧٢م وبحاول الاستيلاء على بقية مدن صقلية وتم له ذلك في سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م ويدور العام فيستولى على مالطة سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م. ورأى شعب صقلية العربي يفوق شعبه مدنية وحضارة واتقانا للزراعة ولكثير من الصناعات اليدوية فأخذ يصانعه للإفادة منه مع التنكيل به في صور شتى، وحاول ابنه روجار الثاني وحفيده غليوم الأول التخفيف من هذا التنكيل العاشم، ولكن ظل الاضطهاد قائما كما يصور ذلك ابن جبير في رحلته حين زار صقلية أيام غليوم الأول، وازداد الاضطهاد ضراوة حين استولى على الجزيرة أباطرة الألمان منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م واستغاث أهلها بالمستنصر الحفصي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م فراسل فردريك الثاني واتفق معه على إجلائهم إلى إفريقية التونسية. وأجبر فردريك من بقى بمالطة من المسلمين على مبارحتها إلى مدينة أمالفي Amalfi جنوبي إيطاليا وكانت صقلية موزعة بعد الفتح العربي إلى ثلاث ولايات كبيرة، ولكل ولاية وال

يديرها ومعها مساعدون وكل منهم يسمى قائدا ولكل ولاية قاض أو قضاة، وعامل المسلمون المسيحيين معاملة سمحة إلى أبعد الحدود، وحافظوا لهم على كنائسهم وقوانينهم الدينية والمدنية ومحاكمهم الخاصة. وكان بكل ولاية مجموعة من الدواوين للإشراف على نظام الحكم، ومن أهمها ديوان المحاسبة القائم على جمع الضرائب. وكانت صقلية مملأى بالزروع وأشجار الزيتون والفاكهة وبالغنم والخيول، وكانت الصناعات مزدهرة بها وخاصة صناعة المنسوجات وصناعة الورق التي انتقلت إليها من القيروان ونقلتها إلى أوروبا لتلهم - فيما بعد - جوتنبرج - اختراع الطباعة. وولتقى فيها ببعض الزهاد مثل القاضي ميمون وابن أبي محرز وبعض من ينزعون في نسكهم منزع التصوف مثل أبي القاسم عبد الرحمن البكري.

وقد فتح النورمان صقلية الإسلامية حربيا وفتحتهم حضاريا، مما جعل ملوكها يكفون على تعلم العربية ليقروا ذخايرها العلمية، وتعلموا من المسلمين شئون الزراعة والصناعة ونظمهم الادارية والديوانية، واتخذوا العربية في مراسيمهم الحكومية، ومع ذلك لم تكن إقامة المسلمين لشعائرهم الدينية مكفولة وساموهم غير قليل من الخسف والاضطهاد بشهادة ابن جبير لما شاهده في الجزيرة. ودائما تنزل الثقافة الإسلامية البلدان المفتوحة مع الجيوش العربية، وهو ما حدث سريعا في صقلية، وكان بعض أبنائها لا يكتفون بما يأخذون عن شيوخها، فكانوا يرحلون - استزادة في العلم - إلى القيروان ومدوا رحلتهم أحيانا إلى المشرق، ورحل إليهم بعض العلماء القيروانيين والمشاركة، ويقول ابن حوقل إنه كان في بلرم وحدها مائتا مسجد وثلاثمائة معلم. وعنيت صقلية بعلوم الأوائل، وكان نصف سكانها مسيحيين وكانوا فتيين: فنة تتكلم اللاتينية وفنة تتكلم الإغريقية، وكان بين قساوستها من يستطيع الترجمة من اللاتينية والإغريقية إلى العربية مما جعل الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبى حين أسس بيت الحكمة في عاصمته رقادة وعنى فيه بعلوم الأوائل يستعين ببعض الرهبان الصقليين في ترجمة بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية إلى العربية، ونظلم نسمع عن إتقان بعض أطبائها من العرب للغة الإغريقية وعن نزول بعض متفلسفة الأندلس بها، وتتردد في الكتب أسماء لبعض من كانوا فيها من الأطباء والرياضيين والمهندسين والفلكيين.

وعُنيت صقلية برواية الدواوين وأمهات الكتب الأدبية كما عنيت بالعلوم اللغوية واشتهر من لغوييها ابن البر الذي رحل إلى مصر وحمل منها كثيرا من دواوين الشعراء وأسس بها مدرسة لغوية خصبة، ومن أهم تلاميذه ابن مكى صاحب كتاب تنقيف اللسان، ونزلها ابن رشيق، وقاد فيها بكتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده حركة أدبية نقدية مشررة. ونشطت بصقلية الدراسات الدينية ومن كبار قرائها في القرن الرابع محمد بن خراسان، ومن كبار مفسريها ابن ظفر، ومن كبار محدثيها عتيق السمنطاري ومن فقهاؤها المهمين البرادعى

ومحمد بن يونس التميمي وعبد الحق بن محمد القرشي. وظلت الحياة العلمية مطردة النمو في عهد النورمان، وكانوا يهتمون خاصة بعلوم الأوائل، ويتكاثر في عهدهم من ينعت بأنه رياضى أو فلكى أو طبيب، واستدعى روجَّار الثانى الجغرافى العربى الإدريسى ليصنف له كتابا فى الجغرافيا، فألَّف له كتابين جغرافيين: كبيراً وصغيراً وضمَّنهما بعض الخرائط، ورسم له خريطة كبرى للعالم على كرة ضخمة من الفضة، وكان أولى للإدريسى أن يقدم هذه الأعمال الجغرافية البديعة لحاكم عربى فى عصره لا لحاكم نورمانى. وتظل العلوم اللغوية والإسلامية ناشطة فى العهد النورمانى، غير أن علماء أعلاما كبارا بارحوا صقلية فرارا من الظلم النورمانى مثل ابن القطاع الصقلى نزيل القاهرة وإليها حمل عن أستاذه ابن البر معجم الصحاح للجوهري، ومثل ابن الفحام أحد أئمة القراءات نزيل الإسكندرية، ومثل ابن ظفر مفسر القرآن الكريم نزيل حماة بالشام ومثل الإمام الفقيه والحافظ الكبير المازرى نزيل القيروان والمهدية.

ويزدهر الشعر بصقلية فى عهد بنى أبى الحسين الكلبيين: ويسجل لها ابن القطاع مائة وسبعين شاعرا فى كتابه: «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة»، غير أن الكتاب سقط من يد الزمن فلم يصلنا، ونقل عنه العماد فى الحريدة تراجم لسبعة وأربعين شاعراً، وأضاف إليهم البلنوبى بن أبى البشر، كما أضاف إليهم اثني عشر شاعراً من كتاب ابن بشرون المهدوى: «المختار من النثر لأفاضل أهل العصر». ونظم شعراء صقلية فى مختلف أغراض الشعر العربى، وعرضت ذلك مفصلاً مع الترجمة فى كل غرض لأهم شعرائه، وقد ترجمت فى المديح لابن الخياط وفى الغزل للبلنوبى وفى الفخر لأبى الحسن الطوبى وفى الوصف لأبى عبد الله بن الطوبى وفى الرثاء لمحمد بن عيسى ولغيرهم فى الزهد والوعظ وفى التفجع والحنين واللوعة ولابن حمدىس وأشعاره الرائعة.

وتحدثت عن النثر وكتابه بصقلية، ويدل تنويه كتب التراجم بما لكتابتها من مقامات ورسائل على أنها حظيت فيها بأعمال قيمة، غير أن الزمن أضاعها، واحتفظ ابن بشرون فى ترجمته لشعرائها ببعض رسائلهم الشخصية وعرضتها مع التعليق عليها، وترجمت لكاتبين من كتابها المبدعين هما ابن الصباغ وابن ظفر. وأضفت ملحفاً عن زيارة ابن قلاقس الإسكندرى لصقلية وأشعاره هناك.

كتب للمؤلف مطبوعة بدار المعارف

- الأدب العربي المعاصر في مصر
- البارودي رائد الشعر الحديث
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بنى أمية
- ابّحث الأدبي :
- (طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره)
- الشعر وطوائفه الشعبية على مر العصور
- في التراث والشعر واللغة
- في الشعر والفكاهة في مصر

في الدراسات النقدية

- في النقد الأدبي
- فصول في الشعر ونقده
- في الأدب والنقد

في الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة : تطور وتاريخ
- المدارس النحوية
- تجديد النحو

في التراث المحقق

- تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا
- مع نيج تجديد
- تيسيرات لغوية
- تحريفات العامية للفصحى

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

- ابن زيدون

في مجموعة فنون الأدب العربي

- الرثاء
- المقامة
- النقد
- الترجمة الشخصية
- الرحلات

في الدراسات الإسلامية

- الوجيز في تفسير القرآن الكريم
- سورة الرحمن وسور قصار
- معجزات القرآن
- محمد خاتم المرسلين
- عانية الإسلام
- الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة

في تاريخ الأدب العربي

- العصر الجاهلي
- العصر الإسلامي
- العصر العباسي الأول
- العصر العباسي الثاني
- عصر الدول والإمارات
- (الجزيرة العربية - العراق - إيران)
- عصر الدول والإمارات (الشام)
- عصر الدول والإمارات (مصر)
- عصر الدول والإمارات (الأندلس)
- عصر الدول والإمارات
- (ليبيا - تونس - مقلية)
- عصر الدول والإمارات
- (الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان)

في مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه في الشعر العربي
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
- التطور والتجديد في الشعر الأموي
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
- شوقي شاعر العصر الحديث

- كتاب الرد على النحاة
- الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر

- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
- الجزء الأول
- الجزء الثاني
- كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

في سلسلة اقرأ

- معنى (١) ٤٦٦
- معنى (٢) ٥٣٩
- القسم في القرآن الكريم/٦٦٦

- مع العقاد / ٢٥٩
- البطولة في الشعر العربي / ٣٣١
- الفكاهة في مصر / ٥١١

فهرس

الصفحة	
١٧ - ٥ مقدمة
١٠٥ - ١٩ القسم الأول - ليبيا
٤٤ - ٢١ الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ
٢١ ١ - الجغرافية
٢٣ ٢ - التاريخ القديم
٢٦ ٣ - من الفتح العربي إلى منتصف القرن الخامس الهجرى
٣٢ ٤ - من الهجرة الأعرابية إلى منتصف القرن العاشر الهجرى
٣٩ ٥ - فى العهد العثمانى
٥٩ - ٤٥ الفصل الثانى: المجتمع الليبى
٤٥ ١ - عناصر السكان
٤٧ ٢ - المعيشة
٥٠ ٣ - الدين
٥٢ ٤ - الإباضية والشيعه
٥٣ (أ) الإباضية
٥٥ (ب) الشيعه: الدعوة العبيديه
٥٧ ٥ - الزهد والتصوف
٧٧ - ٦٠ الفصل الثالث: الثقافة
٦٦ - ٦٠ ١ - الحركة العلمية
٦٠ (أ) فاتحون وناشرون للإسلام
٦٢ (ب) الكتاتيب
٦٢ (ج) المساجد
٦٣ (د) الرحلة فى طلب العلم والوافدون
٦٣ (هـ) المدارس
٦٤ (و) الزوايا
٦٥ (ز) خمود فى الحركة العلمية
٧٠ - ٦٦ ٢ - علوم الأوائل - علوم اللغة والنحو والعروض
٦٦ (أ) علوم الأوائل
٦٦ (ب) علوم اللغة والنحو والعروض

الصفحة

٧٠	٣ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
٧٧	٤ - التاريخ
١٠٥ - ٧٨	الفصل الرابع: الشعر والنثر
٧٨	١ - تعرب ليبيا
٨٨ - ٨٢	٢ - نشاط الشعر والشعراء
٨٥	خليل بن إسحق
٩٧ - ٨٨	٣ - الشعراء في عصر الدولة الحفصية
٨٩	(أ) فتح بن نوح الإباضي
٩٢	(ب) ابن أبي الدنيا
٩٤	(ج) ابن معمر
١٠٣ - ٩٧	٤ - الشعراء في العهد العثماني
٩٩	(أ) البهلول الطرابلسي
١٠٢	(ب) أحمد بن عبد الدائم
١٠٥ - ١٠٣	٥ - النثر
٣٢٧ - ١٠٩	القسم الثاني - تونس
١٠٩	الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ
١١١	١ - الجغرافية
١١٤	٢ - التاريخ القديم
١٢٤ - ١١٤	٣ - الفتح - بقية الولاية - الدولة الأغلبية
١١٤	(أ) الفتح
١١٧	(ب) بقية الولاية
١٢١	(ج) الدولة الأغلبية
١٣٠ - ١٢٤	٤ - الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - الهجرة الأعرابية
١٢٤	(أ) الدولة العبيدية
١٢٦	(ب) الدولة الصنهاجية
١٢٨	(ج) الهجرة الأعرابية
١٣٦ - ١٣٠	٥ - دولة الموحدين - الدولة الحفصية
١٣٠	(أ) دولة الموحدين
١٣٢	(ب) الدولة الحفصية
١٣٧	٦ - العهد العثماني
١٦٥ - ١٤١	الفصل الثاني: المجتمع التونسي
١٤١	١ - عناصر السكان

الصفحة

١٤٥	٢ - المعيشة
١٥١	٣ - الرفه - المطعم والملبس - الأعياد - الموسيقى - المرأة
١٥١	(أ) الرفه - المطعم والملبس
١٥٢	(ب) الأعياد
١٥٤	(ج) الموسيقى
١٥٦	(د) مكانة المرأة
١٥٨	٤ - الدين
١٦٢	٥ - الزهد والتصوف
٢٠١ - ١٦٦	الفصل الثالث: الثقافة
١٧٤ - ١٦٦	١ - الحركة العلمية
١٦٦	(أ) فاتحون مجاهدون معلمون
١٦٨	(ب) النشأة العلمية
	(ج) دور العلم: الكتائب - المساجد - جامعة عقبة والزيتونة -
١٧٠	بيت الحكمة - الزوايا - المدارس
١٧٣	(د) المكتبات
١٧٥	٢ - علوم الأوائل
١٨٠	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد
١٨٨	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
١٩٩	٥ - التاريخ
٢٥٠ - ٢٠٢	الفصل الرابع: نشاط الشعر والشعراء
٢٠٢	١ - تعرب القطر التونسي
٢٠٨	٢ - كثرة الشعراء
٢١٦	٣ - أغراض الشعر والشعراء
٢٣٦ - ٢١٧	شعراء المديح
٢٢٥	علي بن محمد الإيادي
٢٢٦	الكاتب الرقيق إبراهيم بن القاسم القيرواني
٢٢٧	ابن رشيق
٢٢٨	التراب السوسي
٢٣٠	ابن عُرَيْبَةَ
٢٣١	عبد الله التجاني
٢٣٣	علي الغراب الصفاقسي
٢٣٥	محمد المورَغِي

الصفحة

٢٤٤ - ٢٣٧ شعراء الفخر والهجاء	٤ - شعراء الفخر والهجاء
٢٤٦ تميم بن المعز الصنهاجي	تميم بن المعز الصنهاجي
٢٤٣ محمد الرشيد الحسيني	محمد الرشيد الحسيني
٢٥٠ - ٢٤٤ شعراء الغزل	٥ - شعراء الغزل
٢٤٧ علي الحضري	علي الحضري
٢٤٨ أحمد اللباني	أحمد اللباني
٢٤٩ محمد ماضور	محمد ماضور
٣٠١ - ٢٥١ الفصل الخامس: طوائف من الشعراء	الفصل الخامس: طوائف من الشعراء
٢٦٢ - ٢٥١ شعراء الغربة والشكوى والعتاب	١ - شعراء الغربة والشكوى والعتاب
٢٥٨ ابن عبدون	ابن عبدون
٢٦٠ محمد بن أبي الحسين	محمد بن أبي الحسين
٢٧٣ - ٢٦٢ شعراء الطبيعة	٢ - شعراء الطبيعة
٢٦٩ عبد الواحد بن فتوح الزّواقي	عبد الواحد بن فتوح الزّواقي
٢٧١ ابن أبي حديدة	ابن أبي حديدة
٢٧٢ أبو علي بن إبراهيم	أبو علي بن إبراهيم
٢٨٧ - ٢٧٤ شعراء الرثاء	٣ - شعراء الرثاء
٢٧٤ (أ) رثاء الأفراد	(أ) رثاء الأفراد
٢٨٠ (ب) رثاء المدن والدول	(ب) رثاء المدن والدول
٢٨٢ ابن شرف القبرواني	ابن شرف القبرواني
٢٨٥ محمد بن عبد السلام	محمد بن عبد السلام
٢٨٧ شعراء الوعظ والتصوف	٤ - شعراء الوعظ والتصوف
٢٩١ - ٢٨٧ (أ) شعراء الوعظ	(أ) شعراء الوعظ
٢٩٠ أحمد الصواف	أحمد الصواف
٢٩٧ - ٢٩١ (ب) شعراء التصوف	(ب) شعراء التصوف
٢٩٣ محمرز بن خلف	محمرز بن خلف
٢٩٥ أبو الفضل بن النحوي	أبو الفضل بن النحوي
٣٠١ - ٢٩٧ شعراء المدائح النبوية	٥ - شعراء المدائح النبوية
٢٩٨ عبد الله الشّراطيبي	عبد الله الشّراطيبي
٣٠٠ ابن السماط المهدوي	ابن السماط المهدوي
٣٢٧ - ٣٠٢ الفصل السادس: النثر وكتابه	الفصل السادس: النثر وكتابه
٣٠٢ ١ - الخطب والوصايا	١ - الخطب والوصايا
٣٠٥ ٢ - الرسائل الديوانية	٢ - الرسائل الديوانية

الصفحة

٣٠٩	٣ - الرسائل الشخصية
٣١٤	٤ - المقامات
٣١٦	٥ - كيار الكتاب
٣١٦	أبو اليسر الشيباني
٣١٩	إبراهيم الحصرى
٣٢١	ابن خلدون
٤٢١ - ٣٢٩	القسم الثالث - صقلية
٣٤٨ - ٣٣١	الفصل الأول: الجغرافية والتاريخ
٣٣١	١ - الجغرافية
٣٣٢	٢ - التاريخ القديم
٣٣٤	٣ - الفتح العربى وعهد الدولة الأغلبية
٣٣٤	(أ) الفتح العربى
٣٣٩	٤ - العهد العبيدى - عهد بنى أبى الحسين الكلبيين
٣٤٣	٥ - التاريخ النورمانى - أحوال المسلمين
٣٤٣	(أ) التاريخ النورمانى
٣٤٦	(ب) أحوال المسلمين
٣٦٩ - ٣٤٩	الفصل الثانى: المجتمع الصقلى والثقافة
٣٤٩	١ - المجتمع الصقلى فى العهد العربى
٣٥٤	٢ - المجتمع الصقلى فى العهد النورمانى
٣٥٨	٣ - الثقافة فى العهد العربى
٣٦٥	٤ - الثقافة فى العهد النورمانى
٣٨٩ - ٣٧٠	الفصل الثالث: نشاط الشعر والشعراء
٣٧٠	١ - نشاط الشعر
٣٧٢	٢ - شعراء المديح
٣٧٨	٣ - شعراء الغزل
٣٨٣	٤ - شعراء الفخر
٣٨٤	أبو الحسن الطوبى
٣٨٥	٥ - شعراء الوصف
٣٨٧	أبو عبد الله بن الطوبى
٤٠٨ - ٣٩٠	الفصل الرابع: طوائف من الشعراء
٣٩٠	١ - شعراء الرثاء
٣٩٢	محمد بن عيسى

الصفحة	
٣٩٤	٢ - شعراء الزهد والوعظ
٣٩٧	ابن مكي
٣٩٨	٣ - شعراء التفعج والحنين والملوعة
٤٠٠	ابن حمديس
٤٢١ - ٤٠٩	الفصل الخامس: النثر وكتابه
٤٠٩	نشاط النثر
٤١٢	ابن الصبأغ الصقلي
٤١٦	ابن ظفر الصقلي
٤١٧	أبناء نجباء الأبناء
٤١٩	(١) سلوان المطاع في عدوان الأتباع
٤٢٨ - ٤٢٢	(ب) ملحق: ابن قلاقس الإسكندري في صقلية لعهد غليوم الثاني
٤٣٧ - ٤٢٩	خاتمة

طبع بمطابع دار المعارف
